كتاب ألف باء

في أنواع الآداب وفنون المحاضرات واللغة

تأليف

أبي الحجاج يوسف بن محمد البلوي المالقي
المعروف بابن الشيخ
المتوفى ٦٠٤ هجرية

اعتنى به وضبطه وصححه
خالد عبد الغني محفوظ

المجلد الأول

DKI
دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

كِتَابُ
أَلِفُ بَاءٍ

في أنواع الآداب وفنون المحاضرات واللغة

تأليف

أبي الحجاج يوسف بن محمد البلوي المالقي
المعروف بابن الشيخ
المتوفى ٦٠٤ هـ سنة

اعتنى به وضبطه وصححه
خالد عبد الغني محفوظ

الجزء الأول

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
DKI
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Title	: **KITĀB ALIF BĀ᾿**	**كتاب ألف باء**	**الكتاب** :
Classification:	Literature	أدب	**التصنيف** :
Author	: Abu al-Ḥajjāj al-Balawi	أبو الحجاج البلوي	**المؤلف** :
Editor	: Ḫālid ʿAbdul-Ġani Maḥfūẓ	خالد عبد الغني محفوظ	**المحقق** :
Publisher	: Dar al-kotob Al-Ilmiyah	دار الكتب العلميـــــة ـ بيروت	**الناشر** :
Pages	: 1248 (2 volumes)	1248 (جزءان)	**عدد الصفحات**:
Year	: 2009	2009	**سنة الطباعة** :
Printed in	: Lebanon	لبنان	**بلد الطباعة** :
Edition	: 1st	الأولى	**الطبعة** :

DKi
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠

ISBN 978-2-7451-5246-6
ISBN 2-7451-5246-7
9 782745 152466 90000

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف المؤلف

هو يوسف بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن غالب، أبو الحجاج البلوي المالقي الأندلسي المالكي، ويقال له: ابن الشيخ، ولد في مالقة (٥٢٦هـ/١١٣٣م) وقيل ٥٢٩هـ وتوفي فيها (٦٠٤هـ-١٢٠٧م).

عالم باللغة والأدب، تولى الخطابة بمالقة، وتصدر للتدريس. كان ربانياً متألهاً قانتاً لله، يعدّ في الأبدال وفحول الرجال، وكان أحد الزهاد المشهورين، موفور الحظ من العلم. ويقال: إنه بنى في بلده مالقة خمسة وعشرين مسجداً من صميم ماله، وعمل فيها بيده، وكان كثير الغزو، فقد غزا عدة غزوات مع المنصور في المغرب، ومع صلاح الدين في الشام.

شارك في عدد كبير من فنون المعرفة، مثل الفقه والأصول واللغة والأدب والنحو والهندسة والحساب وكان شاعراً مكثراً، واتسم شعره بكثرة التكلف والتصنع.

كان البلوي مزواجاً، ومع ذلك لم يكن له أولاد من نسائه، ولم يكن سعيداً معهن، وتزوج أخيراً فتاة صغيرة سوداء ورزق منها على كبر غلاماً سماه عبد الرحيم، ولأجله ألف هذا الكتاب (ألف باء).

رحلاته:

زار البلوي الإسكندرية سنة (٥٦١هـ/١١٦٦م)، وفيها سمع من المحدث أبي طاهر السلفي المتوفى ٥٧٦هـ، ثم تولى الخطابة فيها، ومنها انطلق لأداء فريضة الحج، ثم عاد إلى الإسكندرية وبقي فيها مدة ليعود بعدها إلى مسقط رأسه مالقة، وليواصل عمله في التدريس.

شيوخه:

١- أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الحميري المعرف بابن قرقول (ت ٥٦٩هـ).

٢- أبو الطاهر السلفي، أحمد بن محمد (ت ٥٧٦هـ).

٣- ابن الخراط، عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي الإشبيلي (ت ٥٨١هـ).

٤- عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي (ت ٥٨١هـ).
٥- الشريف أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن يحيى العثماني (ت ٦١٥هـ).
٦- أبو عبد الله بن سورة.
٧- أبو محمد عبد الوهاب بن علي القيسي.
٨- أبو عبد الله بن الفخار.

تلامذته:

١- أبو الحسن بن قطرال. ٢- ابن حوط الله. ٣- أبو الربيع بن سالم.

مؤلفاته:

١- ألف باء.

٢- تكميل الأبيات وتتميم الحكايات مما اختصر للألباء في كتاب ألف باء: وهو كتاب توسع فيه بما أوجز في كتابه ألف باء من أخبار وأشعار، وهو كتاب مفقود.

٣- المداخل الصناعية المنطق: وقف على طبعه ميكائيل بلاجيوس السرقسطي، مدريد، معهد الدراسات التاريخية ١٩١٦.

ويمكن استخلاص ديوان شعر ضخم من كتابه ألف باء الذي يعج بكثير من شعره.

وجد على ظهر نسخة مَعْزُوًّا للأديب الشيخ عبد الله الأدكاوي هذا النظم:

هذا كتاب ألف با	به أهبت فلبّى
كم همت فيما حواه	وغلّ منّي لبّا
وطالما كان دهراً	بأى عليّ وقد با
والآن من فضل ربّي	في ساحتي قد ألبا
لكنني لست ممن	يعدّ بين الألبا
الباع مني قصير	إن رمت نظماً تأبى
أو رمت نثراً بعيداً	غدا على الطبع صعبا
لكنني باقتنائي	لذا الكتاب ألف با
أفيد طبعي منه	والروح أكلاً وشربا
حتى يصير ذكائي	لداء فكري طبا
ويفتدي طب طبعي	لمن له قد أحبا
وأنثر الدرّ جهراً	على أكف الأحبا
من فِيّ إن شئت نظماً	يسير شرقاً وغربا

وإن أشاء فنثراً ... بزيل إن قيل كربا

والحمد لله حمداً ... يفوق في العدّ تربا

ثم الصلاة على من ... دنا من الله قربا

والآل والصحب طرّاً ... ومن لهم قد أحبا

ما أنشأ الله سحباً ... وأنبت الله حبا

آمين آمين ربي ... إني رضيتك ربا

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الفقيه المحدّث الزّاهد الحاج أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوي عرف بابن الشيخ رضي الله عنه:

إن أفصح كلام سمع وأعجز وأوضح نظام جمع وأوجز، حمد الله تعالى نفسه قبل أن يخلق جنّه وإنسه، وأغنى عن لفظ التحميد ما افتتح به كتابه الحكيم الحميد، الذي يجمع إلى الحمد الثناء والتمجيد، إذ يقول المولى الجليل الكبير؛ إذا قاله العبد الذليل الحقير: حمدني عبدي، أثنى عليّ عبدي، مجّدني عبدي، فأبدأ به ألتمس خيره ولا أبغي به بدلاً غيره.

فأقول: الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، بهذه الكلمات كما تقدّم افتتح الله كتابه، وبها أيضاً افتتح رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم في الاستسقاء خطابه، فجاءه من الغيث ببركة هذا المقول ما سالت منه في الحين السيول، وهذا الخبر سقته هنا مجملاً، وستراه بحول الله ونعمته داخل الكتاب مفصلاً مكملاً.

فالحمد لله الجليل مولانا على جزيل ما أولانا، من نعم حلّت فكثرت أن تُعَدّ وجلّت فكبرت أن تُحَدّ، وعظمت أن يحصرها إنسان أو يذكرها لسان.

والصلاة على سيد العرب والعجم المنتخب من جميع الأمم، المبعوث بجوامع الكلم وبدائع الحكم، محمد الرحيم بأمته الرؤوف المتحنّن عليهم العطوف، ذي الخلق العظيم والشرف الصميم، والحسب الصريح والنسب الصحيح، عفا عمّن هفا وحلم عمّن جفا، وصفح ونصح، وشفق ورفق، وعلم فعلّم، صلى الله عليه وعلى آله وسلم صلاة لا يعتريها فصم ولا قطع، ما طلع نجم ونجم طلع، ورضي الله عن أصحابه أجمعين، وألحق بهم التابعين، وعمّ جميع المسلمين برحمة شاملة ونعمة كاملة إنه شكور كريم غفور رحيم.

أما بعد: دام لنا ولكم السعد، فإني عزمت بعد استخارة ذي الطّول ومن بيده القوّة والحول، ورغبتي إليه في السّداد في العمل والقول، على أن أجمع في هذه الأوراق كل معنى رق أو راق، مما هو عندي مستحسن لا مستخشن، ومستملح لا مستقبح، وأثبت فيه من الفوائد ما يزري بالفرائد، ومن بدائع العلوم والفهوم ما يرتقى به من التّخوم إلى النجوم، وجعلت ما أؤلّف فيه وأبني لعبد الرحيم ابني، ليقرأه بعد موتي

وينظر إليّ بعد فوتي، إذ لم يلحق بعد لصغره درجة النبلاء ولم يبلغ مرتبة العقلاء، أرجو أن يجعله الله منهم ولا يقطع به عنهم، فيكون إن شاء الله تعالى بقراءة هذا الكتاب في الزيادة، إلى أن يلحق بالسادة.

إن الهلال إذا رأيت نموّه ... أيقنت أن سيصير بدراً كاملا

وسميت ما جمعت لهذا الطفل المربا: كتاب ألف با، وقلت فيه:

هذا كتاب ألف با ... صنعته يا ألبّا
من أجل نجلي المرجى ... إذا شدا أن يلبا
أدعو لعلم ومن حق ... من دعي أن يلبا
وأنت عبد الرحيم الطفل ... الصغير المربا
إذا عقلت فقل قد ... رضيت بالله ربا
ودين الإسلام ديناً ... وبالنبي المنبا
محمد قل رسولاً ... وقل نبيًا محبًا
ثم استقم واتبعه ... تزدد من الله قربا
وذا الكتاب اتخذه ... لداء جهلك طبا
فإنه صنع امرئ ... طب لمن حب طبا
هذي وصاة أب لم ... يزل لشخصك صبًا
ولو يطيق عليك الـ ... ـخيرات أجمع صبا

كان هذا السبب في هذا المجموع، وليس بحمد الله عن أحد بممنوع، بل هو مباح لمن طلبه من الطلبة، ومتاح لمن أراده من الرادة، فأقول مستعيناً بالله، ومتوكلاً عليه، متبرياً من الحول والقوة إلا إليه: أول ما أبدؤكم به من العلم وأفيدكم به يا أحبائي ذوي الفهم أني قلت:

مطلب

أما بعد، وهذه اللفظة من فصيح الكلام، وأول من قالها داود عليه السلام، وكذا قال أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص: ٢٠]: إنها أما بعد، وإنه أوّل من قالها، ويقال: إن أوّل من كتبها من العرب قسّ بن ساعدة الإيادي.

وقلت: دام لنا ولكم السعد، بدأت بنفسي، وثنيت بأهل ودّي وأنسي، وتلك السنة، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكر أحداً من الأنبياء عليهم السلام بدأ بنفسه فقال: رحمة الله علينا وعلى أخي كذا، هذا نص مسلم بن الحجاج رحمه الله. ذكره ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم في قصة موسى مع

الخضر عليهما السلام، وفيه: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: رحمة الله علينا وعلى موسى، لولا أنه عجل لرأى العجب.

حدّثني بالكتاب أجمع بمالقة حرسها الله تعالى الفقيه المحدّث أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن خلف الأنصاري، عرف بابن الفخار رحمه الله قراءة منّي عليه عن ابن العربي عن الطبري عن عبد الغافر عن الجلودي عن ابن سفيان عن مسلم رحمهم الله أجمعين. وهذه أيضاً فائدة في السند أيها الولد، وكذا أصنع إن شاء الله بكل شيخ لقيته أذكر سنده وبلده.

وفائدة أخرى في لفظة سعد، بعد قولي أمّا بعد، سقتها على وزنها مع الفضل المستودع في ضمنها، رأيت لبعض الأدباء من النحاة، رحمنا الله وإياه، ما كتبته هنا بنصّه، وجئت به من فصّه وذلك أنه قال: إن الله تعالى أودع هذا اللسان العربي أسراراً جليلة وحِكَماً شريفة، علمها من علمها وجهلها كثير. وذلك أنه فضّل بعض الكلام على بعض في أصل الوضع، كما فضّل بعض المتكلمين على بعض، فالمطبوع في علم اللسان يجد للفظة ((سعد)) في نفسه معنى هو أوقع في القلب وأشرح من لفظة ((يمن)) ومن لفظة ((إقبال)) وكل بمعنى واحد. وكذلك قولك: الإنصاف أمكن من العدل. والمدح أفخم وأكرم من لفظة الثناء، وذكر في هذا المعنى فصلاً جزلاً اختصرته.

فائدة زائدة:

سعادة هي مصدر سعد، بفتح السين، واسم الفاعل منه: سعيد. كما تقول: سلم فهو سليم. ومسعود: اسم مفعول، من سعد، بضم السين، مثل حمد فهو محمود. وتقول: أسعده الله، فهو مسعود، ولا تقول: مسعد، وكان القياس، ولكن استغنوا عنه بمسعود. وقراءة الكسائي: ((وأما الذين سعدوا)) فتوجّه على ما روي عن العرب: سعده الله، فيكون مثل: حزنه الله وأحزنه. وأنت أيها الطالب المدرك، حصّل هذه الفوائد في صدرك، ثم اطلب غيرها، أعطانا الله خيرها وكفانا ضيرها.

رجع الكلام يا غلام، سبب تسميتي هذا الكتاب بهذه التسمية، وجمعي لهذه الأبنية، أني دعيت يوماً من الأيام لمشهد جماعة من الأعلام، وقيل لي: قد اجتمعوا لكتب الحديث، فعجل إليهم بالسير الحثيث، واحمل معك جميع الأداة من اللوح والقلم والدواة، وكنت قمت من المنام فخفت الملام، فخرجت أستعجل استعجالاً واقتضبت في الطريق هذين البيتين ارتجالاً وقلت لأنشدنهما اليوم ولأطرفنّ بهما القوم، ولأصرفنّ عنّي اللوم في إبطائي لأجل النوم وهما:

يا أيها السادة الألبا ... دعوتمو يوسفا فلبا
وجاءكم في يديه لوح ... كأنه الطفل في ألف با

وكنت في الطريق أجمجع ونفسي أشجع. شعر:

وظننت القويّ يبقى على ما ... كان من قبل أن يلقى الرجالا
فإذا القلب في الحقيقة قلب ... حار عمّا عهدت منه وحالا
الذي قال قبل إني وإني ... من صفات الشجاع كان محالا
فتذكرت قولة المتنبي ... حين قلبي عن البسالة زالا
وإذا ما خلا الجبان بأرض ... طلب الطعن وحده والنّزالا

فما هو إلا أن وصلت إلى المجلس، فما كدت بحرف أنبس، إلا أني تعدت وسكنت وما أدري أسلمت أم سكتّ، فلما انفضّ ذلك الجمع وثاب إليّ البصر والسمع، رجعت إلى نفسي أخاطبها وبما قالته أطالبها، وقلت لها أراك احتقرت هذين الحرفين، أعني الألف والباء المؤتلفين، أرأيت إن سألك عنهما سائل، ما أنت له قائل، قلت مجيباً عنها: أقول فيهما مبلغ علمي ومنتهى فهمي، قالت: فأَلِف واجمع وقل حتّى أسمع، فقلت: أفعل إن شاء الله وبه أستعين، وهو المعين، وأزيدك على مطلوبك، وأفيدك فوق مرغوبك، إني أكرّر الألف مع الباء وما شاكلها مراراً شتّى، ثمّ أشفعها بالوزن حتّى تكون بيتاً، بعد أن أضمّ إليها كلمتين متشاكلتين باسم القافية، دامت لنا ولكم العافية، ويكون الشكل في الكل واحداً، والمعنى على خلاف فافهم، ثم أفعل ذلك بالألف مع سائر حروف المعجم، ليكبر الكتاب ويكثر الكلام، وتعظم الفائدة، وتعمّ المنفعة، إلا أنه لم يصحّ لي ذلك إلا بضمّ الأشكال المؤتلفة في حروف المعجم، على تأليف بلادنا بعضها إلى بعض، مثل الباء والتاء والثاء في بيت، والجيم والحاء والخاء في آخر، والدال والذال وغير ذلك. وبالحري باجتماعها فيكمل منها كلها بيت وبيت، وربما يضيق بعض الأبيات عن جملتها فأذكرها خارجاً عن البيت، وربما لم يكمل إلا بمعكوس اللفظة فأكمله بها، ثم أفسر اللفظة بما أدريه، وما وجدته في كتب اللغة وما ذكره العلماء، وأستشهد على ذلك بما أحفظه من الشعر وبما قالته العرب، وربما ذكرت ما قاله غيرهم من المولدين المشهورين، وربما ذكرت شعر من لقيته من أشياخي وإن لم يكن في ذلك حجة ففيه أنس مع الثقة بمعرفتهم، وفضل التقدم علينا في كل أمرهم، مع أني رأيت الفقيه القاضي أبا الفضل عياض بن موسى رحمه الله قد ساق في أحد تآليفه شعراً للوزير أبي عبد الله محمد بن شرف رحمه الله، وكان متأخراً، قرأت عليه في أحد تآليفه جزءاً أرّخه بثمان عشرة وأربعمائة، فاستشهد أبو الفضل

بذلك الشعر في ضرب من البلاغة ذكره. وسيأتي ذلك الشعر في هذا الكتاب إن شاء الله، لأنه أعجبني فحفظته، وبعد حفظه فيه أثبته. ولي أيضاً في مثل ذلك الإنشاد، على غرضي استشهاد، بيني وبين أبي الفضل هذا في الإسناد، شيخي الأجلّ الرفيع العماد، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الحميري عرف بابن قرقول رحمه الله. لقيته وسمعت عليه وأجازني بجميع ما لديه.

رجع الكلام بعد فائدة، على ما تقدّم زائدة. وربما ذكرت من شعري ما يليق بالباب، وإن لم يعدّ في اللباب، لكن للمرء بشعره شغف، وإن لم يكن ذا شرف، كما يعجب بابنه وهو الجون، ومن غير اللون، ألم تسمع قول بعضهم: والمرء يعجب بابنه وبشعره، نعم ويطيب له غناؤه، وإن طال فيه عناؤه، ويولع بتصنيفه، ويأبى من تعنيفه، إياك أعني يا مؤلف الكتاب، تاب الله على جميعنا أحسن متاب.

ولي في هذا المعنى مما كتبت به إلى الفقيه الخطيب، أبي محمد عبد الوهاب بن علي رضي الله عنه أعرض عليه شعراً قلته بعد كلام، ولا غرو كل امرئ مادح لهرّه ومعجب بشعره.

وأنا الذي أقول:

كل امرئ يعجبه شعره حتى يراه ناقد غيره

في أبيات ذكرتها بكمالها في كتاب سميته: تكميل الأبيات وتتميم الحكايات مما اختصر للألبا، في كتاب ألف با، وقد ذكرت سببه في أوّله فانظره هناك إن أردته، وبالله التوفيق. وما أحسن ما به اعتذر صاحب كتاب الزهر حيث قال:

ويسيء بالإحسان ظنًّا لا كمن هو بابنه وبشعره مفتون

لكن يا بني إن العاقل رحل عن هذه المعاقل ونزل بها الجاهل فعادت كالمجاهل، فقلت:

أحسن الله لي عزائي بنفسي إن يكن يحسن العزاء لمذنب

تدري من العاقل في هذا المعنى؟ ابن المقفع، الذي ارتدى بعقله وتلفّع، ومع هذا فعن الشعر ترفّع، وكان من البلاغة في قلمه ولسانه، حيث لا يبلغه أحد من أهل زمانه، قيل له: ما لك لا تقول الشعر؟ قال: الذي أرضاه لا يجيء، والذي يجيء لا أرضاه. وقيل للمفضل: لم لا تقول الشعر وأنت أعلم الناس به؟ قال: علمي به يمنعني من قوله، وأنشد:

أبى الشعر إلاّ أن يفيء رديه علي ويأبى منه ما كان محكما
فيا ليتني إذ لم أجد حوك وشيه ولم أكُ من فرسانه كنت مفحما

وقال غيره:

يموت رديء الشعر من قبل ربه ... وجيده يبقى وإن مات قائله

وقبله:

نعوني ولمّا ينعني غير شامت ... وغير عدوّ قد أصيبت مقاتله
يقولون إن ذاق الردى مات شعره ... وهيهات عمر الشعر طالت طوائله
سأقضي ببيت يحمد الناس أمره ... ويكثر من أهل الرواية
يموت رديء الشعر.......... ... حامله.......... البيت..

وقال الأشجعي:

وإنّما الشعر لبّ المرء يعرضه وإنّ ... على المجالس إن كيسا وإن حمقا
أفضل بيت أنت قائله ... بيت يقال إذا أنشدته صدقا

وقال إبراهيم بن المهدي:

أحسن من تسعين بيتاً سدى ... جمعك معناهنّ في بيت

وقالوا:

رب متكلم فيما لا يعني ... قال له الكلام دعني

وقال الشاعر:

وإن كلام المرء في غير كنهه ... لكالنّبل تهوي ليس فيها نصالها

والكلام في هذا المعنى طويل، ولكن حسبنا الله ونعم الوكيل، اللهم إلا أن يكون كما قال الشاعر اللبيب:

كأن كلام الناس جمع عنده ... فأطلق في إحسانهم يتخيّر

أو يكون حكيم القول، كما قال عليه الصلاة والسلام: إن من الشعر لحكماً. ويروى لحكمة. فهذا الذي يسير العنق طويل العنق. رجع القول إلى صفة الأبيات، التي ذكرها بعد لم يأت. مثال ما ذكرته لك (أب) في بابه (وأخ) و(أد)، وكذلك فكذلك إلى آخر حروف المعجم.

فلما لم يتزن لي ذلك احتلت عليه وتركت هذا المعنى وقلت: أب الذي هو المرعى، وأخ وأد، وجئت بواو العطف في اللفظة حتى تدخل في الوزن ويصح دخولها في العروض التي بنيت عليها، وهي المتقارب الذي يجتمع من فعولن ثمانياً. وسقت مع أب وأت وأث مما يكون على وزن فعل أو فعِل أو فاع. فإن هذا كله في الوزن مع فعولن سواء، وكذلك أفعل في سائر الحروف. وأذكر خارج البيت مع هو على هذا

الشكل مما لم يتزن أو ما يتزن واستغنى عنه البيت على ما تراه إن شاء الله تعالى بعد هذا. فإذا فرغت من البيت سقت معكوسه مثل: وبا وتا وثا. ثم أفسره كذلك. ثم أقول: مقلوبه ألف بين حرفين، مثل وباب وتاب وثاب، ثم أفسّر كل لفظة منها، ثم أقول: مقلوبه أيضاً حرف بين ألفين مثل وأبا وأتا وأثا. ثم أرجع إلى القافية فأفعل فيها مثل ذلك، وربما كانت الواو من نفس الكلمة إذا لم أجد غيرها، فأسوقها وأنبّه عليها، مثل: ((وكلّ)) الذي هو الرجل الضعيف العاجز، سقته مع ((وكلّ)) اللفظة التي هي ضدّ ((بعض)). وكذلك: وشل الماء الجاري من الجبل، مع وشل بعض أنامله، وغير ذلك مما أقيم عليه شكل البيت ووزنه. وربما جلبت فائدة ثانية وعكساً آخر يفيد علماً زائداً، ثم أذكر مخارج الحروف وعملها إن كانت عاملة مع ما تشترك في قافية واحدة ليقرب المخرج وما يجعل عوض صاحبه في النطق. ثم أذكر آخر البيت فصلاً من الكلام المطوّل يكون عليه المعوّل. وسيأتي تفسير هذا الفصل إن شاء الله تعالى فيما يستقبل فأقبل، وقد اجتمع لي من ذلك تسعة وعشرون بيتاً عدد حروف المعجم، لكن منها ما تكرّر معكوساً ومقلوباً، ومنها ما لم يكمل البيت إلا بمعكوسه لقلة دوره في الكلام. وزدت في أوّل الشعر ثمانية أبيات، وفي آخره أربعة من الكلمات المزدوجات المتشابهات الحروف المتماثلات الصنوف، مثل الذي صنع ابن شرف في قوله: غرّك عزّك فصار قصار ذلك ذلك فاخش فاحش فعلك فعلك تهدى بهذا. وله أيضاً مثل هذا، وهو: (نعمه يعمه نعمه نعمه نعمه نعمه). نعمه: اسم رجل، ويعمه: يتحيّر، من قوله تعالى: ﴿ فِي طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة: ١٥]. وباقي الكلمات مفهوم، إلى غير ذلك مما يشكل حتى ينقط ويشكّل. ومثل ما للحريري في مقاماته:

زينت زينب بقدّ يقدّ ... وتلاه ويلاه نهد يهدّ

في أبيات له.

وهذه الأبيات المذكورة قبل الشعر وبعده أخذتها من شعر لي مطوّل من هذا النوع عدده ثمانية وعشرون بيتاً جمعته في جزء مع ما لابن شرف في ذلك من منثور مع أبيات لي أخر عددها أحد وأربعون بيتاً. قصدت بها نوعاً من المعمى واللغز. منها أبيات ثمانية لا تقرأ البتة إلا أن تشكّل وتفسّر مثل:

نصيح تصيخ بصيح نضيخ ... بصبح تصبح بضيح نضيج

وسأفسّر لك هذا البيت مع الأبيات الاثني عشر قبل الشعر وبعده في آخر الكتاب إن شاء الله تعالى، وقد أوردت الكراسة المذكورة في كتاب التكميل المذكور.

فصل :

وهذا الكلام الذي سقته منثوراً وفي صفة الأبيات مذكوراً، قد نظمته في أرجوزة لزومية ذات قافية لامية، واعتنيت به هذا الاعتناء على ما فيه من العناء، لأنه الأصل في الباب وعليه مدار الكتاب، منه نبعت عيونه وتفرّعت فنونه، وها هي ذه فعه حلبتها فنه تزيد على المائة:

قال ابن شيخ يملي ... على الذي يستملي
هذا الكتاب أصلي ... أعددته لأصلي
به عظيم الجهل ... حتى يرى يا أهلي
بالقرب لا بالمهل ... يذوب ذوب المهل
صنعته من أجل ... عبد الرحيم نجلي
وذاكمو لعلّي ... أسقيه من ذا العلّ
إذ قد روي من نهل ... فهو أعزّ الأهل
باسم الحكيم العدل ... سبحانه من عدل
ما إن له من عدل ... رب بعلم عد لي
قربه لا تبعد لي ... أملا منه عدلي
أفرغه فأملي ... منه على المستملي
فصلاً وأيّ فصل ... في وصف شعر الأصل
فهو قصيد يسلي ... قارئه في رسل
يدرّ درّ الرسل ... ليس بقول فسل
ولا حرام بسل ... بل من بليّ نسلي
لكل همّ مسلي ... ضمن وزن فعل
أو فعل أو فعل ... واحتيل في المعتل
منه وفي المختل ... حتى إذا ما حلي
وزن فعول خلي ... وبعد هذا الفعل
زوّجته كالنعل ... لأختها في الشكل
لكنه بالشكل ... يدري سم من فعل
وثعل من بعل ... وفعل من فعلي
وجعل من جعل ... وحمل من حملي
وجمل من جمل ... وحبل من حبل

وخبل من خبل … ورمل من رمل
وذا كثير المثل … يعجز عنه مثلي
فمثل هذي السبل … تخفى على ذي النبل
ألا بضبط الرجل … بالقيد أو بالحجل
فارضع لبان الشعل … واعلم بأنّ فعلي
لم أره يا شبلي … لأحد من قبلي
جئت به في حفل … مسبباً للنفل
فانهد به للمختل … ولا تخف من قتل
فهو كمثل النصل … أبرزته للفصل
والفصل ضدّ الوصل … تعلو به وتعلي
لأنه مستعلي … مستغلق لجمل
عليه أيّ قفل … فصار شبه الغفل
واللغز حين يغلي … قلوبنا بالشغل
حتى إذا ما جلي … عنه بكشف الجل
صقل أي صقل … وخف بعد الثقل
واعلم أيا ذا العقل … أن ليس ذا من نقلي
للغرّ بل للكهل … من لم يكن ذا جهل
جمعته في مهل … من جبل وسهل
فاختلطت بالهزل … ألفاظه والجزل
وهاكه يا خلي … كعسل أو خل
فخذه أو فخل … فرغت من سجل
نفسي دعا الأجل … بصوتي المهلّ
ودمعي المنهل … يا رب ألّف شملي
يا رب خفف حملي … واغفر لعبد قل
بالذنب مستقل … يا سيدي وقل لي
رضيت بالأقل … منك فسر في حل
لأشرف المحل … جنة عدن نزلي
لا تخشين عذلي … مؤملاً لوصلي
مؤمناً من فصلي … لك متاح فضلي

لـــــك مـــــباح بذلـــــي / وبعـــــد ذا أصـــــلي
علـــى الكـــريم الأصـــل / أحمـــد خيـــر الرســـل
وآلـــــه والنـــــسل / والحمـــد وهـــو الكلـــي
لله مـــولى الـــكل

فائدة في القوافي دامت لنا ولكم العوافي:

ذكر ابن جني رحمه الله في عيوب الشعر الإيطاء، وهو أن يجمع في شعر واحد بين كلمتين بلفظ واحد، ومثل منه أمثلة. ثم قال: فإن اختلف المعنيان لم يكن إيطاء. وكذلك إن كانت إحدى الكلمتين معرفة والأخرى نكرة لم يكن إيطاء. وهذا الرجز الذي تقدّم على طوله وصعوبته، لما فيه من اللزوم ومؤونته، قد سلم من الإيطاء بحمد الله وحسن معونته.

وأما قولي: فضلي وبذلي، فقد تجمع الذال والضاد في شعر واحد، وستراه في آخر الكتاب إن شاء الله تعالى. وخذ هداك الله فائدة، على ما تقدّم زائدة، في معنى اللغز، هو من قولهم: ألغز اليربوع في جحره يمنة ويسرة، وهو حفر يحفره عن يمين وشمال فيستخفي فيه، فيقال له: اللغز واللغز، وجمعه ألغاز. واللغيزى، بتشديد الغين مثل اللغز، وليست الياء هنا للتصغير، لأن ياء التصغير لا تكون رابعة. وسيأتي ذكر الشكل والشكل إن شاء الله تعالى. وهذه أعزّك الله الأبيات المذكورة بين يديك مسطورة:

أخـــيّ أجـــيء بقـــيل ثقـــيل / مهـــيب مهـــيب يطـــلّ بطـــل
كـــلامٌ كـــلامٍ ويـــاء وثـــا / بخـــدر يحـــذر مـــدل مـــدل
ينبـــي بنيـــي بأنّـــي بانـــي / خـــلال جـــلال تحـــل بجـــل
يفـــيد بقـــند بعـــود يعـــود / يعـــيد بعـــيد المحـــل المجـــل
يحـــدّ بجـــدّ يقـــدّ بقـــدّ / يوشـــي بوشـــي كخـــل كحـــل
أخـــال أخـــاك بقـــول تقـــول / يعـــيب بغـــيب يخـــل بخـــل
تـــريد يـــزيد كلامـــي كلامـــي / وعـــر وعـــز فقـــل فقـــل
كثيـــر كبيـــر معـــين معـــين / لغـــات لعـــات كقـــل كفـــل
وآب وآب وآبٍ وآب / وأتّ وأتُ وبـــلّ وبـــل
وبـــاء وبـــاء ويـــاء ويـــا / وتـــاء وثـــاء وبـــل وبـــل
وبـــاب ونـــاب ونـــاب وتـــاب / وثـــاب وبـــات ويـــل ويـــل
وأج وأح وأخ وأخ / وأخ واح وجـــل وجـــل

وحاء وحاء وحاء وحا وجـاء وجـا وحـل وجـل

وأحا وأحا وأخا واحا وواخـا إخـاء وجـل وحـل

وحاح وحاح وحاح وحاح وحـاح وحـاح وحـل وحـل

وأدّ وأدّ وآذ واد وأدّ وأذ وذل وذل

وأدًا وادًا وآدا وآذا وادى واذى ودل ودل

وارّ وار وار وار واز واز وزل وزل

وراء وراء وراء ورا وراء وزاي وزل وزل

وزار وزار وراز ورار وزار وراز وزل وزل

واط واط واط وطا وطـاء وظـاء وطـل وظـل

واك واك واك واك وكـل وكـل وكـل وكـل

وال وال وال وال وال وال وال وال

والا والا والا والا والا والا وال وال

وام وام وام وام وام وام ومل ومل

وان وان وان وان وآن وآن ونل وثل

وانـا وانـا وانـا وانـا وانـا وانـا وثـل ونـل

واص واص واص واص واض واض وصل وضل

وأع وأع وأغ وأغ وواع وعا وعاء وعل وغل وغل

واف واف واف وفـا وفاء وقاء وفل وقل

واس واس واس واس واش واش وسل وسل

وسـاء وشـاء وسـاء وسا وشاء وشاء وشل وشل

واه واه واه وهـا وهـاء وهـاء وهـل وهـل

وأو وأو وآو وأو ووأوأ واوأ وول وول

ولاء ولاء ولاء ولا ولا ولأ ولآل لآل

وآي وأي واي واي وآه وآه وأيل أيل

فرغنا فرغبا ترب يرب يمنّ بمنّ يحل بخل

خليل جليل حسيب حسبت أني آتي مصل مضل

كسير كسير بطين بطيء وجاف وحاف يعل بعل

أبيت أتيت أمام إمام وراثي وراثي المدل المذل

بني تركت لك هذه الأبيات ذوات الأشكال، ذات إشكال؛ لكونها برية من

الضبط، عرية عن النقط، وفعلت ذلك لتفتح لها ذهنك، كما فتحت جفنك، وتشحذ قريحتك فتريح ذبيحتك، وتنظر ما أنتجت معرفتك، فإن كسوت الأبيات جلبابها ومنحت أسبابها وفتحت أبوابها فاشكلها ببيانك قبل بنانك، وبفصاحتك قبل راحتك، وأنت حينئذ الولد وزين البلد، ولمثلك يقال أجدت، طلبت فوجدت، بارك الله فيك وفيما تخرجه من فيك، وإن كانت الأخرى ولم تقوَ عليها البتة، وعجزت عنها قريحتك الميتة، فانظرها في آخر الكتاب مخطوطة، مشكولة منقوطة، مفسرة ميسرة، مكسوّة معطرة، وكفّ عن لومي وأمسك وبؤ بالعجز على نفسك، وسل مرشداً وقل منشداً: شعر

رحم الله الحريري لو كا	ن رأى قائل هذا سرّه
ودرى أن قد أتى بعده من	غاص في البحر فوافى درّه

وبعد: فهي كما تراها نوع من المعمّى، والاسم الذي لا يسمّى، وضرب من اللغز وجنس من الرمز، إذ يشكل حتى يشكّل، وإذا شكّل وقرئ لم يفهم، إذ هو مبهم، حتى يفتح مقفله ويشرح مغفله، فإذا فسّر يسّر وإذا شرح فتح، فتلج إن شاء الله الباب ويرفع لك الحجاب، فتدخل المجالس والقباب فتعتنق الكواعب الأتراب، وتعتبق الألوة والكباب وتغتبق اللذيذ من الشراب بالكؤوس والأكواب، وتسمع تلك النغمات من الغانيات، وتلحظ ذلك النبات والزهر الذي هو أشتات، وتنظر الثمر الذي في الغراسات النابتات في أشجار الجنات الثابتات على الأنهار الجاريات، إلى غير ذلك من الأنواع المستحسنات والملاذ الطيبات.

فضيلة العلم:

لعلك تقول: هذا الذي ذكرته من المعاني الفاخرة هي صفة جنات الآخرة فأقول: إن في الدنيا ما هو أشهى وأحلى مما ذكرت وأغلى، هو العلم الذي لا شيء أنفع ولا أرفع منه ولا لأحد غنى عنه، ومن طعم حلاواته وتنعّم بآياته، وسحب ضافي أثوابه وشرب صافي أكوابه، لم يشتغل بسواه ولم يعدل عن سواه، ورآه أنفع شيء ناله في اكتسابه وأرفع ثوب اكتسى به. ألم تسمع ما قاله الشاعر المصيب الذي نال من العلم أوفر نصيب:

لئن رفع الغنيّ لواء مال	لأنت لواء علمك قد رفعتا
وإن جلس الغنيّ على الحشايا	لأنت على الكواكب قد جلستا
ومهما افتضّ أبكار الغواني	فكم بكر من الحكم افتضضتا

ثم قال يجهل من فضّل المال على العلم:

جعلت المال فوق العلم جهلاً لعمرك في القضية ما عدلتا
وبينهما بنصّ الوحي بَوْن ستعلمه إذا طه قرأتا

يريد قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]. وهذا الشاعر هو أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود الألبيري رحمه الله، والقصيد حسن طويل.

كان الأستاذ الفقيه أبو عبد الله بن سورة شيخي رحمه الله يحمل طلبته على حفظه لجودته، ولو اكتفى أحد بما عنده من العلم لاكتفى موسى عليه السلام، ولكنه طلب الزيادة، فقال للخضر عليه السلام: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف: ٦٦]. فلولا أن العلم أفضل الموجودات ما أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام أن يستزيد منه.

يروى أنه لما كلمه الله تكليماً ودرس التوراة حدّثته نفسه أن الله تعالى لم يخلق خلقاً أعلم منه، فهوّن الله إليه نفسه بالخضر عليه السلام.

خرج البخاري عن أُبَيّ بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم أن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل: أيّ الناس أعلم؟ قال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه، قال له: بل عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك، الحديث، دلّه فيه على الخضر عليهما السلام.

قلت: ومن يحيط بالعلم إلا الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم، فإذا ظنّ أنه قد علم فقد جهل.

يروى أن مقاتل بن سليمان قال يوماً وقد دخلته أبهة العلم: سلوني عما تحت العرش إلى أسفل الثرى، فقام إليه رجل، فقال له: ما نسألك عما تحت العرش ولا أسفل الثرى، ولا نسألك إلا عما كان في الأرض، وذكره الله في كتابه، أخبرنا عن كلب أصحاب الكهف ما كان لونه؟ فأفحمه.

وقال عالم آخر كذلك: سلوني من العرش إلى الفرش أخبركم به، فقال له رجل من عرض الدنيا: أسألك عن مِعَا النملة أفي نصفها الأعلى هو أو في نصفها الأسفل؟ فقال: لا أدري، فأفحمه. وقال أحد الحكماء: لست أطلب العلم طمعاً في غايته والوقوف على نهايته، ولكن التماس ما لا يسع جهله.

وقال مالك بن دينار رضي الله عنه: من طلب العلم لنفسه فالقليل منه يكفيه، ومن طلبه للناس فحوائج الناس كثيرة. وقال ابن قتيبة: من أراد أن يكون عالماً فليطلب فناً واحداً من العلم، ومن أراد أن يكون أديباً فليتفنّن في العلوم.

وقال ابن سيرين: العلم أكثر من أن يحاط به، فخذ من كل شيء أحسنه. وقال

الشاعر:

يلومونني إن رحت للعلم طالباً أجمع من عند الرواة فنونه
وأكتب أبكار العلوم وعونها وأحفظ مما أستفيد عيونه

فصل: ومما كتبته في كتاب لبعض الأصحاب

اعلم أيها المتعلّم أنّ العلم إنّما هو بالتعلّم مع توفيق العلاّم ذي الجلال والإكرام، ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ٤-٥]. ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]. فمن شكر الله زاده وجعل التّقوى زاده، ومن اتّقاه علّمه وأراده وفهّمه، ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقال بعض الشعراء وكان قد رجع في حفظه إلى وراء:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأومأ لي إلى ترك المعاصي
وقال بأنّ هذا العلم نور ونور الله لا يؤتاه عاصي

ولكل شيء سبب، وسبب العلم التعلّم، وهو لا يُنال بالتراخي، ولا يُدرك بالهوينا؛ بل بالجدّ والعزم والقوّة والحزم، كما قال تعالى: ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم: ١٢]. وقال الشاعر:

أعكف على الكتب وادرس تؤتى فخار النبوّه
فالله قال ليحيى خذ الكتاب بقوّه

وفي كتاب مسلم بن الحجاج رحمه الله: لا ينال العلم براحة الجسم. وقديماً ما زال أهل العلم والأدب ينسلون إليه من كل حدب، يجتنون أزهاره ويقطفون ثماره، يستكثرون منه بلحظه ويؤثرون ولو لفظه، يدأبون في جمعه وضمّه وينصبون في حفظه وفهمه. حتى أن أحدهم إذا كانت له به صبابة ونال منه أدنى صبابة، جعله أكبر همّه وفداه بأبيه وأمّه، ولم ينكب عن أمّه بل واصل فيه ليله بنهاره حتى وصل إلى أنهاره، وأذاب مهجته حتى اقتحم لُجّته، فاستطاب فيه العذاب لما ورد مياهه العذاب، واستسهل ما ناله فيه من العنا حين أوقفه على المنى، فقال:

فهذا الصّنف في الدّنيا قليل بحقّك لعمرك بل أقلّ من القليل بعصرك
هل رأيت لهذا شبيهاً ذا أبن لي يا خليلي

من يضاهي هذا أو يجاريه وقد علا القمر في مجاريه، فإن أضاف إلى العلم العمل فقد نال الأمل ورحل إلى زحل وسما إلى السما ولحق بالملأ الأعلى وكان

حبيب الله تعالى. وقد قيل: من عمل بما يعلم ورّثه الله علم ما لم يعلم. وقالت الحكماء: قال العلم: التمسني فإن لم تجدني فاعمل بأحسن ما تعلم، فإذا فعلت فأنا معك. وما أمدح هذا البيت:

حاز الشريفين من علم ومن عمل ... وقلّما يتأتّى العلم والعمل

وأقول:

تريد تدرك هذا ... وأنت في اللهو تدرج
هيهات رمت محالاً ... ما ذا بعشّك فاخرج

ولقد أبلغ الذي قال:

دنوت للمجد والساعون قد بلغوا ... جهد النفوس وألقوا دونه الأزرا
وكابدوا الجدّ حتّى ملّ أكثرهم ... وعانق المجد من أوفى ومن صبرا
لا تحسب المجد تمراً أنت آكله ... لن تدرك المجد حتّى تلعق الصبرا

بعيد أن يناله أهل اللهو والبطالة، ما يناله إلا الحازمون أولو العقول. ولله درّ الذي يقول:

شروط العلم أربعة ... فأوّلها التفرّغ له
ودرس ثُمّ فهم ثُمّ ... حملكه عن الحمله
شروط من تكن فيه ... وإلا لم ينل أمله

فالعلم إذا أعطيته كلّك أعطاك بعضه. وقلت في هذا المعنى:

اعلم بأنّ العلم ذو همّة ... وهو عزيز النّفس ذو غيره
ينيلك البعض من أنواره ... إن لم تكن مصطحباً غيره
وإن تكن مشتغلاً مقبلاً ... على سواه لم تنل خيره
فاطرح الأشغال واعكف على ... تحصيل ما يعطى وسر سيره
واحفظه واذكره ولا تنسه ... واعمل به تنجُ من الحيره

وإذا كان العلم بهذه الصفة التي وصفه بها أهل المعرفة، فكيف ينقاد لأهل الرقاد، وهل قط وصل الذي كسل؟ أيستوي من درس وتعب مع من لها ولعب؟ هيهات همّ هذا ضرسه وذاك طرسه، كذلك بينهما ما بين التبر والترب والسمك السماك في القيمة والقرب، وجماع الأمر وملاكه، وفيه يتبيّن حياة المرء وهلاكه، من كان همّه بطنه وفرجه فلا ترجه. لذلك قلت:

إذا أعطيت بطنك ما اشتهاه ... وفرجك سؤله أنت البهيمه
وأخشى أن يقال غداً لك اذهب ... فما لك عندنا والله قيمه

أتطمع أن تنال نعيم الأخرى ... وقد آثرت دنياك الذميمه
محال نيل هذا بعد هذا ... أيحضر عاجز قسم الغنيمه
إذا لا فضل للطاوي حشاه ... على من بطنه أبداً وليمه
فدع عنك الأماني فهي زور ... فليتك لو نجوت مع الهزيمه

ومع هذا فلا معطي ولا مانع ولا ضار ولا نافع إلا الله سبحانه وتعالى. فمن أعطاه الله وصل ومن حرمه انفصل، كم رأينا من أتعب نفسه في الطلب وأنفذ عمره في جمع الكتب، والحرمان يبعده والبله يقعده. لكن إذا كان قصده وجه الله تعالى فإنه لا يضيع بكرم المولى، فإنه يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من طلب علماً فأدركه كتب له كفلان من الأجر. وهذه فائدة الطلب لله تعالى إن وفق أيضاً لهذه الطريقة، نسأل الله تعالى التوفيق وهداية الطريق لكنه يقال: من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له، ومن أكثر من شيء عرف به. وفي مصاحبة العلماء وحضور مجالسهم خير كثير وفضل كبير. يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: كونوا علماء صالحين، فإن لم تكونوا علماء فجالسوا العلماء. واسمعوا علماً يدلكم على الهدى ويردكم عن الردى. وكان يقال: علّم علمك من يجهل، وتعلّم ممن يعلم، فإنك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت وحفظت ما علمت. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: لأن أتعلّم مسألة أحبّ إليّ من قيام ليلة.

ويروى عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: تعلّموا العلم فإنّ تعلّمه لله حسنة. وطلبه عبادة ومذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربه، لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبل أهل الجنة، والأنيس في الوحشة والصاحب في الغربة، والمحدّث في الخلوة، والدليل على السّرّاء والضّرّاء، والسلاح على الأعداء، والدين على الأخلاء، يرفع الله به أقواماً ويجعلهم في الخير قادة وأئمة تقتفى آثارهم، ويقتدى بأفعالهم وينتمى إلى آدابهم، ترغب الملائكة في خلّتهم، وبأجنحتها تمسحهم، يستغفر لهم كل رطب ويابس، حتى الحيتان في البحر وهوامّه، وسباع الطير وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل ومصباح الإبصار من الظلم، ويبلغ بالعلم منازل الأخيار والدرجة العليا في الدنيا والآخرة. والتفكر فيه يعدل بالصيام، ودراسته بالقيام، به توصل الأرحام، ويعرف الحلال من الحرام. العلم إمام والعمل تابعه، يلهمه الله السعداء ويحرمه الأشقياء.

وفي بعض الأخبار أن أهل الجنة يحتاجون إلى العلماء كما يحتاجون إليهم في الدنيا، وذلك أنهم يرون ربهم في كل جمعة، فيقول: تمنّوا عليّ ما شئتم، فيلتفتون إلى

العلماء فيقولون: ما نتمنى على ربنا؟ فيقولون: تمنّوا النظر إلى وجه الله تعالى.

وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما: من أكثر من مجالسة العلماء أطلق عقال لسانه، وفتق ما رتق من ذهنه، وسرّه ما وجد من الزيادة في نفسه، وكانت له ولاية لما لا يعلم، وإفادة لما تعلّم، وبعد هذا فعليك بالجدّ إن ساعدك الجدّ، فبعد جهدك لا تلام يا غلام.

فصل :

وفضل العلم كبير والكلام فيه كثير، وحسبك أن ابن عبد البر ألّف فيه وحده سفراً كبيراً، فماذا عسى أن أقول فيه، لكن لا أخليك من بعض ذلك. ومن أمدح ما قيل في العالم:

أخو العلم حي خالد بعد موته ... وأوصاله تحت التراب رميم
وذو الجهل ميت وهو ماش على الثرى ... يعدّ من الأحياء وهو عديم

هذان البيتان لابن السيد رحمه الله.

ويروى أن سفيان الثوري رحمه الله لما قدم عسقلان مكث ثلاثاً لا يسأله إنسان عن شيء، فقال اكتروا لي أخرج من هذا البلد، هذا بلد يموت فيه العلم.

وقال فتح الموصلي: أليس المريض إذا منع الطعام والشراب والدواء يموت؟ قالوا: نعم، قال: وكذلك القلب إذا منع الحكمة ثلاثة أيام يموت.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: لأن أتعلم مسألة من العلم أحب إليّ من قيام ليلة.

وجاء في الحديث: طلب العلم فريضة على كل مسلم.

وقد حدّثني شيخي الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السلفي الأصفهاني رحمه الله بمدينة الإسكندرية حماها الله سنة اثنتين وستين وخمسمائة قال: سمعت القاسم بن الفضل الثقفي رئيس أصفهان يقول: سمعت أبا عمرو محمد بن بالويه النيسابوري بها يقول: سمعت محمد بن يعقوب الأصم الأموي يقول: سمعت الربيع بن سليمان يقول: سمعت الشافعي يقول: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة. وهذا كما تراه.

وفصل الخطاب ما قاله ابن شهاب، وقد سئل رحمه الله: أيما أفضل العلم أو العمل؟ فقال: العلم لمن جهل والعمل لمن علم.

وفي الشهاب: ما استرذل الله عبداً إلا حظر عنه العلم والأدب.

وقال علي: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم

حلمك.

وقال عليه الصلاة والسلام: ما نحل والد ولداً أفضل من أدب حسن.

وقيل: من أدّب ولده أرغم حسده، ومن لم يجلس في الصغر حيث يكره لم يجلس في الكبر حيث يحب. وسيأتيك قول ابن عباس رضي الله عنهما: ذللت طالباً فعززت مطلوباً. وانظر قوله رضي الله عنه: ذللت طالباً، هل تذلّل إلا للمعلم؟ وكذلك ينبغي للطالب، وإلا لم يحصل له شيء. ألم تسمع قول الشاعر:

إن المعلم والطبيب كليهما ... لا ينصحان إذا هما لم يكرما
فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه ... واصبر لجهلك إن جفوت معلما

هذا زيد بن ثابت رضي الله عنه ركب فأخذ عبد الله بن عباس بركابه فقال: لا تفعل يا ابن عم رسول الله، قال: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا، قال له زيد: أرني يدك، فأخرج إليه يده فأخذها فقبّلها، وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا.

وسأل رجل بعض العلماء فقال: أيحسن بي أن أتعلم وأنا كبير؟ فقال: إن كان يحسن بك أن تعيش فإنه يحسن بك أن تتعلم.

وقال آخر: إن كانت الجهالة تقبح بك فإن التعلم يحسن بك.

ويروى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال له رجل: أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه، فقال: كفى بتركك العلم إضاعة.

وكان عطاء يقول: وددت أني أحسن العربية، وهو يومئذ ابن تسعين سنة.

ويروى عن عليّ رضي الله عنه أنه قال: كل يوم لا أزداد فيه علماً فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم.

وخرّج الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه أو عالم أو متعلم.

وقال سفيان بن عيينة: أحوج الناس إلى العلم العلماء، لأن الجهل بهم أقبح وهم أعلام ومنارات يهتدى بهم.

وقال بعض الحكماء: العالم يعرف نقص الجاهل لأنه كان جاهلاً، والجاهل لا يعرف فضل العالم لأنه لم يكن عالماً. ومن أمثالهم: من جهل شيئاً عاداه. وفي ذلك يقول ابن دريد:

جهلت فعاديت العلوم وأهلها ومن ... كذاك يعادي العلم من هو جاهله
كان يهوى أن يرى متصدّراً ... ويكره لا أدري أصيبت مقاتله

وكما قيل:

ما الفضل إلا لأهل العلم إنّهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاّء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء

وقبل هذا:

الناس من جهة التمثيل أكفاء ... أبوهم آدم والأمّ حوّاء
نفس كنفس وأرواح مشاكلة ... وأعظم خلقت فيهم وأعضاء
فإن يكن لهم من أصلهم حسب ... يفاخرون به فالطين والماء

يروى أن قائل هذه الأبيات عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وصدق، فإنه ليس على العالم شيء أصعب ولا أتعب من جاهل يغالطه بالجهل إذا لم يكن عنده عالم يفقه كلامه. وكان مالك رحمه الله كثيراً ما يتمثل بقول القائل:

وإنّ عناء أن تفهم جاهلاً ... فيحسب جهلاً أنه منك أفهم
متى يبلغ البنيان يوماً تمامه ... إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

ويروى عن النسابة البكريّ أن للعلم آفة وهجنة ونكداً، فآفته نسيانه، ونكده الكذب فيه، وهجنته نشره عند غير أهله. وقال أبو حامد: ليس الظلم في كف العلم عن أهله بأقل منه في بثه لغير أهله.

يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: واضع العلم في غير أهله كمقلد الخنازير اللؤلؤ والجوهر والذهب.

وعن عيسى عليه السلام: لا تطرحوا الدرّ بين أرجل الخنازير، يعني العلم عند الجهال.

وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام: لا تنطقوا بالحكمة عند الجهال فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم. وهذا الخبر هو في روايتي بسند عال، وهو حديث حسن، يشتمل على آداب ومواعظ أردت أن أثبته لك هنا بسندي يا ولدي.

حدّثني الحافظ السلفي بقراءتي عليه قال: حدّثني الرئيس أبو عبد الله القاسم بن الفضل الثقفي رئيس أصبهان بها قال: حدّثني أبو بكر بن الحارث، أخبرنا عبد الله محمد بن جعفر، حدثنا القاسم بن عبد العزيز البغوي، حدّثنا عبيد الله بن محمد العبسي، حدّثنا أبو المقدام هشام ابن زياد، حدّثنا محمد بن كعب القرظي قال: عهدت عمر بن عبد العزيز وهو أمير علينا بالمدينة للوليد بن عبد الملك وهو شاب غليظ ممتلئ الجسم، فلما استخلف أتيته بخناصرة فدخلت عليه وقد قاسى ما قاسى، فإذا هو قد تغيرت حالته عما كان، فجعلت أنظر إليه نظراً لا أكاد أصرف بصري عنه، فقال:

إنك لتنظر إليّ نظراً ما كنت تنظره إليّ يا ابن كعب، فقلت: نعم تعجبني، فقال: وما يعجبك؟ قلت: ما حال من لونك، وشعث من شعرك، ونحل من جسمك، فقال: كيف لو رأيتني يا ابن كعب في قبري بعد ثالثة حين تقع حدقتاي على وجهي ويسيل منخراي وفمي صديداً ودوداً، كنت لي أشدّ نكرة. ثم قال: أعد عليّ حديثاً حدّثتنيه عن ابن عباس، فقلت: حدّثنا ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن لكل شيء شرفاً، وإن أشرف المجالس ما استقبل به القبلة، وإنما تجالسون بالأمانة، ولا تصلوا خلف النائم ولا المحدث، واقتلوا الحية والعقرب وإن كنتم في صلاتكم، ولا تستروا الجدر بالثياب، ومن نظر في كتاب أخيه بغير إذنه فكأنما ينظر في النار، ومن أحب أن يكون أقوى الناس فليتق الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في أيدي الناس. ألا أنبئكم بشراركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: من نزل وحده ومنع رفده وجلد عبده، أفأنبئكم بشرّ من هذا؟ قالوا: نعم يا رسول الله، قال: من يبغض الناس ويبغضونه، أفأنبئكم بشرّ من هذا؟ قالوا: نعم يا رسول الله، قال: من لا يقيل عثرة ولا يقبل معذرة ولا يغفر ذنباً، وأنبئكم بشرّ من هذا؟ قالوا: نعم يا رسول الله، قال: من لا يرجى خيره ولا يؤمن شرّه.

روي أن عيسى ابن مريم قام في بني إسرائيل فقال: يا بني إسرائيل لا تتكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها، ولا تضعوها عند غير أهلها فتظلموها. وقال مرّة: فتظلموهم. ولا تظلموا ولا تكافئوا ظالماً فيبطل فضلكم عند ربكم، يا بني إسرائيل الأمر ثلاث: أمر تبين رشده فاتبعوه، وأمر تبين غيّه فاجتنبوه، وأمر اختلف فيه فردّوه إلى الله عز وجل. ويروى عن الشافعي رضي الله عنه:

أأنثر درًا بين سارحة الغنم ... وأنظم ياقوتاً لراعية الغنم
فمن منح الجهال علماً أضاعه ... ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وقال أبو العباس الناشي:

وإذا بليت بجاهل متحامل ... حسب المحال من الأمور صوابا
أوليته مني السكوت وربما ... كان السكوت عن القبيح جوابا

وقيل لبعضهم: ما لكم لا تعاتبون الجهال ليعلموا، فقال: إنا لا نكلف العمي بأن يبصروا ولا الصمّ بأن يسمعوا. ومن أحسن ما قيل في الجهل قول صالح بن عبد القدوس:

لا تبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه
والشيخ لا يترك أخلاقه ... حتى يوارى في ثرى رمسه

إذا ارعوى عاد إلى غيّه ... كذي الضنى عاد إلى نكسه

وجاء في الخبر أن الله تعالى لا يعذر على الجهل، ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله، ولا يحل للعالم أن يسكت على علمه. ويروى معنى هذا عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: لا خير في الصمت عن العلم كما لا خير في الكلام عن الجهل.

وكان سهل رحمه الله يقول: ما عصي الله بمعصية أعظم من الجهل. قيل: يا أبا محمد فهل تعرف شيئاً أشدّ من الجهل؟ قال: نعم، الجهل بالجهل. وفي مثل هذا أنشدوا:

ومن أعجب الأشياء أنك لا تدري ... وأنك لا تدري بأنك لا تدري
فإن تك لا تدري ولم تك بالذي ... يسائل من يدري فكيف إذا تدري
تمام العمى طول السكوت وإنّما ... شفاء العمى يوماً سؤالك من يدري

ويروى عن علي رضي الله عنه أنه قال: لا يستحي جاهل أن يسأل عما لا يعلم ولا يستحي عالم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: الله أعلم. قلت: وليس عاراً على من ليس يعلم علماً أن يقول إذا ما سئل: لا أدري، فذلك أحسن من أن يفتي الناس بالجهل الذي أولى بنفسه أن يزري.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا أخطأ العالم لا أدري أصيبت مقاتله.

ويروى عن مالك رضي الله عنه أنه كان يكتب إليه بالمسائل فيجيب في الأقل منها ويكتب على الأكثر: لا أدري، والشيء يعرف بضدّه. فكذلك أيضاً ما أطيع الله تعالى بمثل العلوم. ومن العلم العلم بالعلم أيّ شيء هو.

وقد ذكر أبو طالب في القوت أن الناس ألفوا كتباً كثيرة وسموا ما فيها علماً وليس كذلك. هذا معنى كلامه رحمه الله، وإن لم يكن لفظه كذلك، ورأيت لأبي الوليد الوقشي:

برّح بي أن علوم الورى ... علمان ما إن فيهما من مزيد
حقيقة يعجز تحصيلها ... وباطل تحصيله لا يفيد

قلت: ولست ترى صاحب علم أيّ علم كان إلا وهو يرى أن لا فوق ما يعلم، إن كان صاحب علم حديث؛ يرى فضله على ما سواه. وصاحب علم القراءات؛ يرى نفسه فوق بدرجات. وصاحب علم التفسير؛ يرى غيره بعين التحقير. وصاحب الفقه يقول: لا شيء فوقه. وصاحب الأدب واللغة يقول: هذا الذي به أخبرت هو الطريق الذي يفهم به كل ما ذكرت. وصاحب الطب يقول: حفظ الصحة هو الأصل الذي تقوى به على العبادة. حتى صاحب النجوم والحساب يقول: لا بدّ من معرفة هذا بلا ارتياب. وصاحب الأصول يزيد على هذه الفصول ويقول: يكفي أن اسمه أصل ولا يثبت الفرع بغير أصل. وأما صاحب الكلام فعلى رسول الله السلام. وكل يرى أن

مذهبه ورقة مذهّبة. ثم يرجع كل على مخالفه في الطريقة فلا يبلعه ريقه.

حدّثني الحافظ أبو الطاهر السلفي رحمه الله عن بعض شيوخه أنه كان يقول: الحديث عز في عز، والفقه خبز في خبز، والكلام رز في رز، وينشد لنفسه:

أهل الحديث هم الرجال البزل ومن المعالي في الأعالي نزل

هل يستوي السمك الذي تحت الثرى أبداً مقيم والسماك الأعزل

ويقول:

العلم باب للشرف وما من العلم خلف

وكل من خالفني بابه تبن وعلف

وأنشدني الفقيه المحدّث أبو محمد عبد الحق الأزدي لنفسه:

يا طالباً للعلم مسترشداً مستنصحاً إن قبل الناصحا

إن كنت تبغي سنناً قاصداً وتسألني علماً واضحا

فاركض إلى النص مطي السرى فإنّ فيه المتجر الرابحا

واطرح الرأي وأصحابه ولا تكونن له لامحا

وقال الخليل بن أحمد: العلوم أربعة، فعلم له أصل وفرع، وعلم له أصل ولا فرع له، وعلم له فرع ولا أصل له، وعلم لا أصل له ولا فرع. فأما الذي له أصل وفرع فالحساب، ليس بين أحد من الخلق فيه اختلاف. وأما الذي له أصل ولا فرع له فالنجوم، ليس لها حقيقة علم يبلغ تأثيرها في العالم يعني الأحكام والقضايا على الحقيقة. وأما الذي له فرع ولا أصل له فالطب، أهله منه على التجارب إلى يوم القيامة. وأما الذي لا أصل له ولا فرع فالجدل. وقال غيره: شرّ العلوم الفلسفة، ولذلك يقول الفقيه الزاهد أبو عمران موسى بن عمران القيسي المعروف بالميرتلي رضي الله عنه:

شر العلوم إذا اعتبر ت أخيّ علم الفلسفه

لا تعملنّ بها لسا نـاً ما حييت ولا شفه

لا خير فيما الفل أوّ له وآخره سفه

وهذا الشاعر أحد الأذكياء الأولياء. اذكر حديثه في باب التاء من هذا الكتاب، إلى غير ذلك مما يهول أمره ويطول ذكره، وسيأتي منه طرف في ذم القياس في باب الميم.

وأما أهل التصوّف فيرون العلم علم الباطن من الإيمان والتوحيد وعلم المعرفة واليقين وخواطر القلوب ومعاملة علام الغيوب. ولعمر الله إن من ليس عنده علم بالله ولا أحكامه ولا حلاله ولا حرامه إنه لمنزل عن العلم بمعزل. وفصل الخطاب: إنّ كل

علم أريد به وجه الله.وقام صاحبه فيه بأمر الله فهو ناج إن شاء الله، وهذا كله بعد حصول ما لا بدّ منه مما هو فرض عليه.

وقال سالم بن أبي الجعد: اشتراني مولاي بثلاثمائة درهم فأعتقني، فقلت: بأيّ حرفة أحترف؟ فاحترفت العلم، فما تمّت لي سنة حتى أتاني أمير المؤمنين زائراً فلم آذن له، إن قلتِ: كيف هذا؟ قيل: العلماء إذا علموا عملوا، فإذا عملوا شغلوا، فإذا شغلوا فقدوا، فإذا فقدوا طلبوا، فإذا طلبوا هربوا، فإذا هربوا أمنوا، فهذا مولى قد فاق بعلمه الأشراف. ومثل هذا ما روى حميد الطويل رضي الله عنه قال: قدم رجل من أهل البادية البصرة فاستقبله خالد بن مهران، فقال له: يا أبا عبد الله أخبرني عن سيد أهل هذا المصر من هو؟ قال: الحسن بن أبي الحسن، قال: أعربيّ أم مولى؟ فقال: مولى، قال: لمن؟ قال: للأنصار، قال: فبمَ سادهم؟ قال: احتاجوا إليه في أمر دينهم واستغنى هو عن دنياهم. فقال البدوي: كفى بهذا سؤدداً. وسيأتي طرف من فضائل الحسن إن شاء الله تعالى.

وهذه رابعة البصرية كانت أمة كبيرة يطاف بها في سوق البصرة ولا يرغب فيها أحد لكبر سنها، فرحمها بعض التجار واشتراها بنحو مائة درهم وأعتقها، فاختارت العلم والعمل وأقبلت على العبادة، فما تمّت لها سنة حتى زارها زهّاد البصرة وقرّاؤها وعلماؤها لعظم شأنها.

نادرة:

وفيما أجازني شيخي أبو عبد الله بن الفخار رحمه الله بسنده إلى عبد الله بن وهب قال: دخل عبد الملك بن مروان المسجد الحرام فرأى حلق العلم والذكر، فأعجب بها، فأشار إلى حلقة فقال: لمن هذه؟ فقيل: لعطاء. ونظر إلى أخرى فقال: لمن هذه؟ فقيل: لميمون ابن مهران. ونظر إلى أخرى فقال: لمن هذه؟ فقيل: لمكحول. ونظر إلى أخرى فقال: لمن هذه؟ فقيل: لمجاهد. وكلهم من أبناء الفرس الذين من اليمن، فرجع إلى منزله وبعث إلى أحياء قريش فجمعهم فقال: يا معشر قريش كنا فيما قد علمتم، فمنّ الله علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبهذا الدين فحقرتموه، حتى غلبكم أبناء الفرس، فلم يردّ عليه أحد إلا علي بن الحسين، فإنه قال: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١]. ثم قال عبد الملك: ما رأيت كهذا الحيّ من الفرس، ملكوا من أوّل الدهر فما احتاجوا إلينا، وملكناهم فما استغنينا عنهم ساعة. فإن قلت هذا النوع الذي ذكرت قبل هذا ليس من قبيل هذا بل هو غيره، إذ شرف كل علم بشرف معلومه.

ولذلك كان العلم والتفقه في كتاب الله تعالى وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم أشرف العلوم وأنفعها في الدنيا والآخرة، وكل علم لا يدل على الله ولا توجد علامته على صاحبه فهو وبال وحجة عليه.

كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: العلم علمان: علم على اللسان، فذلك حجة الله على ابن آدم. وعلم بالقلب، فذاك العلم النافع.

وعن عيسى عليه السلام: ما أكثر الشجر وليس كلها بمثمر، وما أكثر المثمر وليس كلها بنافع، وما أكثر العلماء وليس كلهم بمرشد.

وقال بعض الموفقين: اطلب العلم لتعمل به، ولا تطلبه لتباهي به العلماء، وتماري به السفهاء، وتأكل به مال الأغنياء، وتستخدم به الفقراء، فإنّما لك من علمك ما عملت به وعليك ما ضيعت منه.

وقال عبد الله: من تتبع العلم، أو قال: الأحاديث، ليحدّث بها لم يجد ريح الجنة.

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: اعلموا ما شئتم أن تعملوا، فلن يأجركم الله بعلم حتى تعملوا.

وقال الحسن رضي الله عنه: اعتبروا الناس بأعمالهم ودعوا قولهم، فإن الله تعالى لم يدع قولاً إلا جعل عليه دليلاً من عمل يصدّقه أو يكذبه، فإذا سمعت قولاً حسناً فرويداً بصاحبه، فإن وافق قوله عمله فنعم ونعمت عين أخيه وأوداته.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إن الناس قد أحسنوا القول كلهم، فمن وافق فعله قوله فذاك الذي أصاب حظه، ومن خالف قوله فعله فإنّما يوبخ نفسه.

وقال الحسن رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] قال: العمل الصالح يرفع الكلام إلى الله، فإذا كان كلام طيب وعمل سيئ ردّ القول على العمل وكان العمل أحق به من قوله.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ويل لمن لا يعلم ولو شاء الله لعلّمه، وويل لمن يعلم ثم لم يعمل، سبع مرّات.

وكان من نقش خاتم الحسين رضي الله عنه: علمت فاعمل. وفي قصيد الألبيري في العلم من هذا المعنى:

فواظبه وخذ بالجدّ فيه ... فإن أعطاكه الله أخذتا
وإن أوتيت فيه طول باع ... وقال الناس إنك قد سبقتا
فلا تأمن سؤال الله عنه ... بتوبيخ علمت فهل عملتا

وهذا المعنى قد سبق إليه أبو الدرداء رضي الله عنه قال: إن أخوف ما أخاف إذا

وقفت على الحساب أن يقال لي: قد علمت فما عملت فيما علمت، وذلك أن المرء في الدنيا مبتلى بأربعة أشياء، وهي: الدنيا والشيطان والنفس والهوى. وقد جمعهنّ الشاعر في قوله:

إني بليت بأربع يرمينني ... بسهام قوس ما لها تعثير
إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... يا رب أنت على الخلاص قدير

فيحتاج إلى أربعة أشياء يقاوم بها هذه الأربعة المذكورة، وهي: العلم والعمل والإخلاص والخوف. فيعلم أولاً الطريق وإلا فهو أعمى، ثم يعمل بالعلم وإلا فهو محجوب، ثم يخلص العمل وإلا فهو مغبون، ثم لا يزال يخاف ويحذر من الآفات إلى أن يجد الأمان وإلا فهو مغرور. ولذلك قال ذو النون رحمه الله: الخلق كلهم موتى إلا العلماء، والعلماء كلهم نيام إلا العاملين، والعاملون كلهم مغترون إلا المخلصين، والمخلصون على خطر عظيم. وتقدّم أن الشاعر جمع الصفات الأربع المتقدمة في بيت، ورأيتها لأبي عمران موسى الميرتلي الزاهد رضي الله عنه مجموعة في بيت وقد زاد عليها ثنتين فصارت ستاً فقال:

ست بليت بها والمستعاذ به ... من شرّها من إليه الخلق تبتهل
نفسي وإبليس والدنيا التي فتنت ... من قبلنا والهوى والحرص والأمل
إن لم يكن منك يا مولاي واقية ... من شرّها فقد أعيت عبدك الحيل

وكان من دعاء من قرأت عليه: اللهم اجعلنا ممن قرأ ليعلم وعلم ليعمل وعمل فتقبل منه. وفي الشهاب: إن أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه. وفي الحديث: من ازداد علماً ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعداً. وأنشد الفقيه المذكور لنفسه في هذا المعنى:

من كان منتفعاً به وبعلمه ... يقظاً وفي عمل حليف نعاس
فمثاله المسكين عند تأمل ... وتثبت كذبالة النبراس
يأتي عليها الاحتراق ودأبها ... أبداً تزايد ضوئها للناس

قلت: وما أحسنهما إذا اجتمعا معاً، وما أكثر انتفاعهما وأقل اجتماعهما، ألم تسمع إلى ما قاله أحد النبهاء يرثي أحد الفقهاء:

حاز الشريفين من علم ومن عمل ... وقلما يتأتى العلم والعمل

والكلام أيضاً في مثل هذا يطول، والحق ثقيل، فإن قلت: كذا، أقول لك: وأنا لم أقل لك اترك ما لا يسعك جهله، لأنه أوّل ما يجب تحصيل الأهم فالأهم والأوكد فالأوكد، فإذا أحكمت ذلك علماً وعملاً فالاشتغال بهذا خير من الاشتغال بطلب

الدنيا، وخير من جمع المال، وتعلمه أنفع من تعلم الصناعة، إذ هو إن أعطيته من كل حرفة أجود، ومن كل صنعة أعود، وأنت فإن كانت لك همّة وتذوّقته فلن تتركه ولو نهيت عنه، وأيضاً فلن يمنعك عن طلب ما يكفيك من الدنيا إذا قنعت به، وأما أنا فإنّما وضعت نوعاً من العلم وضرباً من اللغات كما وضعه غيري، بل إنّما أخذت من تآليفهم وتطفلت على تصانيفهم، فإن قلت: وأنت؟ فهذا الذي ألفته وجمعته، وفي هذا الكتاب أثبته ووضعته، أحذر أن يكون من باب المباهاة والافتخار والمرآة والاشتهار، وكم ضيعت فيه من زمان وعطلت عليه من أوان، وقد كان الاشتغال بذكر المولى أحق منه وأولى.

وقد جاء عن سفيان الثوري أنه خلا مع الفضيل بن عياض رضي الله عنهما، فتذاكرا وبكيا فقال سفيان للفضيل: إني لأرجو أن لا نكون جلسنا مجلساً أعظم بركة من هذا المجلس، فقال الفضيل: لكني أخاف أن لا نكون جلسنا مجلساً أضرّ علينا منه، قال: ولِمَ يا أبا علي؟ قال: ألست قصدت إلى أحسن حديثك فحدّثتني به، وقصدت أنا إلى أحسن حديثي فحدّثتك به، فتزينت لي وتزينت لك، فبكى سفيان أشدّ من بكائه الأوّل وقال: أحييتني أحياك الله. ومثل هذا اعترى للفضيل قصده رجل فلما علم بإقباله نحوه قفل بابه من خارج، فلما جاء الرجل ورأى الباب مقفلاً انصرف، فقيل له في ذلك، فقال: ما يصنع بي؟ يظهر لي محاسن كلامه وأظهر له محاسن كلامي.

وهذا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كتب يوماً كتاباً أعجبه فمزّقه، إلى غير ذلك من أخبار الصالحين ومراعاتهم لأوقاتهم أن لا تذهب سدى.

كما يروى عن عطاء أنه قال: كنت مع سفيان الثوري رضي الله عنهما بمكة في المسجد الحرام ونحن نتحدّث، إذ قال لي سفيان: يا عطاء نحن جلوس والنهار يعمل عمله، قلت: إنّا لفي خير إن شاء الله، قال: أجل ولكنّا نتلذّذ به. ثم قال: يا عطاء إنّ المؤمن ليرى في الموقف بعينه ما أعدّ الله له في الجنة، وهو مع ذلك يتمنّى أنه لم يخلق، لشدّة ما هو فيه. مع أشياء سوى هذا تروى عن أهل الفضل مع قول الحكيم:

فلا تكتب بكفّك غير شيء ... يسرّك في القيامة أن تراه

فأين أنت من هؤلاء الرجال؟ وأين حالك من هذه الأحوال؟ فأقول: لكل مقام مقال ولكل زمان رجال، وعلى كل كلام جواب وفي كل مسألة باب، أوّل ما أقول لك في ذلك: لسنا نحن كأولئك، لم نبلغ بعد إلى مرتبتهم ولا ارتقينا إلى درجتهم، أولئك قوم كفوا عن الحرام فكفوا وصفوا من الآثام فاصطفوا، ونحن خلطنا وخبطنا فحططنا وحبطنا وظلمنا فأظلمنا وما ظلمنا، أسألك بحق ربك أين الذي إذا صلى بالناس جهراً

فأخطأ في قراءته، أو خطب فأرتج عليه أو سئل عن مسألة فلم يدر ما يقول فيها، أو كتب رسالة أو قال شعراً فأخطأ فيه أو لحن أو كسر، لا يعز ذلك عليه ولا يباليه ولا يهتم به ولا يكترث له، وهؤلاء هم القدوة وفيهم الأسوة. وأما أمثالنا فأيّنا الذي إذا أخطأ أو لحن لا يحزن لذلك ولا يغتم، بل ليته لا يموت كمداً ويذوب حياء لا سيما إن كان ذلك بحضرة من يتعين، بل ليته لا يعتذر من ذلك كأنه أذنب ذنباً، بل ليته لا يكذب في اعتذاره. أم أيّنا الذي لا يفرح إذا قيل له إنك لفصيح وإنّ خطّك لمليح وإن شعرك لطيب وإنّ صوتك لحسن وإنك لمتقن وسريع الحفظ، بل ليته لا يغضب على من لا يبتديه بذلك. يا أخي هذه منزلة ما بلغتها أنا بعد نعم ولا تحدّثني نفسي بها إلا أن يتداركني الله كما تدارك أولئك القوم، فهو مولانا كما هو مولاهم ونحن عبيده كما هم. ونحن الآن والحمد لله أحسن من غيرنا ممن ألّف كتباً في الأهجاء والأمداح وأبواب اللهو والمزاح ومدح الراحة والراح.

وقد قيل لابن الأحنف: ما لك لا تكون كأبيك؟ قال: دعوا أبي وقيسوني بأبنائكم. وقلما يشبه المرء أباه في العلم والحلم، وفي ذلك يقول الشاعر:

إذا ما رأيت امرأ حاذقاً ... فكن في ابنه سيئ الاعتقاد
فما إن ترى من نجيب نجيباً ... وهل تلد النار إلا الرماد

وكان لمالك بن أنس رضي الله عنه ولد يدخل ويخرج ولا يجلس معه في مجالس العلم، فكان إذا نظر إليه يقول: هاه إن مما يطيب نفسي أنّ هذا العلم لا يورث وأنّ أحداً لا يخلف أباه في مجلسه إلا عبد الرحمن بن القاسم. ورآه يوماً نازلاً من فوق ومعه حمام قد غطاه، قال فعلم مالك أنه قد فهمه الناس فقال: الأدب أدب الله لا أدب الآباء والأمهات، والخير خير الله لا خير الآباء والأمهات.

وسأل سفيان بن عيينة رحمه الله رجل فقال: يا أبا محمد نشدتك بالله أطلبت هذا العلم يوماً طلبته لله، فأعرض عنه سفيان، وسأله ثانية وثالثة، فقال سفيان: اللهم لا إنا طلبناه تأدباً وتظرفاً، فأبى الله إلا أن يكون له. وهذا الفنّ الذي أخذت أنا فيه سأحتج عليه بما لا ينفيه قد قالت الفقهاء: ما يتم الفرض إلا به فهو فرض مثله، أليس علم اللغة واللسان العربي مما لا يفهم كتاب الله إلا بهما، وكذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وليت شعري، هل كان الفضيل بن عياض وسفيان الثوري ونظراؤهما من أهل العلم ممن لا يعد كثرة يجهلون هذا الشأن، وهل بلغوا إلى ما بلغوا إلا بالعلم؟ بهذا وغيره وكذلك جميع ما في هذا الكتاب مذكور، هل هو إلا من كتب الأئمة مصابيح

الأمة، أهل الفضل والعلم الذين حفظوا على الأواخر علم الأوائل، وما أغفلوا منه لفظة حتى ذكروا في كتبهم، مثل: حبطقطق وبشقشق، وغير ذلك مما ترى بعضه في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى. وهل هذه الألفاظ وغيرها إلا آلة من آلات العلم وأداة من أدواته، ومن لم يدر لساناً ولا لغة فكيف يفهم أو بم يتكلم. وقد قال بعض الحكماء: ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العلم، أو أيّ شيء فاته من أدرك العلم.

وقال ابن المبارك: عجبت لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة؟ ترى أحداً من هذه الجماعة ذمّ أهل الصناعة، كيف وعلم اللسان هو نصف الإنسان. ومن لم يكن له لسان فهو أخرس، ومن كان أخرس فهو بهيمة، والله تعالى يقول: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ١-٤]، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ٤-٥]. وقالوا: ما الإنسان لولا البيان إلا سورة ممثلة أو بهيمة مهملة، وإنما المكروه في هذا الشأن من قطع عمره كله بهذا الفن ولم يحسن غيره، وأفنى زمانه فيه ولم يشتغل بسواه. هذا عنده آلات كثيرة لم يعملها في غيرها، وإنما أتقن بعضها ببعض وقعد، وغيره استعمل هذه الآلات في سائر الصناعات، فأحر بهذا أن يكون أعلى من ذلك وأنفس وأحذق وأكيس، وباب العمل بالعلم باب آخر قد تقدم منه طرف، وستطلع منه في هذا الكتاب على أبواب كثيرة بحول الله تعالى.

فائدة:

ودونك أيها الولد فائدة زائدة ظريفة أدبية، شريفة لغوية، تقدم حبطقطق، وهذه اللفظة وقعت في بيت من الشعر أنشده المازني رحمه الله، وهو:

جرت الخيل فقالت ... حبطقطق حبطقطق

يحكي صوت جري الخيل، كما قالوا: الطقطقة، أصوات حوافر الدواب، مثل الدقدقة، وكما قالوا: جلنبلق، لصوت الباب إذا فتح وإذا أغلق، ويكون الباب جافياً ضخماً، قال الشاعر:

فتفتحه طوراً وطوراً تجيفه ... فتسمع في الحالين منه جلنبلق

أنشده المازني وساقه أهل اللغة شاهداً على أنه لا يوجد جيم وقاف في كلمة واحدة من كلام العرب إلا أن يكون معرّباً أو حكاية صوت، نحو: الجردقة، وهي الرغيف، والجرموق الذي يلبس فوق الخف، والجرامقة: قوم بالموصل أصلهم من العجم، والجوسق: القصر، وجلق بكسر الجيم واللام مع التشديد: موضع بالشام، والجوالق: الوعاء، بضم الجيم، وجمعه جوالق بفتحها، وغير ذلك أشياء قليل عددها،

ستعلمها إذا علمت كما تجهلها إذا جهلت.

فائدة :

وخذ أيها الولد النبيل فائدة في التقبيل. تقدّم أن زيد بن ثابت قبّل يد عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال أهل العلم: قبلة الإمام في اليد، وقبلة الأم في الرأس، وقبلة الأخ في الخدّ، وقبلة الأخت في الصدر، وقبلة الزوجة في الفم. وقيل: قبلة المؤمن المصافحة، وقبلة الوالد الولد في الرأس، وقبلة الأم الولد في الخدّ، وقبلة الأخ الأخت في العين. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: قبلة الولد رحمة، وقبلة المرأة شهوة، وقبلة الوالدين عبادة، وقبلة الأخ أخاه دين وقبلة الإمام العادل طاعة.

يروى أن أبا عبيدة قبّل يد عمر رضي الله عنهما ثم تناول رجله فقال: أما هذا فلا. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صافحه إنسان لم ينزع يده من يده حتى يكون ذلك الإنسان الذي ينزع يده. وكره مالك رحمه الله تقبيل اليد، وقال: إنه من صنيع الأعاجم. وكذلك قال هشام لرجل قبّل يده: أنه إن العرب ما قبّلت الأيدي إلا هلوعاً ولا فعلته الأعاجم إلا خضوعاً.

واستأذن رجل المأمون في تقبيل يده فقال: إن قبلة اليد من المسلم ذلة ومن الذمّي خديعة ولا حاجة بك أن تذلّ ولا بنا أن نخدع. واستأذن أبو دلامة الشاعر المهدي في تقبيل يده فقال: أما هذه فدعها، قال: ما منعت أم عيالي شيئاً أيسر فقداً عليهم من هذه.

فصل :

وقد قالوا في البلاغة: إن اللسان نصف الإنسان، ومن قال ذلك احتج بقول الأعور الشني:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ... فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وكائن ترى من صامت لك معجب ... زيادته أو نقصه في التكلم

وقال يحيى بن خالد: ما رأيت رجلاً قط إلا هبته حتى يتكلم، فإن كان فصيحاً عظم شأنه في صدري، وإن كان مقصراً سقط من عيني، وهذا مقتضى قول بعض المتقدمين: المرء مخبوء تحت لسانه.

وسئل الخليل عن البلاغة فقال: كلمة تكشف عن البغية. وقال الفضل: قلت لبعض الأعراب: ما البلاغة؟ قال: الإيجاز في غير عجز والإكثار في غير خطل. وهذا أيضاً معنى قول جعفر بن يحيى: إذا كان الإكثار أبلغ كان الإيجاز تقصيراً وإذا كان الإيجاز كافياً كان الإكثار عياً.

وروصف يحيى بن زياد رجلاً بالبلاغة فقال: أخذ بزمام الكلام فقاده أحسن مقاد وساقه أحسن مساق، فاسترجع به القلوب النافرة واستصرف به الأبصار الطامحة.

وقال العتبي: قيل لمسلمة بن بلال العبدي: خطب جعفر بن سليمان خطبة لم نر أحسن منها وما درينا أوجهه كان أحسن أم كلامه، فقال: أولئك قوم بوجه الخلافة يشرقون، وبلسان النبوّة ينطقون.

وسأل المأمون العباس بن الحسن الطالبي عن رجل فقال: رأيت له حلماً وأناة ولم أر هناك عجلة، لا تسمع له لحناً ولا إحالة، يحدّثك الحديث على مطاويه، وينشدك الشعر على مدارجه، ويخبرك بالأخبار المتقنة، ويرمي إليك بالأمثال المحكمة.

وقال الكسائي: لقيني أعرابي بمكة فجعلت أسأله وألح عليه، فقال: ما رأيت رجلاً أقدر على كلمة إلى جنبها كلمة أشبه شيء بها وأبعد شيء منها منك.

وقيل لرجل قرشي: ما بال العرب تطيب كلامها وتقصرونه معاشر قريش؟ فقال: بالجندل يرمي الجندل، إنّ كلامنا يقل لفظه ويكثر معناه ويكتفى بأوّله ويستغنى بآخره.

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي وسمع شاعراً ينشد شعراً وقد أساء قولاً وإنشاداً: إنّ من الشعر بيوتاً ملس المتون قليلة العيون، إن فقدتها لم تبالها وإن سمعتها لم تتفكه بها. كذا رأيته: قليلة العيون، وأظنه: كليلة، والله أعلم.

وقال إسحاق بن إبراهيم هذا: أنشدت الرشيد شعراً مدحته به أقول فيه:

وآمرة بالبخل قلت لها اقصري ... فليس إلى ما تأمرين سبيل
وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى ... ورأي أمير المؤمنين جميل

قال: فالتفت إليّ الفضل بن الربيع وقال: يا عباسي، قاتل الله أبياتاً لا يزال يأتينا بها الموصلي، فما أشدّ أصولها وأقل فضولها وأحسن فصولها.

وقال الموصلي: ذكر أعرابي عشيرة رجل بجودة الشعر، فقال: ما بين التراب والسحاب أشعر من أسرته.

وذكر رجل كاتباً، فقال: جمع الدنيا بين طرف لسانه وسن قلمه وخط يده وفصّ خاتمه، ومدح شاعر كاتباً فقال:

إن هزّ أقلامه يوماً ليعملها ... أنساك كل كميّ هز عامله
وإن أقرّ على رق أنامله ... أقرّ بالرق كتاب الأنام له

وهذا البيت من أبدع كلام سمع وأبرع التزام جمع.

وسمع رجل رجلاً يتكلم فيحسن، فقال له: أبلغت وأوجزت وسهلت، وكنت كالماء في الرقة، والجوهر في اللطف، والنار في الذكاء، وكلامك أخصب من الروض

وأحسن تعلقاً من العقيان في صدور القيان.

ووصف أعرابي رجلاً فقال: كان لسانه أرق من ورقه وألين من سرقه. وذكر العباسي العباس بن الحسن فقال: كان والله كلامه يفت الخردل ويحط الجندل.

وقال العتبي: قيل لبليغ: كيف رأيت كلام فلان؟ قال: يشجي بالريق ويملأ الصدور ويونق الأسماع ويستشرف الأبصار ويأخذ أقطار البلاغة ويقصد المحجة ويرد ويصدر بالحجة، لله در أبيه كيف يستصرف العيون اللامحة ويردّ الأسماع الجامحة.

ومدح شاعر قوماً بإصابة القول فقال:

وأوتـاد أرض الله فـي كـل بلـدة　　　وموضـع فتـياها وعلـم التشـاجر
ومـا كـان سـحبان يشـق غبـارهم　　　ولا السـوق مـن حيـي هـلال وعامـر
يصيبون فصل القول في كـل منطق　　　كمـا طبقت فـي العظـم مدية جـازر

والقول في هذا الباب طويل ويكفي منه القليل.

ولنرجع أيها الإنسان إلى ذكر اللسان: قال بعض النقاد: اللسان ترجمان الفؤاد يعبر عنه بما أراد، ألم تسمع قول الشاعر:

ومـمـا كانـت الحكمـاء قالـت　　　لسان المـرء مـن خـدم الفـؤاد

وقال آخر:

إن الكـلام لفـي الفـؤاد وإنمـا　　　جعـل اللسـان علـى الفـؤاد دليلا

وقال آخر:

قـل لـمن يفخـر جهـلاً بالحسب　　　إنمـا الـنـاس لام ولاب
أتـراهـم خلقـوا مـن فـضـة　　　أو مـن اليـاقوت أو هـذا الـذهب

كان البيت:

أو حديـد أو نحـاس أو ذهـب

وكما في الكتاب رأيته فذيلته:

أتـرى فـضـلاً لهـم مـن غيـرهم　　　بـسوى لحـم وعظـم وعـصب
إنمـا الفخـر بعقـل كامـل　　　وبـأخـلاق كـرام وأدب

وقال أفلاطون: باطن عقول الرجال أطراف أقلامها، وظاهر عقولها في حسن اختيارها. وقال أرسطاطاليس: لكل شيء صناعة وحسن الاختيار صناعة العقل.

فصل:

وقد فضل قوم السكوت على الكلام، وآخرون الكلام على السكوت. قلت: وليس السكوت بأفضل من الكلام إلا من جهة العذر أو العي أو الفضول، فإن النبي

صلى الله عليه وسلم قال: رحم الله امرأ تكلم فسلم أو سكت فغنم. فإذا سلم الإنسان من الجهل وتكلم بالخير فلا شك أنه أفضل من الساكت. وقال بعض من فضل الكلام على السكوت: لم ترو الرواة سكوت الصامتين كما روت كلام الناطقين، وبالكلام أرسل الله أنبياءه، وذكر الله داود فقال: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص: ٢٠].

وتذاكروا في مجلس أبي مسهر الكلام وحسنه والصمت ونبله، فقال أبو مسهر: إن النجم ليس كالقمر، إنك تمدح السكوت بالكلام ولا تمدح الكلام بالسكوت، وما عبر به عن شيء فهو أكبر منه. وقال بعض العلماء: ما أعلم في الدنيا شيئاً من البيوع يستطاع شراؤه بالسكوت ولا وشيجة بقل، ويستطاع شراء الجنة من رب العالمين بالكلام، وهو ذكر الله وقراءة القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقال سهل بن هارون: إن الله رفع درجة اللسان فوق جوارح الجسد وشرّف منزلته على سائر الأعضاء، فأنطقه بتوحيده وتمجيده، فهو أداة يظهر بها البيان، وناطق يردّ به الجواب، وشافع تدرك به الحاجة، وواصف تعرف به الأشياء، ومعز يردّ به الحزن، ومؤنس يذهب بالوحشة، وواعظ ينهى عن القبيح، ومزين يدعو إلى الحسن، وزارع يحرث المودّة، وحاسد يذهب بالضغينة، ومفصاح بمعالي الأمور، ودليل على ما بطن في القلوب، ومخبر عما بطن من الأخبار، إن سألته أوضح، وإن استنطقته أفصح، وهو رسول العقل إلى السامعين وأداته التي تجمع بين مفترق الحكم.

وقال غيره: لسان المرء أنجح شفعائه وأنفذ سلاحه على أعدائه وشاهد العقل ودليله. قلت: هذا كله على استقامته وسداده، وأما إرساله في الفضول وفيما لا يصلح فالعي خير منه والسكوت أسلم لا محالة، نعم والسكوت للجهال ستر، قال الشاعر:

وفي الصمت ستر للعيي وإنما ... صحيفة لب المرء أن يتكلما

وقال آخر:

إذا أنت لم تنطق بحق ولم تقل ... صواباً فعن عي لسانك فاستر

وقال طرفة:

وإنّ لسان المرء ما لم تكن له ... حصاة على عوراته لدليل

وقال آخر:

لسان المرء ينبي عن حجاه ... وعي المرء يستره السكوت

وقال أبو العتاهية:

الصمت أجمل بالفتى ... من منطق في غير حينه

وتكلم رجل في مجلس الهيثم بن صالح فهذر، فقال الهيثم: بكلام أمثالك رزق أهل الصمت المحبة. وأطال رجل الصمت فعيب به فقال: إن حظ الرجل في إذنه لنفسه وحظه في لسانه لغيره. وقال آخر: إنّ فوت الصمت أيسر من خطل القول. وقالوا: أبلغ الصمت ما يكون الكلام شراً منه. وقالوا: في الصمت أمان من تحريف القول، وعصمة من زيغ المنطق، وسلامة من فضول القول. وقال أبو نواس:

خلِّ جنبيك لرام وامضِ عنه بسلام
مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام
إنما العاقل من ألـ ـجم فاه بلجام
شبت يا هذا وما تترك أخلاق الغلام
والمنايا آكلات شاربات للأنام

وتكلم رجل بين يدي معاوية رحمه الله فهذر، فلما أطال قال: يا أمير المؤمنين أأسكت؟ قال: وهل تكلمت؟ ثم أقبل على جلسائه فقال: أما ترون هذا يعثر في كلامه بلسانه ويعثر لسانه بكلامه. وتكلم رجل في مجلس ابن عباس رضي الله عنهما فأساء الكلام، فقال ابن عباس رضي الله عنهما لغلام له: أنت حر لوجه الله تعالى، فقال الرجل: ما سبب هذا الشكر يا أبا العباس؟ قال: حمدت الله إذ لم يجعلني مثلك.

ووصف رجل قوماً فقال: منهم من ينقطع كلامه قبل أن يصل إلى لسانه، ومنهم من لا يبلغ كلامه أذن جليسه.

وقال كسرى أنوشروان: عي الصمت خير من عي الكلام. وقال آخر: أعيى العي بلاغة بعي.

وسمع أعرابي رجلاً يتكلم ويهذر، ثم التفت إلى الأعرابي فقال له: ما البلاغة عندكم؟ فقال له: خلاف ما كنت فيه منذ اليوم.

وكان الأصمعي يقول: من جيد أمثالهم: ربما أسمع فأدع، والصمت حكمة وقليل فاعله. والكلام في هذا المعنى كثير، وربما أعيى من فيه أعنى. وقد تقدم فصل من هذا عند ذكر الشعر في أوّل الكتاب.

ويروى أن رجلاً كان يجالس الأحنف بن قيس وكان يطيل الصمت حتى أعجب به الأحنف، ثم إنه تكلم فقال للأحنف: يا أبا بحر أتقدر أن تمشي على شرف المسجد؟ فتمثل الأحنف بالبيت المتقدم:

وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التكلم

ومثله أن رجلاً كان في مجلس أبي يوسف وكان يطيل الصمت، فقال له أبو

يوسف يوماً: ما لك لا تتكلم وتسأل عما بدا لك؟ فقال: بلى أيها الفقيه إني سائلك عن شيء. فقال: سل، فقال: متى يفطر الصائم؟ قال: إذا غربت الشمس، قال: فإن لم تغرب الشمس إلى نصف الليل؟ فتبسم أبو يوسف وتمثل بقول القائل:

وفي الصمت ستر للعيي وإنما صحيفة لب المرء أن يتكلما

وقد تقدم هذا البيت، إلا أنه يروى للغبي بغين منقوطة وباء موحدة، وهو هنا بياءين وعين، وكذا قرأته على الحافظ رحمه الله بالإسكندرية. وفي فوائد أبي القاسم الإدريسي بسنده قال: أنشدنا ثعلب:

عجبت لإزراء العيي بنفسه وصمت الذي قد كان بالأمر أعلما
وفي الصمت ستر للعيي وإنما صحيفة لب المرء أن يتكلما

ومن الفوائد أيضاً وقرأته على الحافظ بسنده إلى أبي الفضل علي بن محمد القطان بزبيد اليمن:

أنت من الصمت آمن الزلل ومن كثير الكلام في وجل
لا تقل القول ثم تتبعه يا ليت ما قلت لم أكن أقل

وأنشدني أيضاً لنفسه:

لعمرك ما للمرء كالرب حافظ ولا مثل عقل المرء للمرء واعظ
لسانك لا يلقيك في الغي لفظه فإنك مأخوذ بما أنت لافظ

قلت: وآفات اللسان أيضاً كثيرة، قالوا في المثل: إياك أن يضرب لسانك عنقك، كذا ذكر أبو عبيد القاسم، وردّ عليه أبو عبيد البكري فقال: إنما هو إياك وأن يضرب، بالواو، كما ورد في الحديث: إذا بلغ الرجل السبعين فإياه وإيا الشواب. وأنشدني فيما يخاف من اللسان:

ويا رب ألسنة كالسيو ف تقطع أعناق أصحابها

وقال آخر:

وقد يرجى لجرح السيف برء وجرح الدهر ما جرح اللسان

وقال آخر:

والقول ينفذ ما لا ينفذ الإبر

وقال آخر:

وجرح اللسان كجرح اليد

وقالوا: اللسان أجرح جوارح الإنسان.

وقال الصاحب بن عباد: حفظ اللسان راحة الإنسان فاحفظه حفظ الشكر

للإحسان، فآفة الإنسان في اللسان. ومما رأيته مسنداً إلى شيخي الحافظ السلفي رحمه الله قال: سمعت أبا علي محمد بن محمد المهدوي الهاشمي ببغداد يقول: سمعت أبي يقول: سمعت يحيى الأزدي النحوي يقول: كنت يوماً في حلقة أبي سعيد السيرافي فجاء أبو عبد الملك خطيب جامع المنصور فقاموا له وأجلّوه، فلما تمكن به المجلس قال: قد قرأت قطعة من هذا العلم وأريد أن أستزيد منه فأيهما خير سيبويه أو الفصيح؟ فضحك من في المجلس، ثم قال له أبو سعيد: يا سيدنا مخده اسم أو فعل أو حرف؟ ففكر ساعة ثم قال: حرف، فضحكوا ثانياً، فلما قام لم يقوموا له، قلت: وكيف يعتدل القول أو يستقيم لذي الفهم السقيم، ألم تسمع قول الشاعر:

وكم من عائب قولاً صحيحاً ... وآفته من الفهم السقيم

وقال آخر:

وليس يصح في الأفهام شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

وفصل الخطاب المفضي إلى عين الصواب ما رأيته ولعلي رويته أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ: يا معاذ أنت سالم ما سكت فإن تكلمت فلك أو عليك. وهذا حديث يسير يحتوي على علم كثير، وقد رأيت أن أثبته بالكلية لعل الله أن ينفعني به بالنية.

فائدة :

قال معاذ رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما عمل إذا عملته دخلت الجنة؟ قال: بخ بخ سألت عظيماً وهو يسير على من يسّره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة المفروضة. وإن شئت نبأتك برأس هذا الأمر وعموده وذروة سنامه، أما رأسه فالإسلام من أسلم سلم، وأما عموده فالصلاة، وأما ذروة سنامه فالجهاد في سبيل الله. إن شئت نبأتك بجوامع من الخير: الصيام جنة، والصدقة تمحو الخطيئة، وقيام العبد في جوف الليل، ثم قرأ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة: ١٦] الآية. وإن شئت نبأتك بما هو أملك بالناس من ذلك، فأشار بإصبعه إلى لسانه، فقلت: وإني لمأخوذ بما تكلمت به؟ فقال: ويحك وهل يكب الناس على وجوههم إلا ألسنتهم؟ إنك سالم ما سكت، فإذا تكلمت فلك أو عليك.

ومما قرأته بالإسكندرية في التاريخ المذكور على الفقيه الشريف أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن العثماني رحمه الله من ذرية عثمان بن عفان رضي الله عنه، قال: سمعت أبا بكر محمد بن عبد الله الفارسي رحمه الله يقول: سمعت الحسن بن

حبيب النيسابوري يقول: سمعت أبي يقول: سمعت محمد بن محمد الورّاق يقول: سمعت يحيى بن معاذ الرازي يقول: إذا سكت فأنا واحد من الناس، وإذا تكلمت فأنا واحد في الناس. قال: وسمعته يقول: أفواه الرجال حوانيتها وأسنانها مفاتيحها، فإذا فتح الرجل باب حانوته تبين العطار من البيطار والتمار من الزمار. وقال الشاعر:

المرء يعجبني وما كلمته ويقال لي هذا اللبيب اللهذم
فإذا قدحت زناده وسبرته في الكف زاف كما يزيف الدرهم

وقال آخر:

ترى الناس أشباهاً إذا جلسوا معاً. وفي الناس زيف مثل زيف الدراهم

وقال عدي بن الرقاع:

القوم أشباه وبين حلومهم بون كذاك تفاضل الأشياء

نادرة :

قال: وحدّثنا محمد بن الحسين بن خلف البغدادي قال: حدّثنا أبو الفضل بن المأمون قراءة عليه قال: حدّثنا أبو بكر الأنباري قال: حدّثنا محمد بن المرزبان، أنبأنا أبو عبد الله محمد بن شجاع قال: حدثنا محمد بن زياد قال: تكلم رجل عند عمر بن عبد العزيز رحمه الله فأحسن، فقال عمر: هذا والله هو السحر الحلال. قلت: الرجل الذي تكلم عند عمر رضي الله عنه هو، والله أعلم، الذي ذكر بعض الرواة أنه لما استخلف عمر بن عبد العزيز فقدم عليه وفود أهل كل بلد فتقدّم إليه وفد أهل الحجاز فاشرأبّ منهم غلام للكلام، فقال عمر: يا غلام يتكلم من هو أسنّ منك، فقال الغلام: يا أمير المؤمنين إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فإذا منح الله عبده لساناً لافظاً وقلباً حافظاً فقد أجاد له الاختيار، ولو أن الأمر بالسنّ لكان هاهنا من هو أحق بمجلسك منك. فقال عمر: صدقت تكلم فهذا هو السحر الحلال. فقال: يا أمير المؤمنين نحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة، لم تقدمنا إليك رغبة ولا رهبة لأنا قد أمنا في أيامك ما خفنا وأدركنا ما طلبنا، فسأل عمر عن سنّ الغلام فقيل: عشر سنين.

وقد روي أن محمد بن كعب القرظي كان حاضراً فنظر إلى وجه عمر قد تهلل عند ثناء الغلام عليه، فقال: يا أمير المؤمنين لا يغلبن جهل القوم بك معرفتك بنفسك، فإن قوماً خدعهم الثناء وغرّهم الشكر فزلت أقدامهم فهووا في النار، أعاذك الله أن تكون منهم وألحقك بسالف هذه الأمة، فبكى عمر حتى خيف عليه وقال: اللهم لا تخلنا من واعظ زاجر. أخذ الشاعر قوله هذا هو السحر الحلال، فقال:

هـو السحر الحلال لمجتنيه ... ولم أر قبله سحراً حلالا

وقالوا: الأصغران القلب واللسان، والأصمعان: القلب الذكي والرأي الحازم. يقال: فلان أصمع القلب، إذا كان حديد القلب، نقلته من الدلائل. قال الشاعر:

وما المرء إلا الأصغران لسانه ... ومعقوله والجسم خلق مصوّر
فإن طرّة راقتك فاخبر فربّما ... أمر مذاق العود والعود أخضر
وما الزين في باد تراه وإنّما ... يزين الفتى مخبوره حين يخبر

وجاء في الشهاب: جمال الرجل فصاحة لسانه. وقال ابن سيرين: ما رأيت على رجل أحسن من فصاحة ولا على امرأة أحسن من شحم. وخرج ثابت رحمه الله أن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه دخل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو أبيض بص، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم، فقال العباس: ما يضحكك يا رسول الله أضحك الله سنك! فقال: أعجبني جمالك يا عمّ النبي، قال: وما الجمال في الرجل يا رسول الله؟ قال: اللسان. وأنشدوا:

رأيت العز في أدب وعقل ... وفي الجهل المذلة والهوان
وما حسن الرجال لهم بحسن ... إذا لم يسعد الحسن البيان
كفى بالمرء عيباً أن تراه ... له وجه وليس له لسان

ويقال: فلان لا أصل له ولا فصل، الأصل: الحسب، والفصل: اللسان. وقالوا: الصورة الحسنة بلا لسان كالبيت الحسن ليس فيه أهل. وكان العتابي لا يبالي بما لبس، فقيل له في ذلك، فقال: أخزى الله امرأ يرضى أن ترفعه هيأتاه جماله وماله، إنما ذلك حظ النساء والرجال الأزرياء لا والله حتى يرفعه كبرياه وأصغراه همته ونفسه ولسانه وقلبه.

وقالوا: زينة الرجل بيانه لا ثيابه. كما قال الآخر لبعض الملوك وكان في جبة له فاحتقره فقال: إن الجبة لا تكلمك إنما يكلمك من فيها. وأنشدني الحافظ رحمه الله بسنده قال: أنشدني المصباح بن منصور الشاركي لنفسه:

إن أمس في سمل والنذل في حال ... فعادة الدهر في ذي الجود والكرم
أما ترى المشجب الديباج ملبسه ... والنصل ملبسه شبران من أدم

وفي المقامات للحريري من هذا المعنى:

ما إن يضرّ العضب كون قرابه ... خلقاً ولا البازي حقارة عشه

وسيأتي قول الشاعر:

عليّ ثياب فوق قيمتها الفلس ... وفيهنّ نفس دون قيمتها الإنس

وخرج الواقدي أن عبد الله بن عوف الأشج قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، فلما رآه نظر إلى رجل دميم فقال عبد الله: يا رسول الله إنه لا يستقي في مسوك الرجال إنما يحتاج من الرجل إلى أصغريه قلبه ولسانه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فيك خصلتان يحبهما الله. وفي رواية: ورسوله، الأناة والحلم. فقال: يا رسول الله أشيء حدث أم جبلت عليه؟ فقال: لا بل شيء جبلت عليه. وفي رواية أنه قال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله.

والحكاية المشهورة عن كثير إذ دخل على عبد الملك بن مروان فقال لما رآه: أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، فقال: يا أمير المؤمنين كل عنده محله رحب الفنا شامخ البنا عالي السّنا، ثم أنشده:

ترى الرجل النحيف فتزدريه ... وفي أثوابه أسد هصور
ويعجبك الطرير إذا تراه ... فيخلف ظنك الرجل الطرير

في أبيات آخرها:

فما عظم الرجال لهم بزين ... ولكن زينهم كرم وخير

ذكر ذلك أبو علي في الأمالي، وذكر أبو عبيد القاسم بن سلام في الأمثال أن قائل ذلك المثل المنذر بن ماء السماء قاله لشقة بن ضمرة، فقال له شقة: إن الرجال ليسوا بجزر يراد منها الأجسام، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه. وقال البكري في شرح الأمثال: إنما قال له إن الرجال لا تكال بالقفزان وليست بمسوك يستقى بها الماء، وإنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، إن قال قال ببيان وإن صال صال بجنان، فأعجب المنذر ما سمع منه.

ودخل بعض العلماء على الرشيد وكان دميم الصورة قصير القامة، فاستحقره الرشيد وقال: ما أقبح هذا الوجه، فقال العالم: يا أمير المؤمنين إن حسن الوجه ليس مما يتوسل به عند الملوك، هذا يوسف عليه السلام أحسن الناس وجهاً ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] ولم يقل: إني حسن الوجه جميل. قال: صدقت ارتفع، فرفع قدره وقرب مجلسه.

ملح وآداب

فصل:

وأما الملح والآداب فقد حدثني السلفي رحمه الله فيما يرويه عن أشياخه أنهم كانوا يقولون: لقاطات الأدب كقراضات الذهب. قلت: وما رأيت أحداً ممن لقيته من

أهل الآفاق إلا وله تعاليق وأوراق تحتوي على حكايات وأشعار ورسائل وأخبار. وهذه الملح هي حلية الكتاب وزينة أهل الآداب وفاكهة أولي الألباب من أهل هذا الباب، تنشط الكسلان وتوقظ الوسنان وتبعث الطالب على الزيادة إلى أن يلحق بالسادة. وقال الأصمعي: توصلت بالملح ونلت بالغريب. وقرأت على الحافظ رحمه الله قال: سمعت أبا الحسين المبارك بن عبد الجبار الطيوري ببغداد وقرأنا عليه جزءاً من حكايات أبي عمرو بن حيوية الخراز يرويه عن أبي الحسن علي بن عمر القزويني الزاهد وفيه ملح ومضاحك، فوضع يده على وجهه وتبسم وقال: لا يسعني إلا الرواية فقد رواه إليّ أزهد خلق الله أبو الحسن القزويني رحمه الله، ثم ساق من فضائل أبي الحسن هذا، قال: سمعت أبا محمد جعفر بن محمد بن الحسين بن السراج النحوي ببغداد يقول: رأيت على أبي الحسن القزويني الزاهد ثوباً رفيعاً ليناً، فخطر ببالي كيف مثله في زهده يلبس مثل هذا، فقال في الحال بعد أن نظر إليّ: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف: ٣٢]. قال: وحضرنا عنده يوماً لقراءة الحديث فتمادى بنا الوقت إلى أن وصلت إلينا الشمس وتأذينا بحرّها، فقلت في نفسي: لو تحرّك الشيخ إلى الظل، فقال والله في الحال: ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ٨١].

وقد كان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول: إني لأستجم نفسي ببعض اللهو ليكون ذلك عوناً لي على الحق. وعن علي رضي الله عنه: سلوا هذه النفوس ساعة بعد ساعة، فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد. وقال أيضاً: إن القلب إذا أكره عمي. وكان ابن عباس رضي الله عنه يقول إذا أفاض من عنده في الحديث بعد القرآن والتفسير: أحمضوا، أي: إذا مللتم من الفقه والحديث وعلم القرآن فخذوا في الأشعار وأخبار العرب، كما أن الإبل إذا ملت ماحلاً من النبت رعت الحمض، وهو ما ملح منه.

ومنه قول الزهري: هاتوا من أشعاركم فإن الأذن مجاجة والنفس حمضة، أي: إنها تشتهي الشيء بعد الشيء كما تفعل الإبل. وسيأتي تفسير الحمض في باب النون بأكثر من هذا إن شاء الله تعالى.

وقال بعض الحكماء: إن للآذان مجة وللقلوب مللاً ففرقوا بين الحكمتين ليكون ذلك استجماماً. ذكر هذه الأخبار الفقيه القاضي أبو الفضل عياض رحمه الله في كتابه الذي سماه كتاب بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد، قال: وفي الحديث من الفقه التحدث بملح الأخبار وطرف الحكايات، تسلية للنفس وجلاء للقلوب.

وهكذا ترجم أبو عيسى الترمذي عليه باب ما جاء في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم في السمر، وأدخل في الباب هذا الحديث يعني حديث أم زرع وحديث خرافة. ثم قال: وهذا كله ما لم يكن دائماً متصلاً، وإنما يكون في النادر والأحيان كما قال ساعة بعد ساعة، وإما أن يكون ذلك عادة الرجل حتى يعرف بذلك ويتخذه ديدناً ويطرف به الناس ويضحكهم دائماً، فذلك مذموم غير محمود دال على سقوط المروءة ورذالة الهمة، وقد عدّ هذا الفنّ الفقهاء فيما يقدح في عدالة الشاهد. قال: وفيه من الفقه جواز المدح في بعض الأحايين وإباحة الدعابة مع الأهل وبسط الوجه واللسان مع جميع الناس بالكلام الحلو السهل، فهو من حسن العشرة. وقد كان عليه السلام يمزح ولا يقول إلا حقاً.

ومن أحسن ما قيل في المزح قول أبي الفتح البستي:

أفد طبعك المكدود بالجدّ راحة ... تجم وعلله بشيء من المزح
ولكن إذا أعطيته المزح فليكن ... بمقدار ما تعطي الطعام من الملح

وكان ابن الماجشون ينشد:

إنما للناس منا ... حسن خلق ومزاح
ولنا ما كان فينا ... من فساد وصلاح

ولغيره:

مازح أخاك إذا أراد مزاحاً ... فإذا أباه فلا تزده جماحا
فلربما مزح الصديق بمزحة ... كانت لكل عداوة مفتاحا

وأنشدني الحافظ لنفسه:

المزح حقاً رأس كل قطيعة ... والمزح منقصة تشين فظيعه
فاتركه فهو يشين من يعتاده ... واهجره فهو إلى الفراق ذريعه

وقال غيره:

إذا طال عمر المرء في غير آفة ... أفادت له الأيام في كرها عقلا
فإياك إياك المزاح فإنه ... يجرّي عليك الطفل والدنس النذلا
ويذهب ماء الوجه بعد بهائه ... ويورث بعد العز صاحبه ذلاً

ولي من شعر لزومي:

قل كيف يرجو فلاحاً ... من كان خصماً فلاحا
فاتركه واترك مزاحاً ... واجعله عنك مزاحا

فائدة زائدة :

المِزاح، بكسر المِيم: مصدر مازحه، وهما يتمازحان، والاسم المُزاح، بالضم. والمزاحة أيضاً مثله، والمزح: الدعابة، والممازحة: المفاكهة.

ومن أمثالهم قولهم: لا تفاكه أمه ولا تبل على أكمه. والفُكاهة، بالضم: المزاح. والفَكاهة، بالفتح: مصدر فكِه الرجل، بالكسر، فهو فكه: إذا كان طيب النفس مزاحاً. والفكه أيضاً: الأشر البطر، وقرئ: (ونعمة كانوا فيها فكهين) أي: أشرين، وقرئ: (فاكهين) أي: ناعمين. وقوله تعالى: ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٥] فمعناه تندمون، وقيل تعجبون لهلاكه بعد خضرته. وقد روى عكرمة في حديث يرفعه: إن النبي صلى الله عليه وسلم كانت فيه دعابة. ويحكى ذلك أيضاً عن علي وابن ثابت وابن سيرين والشعبي وغيرهم. وقد ذكر ابن قتيبة في أدب الكتاب من هذا فصلاً فانظره هناك.

وقد قال عمر رضي الله عنه: ينبغي للرجل أن يكون في أهله كالصبي فإذا التمس ما عنده وجد رجلاً. وعن زيد بن ثابت أنه كان من أفكه الناس في أهله وأجدّهم إذا جلس مع القوم. وكان مالك رحمه الله من أحسن الناس خلقاً مع أهله وولده، وكان يقول: يجب على الإنسان أن يتحبب إلى أهل داره حتى يكون أحب الناس إليهم. وحديث أم زرع مشهور، وهو الذي فسره عياض المذكور رحمه الله، فجاء في سفر صغير.

وأما حديث خرافة، فخرج الترمذي في الشمائل عن عائشة رضي الله عنها قالت: حدّث رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة نساءه حديثاً رضي الله عنهنّ فقالت امرأة: كأنّ الحديث حديث خرافة. فقال: أتدرون ما خرافة؟ إنّ خرافة كان رجلاً من عذرة أسَرَتْه الجنّ في الجاهلية فمكث دهراً فيهم ثم ردّوه إلى الإنس، فكان يحدّث الناس بما رأى فيهم من الأعاجيب، فقال الناس: حديث خرافة، فهذا من حسن خلقه صلى الله عليه وسلم.

وخرّج البخاري رضي الله عنه في باب المداراة مع الناس وفيه يذكر عن أبي الدرداء رضي الله عنه: إنا لنكشر في وجوه قوم وإنّ قلوبنا لتلعنهم. وقال الشاعر في هذا المعنى:

أكاشره وأعلم أن كلاً ... على ما ساء صاحبه حريص

خرّجه ثابت رحمه الله وقال: الكشر بدوّ الأسنان عند التبسم.

وجاء عن مجاهد رضي الله عنه أنه قال: إن الرجلين إذا تلاقيا وتصافحا وتكاشرا

تحاتت ذنوبهما كما تحاتّ ورق الشجر، فقال له رجل: إن هذا ليسير، فقرأ مجاهد: ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٣]. وقالوا: إذا لقيت المؤمن فخالصه، وإذا رأيت الفاجر فخالقه. وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: خالقوا الناس وزايلوهم، ودينكم فلا تهملوه، وفي هذا المعنى قال الشاعر:

خالق الناس بخلق حسن ... ولا تكن كلاً على الناس تهن

والقدوة في هذا الشأن والأسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، استأذن عليه رجل وكان محمقاً جافياً، ومع ذلك كان سيد قومه، فقال: بئس ابن العشيرة، فلما دخل ألان له القول وضحك في وجهه، فقالت له عائشة رضي الله عنها في ذلك، فقال: متى عهدتني فحاشاً، إنّ من شرّ الناس عند الله يوم القيامة من اتّقاه الناس لشرّه، أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

فائدة زائدة:

هذا الرجل هو عيينة بن حصن، وقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: خالقوا الناس، المخالقة: ضدّ المخالفة، وهي موافقة الناس على أخلاقهم، وخلق الإنسان هو الذي طبع عليه. ويقال: فلان كريم الخلق وكريم الخليقة، والجمع الأخلاق والخلائق. ومن وصية لبعض العلماء: حق على العاقل أن يخالق من لقيه وأن يتزيّا بزيّ من ساكنه. وقد قال بعض الشعراء:

إن جئت أرضاً أهلها كلهم ... عور فغمض عينك الواحده

وقالوا: كل من الطعام ما تشتهي، والبس من الثياب ما تشتهي الناس، يريد أنه لا يعلم أحد ما في بطنك كما يعلم ما على ظهرك.

فصل:

وأما تعلم العربية فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: أعربوا القرآن فإنه عربي. وكفى بمن لا يحسن إعراب القرآن أنه لا تجوز الصلاة خلفه لأنه يلحن فيقول ما لم يقله الله ولا رسوله.

ومن أشدّ ما رأيت في اللحن ما خرّجه الخطابي رحمه الله عن الأصمعي قال: إنّ أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو إذا لم يعرف النحو أن يدخل في جملة قول النبي صلى الله عليه وسلم: من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار، لأنه لم يكن يلحن، فمهما رويت عنه ولحنت فقد كذبت عليه. وقال الأصمعي أيضاً: سمعت حماد بن سلمة يقول: من لحن في حديثي فليس يحدث عني.

وقال الخليل: لحن أيوب فقال: أستغفر الله. وسأل رجل الحسن فقال: يا أبا سعيد الرجل يتعلم العربية يلتمس بها حسن المنطق ويقيم بها قراءته، فقال: يا ابن أخي فتعلمها فإن الرجل يقرأ الآية فيعني بوجهها فيهلك فيها.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أعربوا الكلام كي تعربوا القرآن.

وقال عمر رضي الله عنه: تعلموا إعراب القرآن كما تعلمون حفظه.

وقال أبو بكر الصديق: لأن أعرب آية من القرآن أحبّ إليّ من أن أحفظ آية، ذكر هذا أبو عبيد رحمه الله في كتاب فضل القرآن.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لأن أقرأ فأخطئ أحبّ إليّ من أن أقرأ فألحن، لأني إذا أخطأت رجعت وإذا لحنت افتريت.

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يضرب ولده على اللحن.

وقال رجل للحسن: يا أبو سعيد، فقال له الحسن: كسبك للمال شغلك أن تقول يا أبا سعيد، ثم قال: تعلموا الفقه للأديان والطب للأبدان والنحو للسان.

وأتى عثمان البستي إلى الحسن فقال: ما تقول أصلحك الله في رجل زعف؟ فقال له الحسن: وما زعف؟ لعلك تريد رعف. قال فاستحيى البستي وطلب العربية.

نوادر في اللحن :

ودخل رجل على زياد فقال له: إنّ أبينا هلك وإنّ أخينا غلبنا على ميراثنا في أبانا، فقال له زياد: ما ضيعت من نفسك أكثر مما ضاع من مالك.

وجاء رجل إلى أحد الفقهاء فقال له: رجل هلك وترك أبيه وأخيه، فقال له: قل وترك أباه وأخاه، فقال الرجل: وترك أباه وأخاه فما لأباه وما لأخاه، قال له: قل فما لأبيه وما لأخيه، فقال له الرجل: ما أراك تريد إلا خلافي، ومر وتركه.

وسمع أعرابي إماماً يقرأ: (ولا تَنكحوا المشركين حتى يؤمنوا) بنصب التاء، فقال: سبحان الله هذا قبل الإسلام قبيح فكيف بعده؟ فقيل له: إنه لحن وإنما القراءة (ولا تُنكحوا)، فقال: قبحه الله لا تجعلوه بعدها إماماً فإنه يحل ما حرّم الله.

ودخل أعرابي السوق فسمعهم يلحنون فقال: سبحان الله يلحنون ويربحون.

وقال بعض السلف: ربما دعوت فلحنت فأخاف أن لا يستجاب لي.

وسمع الأصمعي رجلاً يدعو ربه ويقول في دعائه: يا ذو الجلال والإكرام، فقال له: ما اسمك؟ فقال: ليث، فقال:

يناجي ربه باللحن ليث ... لذاك إذا دعاه لا يجيب

وحدّث هيثم عن بعض المشيخة أن رجلاً أتى منزل إبراهيم فقال: أهاهنا

أبا عمران؟ فسكت إبراهيم فقال: أهاهنا أبي عمران؟ فقال إبراهيم: قل الثالثة وادخل.

ومرّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوم يتناضلون ورمى بعضهم فأخطأ، فقال له عمر: أخطأت، فقال: يا أمير المؤمنين نحن متعلمين، فقال: والله لخطاؤك في كلامك أشدّ علينا من خطائك في نضالك، احفظوا القرآن وتفقهوا في الدين وتعلموا اللحن. واللحن في هذا الموضع اللغة، قاله الأصمعي. وقال غيره: هو نوع من التعريض من قوله تعالى: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ [محمد: ٣٠] أي: في نحوه ومعناه. قال الشاعر:

ولقد لحنت لكم لكيما تفهموا ... واللحن يفهمه ذوو الألباب

أي: بينت لكم. واللحَن، بفتح الحاء: الفطنة، وربما سكنوا الحاء فيها. وأما في الخطأ فالسكون لا غير. يقال: لحن الرجل يلحن لحناً فهو لاحن، ومن الفطنة لحن يلحن لحناً فهو لحن. ويقال: لحنت للرجل فلحن لحناً، أي: فهمته ففهم، وألحنته أنا إياه إلحاناً فهو لحن. وهذا المعنى أراد الشاعر بقوله:

منطق صائب وتلحن أحيا ... ناً وخير الحديث ما كان لحنا

وهذا البيت للفزاري، واسمه مالك بن أسماء، يكنى أبا سعيد، كان من شعراء الدولة الأموية وفي هذا الشعر:

أمغطي مني على بصري للـ ... ـحب أم أنت أجمل الناس حسنا

أخذه من قول الآخر:

فوالله ما أدري أزيدت ملاحة ... وحسناً على النسوان أم ليس لي عقل

وجاء في الحديث من ذكر اللحن قوله عليه الصلاة والسلام: إنكم تختصمون إليّ ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من الآخر فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار.

• وجاء منه أيضاً ما قال للرجال من أصحابه الذين بعثهم عيناً لينظروا إلى عدوّهم من اليهود، وكانوا مصالحين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فبلغه عنهم أنهم قد نقضوا الصلح، فقال عليه الصلاة والسلام للقوم الذين بعثهم: انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فأخبروا به الناس. فمضى القوم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم من الغدر فجاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلموا عليه وقالوا: عضل والقارة، وهما قبيلتان من العرب كانوا قد غدروا أيضاً ونقضوا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، أي: فهؤلاء في الغدر كأولئك. قلت: واللحن قبيح إذا لم يغيّر المعنى

فكيف إذا غيّره.

فائدة :

وقد أرخص كثير من العلماء أن يصلح اللحن الذي يأتي في الحديث من قبل النقلة. روي عن الأوزاعي رحمه الله أنه قال: أعربوا الحديث فإن القوم كانوا عرباً، وقال: لا بأس بإصلاح اللحن في الحديث. وقال عمر بن شيبة: قال لي عفان: قال لنا همام: ما سمعتم من حديث قتادة فأعربوه، فإن قتادة كان لا يلحن. ثم قال لنا عفان: قال لنا حماد بن سلمة: من لحن في حديثي فليس يحدّث عني، وقد تقدم.

وعن الحسن بن علي الحلواني قال: ما وجدتم في كتابي عن عفان لحناً فأعربوه فإنّ عفان كان لا يلحن، وقال لنا عفان: ما وجدتم في كتابي عن حماد بن سلمة لحناً فأعربوه فإنّ حماداً كان لا يلحن.

وقال حماد: ما وجدتم في كتابي عن قتادة لحناً فأعربوه فإن قتادة كان لا يلحن.

وقد أجاز بعض العلماء أن يترك المكتوب على حاله ويعتذر عنه ويقرأ على الصواب ويحتج بقول عثمان بن عفان رضي الله عنه في القرآن العزيز: أرى فيه لحناً وستقيمه العرب بألسنتها، فأقامه رضي الله عنه بلسانه وترك الرسم على حاله. وقد ذكر ابن قتيبة رحمه الله كثيراً من هذا النوع في مشكل القرآن له مثل: ﴿ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾ [طه: ٦٣] ﴿ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [النساء: ١٦٢] ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وغير ذلك، وخرّج وجوهها والحمد لله، فانظره في هناك تراه إن شاء الله تعالى.

وقد اختلف أهل الحديث في ذلك، فمنهم من رأى أنه لا يسمع الراوي له إلا أن يأتي بالألفاظ التي سمع وقرأ بلا زيادة ولا نقصان، كما يروى عن أبي معمر قال: إني لا أسمع الحديث لحناً فألحن اتباعاً لما سمعت. ومنهم من يتساهل في ذلك فيقول: إذا أتيت بمعنى الحديث فلا أبالي بألفاظه. وعلى هذين الطريقتين طائفة من العلماء رحمهم الله. والأحسن والأولى إيراد اللفظ والمعنى. والله الموفق والمعين.

لطيفة :

وممن لحن متعمداً اتباعاً للمخاطب وأدباً معه الشعبي رضي الله عنه، وكان من العلم والعربية، حيث دخل يوماً على الحجاج، وكان الحجاج أيضاً فصيحاً، حتى إنه يضرب به المثل في الفصاحة، فقال له الحجاج: كم عطاك؟ قال: ألفين، قال: ويحك كم عطاؤك؟ قال: ألفان، قال: فلم لحنت فيما لا يلحن فيه مثلك؟ قال: لحن الأمير

فلحنت، وأعرب فأعربت، ولم أكن ليلحن الأمير فأعرب أنا عليه فأكون كالمقرّع له بلحنه والمستطيل عليه بفضل القول، فأعجبه ذلك ووهب له مالاً، وتقدّم ذكر فصاحة الحجاج.

أرسلت مرة للخطيب أبي محمد رضي الله عنه كتاباً فيه مقطوعة من الشعر ذكرت فيها حاجتي، فكتب إليّ كذلك منظوماً فيه جواب كتابي أوّله:

وافى كتابك يا أبا الحجاج تبدو عليه فصاحة الحجاج

إن أردت الكتابين انظرهما في التكميل.

وقال عبد الملك بن عمير: رأيت فصحاء الناس أبان بن عمرو بن عثمان ومحمد بن سعد بن أبي وقاص وأبان بن سعيد والحسن بن أبي الحسن البصري وأبا الأسود الدؤلي. فأما أبان بن عمرو فإنه كان يصلي فسمع رجلاً يقول: ركبت دابتي فقمصت بي قمصاً، فخفف الصلاة وقال: قماصاً لا أمّ لك. وقد ذكر الخطابي رحمه الله هذه اللفظة وأنشد شاهداً على ذلك لأبي النجم:

ليس خليلي بالملول اللاصي ولا ببرذون خصاه الخاصي

فلج في ذعر وفي قماص

وأما محمد بن سعد فإني سمعته يوماً يتكلم فسبق إلى لسانه ما لم يرد فلحن فقال: حسبي الله، والله لوجدت حرارتها في حلقي قبل أن أتكلم، أما والله ما نعرف سينكم من ميمكم من رائكم، ولكن والله إن تكلمنا لنعربن.

وأما أبان بن سعيد فكان يقول: اللحن في الرجل ذي الهيبة كالدنس في الثوب الجيد. وقال ابن شبرمة: زين الرجال النحو وزين النساء الشحم. وأما الحسن فإنه قال يوماً: توضيت، فقيل له: أتلحن يا أبا سعيد؟ فقال: إنها لغة هذيل وفيها فساد. انتهى كلامه، خرّجه ثابت بن قاسم في الدلائل رحمه الله، ولم يذكر لأبي الأسود شيئاً. ويقال: إنه أوّل من وضع النحو. ويقال: علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

سبب وضع النحو :

ذكر أن رجلين تداعيا إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فادّعى أحدهما قبل الآخر مالاً، فأعذر عليّ إلى الآخر في ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين ما له عندي حق، فقال: ادفع له ماله، فقال: وكيف ذلك وأنا أردت نفي المال عني؟ فقال علي رضي الله عنه: فسد اللسان ورب الكعبة، يا أبا الأسود انحُ للناس نحواً يعتمدون عليه، فقال: وكيف أقول يا أمير المؤمنين؟ فقال: قل الكلام عربيه وعجميه لا يخلو من ثلاثة أشياء: اسم وفعل وحرف، ذكر ذلك الأستاذ أبو نصر رحمه الله.

وقيل: إن أبا الأسود سمع بنية له صغيرة تقول وقد نظرت إلى السماء فقالت له: يا أبت ما أحسنُ السماءِ؟ فقال: نجومها، فقالت: لم أرد هذا إنما أردت أن السماء حسنة، فقال لها: فقولي ما أحسنَ السماءَ. فلما أصبح ذهب إلى علي فذكر ذلك له وقال: إنني أخاف أن يفسد لسان العرب، فصنع أبواباً في علم العربية ثم زاد عليها من بعده حتى صار إلى ما ترى. وكما أوردت الحكاية نقلتها من حفظي بلفظي والحمد لله.

وقيل: إنما صنع ذلك حين سمع رجلاً يقرأ: (إن الله بريءٌ من المشركين ورسولِه) بالجرّ، فقال: لا يسعني إلا أن أصنع شيئاً أصلح به لحن هذا أو كلاماً هذا معناه. ويقال: إن زياداً سأله ذلك فأبى عليه، فبعث زياد رجلاً يقعد له بطريقه وأمره أن يقرأ شيئاً من القرآن ويتعمد اللحن، فقرأ: (إن الله بريء من المشركين ورسولِه) بالجرّ فاستعظم ذلك أبو الأسود وقال: عزّ وجه الله، إن الله لا يبرأ من رسوله. ثم رجع من فوره إلى زياد فقال: يا هذا قد أجبتك إلى ما سألت، وكان زياد من فصحاء الناس وبلغائهم، وكان أبو الأسود رحمه الله واسمه ظالم بن عمرو يعدّ في الصحابة والتابعين والمحدّثين والشعراء والنحويين، وقد ذكره الخطابي رحمه الله في كتابه، وقال عن محمد بن سلام الجمحي قال: أوّل من أسس العربية وفتح بابها وأنهج سبلها ووضع قياسها أبو الأسود، وكان رجلاً من أهل البصرة، وإنما فعل ذلك حين اضطرب كلام العرب فغلبت السليقة. ثم قال: السليقة من الكلام ما كان الغالب عليه السهولة، وهو مع ذلك فصيح اللفظ منسوب إلى السليقة وهي الطبيعة. يقال: يقرأ بالسليقة، أي: بطبعه، لم يقرأ على القرّاء ولم يأخذه عن تعليم. قال الشاعر:

ولست بنحويّ يلوك لسانه ... ولكن سليقيّ أقول فأعرب

ومما قيل من الشعر في اللحن واستحسن:

النحو يبسط من لسان الألكن ... والمرء تكرمه إذا لم يلحن
وإذا طلبت من العلوم أجلّها ... فأجلّها منه مقيم الألسن

وكان يقال: إذا أردت أن تعظم في عين من كنت عنده صغيراً، ويصغر في عينك من كان عندك كبيراً، فتعلم العربية.

وقال الشعبي: الآداب والعربية رأس كل صناعة. وقال أبو محمد بن العلا: قال حماد ابن سلمة رحمه الله: أنفقت على الأدب أربعة آلاف، فليت ما أنفقت على الحديث أنفقت على الأدب، فإن النصارى صحفوا حرفاً فكفروا (أوحى الله إلى عيسى ابن مريم أنت نبيي وأنا ولدتك) فقرؤوا: (أنت بنيي وأنا ولدتك) فكفروا.

وقال عبد الملك بن مروان: أصلحوا من ألسنتكم فإن المرء تنوبه النائبة فيستعير

الثوب والدابة ولا يمكنه أن يستعير اللسان.

وحدّث قاسم بن أصبغ قال: حدّثنا المبرد قال: حدّثنا أبو حاتم عن الأصمعي عن أبي محرز خلف الأحمر مولى بلال بن أبي بردة قال: قرأنا الكتب وقلبناها فكلها نجدها علينا وإنما نتعزى بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من تكلم بالعربية ورضي دين العرب ديناً لنفسه ورضي حكمها له وعليه فهو عربي وقد برئ من العجمة وبرئت منه. قال أبو محرز: إلا أنا إذا تدابرنا في الأوائل وجدنا العرب أرجح حظاً ولا سيما من اتقى الله منهم. قال أبو العباس: وكان خلف الأحمر مولداً ظريفاً نحوياً شاعراً.

ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لسلمان الفارسي رضي الله عنه: يا سلمان لا تبغضني فتفارق دينك، فقال: يا رسول الله وكيف أبغضك وبك هدانا الله؟ قال: تبغض العرب فتبغضني. وفي حديث آخر عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال لسلمان الفارسي رضي الله عنه: أحبَّ العرب لثلاث: قرآنك عربي ونبيك عربي ولسانك في الجنة عربي. وستأتي هذه الحكاية أطول من هذا إن شاء الله.

وفي حديث آخر عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: إن الله خلق الخلق فاختار من الخلق بني آدم، واختار من بني آدم العرب، واختار من العرب مضر، واختار من مضر قريشاً، واختارني من قريش، فأنا خيار من خيار إلى خيار، فمن أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم. وفي حديث آخر: إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم. أخذ هذا المعنى شيخنا الخطيب الفقيه أبو محمد عبد الوهاب بن علي القيسي رضي الله عنه فقال:

للعرب الفضل على الناس	وخيرها أولاد الياس
والنضر منظور إلى فضله	ثم قريش عزها راسي
والسادة الغرّ بنو هاشم	خيارها في الجود والباس
والمصطفى خير بني هاشم	وخير مبعوث إلى الناس

في قطعة ستراها مع أخرى للفقيه أبي محمد عبد الحق، وأخرى لي في باب السين من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وأما الشعر فديوان العرب الأبعد منهم والأقرب. وقد قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: إن من الشعر لحكماً ويروى: لحكمة. فأما تفسير الحكمة فهو ما وقع في

شرح الشهاب لأبي القاسم بن إبراهيم الوراق، قال ابن دريد: الحكمة كل كلمة وعظتك أو زجرتك أو دعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح، فهي حكمة وحكم، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ [مريم: ١٢]. وقال النبي عليه الصلاة والسلام: الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها قيدها ثم اتبع ضالة أخرى ينتفع بها ويردع نفسه عن هواها.

وقال مكحول: سمع ابن جريج كلمة حكمة فقال: ضالتي ورب الكعبة. وسيأتي تفسير الحكم إن شاء الله تعالى.

وقال ابن عباس في قول الله عز وجل: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩] قال: المعرفة بالقرآن.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ [لقمان: ١٢] قال: الفقه والإصابة في القول.

مطلب في الشعر :

وأما الشعر فقد مدح به الرسول صلى الله عليه وسلم فأثاب عليه، وقال عليه الصلاة والسلام: إنما الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح، رواه ابن حبيب. وقد كان له شعراء مثل عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت الذي قال له النبي صلى الله عليه وسلم: أجب عن رسول الله، اللهم أيده بروح القدس، وفي رواية: اهجهم أو هاجهم وجبريل معك. وقد أنشده ابن أبي سلمى بمسجده في مشهده فقال:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول

وفيها من التشبيب ما يسبي لب اللبيب، فلم يردّ عليه النبي ما قاله ولا كره منه تلك المقالة. وقد كان عليه الصلاة والسلام يستنشد الشعر فينشد ثم يستزيد فيزاد ويعجبه ذلك إذا وافق صاحبه الحق.

وذكر ابن الأنباري عن أبي بكرة قال: كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أعرابي ينشده الشعر، فقلت: يا رسول الله أشعراً أم قرآناً؟ فقال: في هذا مرة وفي هذا مرة. وقال في الكتاب: كان الرجلان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يتناشدان الشعر وهما يطوفان حول البيت، وسيأتي هذا المعنى مستوفى في باب الهاء من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى. فإن أردت أن تعرف مقدار الشعر وأنه عند قائله أنفس من الدر فانظر ما خرّج ابن هشام وما ذكره في كتاب السير أن حسان بن ثابت رضي الله عنه لما قال قصيدته التي أوّلها:

منع النوم بالعشاء هموم ... وخيال إذا تغور النجوم

قالها ليلاً فدعا قومه فقال لهم: خشيت أن يدركني أجلي قبل أن أصبح فلا تروونها عني. ولذا كان العلماء رضي الله عنهم يرون درجة من لا يقوله نازلة لا سيما عند النازلة. وقال سعيد بن المسيب رضي الله عنه وقد قيل له: إنّ فلاناً ينشد الشعر، فقال: تنسك نسكاً أعجمياً أبو بكر شاعر وعمر شاعر وعليّ أشعر الثلاثة. وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: كنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وما بالمدينة بيت إلا يقول الشعر، فقيل له: وما هو؟ فقال:

يريد المرء أن يؤتى مناه ... ويأبى الله إلا ما أرادا

يقول المرء فائدتي ومالي ... وتقوى الله أفضل ما استفادا

وقال بعض السلف: الشعر لا ينكره إلا أحد رجلين، مراءٍ يظهر بذلك نسكه، أو جاهل به لا يصلح لروايته.

يحكى أن أبا عبيد الله بن زياد دخل على معاوية رضي الله عنه فأجلسه معه على سريره وقال له: يا ابن أخي أقرأت القرآن؟ قال: نعم، قال له: ورويت الشعر؟ قال: ما أروي منه شيئاً لأني تجنّبته، قال له: ولم يا ابن أخي فوالله لقد رأيتني بصفين وإني لعلى الهرب فما ردّني إلا قول عمرو بن الإطنابة:

أبت لي عفتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمد بالثمن الربيح

وإقدامي على المكروه نفسي ... وضربي هامة البطل المشيح

وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي

أدافع عن مآثر صالحات ... وأحمي بعد عن عرض صحيح

فلم كرهت الشعر؟ أي بني اروه كلما تهيأ لك أن ترويه، فإنه يشجع الجبان، ويسخي البخيل ويهز البليد. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر يقدمها في صدر حاجته فيستعطف بها قلب الكريم ويستميل بها نفس اللئيم. وكان رضي الله عنه متى عرضه أمر أنشد فيه شعراً. وكذلك روي عن عائشة رضي الله عنها. وسيأتي ذلك إن شاء الله تعالى. قلت: رضي الله عن عمر إذ يقول في الشعر: يستعطف به قلب الكريم.

حدّث الأصمعي قال: سمعت بيتين لم أحتفل بهما، ثم قلت: هما على كل حال خير من موضعهما من الكتاب، وهما:

إذا شئت أن تلقى أخاك معبساً ... وجداه في الماضين كعب وحاتم

فكشفه عما في يديه فإنما ... تكشف أخلاق الرجال الدراهم

قال: فإني لعند الرشيد ذات يوم، وذكر حديثاً طويلاً دار إلى معنى البيتين، فقلت في نفسي: جاء موضع البيتين فأنشدتهما الرشيد وكان غضبان، قال: فتجلى عن الرشيد وأمر لي بألفي دينار في البيتين وما كانا يساويان عندي درهمين.

وقال عمر رضي الله عنه: علموا أولادكم العوم والرماية ومروهم فليثبوا على الخيل وثباً ورؤوهم ما يحسن من الشعر. وفي رواية: وخير الخلق للمرأة المغزل. ذكره في هذا الخبر العوم من قول عمر رضي الله عنه، وقد جاء من قول النبي صلى الله عليه وسلم ذكره ابن أبي زمنين في كتاب آداب الإسلام.

وقال عن ابن أبي مليكة أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه انتهوا إلى غدير فسبحوا فيه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ليسبح كل رجل منكم إلى صاحبه وأنا أسبح إلى صاحبي، فسبحوا وسبح النبي عليه الصلاة والسلام إلى أبي بكر، وسيأتي الكلام على الرمي في باب الهاء مع الركوب إن شاء الله. قلت: والشيء يذكر بالشيء، ذكرني عوم النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه المذكورين في هذا الخبر مسابقته صلى الله عليه وسلم مع عائشة رضي الله عنها، خرّج ابن أبي زمنين في كتابه المذكور عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر من أسفاره قالت: فنزلنا منزلاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تعالي حتى أسابقك، فسبقته. وخرجت معه بعد ذلك في سفر آخر فنزلنا منزلاً فقال: تعالي حتى أسابقك، فسبقني، ثم ضرب بيده بين كتفيّ وقال: هذه بتلك.

وكان عروة بن أذينة الفقيه المحدّث الذي روى عنه مالك وغيره رحمة الله عليهم شاعراً مجيداً مغرماً في الشعر، وكان من أجلّ علماء المدينة، وكان مع علمه وثقته وثبوته رقيق الغزل. يحكى أن امرأة وقفت عليه فقالت له: أنت الذي يقال عنه الرجل الصالح العالم؟ وأنت القائل:

إذا وجدت أوار الحب في كبدي ... أقبلت نحو سقاء القوم أبترد
هبني بردت ببرد الماء ظاهرة ... فمن لحر على الأحشاء يتقد

والله ما خرج هذا من قلب سليم، أو كما قالت، هذا معناه. وكان رضي الله عنه عزيز النفس أبيّ الطبع، وفد على هشام بن عبد الملك فقال له: ألست القائل:

لقد علمت وما الإسراف لي طمع ... أنّ الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى إليه فيعييني تطلبه ... ولو قعدت أتاني لا يعييني

قال: نعم، قال: فما أقدمك علينا؟ قال: سأنظر في أمري، وخرج من فوره ذلك فأخبر بذلك هشام فأتبعه بجائزة.

رجع الكلام إلى معنى الشعر المتقدم وفضائله. قال الأصمعي: لما أنشد أشجع بن عمرو السلمي قصيدته التي برز فيها، فلما انتهى إلى قوله:

وعلى عدوّك يا ابن عمّ محمد رصدان ضوء الصبح والإظلام
فإذا تنبه رعته وإذا غفا سلت عليه سيوف الأحلام

فلما سمع هذين البيتين استوى جالساً طرباً، وقال: هكذا والله تمدح الملوك. ووقع في الشهاب قول الرسول عليه الصلاة والسلام: إنّ من الشعر لحكماً وإنّ من القول عياً وإنّ من البيان لسحراً. قال بعض العلماء: معنى: إنّ من الشعر لحكماً، أنّ منه ما يلزم المقول له كلزوم الحكم للمحكوم عليه إصابة للمعنى وقصداً للثواب، وفي هذا يقول أبو تمام:

ولولا سبيل سنها الشعر ما دري بغاة الندى من حيث تؤتى المكارم
يرى حكمة ما فيه وهو فكاهة ويرضى بما يقضى له وهو ظالم
ولم أر كالمعروف ترعى حقوقه مغارم في الأقوام وهي مغانم
وإنّ العلي ما لم ير الشعر بينها لكالأرض غفلاً ليس فيها معالم
وما هو إلا القول يسري فيغتدي له غرر في أوجه ومواسم

ويروى: ومياسم، الميسم: المكواة، وأصل الياء واو، فإن شئت قلت في جمعه: مياسم، على اللفظ. وإن شئت قلت: مواسم، على الأصل. كما قال صاحب كتاب تاج اللغة: والأحسن عندي أن يكتب مثل هذا بالياء فرقاً بينه وبين مواسم الحج الذي واحدها موسم بالواو لا غير. فمن حكمه أن بني أنف الناقة كان إذا ذكر أنف الناقة عند أحد منهم غضب فضلاً عن أن يسب أحد منهم به أو يعير، فما هو إلا أن قال الحطيئة فيهم:

قوم إذا عقدوا عقداً لجارهم شدّوا العجاج وشدّوا فوقه الكربا
قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا

فلما قال هذا فيهم جعلوا يفخرون بهذا البيت، وإذا سئل أحدهم عن نسبه لم يبدأ إلا بابن أنف الناقة بعدما كان يغضب إذا ذكر. وأنف الناقة هو جعفر بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم. وكذلك كان بنو العجلان بضدّ هذا يفخرون بهذا الاسم ويتشرفون به، لأن جدّهم عبد الله بن كعب سمي العجلان لأنه كان يعجل قرى الأضياف. ونزل به حيّ من طيئ فبعث إليهم عبداً له بقراهم وقال له: أعجل عليهم، ففعل العبد فأعتقه لعجلته، فقال القوم: ما ينبغي أن يسمى هذا إلا العجلان، فسمي به فكان شرفاً لهم إلى أن هجاهم أحد الشعراء فقال:

وما سمي العجلان إلا بقوله … خذ العقب واحلب أيها العبد واعجل

فصار الرجل منهم إذا سئل عن نسبه قال: كعبي، ويكني عن العجلان. ويروى أنهم استعدوا عمر بن الخطاب رضي الله عنه على هذا الشاعر وقالوا: هجانا، فقال: وما قال فيكم؟ فأنشدوه:

إذا الله عادى أهل لؤم وذلة … فعادى بني العجلان رهط ابن مقبل

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فإن الله لا يعادي مسلماً، قالوا: فقد قال:

قبيلته لا يغدرون بذمة … ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال: وددت أن آل الخطاب كانوا كذلك، قالوا: فقد قال:

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم. … وتأكل من عوف بن كعب بن نهشل

فقال: كفى ضياعاً بمن تأكل الكلاب لحمه، قالوا: فقد قال:

ولا يردون الماء إلا عشية … إذا صدر الوزاد عن كل منهل

فقال: ذلك أصفى للماء وأقل للزحام، قالوا: فقد قال:

وما سمي العجلان إلا بقوله … خذ العقب واحلب أيها العبد واعجل

قال: سيد القوم خادمهم.

قال الذي أورد الحكاية: وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أعلم بما في هذا الشعر من الذم ولكنه درأ الحدود بالشبهات. ومثل هذه الحكاية في الاستعداء بعمر رضي الله عنه ما يروى أن الحطيئة هجا الزبرقان بن بدر بقوله:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها … واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فلما بلغت الزبرقان استعدى عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأنشده البيت، فقال عمر رضي الله عنه: ما أرى به بأساً، فقال الزبرقان: والله يا أمير المؤمنين ما هُجيت ببيت قط أشدّ عليّ منه. فبعث عمر إلى حسان بن ثابت رضي الله عنهما فقال: انظر إن كان هجاه، فقال حسان رضي الله عنه: ما هجاه ولكن سلح عليه. ولم يكن عمر رضي الله عنه يجهل موضع الهجاء في البيت، ولكنه كره أن يتعرّض لشأنه، فأمر بالحطيئة إلى الحبس وقال: يا خبيث لأشغلنك عن أعراض المسلمين. فكتب إليه من الحبس يستعطفه:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ … زغب الحواصل لا ماء ولا شجر

ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة … فاغفر عليك سلام الله يا عمر

أنت الإمام الذي من بعد صاحبه … ألقت إليك مقاليد النهى البشر

مـا آثـروك بهـا إذ قدّمـوك لهـا ... لكـن لأنفسـهم إذ كانـت الأثـر

ويروى: لكن بك استأثروا. فلما قرأها عمر رضي الله عنه أمر بإطلاقه وأخذ عليه أن لا يهجو مسلماً. وقوله في الشعر: الكاسي، أراد المكسو، كما قال الله تعالى: ﴿مِّن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦] أي: مدفوق، و﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]، لأنه يقال: كُسِيَ العريانُ، ولا يقال: كُسَا. قاله الفراء رحمه الله. وفي هذا الشعر بعد البيت المتقدّم:

مـن يفعل الخيـر لا يعدم جوازيه ... لا يـذهب العـرف بـين الله والـناس

ومن نوع ما تقدّم إن من الشعر لحكماً ما يروى أن المحلق كان خاملاً لا يذكر، حتى طرقه الأعشى في فتية وليس عنده إلا ناقة، فأتى أمه فقال: إنّ فتية طرقونا الليلة فإن رأيت أن تأذني لي في نحر الناقة، فقالت: نعم يا بني، فنحرها واشترى لهم ببعض لحمها شراباً وشوى لهم بعض لحمها، فأصبح الأعشى ومن معه راحلين، فلم يشعر المحلق حتى أتته القصيدة التي أوّلها:

أرقـت ومـا هـذا السـهاد المـؤرّق

وفيها:

وبـات علـى الـنار الـندى والمحلـق

وهي مشهورة، فاشتهر وعرف كرمه وكانت أمه تخطب إليه وتقول:

وبـات علـى الـنار الـندى والمحلـق

كذا رأيته في كتاب تاج اللغة: المحلق وبيّنه فقال: المحلِّق، بكسر اللام: رجل من ولد أبي بكر بن كلاب من بني عامر الذي يقول فيه الأعشى:

وبـات علـى الـنار الـندى والمحلـق

وقال فيه أيضاً:

تـروح علـى آل المحلـق جفـنة ... كجابـية الـشيخ العراقـي تفهـق

وقد فسر صاحب الكامل الشيخ، وذكر فيه رواية أخرى: السيح، بالسين والحاء المهملة، وفي هذا الشعر:

لعمـري قـد لاحـت عـيون كثيـرة ... إلـى ضـوء نـار بالـبقاع تحـرق
تـشب لمقـرورين يـصطليانها ... وبات على النار الندى والمحلـق
رضـيعي لـبان ثـدي أم تحالفـا ... بأسـحم داج عـوض لا نتفـرق
ترى الجود يجري سائلاً فوق وجهه ... كمـا زان مـتن الهندوانـي رونـق

تقدّم ذكر الأعشى وليس واحداً. قال ابن دريد رحمه الله: العشي من الشعراء

ثمانية. قال أبو عبيد البكري رحمه الله وقد حكى قوله: وتتبعتهم أنا فوجدتهم خمسة عشر أعشى، ثم سماهم. انظرهم في اللآلي من تآليفه. قلت: وأنت أي بني أظنك لا تعرف الأعشى ولا العشا، وإنما تعرف العشا من أجل العشا، فدونك هذه الفائدة بارزة من الغشا: قال أهل اللغة: الأعشى الذي لا يبصر إذا أظلم عليه الوقت بالليل، والأغطش: الضعيف البصر، والأخفش كذلك، ويزيد عليه صغر العين. والأحول: الذي ينظر إلى المحاجر، والأقبل: الذي ينظر إلى عرض أنفه، والأزرق: الأخضر الحدقة، والأملح: أشد من الزرق، وهو الذي يضرب إلى البياض. والأدعج: الشديد سواد العين، والأحور: الشديد سواد العين الشديد بياض الأبيض منها. والأنجل: الواسع العينين في حسن. والأشكل: الذي يخالط الحمرة سواد عينيه. والأشهل: أن تكون الحمرة أكثر من صاحب الشكلة.

قال بعض الحكماء: قال الله تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات: ٤٩]، فالكلام زوجان: منثور ومنظوم، فالمنثور قول العامة، والمنظوم قول الشعراء، يريد ما يحل من هذا يحل من هذا، وما يحرم من هذا يحرم من هذا، قال الشاعر:

وما الشعر إلا خطبة من مؤلف   لمنطق حق أو لمنطق باطل

وخرّج أبو نعيم الحافظ رحمه الله في كتاب حلية الأولياء وذكر الشعر، فقال: فأما الشعر المحكم الموزون فهو من الحكم الحسن المخزون، يخص الله به البارع في العلم ذا الفنون، فقد كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يشعرون. قلت: والكلام القبيح حرام من أي نوع كان، مثل مدح الخمر والكلام بالخنا والهجو. ولقد أذكرني هذا الكلام خبراً كنت أنسيته: كلفني بعض الأصحاب نسخ جزء فانتسخته حتى انتهيت منه إلى أبواب فيه ما تتضمن مدح الخمر وأوصافها وتحسينها وشاربيها، فتركت مواضعها من الكتاب بياضاً وتعديتها إلى غيرها، وكان إذ ذاك في شيء من خير، ثم لما أتممت الكتاب بعثت به إليه مع قطعة شعر قلتها أعتذر إليه من صنيعي، وكان اسمه محمداً، وهي:

أيا عبد الإله فدتك نفسي   تبلغ من أخ بر سلامه
بهذا الجزء أبواب تراها   تضمنت الندامى والمدامه
أأكتبها فتقرأ بعد موتي   إذا شالت عن الجسد النعامه
وربما أعنت على فساد   فأحصل إن فعلت على الندامه
وقد قال الحكيم وقال حقاً   وقول الحق داع للكرامه

فلا تكتب بكفك غير شيء ... يسرّك أن تراه في القيامه
فخليت المواضع من كتابي ... بياضاً فهو أقرب للسلامه

وأما قوله: وإن من القول عياً، قال وحشي في تفسيره: هو أن يتكلم الرجل بالعلم بين يدي من هو أعلم منه.

نوادر :

كما يروى أن رجلاً قال لبعض الولاة: إن جاراً لي تزندق، فاستفهمه عن مذهبه فقال: إنه يبغض معاوية بن الخطاب الذي قاتل علي بن العاصي. فقال له الأمير: ما أدري على أيّ شيء أحسدك أعلى معرفتك بالأنساب أم على معرفتك بالكلام.

ومثله ما يروى أن رجلاً كانت له لحية طويلة جلس إلى جماعة من أهل العلم وهم يتكلمون في أيام الجمل وصفين، فقال لهم: ما تقولون في معاوية وعلي؟ قالوا له: وما تقول أنت؟ فقال: أوَليس هو علي ابن فاطمة؟ قالوا: ومن كانت فاطمة؟ قال: امرأة النبي صلى الله عليه وسلم بنت عائشة أخت معاوية، قالوا: وما كانت قصة عليّ؟ قال لهم: قتل في غزوة خيبر مع النبي عليه الصلاة والسلام.

ومثله ما يروى أن رجلاً سأل عمرو بن قنبر وكان من كبار أصحاب مالك رضي الله عنهما فقال: ما تقول فيمن وجد في خفه حصاة من المسجد وهو في طريق داره؟ فقال له عمرو: يلقيها من خفه، فقال له: أوَليس الحصاة تصيح حتى تردّ إلى مكانها، فعلم عمرو بن قنبر عيّه فقال له كالمستهزئ به: دعها تصيح حتى ينفلق حلقها، فقال الرجل: أوَلَها حلق؟ فقال عمرو: ومن أين تصيح إذاً.

وأما قوله: إن من البيان لسحراً، فالسحر في كلامهم: الصرف والخديعة. وأما الشَّحر بفتح السين: فالرئة، ومنه قول أبي جهل: انتفخ سحره. وقول عائشة رضي الله عنها: بين سحري ونحري. قال ثابت رحمه الله في الدلائل: معناه أنه يغلب على القلوب بمحبته ويسبيها بحلاوته، فكأنه سحر السامع. ومنه حديث عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن رجلاً كلمه في حاجته فأبطأ عليه، فلم يزل يتلطف به ويتلين له حتى أذعن له عمر بحاجته، وقال: هذا والله السحر الحلال. وقال الشاعر:

لقد خشيت أن أكون ساحراً ... راوية مراً ومراً شاعرا

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال هذا الكلام للزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم حين قدما عليه، وسأل عمراً عن الزبرقان فأثنى خيراً، فقال الزبرقان: يا رسول الله قد علم مني أكثر مما قال ولكنه حسدني، فقال عمرو: يا رسول الله إنه كذا وكذا، وأثنى شراً، ثم قال: والله يا رسول الله لقد صدقت في الأولى وما كذبت في الآخرة،

رضيت عنه فقلت بأحسن ما علمت وسخطت فقلت بأسوأ ما علمت، فحينئذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من البيان لسحراً. وقد فسر ابن عبد ربه البيان فقال: البيان كل شيء كشف لك قناع المعنى الخفي حتى يتأدى إلى الفهم ويتقبله العقل، فذلك البيان الذي ذكره الله في كتابه ومنّ به على عباده، فقال: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ١-٤]. وقالوا: الروح عماد البدن، والعلم عماد الروح، والبيان عماد العلم.

فصل:

رجع الكلام إلى الشعر. قلت: قد تقدّم: إن من البيان لسحراً، وقول ثابت رحمه الله: إنه القول الذي يغلب على القلوب بمحبته ويسبيها بحلاوته، فكان هذا القول إلى الذم أقرب منه إلى المدح، والدليل على ذلك أنّ الله سماه فساداً، فقال بعد قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: ٨١]. وقد تقدّم قولهم: السحر الحلال، فلولا أنه حرام ما خصّه إذا كان صلاحاً بالحلال. وأما الحرام فهو الذي يسوق الكلام المسجع المطبوع في معرض الرد على المخاطب كأنه علم متبع أو سنة معمول بها، كما قال الذي كلف أن يغرم دية الجنين الذي سقط من ضربته. كيف أغرم ما لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل، ومثل ذلك بطل، ويروى يطل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم حين سمعه: إنما هذا من إخوان الكهان. قال الراوي: من أجل سجعه الذي سجع.

ومثله الرجل العابدي من بني عابد حين جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطلب دية ابنه وكان قد قتله رجل أعتق سائبة، فقال عمر رضي الله عنه: لا دية له، فقال العابدي: أرأيت لو قتله ابني؟ فقال عمر: إذاً تخرجوا ديته، فقال العابدي: هو إذاً كالأرقم إن يترك يلقم وإن يقتل ينقم. خرجه مالك رحمه الله في الموطأ. فهذا العابدي قد سجع بباطل ليردّ به حقاً وهذا هو المكروه من البلاغة التي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قائلها على هذا النحو: إن الله ليبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها، وقال في ضده: ثلاث يبغض بهن العبد في الدنيا ويدرك بها في الآخرة ما هو أعظم من ذلك: الرحم والحياء وعيّ اللسان، خرجه ثابت، وفسر الرحم بالرحمة، وجاء في القرآن: ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ [الكهف: ٨١] فسّر برًا ومرحمة. قال الشاعر:

أحنى وأرحم من أم بولدتها ... رحماً وأشجع من ذي لبوة ضاري

قلت: والبلاغة والفصاحة لا تتم إلا بالتوفيق إلى التحقيق والاستقامة والسلوك على سواء الطريق، وإلا فصاحبها منسوب إلى التزويق والترقيق وإن كان ذا تشقيق وتدقيق، وخير منه من كان يقوى على التقوى وإن كان أعجمياً عجمياً ولم يكن إعرابياً عربياً.

وقد حدّثني الحافظ رحمه الله بسنده إلى أبي زرعة الطبري قال: دخلت على نفطويه الأديب وكان معي جماعة من الفقراء، وكان بين يديه أولاد الرؤساء والوزراء، فقام لنا نفطويه وقال: ادخلوا يا سادة، ورحب بنا وفرح فرحاً شديداً قد تبيّن في وجهه، فتعجب الصبيان من فرحه بنا، ففطن نفطويه فقال: اكتبوا يا صبيان ما أملي عليكم، وأنشأ يقول:

سيبلى لسان كان يعرب لفظه ... فيا ليته في موقف العرض يسلم
وما ينفع الإعراب إن لم يكن تقى ... وما ضرّ ذا التقوى لسان معجم

وقال إبراهيم بن أدهم: لقد أعربنا في كلامنا فما نلحن ولحنًا في أعمالنا فما نعرب. وقال الأوزاعي: إذا جاء الإعراب ذهب الخشوع.

ذكر حسان :

تقدّم ذكر حسان في الإحسان، وأريد أن أذكر لك هنا من فضائله فضلاً لتتخذه أصلاً: كان رضي الله عنه أحد شعراء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الذي يقول فيه:

فإنّ أبي ووالدتي وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء

وفي هذا الشعر المذكور أبيات يمدح فيها الخمر. ومر يوماً بقوم يشربون الخمر فنهاهم فقالوا: لقد أردنا تركها فزيّنها لنا قولك:

ونشربها فتتركنا ملوكا

فقال: والله ما قلتها إلا في الجاهلية، وما شربتها منذ أسلمت. رضي الله عنه، وفي هذا الشعر:

كأنّ سبيئة من بيت رأس ... يكون مزاجها عسل وماء

وقال فيه أيضاً:

لساني صارم لا عيب فيه

وهو الذي يقول:

فإن أهلك فقد أبقيت بعدي ... قوافي تعجب المتمثلينا
رقيقات القواطع محكمات ... لو أن الشعر يلبس لارتدينا

وكان شاعراً محسناً كثير الإحسان طويل اللسان خَلقاً وخُلقاً. يروى أنه كان يضرب بلسانه أرنبة أنفه هو وابنه وجدّه، ويقول: لو وضعته على حجر لفلقه أو على شعر لحلقه. وابنه هذا أظنه عبد الرحمن، ومن حذقه ونبله أنه لسعه زنبور وهو صغير فجاء إلى أبيه يبكي، فقال له: ما لك؟ فقال له: لسعني طائر كأنه ملتف في بردتي حبرة، فقال له أبوه: قلت والله الشعر. وأم عبد الرحمن هذا سيرين ابنة شمعون أخت مارية سريّة النبي صلى الله عليه وسلم. وكان عبد الرحمن يفخر بأنه ابن خالة إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وروت سيرين هذه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً، قالت: رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم خللاً في قبر ابنه إبراهيم فأصلحه، وقال: إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه، إلى غير ذلك من فضائله رضي الله عنه.

وبعد هذه الفصول والمقدمات فالأعمال بالنيات والمجازي عليها علاّم الخفيات. وفي الحديث: وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن نوى الخير فما عليه توى. وسترى تفسير (توى) مع أشكاله (ثوى) و(نوى) في باب النون إن شاء الله تعالى. وأنا قد جمعت هذا الكتاب ومرادي أن نذكر الله تعالى فيه ونصلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم متى جرى ذكره، لأني لما رأيت ذلك الشعر عقده انحلت بالفتح، وظلمه انجلت بالشرح، جعلت في آخر كل باب منه فصلاً جزيلاً طويلاً نبيلاً أردت أن أزيده به انشراحاً وإيضاحاً، بتفسير آية من كتاب الله تعالى، وضياء وسناء بأحاديث عن نبيه المصطفى، مع ذكر مآثر ومفاخر عن أصحابه عليهم أكمل الرضا، وحكايات ومواعظ مرويات عن العلماء وأخبار وأشعار عن الحكماء، ورقائق عن أهل اليقين وحقائق عن المتقين، وآتي فيه بعجائب رأيتها وغرائب رويتها، وأشياء كانت عندي مضاعة صيرتها مذاعة، وأخبار كانت متفرقة فجمعتها ومستورة فأبرزتها، وكنت عوّلت أوّلاً أن يكون لغوياً موجزاً صغير الجرم مكتنزاً، فما هو إلا أن شرعت في تأليفه وأخذت في تصنيفه، فأقبلت بحمد الله عليّ الفوائد من كل أوب وألمعت إليّ الشوارد بيد وثوب، فمن آية من القرآن العظيم الذي بنوره يهتدى وحكاية عن النبي الكريم الذي بأموره يقتدى، ومن حكمة زهدية جدّية وكلمة غزلية هزلية، فهذه مطربة مسلية وتلك مكربة مبكية، إلى غير ذلك من مسألة فقهية من لباب اللباب، وأخرى نحويّة قلّ أن توجد في كتاب، ومن نظم ونثر لأشياخي أولي الألباب وما لي أيضاً من هذا النوع مما يليق بالباب، وعلى هذا الفنّ عوّلت أبرزه، وفي هذا المجموع عزمت أحرزه، فما زلت بهذه الفرائد ألطف شارداتها فأربطها وتلك الفوائد أتحف وارداتها فأضبطها، حتى إذا صار الكل

صيدي وفي ملكي وتحت قيدي، أودعت جميع ذلك الآن هذا الديوان، فكبر جرمه وكثر علمه، وعاد طويل الذيل جزيل النيل، ينشط القارئ والسامع، وينفع إن شاء الله الكاتب والجامع، ويستفيد منه المبتدي والشادي والحاضر والبادي، والذكيّ والبكي والعيّ والألمعي، لأني وضعت في هذا التأليف المسنّى من كل شيء علمته فنّا، كما قال محمد بن يزيد رحمه الله في بعض تراجم كتاب الكامل: هذا كتاب أذكر فيه من كل شيء. وكتابي هذا كله كذلك والحمد لله على ذلك، وإن كنت قد جمعت فيه بين جدّ وهزل ولين وجزل، فما ذاك إلا لأنشط الناظر وأستجم الخاطر، وأقول:

خلطت الجدّ بالهزل ولين القول بالجزل
فسر للجدّ تثبته وسر في الهزل بالعزل

سر الأوّل من السير، وسر الثاني من السيرة، ومع ذلك فلا بدّ من خطأ فيه، لأن ذلك وصفي مع عجزي عن كمال العلم وضعفي، فمن عثر على شيء من ذلك فليعلم أني لم أعتمده فلا يعتقده، وليخرّج له وجهاً ولا ينجه به المؤلف نجهاً، كما شاهدت ذلك في بعض المولدين، ممن ليس بعشر من قبله في علم ولا دين، يخطئه ويحمل عليه ويضيف الجهل جهراً إليه، وليس ذلك بمستقيم، وما يفعله إلا كل خبيث القلب سقيم، وإنما يعدّ في الأكياس من صوّب خطأ الناس، والتمس له وجهاً في كلام العرب، وفي لغتها الواسعة الأبعد منها والأقرب، وأما طلب عوراتهم والتماس عثراتهم، فليس ذلك في حكم المروّة ولا يدل على حسن آداب الفتوّة، وما أرى السبب في ذلك والعلة إلا ضيق الحوصلة، أو الحسد والغيرة على ما آتى الله غيره، فنهض بما أولاه مولاه من فضله وأقام هو على جهله، أو لأن المؤلف كان معاصره ومماشيه ومحاضره، كما قال ابن شرف رحمه الله:

أغري الناس بامتداح القديم وبذم الحديث غير الذميم
ليس إلا لأنهم حسدوا الحيّ ورقوا على العظام الرميم

إلى غير ذلك من الأبيات التي قالها الماضي ويقولها أيضاً الآت، ولي أيضاً في هذا المعنى قطعة ابتدأت بها كتابي كتاب التكميل، وآخرها:

ولكن حرمة الموتى تراعى لهم والحيّ مهتضم طليح
فيعطى للقديم من السهام الـ ـمعلى والحديث له المنيح

انظرها بكمالها في التكميل المذكور، وعلى ذلك فإني أحرج على من أراد أن ينتسخ كتابي هذا أن يجرّده أو يسلخه أو يختصره فيمسخه، لأني ألفته كما يقول الناس شحمة بفحمة وتمرة بجمرة، ولعلك ما تستخشنه غيرك يستحسنه، وما تستقبحه غيرك

يستملحه، فدعه كما وقع على ما به من صحة أو فدع وخذ كله أو فدع، اللهم إلا من أراد أن يعلق منه نتفا فعنه الحرج قد انتفى، لأني أعلم أن الطالب إذا رأى شيئاً أعجبه لا بدّ وأن يكتبه، وبعد كتبه إياه يحفظه ويمدحه ويقرظه، وقد بلغ بأحدهم الإفراط في مدح كلام سمعه من غيره فقال: أأكتبه؟ فقال: نعم اكتبه في الأوراق فإن مثله يكتب نقشاً بالخناجر في الأحداق. فأوّل من يناله نفع هذا الكتاب إن شاء الله أنا وأرجو بذلك عند الله أجراً وهنا، أتذكر به ما شرد وأتعلم به ما ورد، ويكون باباً من العلم قد أحرزته وجزءاً منه قد حويته، لأنه ليس لك من العلم إلا ما حفظته لا ما كتبته، وأحسن من محفوظك ما سمع من ملفوظك، لأنه يقال العالم يكتب أحسن ما يسمع ويحفظ أحسن ما يكتب ويتكلم بأحسن ما يحفظ، وبضدّ هذا ما وصف به بعضهم رجلاً فقال: يغلط في علمه من وجوه أربعة: يسمع غير ما يقال له، ويحفظ غير ما يسمع، ويكتب غير ما يحفظ، ويحدّث بغير ما يكتب. وقال أعرابي: حرف في تامور قلبك أحسن من عشرة في كتبك، والتامور: علقة القلب، وفي مثل هذا ينشد:

إذا لم تكن حافظاً واعياً ... فجمعك للكتب لا ينفع
أتحضر في مجلس جامع ... وعلمك في الدار مستودع

وقال الخليل بن أحمد: اجعل ما في كتبك رأس مال وما في قلبك للنفقة. وكنت أقرأ بإشبيلية على رجل فاضل رحمه الله فيسألني عن المسألة فربما أتوقف فيقول: عجل بالجواب الرفقة سائرة، فأقول: ما معنى هذا؟ فيقول: ربما تسأل وأنت في الطريق.

وقالوا: العلم ما عبر معك الوادي وعمر بك النادي، وكما يقال في الكلام، العلم ما تدخل به الحمام، ولي في هذا المعنى:

لا تودعن علمك يا حاذق ... في صحف يسرقها السارق
بل صدرك اجعله وعاء له ... مفتاحه مقولك الناطق
حينئذ إن قال عنك امرؤ ... إنك تدري فهو الصادق
بالله قل لي يا فتى إن تسل ... عن قصة صاحبها طارق
وقال عجل قل لنا شرحها ... الركب عني ذاهب زاهق
والعلم في بيتك مستودع ... في كتب منظرها رائق
كيف ترى حالك هل فوق ذا ... من خجل يرمقه الرامق
لآخر في صدره علمه ... وهو بما يحفظه واثق
إن سيل كان القول في شدقه ... لكل ما يفتقه راتق

شتان ما بينكما أنت في الـ ـعلم ضعيف وهو الفائق
فادرس ولا تغفل وكن حافظاً وربك اسأل فهو الرازق

فمثل هذا الكلام عسى أن يقع في قلب من له همه فيجعل العلم همه، فيبعثه العلم على العمل وينشطه من الكسل، فأكون إن شاء الله مصيباً ولي من عمله نصيباً، ومع هذا فإن ربي الوهاب الكريم وهب لي ولداً سميته عبد الرحيم، وقلت فيه:

أهلاً بمولود أتى من بعد ما أخذ الزمان شبابنا فأبانه
لكن على كبري وشيب مفارقي الله يعلم ما كرهت مكانه
سميته عبد الرحيم تبرّكاً باسم الذي سنى لنا إتيانه
الله يهديه وإيانا لما نرجو به منه غداً رضوانه
وأنا سأنفعه وأحسن عونه ما اسطعت إن أرخى الزمان عنانه
وأنيله علمي وما اكتبته وأبيحه ما قد كتمت عيانه
وإن المنية عجلت فخليفتي ربي عليه فهو يصلح شانه
ذاك الذي أرجو وذا ظني به في أمره سبحانه سبحانه

والولد كما قال عليه الصلاة والسلام في ابنته فاطمة رضي الله عنها: إنما فاطمة بضعة مني يريبني ما رابها ويؤذيني ما أذاها. وفي رواية أخرى: يبسطني ما بسطها ويقبضني ما قبضها، معناه: يسرّني ما سرّها ويسوؤني ما ساءها، خرّجه ثابت في الدلائل وكذا فسره، قال أهل اللغة: يقال راب وأراب بمعنى. وأفضل ما نحل والد ولده في أدب حسن، وقد تقدم. كما تقدم أيضاً: والمرء يعجب بابنه وبشعره. وحب الولد شديد ونفعه وكيد، كيف لا وولده إنما هو كبده، كما قال:

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض

وقال:

غدا بنيي وراح مثلي يلبس ما قد خلعت عني
فسرّني ما رأيت منه وساءني ما رأيت مني

ولي في هذا المعنى:

عندي بنيّ رعاه ربي ما زاد فيه مني ينقص
يقوى إذا ما ضعفت حتى إذا مشينا أحبو ويقمص
إن قلت يا صاح كيف هذا اقصص حديثي عليّ وانصص
نقل قضاء الإله هذا فاطلع أو اهبط واقمص أو ارقص

فسنة الله من يعمر ... ينكس ونحو الأعقاب ينكص

والكلام في الأولاد واد، ومن أملح ما أحفظ منه قول بعضهم وقد غاب عن ولد له صغير، أخبرت أنه للحفيد بن زهر القرطبي رحمه الله:

ولي واحد مثل فرخ القطا ... صغير تخلفت قلبي لديه
نأت عنه داري فيا وحشتي ... لذاك الشخيص وذاك الوجيه
تشوّقني وتشوّقته ... فيبكي علي وأبكي عليه
وقد تعب الشوق ما بيننا ... فمنه إلي ومني إليه

قال في هذا الشعر: ولي واحد، وأبو الولد الواحد أبداً كثير الشفقه زائد المقه.

ومن كلام الفرس: من حرم الولد فقد حرم السرور ومن كان له ولد واحد فهو بمنزلة من لا ولد له. وقال آخر:

طربت إلى الأصيبية الصغار ... وهاجك منهم قرب المزار
وأبرح ما يكون الشوق يوماً ... إذا دنت الديار من الديار

وقال آخر:

وقد زعموا أن المحب إذا نأى ... يمل وأن النأي يسلي من الصد
بكل تداوينا فلم يشف ما بنا ... على أن قرب الدار خير من البعد

وكثيراً ما كنت أنشد إذا تغرّبت عن بلدي وخلفت به أهلي وولدي قول يزيد بن الطثرية. قال ثعلب وهو راوية: الطثرة الخصب وكثرة الخير:

بنفسي من لا يستقل بنفسه ... ومن هو إن لم يحفظ الله ضائع
فضع في يديه من تركت وديعة ... فإنّ لديه لا تضيع الودائع

فقلت: أنا لا محالة في السبيل سائر وإلى ربي الجليل صائر، ومن دخل في عشر المعترك فما له من مترك، وهذا صبي صغير وأنا شيخ كبير، أخاف أن تفجأني المنية قبل أن أبلغ في تأديبه الأمنية، والمعترك معترك الحرب وهو موضع القتال حيث الطعن والضرب، وفي الشهاب: معترك أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك، وقد كنت أدّبت إخوته جهدي وعلمتهم ما عندي، فقلت: إن عاش هذا المولود وأنا مفقود، ويكون من أهل الطلب ويتعلق منه بسبب، يتعرّف من هذا الكتاب صفتي، وحيث انتهت معرفتي، فمن عاين من السيف أثره فكأنه في يده أبصره ومن غمده شهره، فلعل ذلك يبعثه على التعلم والازدياد من التفهم، ويكسبه نشاطاً وبالعلم اغتباطاً، وعاه إذا علم أنه من جمع أبيه ونظم فيه يحمله على حفظ ما فيه، وقد سئلت أن أجيزه فيما أجمله مما أرويه وأحمله، ففعلت ذلك وكتبت إجازته في شعر يطول

ووضعته بكماله في غير هذا الكتاب والحمد لله، مع ما كتبت به من الإجازات المنظومة لأشخاص معلومة حسبما طلب مني من استجازني بمنظوم نسبه إليه فأجزته عليه مع استجازاتي أشياخي رحمهم الله بالمنظوم والمنثور مع قطع من الشعر كقطع الزهور، وأيضاً:

نكم دار بنيت وكم جدار ... أقمت وكم بها سقفاً سمكت
وكم بئر حفرت وكم غراس ... غرست وكم فجاج قد سلكت
وكم بيدي كتبت وكم فؤادي ... أمل وكم كسبت وكم ملكت
وها أنا سوف أتركه جميعاً ... وهذا منه أحسن ما تركت
لعل الله ينفعني وغيري ... به حيا وأيضاً إن هلكت

رأيت في بعض الكتب عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من مؤمن يموت ويترك ورقة من علم إلا كانت له الورقة ستراً من النار.

وأنت يا من له قد ... أتعبت نفسي تعبا
حتى جمعت كلاماً ... غضاً طرياً ورطبا
سبكته لك سبكاً ... سبكته لك سكبا
من كل الأنواع فناً ... فناً وضرباً فضربا
أعملت في ذاك كفا ... بالكتب والفكر قلبا
فحين أحكمت أمري ... أودعت ذلك كتبا
خذها هنيئاً مريئاً ... كفيت نسخاً وسغبا
وعند تحصيلها قل ... أهلاً وسهلاً ورحبا
ثم اروها بعد عني ... وكن لذا العلم صلبا
فقد أجزتك فيما ... أرويه شرقاً وغربا
وكل نظم ونثر ... قيدته لك كتبا
فاعمل بكل جميل ... منه تنل منه قربا
وقل لربك وامدد ... يديك رغباً ورهبا
يا رب فارحم أبي إنـ ... ـه تكلف صعبا
واغفر له كل ذنب ... وهب له الفوز وهبا
والمسلمين فما إن ... للكل غيرك ربا

فصل:

وهذا الكتاب ألفته كما ذكرت لولدي أو لمن يكون كمثله من مبتدي، فربما جمعت فيه من الكلام بين الغث والسمين والرخيص والثمين، والجدّ والهزل والضعيف والجزل، كما تقدم فيه القول من قبل وجلبت ما حضر من يابس وأخضر، وعقول الناس مدوّنة في أطراف أقلامهم، بها يستدل على معرفتهم وأفهامهم، وبتآليفهم وأوضاعهم يعرف الطول والقصر في باعهم، ويدرى اختلاف طباعهم، فمنهم من كلامه مقفر موعر مقعد مبعد، ومنهم من كلامه سهل هين سلس لين، تستطيبه إذا تذوّقته وتستحليه متى رمقته، وربما تستعيده ونيتك تستفيده، وليس ذلك في النثر المخزون بل هو كذلك في الشعر الموزون، فمن السهل الممتنع القريب المرتفع الذي تطمع فيه وتظنّ أنه منك يقرب فإذا هو عنك يهرب، ما أنشدني بعض الأدباء ونحن في نيل مصر على ظهر الماء يصف والياً كان اسمه سليمان وله أخ اسمه علي:

قال لي يوماً سليما ... ن وبعض القول أشنع
هات صفني وعلياً ... أيّنا أسخى وأرفع
قلت إني إن أقل بيـ ... ـنكما بالحق تجزع
قال كلا قلت بل لا ... قال عجل قلت فاسمع
قال صفه قلت يعطي ... قال صفني قلت تمنع

أين هذا من قول الآخر:

فما للنوى جد النوى قطع النوى ... كذاك النوى قطاعة لوصال

ولما أنشده الأصمعي رحمه الله قال: وددت أن الله تعالى سلط على هذا البيت شاة فأكلت هذا النوى كله. ومثله في الفتور ما قاله بعض منتحلي الشعر في زياد بن عمرو:

زياد بن عمرو عينه كزجاجة ... وأسنانه بيض وقد طرّ شاربه

ومثله:

ذكر الحبيب حبيبه ... فبكى بكاء صالحا
وجرى الدموع بشاربيه ... فذاق طعماً مالحا

فصل:

وأنت تعرف بالذوق الأسفل والفوق كم بين هذا الذي تقدّم وبين ما عليك يقدم.

قال بعض العلماء: أربعة ما عرفوا ما خرج من أفواههم وهو أحسن ما قالت

العرب قول العقيمي رحمه الله:

ما كلف الله نفساً فوق طاقتها ... ولا تجود يد إلا بما تجد

وقول الآخر:

ألا عائذ بالله من عدم الغنى ... ومن رغبة يوماً إلى غير مرغب

وقول الآخر:

ومن يلق خيراً يحمد الناس أمره ... ومن يغوِ لا يعدم على الغي لائما

وقول الآخر:

من يسأل الناس يحرموه ... وسائل الله لا يخيب

ومن أحسن ما قيل في إنجاز الوعد قول عوف بن محلّم:

ذكرت مواعيد الأمير بن طاهر ... ومثل العطايا في الأكف عداته

وزكيت ما لم أحوه من عطائه ... وكنت كمن حلت عليه زكاته

وقيل في التجربة مما يستحسن:

لا تمدحنّ امرأ حتى تجربه ... ولا تذمّنه من غير تجريب

فربّ خدن وإنْ أبدى بشاشته ... يضحي على خدنه أعدى من الذيب

غيره:

وإنّ مدحك من لم تبله صلف ... وإنّ ذمّك بعد المدح تكذيب

وقال بعض العلماء: اجتمعت الأمم على تباينها واختلافها على بيتين وهما:

تلقى بكل بلاد إن حللت بها ... أرضاً بأرض وجيراناً بجيران

والآخر:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

وهذا البيت قد تقدم للحطيئة أنشدنيه الخطيب الفقيه أبو محمد عبد الوهاب رضي الله عنه زمن الحداثة، وقال لي: أرأيت لو أنشدك أحد:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه

وقال لك: أجزه، ما كنت تقول له؟ فلم أدر ما أقول، فسألته فقال: جوازيه يا ابنة الهيثم. في سؤالات سألني عنها من هذا النوع على جهة التدريب ذكرتها في غير هذا الموضع. جزاه الله وإيانا خيراً، والبيت المتقدّم الذي هو ذكر الحبيب حبيبه ذكره ابن السيد رحمه الله في فصل وصف فيه الشعر أنه مؤسس على المحال مبني على تزوير المقال، ولأجل ذلك إذا سلك الشاعر المطبوع مسلك الزهد وخرج عن طريق الهزل إلى طريق الجدّ غاض رونق قوله وماؤه ونقصت طلاوة شعره وبهاؤه، كقول الشاعر:

ذكــر الحبــيب حبيــبه فبكــى بكــاء صــالحا

حتى إذا أفرط في المحال وأغرق وقال ما لا يمكن أن يتوهم أو يتحقق عدّ من أهل الصناعة وشهد له بالتقدّم فيها والبراعة، كقول الآخر:

ويا أخا الذود قد طال الظماء بها لا تعرف الورد في بيداء مقفار

رد بالقلاص إلى عيني ومحجرها ترو القلاص بدمع واكف جار

وقول أبي الطيب:

شــرقت بالدمـع حتـى كـاد يـشرق بـي

انتهى كلامه.

قلت: وهذا الذي قاله ابن السيد رحمه الله قد قاله قبله علماء جلّة.

روى ابن أخي الأصمعي عن عمه قال: الشعر فكر يقوى في الشرّ ويسهل وإذا دخل في الخير ضعف، ولأن هذا حسان فحل من فحول الجاهلية، فلما جاء الإسلام سقط شعره، وقيل لحسان: سقط شعرك أم هرم شعرك في الإسلام يا أبا الحسام؟ فقال للقائل: يا ابن أخي إن الإسلام يحجز عن الكذب أو يمنع من الكذب، وإن الشعر يزينه الكذب، يعني أن شأن التجويد في الشعر الإفراط في الوصف والتزيين بغير الحق، وذلك كله كذب كما تقدّم، والله الموفق.

فصل:

وأنا أقول لمن وجد في هذا الكتاب لفظاً مستعملاً مبتذلاً أو كاملاً مقفراً موعراً:

انظــر إلــى الفائــد لا غيــره وخــذه لــو كــان علــى الغــرّه

ولا تلــم مــن ضــمه الــوزن أن يجمــع بــين الجــزع والــدرّه

وقد علمت أني لا أسلم من منتقد يتعلق بطوقي معتقداً أنه في المعرفة فوقي، على أني لا أدّعيها، وأني مع سنّي الآن أستدعيها، وأقر بقصر الباع في كل الأنواع، فمثل هذا المنتقد أقصد وإياه أنشد:

أنــا المقــر بجهلــي وأنــت صــاحب فــضل

أخــو ذكــاء وعقــل وذو ذكــاء ونــبل

قــل مــا تــريد فإنــي جعلــت فــي الحــل خلــي

ولــست فــي ذاك بــدعا قــد قــيل فــي الــناس قبلــي

لكــن تــرى ســائر الــبا ب باقــياً دون قفــل

الــتاء والــثاء حتــى للــياء ســهل بــن ســهل

انــزل علــيه وألــف وضــم شــكلاً لــشكل

حتى ترى كيف تقفو وكيف تسلك سبلي
أو كيف تعجز عنها تقول ما ذاك شغلي

وقد رأيت لبعض المصنفين وقد ذكر كتابه وأنه لا يخلو من عائب، فقال بعد كلام: الناس كما قالوا أعداء لما جهلوا وأصدقاء لما ألفوا، فليعلم العائب أنه لم يذهب عنا موضع ما فطن له منا ولا غبنا عن ما شهد من تأليفنا ولا قصرنا عن معرفة ما استخرج علينا، ومن كتب من ألف واحداً فقد وجد طلبه واقتنى فائدة فالربح له والخسران على من استخرجه له لا عليه. انتهى كلامه.

وفي أمثال الحكماء: من ألف فقد استهدف. وقد بين العتابي هذا المعنى فقال: من صنع كتاباً فقد استشرف للمدح والذم، فإن أحسن فقد استهدف للحسد والعيب، وإن أساء فقد تعرض للشتم واستقذف بكل لسان، كذا رأيته للمدح وأظنه للقدح، لأن الكلام الذي بعده يدل عليه.

وقال الجاحظ: لا يزال المرء في فسحة من عقله ما لم يصنع كتاباً يعرض فيه على الناس مكنون فضله، ويتصفح فيه إن أخطأ مبلغ عقله، وصدق لأنه يقال: من امتحن قولاً ظهر على عيبه ومن طلب عيباً وجده، على أنه لا يعيب العباب إلا العياب، ولا تجده أبداً إلا وفيه أكثر مما يقذفه من فيه، كما قال الأحنف وقد قال له رجل: دلني على رجل كثير العيوب، فقال: اطلب عياباً فإنه يعيب الناس بفضل ما فيه. وقال الشاعر:

ويأخذ عيب المرء من عيب نفسه مراد لعمري ما أراد قريب

ولله در الذي يقول:

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلاً أن تعدّ معايبه

يعني أن معايبه قليلة يأخذها العدّ، وأنه مما يتعيّن ويشتغل بذكره، وأنه محسود على ما هو عليه فيجعل له عيباً. وحدّثني السلفي رحمه الله فيما رواه عن أبي نصر عن أحمد أنه قال: سمعت أبا بكر أحمد بن علي بن ثابت الحافظ يقول: من صنف فقد جعل عقله على طبق يعرضه على الناس، وأنا قد عوّلت على هذا فاسترحت، وجعلت الناس مني في حل فأرحت، وقلت:

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلت

لكن على شريطة من رأى خللاً فلينبهني عليه إن كنت حياً، وإن كنت ميتاً فليصلحه إن كان من أهل العلم وذوي الفهم.

وقد كان الخطابي رحمه الله على جلالة قدره ومكانته من العلم يقول في كتابه:

كل من عثر منه على حرف أو معنى يجب تغييره فنحن نناشده الله في إصلاحه وأداء حق النصيحة فيه، فإن الإنسان ضعيف لا يسلم من الخطأ إلا أن يعصمه الله بتوفيقه، ونحن نسأل الله عز وجل ذلك ونرغب إليه في دركه إنه جواد وهاب. هذا كلامه في كتابه في شرح الحديث.

وقال في كتاب أبي عبيد رحمه الله: بلغني أن القاسم بن سلام مكث في تصنيف كتابه أربعين سنة يسأل العلماء عما أودعه من تفسير الحديث، والناس إذ ذاك متوافرون والروض أنف والحوض ملآن.

وروي عن أبي زيد أنه قال: لا يبيضّ الكتاب حتى يسودّ. ولما رأيت هذا الكلام الذي هو الدر من هذا الإمام الحر قلت:

يا صاح قل واقصد بذا الخطاب ... ليوسف الحطاب لا الخطابي
إذا يقول مثل ذا الخطابي ... فأنت قل ما أليق الخطابي

أعزكم الله قد سمعتم مقالة هؤلاء الأعلام كالخطابي وابن سلام والعتابي والجاحظ وابن ثابت الحافظ، وفي كل ما قالوا صدقوا، والحق فيما به نطقوا. وأنا أقول أيضاً وأصدق وأرتق ما أفتق: أي بنيّ إنه من حكى قول الناس فما عليه من بأس. وقد كنت أظنّ أن التأليف يصعب فإذا هو أسهل شيء وأقرب، خذ كلام الناس من هنا وضعه هنا وقل مؤلفه أنا. وفي ذلك أقول:

ظننت اللغات غدت تصعب ... على من بغاها ومن يطلب
إذا هي أسهل شيء وما ... أراها إذا طلبت تهرب
وما هي إلا كما قاله ابـ ... ـن قزمان في النحو إذ يطرب
وأيّ غريب به ثم إلا ... تقل ضارب ثم قل يضرب
كذاك مؤلفها اليوم إن ... يرد جمعها أوله يذهب
تراه يهرول لا ينثني ... وأذياله خلفه يسحب
إلى كتب الناس يخلو بها ... ويقعد ينسخ أو يكتب
فينقل منها إلى كتبه ... وبعد إلى نفسه ينسب
يقول كتابي ألفته ... ويلقي له اسماً به يعرب
وهل هو إلا كلام الشيو ... خ الأولى قبل أنفسهم أتعبوا
فهذا الخليل ويونس أو ... أبو عمرو أو أحمد ثعلب
والأخفش وابن قريب وعمرو ... وذا ابن دريد وذا قطرب
وإن كنت خليت أصحابهم ... فللكون ذاك كذا فاحسبوا

وقدّمت قوماً وأخرت قوماً   من أجل القوافي فلا تعتبوا
فهم كالنجوم تضيء لنا   وموضعها شرق أو مغرب
وكلهم سيد عالم   وقل عامل فاضل طيب
هم أهل ذا الشأن أربابه   هم صنفوا بوّبوا رتبوا
ومن جاء من بعدهم إنه الطـ   ـفيليّ حقاً فلا تعجبوا
أيا ليت شعري ماذا عسى   يقول مؤلفنا المطنب
أيلقى كلاماً قد أغفله الـ   ـأئمة أو من له مذهب
فيا ليته قال ألفته   من أقوالهم فهو الأصوب
وينمي المقال إلى أهله   ولا يدّعيه ولا يغصب
كمثلي أنا قلت هذا كتاب   وليس بحق ولا أكذب
وهل لي فيه سوى كاغد   وغير مداد به أكتب
وترصيف قول الأئمة في   مواضع منه كما بوّبوا
وإن كان ذا نظم فربّما   ولكن من الغث قد يقرب
وإياي أعني بما قلته   ولم أك غيري بذا أجذب
بدأت بنفسي أوبخها   لكي تستريحوا ولا تتعبوا
ومن شاء منكم يقل فليقل   فإني أقول ولا أغضب
هنيئاً مريئاً لعزة ما اسـ   ـتحلته من عرض من تصحب
وأنت إلهي فلا تنسني   من الخير يا من له أرغب
تغمد عبيدك والمسلمين   بعفو خطيئتنا يغلب
وصلِّ على أحمد المصطفى   رسولك من داره يثرب

وسيأتي الكلام في تسمية المدينة يثرب في باب السين من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى. وقد تقدم ذكر الطفيلي وسيأتي إن شاء الله في باب الباء.

وخذ الآن فائدة أيها الطالب النبيل والصاحب الجليل، في فضل الخليل، لتنظره بعين التبجيل، وتفضله على أبناء هذا الجيل فإنه رجل جليل: ذكر ابن عائشة قال: كان الخليل بن أحمد يغزو سنة ويحج سنة إلى أن مات رضي الله عنه، وبعث إليه سليمان بن علي الهاشمي بطرف وكسا وفاكهة، فقبل الفاكهة وردّ ما سوى ذلك، وكتب إليه وكان سليمان استدعاه:

أبلغ سليمان أني عنه في دعة   وفي غنى غير أني لست ذا مال
سخي بنفسي إني لا أرى أحداً   يموت هزلاً ولا يبقى على حال

والرزق عن قدر لا العجز ينقصه ولا يزيدك فيه حول محتال
والفقر في النفس لا في المال نعرفه ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال

وفي رواية: لما أتاه الرسول أخرج له خبزاً يابساً وقال: ما عندي غير هذا، وما دمت أجده فلا أحتاج إلى سليمان ولا غيره، قال: فأبلغه عنك، قال: أبلغ سليمان الأبيات. انتهى.

وإنما جرأني على هذا الذي صنعت حتى وضعت في هذا الكتاب ما وضعت أني كنت في سن الحداثة وزمن الطلب أسمع الحكاية من الشيخ فتعجبني فأكتبها عنه وأحفظها، فلما صرت في حدّ من يقرأ الكتب ويطالعها كنت أرى تلك الحكاية في الكتاب، فأقول من هاهنا أخذها ثم أجدها بعينها في كتاب آخر وفي آخر. فقلت: إذا كان العلماء النظار والمصنفون الكبار يفعلون هذا فأنا بهم أيضاً أقتدي، بل أنا أحق لأني مبتدي، فحملني ذلك على أن تشجعت فجعجعت وفعلت أفعالي التي فعلت، وجعلت في كتابي من كلام الناس ما جعلت، وأنت فما عليك قد ساقه الله إليك، فدعها كما وقعت وخذ الفائدة مهما نفعت، وتلق الحكمة ولو من غير حكيم، واغتنم العلم ولو من غير عليم، فقد جاء في الشهاب: الحكمة ضالة المؤمن. وأخبرني من أثق به أنه قال في كتاب البزار يطلبها حيث وجدها ولو في أيدي الشرط.

وفي الحديث: رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ومع هذا فأنا المعترف أنه ليس لي من هذا التصنيف سوى التأليف، ولا من العلوم المستودعة فيه سوى الترتيب والتبويب، اللهم إلا ما كان من فقرة ساقتها فكرة، أو نظم جلبه فهم، أو عكس وقلب سمح بهما القلب، أو كلام جعلته لغيري سلما ولربما ولعلما علي أني أنبه عليه ولا أستره، بل أقول قبله قلت، ثم أذكره، وها أنا أقول وبأشياخي أصول:

ما كان من نظم ومن نثريه فهما اللذان حوتهما أشراكي
وسواه للعلماء ساداتي أجلّ أقول عنهم أنهم أشراكي
بل قادتي بهم أعز وأهتدي وأذل أهل الشك والإشراك

وقد أكثرت من القول حتى آلت الفريضة إلى العول، وقد آن أن أبتدئ بعون الله ذي الطول ومن بيده القوة والحول. وأقدم هنا باباً في حروف المعجم كلها شرفها وفضلها، وفي الكتابة وكيف تعلمتها الصحابة.

حروف المعجم

قلت: وللخط فضل وشرف ومنفعة لا تجهل بل تعرف، به تقيد العلوم وتثبت وتنزع في الصدور فتنبت، ألم تسمع ربك الأكرم حيث يقول في الكتاب المحكم: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤-٥]، وقال عليه الصلاة والسلام: قيدوا العلم بالكتابة.

وخرّج ابن شاهين: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله إني لا أحفظ شيئاً، فقال: استعن بيمينك على حفظك، يعني الكتب.

ولما عدمت العرب الكتابة في الجاهلية وكانت أمّة أمية، جعل لها الشعر العوض فأدركت به الغرض، أقامته مقامها فدوّنت به كلامها وعرفت به أيامها، كما يروي: الشعر ديوان العرب وفضل الكتابة كبير والكلام فيها وفي مدحها كثير. ومن أمدح ما قيل في كاتب:

إن هز أقلامه يوماً ليعملها ... أنساك كل كميّ هز عامله
وإن أقر على رقّ أنامله ... أقر بالرق كتاب الأنام له

وهذا البيت من الشعر النفيس وفيه ضرب من التجنيس.

ويكفي صاحب الخط مدحاً ما قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من خط وخاط وفرس وعام فذاكم الغلام، على أنّ من كان خطه حسناً واستعمله في النسخ ضيع كثيراً من العلم، كما حدّثني الحافظ فيما قرأت عليه بالإسكندرية قال: سمعت أبا طاهر محمد بن عمر بالكرخ يقول: سمعت أبا الفضل عبد الرحمن بن أحمد الرازي يقول: سمعت أبا مسلم محمد ابن أحمد بن علي الكاتب البغدادي يقول: سمعت أبا بكر أحمد بن موسى بن مجاهد المقري يقول: سمعت أبا العباس ثعلباً يقول: إذا أردت أن تكون أعلم الناس فاكسر القلم. وحدّثني الحافظ أيضاً رحمه الله قال: سمعت أبا القاسم بن أبي يعقوب الحافظ يقول: سمعت أبا الحسن الفقيه الشيرازي ببغداد يقول: سمعت فناخسرو، يعني عضد الدولة ابن بويه، يقول: طالب العلم ينبغي أن يكون خطه رديئاً حتى لا يشتغل بالكتب إنما يشتغل بالدرس والسهر. وحدّثني الحافظ أيضاً قال: سمعت أبا الرجا بندار بن محمد بن جعفر الخلقاني بأصبهان يقول: سمعت أبا بكر أحمد بن جعد الحافظ المعروف بالفقيه يقول: ينبغي لطالب الحديث أن يكون سريع القراءة والكتابة سريع المشي.

(رجع) تقدم ذكر حروف المعجم، وسميت حروف المعجم لأنها منقطة أعجمية، أي إنها لا تفهم حتى يضاف بعضها إلى بعض وتعجم أي تنقط، والنقط

عندهم الشكل، وقد يقال لهذا النقط المعروف عندنا، والشكل الضبط والحركات، وأصله التقييد، تقول: شكلت الكتاب شكلاً أي: قيدته وضبطته، وشكلت الدابة شكالاً، وشكلت الطائر شكولاً، والشكل الضرب المتشابه، ومنه قول الله عز وجل: ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾ [ص: ٥٨] أي من ضربه. ومنه قول الرجل: ما أنت من شكلي، أي من ضربي، والشكل المثل، والشِكل بالكسر الدل، يقال: امرأة ذات شكل والشُكلة بالضم كهيئة الحمرة تكون في بياض العين كالشهلة في سوادها، وعين شكلاء: بيّنة الشكل. وفي صفة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: أشكل العين. جاء في تفسيره: طويل شق العين،خرجه الترمذي. وتقول: أشكل الأمر، إذا اشتبه عليك، والقوم أشكال، أي: أشباه، قاله أبو عمرو رحمه الله. قال ثابت رحمه الله في الدلائل: يقال كتاب معجم، وتعجيمه تنقيطه لكيما ما تستبين عجمته. قال الشاعر:

لمن الديار بعاقل فالأنعم ... كالوحي في رق الزبور المعجم

وقد قال أبو زيد القيسوني: يقولون هم الأعجم ولم يعرفوا العجم. وقال الراجز:

سلوم لو أصبحت وسط الأعجم ... في الروم أو فارس أو في الديلم

إذاً لزرناك ولو بسلم

وأنكر على أبي محمد عبد الله بن قتيبة قوله: لا يجوز أن يقال أعجمي إلا لمن تنسبه إلى عجمة اللسان وإن كان عربي النسب. قال: وقول أبي زيد أولى أن يكون محفوظاً.

وقال الخطابي رحمه الله: يقال رجل أعجم إذا كان في لسانه عجمة وإن كان من العرب ورجل أعجمي وعجمي إذا كان أصله من العجم وإن كان فصيح اللسان. قال الفراء: ويقال رجل أعرابي إذا نسب إلى أنه من أعراب البادية، وعربي إذا نسبته إلى أنه من العرب، فإن كان يتكلم بالعربية وهو من العجم قلت: عرباني، خرج هذا من حديث عبد الله: ما كنا نتعاجم أن ملكاً ينطق على لسان عمر رضي الله عنه، وفسره قال: قوله نتعاجم، أي: نكني ونورّي، وكل من كنى عن شيء وأخفى بيانه ولم يفصح به؛ فقد أعجمه. قال ذو الرمة:

أحب المكان القفر من أجل أنني ... به أتغنى باسمها غير معجم

وإنما قيل للبهيمة عجماء لأنه لا بيان لصوتها. وأنشد شاهداً على أنّ الرجل إذا كان في لسانه عجمة يقال له أعجم قول الشاعر:

وما زال كتمانيك حتى كأنني ... برجع جواب السائلي عنك أعجم

لأسلم من قول الوشاة وتسلمي ... سلمت وهل حي من الناس يسلم

وقال أبو عمرو المقري رحمه الله في كتابه المحكم: وتقول: أعجمت الكتاب إعجاماً، إذا نقطته، وهو معجم وأنا معجم، وكتاب معجم ومعجم، أي: منقوط، وحروف المعجم هي المقطعة من الهجاء، وفي تسميتها بذلك قولان: أحدهما: إنها مبينة للكلام، مأخوذ من قولك: أعجمت الشي، إذا بيّنته. والثاني: إن الكلام يختبر بها، مأخوذ من قولك: عجمت العود وغيره إذا اختبرته. انتهى.

ومن هذا قول الحجاج: إن أمير المؤمنين نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها، ذكره محمد ابن يزيد في الكامل، وفسر عجم عيدانها، يقول مضغها لينظر أيها أصلب. قال: والمصدر العجم ويقال لنوى كل شيء عجم، مفتوحاً، ومن أسكن فقد أخطأ.

قال صاحب كتاب تاج اللغة: العجم النقط بالسواد مثل التاء عليها نقطتان، يقال: أعجمت الحروف، والتعجيم مثله، ولا تقول: عجمت، ومنه حروف المعجم، ومعناه حروف الخط المعجم، كما تقول: مسجد الجامع، وصلاة الأولى، أي مسجد القوم الجامع، وصلاة الساعة الأولى. قال: وناس يجعلون المعجم بمعنى الإعجام مصدراً مثل المخرج والمدخل، أي من شأن هذه الحروف أن تعجم، وأعجمت الكتاب خلاف قولك أعربته. قال رؤبة:

الشعر لا يسطيعه من يظلمه يريد أن يعربه فيعجمه

أي: يأتي به أعجمياً، يعني: يلحن فيه. قال: والعجم، بالضم، خلاف العرب، والإبل العجم: التي تعجم العضاه والشوك فتجتزي به عن الحمض.

باب معرفة الحروف المقطعة أوائل السور

وذلك أن الله تعالى أقسم ببعضها في كتابه الكريم في أوائل بعض السور مقطعة وموصولة ومجمعة ومفصولة كما ترى أقسم بالتين والزيتون والعاديات والعصر وغير ذلك.

قال ابن عزيز: ﴿ الٓمٓ ﴾ وسائر حروف الهجاء في أوائل السور كان بعض المفسرين يجعلها أسماء للسور، تعرف كل سورة بما افتتحت به، وكان بعضهم يجعلها أقساماً أقسم الله بها لشرفها وفضلها ولأنها مبادي كتبه المنزلة ومباني أسمائه الحسنى وصفاته العليا، وبعضهم يجعلها حروفاً مأخوذة من صفات الله تعالى، كقول ابن عباس رضي الله عنهما في ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ [مريم: ١]: إنّ الكاف من كاف، والهاء من هاد، والياء من حكيم، والعين من عليم، والصاد من صادق. وروي عنه أيضاً أن معنى ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ كبير هاد عزيز صادق. ذكر هذا المهدوي، وقال: هذا مذهب مستعمل

في لغة العرب، ومثله قوله:

نـــادوهم ألا الجمـــوا ألا تـــا قالـــوا جميعاً كلهـــم ألا فـــا

يريد ألا تركبوا وفاركبوا.

وقال طرفة بن العبد في كلام له: ويل لنا، وأشار إلى رقبته، مما يجني ذا، وأشار إلى لسانه. وسيأتي مع قوله: يقال تي وتا بمعنى ذه. ومثله قوله:

قلـت لهـا قفـي فقالـت قـاف لا تَحسبي أنـا نـسينا ألا يجـاف

فاكتفى بقولها قاف من وقفت، ذكره أبو النقاش رحمه الله.

ويروى عن سعيد بن جبير أن ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ [مريم: ١] كاف هاد عزيز صادق. وذكر عن ابن عباس رضي الله عنه في ﴿ الٓمٓ ﴾ الألف من الله واللام من جبريل والميم من محمد صلى الله عليه وسلم. وعنه أن ﴿ الٓر ﴾ و﴿ حمٓ ﴾ و﴿ نٓ ﴾ فواتح ثلاث سور إذا جمعت كانت الرحمن، وقيل في ﴿ الٓر ﴾ أنا الله أرى، وفي ﴿ الٓمٓ ﴾ أنا الله أعلم، وفي ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ أنا الله أفصل، وقيل: أقسم بحروف المعجم كلها واقتصر على ذكر بعضها، كما يقول القائل: تعلمت ((أ ب ت ث))، وهو لا يريد هذه الأربعة إنما يريد جميعها. وكما يقول: أحفظ من شعر امرئ القيس: قفا نبك، وهو يريد القصيدة بكمالها، وكما يقول: قرأت ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ وهو يريد السورة كلها.

وقد سأل أحمد بن يحيى ثعلب رحمه الله عن قسم الله تعالى بهذه الأسماء فقال: رأيت الرؤساء من العلماء رضي الله عنهم يقولون: معناه وخلقي الذي لا يقدر أحد أن يخلق مثله لقد كان كذا وكذا، يريد والله أعلم قسمه بمثل ﴿ قٓ ﴾ يريد الجبل و﴿ نٓ ﴾ يعني الدواة، وشبه ذلك من مخلوقاته على مذهب من فسر ذلك بهذه، فإذا جاء القسم بعد الحروف نحو قوله تعالى: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾، ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴾ فقد قيل: إن ذلك على حذف وإضمار تقديره: ورب التين والزيتون، ورب السماء والطارق. كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾ [الذاريات: ٢٣]، وقيل: إنما أراد بذكر هذه الأشياء التنبيه على قدر عظمها عنده، وله سبحانه أن يعظم ما شاء من مخلوقاته ويفعل ما يشاء سبحانه، وقد يجوز أن يريد أن يتعبدنا بتعظيم هذه الأشياء فلذلك خصها بالذكر وأقسم بها، والله أعلم بكتابه.

ويروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هي أسماء مقطعة لو علم الناس تأليفها علموا اسم الله الذي إذا دعي به أجاب. وقال داود بن أبي هند: سألت الشعبي

رحمه الله عن فواتح السور، فقال: يا داود لكل كتاب سرّ وإنّ سرّ القرآن فواتح السور فدعها وسل عما بدا لك. وقال الربيع بن أنس: الألف مفتاح اسمه الله، واللام مفتاح اسمه لطيف، والميم مفتاح اسمه مجيد. وقال بعض المفسرين: افتتح الله هذه السور بهذه الحروف وهي عربية كلها، ليس فيها حرف من حروف المعجم، ليبطل به ما زعم الكفار من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعلم من يهود ونصارى، كما قال تعالى حكاية عنهم: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣] والله أعلم بما أراد من ذلك كله. وقد قال ابن سلام في تفسيره: سمعت بعض من أقتدي به من مشايخنا يقول: إن الإمساك عن تفسيرها أولى.

وقال شيخي الفقيه الأستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن الحسن الخثعمي ثم السهيلي ويكنى أبا القاسم رحمه الله في شرح السير له: ولهذه الحروف التي في أوائل هذه السور معان جمة وفوائد لطيفة، وما كان الله لينزل في الكتاب مما لا فائدة فيه، ولا ليخاطب نبيه وذوي الألباب من صحبه بما لا يفهمون، وقد أنزله بياناً وشفاء لما في الصدور، وفي تخصيصه هذه الحروف بأوائل بعض السور دون بعض وكونها أربعة عشر حرفاً حكم لمن تدبرها، وقد جمعها في كلام ستراه بعد إن شاء الله تعالى.

وروي عن كعب الأحبار أنه قال: أوّل من كتب العربي والسرياني وسائر الكتب آدم عليه الصلاة والسلام قبل موته بثلاثمائة سنة، كتبها في طين ثم طبخه، فلما أغرق الله الأرض أيام نوح عليه السلام بقي ذلك فأصاب كل قوم كتابهم، وبقي الكتاب العربي إلى أن خص الله تعالى به إسماعيل عليه السلام فأصابها وتعلمها. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أول من تعلم الكتاب العربي إسماعيل عليه السلام على لفظه ومنطقه.

مطلب أبجد

وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص وعروة بن الزبير أنهما قالا: أول من وضع الكتاب العربي قوم من الأوائل نزلوا في عدنان بن أد بن أدد، أسماؤهم أبجد وهوّز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت، فوضعوا الكتاب العربي على أسمائهم، ووجدوا أحرفاً ليست من أسمائهم وهي: الخاء والثاء والذال والغين والضاد والظاء، فسموها الروادف، يريد: ثخذ ضظغ، والله أعلم. لم يذكره في الخبر أنا قلته، وقد روي أنهم كانوا ملوك مدين وأن رئيسهم كلمن وأنهم هلكوا يوم الظلة وهم قوم شعيب عليه

السلام، فقالت أخت كلمن ترثيه:

كلمون هدّ ركني ... هلكه وسط المحله
سيد القوم أتاه الـ ... ـحتف ناراً وسط ظله

وقال رجل من أهل مدين يرثيهم:

ملوك بني حطي وهوّاز منهم ... وسعفاص من أهل المكارم والفخر

وقال آخر من أهل مدين يرثيهم:

ألا يا شعيب قد نطقت مقالة ... سبقت بها عمراً وحيّ بني عمرو
ملوك بني حطي وهوّاز منهم ... وسعفص أهل في المكارم والفخر
هم صبحوا أهل الحجاز بغارة ... كمثل شعاع الشمس أو مطلع الفجر

ويذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقي أعرابياً فقال له: هل تحسن أن تقرأ شيئاً من القرآن؟ قال: نعم، قال له: فاقرأ أم القرآن، فقال: والله ما أحسن البنات فكيف الأم، قال فضربه ثم أسلمه إلى الكتاب فمكث فيه حيناً فهرب ثم أنشأ يقول:

أتيت مهاجرين فعلموني ... ثلاثة أسطر متتابعات
كتاب الله في رق صحيح ... وآيات الله مفصلات
وخطوا لي أبا جاد وقالوا ... تعلم سعفصاً وقريشيات
وما أنا والكتابة والتهجي ... وما خط البنين من البنات

فصل:

ويكره لمعلم القرآن أن يعلم الصبيان هذه الأسماء خشية أن يعدوها من القرآن. قال سحنون: أكره للمعلم أن يعلم أبا جاد. قال: وأرى أن يتقدّم إلى المعلمين في ذلك. وقد سمعت جعفر بن غياث يحدث أنّ أبا جاد أسماء الشياطين ألقوها على ألسنة العرب في الجاهلية فكتبوها. قال محمد: وسمعت بعض أهل العلم يقول: إنها أسماء ولد سابور الملك ملك فارس، أمر العرب الذين كانوا في طاعته أن يكتبوها، فلا أرى لأحد أن يكتبها فإن ذلك حرام. وقد أخبرني سحنون عن سعيد عن يحيى بن أيوب عن عبد الله بن طاوس عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان قوم ينظرون في النجوم يكتبون أبا جاد، أولئك لا خلاق لهم، ذكر هذا أبو الحسن علي بن محمد القابسي في كتاب التفضلة في تأديب المتعلمين. قلت: ومع هذا فإن الناس لم يتركوها ولعلهم لم يبلغهم هذا أو قصدوا المنفعة فيها لحصرها جميع حروف المعجم، والله أعلم. وسهّل ذلك عليهم أيضاً ما خرجه أبو عمرو المقري في كتاب المحكم له بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لكل شيء تفسير علمه من علمه وجهله

من جهله. ثم فسر أبا جاد: أبي آدم الطاعة وجدّ في أكل الشجرة، وهوّاز: زل فهوى من السماء إلى الأرض، وحطي حطت خطاياه، كلمن: أكل من الشجرة ومنّ عليه بالتوبة، سعفص: عصى فأخرج من النعيم إلى النكد، قرشت: أقر بالذنب فأمن العقوبة.

ووقع أيضاً في كتاب المبدأ أن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام لما بلغ تسع سنين أسلمته أمه إلى الكتاب عند رجل من المكتبين يعلمه كما يعلم الغلمان فلا يسأله عن شيء إلا بدره عيسى إلى علمه قبل أن يعلمه إياه فعلمه أبا جاد، فقال عيسى عليه السلام: وما أبو جاد؟ قال المعلم: لا أدري، فقال عيسى: كيف تعلم ما لا تدري ما هو؟ فقال المعلم: فعلمني إذاً، فقال عيسى عليه السلام: قم من مجلسك، فقام فجلس عيسى مجلسه وقال: سلني، فقال المعلم: ما أبو جاد؟ فقال عيسى: الألف آلاء الله والباء بهاء الله والجيم جمال الله وبهجته والدال دين الله، فعجب المعلم من ذلك، فكان أوّل من فسّر أبا جاد عيسى ابن مريم عليه السلام.

قال: وسأل عثمان بن عفان رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ما تفسير أبي جاد؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تعلموا تفسير أبي جاد فإن فيه الأعاجيب، قيل: يا رسول الله وما أبو جاد؟ قال: الألف آلاء الله حرف من أسمائه، وأما الباء فبهجة الله وجماله وجلاله، وأما الجيم فجنة الله، وأما الدال فدين الله، وأما هوز فالهاء الهاوية وفسّر جميع الحروف كذلك إلى آخر قرشت في نوع ما تقدّم، فهذا ما جاء فيه والله أعلم.

فصل:

وأما ابن إسحاق فذكر في السير أن إدريس عليه الصلاة والسلام كان أوّل نبيّ أعطي النبوّة والخط بالقلم، ذكره بغير إسناد، وذكر في كتابه الكبير عن شهر بن حوشب عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: أوّل من كتب بالقلم إدريس.

وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: أوّل من كتب بالعربية إسماعيل عليه السلام. قال أبو عمرو: هذه الرواية أصح من رواية من روى: أوّل من تكلم بالعربية إسماعيل. والخلاف كثير في أوّل من تكلم بالعربية وفي أوّل من أدخل الكتاب العربي أرض الحجاز، فقيل حرب بن أمية، وقيل سفيان بن أمية، وقيل عبد الله بن قصي تعلمه بالحيرة وتعلمه أهل الحيرة من الأنبار.

ويروى عن زياد بن أنعم قال: قلت لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: معاشر قريش هل كنتم في الجاهلية تكتبون غير الكتاب العربي تجمعون فيه ما اجتمع

وتفرقون فيه ما افترق هجاء بالألف واللام والميم والشكل والنقط وبما يكتب به اليوم قبل أن يبعث الله النبي صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم، قلت: فمن علمكم الكتاب؟ قال: حرب بن أمية، قلت: فمن أين تعلمه؟ قال: من أهل الأنبار، فقلت: فمن علّم أهل الأنبار؟ قال: طارئ طرأ عليهم من أرض اليمن من كندة، قلت: فمن علّم ذلك الطارئ؟ قال: الخلجان بن الموهم فإنه كان كاتب هود نبي الله بالوحي عن الله عز وجل. ذكر هذا الكلام أبو عمرو في المحكم.

ويروى أنهم سألوا المهاجرين من أين تعلموا الكتابة؟ فقالوا: من أهل الحيرة، قيل: وأهل الحيرة من أين تعلموها؟ فقالوا: من أهل الأنبار. فكان أهل مكة يحسنون الكتابة بمكة، وكان أهل المدينة لا يحسنونها، فلما قدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت وقعة بدر وأسر فيها من أسر من أهل مكة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل بدر: إنّ بكم عيلة فلا يفلت منهم، يعني الأسارى، أحد إلا بفداء أو ضربة عنق، وكان فداؤهم أربعين أوقية عن كل إنسان إلا العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم فإن فداءه كان مائة أوقية، فكان من لا مال له من الأسارى يقبل منه أن يعلم عشرة من غلمان أهل المدينة الكتابة ويخلى سبيله، فيومئذ تعلم زيد بن ثابت الكتابة في جماعة من الأنصار. ومعنى: كتبت الكتاب، أي: جمعت حروفه، وقيل كتيبة لاجتماعها، قاله ابن قتيبة.

فصل:

ومما جاء في الخط قال بعض العلماء: كتاب الأمم على نوعين: أحدهما أن يبتدئ الكاتب خطه من يمينه إلى يساره، وهي العربية والسريانية والعبرانية. والنوع الآخر ابتداء الخط من يسار الكاتب إلى يمينه، وهي الرومية واليونانية وكتابة الفرس، واحتجوا في ذلك بأنهم ابتدؤوها على اليسار ليكون الاستمداد عن حركة القلب لا عليه. قال: وأحسن الكتابة الصينية وذلك أنها نقش وصورة، وإنما يكتب الكاتب منها في اليوم ثلاث ورقات، ورأيت في بعض الكتب أن عاداً كانت كتابتها نقشاً في الصخر، واستشهد على ذلك بقول يزيد بن المخرم:

إذا قلدتهن بني خزيم ... بقين لهم بقاء سطور عاد

يريد قوافي شعره، يعني أن عاداً كانت كتابتها نقشاً في الصخر فهي لا تندرس.

وقال كعب بن زهير لمزرد بن ضرار:

أنا ابن الذي لم يخزني في حياته ... ولم أخزه حتى تغيب في الرجم

أتى العجم والآفاق منه قصائد ... بقين بقاء الوحي في الحجر الأصم

وفي آخرها:

أقول شبيهات بما قال عالماً … بحسن ومن يشبه أباه فما ظلم
فأشبهته من بين من وطئ الحصى … ولم ينتزعني شبه خال ولا ابن عم

ومما قيل في الخط: القلم أحد اللسانين، كما قيل: قلة العيال أحد اليسارين. قيل لنصر بن يسار: فلان لا يخط، قال: تلك الزمانة الخفية. قال ابن التوأم: خط القلم يقول بكل مكان وفي كل زمان ويترجم إلى كل إنسان، ولفظ الإنسان لا يجاوز الآذان ولا يعم الناس بالبيان.

وقيل: الخط لسان اليد وهو أفضل أجزاء اليد. وقال إسماعيل: عقول الرجال تحت أسنان أقلامها. وقال عبيد الله بن العباس بن الحسن العلوي: الخط لسان اليد، وصدق. وقال بعض العلماء: من حلف أن لا يكلم أحداً فكتب إليه أو كتب بطلاق امرأته بيده ولم يتكلم فإنه حانث. وقال جعفر بن يحيى: الخط سمط الحكم به تفصل شذورها وينظم منثورها.

وقيل: صنعة الخط حلي العقول. وقال بشر بن المعتمر: القلب معدن والعقل جوهر واللسان مستنبط والقلم صائغ والخط صيغة. وقال مسلمة بن الوليد: الخط هو المقيد للباقين حكم الماضين والمخاطب للعيون بسرائر القلوب على لغات مختلفة في معان معقودة بحروف معلومة من ألف ولام وميم وتاء متباينات الصور مختلفات الجهات نتاجها التفكر وتاجها التأليف تخرس مفردة وتنطق مزدوجة بلا أصوات مسموعة ولا ألسن مشهورة. قلت: انظر هذا الكلام ما أسهله وأحسنه وأكمله وأتقنه، إنما أراد به والله أعلم تمام الخير وكمال الفائدة لأن الحرف الواحد لا يفيد على انفراده حتى يزوّج بغيره، وحينئذ يكون كلاماً مفيداً، وقد يكون للبعض منه معنى مفيداً أيضاً على ما سيأتي بعد إن شاء الله.

فصل:

وقد سقت هذا الخبر شاهداً على الخط والكتاب وتطرقت منه إلى تحصيل هذه الفوائد في هذا الكتاب، وكذا أفعل بكل خبر أو حديث عجيب أطرق إليه بأدنى نصيب حتى أقيده بالكتابة في هذا الإمام ثم أرجع إلى بقية الكلام:

بالله قل لي يا فتى إنني … أسألك الآن برد الجواب
لو لم أسق ذاك ولا غيره … بأي شيء كنت أملي الكتاب
آخذ من ذاك وألقي هنا … حتى يرى السفر كتخت الثياب
ولست في أخذي له غاصباً … لكنه عارية للمثواب

وإن يكـــن ذاك أتــب عــاجلاً فــالله غفــار لمـــن بعــد تــاب

بقي من حديث الأسارى بقية أذكرها الآن بخير تقية، وأطول بقدر مقدرتي إذ قد قدمت معذرتي.

تقدّم أن العباس رضي الله عنه كان فداؤه مائة أوقية، قال الأستاذ، رحمه الله: قد آتاه الله خيراً مما أخذ منه، قدم على النبي صلى الله عليه وسلم مال من البحرين فقال له: خذ، فبسط ثوبه وأخذ ما لم يقدر على حمله حتى خفف منه، في حديث طويل، وصدق الله تعالى لأنه يقول سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنفال: ٧٠]، وفي هذه الآية الشريفة بشرى عظيمة للعباس رضي الله عنه إذ أخذ أكثر مما أعطى وغفر له فيه ما أخطأ، وكان الذي أسر العباس أبو اليسر واسمه كعب بن عمرو، وكان قصيراً دميماً، وكان العباس رضي الله عنه عظيم الخلق طويل القامة من مقبلي الظعن، يعني أنه كان يدرك فم الظعينة وهي راكبة على البعير وهو على قدميه في الأرض.

وفي مسند البزار: قيل للعباس رضي الله عنه: كيف أسرك أبو اليسر ولو أخذته بكفك لوسعته؟ فقال: ما هو إلا أن لقيته فظهر في عيني كالخندمة، والخندمة جبل بمكة.

وذكر أبو عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: لقد أعانك عليه ملك كريم. ولما فدى العباس نفسه وابن أخيه عقيل بن أبي طالب قال لرسول الله: لقد تركتني أتكفف قريشاً فقيراً معدماً، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أين الذهب التي تركتها عند أم الفضل وعددها كذا وكذا وقلت لها كيت وكيت؟ فقال: من أعلمك بهذا يا ابن أخي؟ فقال: الله، فقال: هذا حديث ما اطلع عليه إلا عالم السرائر إشهد أنك رسول الله. وأم الفضل هذه رضي الله عنها هي لبابة الكبرى بنت الحارث الهلالية أخت ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، وأختها لبابة الصغرى أم خالد بن الوليد، ولدت أم الفضل للعباس سبعة نجباء: عبد الله ابن عباس صاحب التفسير الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل. وعسى أن يأتي له موضع في الكتاب أزين بذكره أوراقي وأضرب في ميدان فخره أرواقي.

وإخوته الستة: عبيد الله وعبد الرحمن والفضل وقثم ومعبد وكثير، واختلف في كثير فقيل إنّ أمّه رومية، وأختهم أم حبيب، وفي أم الفضل يقول الشاعر:

مــا ولــدت نجيبــة مــن فحــل بجبــل نعــرفــه أو ســـهل

كـسبعة مـن بطـن أم الفـضـل أكـرم بهـا مـن كهلـة وكهـل
عـم النبـي المـصطفى ذي الفـضل وخـاتم الرسـل وخيـر الرسـل

وكان له أيضاً سوى هؤلاء ثلاثة من غير أم الفضل: عون والحارث وتمام، وكان أصغرهم تمام، وهؤلاء لأم ولد رومية تسمي سبا، ويقال شقيقهم كثير المتقدّم الذكر، وكان العباس يحمل تماماً هذا ويقول:

تَمـوا بـتمام فـصاروا عـشره يـا رب فـاجعلهم كـراماً بـرره
واجعـل لهـم ذكـراً وأنـم الثمـره

قلت: أجاب الله دعاء العباس رضي الله عنه وعن بنيه الأكياس، كانوا كما أراد أبوهم واشتهى، كلهم له رواية ونهي، ومع ذلك فيقال: ما رؤيت قبور أشدّ تباعداً بعضها من بعض من قبور بني العباس بن عبد المطلب، ولدتهم أم الفضل في دار واحدة، واستشهد الفضل بأجنادين، ومات معبد وعبد الرحمن بإفريقية، وتوفي عبد الله بالطائف، وعبيد الله باليمن، وقثم بسمرقند، وكثير وأمه سبا المذكورة أخذته الذبحة بينبع، رضي الله عنهم أجمعين.

تقدّم أن العباس رضي الله عنه كان من مقبلي الظعن، خرج محمد بن يزيد رحمه الله في الكامل أن العباس كان إلى منكب عبد المطلب، وكان عبد الله بن عباس إلى منكب العباس، وكان علي بن عبد الله إلى منكب أبيه عبد الله.

غريبة :

وطاف علي هذا بالبيت وهناك عجوز قديمة، وعلي قد فرع الناس كأنه راكب والناس مشاة، فقالت: من هذا الذي فرع الناس؟ فقيل: هو علي بن عبد الله بن العباس، فقالت: لا إله إلا الله إنّ الناس ليرذلون عهدي بالعباس وهو يطوف بالبيت كأنه فسطاط أبيض. وكان ابن عفير يقول: أدرك الإسلام من العرب عشرة نفر طول كل واحد منهم عشرة أشبار: عبادة ابن الصامت منهم رضي الله عنهم، وكان طول جبلة بن الأيهم اثني عشر شبراً، وكان يمسح الأرض برجليه وهو راكب. وسيأتي خبره وكيف أسلم ثم ارتدّ ومات نصرانياً، في باب الكاف فانظره هناك إن شاء الله تعالى.

أولاد أبي طالب

وكان منهم أيضاً عقيل المذكور، تأخر إسلامه إلى يوم الحديبية، قال له النبي صلى الله عليه وسلم لما أسلم: أحبك حبين حباً لقرابتك مني، وحباً لما أعلم من حب عمي إياك.

وكان لأبيه أبي طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة من الولد: طالب وعقيل وجعفر وعلي، كان طالب أسنّ من عقيل بعشر سنين، وكان عقيل أسنّ من جعفر بمثل ذلك، وجعفر أسنّ من عليّ بمثل ذلك. أما الثلاثة فلا خفاء بإسلامهم.

وأما طالب فلا يعلم له إسلام. يقال: إن الجن اختطفته فذهب، وعقيل هذا هو المذكور في الموطأ: كنت أرى طنفسة لعقيل بن أبي طالب تطرح إلى جدار المسجد الغربي، وفسرت الطنفسة أنها مقعد يجلس عليه، ويقال فيها طنفسة، بفتح الفاء وكسرها وجمعها طنافس. ومنه قول أبي الدرداء رضي الله عنه: لا أبالي أن أصلي على ست طنافس بعضها فوق بعض.

وكان في الأسارى أيضاً نوفل بن الحارث بن عبد المطلب تأخر إسلامه إلى عام الخندق، وقيل: بل أسلم حين أسر، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: افد نفسك، فقال: ليس عندي مال أفتدي به، فقال: افد نفسك بأرماحك التي بجدّة، قال: والله ما علم أحد أن لي بجدّة أرماحاً غير الله، أشهد أنك رسول الله، ثم شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنيناً وأعانه عند الخروج إليها بثلاثة آلاف رمح، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: كأني أنظر إلى أرماحك هذه تقصف ظهور المشركين. توفي نوفل هذا بالمدينة سنة خمس عشرة، وصلى عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

وكان في الأسارى أيضاً أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم واسمه لقيط، وقيل هاشم، وقيل هشيم، امرأته زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ابن خالتها هالة بنت خويلد أخت خديجة رضي الله عنها، وفيها يقول إذ كان بالشام تاجراً:

ذكرت زينب لما يممت اضما	وقلت سقيا لشخص يسكن الحرما
بنت الأمين جزاه الله صالحة	وكل بعل سيثني بالذي علما

يريد بقوله يممت راحلتي، والله أعلم.

وكان الذي أسره عبد الله بن جبير، فجاء أخوه عمرو بن الربيع في فدائه بمال فيه قلادة لزينب كانت أمها خديجة رضي الله عنها قد أدخلتها بها على أبي العاص، فرق لها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لأصحابه: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا الذي لها فافعلوا، فقالوا: نعم. وهاجرت زينب مسلمة من مكة إلى المدينة، وتركته بمكة على شركه، فلم يزل كذلك حتى كان قبل الفتح خرج بتجارة إلى الشام ومعه أموال من أموال قريش من المشركين، فلما انصرف لقيته سرية لرسول الله صلى

الله عليه وسلم أميرهم زيد بن حارثة، فأخذوا ما في تلك العير وأسروا ناساً وأفلت أبو العاص، ثم أقبل من الليل حتى دخل على زينب، فاستجار بها فأجارته، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصبح وكبّر وكبّر الناس معه صرخت زينب: أيها الناس إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع، فلما سلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة أقبل على الناس فقال: هل سمعتم ما سمعت؟ قالوا: نعم، قال: أما والذي نفسي بيده ما علمت بشيء كان حتى سمعت ما سمعتم إنه يجير على المسلمين أدناهم، ثم انصرف فدخل على ابنته فقال: أي بنية أكرمي مثواه ولا يخلصن إليك فإنك لا تحلين له، فقالت: إنه جاء في طلب ماله. فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعث في تلك السرية فاجتمعوا إليه فقال لهم: إن هذا الرجل منا بحيث علمتم، وقد أصبتم له مالاً وهو فيء أفاءه الله عليكم وأنا أحب أن تحسنوا فتردّوا إليه الذي له، وإن أبيتم فأنتم أحق به. فقالوا: يا رسول الله بل نردّه عليه، فردّوا عليه ماله ما فقد منه شيئاً، فاحتمله إلى مكة فأدى إلى كل ذي مال من قريش ماله الذي أبضع معه، ثم قال: يا معشر قريش هل بقي لأحد منكم مال لم يأخذه؟ قالوا: جزاك الله خيراً فقد وجدناك وفياً كريماً، قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، والله ما منعني من الإسلام إلا تخوّف أن تظنوا أني آكل أموالكم. ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلماً وحسن إسلامه، وردّ عليه ابنته زينب رضي الله عنهما، ولدت زينب لأبي العاص هذا أمامة وعلياً، وهذه أمامة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بالناس صلاة الفريضة وهو حاملها، ذكر ذلك البخاري رحمه الله.

تزوج أمامة هذه علي بن أبي طالب بعد موت فاطمة رضي الله عنها، وكانت أمرته بذلك، وماتت فاطمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بستة أشهر، وقيل ثلاثة، وقيل بسبعين يوماً، والله أعلم. وما رؤيت ضاحكة بعده صلى الله عليه وسلم إلا يوماً افتراراً بطرف نابها، وكان سنها يوم ماتت ثلاثين سنة، وكان سنها يوم تزوجها علي رضي الله عنه خمس عشرة سنة وخمسة أشهر ونصفاً، وسنّ علي إحدى وعشرين سنة ونصفاً، وكانت أحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانت إذا دخلت عليه قام إليها فقبّلها ورحّب بها، كما كانت هي تصنع به صلى الله عليه وسلم، ولما حانت وفاتها أمرت أسماء بنت عميس أن لا يدخل عليها أحد، وأن تغسلها هي وعلي، فكان كذلك. وقيل: إنها غسلت نفسها قبل موتها وقالت: قد غسلت نفسي فلا أغسل. وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى. ولما توفي علي عن أمامة تزوّجها بعده ابن عمه المغيرة بن نوفل بن عبد المطلب.

يروى أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما حضرته الوفاة قال لأمامة هذه: إني لا آمن أن يخطبك معاوية بعد موتي، فإن كان لك في الرجال حاجة فقد رضيت لك المغيرة بن نوفل عشيراً، فلما انقضت عدّتها كتب معاوية إلى مروان بن الحكم يأمره أن يخطبها عليه ويبذل لها مائة ألف دينار، فلما خطبها أرسلت إلى المغيرة بن نوفل: إن هذا قد أرسل يخطبني، فإن كان لك بنا حاجة فأقبلْ، فأقبلَ وخطبها إلى الحسن بن علي فزوّجها منه رضي الله عنهم، وهو مراهق الحلم، وكان يوم الفتح رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم، وماتت زينب قبل الفتح بعام وأسلم أبو العاص وحسن إسلامه، في خبر طويل ذكره ابن إسحاق وغيره، وكانت قريش قد أرادته على أن يطلق زينب فأبى وأثنى خيراً، وأرادت عتبة وعتيبة ابني أبي لهب على طلاق رقية وأم كلثوم بنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففعلا هواناً بهما، أعني الرجلين، وكرامة لهما، أعني المرأتين، وليعلهما عثمان بن عفان رضي الله عنهم تزوّج الواحدة بعد الأخرى، كانت الأولى رقية تزوّجها بمكة وكانت أكبر بناته فهاجر بها إلى أرض الحبشة، فقال صلى الله عليه وسلم: إنهما لأوّل من هاجر إلى الله بعد إبراهيم ولوط، ثم هاجر إلى المدينة، فله هجرتان ثم تزوّج أم كلثوم بعد موت رقية رضي الله عنهما، وكان له من رقية ولد اسمه عبد الله ذكروا أنه بلغ ست سنين فنقره ديك على عينه فمرض فمات. وجاء في الخبر أنه عليه الصلاة والسلام قال: لو أن لي ثالثة لزوّجتها إياه. فمن أجل جمعه بين رقية وأم كلثوم الواحدة بعد الأخرى كان يقال له ذو النورين، وكانت رقية كما تقدّم أكبر بناته وبعدها زينب ثم أم كلثوم ثم فاطمة رضي الله عنهن وصلى على أبيهن وأمهن.

واحذر أن تسب عتبة فإنه أسلم مع أخ لهما ثالث اسمه معتب يوم فتح مكة وبها أقاما حتى ماتا ولهما بها عقب، ومن ولد عتبة بها الفضل بن العباس بن عتبة المعروف بالأخضر، سمي بذلك لقوله في أبيات:

وأنــا الأخــضــر مـــن يعــرفنـــي ... أخـضر الجلـدة فـي بـيت العـرب

وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

وكان عتبة ومعتب قد هربا من الإسلام فأرسل إليهما عمهما العباس فقدما وأسلما، فسرّ بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشهدا معه حنيناً والطائف.

وأما عتيبة فإنه لما أسلمت ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فارقها وقال: يا محمد فارقت ابنتك وتركت دينك فلا تحب لي خيراً أبداً، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسلط الله عليه كلباً من كلابه، فخرج إلى الشام تاجراً، فلما كان في

بعض الطريق جاءهم الأسد ففزع وقال: أترى ابن أبي كبشة قاتلي وهو بمكة وأنا بالشام؟ فأدخله أصحابه بينهم وتوسطوا به جميعهم، فلما كان في بعض الليل أتاهم الأسد فتقراهم رجلاً رجلاً حتى أتى إليه فشدخه من بينهم. وأما أبوهما أبو لهب وأمهما أم جميل حمالة الحطب فيكفيهما ما أنزل الله فيهما من قوله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد: ١]، وزاد الله أبا لهب عدوّ الله خزياً في الدنيا ظاهراً، أصابه الله بالعدسة فقتلته. ذكر الطبري في تاريخه أن العدسة قرحة كانت العرب تتشاءم بها ويرون أنها تعدي أشد العدوى، فلما رمي بها أبو لهب تباعد عنه بنوه فبقي ثلاثاً لا تقرب جنازته ولا يدفن، فلما خافوا السبة دفعوه بعود في حفرته ثم قذفوه بالحجارة. وقيل: لم يحفروا له ولكن أسندوه إلى حائط وقذفت عليه الحجارة من خلف الحائط حتى ووري، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم.

وذكر أن عائشة رضي الله عنها كانت إذا مرّت بموضعه ذلك غطت وجهها، نقلت أكثر هذا الكلام من شيخي الفقيه الأستاذ أبي القاسم السهيلي رحمه الله في شرح السيرة، وهو روايتي عنه، تقدّم ذكر عتيبة وعتبة، وربما أشكل عليك أيما المسلم منهما واشتبه، وقد قلت فيهما بيتين كي تعلم من كفر منهما ومن أسلم:

كرهت عتيبة إذ أجرما ... وأحببت عتبة إذ أسلما

كذاك معتب أسلم فاحـ ... ـترز أن تسب فتى مسلما

ومثل عتبة وعتيبة في الصلاح والفحش عبد الله وعبيد الله ابنا جحش، عبد الله تبين وتبصر فأسلم، وعبيد الله افتتن وتنصر فأجرم. وسأسوق ذكرهما معاً ومن أخبارهما لمعاً إن شاء الله تعالى والله الموفق.

جاء في هذا الفصل أمر كأنه لي أصل، وهو أن الأكبر ممن ذكر هو الأفضل، وأن الأصغر هو الأرذل، وأريد أن أسوق في هذا الفصل من عرفت من شخصين أحدهما مكبر والآخر مصغر، أذكر المكبر بالمدح والمصغر بالقدح، كما تقدم فيمن كفر ومن أسلم.

قالوا في المثل: أسعد أم سعيد، إذا سئل عن الشيء أهو مما يحب أم يكره، فإن قيل سعد مكبراً فهو المحمود المضموم، وإن قيل سعيد مصغراً فهو المنبوذ المذموم، وأصله فيما ذكر أن سعداً وسعيداً ابني ضبة بن أدد خرجا في حاجة لهما، فرجع سعد ولم يرجع سعيد بعد، فضرب بهما المثل فيما نفع وضر وساء وسرّ. وسيأتي حديث سعد وسعيد عند ذكر: الحديث ذو شجون، وقد ذكر ذلك زياد، وأشار إلى هذا المعنى خطيب أهل البصرة، فأغلظ في خطبته وقال: والله لآخذن المقبل بالمدبر والمحسن

بالمسيء والمطيع بالعاصي حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: يا سعد أنج، فإن سعيداً قد قتل، في خبر طويل، وفي آخره: فقام إليه الأشعث بن قيس فقال: أصلح الله الأمير إن الجواد بشدّه وإن السيف بحدّه، وإن المرء بجدّه وإن جدّك بلغ بك ما ترى، وإن الثناء بعد البلاء، ولسنا نثني عليك حتى نبتليك، فأول خيراً نثن به، ينظر قول الأشعث هذا إلى قول الشاعر:

لا تمدحنّ امرأ حتّى تجرّبه ولا تذمّنّه من غير تجريب
فحمدك المرء ما لم تبله خطأ وذمّك المرء بعد الحمد تكذيب

قلت:

خرجت من شيء إلى غيره وهكذا أشياخنا يصنعون
إن ألفوا أو صنفوا إنهم في كل روض وجدوا يرتعون

قرأت على القاضي أبي محمد العثماني الديباجي رحمه الله مقصورة ابن دريد وفيها من الشرح أثناء الأبيات ومن أخبار امرئ القيس وجذيمة وقصير وغيرهم ما هو أكثر من هذه الأصناف، وهذا أنفع من ذلك بأضعاف، مع أن نفسي لمثل هذا أميل، وهو من الذي قبله عليّ أسهل، فلذلك أطلت فطلت وصلت فقلت:

هذي المقالة أولى من قول هوّز وحطي
قلبي يميل لهذا نعم وكفي وخطي
لكنني سأفي يا أحباب قلبي بشرطي
لو لم أتم الذي قد بدأته كنت أخطي

خبَر طرفة بن العبد والمتلمس

ومما بدأته ولم أكمله بعد؛ حديث طرفة بن العبد الذي تقدم قبل ذا، وقوله: ويل لذا من ذا.

ذكر الخطابي رحمه الله بسنده عن سماك بن حرب عن يحيى بن أبي يحيى عن أبيه قال: إني لأسير على فرس لي في الجاهلية إذا أنا بطرفة بن العبد فقال: يا أبا يحيى احملني خلفك، قلت: أين تريد؟ قال: إلى موضع كذا، سماه، فحملته، ثم نزل فإذا غلام آدم أزرق أوقص أزور أفدع قال: فقلت: ويلك يا طرفة ما أشد تشاول خلقك! قال: فكيف لو أريتك من خلقي ما هو أشد من هذا؟ قلت: وأي شيء هو؟ فأخرج لسانه فإذا هو أسود كأنه لسان ظبي، قلت: ما رأيت كاليوم قط شيئاً أعجب. قال: فأهوى بيده إلى رقبته وقال: ويل لذا مما يجني ذا قال: فكان الذي جنى عليه أن قتل، وكان سبب

قتله أنه والمتلمس كانا ينادمان عمرو بن هند ملك الحيرة فهجواه، فكتب لهما إلى عامله بالبحرين كتابين أوهمهما أنه أمر لهما بجائزة، وكتب إليه يأمره بقتلهما، فخرجا حتى إذا كانا ببعض الطريق إذا هما بشيخ على جنب الطريق يحدث ويأكل من خبز في يده، فقال له المتلمس: ما رأيت كاليوم شيخاً أحمق، فقال الشيخ: أحمق مني من يحمل حتفه بيده، فاستراب المتلمس وقال لغلام رآه: أتقرأ يا غلام؟ قال: نعم. ففك صحيفته فدفعها إلى الغلام فإذا فيها: أما بعد فإذا أتاك المتلمس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حياً. فقال لطرفة: ادفع إليه صحيفتك، ففيها والله ما في صحيفتي، فقال طرفة: كلا لم يكن ليجترئ عليّ، فقذف المتلمس صحيفته في نهر الحيرة وقال:

قذفت بها في الثني من جنب كافر ... كذلك أقنو كل خط مضلل
رضيت لها بالماء لما رأيتها ... يجول بها التيار في كل جدول

وأخذ نحو الشام، وأخذ طرفة نحو البحرين، فلما وافى صاحب البلد ضرب عنقه. ويقال: سقاه الخمر وفصد أكحليه إلى أن مات. وفيه يقول المتلمس:

كطريفة بن العبد كان هديهم ... ضربوا صميم قذاله بمهند

فضرب المثل بصحيفة المتلمس، وفيه يقول الشاعر:

ألقى الصحيفة كي يخفف رحله ... والزاد حتى نعله ألقاها

وقوله: تشاول خلقك، يريد اختلافه. قال الخطابي: وأراه من قولهم: شال الميزان، إذا ارتفع، وسيأتي شال وشل في باب الشين إن شاء الله تعالى من هذا الكتاب. وقوله: كذلك أقنو، قال ابن الأعرابي: يقال: لأقنونك قناوتك، أي: لأجزينك جزاءك. قال ابن دريد: ومثله لأنيلنك نبالتك، ولأمونك مناوتك، بفتح الميم وكسرها، أي: لأجزينك جزاءك. خرّج القصة الخطابي رحمه الله تعالى في شرح حديث النبي صلى الله عليه وسلم، أنه كتب لعيينة بن حصن كتاباً، فلما أخذ كتابه قال: يا محمد، أتراني حاملاً إلى قومي كتاباً كصحيفة المتلمس؟ ثم ذكر ما تقدم.

بيان الزمان

قلت: وهذه الحروف أعني حروف المعجم قد حصرها أبجد هوّز حطّي الخ، وهي ثمانية وعشرون حرفاً، فيها آية من آيات الله تعالى اجتمع فيها خط علم الأولين والآخرين ومنها يتفرع جميع كلامهم وجميع كتبهم، إلى ما جعل الله فيها من السر واستأثر به من علم ذلك، وقد استنبط منها أهل كل علم على قدر اتساعهم من ذلك الحساب الذي هو أصل من أصول العلم الوكيد المعين على الدين، لأن به يعلم عدد

الصلوات والزكوات والصيام والشهور والسنين، وتحدد السنون من الشهور، والشهور من الجمعات، والجمعات من الأيام، والأيام من الساعات، والساعات من الدرج، والدرج من الدقائق، والدقائق من الشعائر، والشعائر من الأنفاس، وتنتهي قسمة الأنفاس إلى أجزاء لا يعلمها إلا الله تعالى، ومنشأ هذه الأزمنة من دوران الفلك، ويستدل على ذلك بسير الكواكب والشمس والقمر، فتنشأ بين ذلك الأزمنة والأوقات التي يستدل بها على معالم الدين من أوقات الصلاة والصيام والحج وحين الزكاة ومدد عدد النساء ومحل الآجال، ويقيد ذلك كله بالحساب والعدد حتى لا يشذ شيء مما يحتاج إلى علمه بالتاريخ المصطلح عليه. وقد عدّد الله تعالى نعمه علينا بذلك في قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥]. وحقيقة الزمان إنما هو مقابلة حادث بحادث آخر، تقول: متى جاء فلان؟ فيقال: إذا كان كذا لا معنى للزمان إلا هذا، وقد دقق أهل الأصول الأزمنة حتى صيروها إلى جزء لا ينقسم، كما فعلوا بكل جرم وجسم دققوه إلى الجزء الفرد الذي سموه بالجوهر، وحجتهم في ذلك قول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤]، لم يرد الساعة من النهار التي هي واحدة من اثنتي عشرة ساعة في النهار، إذ معلوم أن المرء لا يستأخر دقيقة ولا نفساً إذا تمت أنفاسه، وفي ساعة من الأنفاس أعداداً كثيرة، وفي نفس من الأجزاء ما لا يعلمه إلا الذي خلقه، وهي معدودة محدودة، كما يروى أن رجلاً قدم من سفر وكان قد غاب عن أهله مدّة، فلما وصل إلى قريب من البلد دخل خربة يقضي فيها حاجته، فدخل عليه ملك الموت عليه السلام فقال له: ما تريد؟ قال: أقبض روحك، قال: دعني حتى أدخل البلد فأسلم على أهلي، فقال له: قد تم رزقك، فقال له الرجل: أستغني عن الرزق حتى آتيهم، قال له: قد تمت أنفاسك، وسقط ميتاً، أو كما قال هذا معناه. ومثله ما يروى أن رجلاً جاءه ملك الموت عليه السلام وهو في درج الغرفة فسأله أن يتركه حتى يصعد إلى الغرفة أو يهبط من الدرج فلم يفعل وقبض روحه في الدرج.

حساب أبجد

رجع الكلام إلى الحساب: فأخذت العرب حسابها من أبجد المذكور فوجدوه ينتهي من واحد إلى ألف لا زيادة ولا نقصان، أوّلها الألف الذي هو واحد وآخرها

الغين الذي هو ألف، والدليل على معرفتهم بالعدد المذكور قول يهود العرب حين أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ الٓمٓ ﴾ حيث سألوه: من أنزل عليك هذا؟ أجبريل أخبرك بها عن الله؟ قال لهم: نعم. قالوا: لقد بعث الله قبلك أنبياء ما نعلمه بيّن لنبي منهم ما مدة ملكه، ثم قالوا: الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون فهذا أحد وسبعون سنة، ثم قالوا له: هل معك غيرها؟ قال: نعم ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ قالوا: هذه أثقل وأطول، ثم جعلوا يعدون ثم كذلك في ﴿ الٓرۚ ﴾، و﴿ الٓمٓرۚ ﴾ وكذا وكذا، ويعدون حتى إذا فرغوا قالوا: لقد اشتبه علينا أمره، وقال بعضهم لبعض: ما يدريكم لعله قد جمع لمحمد هذا كله، إلى آخر العدد. فبهذه الحروف كانت العرب تحسب وإياها كانت تعرف.

وقد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إنا أمة أمية لا نحسب ولا نكتب الشهر هكذا وهكذا وهكذا، وأشار بيديه كلتيهما صلى الله عليه وسلم وحبس إبهامه في الثالثة، إنما أراد والله أعلم أن هذه الأمة إنما تعبدت برؤية الهلال عند الصوم وعند الإفطار، لا بالحساب الذي يقوله الحساب والمنجمون من أن الهلال لم يظهر إذا كان في حجاب الشمس أو في السرار مما لم نتعبد به، وأحالنا عليه الصلاة والسلام على الرؤية التي يستوي فيها الناس فقال: صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فاقدروا له، ولا نقول مع هذا أنهم كانوا لا يعرفون هذا العقد بالأصابع، فإن في الحديث الذي وصف به الراوي هيئة القعود في التشهد، قال ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى واليمنى على فخذه اليمنى وعقد ثلاثاً وخمسين.

وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام: فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وعقد وهيب تسعين. وفي رواية: وعقد النبي صلى الله عليه وسلم. ويحتمل أن يكون الراوي حكى فعل النبي صلى الله عليه وسلم، ومع علمهم بالعقد فإن العلماء كانوا إذا سبحوا أو كبروا عقدوا ذلك بجميع أصابع اليدين، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: واعقد عليهن بالأنامل فإنهن مسؤولات مستنطقات.

ورأيت أحد أشياخي رحمه الله يحسب بجميع أصابع يديه، فقلت له في ذلك فذكر لي هذا الحديث. وقال قوم من أهل النجوم المتشرعين: إن في هذه الحروف آية عددها عدد منازل القمر ويندغم منها مع لام التعريف نصفها أربعة عشر ويظهر معها أربعة عشر النصف الآخر، وكذلك المنازل يظهر بعضها أربعة عشر ويغيب أربعة عشر سرمداً، وأقصى ما تبلغ الكلمة بالزوائد سبعة أحرف عدد الدراري السبعة، وهذا اتفاق غريب، مثال اللام المدغمة من الحروف الدار والنار، ومثال المظهرة البحر والفجر إلى

آخرها، وسبب هذا الإدغام مخارج الحروف على ما سيأتي تفسيره إن شاء الله تعالى. والذي اجتمع من هذه الحروف في أوائل السور أربعة عشر حرفاً سوى المتكرر، جمعها الأستاذ أبو القاسم السهيلي في قوله: ألم يسطع نص حق كره. وقال: يجتمع فيها من العدد على حساب أبي جاد تسعمائة وثلاثة، وليس يبعد أن يكون من مقتضاها إشارة إلى الألف الذي بعث النبي عليه الصلاة والسلام فيه الذي هو السابع من الآلاف غير أنه يحتمل أن يكون من مبعثه أو من هجرته أو من وفاته.

وقد روي أن المتوكل سأل جعفر بن عبد الواحد عما بقي من الدنيا، فحدّثه بحديث رفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن أحسنت أمتي فبقاؤها يوم من أيام الآخرة، وإن أساءت فنصف يوم. وفي حديث آخر: لن يعجز الله أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم يعني خمسمائة عام. وفي حديث زمل الخزاعي حين قص على رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤياه وقال فيها: رأيتك يا رسول الله على منبر له سبع درجات وإلى جنبك ناقة عجفاء كأنك تبعثها، فعبر الناقة بقيام الساعة، ودرجات المنبر بسبعة آلاف سنة أنا في آخرها ألفاً.

ذكر سِنِي الدنيا

وقال ابن عباس: الدنيا سبعة أيام كل يوم ألف سنة، ومع هذا كله فقد قرب الله أمر الساعة بقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [النحل: ٧٧].

وخرّج أبو داود عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: تدور رحى الإسلام بخمس وثلاثين أو ست وثلاثين أو سبع وثلاثين، فإن يهلكوا فبسبيل من هلك، وإن يقم لهم دينهم يقم لهم سبعين عاماً، قال: قلت: أمِمّا بقي أو مِما مضى؟ قال: مِما مضى.

قال الهروي في تفسير هذا الحديث: قال الحميدي: ويروى تزول، وكأنّ تزول أقرب لأنها تزول عن ثبوتها واستقرارها، وتدور بما يكرهون، فإن كان الصحيح سنة خمس فإن فيها قدم أهل مصر، وحصروا عثمان، وإن كانت الرواية: سنة ست، ففيها خرج طلحة والزبير إلى الجمل، وإن كانت: سنة سبع، ففيها كانت صفين. وقال الخطابي: يريد عليه الصلاة والسلام أن هذه المدة إذا انقضت حدث في الإسلام أمر عظيم يخاف لذلك على أهله الهلاك. يقال للأمر إذا تغيّر واستحال: دارت رحاه، وهذا والله أعلم إشارة إلى انقضاء مدة الخلافة. وقوله: بقي لهم دينهم، أي: ملكهم

وسلطانهم، وذلك من لدن بايع الحسن معاوية إلى انقضاء أيام بني أمية من المشرق نحو من سبعين سنة، كذا وقع الحديث هنا.

وخرج أبو القاسم علي بن محمد بن عبدوس الكافي رحمه الله في كتاب التسلي عن الدنيا قال: روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم يكون الملك.

قال: وجدت في بعض التواريخ أيام أبي بكر رضي الله عنه سنتان وثلاثة أشهر وثمانية أيام، وأيام عمر رضي الله عنه عشر سنين وستة أشهر وثمانية عشر يوماً، وأيام عثمان رضي الله عنه إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً وثلاثة وعشرون يوماً، وأيام علي رضوان الله عليه أربع سنين وسبعة أشهر ويوم واحد، وأيام الحسن رضي الله عنه خمسة أشهر وعشرة أيام، قال: فجمعت ذلك كله فكان ثلاثين سنة لا تزيد يوماً ولا تنقص آخر، فلو خرج هذا في دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم لكان يصلح لذلك وبالله التوفيق.

تقدّم ذكر الحسن، وهو ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، ولدته أمه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم عام أحد، وولدت الحسين رضي الله عنه بعده في العام الثاني، وكان له منها سواهما محسن وأم كلثوم الكبرى وزينب الكبرى.

ذكر أبو عمر رضي الله عنه عن علي رضي الله عنه قال: لما ولد الحسن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أروني ابني ما سميتموه؟ قلت: سميته حرباً، فقال: بل هو حسن. فلما ولد الحسين قال: أروني ابني ما سميتموه؟ قلت: سميته حرباً، قال: بل هو حسين. فلما ولد الثالث جاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أروني ابني ما سميتموه؟ قلت: حرباً، قال: بل هو محسن. وفي رواية: ثم قال: إني سميتهم بأسماء ولد هارون شبر وشبير ومشبر.

ووقع في كتاب تاريخ الرقي أن علياً سمى ابنه الأكبر حمزة، وسمى حسيناً جعفراً، فسماهما النبي صلى الله عليه وسلم الحسن والحسين.

قال علي رضي الله عنه: كان الحسن أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين الصدر إلى الرأس، والحسين أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أسفل من ذلك. انتهى كلامه.

تزوّج أم كلثوم التي من فاطمة رضي الله عنها عمر بن الخطاب رضي الله عنه زوّجها منه أبوها علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولما خطبها إليه قال له: إنها صغيرة، فقال له عمر: زوّجنيها يا أبا الحسن فإني أرصد من كرامتها ما لا يرصده أحد،

فقال له علي رضي الله عنه: أنا أبعثها إليك فإن رضيتها فقد زوّجتكها، فبعثها إليه ببرد وقال لها: قولي له هذا البرد الذي سقت لك، فقالت ذلك لعمر، فقال: قولي له قد رضيت رضي الله عنك، ووضع يده على ساقها فكشفها فقالت له: أتفعل هذا؟ لولا أنك أمير المؤمنين لكسرت أنفك. ثم خرجت حتى جاءت أباها فأخبرته الخبر وقالت: بعثتني إلى شيخ سوء، قال: يا بنية إنه زوجك، فجاء عمر إلى مجلس المهاجرين فقال لهم: رفئوني، فقالوا: بماذا يا أمير المؤمنين؟ قال: تزوّجت أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كل نسب وسبب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وسببي وصهري، فكان لي به عليه الصلاة والسلام النسب والسبب وأردت أن أجمع إليه الصهر، فرفؤوه وتزوّجها على مهر أربعين ألفاً، فولدت له زيد بن عمر، وتوفي هو وأمه في يوم واحد وفي ساعة واحدة ولم يورّث واحد منهما من صاحبه لأنه لم يدر من مات قبل صاحبه. وولدت لعمر أيضاً رقية.

أولاد علي بن أبي طالب

وكان لعلي من خولة بنت إياس وهي الحنفية محمد بن علي، وله من أسماء بنت عميس يحيى، ومن سوى هؤلاء عشرون ولداً بين ذكور وإناث من أمهات شتى رضوان الله تعالى عليهم.

وذكر أبو إبراهيم عبيد الله بن محمد الخجندي رحمه الله أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قبض عن تسعة وعشرين ولداً، أربعة عشر ذكراً وخمسة عشر أنثى: الحسن، والحسين، وزينب، وأم كلثوم، من فاطمة رضي الله عنها، ومحمد الأكبر، وعباس الأكبر، وعمر، وأبو بكر، وعبد الله، وعثمان، وجعفر، ومحمد الأصغر، وعباس، ويحيى، وزينب الصغرى، وأم كلثوم الصغرى، ورقية الكبرى، ورقية الصغرى، وأم الكرام، وخديجة، وجمانة، وأم هانئ، وميمونة، وأم سلمة، وأمامة، ونفيسة، ورملة. انتهى كلامه.

توفي محسن وهو صغير، وتوفي الحسن بالمدينة بعد أن صالح معاوية وكفى الله المؤمنين القتال، وصدق رسوله بقوله صلى الله عليه وسلم: إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين، فكان كما قال عليه الصلاة والسلام، ثم أتى المدينة فمات بها رضي الله عنه. يقال إن امرأته سمته.

وأما الحسين فلا خفاء بقتله بكربلاء. وأما زينب فتزوّجها عبد الله بن جعفر وولدت له. وأما أم كلثوم فتزوّجها عمر بن الخطاب وولدت له كما تقدم، ثم تزوجت

بعده أزواجاً رضي الله عنهم أجمعين.

الحساب بالحروف

رجع الكلام إلى الحروف بعد ما نفدت الظروف

فصل:

والحساب بهذه الحروف أولى من الحساب بالأشكال المصلح عليها عند الحساب لمعان منها أن بهذه الحروف كانت العرب تَحسب ونحن عرب فلا نتعداها إلى سواها، ومنها أنك إن احتجت إليها رسمتها حروفاً وقرأتها، فحصل لك منها علم الفن الذي تقصد إليه، وقد وجدنا ذلك في كلمات تتضمن معان من الحساب لا نقدر على رسمها بغيرها، من ذلك قولهم: ا، د، د، ز، ب، ه، ز، ج، و، ح، د، و، هذا كلام يقرأ ويحفظ نعم وهو موزون وضع ليعرف به أي يوم يدخل الشهر العجمي من الأيام وهي اثنا عشر حرفاً لاثني عشر شهراً، مثاله الألف واحد في حساب أبي جاد كما تقدّم لأوّل شهر من السنة الشمسية وهو ينير إن دخل مثلاً يوم السبت عرفته ثم تبني عليه، وتقول على التوالي: الدال لفبراير، وهو أربعة، فتقول: يدخل فبراير يوم الثلاثاء وهو اليوم الرابع. والدال أيضاً أربعة لمارس، فتحسب من السبت أربعة فيدخل مارس يوم الثلاثاء كذلك، والزاي سبعة لإبريل، فتحسب سبعة أيام بالسبت يدخل إبريل الجمعة، والباء لماية وهي اثنان يدخل يوم الأحد وكذلك تفعل بسائر الشهور إلى آخرها، وهذا لا تعلمه بالحساب الرومي ولا بحساب الغبار لأنه لا يقرأ، ولعلك إن تقول فررت من العجمي بالحساب ورجعت إلى أسماء الشهور الأعجمية فأقول: ذلك لأن الله تعالى قد قدر جريان الشمس على خلاف جريان القمر، والاعتماد في القمر على الرؤية والاعتماد في الشمس على الحساب، لأن السنة الشمسية أيامها لا تزيد ولا تنقص إلا نقصاً يسيراً وزيادة قليلة على اختلاف في ذلك عند الحساب، ويعلم ذلك بدورانها وقطعها المشارق والمغارب كل سنة على ترتيب واحد لا زيادة فيه ولا نقصان، ذلك تقدير العزيز العليم. والشهر القمري كما تراه مرة ثلاثين ومرة تسعاً وعشرين كما شاء الله وقدره لحكمة بالغة وتدبير عجيب.

وأيضاً فإن العرب لم تكن تجهل تسمية هذه الشهور الأعجمية، وإن كانت لها أسماء سوى ينير وفبراير، فقد كانوا يعرفون أسماءها بالسريانية ويسمونها بها. كما يروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول: من بشرني بخروج أدار فله دينار، أو كما قال. وكما تقول العرب: مطرة في نيسان خير من ألفي سان، وأدار هو

مارس، ونيسان هو إبريل، يعنون المطر فيه أنفع للنبات والزرع من ألفي دابة سانية تسنو بالماء من الأرض، فهذا عندهم معلوم لأنهم يحتاجون إلى معرفة ذلك بسبب الزراعة والحصاد والإبار والجذاذ وغير ذلك مما جعل الله له من السنة أوقاتاً معلومة لا تتعداها، وكما أن عندنا ينير وفبراير ومارس وإبريل ومايه ويونيه ويوليه واغشت وشتنبر واكتوبر ونونبر ودجنبر، كذلك عندهم كانون الآخر وشباط وآذار ونيسان وأيار وحزيران وتموز وآب وأيلول وتشرين الأول وتشرين الآخر وكانون الأول، وهذه التسمية على مقابلة شهورنا، وأما أول سنتهم فتشرين الأول وعدد أيام سنتهم مثل عدد السنة الأعجمية سواء، إلا أن شهورهم كلها ثلاثين ثلاثين، وشهور الأعجمية سبعة منها من أحد وثلاثين وأربعة من ثلاثين، وفبراير من ثمانية وعشرين يوماً وربع يوم، وتعرف الذي هو من أحد وثلاثين بحروف أيضاً جعلوها لذلك، وهي قولك: فاز رجل ختم بحج، أو يعقوب بن عياض، تبدأ بينير له أول حرف من إحدى الكلمتين كل منقوط من أحد وثلاثين وكل معرى من ثلاثين. وقد تقدم أن فبراير من ثمانية وعشرين.

وكما أن تسمية الشهور العربية المستعملة: المحرم، وصفر، وربيع الأول، وربيع الآخر، وجمادى الأولى، وجمادى الآخرة، ورجب، وشعبان، ورمضان، وشوال، وذو القعدة، وذو الحجة، فكذلك كان في الجاهلية من يسمي الحرم مؤتمراً، وصفر ناجراً، وربيعاً الأول خوّان، وربيعاً الآخر بصاناً وبصاناً (*)، وجمادى الأولى الحنين، وجمادى الآخرة ربة وقيل ربى مثل رنى، ورجباً الأصم، وشعباناً وعلاً، ورمضان ناتقاً، وشوّالاً عاذلاً، قال الفراء: ومنهم من يقول لوعلان وذو القعدة هواعاً، وذو الحجة بركاً. وقد عدوا مؤتمراً من أيام العجوز وهي سبعة أيام نظمها بعضهم فقال:

كسع الشتاء بسبعة غبر	أيام شهلتنا من الشهر
فإذا انقضت أيامها ومضت	صنّ وصنبر مع الوبر
وبآمر وأخيه مؤتمر	ومعلل ومطفئ الجمر
ذهب الشتاء مولياً عجلاً	وأتتك وافدة من البحر

يقال: هذه الأبيات لأبي شبل الأعرابي، والشهلة: العجوز.

فإن قيل لم سميت الشهور بهذه الأسامي أعني جمادى وربيعاً ورمضان؟ قيل: لأنهم لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافق خوّان زمن الربيع فسمي ربيعاً، وكذلك رمضان وافق زمن الحر، وجمادى زمن

(*) قوله بصان كغراب ورمان، وبصان كسحبان ونعمان.

البرد فسمي به، وكذلك سائرها والله أعلم.

وكذلك تسمية الأيام عندهم بغير التسمية المعلومة عندنا، فيسمون يوم الأحد أوّل ويوم الاثنين أهون، وسيأتي ذكرها منظومة إلى آخر الأيام إن شاء الله تعالى.

تقدّم ذكر كانون ووقع ذكره في الحديث الذي خرجه مسلم عن جابر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: غطوا الإناء وأوكوا السقاء فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء ليس عليه غطاء أو سقاء ليس عليه وكاء إلا نزل فيه من ذلك الوباء.

قال الليث بن سعد: الأعاجم عندنا يتقون ذلك في كانون الأول، وفي الحاشية كانون الأول هو دجنبر، وفي كتب اللغة الكانون والكانونة موقد النار، وقد يقال للرجل الثقيل كانون، قال الحطيئة:

أغـربالاً إذا استودعت سـراً ... وكانـوناً علـى المتحدّثيـنا

معرفة حلول الشمس في منازل الفجر لأشهر المغاربة

فصل:

وأذكر لك هنا من الحساب فائدة أخرى أفادنيها بعض الحجاج استفادها بدمشق وذلك أن أحد علماء هذه الطريقة اختصر معرفة ترحيل الشمس الذي صنع فيه الهاشمي قصيدته التي اشتهرت عند من له عناية بالنجوم التي منها:

إذا ما ثلاث بعد عشرين وفيت ... لِمرس فإن الشمس بالنطح تطلع

ومنزلة الشمس البطين إذا خلت ... لإبريل خمس ليس في ذاك مدفع

كذلك إلى آخر المنازل وآخر العام، فاختصر هذا الدمشقي ذلك وجعل معرفة ذلك بالحروف، أخذ أوّل حرف من شهر ينير وهو الياء وأضاف إليه حرف الدال وهو أربعة، وأخذ أوّل حرف من المنزلة وهو الباء من بلع فجاء منه يدب، يقول: إذا مضى من ينير أربعة أيام حلت الشمس في سعد بلع، كما قال الهاشمي:

وفي رابع النيروز للشمس منزل ... قد اغتال سعد نجمه فهو يبلع

فهذه ثلاثة أحرف أقامها مقام البيت، وقال الهاشمي:

وإن شرع النيروز في سبع عشرة ... فللشمس باب في السعود ومطلع

وقال الدمشقي عوض هذا البيت: يزس الياء الأولى اسم ينير والثانية منه بعشر والزاي بسبعة فذلك سبعة عشر يوماً، وحلت الشمس في سعد السعود الذي جعل له

الدمشقي السين من السعود لا من سعد، كما جعل الباء لبلع والذال للذابح، ثم مضى على ذلك إلى آخر العدد وآخر العام بشيء مختصر قريب عجيب غريب وهو: يدب يبزس يلخ فييم فكهر ميب مكجن أهب ايحث مأد ميده مكزه يطل يكبن يهط يحج غأخ غيدص غكزع شطس شكبغ أهز ايحد الق نيجش نكون دطب دكبس، وقيل في هذا: دكبذ يكون حرف الذال من سعد الذابح، وإن قلت دكبس تكون السين من سعد بالسين. كتبه لي رحمه الله، وبالذال رأيته أولى لأنه جعل الياء في يدب المذكور أوّلاً من بلع، وجعل في يبزس من سعد السعود، وقس على هذا ما ذكرته لك، اجعل أوّل حرف من الكلمات لأوّل حرف من اسم الشهر، وآخر حرف منها لاسم المنزلة وما بينهما للأعداد، وابدأ كما ذكر من ينير واختم بدجنبر تجده صحيحاً إن شاء الله تعالى. وإنما أردت بهذا كله أن تعرف أن هذا الحساب بحروف العجم أولى وأعز وأعلى، ولا حول ولا قوّة إلا بالله وحده.

ودونك فائدة أخرى:

قلت: وكما دلت هذه الحروف على العدد كذلك يدل العدد على الحروف، كما قال الشاعر:

إذا ما شئت أن تدري الذي حار الورى فيه
أضف خمساً لأربعة وأعط الشوب رافيه

ألغز هذا الشاعر بقوله: أضف خمساً لأربعة، يريد بخمسة حرف الهاء، وبأربعة حرف الدال يجيء من هذا (ده)، ثم قال: رافيه، يريد راء فيه، فجاء من مجموعه دهر وهو الذي حار الورى فيه، وسيأتي قول هشام بن عبد الملك لأعرابي وقد مر على ميل عليه مكتوب خمسة، فسأله ما عليه، فقال الأعرابي: محجن صورة الخاء وحلقة صفة الميم وثلاث كأنها ظباء صفة السين وهامة كأنها منقار طائر صفة الهاء، فقال هشام: خمسة. ودونك فائدة يا ابن الوالدة، الدهر قالوا مدة الأشياء الساكنة والزمان مدّة الأشياء المتحرّكة.

سني أهل الكهف

فصل:

ومن معنى ما تقدم قوله تعالى: ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ [الكهف: ٢٥] أي إنها ثلاثمائة بحساب السنين الشمسية، وإن حسبت بالأهلة زادت تسعاً، لأن أصحاب الكهف من أمة عجمية، والنصارى يعرفون حديثهم

ويؤرخون به، فجاء اللفظ في القرآن بذكر السنين الموافقة لحسابهم، وتتم الفائدة بقوله: ﴿ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾ ليوافق حساب العرب، فإن حسابهم بالشهور القمرية كالمحرم وصفر، واشتقاق السنة من قولهم: سنا يسنو، إذا دار حول البئر، والدابة هي السانية فكذلك السنة دورة من دورات الشمس وقد تسمى داراً، ففي الخبر أن بين آدم ونوح ألف دار أي ألف سنة، ومن هذا قول الحريري رحمه الله:

ولا تضع فرصة السرور فما ... تدري أيوماً تعيش أم دارا

يريد أم عاماً أو سنة، والله أعلم.

ثم قد تسمي العرب السنة عاماً والعام سنة اتساعاً، ولكن بينهما في حكم البلاغة والعلم بتنزيل الكلام فرقاً، ولا كلام أفصح من القرآن، فقد جاء فيه ما هو من هذا الغرض، قال الله تعالى: ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ [يوسف: ٤٧] ولم يقل أعواماً، لأن رؤيا يوسف عليه السلام دلت على سبع سنين شداد، والعرب تعبر عن الشدة والجوع باسم السنة، تقول: أكلتهم السنون كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، وكما قال الشاعر:

راعي سنين تتابعت جدبا

ومن ثم قالوا: أسنت القوم، إذا قحطوا، ويعبرون بالعام عن الرخاء والخصب، والقرآن نزل على مذاهبهم، قال تعالى بعد ذكره السنين التي تدلّ على الشدّة: ﴿ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ [يوسف: ٤٩]، قال قتادة: العنب والزيتون، فاتسق الكلام والتأم أحسن التئام بتنزيل الحكيم العلاّم، وإن كان قال تعالى: ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ [يوسف: ٤٧]، ومعلوم أن تلك السنين كانت خصبة مباركة لأنه أفاء الله فيها من الرزق ما أكل فيها وفي السبع بعدها، ولكن إنما ذكر لفظ العام بعد السبع الشداد لأنه ليس بعد الشدة إلا الرخاء.

وينظر إلى هذا المعنى قوله تعالى في قصة نوح عليه السلام: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت: ١٤]، قيل: إنما ذكر أوّلاً السنين لأنه كان في شدائد في مدّته كلها إلا خمسين عاماً مذ جاءه الفرج وأتاه الغوث، ويجوز أن يكون الله سبحانه علم أن عمره كان ألفاً إلا أن الخمسين منها كانت أعواماً، فيكون عمره ألف سنة ينقص منها ما بين السنين الشمسية والقمرية في الخمسين خاصة، لأنه ينقص ما بينهما مقدار عام ونصف أو نحوه، والله أعلم بما أراد من ذلك.

والذي ورد في القرآن أيضاً من ذكر السنة والعام ينظر إلى هذا، ألا ترى قوله تعالى: ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: ٤] وقوله: ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة: ٥]، لما كان في معرض التكثير والتفخيم لطول ذلك اليوم وهول ذلك المقام؛ جاء بلفظ السنة التي هي أطول من العام. وكذلك قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ [الأحقاف: ١٥] لفظ السنة هنا أولى من لفظ العام، لأنه مخبر عن اكتهال الإنسان وتمام قوّته واستوائه، ولفائدة أخرى، وذلك أنه خبَر عن السن، والسن يعتبر بالسنين، وأصل ذلك في الحيوان لأن النتاج والحمل يكون بالربيع والصيف المعتبر بالسنة الشمسية، ألا تراهم يقولون: ربعي للكبير، وصيفي للمؤخر، كما قال الراجز:

إنّ بنـــي صـــبية صـــيفيون   أفلـــح مـــن كـــان لـــه ربعـــيون

واستعمل ذلك في الآدميين اتساعاً وإن كان أصله في الحيوان؛ يقال: ابن سنة وابن سنتين كما يقولون: ابن مخاض وابن لبون. وأما قوله تعالى: ﴿ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ ﴾ [لقمان: ١٤] فذلك لأن الرضاع من الأحكام الشرعية التي تعبدنا بها كالصيام والحج، وذلك بالأهلة، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا ﴾ [التوبة: ٣٧] ولم يقل سنة، لأنه يعني شهر المحرم وصفر وربيع إلى آخر العام، ولم تكن العبادة ولا الشرع بأيلول ولا بتشرين ولا بينير ولا فبراير، ولكل مقام مقال، فسبحان الكبير المتعال.

نقلت أكثر هذا الفصل من كتاب الأستاذ رحمه الله إلا يسيراً أدخلته فيه من غيره، والله المخلص. وبقي من مشكل الآية قوله تعالى: ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِي كَهْفِهِمْ ﴾ [الكهف: ٢٥] قيل: معناه سيقولون ذلك، وعلى هذا القول قراءة ابن مسعود: (وقالوا لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين) بزيادة (قالوا)، وقيل غير ذلك، والله أعلم بكتابه. تقدم ذكر الكهف وأهل الأندلس يزعمون أنه في بلادهم، وذلك باطل، والكهف إنما هو في الإقليم الخامس بين عمورية وأنقرة، وهو جبل عظيم فيه كهف تحت الأرض، وهو على أساطين وله باب من حجارة، وفي داخله قوم أموات كأنهم أحياء مفتوحة أعينهم، في ظلمة لا تستبان وجوههم إلا بالمصابيح، وأجسامهم قد يبست وجلودهم لاصقة بالعظام، وشعورهم باقية، ولا يدخله أحد إليهم إلا أخذته هيبة عظيمة وفزع من هول منظرهم، وعليهم موكلون يحفظون المكان لا يحدث عليهم حادث، ذكر ذلك إسحاق ابن الحسن في بعض التواريخ.

ورأيت في كتاب آخر أن الكهف المذكور في مدينة يقال لها أفسوس وهي من القسطنطينية على ستة فراسخ، والله أعلم. وفيه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: غزونا مع معاوية غزوة المضيق فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف الذين ذكرهم الله في القرآن، فقال معاوية: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال ابن عباس: ليس ذلك لك قد منع الله من ذلك من هو خير منك، فقال: ﴿ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ [الكهف: ١٨]. فقال معاوية: لا أنتهي حتى أعلم علمهم، فبعث ناساً، فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحاً فأخرجتهم.

ذكر أن الساعة تقوم في أدار

فصل:

قد تقدم الكلام في ذكر أدار في أسماء الشهور، قال بعض العلماء: إن القيامة تقوم في شهر مارس وهو أدار الذي كان عمر بن الخطاب يستبشر بخروجه كما تقدم، واستدل على ذلك أيضاً بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ إلى قوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ ﴾ [يونس: ٢٤]، قال: وإنما تكون كذلك في هذا الشهر المذكور، ثم قال تعالى: ﴿ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾ [يونس: ٢٤]، والله أعلم بما أراده من ذلك، لا إله إلا هو.

قلت: ولا نقول إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يعلم بأشراط الساعة ومقدماتها الكائنة قبلها التي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم. خرّجه مسلم رحمه الله.

وفي بعض الروايات: تنزل معهم إذا نزلوا وتقيل معهم إذا قالوا. وفي رواية من قول الصاحب: وريح تلقي الناس في البحر، فإن صح ذلك القول عن عمر في أدار فإنّما قاله على وجه الشفقة والحذار وعلى تقريب ما يخاف ويتوقع، إذ الشفيق بسوء ظن مولع، وقد قلت في ذلك:

ما قاله عمر هزلاً ولا هذراً حاشاه حاشاه من هزل ومن هذر

لكـن مقالـته إن صـح ذلكـم	عـنه علـى جهـة الإشـفاق والحـذر
هـذا هـو الظـن بالفـاروق يـا سـندي	فقـل مقالـته إن شـئت أو فـذر
وكـن بقـول رسـول الله مـتعظاً	والعـشر الآيـات يـا مغـرور فانتظـر
وكـن علـى حـذر مـن فجـأ مـوتك إنْ	نَ المـوت مـدرك مـن في البدو والحضر
ومـا علـيك مـن الآيـات إن نـزلت	والمـوت ينـزل بالآصـال والبكـر
مـن مـات مـنا فقـد قامـت قيامـته	ومـن يعـش فهـو للأمـوات بالأثـر

تقدم ذكر العشر الآيات، وفيها الدخان، وفي القرآن العزيز: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [الدخان: ١٠] قال المهدوي رحمه الله: قال علي رضي الله عنه: لم يأت الدخان بعد، وسيأتي دخان يصيب المسلمين منه مثل الزكام وينفد الكافر. وروي عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه من آيات الساعة. وقال ابن مسعود رحمه الله: قد مضى الدخان وهو ما أصاب المشركين من الجوع بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم، حتى كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخاناً، وقد كشفه الله تعالى عنهم، ولو كان يوم القيامة لم يكشفه عنهم، وكان دعاء النبي صلى الله عليه وسلم على قريش حين أبطؤوا عن الإسلام، قال: اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف، فأصابهم الجوع حتى أكلوا الميتة والعظام، حتى كان أحدهم يرى بينه وبين السماء دخاناً من الجهد. قال ابن أبي زمنين: قيل للجوع دخان ليبس الأرض في سنة الجدب وانقطاع النبات وارتفاع الغبار. ومن كلامهم: جوع أغبر وسنة غبراء، لسنة المجاعة.

دابة الأرض

وأما الدابة فإن ابن عباس رضي الله عنه قال: هي دابة ذات زغب وريش لها أربع قوائم، تخرج من بعض أودية بتهامة، تمسح كل إنسان على مسجده، فأما المؤمن فتكون نكتة بيضاء فتفشو في وجهه حتى يبيض لها وجهه، وأما الكافر فتكون نكتة سوداء فتفشو في وجهه حتى يسود لها وجهه، حتى إنهم يتبايعون في أسواقهم يقول: كيف تبيع هذا يا مؤمن؟ ويقول: كيف تأخذ هذا يا كافر؟ فما يرد بعضهم على بعض. وعن خالد بن معدان: لتخرجن الدابة حتى يدخل الناس في بيوتهم فتخبرهم بأعمالهم حتى تقول: أنت من أهل النار وأنت من أهل الجنة. وعن أنس أن فيها من كل أمة سيماً وإن سيماها من هذه الأمة أنها تتكلم بلسان عربي.

وقال ابن سلام: وفي بعض القراآت: (تحدثهم أن الناس كانوا بي لا يوقنون). وجاء من ذكرها في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (بئس الشعب

جياد، قالوا: وفيم ذلك يا رسول الله؟ قال: تخرج منه الدابة فتصرخ ثلاث صرخات فيسمعها ما بين الخافقين)، وسيأتي حديث الدجال.

فصل:

رجع الكلام إلى الحروف:

قال الكندي: لا أعلم كتاباً يحتمل من تحليل الحروف وتدقيقها ما تحتمله العربية. قلت: يريد والله أعلم أن الكلمة تحتمل أن تكون كثيرة الحروف ويكون لها معنى، فإن نقصت حرفاً صارت بمعنى آخر، فإن نقصت آخر صارت كذلك أي بمعنى آخر حتى تصير إلى حرف واحد فيدل أيضاً على معنى.

وكذلك تبنيها كما هدمتها وتعقدها كما حللتها، فتزيد حرفاً فيحدث معنى ثم كذلك فكذلك إلى تمامها. وأعلى ما تنتهي إليه الكلمة بالحروف الزوائد سبعة.

مطلب ما يَخرج من زيد:

ثم قد تكون الكلمة مغلغلة من النقط أو الشكل فتقررها على وجوه، مثال ذلك: زيد وعمرو، لهذين الاسمين العلمين أليس لفظة زيد إن لم تنقطها تقول: زند لهذا الذي يقدح به أو للذي في الذراع، وزبد للرغوة التي تعلو الماء واللبن، كما قال الشاعر:

وتحت الرغوة اللبن الصريح

وفي القرآن العزيز: ﴿ فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾ [الرعد: ١٧]. وربد جمع أربد. وزبد وهو ما أهداه الكافر للمسلم، وزبد معلوم، ورند وهو العود، وقيل الآس. وتقول: زيد في السعر كذا، وهذا زيد على هذا، أي زيادة عليه. وفيه لغات غير ذلك.

ثم إذا تتبع الكلام في هذه الألفاظ بالقلب والعكس تشعب وتسلسل وتولد وتنسل، والمدار أن يكون عندك دقيق، وتكون في الصنعة ذا تشقيق وتدقيق، فإن منحت ذلك وكان فقد ساعدك الإمكان على أن تصنع من الأطعمة ما تريد كذا وكذا، وأعلاها الثريد، وكذلك إن كنت ذا علم وذكاء وفهم أحرزت من الكلمة الواحدة عشراً وأبرزت لها لباباً وقشراً وطويتها طياً ونشرتها نشراً، حتى يجد لها الفطن الكيس عرفاً ونشراً ويعلم الأديب الأريب والنبيل اللبيب أن الله مولاك قد أولاك في العلم سعه وما ضيق على غيرك فعليك وسعه، وهذه درجة العلماء وأهل اللغة القدماء رضي الله عن جميعهم وجزاهم خيراً على صنيعهم. وأما أنا فما أعملت فيه يراعتي فليس من براعتي ولا أدّعي أن تلك صناعتي، إنما أنا متطفل وبكلامهم متكفل، من تآليفهم أستقي ومن تصانيفهم أنتقي، وأضع ذلك كله في كتابي وإلى الله متابي وإليه إيابي، وإن أردت أن

أضرب لك مثلاً فيما تقدم فتأهب لجيوش عليك تقدم، أليس قد ذكرت لك أن شكل زيد رند وفسرته أنه الآس أو العود فيما ذكر.

دنر: ومعكوس رند دنر. قال صاحب كتاب العين: دنر وجهه إذا أشرق كالدينار، وفرس مدنر: أشهب فيه تدنير سواد تخالطه شهبة.

ردن: ومقلوبه ردن وهو مقدم كم القميص، وجمعه أردان، وليل مردن: مظلم، وعرق مردن، أي: يمس الجلد كله، وجمل رادني: جعد الوبر كريم، والردن: الحرير، قال الأعشى:

على صحصح ككساء الردن

ويقال: الخز والروادن: النساء اللواتي ينسجن الحرير، وأنشد:

عجبت لكهل قاعد بين نسوة ... يقات بما ردت عليه الروادن

ومعنى يقات: يقتات، من القوت، وسيأتي شرح ذلك إن شاء الله تعالى. وردينة اسم امرأة تنسب إليها الرماح الردينية. والأردن اسم كورة بالشام.

ندر: ومقلوبه أيضاً ندر، ندر الشيء سقط من جوف شيء، ومنه قول سلمة بن الأكوع: فضربت رأس الرجل فندر، خرجه مسلم رحمه الله. وكذلك نوادر الكلام تندر، وهو ما يأتي بالندرة، وسيأتي تفسير الندرة إن شاء الله تعالى. والأندر: البيدر، لغة شامية.

نرد: ومقلوبه أيضاً نرد وهو شيء يلعب به، فارسي. وقد جاء في الحديث النهي عنه.

درن: ومقلوبه أيضاً درن وهو الوسخ، ومنه الحديث: فما ترون ذلك يبقي من درنه، يقال: درن الثوب، والدرين والدرانة: الحشيش، وأهل الكوفة يسمون الأحمق: درينة، ودرانة: من أسماء النساء. ومن شكل زيد: زَبِد، بفتح الزاي وكسر الباء: موضع بالشام، وزبيد بزيادة ياء: بلد باليمن كبير معروف.

ربد: ومن شكله أيضاً: ربد جمع أربد وأربداء، والربدة في لون النعام: سواد مختلط بغبرة. وفي الحديث: تربّد وجهه، أي: تغيّر، والأربد: ضرب من الحيات، وأربد: اسم رجل معروف. وربد السيف: فرنده، وهو الذي تراه فيه شبه الغبار أو مدب النمل.

دبر: ومعكوسه: دبر، دبر الشيء: خلاف قبله، وأدبر الشيء: ولى، وفي القرآن من هذا: ﴿ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٥]، قيل الدبر هنا الظهر، ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ [المدثر: ٣٣]، ويقرأ: (والليل إذا أدبر)، ويقال دبر يدبر دبوراً: اتبع الأثر. وفي الحديث

من هذا قول عمر رضي الله عنه: ظننت أنه سيدبرنا، يعني النبي صلى الله عليه وسلم، يريد أنهم يموتون ويكون النبي صلى الله عليه وسلم يدبرهم، أي: يموت بعدهم، قال هذا حين مات النبي صلى الله عليه وسلم. وتقول: جعلته دبر أذني، أي: خلفها، إذا لم تلتفت إليه وتصاممت عنه، ودابر الشيء آخره. وفي التنزيل: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٥]، ويقال جعل الله الدبرة عليه، أي: الهزيمة، والدبرة له، أي النصرة والظفر، ومنه قول أبي جهل لعنه الله يوم قتل وهو بآخر رمق: لمن الدبرة اليوم؟ فقال له ابن مسعود رضي الله عنه: لله ولرسوله، ثم خر رأسه. ودابرت الرجل: عاديته، وأصله أن المتهاجرين يولي كل واحد منهما لصاحبه دبره ويعرض عنه، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: لا تدابروا. والدبور: ريح من قبل المغرب والجمع الدبر والدبابير، ودابرة الطائر الإصبع التي من خلف، ومنه في الحديث: يأتون الصلاة دباراً، وهو الذي يأتيها بعد أن تفوته. ويقال: فلان لا يعرف قبيلاً من دبير، والقبيل: ما وليك، والدبير: ما خالفك. ويقال: القبيل فتل القطن، والدبير: فتل الكتان والصوف. وقد فسره ابن قتيبة بغير هذا، انظره في أدب الكتاب. ودبارا اسم ليلة الأربعا، ويقال: دبر القوم يدبرون دباراً: هلكوا، ودبرت الدابة فهي دبرة، والدبرة واحدة الدبر، والدبرة الساقية بين المزارع، والجمع دبار، ودبرت الأمر: نظرت في عاقبته، ودبرت المملوك أوجبت عتقه بعد الموت، والرأي الدبري الذي يكون من غير روية، وكذلك الجواب الدبري. ودبرت الحديث إذا حدثت به عن غيرك، وهو يدبر حديث فلان أي يرويه، وكانوا يقولون: نعوذ بالله من الرأي الدبري، والدبر اسم النحل واحدته دبرة وتجمع أيضاً على دبور، ويقال أيضاً للزنابير دبر، واحدته دبرة كذلك. ومن أسماء النحل أيضاً الخشرم واحدته خشرمة، ومنهم من يقول لا واحد له من لفظه، ومن الخشرم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: لتركبن سنن من قبلكم ذراعاً بذراع وباعاً بباع حتى لو سلكوا خشرم دبر لسلكتموه. خرجه ثابت رحمه الله، وقال: الخشرم هنا مأوى الزنابير والنحل، وقد يجيء في الشعر الخشرم اسماً لجماعة الزنابير، قال طفيل:

فقلت ألا يا هؤلاء وقد بدت ... سوابقها كالخشرم المتحدب

ومن أسماء النحل أيضاً الشول والنوب واللوب، وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى. ووقع في السير من قول النجاشي رضي الله عنه: دبر من ذهب، ويروى دبر، وفسره الدبر الجبل بلسان الحبشة، وقال صاحب العين: الدبر المال الكثير، ويكون للواحد والاثنين والجمع، والدبر أيضاً صغار الجراد، ومنه يقال مال دبر، قاله أبو

حنيفة. والدبران: نجم يدبر الثريا، أي: يتبعها.

بدر: ومقلوب دبر: بدر، البدر ليلة أربع عشرة، وتقول: بدر فلان، إذا سبق إليه، وكذلك ابتدره. وفي صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يبدر من لقيه بالسلام. والبادرة ما يبدر من حدة الرجل. والبادرتان جانبا الكركرتين. وفي الحديث: ترجف بوادره، قال ابن قتيبة: هي جمع بادرة، وهي لحمة بين المنكب والعنق، وكذلك هي من الفرس وغيره.

برد: ومن مقلوبه: برد، من قوله تعالى: ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ [النبأ: ٢٤] فسرها هنا بالنوم. ويقال في مثل: منع البرد البرد، فالأول هو البرد المعلوم، والثاني النوم. ومن البرد المعلوم قوله تعالى: ﴿ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩]. ومن شكله برد من قوله تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾ [النور: ٤٣]، وبرد واحد البرود العصب، وهي نوع من الأردية رقاق، والبردة أيضاً كساء يلتحف به، ومن هذا في الحديث كثير، والبرد جمع بريد، والبريد أربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال. والبريد أيضاً الرسول على دواب البريد، ويجمع أيضاً على برد، ومنه الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا أخيس بالعهد ولا أحبس البرد، وتقول: ضربته حتى برد، أي: مات. وفي حديث أبي جهل: فضربه ابنا عفراء حتى برد، وبرد الشيء يبرد وبردته أنا، وبرد الحديد: سحله بالمبرد، وبرد عينه بالكحل يبردها، واسم الكحل البرود، وسحاب برد ذو قر، وبرد القوم: أصابهم البرد، وبرد عليه كذا: لزمه، وأبرد القوم: ساروا في آخر النهار، ومنه: الإبراد بصلاة الظهر في شدة الحر، والأبردان: الغداة والعشي. ومن شكل برد: تردى، أعني: في الصورة لا في الوزن، وكذا أفعل بمثله مهما أذكره فلا تنكره، من قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ [الليل: ١١].

درب: ومعكوس برد: درب، وهو باب السكة الواسع، وكل مدخل إلى الروم: درب، وتقول: فلان درب بكذا: إذا كان حاذقاً كيساً، والدربة: العادة.

ذرب: ومن شكل درب: ذرب، والذرب: الحاد من كل شيء، يقال: لسان ذرب وسنان ذرب ومذروب ومذرب، وقد ذرب ذرباً وذرابة، وقوم ذرب وامرأة ذربة سليطة، وتذريب السيف: أن ينقع في السم ثم يشحذ، وسم ذرب، وذرب الجرح: اتسع ولم يقبل البرء، والذرب من الأمراض التي لا تبرأ، وذربت معدته ذرباً: إذا فسدت.

ذبر: ومن مقلوب هذه اللفظة ويشبه نحو ما تقدم: ذبر، تقول: ذبر يذبر ذبراً:

كتب، ويقال: قرأ، ويقال: الذبور الفقه بالشيء.

زبر: ومن شكله: ذبر الكتاب، مثل زبر يزبر بالضم، ويزبر بالكسر. قال الأصمعي: سمعت أعرابياً يقول: أنا أعرف بزبرتي، أي: بخطي وكتابتي، والزبر: الكتاب، والجمع: زبر وزبور، وقرأ بعضهم: (وآتينا داود زُبورا) بضم الزاي، ومن قرأ زَبوراً فهو كتابه صلى الله عليه وسلم، هذا بالزاي، ويقال بالذال: ذبرت الكتاب كما تقدم أذبُره وأذبِره بالضم والكسر ذبراً، قال أبو ذؤيب:

عرفت الديار كرقم الدواة ... يذبرها الكاتب الحميري

يذبرها بالذال وبكسر الباء وضمهما.

ربذ: ومعكوس هذه اللفظة: ربذ. الربذ: خفة الرجل واليد في المشي والعمل، يقال إنه لربذ، والربذة: صوفة يهنأ بها البعير، والربذة: خرقة الحائض، وربذة الصائغ: خرقة يمسح بها، ويقال: رجل ربذة لا خير عنده. والربذة: عهنة تعلق على البعير، والربذة أيضاً: موضع معلوم فيه كان يسكن أبو ذر رحمه الله.

بذر: ومن مقلوبه أيضاً: بذر الحب يبذر بذراً: زرعه، والبذر: ما زرع، والجمع: بذور. والبذر: النسل، ورجل بذور وبذير، وقد بذر بذارة: إذا لم يمسك سراً، وبذر: إذا أفسد ماله وأنفقه في السرف، وبذر: اسم بئر من بئار مكة شرفها الله تعالى حفرها هاشم بن عبد مناف.

نذر: ومن شكل بذر: نذر، النذر: ما ينذره الإنسان على نفسه، والمصدر: النذر، ومنه الحديث: ولا نذر فيما لا يملك، والنذيرة: اسم الذي يعطى، والنذر: اسم للإنذار، يقال: أنذر بكذا، أي: أعلم. وأنذرتهم فنذروا، أي: علموا، والنذر: جماعة النذير، وفي التنزيل: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ [القمر: ٢٣]، وفي هذه السورة: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٦] وهو بمعنى إنذاري، والله أعلم.

ذئر: ومن شكله: ذئر، ذئر الرجل يذأر ذأراً: اغتاظ، وامرأة ذائر، أي: ناشز. ومنه الحديث: ذئر النساء على أزواجهنّ، قال الأصمعي: نفرن ونشزن واجترأن، يقال منه: امرأة ذائر، على فاعل، مثل الرجل، قال عبيد:

ولقد أتاني عن تميم أنهم ... ذئروا لمقتل عامر وتعصبوا

يعني نفروا من ذلك وأنكروه. ويقال: ذئر الرجل: فزع، وأذأرته: ألجأته.

زئد: ومن شكل زيد الأوّل: زئد الرجل، إذا فزع فهو مزؤود، ومنه قول الشاعر:

حملت به في ليلة مزؤودة ... كرهاً وعقد نظامها لم يحلل

ريد: و(ريد) بالراء، قال صاحب العين: الريد: الحيد في الجبل وهو الحرف

الناتئ فيه، والجمع ريود. ومعكوس هذه اللفظة دير وهو معروف: دار الخمار، وساكنه ديراني وديار.

ردي: ومقلوبه: ردي الرجل يردى، فهو رد، إذا هلك، وأرداه الله، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ [طه: ١٦] وتردى في هوّة: تهوّر فيها، وتردى بالرداء وارتدى به، والردي: مصدر قولك: ردت الخيل ردياً ورديانا، والرديان: مشي الحمار من آريه إلى متمعكه. ورديت الشيء بالمرداة: كسرته، والمرداة الصخرة، وهو مردى حرب. وتقول: أردى الشيء على غيره: أربى عليه، والمرادي المرامي، والرديء بالهمز: ضد الجيد، وفعله بالواو، وتقول: ردو الشيء رداءة فهو رديء، ورجل مردي: إذا فعل فعلاً فعلاً رديئاً، وردأت الرجل بكذا جعلت له قوة، والاسم: الردء من قوله تعالى: ﴿ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ ﴾ [القصص: ٣٤]، وتقول: أردأته أعنته.

رثد: ومن شكل زيد: رثد، يقال: رثدت المتاع رثداً: نضدته، ورثد البيت: إسقاطه، ومرثد: اسم رجل. والمرثد أيضاً: من أسماء الأسد. ومعكوس هذا: دثر الشيء: درس، والدثار: ما يتدثر به.

ثرد: ومن مقلوب رثد: ثرد، يقال: دثرت الذبيحة، بالتشديد: قتلتها من غير أن تفري أوداجها. والثرد: الفت، والثريدة معروفة. ويقال أيضاً ثريد، ومنه الحديث: فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام. فهذه جملة علم خرجت من لفظة زيد، وقيدت لك في هذا الكتاب بقيد، بدأت لك فيها أيها الطالب المريد بالثريد وبه ختمت هذا الفصل إذ هو الأصل وجاء في الحديث تفضيله وسيأتيك تفصيله، فهو إذاً أوّل ما يجب تحصيله، فإن عدمت ثريد الطعام فدونك ثريد الكلام، اجتز بحوك القصيد عن لوك العصيد، وبصحائف العلوم عن صحاف الطعوم، وبتعريفات صفات الإعراب وتصريفات لغات الأعراب عن الطعام والشراب:

فقوت الروح أرواح المعاني ... وليس بأن طعمت وأن شربتا

وكن في العلم طويل الباع، وفي الطعم قليل الاتساع، اكتف بالكف من الصاع، وبالظلف من الذراع، فإن الحر يجزأ بالكراع.

هذا الكلام قد أتى كما ترى ... جميعه حق وليس مفترى
ممسكاً مسوكاً معطراً ... ملخصاً مخلصاً محبرا
مرصعاً مسجعاً مفقراً ... فاقرأه فهو ممتع لمن قرا
فيه قرى للضيف يوماً إن عرا ... كما أتى في مثل قبل جرى
يحفظه أهل البوادي والقرى ... إن الحديث طرف من القرى

مطلب ما يَخرج من عمرو :

وها أنا أصنع بعمرو ما صنعت بزيد فليهنك الصيد، لكن على إيثار التقليل على الإكثار وحذر التثقيل في القيل خشية العثار، فأقول: عمرو اسم لرجل، فيكون مأخوذاً من العمر الذي هو الكم، يقال: سجد على عمريه، أي على كميه، أو من العمر الذي هو أحد عمور الأسنان، وهو ما بدا من اللثة. وقد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في شأن السواك: ما زال جبريل يوصيني به حتى خشيت على عموري، وهو اللحم الذي بين الأسنان كما تقدم، أو يكون من العمر الذي هو القرط أو الشنف، كما قال التنوخي وهو المعري:

وعمسر هسند كأنّ الله صوّره عمرو بن هند يسوم الناس تعنيتا

يقول: قرط هذه المرأة يعنت القلوب ويعذبها كما يفعل عمرو بن هند بقوسه، وله خبر يطول. أو يكون أخذ من العمر أعني عمر الإنسان، يقال فيه: عمر وعمر وعمر، فهذه أربعة أوجه ذكرها الأستاذ رحمه الله، قال: وزاد صاحب كتاب العين وجهاً خامساً، فقال: العمر ضرب من النخل طويل، ويقال فيه عمر أيضاً، قال: وكان ابن أبي ليلى يستاك بعسيب العمر، فإن صرفت من هذه اللفظة فعلاً خرجت إلى معنى غيره، مثل عمر فلان داره وعمر أرضه وعمره الله فيها وعمر طويلاً، وغير ذلك.

العمارة :

وتخرج إلى معنى آخر تقول: عمرت الأرض عمارة فهي عامرة ومعمورة، والعمارة أجر العمارة، والعمرة في الحج معروفة، والعمار كل شيء على الرأس من قلنسوة أو تاج، ويقال: العمار الريحان، والمعتمر في الحج من العمرة كما تقدم، والمعتمر أيضاً المعمر، والمعتمر الزائر، كما قال:

وراكب جاء من تثليث معتمر

والعمارة والعمارة أصغر من القبيلة، والعمرى أن تجعل للرجل الشيء عمرك أو عمره، واعمرت الأرض وجدتها عامرة، وكنت بمعمر ترضاه أي بمنزل، ومنه قول الشاعر:

يا لك من قنبرة بمعمر خلا لك الجوّ فبيضي واصفري
ونقري ما شئت أن تنقري

وعمرو كثير في الصحابة وكذلك عمر، وأعلاهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفضله كثير وشرفه كبير رضي الله عنه وعن جميع أصحاب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

فائدة زائدة :

الذي قال: يا لك من قنبرة، هو كليب بن وائل كان له حمى يرعى فيه إبله وإبل صهره جساس، فنزل رجل من جرهم على البسوس وهي خالة جساس وكانت له ناقة فكان يرسلها في الحمى مع إبل جساس، فطاف كليب يوماً في حماه مع جساس فمرا بقنبرة قد عششت في الحمى وباضت فطارت ورفرفت على العش وصرصرت، فقال كليب الأبيات، وله خبر طويل من أنه كيف عقرت الناقة وقتل عاقرها وهاجت حرب البسوس الذي يضرب به المثل.

رمع: فإن عكست لفظة عمرو جاء منه رمع، تقول رمع الرجل رمعاناً إذا تحرك، والرماعة ما تحرّك من رأس الصبي الصغير، والرماعة الاست، واليرامع الحصى البيض واحدها يرمع، ويقال: الحجارة الرخوة، ورمع منزل بعينه، ذكر ذلك صاحب العين في الطرّة في المصنف رمع أنف الرجل يرمع رمعاناً: إذا تحرك من غضب.

مرع: فإن قلبت جاء منه: مرع يمرع مرعاً وهو الكلأ، وقد أمرع القوم: أصابوا الكلأ، وأمرع الوادي ومرع: إذا أكلأ فهو ممرع، والمريع: الخصيب، ومن أمثالهم: أمرعت فانزل، والمرع الاسم. والمرعة: طائر صغير، والجمع المرع.

معر: وتقلبه أيضاً فيجيء منه: معر الظفر يمعر إذا نصل من شيء أصابه، ومعر رأس الرجل وأمعر: ذهب شعره، وأمعرت الأرض: إذا لم يكن فيها نبات، وأمعر الرجل: افتقر، وتمعر وجهه، وفي الحديث: فتمعر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، معناه: تغير.

عرم: وتقلبه أيضاً فتقول: عرم الإنسان يعرم فهو عارم وعرم، والعرم: المسناة، وفي التنزيل: ﴿ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾ [سبأ: ١٦]، وفسر كذا بالمسناة، وهي السدّ، والعرمة: السكر وهي السدّ أيضاً وجمعها عرم، وقيل اسم للوادي، قاله عطاء. وقيل: هو الجرذ الذي خرب السد، وقيل: هو صفة للسيل، من العرامة، وقيل غير ذلك، والله أعلم، وسيأتي. والعرم: الحيات المنقطة بالحمرة والسواد، والعرمة: الكدس المدوس ليذري، والعرمرم: الجيش الكثير، والعرمرم: الشديد العجمة، وقد تقدّم العمر والعمر والكلام عليهما.

رعم: وتقلبه أيضاً فتقول: رعم الشمس يرعمها، إذا راقب غيبوبتها، ورعمت الشاة ترعم: إذا سال من أنفها الرعام فهي رعوم. وفي الحديث من هذا: صلّ في مراحها، يعني الغنم، وامسح الرعام، ويروى في هذا الموضع: وامسح الرغام، بالغين المنقوطة وفتح الراء، وهو التراب اللين والثرى، وسيأتي. ورعوم: اسم امرأة، وكذلك

رعمي، ومرعم اسم بلدة، قاله البكري في المعجم.

غمر: فإن نقطت العين من عمر جاء منه: غمر، وهو الماء الكثير، والجمع غمار، والاغتمار: الاغتماس، وفي الحديث: إنما مثل الصلاة كمثل نهر عذب غمر، الحديث. وفرس غمر: سريع، والغمر: السيد الجواد، والغمر: موضع بحيز تيماء. قال حميد بن ثور:

نظرت بوادي الغمر والليل مقبل

والغمر أيضاً: بئر بمكة لبني سليم، وغمير وغمرة: موضعان، وغُمازة، بضمّ أوّله وبزاي: بئر معروفة بين البصرة والبحرين، قاله البكري. والغمرة: غمرة الحرب وغمرة الماء وغيرها. والمغامر: الذي يرمي بنفسه في الغمرة، وغمار الناس: جماعتهم، والغُمر، بضم الغين: الذي لم يجرب الأمور، وبكسرها: الحقد. وقال ابن السيد: يقال في هذا: غمر، للرجل الذي لم يجرب الأمور، وغُمُر، بضم الغين والميم وغَمَر بفتحهما، والغَمَر، بفتح الغين والميم: ريح اللحم، والغُمَر، بضم الغين وفتح الميم: قدح صغير، وكذلك التغمر أقل الشرب، ويقال: دار غامرة، أي: خراب، وكذلك الأرض وهي ضد العامرة.

غرم: وتقلب هذه اللفظة فتقول: غرم غرماً ومغرماً، وفي التنزيل: ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠]. والغريم: الغارم، والغرام: العذاب اللازم، قاله صاحب العين. والمراغمة: الهجران، والمراغم: المتسع، وفي التنزيل: ﴿يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠] وفي التفسير: المراغم والمهاجر واحد، يقال: راغمت وهاجرت، وأصله أن الرجل كان إذا اسلم خرج من قومه مراغماً، أي: مغاضباً مقاطعاً.

مغرة: ومن مقلوبها: المغرة طين أحمر، وثوب ممغر، والأمغر: الأحمر الوجه والشعر.

مرغ: ومن مقلوبها: المرغ الإسباغ بالدهن، وقد مرغ عرضه، ومراغ الإبل متمرغها، وفي الحديث من هذا قول عمار حين أجنب: فتمرغت في الصعيد كما تمرغ الدابة. وفي لفظ آخر: فتمعكت في التراب ثم صليت. ومراغة: اسم بلدة وإليها ينسب المراغي. أنشدني الحافظ رحمه الله قال: أنشدني أبو المظفر لنفسه في أبي النحيب المراغي:

شعر المراغي وحوشيته كعلمه أسلمه أسقمه
يلزم ما ليس له لازماً لكنه يترك ما يلزمه

غمز: فإن جعلت الراء زاياً قلت غمز، والغمز الإشارة بالجفن. وفي التنزيل: ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ [المطففين: ٣٠]، والغمز: العصر باليد، ومنه في الحديث: فيغمزني فأفتح عليه ونحن نصلي، وكذلك فغمزه رجل إلى جنبه، هذا كله باليد لا بالجفن، والغميزة: ضعف في العمل، والمغمز: المطعن، قال الأخطل:

أكلت القطاط فأفنيتها فهل في الخنانيص من مغمز

يقوله في رجل يهجوه ويهزأ به. ومنه قولهم: ليس في فلان غمزة، أي: مطعن، والمغموز: المتهم، والغمز في الدابة: أن تغمز من رجلها، يريد: تعرج، والغمز بالتحريك: رذل المال، قاله الأصمعي. ورجل غمز أيضاً: ضعيف، وقد تقدّم غمازة: اسم بئر.

رغم: ومن مقلوبه رغم بغين منقوطة، والترغم: الكذب والتغضب أيضاً مع كلام، والترغم: حنين خفي كما يترغم الفصيل.

معز: فإن صحفت لفظة عمرو وجعلت منه مكان الراء زاياً جاء منه: معز وذلك معلوم، ويقال لها: المعزى والمعزاة والمعيز والأمعوز جماعة التيوس من الظباء.

زعم: ويأتي من معكوس هذه اللفظة: زعم، ومعناه قال: والزعم والزعم: القول، وهو الظن أيضاً، وقرأ الكسائي: (هذا لله بزُعمهم) بضم الزاي، والزعيم: الكفيل، وفي القرآن: ﴿ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٢]، وفي الحديث: الزعيم غارم. والزعيم أيضاً: السيد، والزعامة: السيادة. وسيأتي قول لبيد: والزعامة للغلام.

عزم: ويأتي من هذه اللفظة عزم، وفي القرآن: ﴿ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ ﴾ [محمد: ٢١]، وفي مثل: قد أحزم لو أعزم، ويقال: فلان ذو عزم وذو عزيمة وذو عزيم.

زمع: ومن مقلوبها: زمع، هنة شبه أظفار الغنم في الرسغ، ويقال: الزمع الشعرات التي خلف الثنة، والزمع: رذال الناس وأتباعهم، والجمع أزماع، والزميع الشجاع، والزميع السريع، وأزمعت السير عزمت عليه، وفي الحديث من هذا: إذا أزمع السير، وهو الزماع، وأزمع النبت: إذا كان قطعاً متفرقة، وزمعة: اسم رجل والد إحدى نسوة النبي عليه الصلاة والسلام سودة بنت زمعة. قال أبو عبيد البكري: زمْع ساكنة الميم من منازل حمير باليمن.

مزع: ومن مقلوبها: مزع الفرس والظبي مزعاً إذا أسرعا، والمرأة تمزع القطن: إذا قطعته ثم ألقته، والمزعة: قطعة من لحم وتكون من الريش والقطن، ومزعت اللحم فرقته، ويقال فلان يتمزع غيظاً، أي يتقطع، والمزعة بقية من دسم. انتهى الكلام في عمرو كما انتهى في زيد، بعون من به القوّة والأيد، وذلك على حد الاقتصار على

الاختصار، وإن أردت التطويل والتكثير بالتذييل لما وقع في الفصلين من القال والقيل فدونك فصلاً جزلاً في تذييل بعض اللغات بما جاء منها في القرآن العزيز من الآيات وإيصالها بالحديث والحكايات، لكن أيضاً على نوع من التفصي عن التقصي، إذ لو تتبع ما فيها من الكلام إلى التمام لآل إلى الملال، لكن اقنع بما أوتيته يا غلام والسلام، وإنما أكتب ما قضي لي أن أكتب فلا تلم ولا تعتب.

قصة زيد بن حارثة

فصل:

تقدّم في الباب الأول ذكر زيد وقيدته لك كما ذكرت بقيد، جاء في القرآن العزيز هذا الاسم منصوصاً وخص به صاحبه دون الناس خصوصاً، ولا أعلم في القرآن من جاء اسمه مصرحاً به، وليس بنبي غيره، وهذه فضيلة في حقه رضي الله عنه، قال تعالى في حقه: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا ﴾ [الأحزاب: ٣٧] هو زيد بن حارثة بن شرحبيل مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قدم به حكيم بن حزام بن خويلد من الشام في جملة رقيق، فدخلت عليه عمته خديجة بنت خويلد امرأة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لها: يا عمة اختاري أي هؤلاء الغلمان شئت فهو لك، فاختارت زيداً، فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم عندها فاستوهبه منها، فوهبته له فأعتقه، وكان أبوه حارثة قد جزع عليه جزعاً شديداً وبكى عليه حين فقده فقال:

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل ... أحي فيرجى أم أتى دونه الأجل
فوالله ما أدري وإني لسائل ... أغالك بعدي السهل أم غالك الجبل
ويا ليت شعري هل لك الدهر أوبة ... فحسبي من الدنيا رجوعك لي علل
تذكرنيه الشمس عند طلوعها ... وتعرض ذكراه إذا قارب الطفل
وإن هبت الأرياح هيجن ذكره ... فيا طول ما حزني عليه وما وجل
سأعمل لص العيس في الأرض جاهداً ... ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل
حياتي أو تأتي علي منيتي ... فكل امرئ فان وإن غره الأمل

ثم قدم عليه وهو عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أسلم وصلى معه، وكان أول من أسلم من الصبيان علي بن أبي طالب، أسلم وهو ابن عشر سنين، وزيد هذا أسلم بعد علي وهو أيضاً صغير. وأول من أسلم من النساء خديجة، ومن الرجال الكبار أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وبلال مولاه رضي الله عنهم. فلما قدم حارثة هذا على ابنه زيد خيّره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: إن شئت فأقم عندي وإن

شئت فانطلق مع أبيك، فقال: بل أقيم عندك، فتبناه رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يدعى زيد بن محمد، فلما أنزل الله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥] قال: أنا زيد بن حارثة، وهو زوج زينب التي قال الله تعالى فيها: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧] الآية تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده، وسيأتي طرف من خبرها، وتزوّج هو أم أيمن مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم واسمها بركة، ولدت له أسامة بن زيد حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقتل زيد يوم مؤتة أميراً مع جعفر وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم. ذكر معنى هذا الكلام محمد بن إسحاق. وفي زيد قال عليه الصلاة والسلام: وأيم الله إن كان لأحب الناس إليّ، وأيم الله إن هذا ـ يعني أسامة ـ لأحبهم إليّ من بعده، وأوصيكم به فإنه من صالحيكم، ولذلك كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يفضله في العطاء على ابنه عبد الله بن عمر، فكان يعطيه خمسة آلاف ولابنه عبد الله بن عمر ألفين، فقال له ابن عمر: فضّلت عليّ أسامة وقد شهدت ما لم يشهد، فقال: إن أسامة كان أحبّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك، وأبوه كان أحبّ إليه من أبيك، وسيأتي طرف من ذكره وذكر أبيه في باب الفاء إن شاء الله تعالى، رضي الله عنهم أجمعين وجزاهم خيراً على صنيعهم.

حكاية زيد مع اللص:

تقدّم أنّ زيداً قتل يوم مؤتة شهيداً، وكان قد نجاه الله قبل ذلك من القتل، جاء في فضائله رضي الله عنه أنه اكترى من رجل بغلاً من الطائف واشترط عليه المكاري أن ينزله حيث شاء، فمال به إلى خربة فقال له: انزل، فنزل، فإذا في الخربة قتلى كثيرة، قال: فلما أراد أن يقتله قال: دعني أصلِ ركعتين، قال: صلِ فقد صلى قبلك هؤلاء فلم تنفعهم صلاتهم شيئاً، قال: فلما صليت أتاني ليقتلني، فقلت: يا أرحم الراحمين، قال: فسمع صوتاً لا تقتله، قال: فهاب ذلك فخرج فطلب فلم ير شيئاً، فرجع إليّ، فناديت: يا أرحم الراحمين، ففعل ذلك ثلاثاً، فإذا أنا بفارس على فرس بيده حربة حديد في رأسها شعلة نار، فطعنه بها فأنفذها من ظهره فوقع ميتاً ثم قال: لما دعوت المرة الأولى يا أرحم الراحمين كنت في السماء السابعة، فلما دعوت المرة الثانية يا أرحم الراحمين كنت في السماء الدنيا، فلما دعوت الثالثة أتيتك.

قتل أم قرفة:

قلت: وكما كان زيد حبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك كان رسول الله

صلى الله عليه وسلم حبّه، بلغه أن أم قرفة كانت تسبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما أمكنه الله منها قتلها قتلاً عنيفاً، كذا قال ابن إسحاق، وفسر غيره القتل العنيف قال: ربطها بفرسين ثم أجريا بها حتى ماتت. وذكر أبو عبيد في كتاب الأموال أن أم قرفة ارتدّت فقتلها أبو بكر رضي الله عنه.

وقيل: لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدّت وجمعت النساء يضربن بالدفوف لعنها الله. قلت: خلاف المرزبانة رضي الله عنها لما بلغها موته صلى الله عليه وسلم بصنعاء اجتمعت مع نساء الأبناء(*) فشققن الجيوب وضربن الخدود، وأما المرزبانة فشقت درعها من بين يديها ومن خلفها رضي الله عنهن أجمع، ولم يرتد من الأبناء أحد والحمد لله رب العالمين.

وتنبأ فيهم الأسود العنسي لعنه الله وغلب على المرزبانة فاحتالت في قتله، على ما يأتي في باب اللام إن شاء الله تعالى. وأم قرفة هذه التي ضرب بها المثل في الامتناع، فيقال: أمنع من أم قرفة، كان يعلق في بيتها خمسون سيفاً كلهم لها ذوو محرم، واسمها فاطمة بنت بدر وكنيت بابنها قرفة الذي قتله النبي صلى الله عليه وسلم، وكان لها سواه بنون تسعة قتلوا مع طليحة يوم بزاخة، وبنتها هي التي خرجت في سهم سلمة بن الأكوع، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها فقال: هي لك يا رسول الله، ففدى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم أسيراً كان في قريش من المسلمين.

خرج حديث هذه المرأة أبو داود رحمه الله، وفي السير أنه صلى الله عليه وسلم أهداها لخاله حزن بن وهب فولدت له عبد الرحمن، والحمد لله.

وممن كان لها منعة وعز في قومها عجوز لبني رئام تسمى خويلة، كان يدخل عليها أربعون رجلاً كلهم لها محرم بنو إخوة وبنو أخوات، وكانت مع ذلك عقيماً.

وكانت هند بنت صعصعة عمة الفرزدق تقول: من جاءت من نساء العرب بأربعة كأربعتي يحل لها أن تضع عندهم خمارها فصرمتي لها: أبي صعصعة، وأخي غالب، وخالي الأقرع بن حابس، وزوجي الزبرقان بن بدر، فسميت ذات الخمار، وتقدم رند وفسر أنه الريحان. وفي القرآن ذكر الريحان، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴾ [الرحمن: ١٢] والعصف: ورق الزرع، والريحان: الرزق. وكذلك: ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ [الواقعة: ٨٩] قيل فيه الرزق، وقيل الاستراحة. وقال الحسن

(*) الأبناء: قوم من العجم سكنوا اليمن، ومن أراد معرفتهم فليرجع إلى تاريخ الخميس ص١٩٣ من الجزء الأول.

ريحانكم هذا. وقال أبو العالية: لم يفارق أحد من المقربين الدنيا حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة فيشمه ثم يقبض. وقال الحسن: يقبض الملك نفس المؤمن في ريحانة. وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من عرض عليه ريحان فلا يردّه فإنه طيب الريح خفيف المحمل.

وفي التفسير أن عصا موسى عليه السلام كانت من ورق آس الجنة من أحد الخيوط المستطيلة في وسط الورقة، وأن طولها اثنا عشر ذراعاً بذراع موسى عليه السلام. وفي الشعر من قول الهذلي:

تالله يبقى على الأيام ذو حيد بمشمخر به الظيان والآس

وتقدّم: زند، العظم الذي في الذراع. وجاء منه في الحديث عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: انكسر أحد زنديّ، فأمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمسح على الجبائر. ذكره الدارقطني وذكر علته. وفي صفته صلى الله عليه وسلم: طويل الزندين، والزند: هو طرف الذراع من الكف، وهما زندان: الكوع وهو الذي يلي الإبهام، والكرسوع: وهو الذي يلي الخنصر. والزند: الذي يقدح به النار هو الأعلى، والزندة هي السفلى، وفيها ثقب، فإذا اجتمعا قيل زندان. وتقدم أربد وربد، وهو لون إلى الدبسة والغبرة. وفي الحديث: عليهم ثياب ربد، ويروى رمد، وهو لون الرماد، والباء تبدل من الميم، وسيأتي ذكرها إن شاء الله تعالى. وتقدّم الزبد وهو الرفد، وتقدّم الحديث فيه أنه عليه الصلاة والسلام قال: ونهيت عن زبد المشركين، يقال: زبدته زبداً: أعطيته، والزُّبد، بضم الزاي معلوم، وهو خلاصة السمن. وفي الحديث: دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرّبنا إليه تمراً وزبداً، وكان يحب التمر والزبد صلى الله عليه وسلم. وتقدّم دنر وجهه إذا أشرق كالدينار، وأصل دينار دنّار بالتشديد، أبدل من أحد حرفي تضعيفه ياء، وبنو دينار قوم معروفون، والوجه يوصف بالدينار لا للاصفرار ولا للاحمرار لكن للإشراق وعلو المقدار. وفي رسالة الفقيه الخطيب أبي محمد عبد الوهاب بن علي رضي الله عنه: يا أوجه الدنانير هل عندكم دنانير؟ وسيأتي ذكرها إن شاء الله تعالى. وقد تكلم الناس في الدينار الذي هو سبب دخول الجنة أو صلي النار، فمنهم من ذمّه فوهبه، ومنهم من ضمّه وكان مذهبه، ومنهم من جمع بين الصفتين لمعنى به معنيين، ويكفيك في ذلك قول الحريري رحمه الله مدح وقدح، وجذب وحرب، قال في مدحه:

أكرم به أصفر راقت صفرته

وقال في ذمّه:

تـبـاً لـه مـن خـادع ممـاذق أصـفر ذي وجهـين كالمـنافق

إلى آخرها. وقال غيره يذمّه:

الـنار آخـر ديـنار نطقـت بـه والهـم آخر هـذا الـدرهم الجاري
والمـرء بينهما إن لـم يكـن ورعـاً معـذب القلـب بـين الهـم والـنار

وأنشدني بعض الأصحاب:

يختبـر الديـنار فـي بـيدق والـدرهم الـزائف أذيـتهم
والمـرء إن رمـت اختـباراً لـه بـيدقه الديـنار والـدرهم
مـن عـفّ عـن هـذا وهـذا معـاً فهـو التقـي الـورع المـسلم

وله رضي الله عنه:

إن المذمّـة والحـساب كلاهمـا قـرنا بهـذا الـدرهم المذمـوم
شـغف الأنـام بذمّـه وبـضمّه فلتعجـبوا لمـذمم مـضمـوم

وفي هذا المعنى:

كـلام الـناس أرّ إذ أرادوا عطـاء شـاع فـيهم واسـتمرا
ولكـن ذا لكـم فـي غيـر ديـن وفـي الديـنار نـصّ الـديـن أرا
كمـا فـي درهـم قـل درّهـم وذا قـال فأقـدم أو ففـرا
ومهـرد عكـسه والهـرد قطـع وكـسر فاجتـنب قطعـاً وكـسرا
فكـم قـوم أرادوا ضـم هـذا إلـى هـذا فأمسـى الكل أسـرى

ولي من قطعة:

وقـد يحـسب المـرء أن الغنـى اكتساب الحطـام وجمـع النـشب
وهـيهات والله إن الغنـى إنـى الـنفس لا رقـة أو ذهـب
ولـو علـم الـناس مـا فـيهما مـن الـشؤم فـروا فـرار الـسحب
ولـو لـم يكـن غيـر لفظـيهما كفـى مـن لـه مـسكة مـن أدب
ففـي الـرقة الـرق حكمـاً كمـا تـرى فـي هجـاء الـذهاب الـذهب
وديـنار إن قلـت فالـنار فـيه وفـي الـدرهم الهم فاطلب تـصب
ومـا سـمي المـال إلا لمـا يمـيل لـذا ولـذا يـنقلب

قلت: إن الغنى غنى النفس أخذته من قول الرسول عليه الصلاة والسلام: ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن إنما الغنى غنى النفس، فإنّ بغنى النفس يستريح الإنسان، وبغنى العرض يقع في الطغيان، كما قال الله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أن

﴿رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[العلق: ٦-٧]. وأحسن ما رأيت في هذا المعنى قول من نسبه صديقه من أهل الغنى:

أظـنـك أطغـاك الغنـى فنسـيتني ... ونفسـك والدنـيا الدنـية قـد تنسي
فـإن كـنت تعلـو عـند نفسـك بالغنـى ... فإنـي سـيعليني علـيك غنـى نفسي

وقلت هذا أيضاً قبل أن أرى شعر المعري، ثم رأيته فإذا فيه هذا الغرض، قال رحمه الله:

ومـا قلـت مـالاً قـط إلا ومـال بـي ... ولا درهمـاً إلا ودرّ لـي الهـم

ولذلك قالوا: ما زاد على الكفاف فهو فقر، لأنك تفتقر إلى حفظه وإلى تثميره، والغنى على الحقيقة هو الكفاف، ألم تسمع إلى قوله عليه الصلاة والسلام: اللهم إني أسألك غناي وغنى مولاي. قال الشاعر:

غنى النفس ما يكفيك من سدّ خلّة ... فإن زاد شيئاً عـاد ذاك الغنى فقرا

ولي أيضاً من قطعة أخرى مطولة كذلك، وقد رأيت رجلاً اهتم بدرهم أعطي من داره لأناس في ختان أو نفاس:

درّهـم أن مـنك أخـرج درهـم ... في سـرور فكيف تـصنع فـي الهـم

ولي أيضاً من نوع ما تقدّم:

درّهـم يـا صـاح تـصحيف درهـم ... فاكتسبه إن كـنت تحـتمل الهـم
ثـم معكوسـه مهـرد فـاعلـم ... وهـو فـأل فمـر علـيه أو أحجـم
هـبك تقـوى علـى احتمالك للهـم ... أمهـرد يأتـي علـيك وتـسـلم
يـا أخـي اسمع وصاة خلك وافهـم ... ثمت اختـر لنفسـك الأمـر الأقـوم
اجتلـبه تقـدم علـى مـا تقـدّم ... اجتنـبه تـسـلم وتظفـر وتغـنم

وسئلت تذييل هذين البيتين:

إذا مـا شـئت أن تـنعم ... بـلا هـم ولا مـأثم
فـلا تجـنح علـى حـال ... إلـى الديـنار والـدرهم

فقلت:

وخـلّ النـاس لا تعنـى ... بأمـرهـم ولا تهـتم
ولا تـشـغل بذكـرهم ... بمـدح فـيهم أو ذم
فكـل مـضرة تأتـي ... لمـن قـبل الـذي تعلـم
تجـنّب كـلّ مـن تـدري ... لعلّـك مـنه أن تـسـلم
فـصحبته أضـرّ علـيـ ... ـك يـا هـذا مـن الأيهـم

وأنشدني الشيخ الفقيه أبو محمد العثماني رحمه الله لبعض الشعراء يمدح أحد الملوك وكان يرمي عدوّه في حال القتال بسهام من ذهب:

وقد صاغ من ذهب نصله فأبدى من المنّ ما لم يمن
يداوي الجريح به جرحه ويشري به للقتيل الكفن

ولي في مدحه في غرض عرض بعد سلام وكلام:

فقالوا إن تشا تغلبه وجه له من وجهه أبداً جميل
ومن إن جاء والأبواب سدّت إذا فتحت وكان له دخول
ومن في صفحتيه غدت نقوش إذا لاحت فقد راحت عقول
ومن إن تلق ذا وجه عبوس به يشرق وكان له قبول
ومن يقضي الحوائج كل وقت وفي أفنانه ظل ظليل
ومن عظمت منافعه وجلت ومالكه به أضحى يصول
وأصبح من حواه عزيز قوم ولولاه لقيل هو الذليل
به تمتاز قيمة كل شيء وتبتاع الفروع بل الأصول
ولولاه لما وليت ولاة ولولاه لما قالت قيول
ولولاه استوى جود وبخل ولم يدر الجواد ولا البخيل
هو الدينار يدرك كل أمر به وينال مأمول وسول

إلى آخر الشعر، وهو ستون بيتاً انظرها في التكميل.

وقع في الشعر: قالت، ومعناه: ملكت، ومنه القيل. وسيأتي سبحان الذي تعطف بالعز، وقال به يعني ملك، وتقدّم بيتان في الكلام على الشعر وفضله، وهذا موضعهما أيضاً لأن فيهما منفعة الدراهم، وهما:

إذا شئت أن تلقى أخاك معبساً وجدّاه في الماضين كعب وحاتم
فكشفه عما في يديه فإنما تكشف أخلاق الرجال الدراهم

فضل الغنَى

قلت: وما أحسن الدينار إذا وقى المرء به نفسه من النار وقدّمه أمامه ولم يتخذه كنزاً يكوى به جنبه وجبهته وظهره يوم القيامة، ألم تسمع قول الرسول عليه الصلاة والسلام: نعما بالمال الصالح للرجل الصالح. يريد الذي ينفقه في سبيل الله، والله أعلم. كما كان لسعد بن عبادة جفنة كل يوم مملوءة طعاماً يبعث بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تدور معه حيث دار من نسائه، ويقول: اللهم ارزقني مالاً فإنه لا تصلح

الفعال إلا بالمال.

وقال بعضهم: إنه ليس بكسب المال بأس إذا كان من وجهه وصان به وجهه عن الناس، ألم تسمع قول بعض الحكماء: خصلتان لا تزال بخير ما حفظتهما: درهمك لمعاشك، ودينك لمعادك. وقال سعيد بن المسيب رضي الله عنه: لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله، يعطي منه حقه ويكف به وجهه عن الناس. وكان سعيد هذا أحد العباد والزهاد، وسيأتي حديثه، وكيف كان لا يأخذ من أحد شيئاً لا ديناراً ولا درهماً، وكيف أتي بنيف وثلاثين ألفاً فلم يأخذها. وخرّج أبو أحمد بن عدي عن محمد بن المنكدر عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كل معروف صدقة، وما أنفق الرجل على نفسه وعلى أهله كتب له صدقة، وما وقى الرجل به عرضه فهو صدقة، وما أنفق الرجل من نفقة فعلى الله خلفها إلا ما كان من نفقة في بنيان أو معصية. قيل لابن المنكدر: ما الذي وقى الرجل به عرضه؟ قال: يعطي الشاعر أو ذا اللسان.

وخرّج مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدّقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمه أجراً الذي أنفقته على أهلك. وعن أبي ذرّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ما أحبّ عندي مثل أحد ذهباً فأنفقه في سبيل الله، وتمسي ثالثة وعندي منه دينار إلا ديناراً أرصده لدين، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا، حثا بين يديه، وهكذا، حثا عن يمينه، وهكذا، عن شماله، وذكر الحديث. وفي حديث آخر: تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم. وقالت عائشة رضي الله عنها: ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم ديناراً ولا درهماً. وكذلك قال في حياته صلى الله عليه وسلم: لا تقسم ورثتي ديناراً ولا درهماً.

وخرّج أبو طالب في القوت: روينا في الخبر: لكل أمة عجل، وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم. وأنشد ثعلب رحمه الله:

إذا كنت ذا مال ولم تك منفقاً ... فأنت إذاً والمقترون سواء
على أنّ للأموال يوماً تباعة ... على أهلها والمقترون براء

قلت: التباعة المذكورة في هذا البيت هي على الذي يكنزه ولا يؤدّي زكاته، فتكوى به جبهته وجنبه، والفقير بريء من هذا كما قال الشاعر:

ما إن سمعت بمائل تكوى غداً ... في النار جبهته على الإقلال
وإذا أردت صحيح من يكوى بها ... فاقرأ عقيبة سورة الأنفال

ولما مات الإسكندر جعل في تابوت من ذهب، فاجتمع الحكماء لموته، فقال

أحدهم: كان الإسكندر يخبئ الذهب فأصبح الذهب يخبئ الإسكندر. وقال آخر: إن الذهب كان كنز الإسكندر وإن الإسكندر قد أصبح كنز الذهب. وجاء من ذكر الكنز في الحديث: يجيء كنز أحدكم يوم القيامة شجاعاً أقرع.

وجاء: من كان له مال ولم يؤدّ زكاته مثّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطلبه حتى يمكنه يقول أنا كنزك. وجاء: خير ما يكنز المرء المرأة الصالحة. وسيأتي عند ذكر النساء.

وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم: من استطاع منكم أن يجعل كنزه في السماء حيث لا تأكله السوس ولا تناله السّرّاق فليفعل، فإن قلب الرجل مع كنزه. وأنشدني الحافظ، رحمه الله لنفسه:

تبّاً لمن آتاه رب العلى ... مالاً ولم يرزقه إنفاقه
فالمال كالآل متى لم يكن ... بين الإنفاق إشراقه

وكان الحسن رضي الله عنه يقول: بئس الرفيقان الدينار والدرهم لا ينفعانك حتى يفارقانك، وكان يحلف بالله ما أعزّ أحد الدرهم إلا أذلّه الله.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: أهلك من كان قبلكم الدينار والدرهم وهما مهلكاكم. وأنشدني العثماني رضي الله عنه قال: أنشدنا أبو عبد الله الحسين بن عبد الله الهاشمي الشريف الرضي رضي الله عنه:

خذ من زمانك ما استطعت فإنما ... شركاؤك الأيام والورّاث
لم يقض حق المال إلا معشر ... وجدوا الزمان يعيث فيه فعاثوا
المال مال المرء ما بلغت به الشـ ... ـشهوات أو دفعت به الأحداث
ما كان منه فاضلاً عن قوته ... فليوقننّ بأنّه ميراث
إني لأعجب من أناس أمسكوا ... بعلائق الدنيا وهنّ رثاث
كنزوا الكنوز وأغفلوا شهواتهم ... فالأرض تشبع والبطون غراث
ما لي وللدنيا الخؤونة حاجة ... فليخش ساحر كيدها النفاث
عاراتها منقوضة وعهودها ... منكوثة وحبالتها أنكاث
طلّقتها ألفاً لأحسم داءها ... وطلاق من عزم الطلاق ثلاث

ما ورد من الحكايات في الدراهم

قلت: والشيء يذكر بضدّه، من أغرب ما رأيت في حب الدراهم ما يروى عن الحجاج أنّ عنبسة بن سعيد بن العاصي، وكان عنبسة من خلصاء الحجاج بن يوسف،

فطلع له ابن فسماه الحجاج باسمه، ودخل به على الحجاج يوماً وهو طفل فأعطاه دراهم، فسأله أن يشدّها بخيط، فلما شدّها سأله المبالغة في الشدّ حتى عقد اثنتي عشرة عقدة، فتعجب الناس من شأنه، ثم دخل عنبسة على الحجاج فأخبره بشأنه، فقال له: إن رأيته أيها الأمير فاسأله ما صنع بالدراهم، فأرسل إليه الحجاج وقال له: ما صنعت بالدراهم التي أعطيتك؟ قال: عمدت إلى أغمض بيت في الدار فحفرت فيه حفرة ثم دفنت الدراهم فيها وملأت البيت تبناً وقلت لها: هذا آخر عهدك بالدنيا، قال: فما أردت بملء البيت تبناً؟ قال: إن أرادها اللصوص لم يفرغوا من إخراج التبن حتى يدركهم الصباح فيفضحهم، فازداد الحجاج عجباً من ضبطه، وسرّ به ووهب له مالاً.

وقال أعرابي لرجل: هب لي درهماً، فقال له: لقد سألت مزيداً، الدرهم عشر العشرة، والعشرة عشر المائة، والمائة عشر الألف، والألف عشر ديتك، خرّجه الخطابي وقال المزيد الكثير. ومنه قولهم: إذا كان المال ذا مزيد ففرّقه في الأصناف الثمانية، يعني: الصدقة، وإذا كان قليلاً فأعطه صنفاً واحداً.

ووقع في عيون الأخبار قال: كان فلان بخيلاً، فكان إذا وقع في يده الدرهم نقره بإصبعه ثم أخذه براحته، ثم يقول: كم مدينة قد دخلتها ودور قد وقعت فيها، فالآن استقرّ بك القرار، واطمأنت بك الدار، ثم يرمي به في صندوق له فيكون آخر العهد به.

وذكر عن آخر أنه نظر إلى درهم فإذا في شق لا إله إلا الله، وفي شق محمد رسول الله، وفي وجه آخر: الله لا إله إلا هو الحي القيوم، فقال: ما ينبغي أن يكون هذا إلا معاذة، وقذفه في الصندوق فكان آخر العهد به.

وكان آخر إذا صار الدرهم في يده خاطبه وناجاه واستبطأه وفدّاه، وكان يقول: بأبي أنت وأمي كم من أرض قطعت، وكم من كيس دخلت، وكم من خامل رفعت، لك عندي أن لا تعرى ولا تضحى، ثم يلقيه في كيسه ويقول: اسكن على اسم الله في مكان لا تزال فيه ولا تزعج عنه.

ويذكر أن إبليس لعنه الله أخذ أوّل دينار ضرب في الأرض ووضعه على وجهه وقال: بهذا أصطاد قلوب بني آدم.

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: لما ضرب الدينار والدرهم أخذه إبليس فوضعه على عينيه وقال: أنت ثمرة قلبي وقرّة عيني بك أطغي وبك أكفر وبك أدخل النار، رضيت من ابن آدم بحبّ الدينار أن يعبدني. قلت: نعوذ بالله من شرّ الذّهب وشرّ إبليس الذي ذكره ذهب.

وجاء في الذهب من قول أبي هريرة رضي الله عنه لابنته: قولي أبى أبي أن

يحليني الذهب يخشى عليّ حزّ اللّهب.

وقال يحيى بن معاذ: الدرهم عقرب فإن لم تحسن رقيتها فلا تأخذها فإنها إن لدغتك قتلك سمها، قيل: ما رقيتها؟ قال: أخذها من حلها ووضعها في حقها. قلت: قوله ووضعها في حقها، يريد أن لا تنفق إلا في الواجبات لا في المنهيات ولا في المحرمات ولا في الملاهي والتنزهات كما يصنع أهل الدنيا، يتّخذون الأواني من الذهب والفضة، ويقطعونهما للغزل والنسيج في الستور وغيرها لكسوة الحيطان، وقد جاء النهي في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول: قطع الذهب والفضة من الفساد في الأرض. قيل: معناه ما تقدّم. وقيل: قطعه قرضه للإنفاق إذا ضاق الصرف، والأوّل أليق بالمعنى، والله أعلم.

وقد جاء في الحديث أنه نهى عليه الصلاة والسلام أن تكسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس. ذكره أبو داود وذكر ضعف إسناده. وجاء في الشرب في آنية الذهب والفضة: إنما يجرجر في بطنه نار جهنم، أعاذنا الله منها.

وجاء في الأثر أنه لما أخرج آدم عليه السلام من الجنة بكى عليه كل ما كان في الجنة إلا الذهب والفضة، فقيل لهما في ذلك فقالا: لا نبكي على من عصى الله تعالى، فقيل لهما: أنتما الحكام في الأرض. أو كما ورد الخبر، والله أعلم.

وقال أبو حامد رحمه الله: إنما الذهب والفضة في الأرض بمنزلة الحكام بين الناس، فإذا صنع من الذهب والفضة إناء فقد عطل الحكم عن حكمه بمنزلة من أخذ القاضي من الناس وصرفه في مهنته وعطل الناس عن الوصول إلى حقوقهم، وقد كان يمكنه أن يصرف غيره في ذلك، كما كان يمكنه أن يتخذ إناء من فخار، وهذا من قطع الذهب المنهي عنه في الشرع، أو كما قال رحمه الله، هذا معنى كلامه، والله أعلم.

فصل:

وأختم لك هذا الباب بحكايات غراب، فيها ذكر الدرهم فاقرأ تفهم، والحديث يجرّ بعضه بعضاً فاسمعه أيضاً. قال الأصمعي رحمه الله: حججت فمررت على بعض المناهل فإذا بجارية تسأل الناس وكأنّ وجهها بدر طالع، فقلت لها: مثل هذا الوجه يسأل؟ فأخرجت كفاً لها من تحت خمار كأنه كف صبي ولطمت به وجهها، ثم أنشأت تقول:

لـم أبـده حتـى تقـضت حيلتـي ... فبذلـتـه وهـو الأعـز الأكـرم

قد صنته وحجبته حتى إذا لم يبق لي سبد ومات الهيثم (*)
أبرزته من خدره مقهورة والله يشهد لي بذاك ويعلم
كشف الزمان قناعه في بلدة قلّ الصديق بها وعزّ الدرهم

فقلت لها: من أنت؟ فقالت: أنا المتمناة بنت الهيثم الفزاري. قال: فرجعت من الحج على رحبة مالك بن طوق أريد الغزو وبها أبو كلثوم، فحدّثته الحديث ثم مضيت إلى طرسوس، فأقمت بها عامين، ثم رجعت إلى أبي كلثوم فإذا بصبي يدب ومعه خرقة فيها صرة لا يقدر على جرّها، فقال أبو كلثوم: هذا ولد المتمناة بنت الهيثم الفزاري، أنفذت إلى بني فزارة فوجدتها كما وصفت، فتزوّجتها وولدت لي هذا الصبي، وهذه هديتها بحق دلالتك عليها، فأخذت الصرة فإذا فيها مائتا دينار. قولها في الشعر: وعزّ الدرهم، معناه: قلّ، تريد: الدرهم الحلال، والله أعلم.

كما قال بعض الحكماء: شيئان ليس في الدنيا أقل منهما ولا يزدادان إلا قلّة: درهم من حلال تنفقه في وجهه، وأخ ثقة تسكن إليه.

قصة زواج سعيد ابنته بدرهَمَيْن

وأغرب مما تقدّم وأعجب حديث سعيد بن المسيب مع صهره كثير بن المطلب بن أبي وداعة رضي الله عنه وعن تلك الجماعة، قال: كنت أجالس سعيد بن المسيب ففقدني أياماً، فلما جئته قال: أين كنت؟ قلت: توفيت أهلي فاشتغلت بها، فقال: ألا أخبرتنا فشهدناها؟ قال: ثم أردت أن أقوم، فقال: هل استحدثت أهلاً؟ فقلت: يرحمك الله ومن يزوّجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟ فقال: أنا، قلت: وتفعل؟ قال: نعم، ثم تحمد وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وزوّجني على درهمين أو قال ثلاثة. قال: فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح، فسرت وجعلت أتفكر ممن آخذ وممن أستدين، فصليت المغرب وانصرفت إلى منزلي وكنت وحدي صائماً، فقدّمت عشائي أفطر، وكان خبزاً وزيتاً، فإذا بابي يقرع، فقلت: من هذا؟ قال: سعيد، قال: فأفكرت في كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب فإنه لم ير أربعين سنة إلا بين بيته والمسجد، فقمت وخرجت فإذا سعيد بن المسيب، فظننت أنه قد بدا له، فقلت: يا أبا محمد ألا أرسلت إليّ فأتيتك؟ قال: لأنت أحقّ أن تؤتى، فقلت: فما تأمر؟ قال: إنك كنت رجلاً عزَباً فتزوّجت فكرهت أن أبيتك الليلة وحدك، وهذه امرأتك، فإذا هي قائمة

(*) ما له سبَد ولا لبَد بالتحريك فيهما، أي: لا قليل ولا كثير.

من خلفه في طوله، ثم أخذ بيدها فدفعها في الباب وردّ الباب، فسقطت المرأة من الحياء، فاستوثقت الباب، ثم تقدّمتها إلى القصعة التي فيها الزيت والخل فوضعتها في ظل السراج لكي لا تراه، ثم صعدت إلى السطح فناديت الجيران، فجاؤوني فقالوا: ما شأنك؟ قلت: ويحكم زوّجني سعيد ابن المسيب بنته اليوم، وقد جاء بها على غفلة، فقالوا: سعيد بن المسيب زوّجك؟ قلت: نعم وها هي في الدار. قال فنزلوا إليها، وبلغ أمي فجاءت وقالت: وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها في ثلاثة أيام. قال: فأقمت ثلاثاً ثم دخلت بها، فإذا هي من أجمل الناس، وإذا هي أحفظ الناس لكتاب الله، وأعلمهم بسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعرفهم بحق الزوج. قال: فمكثت شهراً لا يأتيني سعيد ولا آتيه، فلما كان قرب الشهر أتيت سعيداً وهو في حلقته، فسلمت عليه فردّ عليّ السلام ولم يكلمني حتّى تقوّض أهل المجلس، فلما لم يبق غيري قال: ما حال ذلك الإنسان؟ قلت: خيراً يا أبا محمد، على ما يحب الصديق ويكره العدوّ. قال: إن رابك شيء فالعصا. فانصرفت إلى منزلي فوجّه إليّ بعشرين ألف درهم. قال الراوي: وكانت بنت سعيد بن المسيب خطبها عبد الملك بن مروان لابنه الوليد بن عبد الملك حين ولاّه العهد، فأبى سعيد أن يزوّجه، فلم يزل عبد الملك يحتال على سعيد حتى ضربه مائة سوط في يوم بارد وصبّ عليه جرّة ماء وألبسه جبّة صوف، وسيأتي خبره ولِمَ ضرب، ومن ضرب معه.

ونوع من هذا في فرار الأولياء من الأغنياء: قصة الحسن بن أبي الحسن البصري رضي الله عنه. قال حميد الطويل رحمه الله: خطب رجل إلى الحسن فكنت أنا السفير بينهما، قال وكان قد رضيه، فذهبت يوماً أثني عليه بين يديه، فقلت: يا أبا سعيد وأزيدك أنّ له خمسين ألف درهم، قال: له خمسون ألفاً اجتمعت من حلال؟ قلت: يا أبا سعيد إنه ما علمت لورع مسلم، قال: إن كان جمعها من حلال فقد ضنّ بها عن حقّ، لا والله لا يجري بيني وبينه صهر أبداً.

وأغرب من هذا حديث أبي الدرداء رضي الله عنه وكان فقيهاً عالماً حكيماً، كان يقول فيه يزيد بن معاوية: إن أبا الدرداء من الحكماء الذين يشفون من الداء، كانت له بنت خطبها يزيد بن معاوية فردّه، فقال رجل من جلسائه: أصلحك الله، أتأذن لي أن أتزوّجها؟ قال: اعزب ويلك، قال: ائذن لي أصلحك الله، قال: نعم، قال: فخطبها فأنكحها أبو الدرداء الرجل، فسار ذلك في الناس أنّ يزيد خطب إلى أبي الدرداء فردّه، وخطب إليه رجل من ضعفاء المسلمين فأنكحه. قال: فقال أبو الدرداء: ما ظنّك بالدرداء إذا قامت على رأسها الخصيان ونظرت في بيوت يلتمع فيها بصرها أين دينها

منها يومئذ؟ اسم أبي الدرداء عويمر بن عامر، وكنّي بابنته هذه واسمها الدرداء، وسيأتي تفسير الدرد، وبها أيضاً كنيت أمها أم الدرداء امرأة أبي الدرداء واسمها خيرة بنت أبي حدرد، وكانت خيرة عند اسمها. وسيأتي خبرها في باب السين من هذا الكتاب إن شاء الله واسم أبي حدرد عبد.

تفسير الرقة والورق

فصل:

في تفسير الرقة والدرهم وفي شرح الأيهم. أما الدرهم فذكر أهل اللغة أنه فارسي معرب، وكسر الهاء لغة فيه وجمعه دراهم، وربما قالوا درهام وجمعه دراهيم. قال الشاعر:

لو أنّ عندي مائتا درهام لجاز في آفاقها خيتامي

يقال خيتام وخاتام وخاتَم وخاتِم بالفتح والكسر، مثل طابَع وطابِع كله بمعنى، والجمع الخواتيم، كذا رأيته، والقياس أن يجمع خاتم على خواتم بغير ياء، ويجمع خاتام على خواتيم بالياء على قياس درهام ودراهيم، كما قالوا مفتاح ومفاتيح. وأما الرقة فذكر أبو عبيدة في كتاب الأموال أن الورق ما كان سكة مضروبة، فإن كان حلياً أو حلية أو نقداً لم يسمّ ورقاً، يريد بهذه التفرقة أنه لا زكاة في الحلي، واحتج بقول النبي صلى الله عليه وسلم حين ذكر الزكاة قال: في الرقة كذا. وحين ذكر الربا قال: الفضة بالفضة ربا. ومثله قال الهروي: قال الأستاذ رحمه الله: قد جاء في الحديث خلاف ما قال، من ذلك نهيه صلى الله عليه وسلم عن بيع الفضة بالفضة وإباحة بيع الذهب بالورق، فدلّ على أنّ الورق والفضة شيء واحد. وقال في صفة الحوض: يصبّ فيه ميزابان من الجنة أحدهما من ورق. وحديث عرفجة حين أصيب أنفه يوم الكلاب فاتخذ أنفاً من ورق، الحديث. فدلّ على أنّ الفضّة تسمى ورقاً على أيّ حال كانت.

وجاء في الحديث أيضاً: بالذهب العين والورق العين، يريد النقد لأن الغائب يسمى ضماراً ويسمى الحاضر عيناً لموضع المعاينة، فالعين في الأصل مصدر: عنته أعينه، إذا أبصرته بعينك، وسمي المفعول بالمصدر، ومنه نحو الصيد لأنه مصدر صدت أصيد. وقد جاء في التنزيل: ﴿ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ ﴾ [المائدة: ٩٥] فسماه بالمصدر. ولعلك أن تلحظ في هذا المطلع معنى العين من قوله تعالى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ [طه: ٣٩].

وقال أبو سليمان الخطابي: التبر جوهر الذهب والفضة، يقال للقطعة منه: تبرة، ما لم تطبع، فإذا ضربت دراهم أو دنانير سميت عيناً، فسّر به حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: الذهب بالذهب تبرها وعينها، والفضة بالفضة تبرها وعينها. انتهى كلامه. الورِق؛ بالكسر: الفضة، وحكى الفرّاء فيه ثلاث لغات: ورْق وورِق وورق، مثل كبْد وكبِد وكبد، وكلْمة وكلِمة وكلمة، وجمع الرقة رقات ورقون، والهاء فيها عوض من الواو المحذوفة. وفي مثل: وجدان الرقين يغطي أفن الأفين، الأفن الحمق، يقول: الغني وقاية للحمق، والوَرَق بفتح الواو والراء معلوم: ورق الأشجار وغيرها، والورق أيضاً: المال. قال كثير:

فمــا ورق الدنــيا يــدوم لأهلهــا ولا شــدّة الــبلوى بــضربة لازم

ويروى بباق لأهله، والرّقون بفتح الراء أيضاً، والرقان: اليَرنأ بفتح الياء مقصور، ويقال اليُرناء بضم الياء والهمز والمدّ، وهي الحناء. والرقان: الزعفران. ويقال منه أيضاً الرقون، ويقال: هو الحناء، قال المعري:

فاهــتاج يكــتب بالــرقان ويعجــم

ومن أسماء الحناء أيضاً: العلام، ومنه قول المعري في رسالته البديعة في خبر ذكره: غنيت عن كذا غناء الوصيف عن لبس النظيف، والغلام عن الاختضاب بالعلام.

بيان الأيهم

وأما الأيهم فواحد الأيهمين، وما زال الناس يستعيذون بالله من الأيهمين وهما السيل والحريق، لأنهما لا يهتدى فيهما كيف العمل، كما لا يهتدى في اليهماء وهي الفلاة التي لا يهتدى لطرقها ولا ماء فيها. والأيهم: البلد الذي لا علم فيه. قاله ثابت رحمه الله. وقد قالوا في تفسير اليهماء: المفازة لا ماء فيها، وكأنه مقلوب من هيماء، والله أعلم.

وقال الخطابي وذكر الأعميين إذ فسر حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: تعوّذوا بالله من الأعميين ومن قترة وما ولد، قال: يريد بالأعميين السيل والحريق، وهما الأيهمان أيضاً. وقال الشاعر:

وهــبت إخــاءك للأيهمــين وللأثــرمين ولــم تظلــم

وسيأتي الشعر بكماله في باب الطاء إن شاء الله.

وقال: قترة اسم إبليس، ويقال كنيته أبو قترة. وقال ابن الأعرابي: أبو قترة حيه خبيثة. وقال الأصمعي: هو ذكر الأفاعي وطوله نحو الشبر. وقال صاحب كتاب تاج

اللغة: إنه يقال للفلاة التي لا يهتدى فيها لطريق: يهماء، وللبر: أيهم. قال: والأيهم من الرجال: الأصم، والأيهم: الشجاع. قال أبو عبيد بعد ذكر السيل والحريق: وإنما قيل له أيهم لأنه ليس مما يستطاع دفعه ولا ينطق فيكلم أو يستعتب. وذكر ابن السكيت أنّ الجمل الصؤول الهائج يسمى أيضاً أيهم. وقالوا في الأمرّين: إنهما الجوع والعري، وفي الأجوفين: الجوف والفرج. وفي الحديث أن الأمرّين غير هذين، قال عليه الصلاة والسلام ماذا في الأمرّين من الشفاء الصبر والثفاء، فالصبر معلوم، والثفاء الخردل، وسيأتي ذكر الأثرمين في باب الطاء عند ذكر لفظة (اطا) إن شاء الله. وفسرهما ثابت بالدهر والموت.

وباب تثنية الأسماء مثل العمرين والقمرين واللبن أحد اللحمين، والشعر أحد الوجهين وما أشبهه باب كثير، وأثبت لك هنا قطعة زهدية لابن سارة رحمه الله ذكر في كل بيت منها اسمين من هذا القبيل وهو من أحسن ما قيل:

يا من يصيخ إلى داعي السفاه وقد ... نادى به الناعيان الشيب والكبر
إن كنت لا تسمع الذكرى ففيم ثوى ... في رأسك الواعيان السمع والبصر
ليس الأصم ولا الأعمى سوى رجل ... لم يهده الهاديان العين والأثر
لا الدهر يبقى ولا الدنيا ولا الفلك ... ولا النيران الشمس والقمر
ليرحلنّ عن الدنيا وإن كرها ... فراقها الثاويان البدو والحضر

هلاك أربد وعامر بن الطفيل

تقدم ذكر أربد اسم رجل، وأربد قيس ابن أخي لبيد بن ربيعة لأمه، وفيه أنزل الله تعالى: ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ ﴾ [الرعد: ١٣] وذلك أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وعامر بن الطفيل يريدان الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال عامر لأربد: سأشغل عنك وجهه فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف، ففعل ذلك وجعل يشغله وينظر إلى أربد لا يصنع شيئاً، والله سبحانه قد منعه منه، فلما خرجا من عنده قال له عامر: أين ما أمرتك به؟ قال: لا أبا لك لا تعجل عليّ والله ما هممت بالذي أمرتني به من أمره إلا دخلت بيني وبين الرجل حتى ما أرى غيرك أفأضربك بالسيف؟ فلما رجعا إلى بلادهما بعث الله على عامر الطاعون في عنقه فقتله الله، ورجع أربد فأرسل الله عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما، وأنزل الله فيهما: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ ﴾ [الرعد: ٨] إلى قوله: ﴿ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ [الرعد: ١٣] والمحال: القوة، قاله مجاهد، وفي أربد هذا يقول أخوه لبيد يرثيه:

أخشى على أربد الحتوف ولا أرهب نوء السماك والأسد

في أبيات ذكرها ابن إسحاق في السير، وأسلم لبيد وعاش في الإسلام ستين سنة، ومات في أيام معاوية رحمهما الله، وسيأتي ذكره في باب الراء من هذا الكتاب إن شاء الله.

حديث عاصم

وتقدّم في الباب ذكر الدبر، ومنه حديث عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح رضي الله عنه حين قتل كانت فيه آية وعجب، أرادت هذيل أن يأخذوا رأسه، فبعث الله عليه مثل الظلة من الدبر فحمته فلم يقدروا عليه، ولذلك قيل له حميّ الدبر، وكانت الزنابير التي أرسلها الله عليه كباراً كإبر الذراع(*) فلما حالت بينهم وبينه قالوا: دعوه حتى يمسي فتذهب عنه فنأخذه، فبعث الله الوادي فاحتمل عاصماً فذهب به، وكان قد أعطى الله عهداً أن لا يمس مشركاً ولا يمسه مشرك، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول حين بلغه أنّ الدبر منعته: يحفظ الله العبد المؤمن كان عاصم نذر أن لا يمسه مشرك وأن لا يمس مشركاً أبداً في حياته، فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع منه في حياته.

ومن الدبر أيضاً ما يروى من أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لما ارتدّت العرب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأراد غزوهم واستشار في ذلك الصحابة رضي الله عنهم، فكأنهم ترخصوا في تركهم إلى أن يشتدّ أمر المسلمين، وأشار عليه بعضهم أن يترك لهم صدقة عامهم، فقال: والله لأن أخرّ من السماء أحبّ إليّ من أن يكون هذا رأيي، والله لو لم أجد ما أقاتلهم به إلا الدبر لقاتلتهم به، فامتلأ المسجد عليهم من الدبر، أو كما قال، هذا معناه، رضي الله عنه وعنهم.

مقتل أبي جهل

وتقدّم أيضاً في الباب من ذكر الدبرة حديث ابن مسعود رضي الله عنه حين اقتطع رأس أبي جهل لعنه الله، فأردت أن أسوقه في هذا الكتاب بكماله وأذكر من قتله وأخذ بسباله. خرّج مسلم رحمه الله عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أنه قال: بينما أنا واقف في الصف يوم بدر إذ نظرت عن يميني وشمالي فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، فتمنيت أن لو كنت بين أضلع منهما، فغمزني أحدهما فقال:

(*) إبرة الذراع مستدقها.

يا عم هل تعرف أبا جهل؟ قال قلت: نعم وما حاجتك إليه يا ابن أخي؟ قال: أخبرت أنه يسبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، قال: فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر فقال مثله، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس. وفي رواية أخرى: يرفل في الناس. فقلت: ألا تريان هذا صاحبكما الذي تسألان عنه؟ قال: فابتدراه فضرباه بسيفيهما حتى قتلاه ثم انصرفا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه، فقال: أيكما قتله، فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، فقال: هل مسحتما سيفيكما؟ قالا: لا، فنظر في السيفين فقال: كلاكما قتله وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح، والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ ابن عفراء. وفي مسلم أيضاً عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من ينظر لنا ما صنع أبو جهل؟ فانطلق ابن مسعود رضي الله عنه فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد، قال فأخذ بلحيته فقال: أنت أبو جهل؟ فقال: وهل فوق رجل قتلتموه، قال أو قال قتله قومه. زاد ابن إسحاق في السير قال عبد الله بن مسعود: فوجدته بآخر رمق، فوضعت رجلي على عنقه، قال وقد كان ضبث بي بمكة فآذاني ولكزني، ثم قلت: هل أخزاك الله يا عدوّ الله؟ قال: وما أخزاني الله أعمد من رجل قتلتموه، أخبرني لمن الدابرة اليوم؟ ويروى الدبرة. قال قلت: لله ولرسوله. وقال ابن هشام: وقال: أعار على رجل قتلتموه، أخبرني لمن الدبرة اليوم؟ قال: ثم احتززت رأسه ثم جئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله هذا رأس عدوّ الله أبي جهل. وذكر الحديث، وفي آخره: فألقيت رأسه بين يديه، فحمد الله. وفي هذا الحديث: حتى برد، أي مات، وهو من الباب، ومعكوسه درب، وقد تقدّم. وأزيدك من خطابي ما ذكره الخطابي: قال: أخبرني أبو عمر عن ثعلب عن ابن الأعرابي قال: سمعت أبا المكارم يقول: كان منا فتى له في الحي علقة، وكان عفيف الخلوة، فجاءها يوماً وهي في بيتها، فدخل يتحدّث إليها، فأسرع الخروج فقيل له: ما لك؟ قال: منعني البرد، قال فدخلنا فإذا الجارية ميتة.

ومن البرد حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه شرب النبيذ بعد ما برد عليه، أي سكن، قال: وقد يكون النوم إنما سمي برداً لهذا المعنى، وذلك أنه يرخي المفاصل ويسكنها. وزعم بعضهم أنه إنما سمي برداً لأنه يبرد حرارة العطش ويسكنها، ذكر هذا في تفسير حديث النبي صلى الله عليه وسلم لما توجه نحو المدينة: خرج بريدة الأسلمي في ركب من أهل بيته من بني سهم، فتلقى نبي الله صلى الله عليه وسلم فقال له: من أنت؟ فقال: بريدة، قال: فالتفت إلى أبي بكر فقال: يا أبا بكر برد أمرنا

وصلح. وقال: قوله برد أمرنا، فيه قولان: أحدهما سهل أمرنا، ومنه قولهم في الصوم في الشتاء: الغنيمة الباردة، ويقال: عيش بارد، أي ناعم سهل، ومن هذا قولهم في الدعاء للميت: اللهم برّد عليه مضجعه.

والقول الآخر معناه: ثبت أمرنا واستقام، من قولهم برد لي على فلان حق، أي: ثبت ووجب. قال: وفيه وجه آخر أن يكون برد بمعنى ضعف وفتر، وهو يريد به أمر قريش والخارجين في أثره من الطلب. يقال: جدّ فلان في الأمر ثم برد، أي: فتر. ومن هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم: من صلى البردين دخل الجنة، فسره أيضاً الخطابي قال: الغداة والعشي، قال: وهما الأبردان، وأنشد:

إذا الأرطى تسوّد أبرديه

البيت. وإنما قيل أبردان لطيب الهواء، وبرده في هذين الوقتين.

وقد جاء في حديث آخر: حافظ على العصرين، وفسره كذلك الغداة والعشيّ. وجاء في الحديث: إذا اشتدّ الحرّ فأبردوا عن الصلاة فإنّ شدّة الحرّ من فيح جهنم. ويقال: أبردت بريداً، إذا أرسلت رسولاً، ودار البريد مشهورة عند الأمراء، والبريد اثنا عشر ميلاً، وقد تقدّم. وتقول: بَرَدت الماء وبرّدت بالتثقيل والتخفيف لغتان. قال ثابت: وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحمى أنه أمرنا أن نبردها بالماء. والرجل مبرد وبارد وأنشد:

قد علمت أني مروّى هامها وبارد الغليل من أوامها

تقول العرب اسقني وأبرد، أي اسقني بارداً واسقني وأبرد غليلي، وأنشد:

هذا بردت ببرد الماء ظاهره فمن بحرّ على الأحشاء تتقد

وقد تقدم هذا البيت وما قبله وحكايته ومن قاله والحمد لله.

اقتنع أيها الولد بما ورد عليك في برد. وأزيدك فائدة أخرى أيها الحر في البرد الذي هو ضدّ الحرّ، وكلاهما من نفس جهنم أعاذنا الله منها. خرّج مسلم رضي الله عنه في باب الإبراد بالصلاة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إذا اشتدّ الحرّ فأبردوا بالصلاة فإن شدّة الحرّ من فيح جهنم. وفي حديث آخر: قالت النار: رب أكل بعضي بعضاً فأذن لي أتنفس، فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف، فما وجدتم من برد أو زمهرير فمن نفس جهنم، وما وجدتم من حرّ وحرور فمن نفس جهنم. وهذا لا يلقي له الإنسان بالاً بل يتكلم في شدّتهما بما يكون عليه وبالاً.

يروى أن رجلاً رُئي في النوم بعد موته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: أوقفني بين يديه وقال كلاماً فيه شدّة، ثم قال لي: قد غفرت لك يا شيخ السوء على فضول كان

فيك، كنت تقول: هذا يوم حارّ هذا يوم بارد، أمدبراً غير الإله تريدون؟ قال بعض العلماء: ينبغي للإنسان إذا رأى شدّة البرد والحرّ أن يتذكر جهنم فيتعوّذ بالله منها فتحصل له عبادة وربما يستجاب له، لأنه يروى أنه ما استعاذ أحد من جهنم إلا قالت: اللهم أعذه مني. تقدّم في الحديث فيح، وهو وهج النار وتوقدها، يقال: فاحت النار فيحاً، وفاح الطيب فوحاً.

أيام الأسبوع :

وتقدّم من هذا اللفظ دبار اسم ليلة الأربعاء، وللأيام أسماء غير هذه المشهورة وهي عند العرب مذكورة، وقد جمعها الشاعر:

أؤمل أن أعيش وأنّ يومي	بأوّل أو بأهون أو جبار
أو التالي دبار فإن أفته	فمونس أو عروبة أو شيار

فأوّل هو الأحد، وأهون يوم الاثنين، وامش على هذا السمت إلى شيار وهو يوم السبت. ومن عروبة قول الحريري في إحدى مقاماته يوم عروبة وقد كابدت الصعوبة. ومن لفظ دبر جمع دبرة ما جاء في الحديث أنّ أهل الجاهلية كانوا يرون العمرة في صفر من أفجر الفجور في الأرض، وكانوا يقولون: إذا برا الدبر وعفا الأثر وانسلخ صفر حلت العمرة لمن اعتمر. ومن الدبر قول سفيان الثوري رحمه الله وقال له رجل: مضى الناس فأصبحنا على حمير دبرة، فقال: ما أحسن حالها إن كانت على الطريق، خرّجه ثابت وقال: دبر ظهر الدابة من الدبر، وأدبر الرجل إذا رث، وبعير أدبر، قال: وسمعت رجلاً من الأعراب ينشد لغزاً:

فما راكب أبصرته فوق مركب	يحث إلينا ركضه وهو مدبر

وقول سفيان: ما أحسن حالها إن كانت على الطريق، يريد أن البطيء إذا كان على القصد يدرك باللاثي(*) غاية الجود المحقحق. وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: القصد والدوام، وأنت الجواد السابق. وجاء في الحديث أن المحقحق لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، يقال: حقحق في السير وهقهق، إذا سار سيراً متعباً، وقالوا: شر السير الحقحقة. وفي رواية: إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، وهو بمعناه، ولي من هذا المعنى قطعة مطوّلة انظرها بكمالها في كراسة الزهد من التكميل:

وأطع إلهك ما استطعت ولا تكن	في السير منبتاً ولكن فارفق
فالرفق زين والمعدّ لسيره	لا أرضه انقطعت ولا ظهر بقي

(*) اللاثي: البطيء.

فاطلب لنفسك فوزها وانظر لها … نظر الشفيق وخف عليها واتق
من ليس يرحم نفسه ويصدّها … عما سيهلكها فليس بمشفق

ذكر البدر

وقد تقدّم ذكر البدر. وفي صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم: يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، وليلة البدر وهي ليلة أربعة عشر، تسمي بذلك لامتلائه وتمامه، ومنه قيل: عين بدرة، أي عظيمة. قال امرؤ القيس:

وعين لها حدرة بدرة

البيت. وبدر اسم رجل احتفر بئر بدر فسميت به، كما سميت خيبر باسم رجل من العماليق نزلها. ووقع في كتاب البخاري: أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بخيبر بقدر فيه خضرات وبقول. وفي رواية: ببدر مكان قدر، وفسره في الطرة فقال: هو الطبق، فإن كان محفوظاً سمي به لاستدارته وتمامه كما تقدّم والله أعلم. وكل شيء تم فهو بدر، ولذلك قيل لعشرة آلاف بدرة لأنها تمام العدد ومنتهاه، قاله ابن قتيبة رحمه الله، وقال غيره: والبدر جلد السخلة إذا فطم، ويحتمل أن يدبغ هذا الجلد فيصير كيساً فتجعل فيه هذه العدّة من الدراهم، فسميت الدراهم به على مذهب العرب في تسميتهم الشيء باسم الشيء إذا كان بسببه أو مجاوراً له، كما سموا الغائط باسم الموضع المطمئن لقضاء ذلك فيه، وكما سموا المطر سماء لنزوله منها، إلى غير ذلك.

فائدة زائدة :

تقدّم كل شيء تم فهو بدر، قلت: وفي ضمن هذا الكلام موعظة لو تدر، وذلك أن كل شيء من النبات والحيوان وجميع الأمور الموجودة الأعيان، نعم حتى الإنسان إذا انتهى وتم أخذ في النقصان، ألم تسمع قول الشاعر:

كل شيء إذا تناهى تواهى … وانتقاص البدور عند التمام

وقال آخر:

إذا تمّ أمر بدا نقصه … فحاذر زوالاً إذا قيل تم

وقال آخر:

كأن الفتى يرقى من العمر سلماً … إلى أن يجوز الأربعين فينحط

وفي كتاب الدلائل لثابت رحمه الله: الشكوة مسك السخل إذا رضع، فإذا فطم، وفطامه أن يدع الرضاع، فمسكه يقال له البدرة، فإذا أجذع فجلده سقاء، وجمع السقاء أسقية، والسقاء للماء وهي القربة، وإذا بلي فهو الشنّ والشنة، ومنه: ثم قام إلى شن

معلق، جمعها شنان وشنات. ومنه قولهم: ولا يقعقع لي بالشنان.

شنّ وطبقة

ومنه المثل: وافق شنّ طبقه، وافقه فاعتنقه. قيل في تفسيره أقوال ذكرها الحريري رحمه الله، وذكر آخرها الرجل الذي ألزم نفسه أن لا يتزوّج إلا امرأة تلائمه، وكان اسمه شناً، فكان يجوب البلاد إلى أن صحب في طريقه الرجل الذي قال له شنّ: أتحملني أم أحملك، فقال له: يا جاهل وهل يحمل الراكب الراكب؟ ولما استقبلتهما الجنازة قال شنّ: أترى صاحبها حياً؟ فقال له: ما رأيت أجهل منك، أتراهم حملوا إلى القبر حياً؟ ولما أتيا على الزرع قال شنّ: أترى هذا الزرع قد أكل؟ فجهله كذلك أيضاً. ثم لما انتهيا إلى قرية الرجل جعل يحدّث ابنته بحديثه ويطرفها به وكان اسمها طبقة، فقالت له: ما نطق إلا بالصواب، أما قوله: أتحملني أم أحملك، فإنه أراد قطع الطريق بالحديث، وأما الجنازة فإنه أراد هل ترك بعده عقباً يحيى ذكره به، وأما الزرع فأراد هل استسلف أهله ثمنه أم لا. فأخبر الرجل بذلك شناً فخطبها إليه فتزوّجها فقيل: وافق شنّ طبقه. هذا معنى كلام الحريري رحمه الله، وشبيه بهذه القصة ما خرّج ثابت رحمه الله: ذكر بعض الناس أن امرأة يقال لها صدوق وكانت مفوّهة قالت: لا أتزوّج إلا من يردّ عليّ جوابي، فجاءها خاطب فوقف ببابها، فقالت: من أنت؟ قال: بشر ولد صغيراً ونشأ كبيراً، قالت: أين منزلك؟ قال: على بساط واسع وبلد شاسع، قريبه بعيد وبعيده قريب، قالت: ما اسمك؟ قال: من شاء أحدث اسماً ولم يكن ذلك عليه حتماً، قالت: كأنه لا حاجة لك، قال: لو لم تكن لي حاجة لم آتك لجاجة وأقف ببابك وأتصل بأسبابك، قالت: سرّ حاجتك أم جهر؟ قال: سرّ وستعلن، قالت: فأنت إذاً خاطب، قال: هو ذاك. قال: فرضيته فتزوّجها. ساق هذا الخبر شاهداً على أن الحتم إيجاب الأمر والقضاء. يقال: أمر واجب ومكتوب ومفروض ومحتوم، ومنه قيل للقاضي حاتم، فسر به حديث ابن مسعود رضي الله عنه: إني لأدع الأضحية وأنا من أيسركم كراهية أن يعلم الناس أنها حتم واجب. واشترى ابن عباس رضي الله عنهما لحماً بدرهم وقال: أعلم من لقيت أنها أضحية ابن عباس. قال ثابت: وجمع الحتم حتوم. قال: وفي كراهية ثلاث لغات: كراهية وكراهة وكراهين. قال: وقال أبو زيد: سمعت أعرابياً من بني تميم يقول: أتيتك كراهين أن تغضب، والعرب تسمي الغراب حاتماً لأنهم كانوا إذا رأوه حتموا بالفراق، كما قال المرقش:

ولقد غدوت وكنت لا ... أغدو على واق وحاتم

فإذا الأشائم كالأيا من والأيامن كالأشائم
وكذاك لا خير ولا شرّ على أحد بدائم
قد خط ذلك في الزبو ر الأوّليات القدائم

وكانوا يكتبون الحكم في الحجارة. وقيل: سمي الغراب حاتماً لسواده. والحاتم: الخالص السواد، والواقي: الصرد، على مثال القاضي. وقيل: هو الواقِ بكسر القاف من غير ياء، وإنما سمي بذلك لحكاية صوته.

النهي عن الطيرة

قلت: وهذا القول من هذا الشاعر قول مؤمن بالقدر مكذب بالطير لقوله عليه السلام: لا طيرة. وكانوا في الجاهلية يتطيرون بالبارح والسارح وبما طار لهم من جهة اليمين إلى الشمال ومن الشمال إلى اليمين، فهدم ذلك الإسلام ونهى عنه عليه السلام، فقال: أقروا الطير على مكناتها، ويروى: مكُناتها بضم الكاف، أي على أمكنتها، ويروى: وكناتها، أي على مواضعها فلا تزجروها ولا تلتفتوا إليها فإنها لا تضر ولا تنفع. وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن هذا من أمر الجاهلية وأن المسلم ربما وقع في نفسه من هذا شيء فعلم كيف المخرج منه، فقال صلى الله عليه وسلم: وإذا تطيّرت فامض، أي لا تلتفت إلى الذي وقع في نفسك، فإذا فعل هذا الإنسان فقد تحقق بالإيمان وسلم من الشيطان، وقد جاء في القرآن العزيز ذكر التطيّر في مواضع: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ [يس: ١٨]، ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ [يس: ١٩]، قال بعض أهل اللغة: الطير الاسم من التطيّر، ومنه قولهم: لا طير إلا طير الله، كما يقال: لا أمر إلا أمر الله. وأنشد الأصمعي قال: أنشدنا الأحمر:

ستعلم أنه لا طير إلا على متطيّر وهو الثبور
بلى شيء يوافق بعض شيء أحايينا وباطله كثير

وقال ابن السكيت: يقال طائر الله لا طائرك، ولا يقال طير الله. ويروى عن ابن جبير أنه قال: سأل كعب الأحبار عبد الله بن عمرو بن العاص فقال له: هل تتطيّر؟ قال: نعم، قال: فكيف تقول إذا تطيّرت؟ قال: أقول اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا رب غيرك ولا قوّة إلا بك. فقال كعب: أنت أفقه العرب وإنها لكذا في التوراة. قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، قد ترك ما يعلم وأكثر ما تأتي الطوام من قبل العوام وممن لا علم عنده يمرّ الطائر اليوم على الدار فيقول الرجل خير يا طير، وتزيد المرأة على ذلك أشياء من الكلام الجلف فهلا قالوا: خير يا الله، وأيّ خير أو شرّ عند الطائر،

لكن أين العالم وأين الموفق، وكثيراً ما أقول في مثل هذا: يا صاحبي يا صاحبي ليس الفلاح بسائب، والنحي والحمت للسمن والعسل، وجمعها حمت وأنحاء، ومنه المثل: أشغل من ذات النحيين، وذات النحيين امرأة من بني تيم الله بن ثعلبة اسمها خولة، كانت تبيع السمن في الجاهلية، وحديثها مشهور، وكان صاحبها خوات بن جبير رضي الله عنه، ومن شعره في ذلك:

فشدت على النحيين كفا بخيلة

البيت. وهذه الأخبار التي كانت في الجاهلية قد جنبها الإسلام فلا معنى لذكرها لولا فائدة في الإشارة إليها، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأله عنها وتبسم فقال: يا رسول الله قد رزق الله خيراً وأعوذ بالله من الحور بعد الكور. وسيأتي تفسير هذه اللفظة إن شاء الله.

خوات بن جبير

ويروى أيضاً أنه قال له: ما فعل بعيرك الشارد؟ قال: قيّده الإسلام يا رسول الله. وكان عليه السلام قد مرّ بخوات هذا وهو جالس إلى نسوة أعجبه حسنهن وذلك في الجاهلية أيضاً فسألهن أن يفتلن له قيداً لبعير زعم أنه شارد، فأعرض عنه وعنهن صلى الله عليه وسلم، فلما أسلم سأله عن ذلك، وتبسم صلى الله عليه وسلم.

وإذ وقع ذكر خوات هنا فأذكر لك من فضله ما أمكن: يكنى أبا عبد الله، وقيل أبا صالح وكان أحد فرسان رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان بدرياً، وقال عليه السلام: لن يلج النار أحد شهد بدراً والحديبية، وقيل: لم يشهد بدراً خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى بدر فلما بلغ الصفراء أصاب ساقه حجر فرجع إلى المدينة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فضرب له بسهمه، وكان شاعراً كما تقدم.

وخرج مرّة للحج مع عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجرّاح وعبد الرحمن بن عوف فقال له القوم: غننا من شعر ضرار، فقال عمر: دعوا أبا عبد الله فليغن من بنيات فؤاده، يعني من شعره قال فما زلت أغنيهم حتى كان السحر، فقال عمر: ارفع لسانك يا خوات فقد أسحرنا. ويشبه قول خوات للنبي عليه السلام: قيّده الإسلام يا رسول الله، قوله عليه الصلاة والسلام: الإسلام قيد الفتك.

وقريب من قصة خوات قصة أبي سهم واسمه يزيد بن أبي شيبة رضي الله عنهما قال: مرّت بي امرأة في بعض أزقة المدينة فأخذت بكشحها وجبذت خاصرتها، فأصبح الرسول عليه السلام يبايع الناس، فأتيته فمددت يدي لأبايعه، فقبض يده عني وقال لي:

ألست صاحب الجبذة بالأمس؟ فقلت: يا رسول الله بايعني فوالله لا أعود أبداً بعدها، فبايعني صلى الله عليه وسلم. والوطب للّبن وجمعه وطاب، ومنه:

ولــــو أدركـــــته صـــــفر الــــوطاب

والذراع للخمر وجمعه ذراوع. قال ابن قتيبة: واسم الزق يجمع ذلك كله. والإهاب: الجلد غير المدبوغ، ومنه الحديث: إذا دبغ الإهاب فقد طهر. وفي لفظ آخر: أيما إهاب دبغ فقد طهر. قال بعض العلماء: الإهاب كل جلد أكل لحمه. وقال النضر بن شميل: يقال فيه إهاب وإن لم يؤكل لحمه. واحتج بقول عائشة رضي الله عنها في أبي بكر رضي الله عنه: أقرّ الرؤوس على كواهلها وحقن الدماء في إهابها. ويقال له أيضاً مسك. وفي حديث آخر خرجه الدارقطني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا بأس بمسك الميتة إذا دبغ. وفي كتاب أبي داود قال النضر بن شميل: إنما سمي الإهاب ما لم يدبغ فإذا دبغ يقال له شن أو قربة. انتهى كلامه.

ويجمع على أهب مثل أدم وأفق وعمد على غير قياس جمع أديم وأفيق وعمود، والجمع أيضاً أهب بالضم وهو القياس، مثل كتاب وكتب، وجاء أهب بالضم في الحديث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: دخلت فسلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو متكئ على زمل حصير قد أثر في جنبه، وذكر الحديث، وفيه: فجلست فرفعت رأسي في البيت فوالله ما رأيت شيئاً يردّ البصر إلا أهباً ثلاثة، فقلت: ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك فقد وسع الله على فارس والروم وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالساً ثم قال: أفي شك أنت يا ابن الخطاب! أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا. فقلت: استغفر لي يا رسول الله. ووقع في هذا الحديث ذكر البيت والسرير. أما بيوته عليه الصلاة والسلام فكانت تسعة بعضها من جريد مطين بالطين وسقفها جريد وبعضها من حجارة مرضومة بعضها على بعض مسقفة كذلك بالجريد. وقال الحسن بن علي: كنت أدخل بيوت النبي صلى الله عليه وسلم وأنا غلام مراهق فأنال السقف بيدي، وكانت حجره عليه السلام أكيسة من شعر مربوطة من خشب عرعر، وكان سرير عائشة الذي ينام عليه النبي صلى الله عليه وسلم من خشبتي ساج منسوج بالليف، وعليه حمل أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه إلى قبره، حيث دفن في بيت عائشة إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبيع ذلك السرير في ميراثها في زمن بني أمية، فاشتراه رجل من موالي معاوية بأربعة آلاف درهم، فجعله للناس، قاله ابن قتيبة. ولما توفي أزواجه رضوان الله عليهنّ وسلامه عليه خلطت البيوت والحجر بالمسجد وذلك في زمن عبد الملك بن مروان، فلما ورد كتابه بذلك

ضجّ أهل المدينة بالبكاء كيوم وفاته عليه السلام.

وفي تاريخ البخاري أنّ بابه عليه السلام كان يقرع بالأظافر، أي لا حلق له. والميتة: الجلد في الدباغ. ومنه الحديث: وإذا هي تمعس ميتة لها. والأفيق: قال صاحب العين: الأديم والجمع أفق. وفي الحديث من هذا عن عمر بن الخطاب أيضاً في رواية من الحديث الأول: فنظرت ببصري في خزانة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، ومثلها قرظ في ناحية الغرفة، وإذا أفيق معلق، قال: فابتدرت عيناي، قال: ما يبكيك يا ابن الخطاب؟ قلت: يا نبيّ الله وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثّر في جنبك، وذكر الحديث.

وأفيق أيضاً: اسم موضع جاء منه في الحديث في شأن الدجال: ثم يسير حتى يأتي الشام فيهلكه الله عند عقبة أفيق.

فصل:

وتقدّم درب وأنه باب السكة الواسعة والمدخل إلى بلاد الروم. ومنه قول امرئ القيس:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه

البيت. وفي الدلائل قال الأصمعي: أنشدنا شعبة بن الحجاج:

تذكرت ليلى ودّها وصفاءها ... فأحبب بها لو أستطيع لقاءها
ضربت ابن عبد الله ضربة ثائر ... لها سبب لولا الشعاع أضاءها
ملكت بها كفي فأنهرت فتقها ... ترى قائماً من دونها ما وراءها

قال: ثم كشر شعبة وقال: ليس هذه طعنة إنما هي سبب في جنبه درب. قال الأصمعي هذا من الإفراط، لو كان هذار وزنة ما زاد، قال: ومثله قول النابغة:

يجذ السلوقي المضاعف نسجه ... ويوقد بالصفاح نار الحباحب

يصف السيف أنه يقطع الدرع ولابسه وينتهي إلى الأرض، ويصادف الحجر فيطير منه الشرار. وتقدم ذكر درب، وجاء منه في الحديث الذي أرويه عن الحافظ رحمه الله بالسند المتصل إلى حذيفة رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله إن في لساني ذرباً على أهلي وقد خشيت أن يدخلني النار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأين أنت من الاستغفار؟ إني لأستغفر الله عز وجل في كل يوم مائة مرة.

ومن الذرب قول الأعشى المازني واسمه عبد الله بن الأعور، وشكى امرأته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:

يـا مالـك الـناس وديـان العـرب إنـي لقـيت ذربـة مـن الـذرب
كالذئبة العبساء فـي ظـل الـدرب خـرجت أبغـيها الطعـام فـي رجـب
فخلفتنـي بنـزاع وحـرب أخلفـت الـوعد ولطـت بالـرتب
وهـن شـرّ غالـب لمـن غلـب

ويروى أنه أنشده: يا مالك الملك، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: مه ذلك الله.

ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما أنشد قوله:

وهـن لمـن غلـب شـرّ غالـب

فيقول من حضر: أشهد أنك رسول الله، لقوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ [يس: ٦٩]. وتقدّم ذكر دثر، والدثار ما يكون فوق الشعار، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: الأنصار شعار والناس دثار، والشعار من الثياب ما يلصق بجلد الإنسان، والدثار ما يكون فوقه، يريد والله أعلم أن الأنصار ألصق بي وأمسّ من غيرهم، وهذا مثل، والله أعلم.

ومن الشعار قول النبي صلى الله عليه وسلم إذ ألقى حقوه إلى النساء اللاتي كن يغسلن ابنته وقال: أشعرنها إياه، يريد اجعلنه مما يلي الجسد لتنالها بركته صلى الله عليه وسلم. والحقو: الإزار. ويقال: القوم أهل دثر، أي: كثرة مال. ومن الدثار قول النبي صلى الله عليه وسلم إذ فجأه الوحي وارتاع لذلك: دثروني دثروني، وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ [المدثر: ١]، ومثله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ [المزمل: ١]، أصله المتدثر والمتزمل، وينظر هذا إلى قوله عليه الصلاة والسلام: أنا النذير العريان، كأنه يقول: كره لي أن أتدثر وأمرت بالإنذار فها أنا قد تجردت لذلك فأنا النذير العريان، والله أعلم بما أراد من ذلك. وقد فسر النذير العريان بغير هذا، قيل: هو الذي جرده العدوّ فأقبل عرياناً ينذر به، فهو أدلّ شيء على صحة قوله، وقيل: هو الذي يجرد ثوبه ويشير به مع صياحه وإنذاره بالعدوّ، والله أعلم.

وتقدم أيضاً ثرد من الثريد، قال الشاعر:

عمـرو الـذي هشم الثريد لقـومه ورجـال مكـة مسـنتون عجـاف

وعمرو هذا هو هاشم بن عبد مناف والد عبد المطلب جدّ النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما سمي هاشماً لهشمه الثريد كما ذكر الشاعر، ومعنى مسنتين مجدبين أصابتهم السنة، وهو القحط، وعجاف معناه ضعفاء مهزولون.

فضل عائشة

وجاء ذكر الثريد في الحديث حين ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء ثم قال: وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام. قال بعض العلماء: إنما يريد بذلك أنها تزيد على سائرهن بالعلم وهو الفضل وهو الزيادة والربع، والثريد في الربع الثالث، وذلك أنك تأخذ مدًّا من طعام فتطحنه فيصير أكثر من مدّ إذا كلته ثم تعجنه فيزيد ربعاً ثانياً، ثم تثرده فيزيد ربعاً ثالثاً وينتهي، فبذلك أراد النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: كفضل الثريد، والله ورسوله أعلم. وكذلك عائشة رضي الله عنها كانت أعلم أزواجه عليه السلام بسيره وأخباره.

وجاء عنها حديث كثير وعلم كبير، روت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألفين ومائتي حديث وعشرة أحاديث رضي الله عنها. وكان مسروق رضي الله عنه إذا حدّث عنها يقول: حدّثتني الصادقة ابنة الصدّيق البريئة المبرّأة بكذا وكذا. وقال هشام بن عروة عن أبيه: ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة، ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً، حتى يروى أنها دخلت على أبيها أبي بكر رضي الله عنه وهو في الموت فأنشدت:

وإذا المنية أنشبت أظفارها   ألفيت كل تميمة لا تنفع

فقال لها رضي الله عنه: يا بنية لا تقولي هذا ولكن قولي: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق: ١٩].

وقال الزهري: لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وجميع النساء لكان علم عائشة أفضل. وكانت رضي الله عنها يقال فيها رحلة الرأي، وكانت تكنى أم عبد الله، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قالت له: كل صواحبي لهن كنى غيري: تكني بابن أختك عبد الله بن الزبير، ويروى بابنك لأنها كانت قد استوهبته من أبويه، وكان في حجرها وعدّها أمًّا.

يروى عنها رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله وكنت أعزل، قالت: فنظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتوقد نوراً، قالت: فبهت فنظر إليّ وقال: ما لك؟ فقلت: يا رسول الله نظرت إليك فجعل جبينك يعرق وجعل عرقك يتوقد نوراً، فلو رآك أبو كبير الهذلي لعلم أنك أحق بشعره، قال: وما يقول يا عائشة أبو كبير الهذلي؟ قالت: يقول:

ومبرأ من كل غبر حيضة   وفساد مرضعة وداء مغيل

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

قالت: فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان في يده وقام إليّ فقبّل ما بين عيني وقال: جزاك الله يا عائشة خيراً ما سررت مني كسروري منك. وقال عروة لعائشة: وا أختاه لا أعجب من فقهك أقول زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم وابنة أبي بكر، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس أقول ابنة أبي بكر كان أعلم الناس، ولكن أعجب من علمك بالطب كيف هو ومن أين هو وما هو؟ قال: فضربت على منكبي وقالت: أي عروة إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسقم في آخر عمره فكانت تقدم عليه الوفود من كل وجه فتنعت له وكنت أعالجه فمن ثمّ.

وروى هشام بن عروة عن أبيه قال: ما رأيت أحداً من الناس أعلم بالقرآن ولا بفريضة ولا بحلال ولا بحرام ولا بشعر ولا بحديث العرب ولا بنسب من عائشة رضي الله عنها.

رجع الكلام إلى الثريد:

يا أيها الرجل المريد وقع ذكر الثريد في جامع معمر بزيادة فائدة عن قتادة وأبان يرفعه، فقال فيه: كفضل الثريد باللحم. ذكره الأستاذ رحمه الله وقال: وجه التفضيل من هذا الحديث أنه قال في حديث آخر: سيد أدم الدنيا والآخرة اللحم، مع أنّ الثريد إذا أطلق لفظه فهو ثريد اللحم، أنشد سيبويه:

إذا ما الخبز تأدمه بلحم فذاك أمانة الله الثريد

ومن الثريد المتقدم الذكر ما ذكره ثابت في حديث شريح القاضي رحمه الله: ذهب رجل إلى منزله برجل فأطعمه ثريداً وتمراً وزبداً ثم راح به إلى شريح فقال: اشهد لي، فتقدّم الرجل، فقال له شريح: بم تشهد؟ فقال:

شهدت بأنّ التمر والزبد طيب وأنّ الثريد الأنبجاني صالح

فقال شريح: وأنا أشهد، فلم يزل يرددها عليه حتى فطن شريح فقال: اطلبوا الرجل، فطلب فلم يوجد، وفسر ثابت الأنبجاني الذي قد روي من الودك، وقيل هو العجين الحامض. قال: ولم يأت في الكلام على أفعلان إلا الأنبجان وأرونان. ووقع في الحديث من هذا اللفظ أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ من أبي جهم أنبجانية له، رواه الزهري: أنبجانيه، بالتذكير، والأنبجاني كساء صوف غليظ لا علم فيه، يقال: كساء أنبجاني، فعلى هذا لا يؤنث إلا أن يكون أراد خميصة. وقال ابن قتيبة: إنما هو كساء منبجاني بفتح الباء، قال: ولا يقال منبجاني لأنه منسوب إلى منبج وفتحت باؤه في النسب لأنه خرج مخرج منظراني ومخبراني. وقال ثعلب: الأنبجاني، بفتح الباء

وكسرها: كل ما كثف والتف، قالوا: شاة أنبجانية أي كثيرة الصوف. وقال غير ابن قتيبة: جائز أن يقال أنبجاني كما جاء في الحديث لأنه رواية عرب فصحاء. ومن النسب ما لا يجري على قياس وإنما هو مسموع، هذا لو صح أنه منسوب إلى منبج. قلت: وقول الشاهد لشريح: شهدت بأنّ التمر والزبد طيّب، هو من التعريض الممدوح القائم عند اللقن الفطن مقام التصريح. ومنه في الكلام كثير، وكذلك في الشعر، فمن ذلك ما قاله العرب لقوم منهم قتل أبوهم فلم يطلبوا دمه ورضوا بأخذ الدية، فقال يعيّرهم بذلك وكانوا أخذوا ديته تمراً:

ألا أبلغ أبا وهب رسولاً ... بأنّ التمر حلو في الشتاء

وقيل لآخر في مثل ذلك وكان أخذ في دية أبيه إبلاً:

إذا صبّ ما في الوطب فاعلم بأنه ... دم الشيخ فاشرب من دم الشيخ أو دع

يقول: إنّ الذي تشربه من ألبان الإبل التي أخذتها في الدية إنما هو دم أبيك. وقال آخر في ضدّ هذا وأنه لم يرض بأخذ الدية:

لا يشربون دماءهم بأكفهم ... إن الدماء الغاليات تكال

يقول: لسنا من القوم الذين يقبلون الدية فيشربون ألبان الإبل، فإذا شربوها فكأنهم شربوا دماء أوليائهم. والدماء الغاليات تكال، أي: يسفك بها أمثالها. وقال آخر في مثل ذلك:

وظلّ يضوز التمر والتمر نافع ... بورد كلون الأرجوان سبائبه

يقول: أخذ الخمر في الدية بدلاً عن الدم الذي كان لونه كالأرجوان. يقال: ضاز التمرة يضوزها ضوزاً، إذا لاكها في فيه. ويقال أيضاً: ضازه يضيزه حقه، إذا بخسه، وضاز: جار في الحكم، ومنه قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٢] أي: جائرة، وهي فعلى مثل طوبى وحبلى، وإنما كسروا الضاد لأنه ليس في الكلام فعلى صفة وإنما هو من بناء الأسماء كالشعرى والدفلى. قال الفرّاء: وبعض العرب يقول: ضأزي وضؤزي.

وحكى أبو حاتم أنه سمع العرب تهمز ضيزى، وسيأتي الكلام على طوبى في باب اللام إن شاء الله.

وأختم لك هذا البويب بخبر أبي ذؤيب الشاعر، تقدّم في هذا الشعر البيت الذي قال فيه الأصمعي: أنزع بيت قالته العرب بيت أبي ذؤيب:

والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا تردّ إلى قليل تقنع

وهذا البيت ذكره ابن البستي في كتاب القناعة وقرأته على الحافظ السلفي رحمه

الله، وفي هذا الشعر حكم وفوائد وأوّله:

أمن المنون وريبها تتوجع ... والدهر ليس بمعتب من يجزع
قالت أمامة ما لِجسمك شاحباً ... منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع
أوَما لِجنبك لا يلائم مضجعاً ... إلا أقضّ عليك ذاك المضجع
فأجبتها أن ما لِجسمي أنه ... أودى بنيّ من البلاد فودّعوا
أودى بنيّ فودّعوني حسرة ... بعد الرقاد وعبرة ما تقلع
فالعين بعدهم كأنّ حداقها ... سملت بشوك فهي عبرى تدمع
سبقوا هواي وأعنقوا لهواهم ... فتمزقوا ولكل جنب مصرع
وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفع

في أبيات كثيرة يرثي بها بنيه وكانوا خمسة أصيبوا في عام واحد، وكان مسلماً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يره، كان يحدث قال: بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليل، فاستشعرت حزناً وبت بأطول ليلة لا ينجاب ديجورها ولا يطلع نورها، فظللت أقاسي طولها، حتى إذا كان قرب السحر أغفيت فهتف بي هاتف وهو يقول:

خطب أجل أناخ بالإسلام ... بين النخيل ومعقد الآطام
قبض النبي محمد فعيوننا ... تذري الدموع عليه بالتسجام

قال أبو ذؤيب: فوثبت من نومي فزعاً فنظرت إلى السماء فلم أر إلا سعد الذابح، فتفاءلت به ذبحاً يقع في العرب، وعلمت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قبض أو هو ميت من علته، فركبت ناقتي وسرت حتى قدمت المدينة ولها ضجيج بالبكاء كضجيج الحجيج إذا أهلوا بالإحرام، فقلت: مه، قالوا: قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجئت إلى المسجد فوجدته خالياً، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدت بابه مرتجاً وقد خلا به أهله، فقلت: أين الناس، فقيل: بسقيفة بني ساعدة، فأويت إلى قريش، وتكلمت الأنصار، فأطالوا الخطاب وأكثروا الصواب، فتكلم أبو بكر فلله دره من رجل لا يطيل الكلام ويعلم مواضع فصل الخصام، والله لقد تكلم بكلام لا يسمعه سامع إلا انقاد له ومال إليه، ثم تكلم عمر بعده بدون كلامه، ومدّ يده فبايعه وبايعوه، ورجع أبو بكر ورجعت معه، ورثى النبي صلى الله عليه وسلم في أبيات حسان نفعه الله، ثم انصرف إلى باديته فأقام فيها حتى خرج غازياً إلى أرض الروم فمات بها مجاهداً، وقال عند موته رضي الله عنه:

أبا عبيد رفع الكتاب ... واقترب الموعد والحساب

في أبيات له رحمه الله تعالى.

قلت: هذا ما أمكنني كتبه أيها السيد الغمر من باب زيد أطال الله لك العمر، فلنأخذ في باب عمرو.

حكمة زيادة واو عمرو

تكلم العلماء في إلحاق الواو به دون عمر، وجعلوا العلة فيه الفرق، وخصوه بالزيادة لخفته، قالوا: وفيه زيادة لا شك، ولي في هذا المعنى وقد حصرت الياء والراء في شعر أوّله:

لـي خلـيل ألـزمت نفـسي هـواه … كالتزامـي للكـسر فـي راء جيـر
وأنـا مـثل واو عمـرو لديـه … زائـداً أو كمـثل يـاء زهيـر
أو كـأن بعـد مـا وإن بعـد لمـا … مقبلـي عـنده سـواء وسـيري
عجـباً لـي أنـا بـه مـستهام … وهـو لاهٍ عنّـي ولـوع بغيـري
أنـا راضٍ مـنه إذا قلـت يـوماً … كـيف أصـبحت أن يقـول بخيـر

في أبيات كثيرة انظرها في التكميل.

رجع الكلام إلى عمرو:

تقدّم أنه بغير واو: واحد عمور الأسنان وفسر، وجاء منه في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في شأن السواك: ما زال جبريل يوصيني به حتى خشيت على عموري.

وفي حديث آخر: لقد أمرت بالسواك حتى خشيت إن يدردني، الدرد: أن تسقط أصول الأسنان، وبه سمي الرجل أدرد. وفي الصحابة أبو الدرداء وأم الدرداء رضي الله عنهما، وسيأتي بعد هذا منه طرف فيه طرف في باب الواو من هذا الكتاب إن شاء الله.

والسواك مرغب فيه وحسبك أن الرسول عليه السلام قال: لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء. وروى البزار في حديثه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: فضل الصلاة بالسواك على الصلاة بغير سواك سبعين ضعفاً. وجاء أن في السواك عشر خصال: مطهرة للفم ومرضاة للرب ومسخطة للشيطان ومكسبة للحفظ ويشدّ اللثة ويطيب النكهة في الفم ويقطع البلغم ويصفي المرة ويجلو البصر ويوافق السنة. خرجه البزار من طريق عائشة رضي الله عنها.

وخرج أيضاً من طريق علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أن العبد إذا تسوّك ثم قام يصلي قام الملك خلفه فيسمع لقراءته فيدنو منه، أو كلمة

نحوها، حتى يضع فاه على فيه، فما يخرج من فيه شيء إلا صار في جوف الملك، فطهروا أفواهكم للقرآن. وقال في آخر الحديث وقد روي موقوفاً عن علي رضي الله عنه.

وفي الشهاب: السواك يزيد الرجل فصاحة، وفسّره وحشي فقال: يريد أن من استاك لم يكن في أسنانه قلح فهو يتكلم بما عنده ولا يضم شفتيه كما يصنع من بأسنانه القلح، والله أعلم. والسواك بكل عود له رائحة طيبة مما يشوص الفم، وأعلاها الأراك. وقد تقدّم أن ابن أبي ليلى كان يستاك بالعسيب، دلّني بعض أشياخي رحمه الله على هذا العود الأخضر من شجر السرو وقال: إنه يطيب الفم ويشدّ اللثة، وقال: يستاك بكل عود ما خلا القصب والريحان والرمان والحلفاء. قال: ومواطنه أربعة: عند الفراغ من الوضوء، وعند الفراغ من الطعام، وعند القيام من النوم، وعند القيام إلى الصلاة، وهو مستحب لا فرض وليس بالطول لكن بالعرض. جاء في الحديث: إذا استكتم فاستاكوا عرضاً ولاء. وجاء في الحديث عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يرقد من ليل ولا نهار فيستيقظ إلا تسوّك قبل أن يتوضأ.

مبحث لعمرك :

وفي القرآن العزيز من هذه اللفظة: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٧٢]. قال المهدوي: العمر والعمر واحد إلا أنه لا يستعمل في القسم إلا بالفتح ومعناه مدّة بقائه حياً، فإذا قيل لأحد من المخلوقين لعمرك، فإنما معناه مدّة بقائه حياً، وكره كثير من العلماء أن يقول الإنسان: لعمري، لأن معناه وحياتي، وكذلك قال ابن عباس: معنى لعمرك، وحياتك. وهذا من فضائل النبي عليه السلام التي اختص بها فأقسم الباري جل وعز بحياته. انتهى كلامه.

ومن كتاب عياض رحمه الله تعالى قال ابن عباس: ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره. قال أبو الجوزاء: ما أقسم الله بحياة أحد غير محمد صلى الله عليه وسلم لأنه أكرم البرية عنده. وقيل معنى لعمرك أصله ضم العين، ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال، وهو بمعنى: وبقائك يا محمد، وقيل: وعيشك، وقيل: وحياتك.

تقدم في هذا الفصل: وكره كثير من العلماء أن يقول الإنسان لعمري، وكذلك هو، وممن كرهه مالك إمامنا رحمه الله تعالى، ولكن مع ذلك فإن الناس لا يتركون استعمالها في كتبهم، ولم أر فيها رخصة أكثر من قول ابن عباس رضي الله عنهما في جواب ابن الأزرق قال له: وكتبت إليّ تسألني متى ينقضي يتم اليتيم؟ فلعمري إن

الرجل لتثبت لحيته وإنه لضعيف الأخذ بنفسه ضعيف العطاء منها، فإذا أخذ لنفسه من صالح ما يأخذ الناس فقد ذهب عنه اليتم، فقال في هذا الخبر: فلعمري، وهذا كما تراه وتركه أحوط كما تقدم لي:

وقد يلام الفتى في الشيء يأخذه ... وليس يلحقه لوم إذا تركه

معنى الدرد والأشر

وتقدّم ذكر الدرد، ودونك منه هنا نتف فاقنع بها واكتف. قال ثابت في تفسير الدرد: يقال للصبي قبل أن تنبت أسنانه: وهو يمضغ على درده. ويقال للشيخ: ما بقي إلا درده، وهي مغارز الأسنان. وفي مثل: أعييتني بأشر فكيف بدردر، وذلك أن عجوزاً كانت سقطت أسنانها فجعلت تغازل زوجها، فقال: أعييتني بأشر، أي وأنت شابة وأسنانك مؤشرة للحداثة، فكيف وقد سقطت أسنانك كلها. انتهى كلامه. والأشر تحديد في أطراف الأسنان، ولا يكون ذلك إلا في زمن الحداثة، ومنه المنشار الذي يؤشر به العود، قال الشاعر:

بدلته الشمس من منبته ... برداً أبيض مصقول الأشر

ومعنى بدلته الشمس: أن أهل الجاهلية كان الحدث منهم إذا قلع ضرسه رمى به إلى الشمس وقال: يا شمس أعطيتك سناً من عظم فأعطيني سناً من فضة. قلت: وقد بقي هذا المعنى عند الناس الجهال إلى اليوم، تقول أم الصبي لولدها إذا قلع سنه: ارم به على السقف وقل: يا فار يا فار خذ بالياً وأعطني جديداً، فهلا قالت يا الله.

ويقال: إن قائل أعييتني بأشر فكيف بدردر، هو زوج دغنة التي يضرب بها المثل في الحمق، فيقال: أحمق من دغنة، رأت زوجها يقبل ابنة له منها ويقول: بأبي دردرك، فذهبت ودقت أسنانها بفهر ثم جاءت وقالت له: كيف ترى دردري؟ فقال: أعييتني بأشر فكيف بدردر أي إنما كان أحسن شيء فيك أسنانك وكنت مع ذلك غير حظية عندي، فكيف إذا فسد أحسن شيء فيك؟ ويقال: إنما قالها حين سقطت أسنانها من الكبر.

سيل العرم

وتقدّم العرم وإنه اسم لكذا وكذا، وقال البخاري رحمه الله: العرم ماء أحمر حفر في الأرض حتى ارتفعت عنه الجنتان فلم يسقهما فيبستا، وليس الماء الأحمر من السدّ ولكنه كان عذاباً أرسل إليهم. انتهى كلام البخاري رحمه الله. قال المسعودي: كان هذا

السدّ من بناء سبأ ابن يشجب، وكان ساق إليه سبعين وادياً ومات قبل أن يستتمه فأتمته ملوك حمير بعده. وقال المسعودي أيضاً: ويقال بناه لقمان بن عاد وجعله فرسخاً في فرسخ وجعل له ثلاثين شعباً.

فصل:

وتقدّم من مقلوب عمر مرع، يقال: امرع القوم، إذا أصابوا الكلأ. وأذكر هنا حكاية فيها لفظ أمرع من كلام الخطيب أبي محمد أغرب فيه وأبدع، كنت أقرأ عليه زمن الحداثة فذكر له أني أزن الشعر، فاختبرني بكلام هذا نصه:

أدام الله عزّك إن بيني، وبينك ما شددت عليه من بعد بينك راحتي ويحق ذاكم، علينا فاعلموا من ودّ أمرع، نباته واخضرّ والحمد لله. وقال لي: أخرج من هذا الكلام بيتين تامين، فقلت له: هذا الشعر من الوافر، وآخر البيت الأوّل حرف العين من بعد، وأوّل الآخر حرف الدال من بعد، وآخره أمرع. فقال: أحسنت. وصنع غير ذلك، فأخرجت بعضه حتى فتح الله. ونقل إلى حالة أخرى حسنة والحمد لله. وهذه الحكاية وغيرها في التكميل.

وتقدّم ذكر الغمر وأنه الماء الكثير. وفي الحديث منه: إنما مثل الصلاة كمثل نهر عذب غمر بباب أحدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات، فما ترون ذلك يبقي من درنه. تكلم بعض العلماء على هذا الحديث فقال: الماء العذب يزيل الدرن وينقي أكثر من غيره من المياه. وقوله: بباب أحدكم، إشارة إلى أن الصلاة تكون خارج المنزل في المساجد، لقوله: بباب أحدكم، ولم يقل في منزل أحدكم، وفيه أن الصلوات يمحو الله بها الخطايا. كما جاء في موضع آخر: وانتظار الصلاة بعد الصلاة، الحديث.

وتقدّم ذكر الغَمَر، بفتح الغين والميم، وقد جاء في الحديث منه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الشيطان حساس لحاس فاحذروه على أنفسكم، من بات وفي يده ريح غمر فلا يلومنّ إلا نفسه. وذكر ثابت في الدلائل عن عائشة رضي الله عنها أن امرأة أتت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقرّب إليه لحم، فجعل يناولها، فقالت له عائشة: يا رسول الله لا تغمر يدك، فقال: يا عائشة إن هذه كانت تأتينا زمن خديجة وإن حسن العهد من الإيمان. ومثل هذا الحديث: إن حسن العهد من الإيمان، حديث حسانة المزنية وكان اسمها جثامة، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل أنت حسانة. قالت عائشة رضي الله عنها: جاءت عجوز إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها: من أنت؟ قالت: أنا جثامة المزنية، فقال: بل أنت حسانة المزنية، كيف حالكم، كيف كنتم بعدنا؟ قالت: بخير، بأبي أنت وأمي يا رسول الله. فلما خرجت

قلت: يا رسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال! قال: إنها كانت تأتينا أيام خديجة رضي الله عنها، وإن حسن العهد من الإيمان. وروى أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أهديت إليه هدية قال: اذهبوا ببعضها إلى فلانة فإنها كانت صديقة لخديجة، أو أنها كانت تحب خديجة. وقول عائشة في الحديث الأوّل: لا تغمر يدك، فهو من غمر اللحم وهو السهك. وقال قال ابن الزبير: كل ما كان من ذات كرش فهو غمر، وكل ما ما كان من ذات عفج فهو زهم، وكل ما كان من الأرض فهو دسم، ومن الحديد والصفر فهو الصمر. وذكر الخطابي رحمه الله هذا الباب فأشبع القول فيه، قال في شرح حديث النبي صلى الله عليه وسلم في الاستسقاء: فلما رأى لثق الثياب على الناس ضحك حتى بدت نواجذه. اللثق: الوحل. ثم قال تقول العرب: يدي من الوحل لثقة، ومن اللحم غمرة، ومن السمك وضرة، ومن اللبن والزبدة شترة، ومن العجين ورخة، ومن الدم سلطة، ومن الثريد ثردة، ومن الحمأة ذوطة، ومن الأشنان فضفضة بالضادين، ومن المداد وحرة، ومن الماء بللة، ومن البزر والنفط نمسة ونسمة، ومن الزعفران ردعة، ومن العطر عبقة. وقال ابن قتيبة: يدي من السمك سهكة، ومن الحديد كذلك، ويدي من اللحم غمرة وزهمة، ومن الزبد واللبن وضرة، وأنشد:

أباريق لم يعلق بها وضر الزبد

وهذا الشعر لأبي الهندي، وأوّله:

سيغنى أبا الهندي من وطب سالم ... أباريق لم يعلق بها وضر الزبد
مقدّمة قزاً كأنّ رقابها ... رقاب بنات الماء تفزع للرعد

وهذا من حسن التشبيه.

كان أبو الهندي هذا مولعاً بالشراب ثم إنه أقلع عن ذلك وتاب، وقال:

تركت الخمور لشرّابها ... وأقبلت أشرب ماء قراحا
وقد كنت حيناً بها معجباً ... كحب الغلام الفتاة الرداحا
فلم يبق في الصدر من حبها ... خلال إذا ذكرت قلت آحا

في أبيات له رحمه الله.

وتقدّم الغامر الذي يرمي بنفسه في الغمرة، وجاء من هذه اللفظة في الحديث عن البخاري عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كنت جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل أبو بكر رضي الله عنه آخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أما صاحبكم فقد غامر فسلم، وقال: إني كان بيني وبين ابن

الخطاب شيء ثم ندمت فأسرعت إليه فسألته أن يغفر لي فأبى عليّ، فأقبلت إليه فقال: يغفر الله لك يا أبا بكر ثلاثاً، ثم إن عمر ندم فأتى منزل أبي بكر فقال: أثم أبو بكر؟ قالوا: لا، فأتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسلم، فجعل وجه النبي يتمعر، حتى أشفق أبو بكر، فجثا على ركبتيه وقال: يا رسول الله أنا كنت أظلم مرتين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت، وواساني بنفسه، فهل أنتم تاركون لي صاحبي مرتين؟ فما أوذي بعدها. قلت: انظر فعل أبي بكر رضي الله عنه حين أتى النبي صلى الله عليه وسلم استعمل قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ ﴾ [النساء: ٦٤] الآية فكان ذلك كذلك.

ذكر الأواني

وتقدّم ذكر الغُمر بضم الغين في الحديث، منه قول النبي صلى الله عليه وسلم: أطلقوا لي غمري، ويروى: هلموا غمري، وهو القدح الصغير كما تقدّم. وقال الشاعر:

تكفيه حزة فلذات ألم بها ... من السواد يروّي شربة الغمر

أخذ من التغمير وهو الشرب دون الري، وكذلك التغمر أقل الشرب. وقال ابن الأعرابي: أوّل الأقداح الغمر، وهو الذي لا يبلغ الري، ثم القعب وهو قدر ما يروي الرجل، ثم القدح وهو يروي الاثنين والثلاثة، ثم العس: قعب فيه العروة، ثم الرفد أكبر منه، ثم الصحن أكبر منهما.

قال الشاعر:

ألا هبي بصحنك فاصبحينا

والعلبة كالقدح الضخم يحلب فيها، قال الشاعر:

ولم تسق دعد في العلب

ثم أكبر منها الجفنة تعمل من جلد البعير، ثم الحوباة: دلو واسعة ضخمة، قال أبو زيد: كل إناء يدعى مهدي مثل الجفنة والقصعة والقدح. والفرق: إناء يسع ثلاثة آصع، والصاع أربعة أمداد، والمدّ رطل وثلث بالبغدادي، والوسق ستون صاعاً، وسيأتي ذكر ذلك مع الأوقية والدرهم والمثقال في باب القاف والفاء إن شاء الله تعالى. ولم يفرق في هذا الكتاب بين الجفنة والقصعة، وقد فرق بينهما بعض أهل اللغة، قال الكسائي: أعظم القصاع الجفنة ثم القصعة تليها تشبع العشرة، ثم الصحفة تشبع الخمسة، ثم المكيلة تشبع الرجلين والثلاثة، ثم الصحيفة تشبع الرجل، وتقدّم ذكر

الرفد، قال الأصمعي: الرَّفد بفتح الراء مصدر رفدته، والرِّفد بالكسر القدح. وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى بضدّ ذلك. قال ابن السيد رحمه الله: وعدل القوم بينهما الرَّفد بالفتح المصدر، وبالكسر الاسم، وأما القدح فيقال فيه رَفد ورِفد بالفتح والكسر، وتقدّم ذكر القدح، وقال بعض أهل اللغة: لا يقال فيه قدح حتى يكون فيه ماء أو غيره، وأما إذا كان فارغاً فيقال فيه: إناء، وتقدّم أنه يروي الاثنين وأنه لا يقال فيه إناء إلا إذا كان فارغاً، وهذا كما تراه، وجاء في الحديث ذكر القدح مفسراً، خرّج مسلم رحمه الله عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغتسل من القدح وهو الفرق، وكنت أغتسل أنا وهو من الإناء الواحد. قال سفيان: الفرق ثلاثة آصع. انتهى كلامه. والبيت الذي تقدّم:

تكفيه حزة فلذات ألم بها

هو لأعشى باهلة يرثي المنتشر من قصيدة له أوّلها:

إني أتتني لسان لا أُسَرُّ بها ... من علو لا عجب منها ولا سخر
فبت مرتقباً للنجم أرقبه ... حيران ذا حذر لو ينفع الحذر
وجاشت النفس لما جاء جمعهم ... وراكب جاء من تثليث معتمر
يأتي على الناس لا يلوي على أحد ... حتى التقينا وكانت دوننا مضر
بنعي من لا يعيب الحي جفنته ... إذا الكواكب أخطأ نوأها المطر
من ليس في خيره شر يكدّره ... على الصديق ولا في صفوه كدر
ولا يباري لما في القدر يرقبه ... ولا تراه أمام القوم يعتفر
لا يغمز الساق من أين ولا وصب ... ولا يعض على شرسوفه الصفر

والصفر: دواب البطن، وقوله: من علو، يروى بضم العين وفتحها وكسرها، أي: من أعلى.

مبحث الغرام

وتقدّم من مقلوب هذه اللفظة: الغرام. قال ابن عزيز في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥] هلاكاً، ويقال: ملحاً، ويقال: عذاباً ملازماً، ومنه: فلان مغرم بالنساء، إذا كان يحبهن ويلازمهن، ومنه الغريم الذي عليه الدين لأن الدين لازم له. يقال: خذ من غريم السوء ما سنح. والغريم أيضاً الذي له الدين لأنه يلزم الذي له عليه الدين. قال كثير:

قضى كل ذي دين فوفى غريمه ... وعزة ممطول معنى غريمها

وقال الحسن رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٥] كل غريم مفارق لغريمه إلا النار أعاذنا الله تعالى منها. والغرامة ما يلزم الإنسان أداؤه، وكذلك الغرم والمغرم، وأغرمته وغرمته بمعنى واحد.

وتقدّم أيضاً من مقلوبها: رغم أنفه، إذا ذلّ، وأرغم الله أنفه، ومن دعاء العرب: رغماً دغماً شنفاً، فسره أبو الحسن رحمه الله: رغماً أي رغم الله أنفه، ودغماً مثله، وشنفاً توكيد، انظره في الذيل.

وفي الحديث من هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذر رضي الله تعالى عنه: ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق، ثلاثاً، ثم قال في الرابعة: على رغم أنف أبي ذر، قال: فخرج أبو ذرّ وهو يقول: وإن رغم أنف أبي ذرّ. وقد تكلم الناس على هذا الحديث وفسروه منهم البخاري خرّج هذا الحديث وقال في آخره: هذا عند الموت أو قبله إذا تاب وندم وقال لا إله إلا الله غفر الله له. انتهى كلامه.

قلت: والذي عليه أولو العزم وذوو الحزم أن لا يغترّ به أحد فيستسهل الزنا والسرقة لأنه قال عليه الصلاة والسلام ثم مات على ذلك، لأنه يخاف على العاصي المصرّ أن يبدل به عند الخاتمة، نعوذ بالله من ذلك، وقال: إلا دخل الجنة، ولم يقل: لم يدخل النار، فيحتمل أن يدخل الجنة بعد أن يخرج من النار.

وقد صح أن طائفة من الموحدين يدخلون النار إلا أن الله برحمته نفعهم بتوحيدهم فأماتهم فيها إماتة، كما جاء في حديث الشفاعة، وهؤلاء هم أهل الكبائر والزنا والسرقة، وهم الذين يخرجون من النار بالشفاعة، وشرّ من النار الخلود في النار.

يروى أن الحسن بن أبي الحسن رضي الله عنه ذكر رجلاً يخرج من النار بعد ألف سنة فقال: يا ليتني ذلك الرجل، حمله خوف الخلود في النار على أن قال هذه المقالة، ويحتمل أن يكون قوله عليه الصلاة والسلام: ثم مات على ذلك، تائباً مما كان منه قبل من الزنا والسرقة، والله أعلم. وسيأتي الكلام على ذلك في باب الألف واللام إن شاء الله تعالى.

وتقدّم أيضاً زعم، وهذه اللفظة لم تأت في القرآن إلا في موضع الذم مثل قوله تعالى: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ﴾ [التغابن: ٧] و﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ ﴾ [النساء: ٦٠] و﴿ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ ﴾ [الأنعام: ١٣٦] وغير ذلك.

وفي الحديث: بئس مطية الرجل زعموا. والزعم بالكسر: الكذب، ويكون بمعنى الطمع يقال: زعم زعماً وزعم زعماً وأزعمته، قال عنترة:

علقتها عرضاً وأقتل قومها زعماً لعمر أبيك ليس بمزعم

أي ليس بمطمع.

وقال أبو محمد عبد الحق بن عطية رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ [الكهف: ٥٢] الزعم إنما هو مستعمل أبداً في غير اليقين، بل أغلبه في الكذب، ومنه هذه الآية، وأرفع مواضعه أن يستعمل زعم بمعنى أخبر حيث تبقى عهدة الخبر على المخبر، كما يقول سيبويه رحمه الله تعالى: زعم الخليل. انتهى كلامه.

قال العلماء فيه ثلاث لغات: الزعم والزعم والزعم، وله معان، تقول: زعم بالكسر زعامة بمعنى ضمن، والزعم بالفتح حجازية، والزعم بالضم تميمية، والزعم بالكسر فيما ليس صحيحاً كما تقدّم. ولما أنشد أعشى بكر بن قيس بن معدي كرب قصيدته التي أولها:

لعمرك ما طول هذا الزمن

أعجب بها فلما انتهى إلى قوله:

فأنبئت قيساً ولم أبله كما زعموا خير أهل اليمن

قال: ما هو إلا الزعم فحرمه وأقصاه.

فائدة لغوية:

قد فسر هنا الزعم واختلاف معانيه لاختلاف لفظه. وفي كتب اللغة: جاءت هذه اللفظة مجملة، قالوا يقال زعم وزعم وزعم، كما قالوا: فتك وفتك وفتك، وود وود وود، قال بعض أهل اللغة: وقد يكون الزعم باطلاً ويكون حقاً، وأنشد:

تقول هلكنا إن هلكت وإنّما على الله أرزاق العباد كما زعم

وقال آخر:

وإني أدين لكم أنه سينجزكم ربكم ما زعم

وتقدّم الزعامة السيادة، قال لبيد:

تطير عدائد الإشراك شفعاً ووتراً والزعامة للغلام

يريد السلاح لأنهم كانوا إذا اقتسموا الميراث دفعوا السلاح إلى الابن دون البنت.

وفود العرب على سيف بن ذي يزن

وأذكر لك هنا في هذه اللفظة حديثاً عجيباً صحيحاً غريباً ذكره أهل الأخبار فيما تقدّم في الزمن عن سيف بن ذي يزن بشر بالنبي صلى الله عليه وسلم جدّه عبد المطلب حين وفد عليه.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما ظفر سيف بن ذي يزن بالحبشة وذلك بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم أتته وفود العرب وشعراؤها وأشرافها تهنيه وتمدحه وتذكر ما كان من بلائه وطلبه بثأر قومه، فأتاه وفد قريش فيه عبد المطلب بن هاشم وأمية بن عبد شمس وأسد بن عبد العزى وعبد الله بن جدعان، فقدموا عليه في عدد من وجوه قريش وأهل مكة، فأتوه بصنعاء وهو في قصر له يقال له غمدان، وفيه يقول أبو الصلت والد أمية بن أبي الصلت:

ليدرك الثار أمثال ابن ذي يزن	يلج في البحر للأعداء أحوالا
ثم انثنى نحو كسرى بعد تاسعة	من السنين لقد أبعدت إيغالا
حتى أتى ببني الأحرار يقدمهم	إليك عمري لقد أسرعت إرقالا
من مثل كسرى وبهرام الجنود لهم	ومثل وهرز يوم الجيش إذ صالا
لله درّهم من عصبة خرجوا	ما إن رأينا لهم في الناس أمثالا
صيداً حجاحجة بيضاً خضارمة	أسداً تربب في الغابات أشبالا
أرسلت أسداً على سود الكلاب فقد	غادرت جمعهم في الأرض فلالا
اشرب هنيئاً عليك التاج مرتفعاً	في رأس غمدان داراً منك محلالا
ثم اطل بالمسك إذ شالت نعامتهم	وأسبل اليوم في برديك إسبالا
تلك المكارم لا قعبان من لبن	شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

فطلبوا الإذن عليه فأذن لهم، فدخلوا عليه فوجدوه متضمخاً بالعبير، ينطف وبيص المسك في مفرق رأسه، وعليه بردان أخضران قد اتزر بأحدهما وارتدى بالآخر، وسيفه بين يديه، والملوك عن يمينه وشماله، وأبناء الملوك والمقاول، فلما دخلوا عليه دنا منه عبد المطلب فاستأذنه في الكلام، فقال له سيف: إن كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك فقد أذنا لك، فقال عبد المطلب: أيها الملك إن الله قد أحلك محلاً رفيعاً صعباً منيعاً باذخاً شامخاً، وأنبتك منبتاً طابت أرومته وقرت جرثومته وبسق فرعه في أكرم معدن وأطيب موطن، وأنت أبيت اللعن رأس العرب وربيعها الذي به تخصب، وملكها الذي تنقاد له، وعمودها الذي عليه العماد، ومعقلها الذي يلجأ إليه العباد، سلفك خير سلف، وأنت لنا بعدهم خير خلف، ولن يهلك من أنت خلفه، ولن يخمل من أنت

سلفه، نحن أيها الملك حرم الله وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي أبهجنا لكشف الكرب الذي فدحنا، فنحن وفد التهنئة لا وفد الترزئة. قال: ومن أنت أيها المتكلم؟ قال: أنا عبد المطلب ابن هاشم، قال: ابن أختنا؟ قال: نعم. فأدناه وقربه ثم أقبل عليه وعلى القوم فقال: مرحباً وأهلاً وناقة ورحلاً، ومستناخاً سهلاً وملكاً ربحلاً يعطي عطاء جزلاً. فذهبت مثلاً، وكان أوّل من تكلم بها، قد سمع الملك مقالتكم وعرف قرابتكم وقبل وسيلتكم، فأهل الليل والنهار أنتم ولكم الكرامة ما أقمتم، والحباء إذا ظعنتم، قال: ثم استنهضوا إلى دار الضيافة والوفود، وأجرى عليهم الإنزال فأقاموا به شهراً لا يصلون إليه ولا يأذن لهم بالانصراف، ثم انتبه لهم انتباهة فدعا بعبد المطلب من بين أصحابه، فأخلاه وأدنى مجلسه وقال له: يا عبد المطلب إني مفوّض إليك من علمي أمراً، لو كان غيرك لم أبح له به، ولكني رأيتك معدنه فأطلعتك عليه، فليكن عندك مصوناً حتى يأذن الله فيه، فإن الله بالغ أمره، إني أجد في العلم والكتاب المكنون الذي ادّخرناه لأنفسنا واحتجبناه دون غيرنا خيراً عظيماً وخطراً جسيماً، فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاة للناس كافة ولرهطك عامة ولنفسك خاصة. قال عبد المطلب: مثلك أيها الملك من بر وسر وبشر ما هو فداك أهل الوبر زمراً بعد زمر. قال ابن ذي يزن: إذا ولد مولود بتهامة بين كتفيه شامة كانت له الإمامة ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة، قال عبد المطلب: أبيت اللعن لقد أبت بخير ما آب به أحد، فلولا إجلال الله الملك وإعظامه لسألته من سره ما أزداد به سروراً. قال ابن ذي يزن: هذا حينه الذي يولد فيه أو قد ولد، يموت أبوه وأمه ويكفله جدّه وعمه، قد ولدناه مراراً والله باعثه جهاراً وجاعل له منا أنصاراً، يعزّ بهم أولياءه ويذلّ بهم أعداءه، يفتح بهم كرائم الأرض ويضرب بهم الناس عن عرض، يخمد الأديان ويكسر الأوثان ويعبد الرحمن، قوله حكم وفصل وأمره حزم وعدل، يأمر بالمعروف ويفعله وينهى عن المنكر ويبطله، فقال عبد المطلب: طال عمرك ودام ملكك وعلا جدّك وعزّ فخرك، فهل الملك مساريّ بأن يوضح فيه بعض الإيضاح؟ قال ابن ذي يزن: والبيت ذي الطنب والعلامات والنصب، إنك يا عبد المطلب لجدّه غير كذب، فخرّ عبد المطلب ساجداً. قال ابن ذي يزن: ارفع رأسك ثلج صدرك وعلا فخرك، فهل أحسست شيئاً مما ذكرته لك؟ قال عبد المطلب: كان لي ابن كنت له محباً وعليه حدباً مشفقاً فزوّجته كريمة من كرائم قومه يقال لها آمنة بنت وهب بن عبد مناف، فجاءت بغلام بين كتفيه شامة، فيه كل ما ذكرت من علامة، مات أبوه وأمه فكفلته أنا وعمه. قال له ابن ذي يزن: الذي قلت لك كما قلت، فاحفظ ابنك واحذر عليه اليهود فإنهم له أعداء ولن يجعل الله لهم عليه سبيلاً، واطو ما

ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك فإني لست آمن أن تدخلهم النفاسة في أن تكون لك الرياسة، فيبغون له الغوائل وينصبون له الحبائل وهم فاعلون وأبناؤهم، ولولا أني أعلم أن الموت مجتاحي قبل مبعثه لسرت بخيلي ورجلي حتى أصير بيثرب دار مهاجره، فإني أجد في الكتاب الناطق والعلم السابق أنّ يثرب دار هجرته وبيت نصرته، ولولا أني أقيه الآفات وأحذر عليه العاهات لأعلنت على حداثة سنه أمره وأوطأت أقدام العرب عقبه، ولكني صارف إليك ذلك من غير تقصير مني لمن معك. ثم أمر لكل رجل منهم بعشرة أعبد وعشر إماء وخمسة أرطال فضة وحلتين من حلل اليمن وكرش مملوءة عنبراً، وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك، وقال: إذا حال الحول فائتني بما يكون من أمره، فما حال الحول حتى مات ابن ذي يزن، فكان عبد المطلب بن هاشم يقول: يا معشر قريش لا يغبطني رجل منكم بجزيل عطاء الملك فإنه إلى نفاد، ولكن يغبطني بما يبقى لي ولعقبي ذكره وفخره، قالوا له: وما ذاك؟ قال: سيظهر بعد حين.

وتقدّم من مقلوب زعم زمع وفسره وهو جمع زمعة، ويجمع أيضاً زمعات، وقد جاء ذلك في حديث صحيح ثابت خرجه في الدلائل ثابت، أردت أن أثبت منه في هذا الكتاب موضع الشاهد، إلا أني رأيت القلب على ذلك غير مساعد لشغفه به قديماً وحديثاً، وطلبه إياه طلباً حثيثاً، ولأن النقص يشينه والنص يزينه، فاستخرت الله تعالى وسقته بكماله فهو أتم لجماله، كما صنعت بحديث سيف الذي تقدّم، سقته بكماله كرامة للنبي صلى الله عليه وسلم.

حديث ابتداء الإسلام

حدّث ثابت رحمه الله بسنده إلى علي بن أبي طالب قال: لما أمر الله رسوله أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه وأبو بكر حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدّم أبو بكر رضي الله عنه فسلم، وكان رجلاً نساباً وكان مقدّماً في كل خير، فقال: ممن القوم؟ قالوا: من ربيعة، قال: ومن أي ربيعة أنتم أمن هامها أم من لهازمها؟ قالوا: بل من هامتها العظمى، قال: وأيّ هامتها العظمى أنتم؟ قالوا: ذهل الأكبر، قال أبو بكر: فمنكم عوف الذي يقال له لا حرّ بوادي عوف؟ قالوا: لا، قال: فمنكم جساس بن مرّة حامي الذمار ومانع الجار؟ قالوا: لا، قال: فمنكم بسطام بن قيس صاحب اللواء ومنتهى الأحياء؟ قالوا: لا، قال: فمنكم الحوفزان قاتل الملوك

وسالبها أنفسها؟ قالوا: لا، قال: فمنكم المزدلف صاحب العمامة الفردة؟ (*) قالوا: لا، قال: فمنكم أخوال الملوك من كندة؟ قالوا: لا، قال: فمنكم أصهار الملوك من لخم؟ قالوا: لا، قال أبو بكر: فلستم ذهلاً الأكبر أنتم ذهل الأصغر، فقام إليه غلام من بني شيبان حين بقل وجهه يقال له دغفل فقال:

إنّ علـــى ســـائلنا أن نـــسأله　　　والعـــبء لا نعـــرفه أو نحملـــه

يا هذا إنك سألتنا فأخبرناك ولم نكتمك شيئاً، فمن الرجل؟ قال أبو بكر: أنا من قريش، قال له دغفل: بخ بخ أهل الشرف والرياسة، فمن أي قريش أنت؟ قال: من ولد تيم بن مرّة، قال: أمكنت والله الرامي من سواء الثغرة، أفيكم قصي الذي جمع القبائل من فهر فكان يدعى في قريش مجمعاً؟ قال: لا، قال: فمنكم هاشم الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف؟ قال: لا، قال: فمنكم شيبة الحمد مطعم طير السماء الذي كأنّ وجهه القمر يضيء في الليلة الظلماء؟ قال: لا، قال: أفمن أهل الإفاضة بالناس أنت؟ قال: لا، قال: أفمن أهل الرفادة أنت؟ قال: لا، قال: أفمن أهل الحجابة أنت؟ قال: لا، واجتذب أبو بكر زمام الناقة فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال الغلام:

صـادف درء الـسيل سـيلاً يدافعـه　　　يهيــضه حيـــناً وحيـــناً يـــصدعه

أما والله يا أخا قريش لو ثبت لأخبرتك أنك من زمعات قريش ولست من الذوائب، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عليّ: يا أبا بكر لقد وقعت من الأعرابي على باقعة، فقال: أجل يا أبا الحسن ما من طامة إلا وفوقها طامة، والبلاء موكل بالمنطق، قال: ثم دفعنا إلى مجلس آخر عليهم السكينة والوقار، فتقدّم أبو بكر وسلّم، وكان مقدّماً في كل خير، فقال: ممن القوم؟ قالوا: من شيبان بن ثعلبة، فالتفت أبو بكر رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: بأبي أنت وأمي هؤلاء غرر في قومهم وفيهم مفروق بن عمرو وهانئ بن قبيصة والمثنى بن حارثة والنعمان بن شريك، وكان مفروق بن عمرو قد غلبهم جمالاً ولساناً وكانت له غديرتان تسقطان على تريبتيه، وكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكر رضي الله عنه، فقال له أبو بكر: كيف العدد فيكم؟ فقال مفروق: إنا لنزيد على ألف ولن يغلب ألف من قلة، فقال له أبو بكر: كيف المنعة فيكم؟ قال مفروق: علينا الجهد ولكل قوم جدّ، فقال أبو بكر: فكيف الحرب بينكم وبين عدوّكم؟ فقال مفروق: إنا لأشدّ ما نكون غضباً حين نلتقي،

(*) إنما قيل له ذلك لأنه كان إذا ركب لم يعتم معه غيره إجلالاً له.

وإنا لأشدّ ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد والسلاح على الفقاح والنصر من عند الله يديلنا مرة ويديل علينا، لعلك أخو قريش، فقال أبو بكر: أوَقد بلغكم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهاهو ذا، فقال مفروق: وقد بلغنا أنه يذكر ذلك، فإلامَ تدعونا يا أخا قريش؟ فتقدّم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأني رسول الله، وإلى أن تؤووني وتنصروني، فإن قريشاً قد ظاهرت على أمر الله عز وجل وكذبت رسله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد، فقال مفروق: وإلامَ تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥١]، فقال مفروق: وإلامَ تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠] فقال مفروق: دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك، وكأنه أحبّ أن يشركه في الكلام هانئ بن قبيصة، فقال: وهذا هانئ ابن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا، فقال هانئ: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، وإني أرى أن تركنا ديننا واتباعنا إياك لمجلس جلسته إلينا ليس له أوّل ولا آخر، وإنا نزلنا بين صيرين: اليمامة والسمامة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما هذان الصيران؟ فقال: أنهار كسرى ومياه العرب، فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول، وأما ما كان من مياه العرب فذنب صاحبه مغفور وعذره مقبول، وإنا إنما نزلنا على عهد أخذه كسرى أن لا نحدث حدثاً ولا نؤوي محدثاً، وإني أرى أنّ هذا الأمر الذي تدعو إليه أنت مما تكرهه الملوك، فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق، وإنّ دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم ويفرشكم نساءهم أتسبحون الله وتقدّسونه؟ فقال النعمان بن بشير: اللهم لك ذلك، ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ

شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]، ثم نهض النبي صلى الله عليه وسلم وأخذ بيدي، فقال: يا أبا بكر يا أبا حسن، أية أحلام في الجاهلية ما أشرفها، بها يدفع الله بعضهم عن بعض، وبها يتحاجزون فيما بينهم، قال: ثم دفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج، فما نهضنا حتى بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا صدقاً صبراً.

الهام: أعلى الرأس، وهو أعلى من اللهازم.

واللهازم: جمع لهزمة، وهو مجتمع اللحم بين الماضغ والأذن من اللحيين.

والماضغ: ما يمضغ عليه من الأضراس.

والزمعات: جمع زمعة كما تقدّم، وهي هناة تشبه أظفار الغنم في الرسغ، في كل قائمة زمعتان يكون ذلك لكل ذي ظلف. هذا الحديث يجدّد الإيمان على مرور الأزمان، نفع الله به الراوي والسامع والقارئ والجامع.

وتقدّم أيضاً ذكر عزم من قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ ﴾ [محمد: ٢١] معناه: عزم عليه وهو هنا الجهاد في سبيل الله، مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الإسراء: ٣٤] أي: عنه. وفي القرآن من هذا: ﴿ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴾ [طه: ١١٥] قال ابن عزيز: رأياً معزوماً عليه، وقال غيره: صبراً. وفي القرآن: ﴿ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] أي: إذا صححت رأيك في إمضاء الأمر. وفيه: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥] قال الكلبي: يعني ممن أمر بالقتال منهم.

حكاية ظريفة

وأذكر لك هنا حكاية ظريفة غريبة شريفة: يروى أنّ الرشيد كان له ولد اسمه عباس، وكان شديد السمرة، فكره لذلك مكانه وقصر عن إلحاقه بسائر بنيه، ثم اتفق أن تنبأ في عهده رجل سخيف، فبلغ أمره إلى الرشيد فأحضره وجعل يعظه ويفنّده، وجميع أبناء الرشيد مصطفون بين يديه بينهم عباس لم يجاوز العشر، فأبي ذلك الشقي إلا التمادي في غيه، فأمر الرشيد بضربه، فلما باشر السوط جسده جعل يضطرب ويرعد ويقوم ويقعد، فقال عباس: إن كنت كما زعمت ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، فاستطار لها الرشيد استبشاراً واستنبالاً، وقال: ابني والله، ثم

رفع منزلته وأكرم مثواه وألحقه بمرتبة من سواه.

النهي عن سؤال الناس

وتقدّم ذكر مزع معكوس عزم وذكر المزعة، وجاء في الحديث من هذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم. خرّجه مسلم من طريق ابن عمر. وخرّج أيضاً من طريق عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه أنه بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جماعة وذكر حديثاً طويلاً في آخره أسرّ كلمة خفية: ولا تسألوا الناس شيئاً، فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فلا يسأل أحداً يناوله إياه، وهذا الحديث حدّثني به الحافظ رحمه الله في كتاب الأربعين للطوسي برواية عالية رضي الله عنه، وقد كان بعضهم يسأل منه أن يسأل فلا يسأل ويعطى فلا يقبل.

يروى أنّ سالم بن عبد الله دخل البيت الحرام فصادف فيه هشام بن عبد الملك، فقال له هشام: سل حاجتك، فقال: إني أكره أن أسأل في بيت الله غير الله. وقد جاء تحريم المسألة والصدقة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سويّ. وفي حديث آخر: ولا حظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب. وجاء في الصدقة أنها أوساخ الناس.

كاتب ابن عمر رضي الله عنه غلاماً ونجمها عليه نجوماً، فما حلّ أوّل نجم أتاه المكاتب فسأله: من أين أصبت هذا؟ قال: كنت أعمل وأسأل، قال ابن عمر: فجئتني بأوساخ الناس تريد أن تطعمنيها، أنت حرّ ولك ما جئت به.

وخرّج مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم: من سأل الناس أموالهم فإنما يسأل جمراً، فليستقل أو ليستكثر.

وفي كتاب أبي داود: المسائل كدوح يكدح بها الرجل وجهه، فمن شاء أبقي عليه وجهه ومن شاء ترك، إلا أن يسأل الرجل ذا سلطان في أمر لا يجد له منه بدّاً. وخرّج البناني عن النبي صلى الله عليه وسلم: لو تعلمون ما في المسألة ما مشى أحد إلى أحد يسأله شيئاً. وعن ابن الفراسي أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أسأل يا رسول الله؟ قال: لا وإن كنت سائلاً ولا بدّ فسل الصالحين.

وخرّج أبو نعيم عن مسعود بن الربيع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يزال العبد يسأل وهو عنه غني حتى يخلق وجهه فما يكون له عند الله وجه. وخرّج أبو داود عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يسأل

بوجه الله إلا الجنة.

قلت: انظر ما جاء على كراهية المسألة من الأدلة مع ما فيها من الذلة، وجاء بعض الشعراء إلى بعض الأمراء فقال: أنشدك ثلاثة أبيات هنّ خير من ثلاثة آلاف، فإذا أنشدتكهنّ قل صدقت، قال: هات، فأنشده:

بلوت الناس قرناً بعد قرن ... فلم أر غير ختال وقال

قال: صدقت، قال:

وذقت مرارة الأشياء طراً ... فما شيء أمرّ من السؤال

قال: صدقت، قال:

ولم أر في القلوب أشدّ وقعاً ... وأنكى من معاداة الرجال

قال: صدقت، وأعطاه صلته، ينظر قول الشاعر من معاداة الرجال إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم: إنّ أوّل ما نهاني عنه ربي بعد عبادة الأوثان شرب الخمر وملاحاة الرجال، صدق صلى الله عليه وسلم، ولي منه قطعة لزومية:

قل كيف يرجو فلاحاً ... من كان خصمه فلاحا

فاتركه واترك مزاحاً ... واجعله عنك مزاحا

وقد تقدّم هذا في باب المزاح.

وأنشدني الفقيه المحدث أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي الإشبيلي رحمه الله ببجاية حماها الله، لنفسه قطعة حسنة أوّلها:

لا تبك خلاً ولا انقطاعه ... ولا لأسرارك المذاعه

وابك زماناً مضى وولى ... عنك وأيامك المضاعه

وارجع إلى الله من قريب ... واخش تجليه واطلاعه

لعله أن يراك فيمن ... قصر عما يريب باعه

وإن تشا أن تنال عزاً ... بغير مال ولا جماعه

فاقنع بقوت وبعض قوت ... فإنّما العز في القناعه

ولا تسل فالسؤال ذلّ ... حاشاك من تلكم الصناعه

واصبر على حادث الليالي ... واترك الذل والضراعه

فإنّما عمرك المرجى ... هذا إذا نلته كساعه

ولما رأى هذه القطعة بمالقة الفقيه الخطيب أبو محمد عبد الوهاب بن علي رضي الله عنه أنشد في عروضها والتزم عادا فقال:

بالله لا تشتك البعادا ... وخلّ سعدى ودع سعادا

ولا تقف بالديار تبكي عهد حبيب جفا وعادى
وإن شدا في الغصون شاد فلا تقل ليته أعادا
وذر حماماً واحذر حماماً وانس بعاداً واذكر معادا
أين ثمود وقوم نوح كل غدا رمة وعادا
ما ترك الموت جمع ترك ولاعداد الجسوم عادا
لم يسلم المسلمون منه كلا ولا المبعد المعادا

وقال بشر بن الحارث رحمه الله: من أراد العز والسلامة فليلتزم ثلاثاً: لا يسأل أحداً حاجة ولا شيئاً، ولا يأكل طعام أحد، ولا يذكر أحداً بسوء. نظمت أنا هذا المعنى فقلت:

يا مبتغي العز والسلامه الزم ثلاثاً تلق الكرامه
لا تسأل المرء ما لديه ولا ترى آكلاً طعامه
ولا تكن ذاكراً بسوء ما عشت خلقاً حتى القيامه
وزد لهذي الثلاث تقوى الإله تكمل لك السلامه
ودم على ذا واصبر عليه فالصبر خير من الندامه

ومن شعر الفقيه الإمام الزاهد الورع أبي عمران موسى بن عمران القيسي الميرتلي رضي الله عنه وهو الآن في قيد الحياة في سنة ثلاث وستمائة:

ترجى السلامة في القنا عة والخمول والاعتزال
لا في التكاثر والظهور وفي مصاحبة الرجال
من رام مع هذي الثـ ـلاث سلامة رام المحال

وله رضي الله عنه وبلغه أن بشر بن الحارث رضي الله عنه كان يقول: من أحبّ أن يكون عزيزاً في الدنيا فليجتنب أربعاً: لا يشهد ولا يؤم ولا يحدّث ولا يقبل هدية، فنظمها في شعر وزاد فيها خمساً فبلغها تسعة، وقال:

تسع أبى منها أولو الـ أحلام والهمم السنيه
إلا بحال ضرورة تدعو لها مع حسن نية
وهي الشهادة والوساطة والحكومة في القضيه
وكذا الإمامة والوديـ ـعة والتعرّض للوصيه
ثم الإجابة للمطاعم في الولائم والهديه
فسد الزمان وأهله لم تبق في حرّ بقيه
زمن يكون فيه البريّ من المريب على تقيه

ذكر الرخصة في السؤال

وله رضي الله عنه التزامات ألزمها نفسه ستراها في باب التاء والثاء عند ذكر الزهاد إن شاء الله، وقد أرخص بعض العلماء لمن طرقته فاقة أو رهقته حادثة أن يسأل إذا عدم القوت والصبر، وقد جاء في الأثر: من جاع فلم يسأل فمات دخل النار، لأنّ ترك السؤال عند خوف التلف سبب التلف، فكأنه أعان على قتل نفسه، والله أعلم. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في استعاذاته: وأعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع. وقد سأل موسى والخضر عليهما السلام عند الضرورة فردًا، وقد أخبر الله سبحانه عنهما بذلك في قوله: ﴿ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ [الكهف: ٧٧]. وقال الحريري في المعنى:

وإن رددت فما في الردّ منقصة ... عليك قد ردّ موسى قبل والخضر

ولأبي عمران المذكور:

أقبل البرّ إذا احتجت من البرّ الوصول
ما رأى أن لك الفضل عليه في القبول
وأتى بالشيء صفواً طيباً من غير سول
وأمنت المنّ منه في كثير أو قليل
ربّ منّ قد أقام الحرّ في حال الذليل
وإذا استغنيت عشنه لا تعرّض للفضول
وصن النفس بسفّ التـ ـترب عن عرف البخيل

فصل:

تقدّم من قول الرسول عليه الصلاة والسلام: وإن كنت لا بدّ سائلاً فسل الصالحين. وجاء: طعام البخيل داء وطعام السخي شفاء. أنشدني الحافظ السلفي رحمه الله لنفسه في هذا الخبر:

لا تُجب دعوة البخيل لأكل ... فطعام البخيل في الجوف داء
وإذا ما دعاك شخص سخي ... فأجبه وكله فهو شفاء

وأنشدني أيضاً لنفسه:

اقتنع ما دمت تحيا ... بغداء وعشاء
ثم لا ترج غنياً ... في غدوّ وعشاء
فجماع العز للإنـ ـسان في قطع الرجاء

عن جميع الناس في الشدة أو وقت الرخاء

هذا كله في السؤال.

وأما جاء من غير مسألة من النوال، فقد جاء فيه من حديث مسلم رحمه الله: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي عمر بن الخطاب رضي الله عنه العطاء فيقول: أعطه يا رسول الله أفقر إليه مني، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: خذه فتموّله أو تصدق به، وما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه، وما لا فلا تتبعه نفسك. قال سالم: فمن أجل ذلك كان ابن عمر لا يسأل أحداً شيئاً ولا يرد شيئاً أعطيه.

وحدّثني شيخي أبو محمد عبد الحق رحمه الله قال: رويت بالإسناد المتصل الصحيح إلى خالد بن محمد الجهني قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من جاءه من أخيه معروف من غير إشراف ولا مسألة فليقبله ولا يرده فإنما هو رزق ساقه الله إليه. ذكره أبو عمر بن عبد البر وغيره.

قلت: وأنت أيها المستشهد بهذا الحديث الغريب الآخذ من كل من أعطى من بعيد أو قريب أذكر لك هنا نكتة أزيدها، مع علمي أنك لا تريدها، هي المكافأة على العطاء ممن أعطى، ألم تسمع قول النبي صلى الله عليه وسلم: من أتى إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا فادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه.

وكان عليه السلام يقبل الهدية ويثيب عليها. وقال: لقد هممت أن لا أتهب إلا من ثقفي أو دوسي. أبمعبودكم أيها القوم أكذا نحن اليوم، ما أظنّ ذلك كذلك، بل نأخذ الهدية مع الوعاء ولا نكافئ إلا إن كان بالدعاء، نعم ونأخذ ونقبل من كل من أدبر وأقبل، ولا نتورع ممن بها تبرع، ولله در الذي يقول:

وطالما زفت الصلات إلى رحلي فلم أرض كل من يهب

ولأبي عمران الميرتلي:

لا تقبلن هدية ولو أنّها جاءتك من أصفى الأنام إليكا
فتذل نفسك إن فعلت وربّما انقلب الصديق غداً فمنّ عليكا

وله أيضاً:

هدية جاءت ولم أحتشم في ردّها من ذي إخاء كريم
لأنه قد جاء فيما رووا بأنّها تفقأ عين الحليم
وتنقل الحرّ عن أخلاقه لطمع مزر وخلق ذميم

وقال بعض الزهاد: ما أدخلت يدي في قصعة أحد إلا وجدت الذلة في نفسي.

وقال غيره من العارفين: لا تسأل من الناس شيئاً أبداً فإن كان ولا بدّ من سؤالهم فاسألهم مما ليس في خزائن مولاك جل وعلا. قلت: انظر هذا العارف ما كان أعرفه وأرفعه في الأمر وألطفه، نهاه أولاً ثم أطمعه فتأنسه وضمن فيما أباح له ما عنه أيأسه، فالواجب على الإنسان والفرض أن يوقن أن لله خزائن السماوات والأرض، وجميع المؤمنين، والحمد لله، لهذا يتنبهون وإليه ينتهون ولكنّ المنافقين لا يفقهون، والمسألة على كل حال ذلّ إلا إلى الله سبحانه الذي يملك الكلّ، وبهذا تشهد العقول، وما أحسن الذي يقول:

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله ... عوضاً ولو نال الغنى بسؤال
وإذا السؤال مع النوال قرنته ... رجح السؤال وخف كلّ نوال

ومن أجل كراهية السؤال أمر بحفظ المال.

قال بعض الحكماء: حفظك لما في يديك أولى بك من طلب ما في يدي غيرك.

قلت: ثم مع هذا إذا سألت المخلوق وألححت عليه أبغضك، وإذا سألت إلهك وألححت عليه أحبك، ألم تسمع قوله عليه الصلاة والسلام: إن الله يحب الملحّين في الدعاء. وقال الشاعر:

الله يغضب إن تركت سؤاله ... وبني آدم حين يسأل يغضب

ولي في هذا المعنى مقطعات انظرها في التكميل، منها آخر بيت:

ولا تسأل الناس ما عندهم ... وسل من على كل شيء قدير

وقال الشاعر:

إن الوقوف على الأبواب حرمان ... والعجز أن يسأل الإنسان إنسان
حتّام تأمل مخلوقاً وتقصده ... إن كان عندك بالخلاّق إيمان
إعطاؤه لك إن أعطاكه ضعة ... فكيف إن كان بعد المطل حرمان
ثق بالذي هو يعطي ذا ويمنع ذا ... في كل يوم له في خلقه شان

قال الأصمعي: مررت بكناس وهو يحمل على ظهره جرّة من عذرة وهو يقول:

وأكرم نفسي إنني إن أهنتها ... وحقك لم تكرم على أحد بعدي

قال: فقلت له: وعن أي شيء أكرمتها وأنت تحمل العذرة على ظهرك؟ فقال: أكرمتها عن الوقوف على باب مثلك. قال الأصمعي: ما لقيت مثلها.

وكان مطرف بن عبد الله بن الشخير يقول: إذا كانت لأحدكم حاجة فلا يواجهني بها فإني أكره أن أرى فيكم ذلّ المسألة، ولكن ليرفعها إليّ في رقعة، فإن الشاعر قد صدق في قوله:

يا أيها المتعب بذل الجمال ... وطالب الحاجات من ذي النوال
لا تحسبَن الموت موت البلى ... فإنّما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكنّ ذا ... أشدّ من ذاك لذل السؤال

وكان خالد بن صفوان يقول: فوت الحاجة خير من طلبها إلى غير أهلها، وأشدّ من المصيبة سوء الخلف منها.

وقال الحسن بن علي لمعاوية رضي الله عنهم: أعطنا من قبل أن نسألك فإنك إن أعطيتنا بعد المسألة كان ثمن وجوهنا ولم نحمدك. قلت: ذكرني قول الفقيه رحمه الله:

وإنّما عمرك المرجى ... هذا إذا نلته كساعه

قول بعضهم: الدنيا ساعة فاجعلها طاعة. وأنشدني بعض أشياخي:

إذا كنت أعلم علماً يقيناً ... بأنّ جميع حياتي كساعه
فلم لا أكون ضنيناً بها ... وأجعلها في صلاح وطاعه

مدّة عمر نوح

وقد مثل نوح عليه السلام الدنيا ببيت له بابان دخل من أحدهما وخرج من الآخر. ذكر معنى ذلك مكي في الهداية، قال: يروى أن نوحاً صلى الله عليه وسلم أرسل إلى قومه وهو ابن مائة وخمسين سنة، فلبث فيهم يدعوهم إلى الله وإلى عبادته ألف سنة إلا خمسين عاماً، ثم دعا على قومه فغرقوا، ثم عاش بعد الغرق مائتي سنة وخمسين، فكان عمره ألف سنة وثلاثمائة سنة وخمسين، فلما احتضر قال له ملك الموت: يا أطول الأنبياء عمراً وأكثرهم عملاً، كيف وجدت الدنيا؟ قال: كبيت له بابان دخلت من باب وخرجت من باب.

مبحث القوت

ودونك فائدة في القوت خير من الياقوت: تقدّم في شعر أبي محمد عبد الحق رحمه الله ذكر القوت، قال فيه ثابت رحمه الله: يقال: قوت ليلة وقيت ليلة وقيتة ليلة، وقد قات أهله يقوتهم قوتاً. وفسر الشعبي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩] قال: الجهد القيتة.

(فرع): قوله: قيتة، لما انكسرت القاف صارت الواو ياء، تقول: قته فاقتات، كما تقول: رزقته فارتزق، وهو في قتات من العيش، أي في كفاية. واستقاته: سأله القوت.

ومن أيمانهم: لا وقائت نفسي. ويقال: فلان يتقوّت بكذا، واقتت لنارك قيتة، أي

أطعمها الحطب. قال ذو الرمة:

فقلت لـه ارفعها إليك وأحيها ... بروحك واقتته لها قيتة قدرا

ويقال: أقات على الشيء اقتدر عليه. قال الشاعر:

وذي ضغن كففت النفس عنه ... وكنت على مساءته مقيتا

قال الفراء: المقيت المقتدر الذي يعطي كل رجل قوته. قال الله عز وجل: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴾ [النساء: ٨٥] أي مقتدراً. ويقال: المقيت الحافظ للشيء والشاهد له، وأنشد ثعلب للسموأل:

ليت شعري وانشرنها إذا ما ... قربوها منشورة ودعيت

ألي الفضل أم علي إذا حوسب ... ت إني على الحساب مقيت

يعني بالمنشورة: صحفه، أي: أعرف ما عملت من السوء لأن الإنسان على نفسه بصيرة.

وقال أبو سعيد يروي: ربي على الحساب مقيت، وهو أحسن لأن الخاضع لربه لا يصف نفسه بهذه الصفة.

مبحث الأمر من الحروف المعتلة

الأوائل والأواخر

رجع الكلام وغيرك الغمر إلى فائدة أخرى في عمرو من معنى ما قاله الكندي من تحليل الحروف فيما تقدّم، وذلك أنك تحل لفظة عمرو المكتوب بالواو كما تقدّم فيتغير إلى معان كثيرة كلها مفيدة، فتبدأ من أوّله فتكتب (ع) بلا ضبط فلا تؤدّي لك على هذا الشكل معنى غير أنها عين وليست واواً ولا ألفاً، واحتمل أن تكون عيناً أحد حروف الهجاء، وهو سبعون في حساب أبي جاد، فإن كسرتها فتقول (عِ) فتؤدّي لك معنى الأمر من وعى يعي، إلا أنهم كرهوا النطق بها مفردة فألحقوا بها حرفاً زائداً وتموها بها وهي هاء السكت، أي تحذف في الوصل ويستغنى عنه به، فقالوا: عه في الوقف، وقالوا في الوصل: عِ كلام زيد، فقد أفادك هذا الحرف على انفراده معنى الأمر.

وكذلك فعلوا بسائر الحروف المعتلة الأوائل والأواخر، مثل (لِه) من ولي يلي، و(شه) من وشى، و(قه) من وقى إلى آخر الحروف، نعم وفعلوا ذلك فيما كان أوله صحيحاً مثل (رأى) قالوا فيه: (ره) في الأمر، و(رِ) زيداً، ولم يفعلوا ذلك في نأى وهو

صحيح الأول مثل رأى، قالوا في الأمر من نأى (انأ) والفرق بينهما أنهم قالوا في مستقبل نأى ينأى، فلما أرادوا أن يبنوا منه فعل أمر حذفوا الياء من أوّله كما فعلوا في أوّل كل فعل مستقبل أرادوا أن يبنوه للأمر فبقيت النون فجلبوا لها ألف الوصل للتوصل إلى النطق بالساكن، فقالوا: (انأ)، وقالوا في مستقبل رأى يرى وإن كان أصله (يرأى)، لكن كذا نطقوا به لعلة ذكروها، فلما حذفوا الياء بقيت الراء متحرّكة فلم يحتاجوا للألف فقالوا: (ر زيدا) مثل: (عِ كلام زيد) حذفوا حرف العلة من أوّله ومن آخره، ولم يبق إلا الصحيح، ولو كان آخره صحيحاً لأبقوه، مثل: (وعد) و(وفد)، فقالوا في مستقبله يعد ويفد، وفي الأمر (عد) و(فد).

ولا تحتج عليّ بوجل يوجل فتنشب وتوحل، أقول لك من أوّل وهلة: النادر لا حكم له، ذاك فعل خرج عن بابه في قلة من أصحابه، فتكلف معه من التصريف ما يكثر عن التصنيف. قالوا: وجل يوجل وييجَل وييجِل، وكذا قالوا: وجع فلاناً رأسه يوجع وياجع وييجع بكسر الياء، وهي لغة لبني أسد، وهم لا يقولون: يعلم، استثقالاً للكسرة على الياء، فلما اجتمعت اليآن في ييجع قويتا فاحتملتا ما لم تحتمله المفردة. قال متمم بن نويرة:

تعيدك ألا تسمعيني ملامة ... ولا تنكئي قرح الفؤاد فييجعا

أين هذا المذهب من ذهب يذهب؟ بقي هذا على حاله لصحته وكماله وتغيّر ذلك لاعتلاله، نسأل الله الصحة في الأقوال والأفعال إنه الكبير المتعال، وسيجيء في هذا الفعل المعتل خبر فيه عندي عبر.

مبحث عم

رجع الكلام إلى الحرف المفرد المسلوب الطرفين المجرد، انظر كيف دلّ حرف واحد على معنى كما دلت الحروف المقطعة في أوائل السور على معان كما تقدّم على مذهب من رأى ذلك فتقول من حرف العين من عمرو: (عِ كلام زيد) فإن أضفت إليه ميماً جاء منه: عم صباحاً أيها الرجل العالي، لا الطلل البالي، وتفتح العين فتقول: عم أخو الأب. وقد جاء في القرآن: ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ ﴾ [الأحزاب: ٥٠] و﴿ أَعْمَٰمِكُمْ ﴾ [النور: ٦١] و﴿ عَمَّٰتِكُمْ ﴾ [النور: ٦١]، وجاء منه في الحديث كثير: إن عم الرجل صنو أبيه، أي: أصلهما واحد، كما قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ [الرعد: ٤] أنهما النخلتان أو النخلات يكون أصلهما واحداً، وقيل الصنو: المثل.

أعمامه وعماته عليه الصلاة والسلام

وكان للنبي صلى الله عليه وسلم تسعة أعمام: العباس وحمزة أسلما رضي الله عنهما، وأبو طالب واسمه عبد مناف، والزبير والحارث والحجل والمقوم وضرار، وأبو لهب، واسمه عبد العزى.

وعماته صلى الله عليه وسلم ست: صفية وأم حكيم البيضاء وعاتكة وأروى وبرة وأميمة، وكلهم إخوة عبد الله بن عبد المطلب، وعبد الله والد رسول الله صلى الله عليه وسلم أصغرهم.

رجع الكلام. ويأتي منه: عمّ الخير الناس، وعمّ على فلان هذا الخير، وعمّ بمعروفك الخلق، وإنها لنخل عمّ في الحديث، وفلان عم: اسم فاعل من عمي يعمى، والجمع: عمون. وفي التنزيل: ﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل: ٦٦]، وفي الاستفهام: عمّ تسأل يا هذا؟.

المعمعي والإمّعة

ويأتي من معكوسه: مع، كان الله معنا، وقالوا: (مع) كلمة تدل على المصاحبة، والمعمعيّ من الرجال: الذي يكون مع من غلب، وهو الإمّعة أيضاً، ومنه قوله: لست بإمّعة في الرجال. وسيأتي معنى قوله: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦].

فإن نقطت العين مفرداً دلّ أيضاً على حرف من حروف أبي جاد، وهو في الحساب تسعمائة، فإن أضفت إليه ميماً جاء منه غمّ عافانا الله منه، وغمّ هذا الخبر ولا تفشه، وغمّ الهلال. وفي الحديث: فإن غمّ عليكم فاقدروا له. وغمّ: قرية من قرى قطربل، قال الشاعر:

في روضة من رياض الغم مشرقة تنوح فيها مثاكيل الفواخيت

فإن زدت راء جاء منه غمر وغمر، وبالعين عمر وعمر، إلى غير ذلك مما تقدّم، فإن زدته واواً جاء منه عمرو اسم الرجل، فإن زدت نوناً جاء منه عمرون اسم رجل، واسم الجمع السالم قبل دخول الألف واللام، فإن زدت هاء التأنيث على مذهب العامة ذهب جمع الرجال وبرزت عمرونة ذات الحجال، على أن لفظة عمرونة ليست عربية بل هي عامية حضرية، ولم أسقها للقياس لكن على مذهب كلام الناس، فانظر إلى هذا التغيير الغريب في هذا الاسم القريب كيف انقلب بالزيادة والنقصان إلى شتّى معان، هل تجد هذا الشان في غير هذا اللسان، فاحمد إلهك أيها الإنسان على ما علمك من

البيان وألهمك من التبيان. ومعنى قولي: والنقصان، أنك تهدم ذلك الاسم كما بنيته وتحله من حيث أكملته، حتى يصير إلى الحرف الذي منه بدأته. وأغرب من هذا أن الكلمة تتغير بأقل من الحرف وهي الحركة، تقول في تثنية قنو وصنو: قنوانُ وصنوانُ بغير تنوين، فإذا نوّنت فقلت: قنوانٌ وصنوانٌ، انقلب إلى لفظ الجمع بحركة واحدة في الكلمة، مثل أن تقول: هذان قنوان اثنان خذهما في قنوان ثلاثة لك عندي، وقد يذهب التنوين من الجمع بدخول الألف واللام في أوّله، فيشبه المثنى فلا يفهم إلا بالمعنى، مثال ذلك: هذان القنوان أعطيتهما إياك في القنوان الثلاثة التي أعطيتني قبل هذا، وما أشبه هذا مما يتبين فيه التثنية من الجمع، والله ولي النفع.

ما اختلف فيه الْجمع والْمثنّى بالْحركة

وكذلك قالوا جُوالق في الواحد، وقالوا في الجمع جَوالق، فتحوا الجيم في الجمع وضموها في الواحد، ولم يجعلوا بينهما فرقاً غير ذلك، ولم يقولوا جوالقات، وقالوا: وتر عنابل وهو المتين الصلب، وفي الجمع عنابل، فهذا أغرب مما تقدّم. تقدّم في الألفاظ المؤتلفة من العين والميم نحو عم، ودونك في ذلك فائدة يا ابن عم: كان من دعاء الحسن بن أبي الحسن البصري رضي الله عنه يوم تغيّب عن الحجاج ودخلوا عليه فلم يروه، قال: يا عدّتي عند كربتي ويا صاحبي عند شدّتي، ويا وليي في نعمتي، ويا رب آبائي الأولين إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ويا رب طه وكهيعص ويس والقرآن الحكيم، عمّ عليهم مكاني، ففعل الله ذلك به.

ما يقرأ طرداً وعكساً

وأزيدك أيضاً يا ابن الوالدة في عمرو فائدة، وذلك أنك لما زدت في آخره هاء التأنيث على المذهب الرثيث. فقلت: عمرونة إن زدت في أوّله كاف التشبيه فقلت: كعمرونة ثم عكسته جاء معك: تنور معك، كلام قائم المعنى صحيح المبنى وليس يستغرب هذا، قد يوجد العكس في كثير من الكلام لم يلق له قائله بالاً. انظر المنسوج في الحصر التي في الجدر، توكل تكفا وسل تعطا، إن عكسته وأسقطت توكل؛ جاءك منه: أطعت لسو آفكت، كلام سديد له معنى مفيد، ولو بدّلت لفظة توكل وقلت: أس، بمعنى أعط، لجاءت الكلمات كلها مقروءة، فقلت: أطعت لسوافك تسا، وهذا لم يلق له الذي عمله ولا الذي قرأه بالاً، وكذا غيره. ورأيت في حصير مكتوب (سعادة لصاحبه) فإن قدمت وقلت: لصاحبه سعادة؛ وعكسته جاء منه: تداعسه بحاصل، كلام

أيضاً مفيد. المداعسة: المطاعنة، والمداعس: الرماح، قاله صاحب العين.

وفي الحديث: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه ليلة بدر: كيف تقاتلون؟ فقالوا: إذا دنا القوم كانت المراضخة، فإذا دنوا حتى نالونا ونلناهم كانت المداعسة بالرماح حتى تقصدت، خرّجه الخطابي رحمه الله، وقال: المداعسة: المطاعنة، يقال: داعست بالرمح، ورجل مداعس، وأنشد:

إذا هاب أقوام تَجشمت هول ما يهاب حمياه الألدّ المداعس

والمراضخة: الرمي بالسهام، يقال: تراضخ القوم، إذا تراموا، وقوله: حتى تقصدت، أي تكسرت قصداً قصداً، أي: كسراً كسراً.

ودونك فائدة في التنور لا عدمت النور: قال ثعلب: كل اسم على فعول فهو مفتوح الأوّل، مثل: تَنّور وكَلوب وشَبوط وسَفود وسَمور، إلا السُّبوح والقُدوس فالضم فيهما أكثر، وقد يفتحان. قال أبو عبيدة: ولم يسمع في الكلام فاعول إلا غير مهموز، مثل طاوس وداود، ولا فعل بضم الفاء والعين إلا ذؤل، وهو دويبة تشبه ابن عرس، ولا فعيل مفتوح الفاء، وثم فعليل بالكسر مثل: زنبيل أو زبّيل، فإن فتحت فقل زبيل مخففاً مثل زبير. قال: ولم يسمع في الكلام فِعل وفَعل إلا أربعة: مِثل ومَثل، وبِدل وبَدل، وشِبه وشَبه، ونِكل ونَكل. والبدل والبديل، ويقال: بدل وبديل وأبدال، وبدل الشيء: غيره، والبدل وجع في اليدين والرجلين، يقال: بدل يبدل بدلاً، والبديل واحد الأبدال، وهم قوم صالحون إذا مات واحد أبدل الله مكانه آخر، فلا تخلو الأرض منهم. قال: ولم يأت في الكلام فَعلان مفتوح الفاء من غير ذوات التضعيف إلا حرف واحد: ناقة خَزعال، وهي إذا كان بها ظلع. وزاد ثعلب قَهقار، وخالفه الناس وقالوا: قهقر. وزاد أبو مالك: قسطال، وهو الغبار. وأما في المضاعف فكثير، كالقلقال والزلزال. ولي بهذا المعكوس ولوع وله بقلبي وقوع، وقد عنيت به فيما خلا من الأزمان نعم وحتى الآن، وقلت في ذلك:

قدماً شغفت بذا المعكوس إنّ له لذاذة عندما يصطاده الفكر
وحق ذا فجميع الشعر أرملة أنثى وذا النوع منه الأعزب الذكر

والحريري رحمه الله إمام هذا الشان وفارس الميدان، لم ينسج أحد على منواله ولا رأيت أحداً أتى بمثاله، ساق منه في مقاماته خمسة أبيات بمثلها أحد لم يأت، وأنا اعتراني وقت قراءتها مع بعض الطلبة ممن له جلبة ولا غلبة كلام طويل عريض أدّى إلى أن صنعت منها عشرة أبيات على القافية والعروض، وإن لم تكن ابنة أمها فهي بنت عمها، وقد كفيتك لومي يومي وبينت لك لبسي بما قلته مخاطباً لنفسي وهو:

لا يغـــرنك إن أتـــيت بمقلـــو ... ب مــن الـشعر ظـل وهــو كثيـر
فالـــذي ســقت مـــنه فهـو طمـيث ... والـــذي ســاقه الحريـري حريـــر

وكـنت لمـا قلـت ذلـك الـشعر أريـته شـيخنا الفقـيه الخطـيب أبـا محمـد عبد الوهاب بن علي وسألته: هل قال من هذا النوع شيئاً أو رآه لغيره، فكتب إليّ بعد كلام: ونظرت إلى صنف من المقلوب أخذ بمجامع القلوب، ولم أر مثل هذا النوع نوعاً يأبى أن ينقاد لا كرهاً ولا طوعاً، كم أعيا شعراء حذاقاً راموه فما وجدوا له مذاقاً، وإذا وقع منهم الفذ الفريد على البعض مما يريد صدر عن قريحة معذبة وألفاظ لا فصيحة ولا مستعذبة، ولقد رمت ذلك مدّة الشباب ولزمت أسكفة الباب، وأكثرت القرع وشمرت للولوج الدرع، ثم لا أذن تسمع الأذن فتلذ ذلك المقول ولا رجل تفارق الحجل فتأخذ في الدخول، فعندها ثنيت عناني ومضيت لشاني، وأنت أيها الصفوة المنحول قد تهيأ لك الدخول، وتمكنت من تلك الدار وسكنتها بمساعدة الأقدار، فامدد بها رجليك فلا حرج عليك؛ في كلام كثير اختصرته. قلت: وأنت أيها الناظر في أحرفي لا تلتفت إلى المدح ولا إلى القدح، وانظر إلى بيت واحد من تلك القطعة أثبته لك في هذه الرقعة، فإن استقللت خيره فقل غيره، وإلا فغمّ الديك وقل بنفسي أفديك، وهو:

أســـــال مـــــن مـــــنّ ألا ... لأن مـــــن مـــــلّ أســـــا

هـذا أحـد الأبـيات العـشرة حـروفه بـين يـديك منـتشرة، فاعكـسه وقـسه، فـإن استحسنته فاجبذه وإن استخشنته فانبذه، ألا: واحـد الآلاء وهـي الـنعم. ولـي فـي هـذا النوع من المقلوب نحو العشرين بيتاً قد جمعتها في غير هـذا الموضـع، انظرها في التكميل مع ما يشبهها من هذا القبيل، وسيأتي من ذلك طرف عندي من اللباب في باب ناب وتاب يستظرفه أهل الآداب، وربما يكتبون الكلمة فيلغزون بمقلوبها على من لا يفهم غير مكتوبها، فإذا عكسها المكتوب إليه بها كان لسرّها متنبهاً. كما يحكى أن امرأة أديبة ظريفة لبيبة رحلها زوجها إلى أرض غربة لم يكن لها بها مفرج كربة، فاحتاجت إلى ما يحتاج إليه النساء من الاستحداد واستحيت أن تطلع على ذلك أحداً من الأنداد، فكتبت بيتي شعر إلى أبيها أظن أو أمها تلغز فيهما بمهمها، وكانت تلك البنت بحصن يعرف بالنبت، فقالت:

الـــنبت شـــرّ مكـــان ... لا أعـــدمن فـــيه بوســـا
فقـــدت هـــارون فـــيه ... فابعـــث إلـــيّ بموســـى

ومعكـوس هـارون علـى هـذا الشكل نوره. فانظر إلى هـذه الحرة الرشيدة كيف

أخفت الموسى الحديدة حين جعلت هارون لها ترساً، وكيف أخفت النورة فيه كي تنسى فلا يهتدى لها حتى تقرأ عكساً. وقد أعجبت أخرى بأغرب من هذا كانت تهوى غلاماً اسمه رشا فصحفته زينبا، وقالت:

أضحى الفؤاد بزينبا صباً كئيباً معربا
فجعلت زينب سترة وكتمت أمراً معجبا

وأقول: الأولى عندي أعجب وتقديمها أوجب، ومثل هذا التصحيف ما قاله عباد بن ماء السماء لما تفاءل وقد أهدي إليه سفرجل:

أهدي إليه سفرجل فتطيّرا منه وظل مفكراً مستشعرا
خوف الفراق لأن شطر هجائه سفر وحق له بأن يتطيّرا

أخذه هذا المعنى الحصري فقال:

متحفي بالسفرجل لا أحب السفرجلا
مبتداه سفرجل سفرجلّ واعتلى

ونمي هذا إلى أبي محمد البستري فقال في ضده:

ما في السفر شيء يستراب به فلا تبت منه مطوياً على وجل
واقبل هديته من راحتي مترة راحت عليك به أو راحتي رجل
إني نظرت إلى تصحيف أحرفه فانفك منهنّ لي بث يفرج لي
لا تقل سفرجلّ البلاء به أو حل منه وقوع الحادث الجلل

ومن هذا النوع من التصحيف أيضاً ما يحكى عن أمير حسيب شريف كان يمشي مع وزير له أديب ظريف، فمرّا في طريقهما بنسوة يتسابين، فقال أحدهما لصاحبه: الجباسين، وقال له الآخر: الجيارين، ففهم كل واحد منهما ما أراد صاحبه. أما الجباسين فتصحيفه الخناشين، وأما الجيارين فتصحيفه الحيازين. ومن التصحيف الظريف ما يذكر أن رجلاً رأى في منامه كأنّ قرمدة من السقف سقطت عليه، فأتى لمعبر في زمانه فسأله عن منامه، فقال له المعبر: نويت سفراً عن قريب؟ قال: نعم، قال له: لا تسافر في هذا الوقت، فإن تصحيف قرمدة: قرّ مدّة، فأقام الرجل وتبين له بعد ذلك أن الخير كان في مقامه.

ومثله من التصحيف أن مدينة آبدة أخذها ثائر في زمان الفتنة، فبعث الأمير يستخبر أمرها فوجدها قد أخذت، فجاء إلى الأمير وهو في الناس فكره أن يفشي ذلك الأمر فورّى بأن قال: احدب آبدة، ففهم الأمير ما قال، والآبدة: من أسماء الدواهي، وهذا النوع من الأدب يجذب ولا يجذب.

ودونك فائدة في الجذب، والجذب أحلى من الخصب بعد الجدب: جبذ وجذب وهما سواء، والجدب بالدال المهملة غير المعجمة ضدّ الخصب، وجدب فلان فلاناً: سبّه وشتمه، وهذه أيضاً فائدة على ما تقدم زائدة. كمل الكلام في معاني هذه اللفظة عندي بأسرها ولا أرتبط لحصرها، لأني أجهل ما غيري به زعيم، وفوق كل ذي علم عليم، وسآتيكم أيها الحفاظ في هذا الكتاب بألفاظ:

نشطت إليها فصرفتها على النص ثمت عكساً وقلبا
فمهما تمرّ بها في الكتا ب فادع لمن فيه أتعب قلبا

وأختم لكم هذا الفصل أيها البنون بفائدة كبيرة في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [النبأ: ١] على معنى من التفصيل ذكره صاحب التحصيل، يكون كفارة لما تقدّم لأن الشر بالخير يهدم. قرأ ابن مسعود: عما يتساءلون، بألف، وكذلك قرأ عكرمة وغيره، ومن حذف، وهو الأكثر، فللفرق بين الاستفهام والخبر، وقوله: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ٢] ليس متعلق (عن) يتساءلون الظاهر في التلاوة، لأنه كان يلزم دخول حرف الاستفهام فيقول: أعن النبأ يتساءلون؟ كقولك: كم مالك أثلاثون أم أربعون؟ فوجب لما امتنع أن يتعلق بـ (يتساءلون) الذي في التلاوة أن يتعلق بـ (يتساءلون) آخر مضمر تقديره: عن أي شيء يتساءلون؟ فقيل: يتساءلون عن النبأ العظيم، وحسن ذلك بتقديم يتساءلون، فأضمر يتساءلون آخر، والله أعلم بكتابه، والنبأ العظيم هنا هو البعث بعد الموت وكانوا ينكرونه. فرغت من التعريف بما في هذين الاسمين من التصريف على حدّ من التوسيط بين الإفراط والتفريط. وقد صنعت لك أبياتاً أيها الأديب الظريف أفضل فيها العلم على التليد والطريف، فإن تعلمتها فأنت العريف، وإن تفهمتها فأنت الشريف، فاجعلها في صدرك لعلك تدرك:

لتصريف العلوم ألذ مما أصرفه من الذهب المصفى
لأن العلم ينفع دون مال وليس كذاك نفع المال يلفى
ويكفي المال عيباً أنه صامت والعلم ينطق ليس يخفى
ويكفي المال أن لا فوح فيه وأن العلم تلفي فيه عرفا
يشهى حامليه لنشره حيـ ـث حلوا وانتووا أدباً وظرفا
ترى الأقوام إن علموا ولا ما ل عندهم هم كالشمس عرفا
وإن جمعوا الدراهم دون علم فهم نعم وقل عدم بل أخفى
ولكن يا فتى للعلم شرط به تزداد في الخيرات ضعفا

تكـون بمـا تعلـم عـاملاً لـه تـضيع مـن جميع العلـم حـرفا
فهـذا شـرطه وعلـيه تقـوى بـتقوى الله فاتقـه لتكفـى
وهـذي وصـيتي فاعمـل بهـا لا تـضعها بعـد ذا عجـزاً وضـعفا
فإنـك إن أضـعت قـرعت سـنا أسـى وندامـة وازددت لهفـا
ومـا التوفـيق والتـسديد إلا مـن المولـى فمـدّ إلـيه كفـا

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: العلم خير من المال، لأن العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم والمال محكوم عليه.

وقال مصعب بن الزبير: تعلم العلم فإن لم يكن لك مال كان لك مالاً، وإن كان لك مال كان لك جمالاً، والكلام في هذا المعنى كثير، وما التوفيق إلا من عند الله الذي هو على كل شيء قدير. قلت: والذي يعينك أيها الطالب على العلم الدرس مع الفهم، ولا يزال في يدك كتاب تتعلمه فافهمه فإنه نعم الجليس ونعم الصاحب والأنيس، ألم تسمع قول الشاعر ذي العتاب: وخير جليس في الزمان كتاب. أنشدني الشيخ الفقيه الأديب أبو محمد عبد الوهاب رحمه الله لبعضهم وكتبه لي بخط يده رضي الله عنه:

يـا ماجـداً أثنـى علـى مالـك مُمـتدحاً فـي شـعره مالكـا
شـيمتك الإفـضال يـا مفـضل وأنـت مطـبوع علـى ذلكـا
فـإن يكـن يهلـك لـي مالـك فـلا تراني بعـده هالكـا
مـا الـنور إلا كـتب حازهـا بيـتك مـن نـسخك أو مالكـا
فأنـت فـيها كـل حـين تـرى بعـض الـذي مـرّ علـى بالكـا
فـإن يكـن أقفلهـا واضـع فعـند أخـرى فـتح أقفالكـا
مـا كـل حـين تُجـد الـشيخ ذا ميـسرة وفقـاً لأشـغالكا
لا سـيما إن كـنت ذا قلـة فأنـت مهجـور لإقلالكـا
وربّمـا أبـرمته فاشـتكى والكـتب لا تـدري بإملالكـا
فالكـتب لا تعـدمها سـاعة فاسـتبقها فـي حمـل أثقالكـا
أخلـل بهـا ممـا تـرى دارسـاً ففخـرها فـي فـرط إخلالكـا

وقد تقدّم في أوّل الكتاب:

اعكـف علـى الكـتب وادرس تؤتـى فخـار الـنبوّة
فـالله قـال ليحيـى خـذ الكـتاب بقـوّة

وقد حضضت في شعري كما تقدّم وفي فهرستي أبيات منها:

عليك بدرس الكتب تسمُ إلى العلى وتدعى شريفاً كالذوائب من فهر

وحكى أحمد بن أبي عمران قال: كنت يوماً عند أبي أيوب أحمد بن شجاع، وقد تخلف في منزله، فبعث غلاماً من غلمانه إلى أبي عبد الله بن الأعرابي صاحب الغريب يسأله المجيء إليه، فعاد الغلام وقال: قد سألته ذلك فقال: عندي قوم من العرب، فإذا قضيت أربي معهم أتيت، قال الغلام: وما رأيت عنده أحداً إلا أني رأيته وبين يديه كتب ينظر في هذا مرّة وفي هذا مرّة، ثم ما شعرنا حتى جاء، فقال له أبو أيوب: يا أبا عبد الله، سبحان الله العظيم، تخلفت عنا وأحرمتنا الأنس بك، وأنه قال لي الغلام ما رأى عندك أحداً، وقد قلت له: إنا مع قوم من الأعراب فإذا قضيت أربي معهم أتيت، فأنشد:

لنا جلساء لا نملّ حديثهم ... ألبّاء مأمونون غيباً وشهدا
يفيدوننا من علمهم علم من مضى ... وعقلاً وتأديباً ورأياً مسدّدا
فلا فتنة تخشى ولا سوء عشرة ... ولا نتقي منهم لساناً ولا يدا
فإن قلت أحياء فلست بكاذب ... وإن قلت أموات فلست مفندا

وقلت:

خرجت من شيء إلى غيره ... والعلم خل الخاشع الخاضع
فاعمل بما كنت له عالماً ... واسترحم الرحمن للواضع

وأنت قد خرج لك من لفظ زيد وعمرو بحر كلام غمر مع التعويل على ترك التطويل والعلم القليل والذهن الكليل، فاقنع بهذا التعليل ففيه شفاء العليل، وإطفاء الغليل، وقد كنت لما أردت جمع تلك الأبيات المتقدمة، جمعت من هذه الألفاظ الأشكال نحو خمسين بيتاً على تلك القافية المتقدمة نحو:

وعم وغم وعمّ وغمّ ... وغمّ وعمّ وعل وعل

ونحو:

وخل وخلّ وجلّ وحلّ ... وحل وخل وحل وجلّ

وغير ذلك مما أردت أن أحصر فيه هذا الفن فرأيته بحراً لا يرتبط وغمراً لا ينضبط، فرجعت إلى الألف والباء مع سائر الحروف التي جمعتها في الأبيات، فقلت: إن عمل بسائر الحروف كما عمل بالألف مع الباء فيستخرج ذلك وغيره، وقد كان ذلك في الشعر أيضاً أبيات كل كلمة على ثلاثة أحرف نحو: (زيد وزند وزبد وزبد) مثل ما تقدّم، ومثل: (وخبر وخبر وخير وختر) إلى غير ذلك.

وقد اعتراني مع بعض الطلبة نوع من هذا إذ حدّثتهم أنّ الوزير أبا عبد الله بن شرف رحمه الله صنع ست كلمات لكل كلمة معنى غير الأخرى وهي (يعمة يعمه)

الكلمات المتقدّمات، فاستغرب ذلك وقال: لا يقدر في هذا الزمان أحد على مثل هذا، فأخذت تبنة من الأرض فصحفتها على ستة وسبعين مرّة ولم أغيّر شكلها غير أنها منثورة دون وزن، ثم إني وصلت منها في شطر واحد ست عشرة لفظة تقرؤها متصلة يكون لها معنى آخذ من الحسن بطرف مثل الذي لابن شرف، ومثال ذلك: (نبيه تنبه بنية بنية تبنة تنبه بنيه بثنة بنية)، والنبية هنا البعد، وكذلك فكذلك إلى آخر الكلمات، ثم إني نظمت منها بيتين اثنين موزونين، وقد تقدّم ذكر هذا في أوّل الكتاب، وكذا فعلت معهم في هجاء يرملون الأحرف الستة صحفتها وقلبتها خمسين مرّة لكن على غير شكل هذه اللفظة، على أنواع من العكس والقلب، مثال ذلك: أنّ معكوس يرملون (نول مري)، ومقلوبه (لون مري ولوني مرّ ونيل مرو وولي نمر ونميرول) وكذلك فكذلك إلى آخر العدد، وقد جمعت هذه الكلمات وأضفت إليها الشعر الملغز به المتقدّم الذكر في ألفاظ التبنة المذكورة، وما كان من هذا الجنس وما أجاب عليه بعض من رآه فجاء من جميعها كراسة كبيرة وضمنتها كتاب التكميل المذكور، فانظرها هناك فهو فيها مسطور، وقد تقدّم ذكرها أيضاً. وإنما ذكرت هذا لتعلم أن هذا اللسان العربي عجب من عجائب الله ليس لأحد من الأمم ما للعرب من ذلك، وسأمثل لك من هذا النوع هنا شيئاً تستدلّ به، فخذها فائدة زائدة تريد أذكرها لك، أي فل فل، أي: قل، فإن قلت لي كذا أقل لك نعم دامت لك النعم، هاأنا ذا أجيب بالأمر العجيب، ولا أزيدك أي فل على فل قل، فأقول ندائي إياك فل، وأمرك لي قل، إذا جمعتهما جاء منهما فل قل كلام له معنى، فأوّل ما أبدأ بالفاء إذا كتبت لك ما شكله (ف) بلا ضبط ولا نقط وقيل لك تكلم على هذا الشكل؛ علمت بصورته أنه ليس بألف ولا دال ولا غير ذلك، فلم يحتمل إلا أن يكون فاء أو قافاً، وأقرب ما تقول فيه فاء، لأن القاف لا تكون على هذا الشكل منفرداً فتقول فيها فا، وتقول فيها ما قلته في العين والغين المتقدّمتين من أنها تدل على العدد المعلوم في أبي جاد، فإن كستها فقلت: ف، رجعت أمراً من وفا يفي، وجاء منها في الحديث على هيئة صورتها في التهجي ما خرّج مسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفة الدجال: مكتوب بين عينيه (ك ف ر)، أي: كافر. وفي رواية أخرى: مكتوب بين عينيه كافر، ثم تهجاها ك ف ر يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب.

وجاء في فضائل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن الليث بن سعد أنّ رجلاً رأى في المنام منادياً ينادي من السماء: جاءكم اللين والدين والعمل الصالح في المصلين، فقال الناس: من؟ فنزل المنادي من السماء حتى كتب في الأرض (ع م ر)

يريد عمر، وكان ذلك في مولده سنة إحدى وستين وقت قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما، وولي الخلافة سنة تسع وتسعين، وتوفي سنة إحدى ومائة في رجب، وكانت ولايته سنتين وخمسة أشهر وأربع ليال، وفضائله رضي الله عنه مشهورة مذكورة. فإن كتبتها معربة فأخرج من صورتها معنى آخر وهو فاء، تقول منه: فاء يفيء فيئاً، ومنه في القرآن العزيز: ﴿فَإِن فَآءُو﴾ [البقرة: ٢٢٦] ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ﴾ [الحجرات: ٩]، وسيأتي هذا مع ذكر الفيء في بابه من هذا الكتاب مع الفاء الحرف العامل في الأسماء والأفعال إن شاء الله.

وقد تقدّم ما دلت عليه من المعنى في قول الشاعر:

ألا فـــا ألا تـــا...................... ....

وكذلك تقول: رأيت فا زيداً، تريد: فمه، وسيأتي. وفي رجال الحديث من اسمه فأفاء، أخرج الدارقطني من حديث بشر بن فأفاء حديث الصلاة في السفينة فذكره. ويقال: رجل فأفاء على وزن فعلال، إذا تردّد في الفاء، وفيه فأفأة، والكلام في القاف في قولك: ق، مثل الكلام في الفاء، وسيأتي الكلام أيضاً في قوله تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١] واختلاف القراء في ذلك، إلا أنه بقي من شكل فاء: قاء، فعل أيضاً من القيء، وقد جاء في الحديث مواضع على ما ستراه وقد فسر أبو عبيد حديث النبي صلى الله عليه وسلم في الصبي الذي كان به جنون فمسح صدره ودعا له، فثع ثعة، فخرج من جوفه جرو أسود يسعى، قال: معناه قاء قيئة، ويقال: أثاع الرجل إثاعة، إذا قاء، فهو مثيع، والقيء: مثاع، وأنشد:

تـــمج عـــروقنا علقـــاً مـــثاعا

يصف الجراحات، قاله صاحب العين. ويقال: هاع يهوع هوعاً، إذا قاء بلا كلفة، وهوّعته: قيأته. وكذلك إن كتبت معرباً قاف جاء منه أيضاً معنى آخر، وقد تقدم قول الشاعر:

قلـــت لهـــا قفـــي فقالـــت قـــاف

وسيجيء قاف مع معكوسه فاق في بابه إن شاء الله. ويأتي من مقلوب قاف: أفق من رقدتك، وأفق جمع أفيق، وهو الأديم، وقد تقدّم، وسيأتي الكلام عليه بحول الله وقوّته.

وقال صاحب العين: الأفيق: الأديم، والجمع أفق، والأفقة: مرقة من مرق الإهاب. وقال السيرافي: لم يجمع فعيل على فعل إلا في أفيق وأفق، وأديم وأدم، وقضيم وقضم وهي الصحيفة. وقال غيره: ويجمع آفقة، وأديم وآدمة مثل رغيف

وأرغفة.

رجع: ويأتي منه أفق واحد الآفاق، قال ع: يقال: أفاق الرجل يأفق، إذا ركب رأسه في الآفاق، ومنه رجل أَفَقي بفتح الهمزة والفاء، وكان أبو نصر وغيره يقول بضمها وهو القياس، وقد جاء أفق بمعنى فضل. قال الأعشى:

ولا الملك النعمان يوم لقيته ... بأمته يعطي القطوط ويأفق

والقطوط جمع قط، وهي الصحيفة، من قوله تعالى: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص: ١٦] أي: حسابنا فمعنى البيت أنه يكتب الجوائز في الصحف ويفضل، والأمة: النعمة، ومن القط حديث زيد أنه كان لا يرى ببيع القطوط بأساً، خرّجه ثابت وقال: القطوط: الأرزاق، وأصل القط الكتاب، وإنما سمي الرزق قطاً لأنه كان يكتب به إلى الناحية التي يكون بها حق السلطان من الطعام. وكره مالك رحمه الله وطائفة من العلماء هذا، وهي الصكوك التي ذكر في الموطأ أنّ مروان بن الحكم رحمه الله كان يبعث الحرس ينتزعونها من أيدي الناس، لأن ذلك من بيع الطعام قبل أن يستوفى، وسيأتي القَط بفتح القاف في باب الدال إن شاء الله تعالى.

رجع: ويأتي من مقلوبه أقف بمعنى اتبع، من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] وأقف أنا من وقف، وقفاً واحد الأقفاء، ويجمع أيضاً على أقفية، ويقال قافية، ومنه الحديث: يعقد الشيطان على قافية أحدكم، وهو مؤخر الرأس، وسميت القافية بذلك لأنها آخر البيت، والقفن لغة لبعض العرب، وكذلك القفي والقفو، يقولون ذلك عند الوقف، ويقولون ذلك أيضاً إذا وصلوه بالضمير، مثل: قفيك، وقفيّ، كما قالوا: عليك وعليّ. ومنه حديث ابن الزبير رضي الله عنه: وضعوا اللج في قفيّ، وسيأتي، ومثله قول الشاعر:

سبقوا هويّ وأعنقوا لهواهم ... فتخرّموا ولكل جنب مصرع

وأنكر الزبيدي ذكر القفنّ والوشجن في الرجز الذي أنشده بعض العرب وهو:

أحبّ منك موضع الوشجنّ ... وموضع الإزار والقفنّ

وقال: إنما جاء لغير الفصحاء وهو كالعبث ممن قاله، وقد أجازه غيره وقال: يقال القفنّ في موضع القفا فتزاد فيه النون مشدّدة، وأنشد الرجز المتقدم.

وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني أستعمل الرجل الفاجر لأستعين بقوّته ثم أكون على قفائه. والقفاوة: البر واللطف، والقفي: الضيف المكرم، وفلان قفيّ بفلان، ويقال: لفلان عندي قفية ومزية، ولكن يقال أقفية ولا يقال أمزية، قاله ثابت. وقال عمر بن الخطاب في العباس رضي الله عنهما: قفية آبائه، يريد: تلوهم، وسيأتي.

يقال: هذا قفيّ الأشياخ وقفيهم، وسيأتي الكلام في القافة في باب القاف مع قف وغيره. والقفينة، بالنون: هي الشاة التي تذبح من قفاها، وقد قفنها قفناً، وهو منهي عنه، فإن ذبحها في الحلق فقطع الرأس، فقد جاء في حديث إبراهيم النخعي رضي الله عنه فيمن ذبح فأبان الرأس يقال: تلك القفينة لا بأس بها، وقد يقال في هذا: إنّ النون زائدة لأنها القفية، ويقال: الياء الأخيرة بدل من النون لأنها لو كانت أصلاً لبقي الفعل بلا لام في قولك: قفيها. ولا يعرف أبو زيد إلا القفية بالياء، ويقال: القفن، أن تضرب بعصا أو سيف فتموت، وهذا منهي عنه أيضاً، بل حرام، لأنه بالعصا وقذ، وبالسيف عقر.

ويأتي من شكل قِفًا :

قفا نبك، وفقأ عينه، بالهمز، وفقا، بغير همز مقصور، وهو النمس الأخضر إذا انتفخ وعليه قشرة غليظة قبل أن يدرك ولم يحمرّ، قاله ثابت وفسره في قول الراجز:

وصار لي مثل القفا ضرائري مخرنطقات عسراً عواسري

فصرت بينهما كالساحر

يقول: انتفخت عليّ من الغضب، ومخرنطقات: متعصبات، عواسري: يحملنني على العسر.

وربما بقي من هذا النوع ما لا أعلمه الآن ويعلمه غيري، وأذكر لك أبياتاً ذكر فيها القفا مما أنشدني الحافظ رحمه الله قال: أنشدني القاضي أبو محمد الحسن بن نصر بن مرهف النهاوندي بها، قال: أنشدني الأديب المأمون بمرو لنفسه:

لي على الناس فضل نظم ونثر من أباه هجوته وأباه
وإذا ما أتى صفعت قفاه وقفا من أعانه وقفاه

ولي من هذا النوع قطعة مطوّلة منها:

حبّذا غادة كخوطة بان لو رآها الحكيم كرّر آها
أدباً جمعت وخلقاً وخلقاً أبواها بذلكم حبواها
رحماها عن أن تطا رحماها وحماها عن أن تضام حماها
كم بها هام ويحه من همام فنهاها عن القبيح نهاها
رام منها الحرام قبلة ثغر فأبت أن يبوس فاها سفاها
قبل الأرض حين لم يلق فاها ثم لما ولت قفاها قفاها

إلى آخر الأبيات، انظرها في التكميل.

ويكون قفا بمعني اتبع، ويكون أيضاً بمعنى قذف، تقول: قفوت الرجل أقفوه قفواً: قذفته، وسيجيء مستوفى في باب القاف إن شاء الله تعالى.

فصل:

وقد فرّق أهل اللغة بين الحروف التي آخرها حرف صحيح مثل الدال والذال، وبين الحروف التي آخرها همزة مثل الطاء والظاء والفاء، فقالوا: كل حرف بعد ألفه حرف صحيح فإنه يرجع إلى الواو في التصغير، فتقول في الدال: دويلة، وفي الذال: ذويلة، وتقول في الظاء: ظيية، وظييت ظاء: إذا صوّرتها، وقياس الواو في النحو أن تقول في تصغيرها أوية، وتنسب إلى ما كان آخره همزة مثل الياء والفاء فتقول: القصيدة الياوية والفاوية، وإلى ما كان آخره حرفاً كالصاد والكاف والقاف فتقول: الصادية والكافية والقافية.

فصل:

فإن عكست هاتين اللفظتين أعني (فا) و(قا) جاء منهما (أف) و(أق)، وستراهما في مكانهما وما يؤدّيان من المعاني، واختلاف القراء في أف إن شاء الله، ثم نرجع إلى اللام المتقدّمة في فل، فإن كتبتها (ل) ولم تشكلها، دلت على العدد المتقدّم، وإن كسرتها، جاء منها فعل أمر من: ولي يلي، كما تقدّم في الفاء والقاف، وإن كتبتها على هذا الشكل لام معربة، جاء منها فعل، تقول: لام فلان فلاناً على كذا وكذا، بمعنى عتب وعذل، من قولك: لام يلوم لوماً، وكان في العرب من اسمه لام، وهو جدّ أوس بن حارثة بن لام الطائي، وهو مشهور شريف في العرب.

وجاء لام في الحديث، حين ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأرض تكون يوم القيامة خبزة واحدة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلينا ثم ضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: ألا أخبرك بإدامهم؟ قال: إدامهم لام ونون، قالوا: ما هذا؟ قال: ثور ونون يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفاً، ذكر في الحديث باللام ونون، فلا أدري أهو اسم واحد بكماله لأني رويته في مسلم بضم الميم؛ أم هو حرف تهج من حروف المعجم، والله أعلم.

فإن همزت الألف مع اللام جاء منه معنى، تقول: لأم بين الشيئين، جمع بينهما. وفي الدعاء من هذا: ألأم الله شعثكم ولأم شعثكم. وتقول: هذا شيء لأم، أي: مجتمع ملتئم، ومآل: مرجع ومصير، ومال أمر من مالأت إذا تركت همزه في الأمر، ويأتي منه: مال منادى مرخم، وقد قرئ في القرآن: (ونادوا يا مال) قراءة عليّ وابن مسعود رضي الله عنهما. ولي شعر مطوّل قوافيه كلها مال مال، انظره في التكميل إن شاء الله، وشعر آخر قوافيه كلها مال ذلك مال ذلكما إلى خمسة عشر مرة.

ويأتي من مقلوبه امل وأملِ عليّ الكتاب، وأمِلْ إليّ رأسك. وآمل: اسم بلد، وإليه ينسب أبو سعيد الآملي من أهل الحديث. وآمل: اسم فاعل. وكذلك إذا أدخلت

على مل ألف الاستفهام قلت: أملّ زيد كذا أم لا، وأمل كذا من الأمل، وغير ذلك مما إذا طلبته وجدته.

ويأتي من مقلوبه أيضاً: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ ﴾ [البقرة: ١-٢] وكذلك الم وألمّ في الأمر، وألم: فعل مضى، فإن أضفت إلى الفاء اللام جاء منه مخفف من فلان وليس بترخيم، ويأتي الكلام عليه في بابه إن شاء الله تعالى. وفل السيف، وفل القوم المنهزمين وغير ذلك مما يأتي بعد ذلك مع معكوسه لف ولف في باب الفاء إن شاء الله، فإن جعلت الفاء قافاً جاء منه قل: أمر من القول، وتكلم العلماء في معنى إثبات هذه اللفظة حيثما وقعت في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [الكافرون: ١]، و﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١] وغيره، فخرّج البخاري عن أبيّ قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: قيل لي: قل قال: فنحن نقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفيما قرأته على الحافظ بالإسناد المتصل إلى أبيّ رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث: فقيل لي: قل، فقلت لكم، فقولوا: قال أبيّ: فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنحن نقول.

وقال بعض العلماء جاءه بذلك جبريل عليه السلام مكتوباً كذلك فلم يكن يسقط منه شيئاً. وفي القرآن منه شيء كثير: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، و﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ ﴾ [الكهف: ١١٠]، و﴿ قُلۡ أَعُوذُ ﴾ [الفلق: ١] وغير ذلك، والله أعلم بما أراد من ذلك.

ويأتي منه أيضاً قل، من القائلة، وقل: من القل، وغير ذلك مما يأتي مع معكوسه لق ولق في بابه إن شاء الله تعالى. فإن ذكرت الفاء واللام مع القاف جاء منه فلق: فعل بمعنى شقّ، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ ﴾ [الأنعام: ٩٦] قال أهل التفسير: معناه شاقّ الضياء عن الظلام، وكذا قالوا في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾ [الأنعام: ٩٥]، قال ابن عباس: معنى فالق: خالق. وقال مجاهد: هو الشق الذي في الحبة والنواة. وقال الحسن وقتادة: هو فلق الحبة عن السنبلة والنواة عن النخلة.

وكثيراً ما كان علي بن أبي طالب يقسم: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، وسيأتي إن شاء الله تعالى. ويكون منه فلق أيضاً كقوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴾ [الفلق: ١]، قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: الفلق: الصبح، وذلك لأن عموده ينفلق بالضياء عن الظلام. وقال ابن عباس: الفلق: الخلق. وقد تقدّم في فالق الحب والنوى، وعنه

أيضاً الفلق: سجن في جهنم. وقال كعب: بيت في جهنم. وقال ابن جبير: هو جبٌ في جهنم. وسيأتي تفسيره في باب الدال إن شاء الله، نعوذ بالله من جميع عذابه وأليم عقابه. والفلق: الفجر، والله فلقه، أي: برأه، ومنه قولهم: والذي فلق البحر لموسى، وهذا أبين من فلق الصبح وفرقه، وسمعته من فلق فيه، وضربته على فلق رأسه، والفلق بالكسر واحدتها فلقة، والفلق والفليق والفيلق: الداهية، والفيلق أيضاً: الكتيبة الشديدة، والفليق والفليقة: الشيء العجيب، قال الشاعر:

يـــا عجـــباً لهـــذه الفلـــيقه ... هـــل تذهـــبن القـــوبا الـــريقه

والقوباء تمدّ، وذكر بعضهم أنها لا تمدّ، قاله ثابت رحمه الله، وهي مأخوذة من القوب وهو التقوير، وقالوا: شاعر مفلق، والمفلاق: الرذل الدنيء، والفلق والفالق: مطمئن بين ربوتين، قاله صاحب العين.

ويأتي من معكوسه قلف، وهو مصدر الأقلف، وفي البخاري: قال الحسن وإبراهيم: لا بأس بذبيحة الأقلف، والقلفة: الجليدة، ذكر ذلك صاحب العين يريد به الذي لم يبالغ في قطع ذلك منه عند الختان، والله أعلم. قال: والقلف: اقتلاع الظفر من أصله.

ومن مقلوبه: قفل الجند قفولاً وقفلاً: رجعوا، وقفلتهم أنا، وهم القفل. وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قفل من خيبر أسرى، ويجيء مصدر هذا قفولاً كما تقدّم. وجاء في حديث آخر: فلما أردنا الإقفال من عنده سألت عنه بعض أشياخي فقال: قد يجيء المصدر على غير المصدر كما قال تعالى: ﴿ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ [نوح: ١٧]، وتقول: قفل السقاء قفولاً: يبس، وشيخ قافل، وأقفلت القفل، وأعطيته ألفا قفلة، أي مرة، ومن هذا قول عبد الملك بن حبيب القرطبي رحمه الله:

صـــلاح أمـــري والـــذي أبتغـــي ... هـــين علـــى الـــرحمن فـــي قدرتـــه
ألـــف مـــن الحمـــر وأقلـــل بهـــا ... لعـــالم أزرى علـــى بغيـــته
زريـــاب قـــد يأخـــذها قفلـــة ... وصـــنعتي أشـــرف مـــن صـــنعته

وكان زرياب مغنياً مشهوراً.

ومن مقلوبه أيضاً اللقف :

تناول الشيء إذا لقفته، ورجل لقف، وسيأتي. والتلقف: الابتلاع. وفي الكتاب العزيز: ﴿ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ﴾ [طه: ٦٩]، واللقيف: الحوض الذي لم يطين ويقال: الملآن. واللفق: خياطة الثوبين تلفق أحدهما بالآخر، ويقال لهما ما داما ملفوقين

اللفاق وكلاهما لفقان ما داما منضمين.

ومن مقلوبه أيضاً بفاءين: لفف في اللسان والكلام، وبقافين قلق وقلق، وسيأتي، فإن زدت على هذه الحروف اللام الأخرى جاء منه فلفل: شجر، وقلقل، وسيأتي مع القلقلة التي هي الحركة. وجاء من معكوسه: لقلق وهو اللسان، وبفاءين: فلفل، لهذا الحبّ المعلوم، وبفاء وقاف مفصولاً فل قل.

رجع الكلام من حيث بدا :

بعد ما نشأ منه ما نشا، نشأ منه وفاق برز من سماء اتفاق وحلاف خرج من غلاف، وكلام عجاب كان عنك في حجاب، وإنما ذكرت هذا كله لتعلم سعة هذا اللسان الشريف المستغرب الذي لا يوجد إلا عند العرب، كما حدّثني الحافظ السلفي عن بعض أشياخه رحم الله جميعهم قالوا: فضلت هذه الأمة على سائر الأمم بالأسناد والأنساب والإعراب، ولو كانت هذه اللفظة على غير هذا الشكل لكان الكلام ربما أثر فيها أكثر لأن فيها لاماً مكرّرة، كما أخرجت من تبنة ما ذكرت لك من العدد، وغيري يجد أكثر مما وجدت وأين تقع معرفتي في معرفة من فوقي، وفوق كل ذي علم عليم.

فصل

مبحث النقط والشكل

من نوع ما تقدّم من التذييل وتكثير القليل من ذلك أني ذكرت فيما تقدّم النقط والشكل فاعلم أن النقط في القرآن محدث، وإنما صنع ذلك لتعرف به أعيان الحروف اصطلاحاً، دليل ذلك أن أهل هذه البلدة ينقطون الفاء واحدة من أسفل والقاف واحدة من فوق، وأهل المشرق ينقطون الفاء واحدة من فوق والقاف اثنتين من فوق، وقد رتب أهل العلم هذه الحروف أحسن ترتيب ضموا الأشكال بعضها إلى بعض مثل الباء والتاء والثاء والجيم والحاء والخاء إلى غير ذلك مما هو معلوم، وقدموا الألف عليها لفضلها، على ما سيأتي إن شاء الله.

وكذلك الباء ونقطوها واحدة للفرق كما تقدّم، فلما أضافوا إليها التاء إذ كانت من شكلها نقطوها اثنين، ثم الثاء ثلاثاً على نسق العدد، ثم أضافوا إليها الجيم على حسب اتصالها بالياء في أبجد، وكذلك وصلوا الدال بالجيم، ولا تحسب الأشكال مثل الحاء والخاء لأنها من شكل الجيم، كما لا تحسب التاء والثاء لأنها من شكل الباء، ويحتمل أن يكون قدموا هذه اللفظة، أعني: أبجد، لأن تصحيفه أب جدّ كأنه ينبيك أنه

جدّ فجد أنت، وقدموا الأب على الجدّ لأن أباك أقرب إليك من جدّك، والله تعالى أعلم بالحكمة في ذلك.

ولما أضافوا للجيم حاء تركوها بلا نقط، ونقطوا الخاء للفرق، وكذلك سائر الأزواج كلها مثل الدال والذال والراء والزاي والطاء والظاء والصاد والضاد والعين والغين والسين والشين، وراعوا في أكثرها ترتيبها في أبجد مثل الكاف واللام والميم والنون في كلمن، وما شذّ من ذلك فإنما قدموه بحسب المخارج، وهذه علة ترتيب أهل المشرق وحروفهم على غير ترتيب بلاد المغرب. ذكر أكثر هذه المعاني أبو عمرو المقري رحمه الله في كتاب المحكم، أو لعل ذلك ليس يعلمه إلا الله ومن علمه إياه من أنبيائه وأوليائه كما خلق صور هذه الحروف على هذا الشكل، والله تعالى أعلم.

وكذلك الشكل الذي هو النقط والضبط أو الضبط بالحركات حسبما تقدّم يخالف ما عندهم ما عندنا، وكره طائفة من العلماء نقط المصحف وقالوا: جردوا القرآن ولا تخلطوه بشيء. وفي لفظ آخر: ولا تخلطوا به ما ليس منه.

وكان الحسن وابن سيرين يكرهان نقط المصحف، ولم يكن منقوطاً فيما تقدّم، وأرخص فيه طائفة أخرى وقالوا: هو تنوير له. وقال ابن وهب: حدّثني الليث وهو ابن سعد قال: لا أرى بأساً بنقط المصحف بالعربية. وقال ابن وهب: وسمعت مالكاً يقول: أما هذه الصغار يعني التي يتعلم فيها الصبيان فلا بأس بذلك فيها، وأما الأمهات فلا أرى ذلك فيها. وسئل ربيعة بن عبد الرحمن عن شكل القرآن في المصحف، فقال: لا بأس بذلك. وقال أبو عمرو المقري في كتاب المقنع أحد تآليفه: اختلف الرواة لدينا في من نقط المصاحف من التابعين، فروينا أن المبتدي بذلك كان أبا الأسود الدؤلي رحمه الله تعالى، وذلك أنه كان أراد أن يعمل كتاباً في النحو ويقوّم الناس به ما فسد من كلامهم، إذ كان قرشياً فقال: أرى أن أبتدئ بإعراب القرآن أوّلاً، فأحضر من يمسك المصحف وأحضر صبغاً يخالف لون المداد وقال للذي يمسك المصحف: إذا فتحت شفتي فاجعل نقطة فوق الحرف، وإذا كسرتهما فاجعل النقطة تحت الحرف، وإذا ضممتهما فاجعل النقطة إلى جانب الحرف، فإن أتبعت شيئاً من هذه الحركات غنة فاجعل نقطتين، ففعل ذلك حتى أتى على آخر المصحف، وذكر في المحكم سبب ذلك أن معاوية رحمه الله تعالى كتب إلى زياد يطلب عبيد الله ابنه، فلما قدم عليه وجده يلحن، فردّه إلى زياد وكتب إليه كتاباً يلومه فيه ويقول: أمثل عبيد الله يضيع، فبعث زياد إلى أبي الأسود فقال: يا أبا الأسود إن هذه الحمراء قد كثرت وأفسدت من ألسن العرب، فلو وضعت شيئاً يصلح به الناس كلامهم ويعرفون به كلام الله تعالى، فأبى

ذلك أبو الأسود وكره إجابة زياد إلى ما سأل، فوجّه زياد رجلاً فقال له: اقعد في طريق أبي الأسود فإذا مرّ بك فاقرأ شيئاً من القرآن وتعمد اللحن فيه، ففعل ذلك، فلما مرّ به أبو الأسود رفع الرجل صوته فقال: إن الله بريءٌ من المشركين ورسولِه، فاستعظم ذلك أبو الأسود وقال: عزّ وجه الله أن يتبرّأ من رسوله، ثم رجع من فوره إلى زياد وقال: يا هذا قد أجبتك إلى ما سألت ورأيت أن أبدأ بإعراب القرآن، فابعث إلى ثلاثين رجلاً، فأحضرهم زياد فاختار منهم عشرة، ثم لم يزل يختار منهم حتى اختار منهم رجلاً من عبد القيس فقال: خذ المصحف وصبغاً يخالف لون المداد، وذكر الحديث المتقدّم. قال: وروينا أنّ المبتدي بذلك كان نصر بن عاصم الليثي، وأنه الذي خمسها وعشرها. وروينا أنّ ابن سيرين كان عنده مصحف نقطه يحيى بن يعمر، وأن يحيى أوّل من نقطها، وهؤلاء الثلاثة من جلة تابعي البصرة، وأكثر العلماء على أنّ أبا الأسود الدؤلي كان المبتدي بذلك، جعل الحركات والتنوين لا غير، وإن الخليل بن أحمد الفراهيدي هو الذي بدأ التمدّد والتشديد والروم والاشمام، وأنه عمل الشكل الذي على الحروف، وأخذه من صورة الحرف، فالضمة واو صغيرة الصورة في أعلى الحرف لئلا تلتبس الواو المكتوبة والكسرة ياء تحت الحرف، والفتحة ألف مسطوحة فوق الحرف، وجعل الحرف المشدّد شبه شين أخذه من أوّل شديد، فإذا كان خفيفاً جعل شبه خاء أخذه من خفيف.

فصل:

تقدّم ذكر الحرف المعتل، قلت: وفيه معتبر لمن اعتبر وتبصرة لمن استبصر، فضل الله بعض الكلمات على بعض كما فعل بجميع خلقه حتى بين الأنبياء عليهم السلام، فقال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال في الناس: ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وكذا هم في الآخرة، فمن الناس مبتلى ومعافى، وكذلك الأفعال، انظر ضرب ووفى، إذا صرّفت ضرب لم تنقص منه شيئاً بل تزيده حرفاً آخر في أوّله، فتقول: يضرب، فإذا أمرت منه حذفت الياء وعوّضت منها ألفاً وقلت: اضرب. وإذا صرّفت وفى نقصت الواو وقلت: يفي، فإذا أمرت منه قلت: فه، ذهبت عنه الزوائد وحروف العلة وبقي في نهاية من القلة، وكذلك إن جزمته حذفته فقلت: زيد لم يفِ، وهذا مثال به اكتفِ، فمع الامتحان لا يبقى إلا الصحيح الصافي ولا يقبل إلا الخالص الوافي، كذلك العبد في الدنيا يظنّ أنه يأتي بشيء وذلك الشيء كالفيء،

يلقى ربه عز وجل كما أخبر: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وكما قال تعالى: ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ [مريم: ٨٠]، إلى غير ذلك من الآي.

ويروى أنّ أوّل خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه حمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: أما بعد أيها الناس قدّموا لأنفسكم، تعلمنّ والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعنّ غنمه ليس لها راع ثم ليقولنّ له ربه ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فبلغك وآتيتك مالاً وأفضلت عليك؟ فما قدمت لنفسك؟ فينظر يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً، ثم ينظر قدّامه فلا يرى شيئاً غير جهنم، ومن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشقّ تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. قلت: وعلى رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته عدد من سلم عليه ومن لم يسلم عليه أضعافاً مضاعفة بغير نهاية ولا آخر.

وفي الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم وطرحت عليه ثم طرح في النار. هذا حال من قد ذهب ماله وأخذت أعماله. ثم انظر إلى هذا المغتر كيف يحشر إن كان بماله مفتخراً وعلى عباد الله مستكبراً. خرّج الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يحشر المتكبرون يوم القيامة مثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان يساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس تعلوهم نار الأنيار(*) يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال، فمثل هذا الرجل المختل الحال مثل هذا الفعل المعتل بين الأفعال.

قلت: وما أحسن قول بعض الشعراء يمدح أحد الأمراء رحمهما الله تعالى:

إذا كان ما ينويه فعلاً مضارعاً ... مضى قبل أن تلقى عليه الجوازم

(*) قوله نار الأنيار، معناه: نار النيران، فجمع النار على أنيار وأصلها أنوار لأنّها من الواو، كما جاء في ريح وعيد أرياح وأعياد وهما من الواو اهـ نهاية.

يصفه بأنه يخاف العواقب فيهب قبل حدوث النوائب مثل الفعل المضارع، يعني أنه ينوي أن يعطي أو يهب هبة من ورق أو ذهب فيمضي ما نواه، وهذا فعل الحرّ الحازم قبل دخول الحرف الجازم، فيقال: لم يعطِ ولم يهب، فزال عنه اسم الجود وذهب، ولا ينكر على هذا النوع من الاعتبار، فقد فعله من فوقي من العلماء الكبار.

حدّثني بعض أشياخي عن بعض أشياخه قال: كنا ندخل على فلان العالم ونحن طلبته فيقول: من أين أقبلتم؟ فنقول: من موضع كذا، فقال لنا مرة: واجتزتم بالسوق؟ فقلنا: نعم، فقال: وما رأيتم بها؟ فقلنا: كذا وكذا، ورأينا فيها حوتاً قد قلي ما رأينا أحسن منه، فقال: وما قال لكم؟ فقلنا له: سبحان الله وهل يتكلم الحوت ميتاً مقلواً؟ فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، تزعمون أنكم طلبة حذاق والأشياء تكلمكم ولا تفهمون عنها، فقلنا: فأخبرنا أنت يرحمك الله فإنا لا نعقل هذا، فقال: نعم، قال لكم ذلك الحوت: يا أيها الناس انظروا إليّ واعتبروا ففيّ معتبر، بينا أنا في الماء أسبح وأمرح إذ رأيت طعمة ملقاة فابتلعتها ولم أفتش ما فيها، فكان في جوفها سنارة الصائد، فأخرقت جنبي كما ترون، هذا ما قاله لكم وإن لم يكلمكم حواراً كلمكم اعتباراً، كم من لقمة تأكلون أنتم كل يوم ولا تفتشون ما في جوفها. هذا معنى كلامه رحمهم الله أجمعين.

ومثل هذه الحكاية خرّج أبو طالب المكي رحمه الله في كتاب قوت القلوب عن بعض أهل الاعتبار أنه كان يمشي في الوحل فكان يتقي ويشمر ثيابه عن ساقيه ويمشي في جوانب الطريق إلى أن زلقت رجله في الوحل، فأدخل رجليه في وسط الوحل وجعل يمشي في المحجة، قال وبكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب ويتجانبها حتى يقع في ذنب منها أو ذنبين، فعندها يخوض في الذنوب خوضاً. وكان بعضهم يعتبر بما يعتريه ويقول: إني لأعرف ذنبي في خلق حماري وفي تسليط فأرتي عليّ، وصدق يقول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ [الشورى: ٣٠]، فإن قلت هذا الذي ذكرته كل أحد يدريه، فأقول: وأنا أيضاً لم أخترعه وإنما أخذته من كتب العلماء، وهم ذكروه، وتركت أشياء ذكروها لم أذكرها.

فصل:

قد أخرجت لك أيها الولد مما فتح الله تعالى عليّ من لفظة فل قل علماً أدبياً دنيوياً، وها أنا أخرج لك من لفظة التبنة المتقدّمة الذكر بعون الله تعالى علماً آخر زهدياً أخروياً فأقول على بركة الله عز وجل: يستدلّ بتلك التبنة على أنها مخلوقة، وما خلق الله شيئاً عبثاً بل ما خلقه إلا ليدل به على نفسه:

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

أول ذلك ما ذكره بعض العلماء أنها تدل على أنها مقتطعة من نبات أكمل من الجماد كالحجر الذي لا ينمي ولا يغتذي، وإن هذا النبات خلقت فيه قوة يجتذب بها الغذاء إلى نفسه من جهة أصله وعروقه التي في الأرض، وهي العروق التي تتصل بالعروق الظاهرة فيالورقة، وهي تتشعب إلى غلاظ ودقاق تكاد تخفى عن البصر لدقتها، وإنها لا تجيء إلا بأشياء تختص بها من تراب وماء وهواء، إذ لو تركت الحبة في البيت مثلاً لم تزد ولم تنمُ لأنه لا يحيط بها إلا الهواء فقط وهو لا يصلح لغذائها وحده حتى ينضاف إليه التراب أو ما يتولد من الأرض، ولا بدّ من الأصل الأكبر وهو الماء لقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ولو كان الماء أيضاً وحده لم تتغذَّ به حتى يخالطها التراب فيصير طيناً ثم يداخله الهواء، إذ لو تركت الحبة في أرض ندية صلبة متراكبة لم تنبت حتى يصل إليها الهواء فيخلخل الأرض فتنشق، كما قال تعالى: ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ ﴾ [عبس: ٢٥-٢٦]، والنبات لا يتحرك بنفسه فلا بدّ من ريح تحرّكه وتضربه بقهر وعنف على وجه الأرض حتى ينفذ فيها، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ [الحجر: ٢٢]، وإنما لقاحها في إيقاع الازدواج بين الهواء والماء والأرض، ثم كل ذلك لا يغني إذ الماء والأرض باردان، فانظر كيف سخر الله الشمس وهي مع بعدها عن الأرض مسخنة للأرض في وقت دون وقت ليحصل البرد عند الحاجة إليه والحر عند الحاجة إليه. ثم إن النبات إذا ارتفع عن الأرض وأثمر كان في الفواكه انعقاد وصلابة فتحتاج إلى رطوبة تنضجها، فانظر كيف خلق الله القمر وجعل فيه خاصية الترطيب، كما جعل من خاصية الشمس التسخين، فهو ينضج الفواكه ويصبغها بتقدير الفاطر الحكيم، ولذلك لو كانت الأشجار في ظل يمنع شروق الشمس والقمر وسائر الكواكب عليها لكانت فاسدة ناقصة، حتى إن الشجرة الصغيرة تفسد إذا أظلتها شجرة كبيرة، وتعرف ترطيب القمر بأن تكشف رأسك له في الليل فتغلب على رأسك الرطوبة التي يعبر عنها بالزكام، فكما يرطب رأسك يرطب الفواكه أيضاً، وليس هذا وحده بل كل كوكب في السماء مسخر لنوع فائدة، كالشمس والقمر، علمه من علمه وجهله من جهله، تصديق ذلك في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ [آل عمران:١٩١]، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ [الدخان:٣٨]، ولما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ﴾ [آل عمران: ١٩٠] إلى آخر الآية؛ قال: ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته، وسيأتي الحديث بذلك مستوفى في باب الراء إن شاء الله تعالى، ومعناه أن يقرأ ويترك التأمل، ويقتصر في فهم السماء على اللون وضوء الكواكب دون أن يعرف أنها مسخرة بأمر الله تعالى لمصالح عباده وبلاده. ولا تظنّ أن معرفة ذلك تقدح في الشرع لنهي النبي صلى الله عليه وسلم عن الاشتغال بعلم ذلك، إنما لمنهي عنه أن تعتقد أنها فاعلة لآثارها مستقلة بها وأنها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها، فهذا كفر، أو تعتقد تصديق ما يقول المنجم مما يدّعيه من علم الغيب، وهذا باطل إذ لا يعلم ما في غد إلا الله، وتأكد النهي أيضاً فيها لأنها كانت تعبد وعابدوها يزعمون أنها تحكم وتقضي، تعالى الله عن قولهم، ولقد صدق الذي يقول:

لو دبرت أنفسها لم تغب   واطلع الناقص كالكامل

فإذا قال الإنسان: قد أجرى الله العادة أنه متى حلت الشمس في البرج الفلاني كان الحرّ لا محالة، وكذلك في البرد، لم يكن الإنسان بذلك مخطئاً ما لم ينسب ذلك الفعل لغير الله الفاعل سبحانه وتعالى، كما يقول: في الصيف يحصد الزرع وفي الخريف تخترف الثمار، لا فرق فإذا المقصود أن غذاء النبات الذي كانت منه تلك النبتة أو الحشيشة لا يتمّ إلا بالتراب والماء والهواء والشمس والقمر والكواكب، ولا يتمّ ذلك إلا بالأفلاك التي هي مركوزة فيها، ولا تتمّ الأفلاك إلا بحركاتها، ولا تتحرّك إلا بملائكة يحرّكونها، وكذلك يتمادى ويتسلسل الأمر فيه إلى ما لا يعلمه إلا الله، ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [المدثر: ٣١]، فإن قلت: ذكرت أن النبات لا يكون إلا في الأرض وبالماء، وأنا أرى نباتاً مثلاً على الحجر الصلد وعلى القرامد وفي السقف والبصل في البيت، وأرى حيواناً يتولد في الماء وحده دون تراب، كالخابية والقلة، وفي داخل الفاكهة، والحيوان أغرب من النبات. فيقال لك: لولا التراب والغبار الذي على القرامد والطحلب الذي اجتمع في الخابية وإن قلّ، ما رأيت ذلك، وإلا فانظر آنية مزججة حيث لا يمكن أن يعلق بها شيء من الغبار هل ينبت فيها نبات؟ ولما كانت القرامد والحجارة فيها من الخشونة وقلة الملوسة بحيث يسكن فيها الماء والغبار وإن قلّ تكوّن فيها ذلك النبات على الماء الراكد؛ الكلام فيه واحد. فإن قلت: فالبصل في البيت؟ قيل لك: ليس ذلك ابتداء نبات إنما هو فضلة ماء بقيت في البصلة مما قد تكوّن قبل في التراب. وانظر إلى الحكمة في نباته، ليس ينبت إلا في الفصل الذي ينبت فيه لو كان في التراب بقدرة الله تعالى، ولقد نظرت إلى العنصل

الذي تقول له العامة بصل الخنزير، معلقاً في الفرن مقلوباً رأسه إلى أسفل، وقد أخرج عسلوجاً وورقاً ونوراً رأسه إلى جهة السقف، وهو مع ذلك يصيبه دخان الفرن بكرة وعشياً ولكنه أخرج عسلوجه وورقه ونوره كما ذكرت، حتى قلت في ذلك أبياتاً كأنها لغز:

ألا قـل لـي فديـتك مـا نـبات لـه ورق وعـسلوج ونـور
تـراه يانعـاً مـن غيـر مـاء ولا تـرب ولا يـرعاه ثـور

وفيه أيضاً:

ألا قـل لـي فديـتك مـا نـبات لـه ورق علـى الأشـبار تربـي
تـراه يانعـاً مـن غيـر مـاء ولا شـمس ولا أرض وتـرب

وأعني بذلك كونه معلقاً في الفرن كما تقدّم.

ودونك فائدة في التراب من غير الباب:

قال الجوهري: التراب فيه لغات، يقال: تراب وتوراب وتورب وتيرب وتيراب وترب وتربة وترباء وتريب وتريب، وجمع التراب: أتربة وتربان، والترباء: الأرض نفسها، وترب الرجل: أصابه التراب، وترب: افتقر، كأنه لصق بالتراب، وأتربت الشيء: جعلت عليه التراب. وفي الحديث: أتربوا الكتاب فإنه أنجح للحاجة.

وفي آخر: فإن التراب مبارك وهو أنجح للحاجة. وأترب الرجل: استغنى، كأنه صار له من المال بقدر التراب. والمتربة: المسكنة والفاقة، ومسكين ذو متربة: أي لاصق بالتراب. والتربات: الأنامل، واحدها تربة، وهذه ترب هذه، أي: لدتها، وهنّ أتراب، والتريبة: واحدة الترائب، وهن عظام الصدر وقبل موضع القلادة من الصدر.

وفي القرآن العزيز من هذا: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: ٧]، يعني: صلب الرجل وترائب المرأة. وفي القرآن العزيز أيضاً من الترب التي هي اللدة قوله تعالى: ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٧] يعني: أتراباً على سنّ واحدة بنات ثلاث وثلاثين سنة. قال ابن سلام: ومعنى عرباً: جمع عروب وهي المتحببة إلى زوجها، وأصل الكلمة من المعاربة وهي المداعبة. وقال سعيد بن جبير: هنّ المتقتلات، يقال: تقتلت المرأة في مشيتها، مثل تهالكت إذا تساقطت في التغنج، قال الشاعر:

تقـتلت لـي حتـى إذا مـا قتلتنـي تنـسكت مـا هـذا بفعـل النواسـك

فإن قلت: فالحيوان في جوف الثمرة والفاكهة؛ قيل لك: الأصل واحد، فأقام ما فيها من الرطوبة مقام الماء، وما فيها من الخثورة مقام التراب، وتكوّن فيها ما تكوّن

بقدرة المكوِّن، وتصوّر وتلوّن بحكمة المصوّر والملوّن، وهذه السنن التي سنّها في عباده والحكم التي أظهرها لهم من ارتباط الأشياء بعضها ببعض وظهورها بالوسائط والأسباب مثل كون الولد من الوالدين، وخروج النار من بين الزندين، ونبات النبات بين الشيئين، إنما فائدتها لانخراق العادات للأنبياء عليهم الصلاة والسلام والأولياء رضي الله عنهم، جعلها لهؤلاء فضيلة وكرامة وللأنبياء عليهم الصلاة والسلام معجزة وعلامة، إذ لو قال النبي: معجزتي أن أفعل لكم ما أردتم من كذا وكذا، ويشير إلى المعتاد الذي يعرفه العباد؛ لم تكن معجزة ولا استجاب له أحد، فإذا أتى بالشيء الذي يعجز عنه البشر من انخراق العادات ثبتت المعجزات. مثال ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد أجرى العادة أن النار تحرق بإذن الله وأن الماء يغرق من ألقي فيه كذلك بقدرة الله، وقد رأينا عكس ذلك في الأنبياء والأولياء، مثل الغلام الذي كان يلقيه الجبار في الماء فيخرج منه سالماً، انظره في كتاب مسلم. ومثل إبراهيم عليه السلام الذي لم تحرقه النار، ولو كانت النار من شأنها الإحراق ولا بدّ لأحرقته كما أحرقت القيد الذي كان في رجليه الكريمتين، صلى الله على نبينا محمد وعليه وسلم تسليماً. فإذا النار مأمورة بحرق الحجل وترك الرجل وتضرم على أقوام إضراماً وتكون لآخرين برداً وسلاماً كما قال الله عز وجل: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] ولولا ما قال: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لقتله البرد. وكانت ناراً عظيمة جمعوا لها الحطب زماناً، حتى أن الشيخ الكبير الذي لم يخرج من بيته قبل ذلك زماناً كان يجيء بالحطب فيلقيه يتقرّب به إلى آلهتهم فيما يزعم، فلما أرادوا أن يلقوه فيها لم يستطيعوا الدنوّ منها لشدّة حرّها وعظمها، فألقي في المنجنيق وكان ذلك أوّل منجنيق عمل، يقال: دلّهم عليه إبليس لعنه الله، وجاءت عامّة الملائكة إلى ربها، فقالت: يا رب خليلك يلقى في النار فأذَنْ لنا أن نطفئ عنه، فقال: هو خليلي ليس لي في الأرض خليل غيره وأنا إلهه ليس له إله غيري، فإن استغاثكم فأغيثوه وإلا فدعوه، وجاء ملك القطر فقال مثل ذلك، فقيل له مثل ذلك، قال: فلما ألقي في النار قال: حسبي الله ونعم الوكيل، فقال الله تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] قال: فبردت على أهل المشرق والمغرب، فما أنضج بها يومئذ كراع. ويروى أن جبريل عليه السلام لقيه في الهواء قبل أن يصل إلى النار، فقال له يا إبراهيم ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، حسبي الله ونعم الوكيل، فكان ما تقدّم، والله أعلم.

فلا تستغربن هذا في قدرة الله تعالى وفي حرمة نبي، فقد كان قريب من هذا في

غير نبي، ألقي أبو مسلم الخولاني واسمه عبد الله بن ثور في النار فلم تحرقه، وجيء به إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمّة محمد صلى الله عليه وسلم من فعل به مثل ما فعل بإبراهيم عليه السلام فلم تحرقه النار، أو كما قال رضي الله عنه، وكان الذي رماه في النار السود العنسي، وسيأتي ذكره مع مسيلمة في باب اللام إن شاء الله تعالى، فخرج من هذا أنه لا فاعل إلا الله ولا فعل إلا بأمر الله، كما قال تعالى في الريح: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، وكما جاء في شأن البعير الذي ندّ، قال الراوي: فرماه رجل بسهم فحبسه الله، انظر حسن أدبهم مع ربهم. وكما يروى أن رجلاً كانت له غنم كثيرة وكان يرعاها، فقال له رجل: لمن هذا الغنم؟ فقال: لله وهي في يدي، وهذا باب يطول وأمر يهول، فاستدلّ بالأدنى على الأكثر وبما بطن على ما ظهر. وأما في حق الله وقدرته فإنه يخلق بغير واسطة، كعيسى عليه السلام، من أنثى بلا أب، وآدم عليه السلام خلقه بلا أنثى ولا ذكر. فإن قلت: فمن التراب خلق؛ قيل لك: فالتراب من أين كان؟ وهذا أيضاً إن تتبعته أفضى بك إلى لا إله إلا الله ولا فاعل للأشياء إلا الله، وإن ما سواه وسوى صفاته وأسمائه خلقه وصنعه، ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦]، ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٨].

خرجت من شيء إلى شيء ... ونشر ما قد كان في الطي
حتى انتهى الأمر إلى العالم ... الفرد المريد القادر الحي

ثم أرجع إلى التبنة المباركة ولا أعاملها بالمتاركة، فأقول: وإنها أيضاً تدل على الصانع لأن كل صنعة تدل على صانعها وأنه سبحانه ليس من جنسها ولا مثلها، وأنه حيّ إذ الميت لا يخلق، وأنه صانع إذ المصنوع قد وجد، وأنه عالم إذ لا يصدر فعل محكم متقن إلا من عالم، والإتقان نوعان: الأوّل: جمال المصنوع وكماله، والآخر: مجيئه عند الحاجة إليه، ألا ترى المولود مثلاً يكبر في بطن أمه واللبن ينعقد في ثديها، فساعة يولد وجد غذاء ياسراً وزريعة الحرير في البيت، والتوتة في الجنان مثلاً لا تتحرّك الدودة من موطنها إلا إذا بدأت التوتة يخرج ورقها، إن في هذا لآية بل آيات.

فائدة على ما تقدّم زائدة :

يقال: توت وثوث، بالثاء المثلثة، ذكر ذلك بعض أهل اللغة، قال ويقال: أترجة وأترنجة، كما قالوا: خروب وخرنوب، وهو الينبوت. خرج ثابت رحمه الله أن عبد الملك بن مروان ذكر معاوية رضي الله عنه فقال: كان أميراً عشرين سنة، وستة

خليفة، ثم قال: هذا قبره عليه ينبوتة، وفسر الينبوتة بما تقدّم ذكره.

وذكر صاحب كتاب التاج الينبوت في جملة العضاه قال: هو كل شجر يعظم وله شوك كالعرق والطلح والسلم والسدر والسيال والسمر والقتاد والينبوت والغرب والكنهبل والعوسج وقس على هذا جميع هذا الفنّ تجده، ألا ترى أنّ الطير لا تتحرّك للسفاد طول العام إلا وقت أن تصلح الثمار لإخراج الورق، وفي وقت أن يخلق الله أرزاق فراخها من الجراد وغيره، فتصنع أعشاشها في الأشجار وفيها الورق فتستخفي فيها، ولو صنعت عشها في الشجرة وهي دون ورق لأخذ بيضها قبل أن تفرخ، وكذا غيره وغيره، وزد غيره فكل فيه تذكره وعبره، فقس عليه فقد دلت تلك التبنة على ما تقدّم، وأنه تعالى مدبر لجميع الكائنات إذ لا يوجد الفعل على صورة وشكل بدلاً من غيره، ولا في زمان دون زمان إلا بإرادة تقدّم بعضاً وتؤخّر بعضاً، وأنه تعالى عزّ وجل سميع بصير متكلم، وسر على هذا المسرى حتى تستكمل جميع صفات الخالق مما يجب إثباتها له، وهي في حقه حقيقة ثابتة، ثم بإثباتها تضطر إلى نفي أضدادها مما لا يليق بجلاله إذ ما كان عندنا من تلك الصفات المحمودة من العلم والقدر والإرادة وغير ذلك إنما هو مجار وعارية عندنا مستودعة يوجدها فينا ويبقيها متى شاء ويصرفها عنا ويبدلها أو يأخذها مع جميع ما خوّلنا متى أراد، ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، و﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]، خلق ذلك فينا لنستدل به عليه، ونردّ الحول والقوّة إليه، دلّ على ذلك العقل والنقل، وهذا علم برأسه ضبطه العلماء وقيّدوه حتى لا يجد صاحب هوى ولا مبتدع ولا معطل مدخلاً في الدين والحمد لله رب العالمين.

ثم نرجع إلى التبنة فنجدها إن طلبت علمها على حقيقته قام معك الوجود كله من العرش إلى الفرش، والصناع أجمعون من أهل السماء والأرض، كما قال بعض العلماء: لا يستدير الرغيف حتى يعمل فيه أكثر من ألف صانع، فإذا أكلته فإن عصيت بالقوّة التي حصلت لك منه فقد كفرت شكر أولئك الصناع كلهم، فضلاً عن مولاك الذي سخر لك ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه، أوّلهم ميكائيل الذي يكيل الماء من الخزائن فيفرغه في السحاب فتحمله الريح ثم كذا وكذا من الشمس والقمر والهواء والملائكة الذين يرسلون مع القطر، مع كل قطرة ملك حتى من الأرض والتراب والبهائم والأرحى والآلات، وتلك الآلات صنعت بآلات أكثر منها، كما يذكر أن الإبرة لا تكمل حتى ترجع إلى يد الصانع خمسة وعشرين مرّة، كل مرّة بآلة خلاف الآلة الأولى، ثم كذلك فكذلك ويتسلسل الأمر حتى لا يبقى في الوجود ولا في العالم

شيء ولا صانع ولا ما يحتاج إليه ذلك الصانع من المطعومات والمشروبات والمنكح والملبس والكتاب والتجار والحاكم والوالي والجند ورزقهم والدور والسور، كل ذلك مرتبط بعضه ببعض، وبعضه يطلب بعضاً، حتى لا يبقى في الوجود صغير ولا كبير إلا ووجدت إليه طريقاً في أقل من تبنة، لأنّ الغنيّ الحميد خلق الخلق كلهم مفتقرين، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥]، انظر كيف جعل في قلوب العباد الألفة والأنس حتى اجتمعوا في موضع وبنوا حولهم ما يحميهم من عدوّهم، وضموا دورهم بعضها إلى بعض، ولم يفترقوا كافتراق الوحوش، ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٣] وأعني بذلك أهل كل دين، و﴿ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، ثم مع تجمعهم وتألفهم في جبلتهم الغيظ والحسد والمنافسة، وذلك يؤدّي إلى التقاتل والظلم، فانظر كيف سلط الله عليهم السلاطين وأمدّهم بالقوّة وألقى رعبهم في قلوب الرعايا حتى أذعنوا لهم طوعاً وكرهاً، وكيف هدى السلاطين إلى طريق إصلاح البلاد والعباد حتى رتبوا أجزاء البلد كأنها أجزاء شخص واحد يتعاون بعضهم ببعض كتعاون أعضاء الجسد بعضها ببعض، فرتبوا الرؤساء والقضاة وزعماء الأسواق وجعلوا السجون والأعوان وأنواع النكال للعصاة، حتى اضطروا الخلق إلى قانون العدل والاستقامة والتعاون والمساعدة، حتى صار الحراث ينتفع بالحداد ويحتاج إليه هو وغيره، كما يحتاج الحداد مثلاً إلى النار التي ليس عنها غنى في الدنيا في أكثر الأشياء، ويحتاج الحداد إلى آلات كثيرة يحتاج فيها إلى النجار والنجار إلى الحداد، وهؤلاء كلهم يأكلون ويشربون ويلبسون ويسكنون وينكحون، وليس كل واحد يعمل وحده ما يحتاج إليه، واذكر في ذلك كل شيء من أمور الدنيا تجده، والسلطان أيضاً من جهة أخرى يحتاج إليهم في كل ما ذكر، ويزيد عليهم بجمع المال لإقامة أرزاق الجنود وتحصين رعيته، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: والذي نفسي بيده لولا المال الذي أحمل عليهم في سبيل الله ما حميت عليهم من بلادهم شبراً. ثم السلاطين يحتاجون إلى العلماء الذين يصلحون عليهم دينهم، والعلماء يحتاجون إلى الأنبياء عليهم السلام، والأنبياء محتاجون إلى الملائكة، والملائكة يفعلون ما يؤمرون، وينتهي الأمر إلى صاحب الأمر الغنيّ الحميد، كما بدأ منه إليه يعود.

ثم ارجع إلى التبنة تجدها في ذاتها بعد ما دلت عليه من إيجاد الصانع ذات لون

وطعم ورائحة ومؤلفة من أجزاء وعلى شكل وهيئة ن طول أو قصر أو ورقة أو غلظ أو خفة أو ثقل إلى سائر صفاتها التي تختص بها وتمتاز من غيرها ويستدل بها على كونها مفتقرة إلى فاعلها مع دقائق الساعات إلى إمضاء حكمه فيها منتظرة إلى الأقدار الواقعة عليها من زيادة أو نقصان أو إبقاء بما يخلق فيها، وإلا تلاشت، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]، ثم يخرج من خلال هذه الخلال الموت الذي دلّ عليه ضدّه وهي الحياة فيمن كانت فيه، لأن الأشياء تعرف أيضاً بأضدادها فتعرف الحركة بالسكون، والقليل بالكثير، والخالق بالمخلوق، والموت بالحياة، فلا تقع عينك على شيء حيّ إلا ورأيت فيه الموت إما ظاهراً وإما منتظراً وإما مقدراً، فسبحان الحيّ الذي لا يموت، الذي لا يتغيّر ولا يتبدّل ولا يتقدّر ولا يتمثّل، إذ ليس كمثله شيء فيعرف بالتمثيل، ولا له جنس فيقاس على التجنيس، جاوز المقدار والأحكام، وفات العقول والأوهام، فليس كمثله شيء في كل شيء، ولا يعرف إلا بمشيئته، إن شاء وسعه أدنى شيء، وإن شاء لم يسعه كل شيء، وإن أراد عرفه كل شيء، وإن لم يرد لم يعرفه شيء، وإن أحبّ وجد عند كل شيء، وإن لم يحب لم يوجد عند شيء، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وكل شيء سواه يتبدّل ويتغيّر مع أدنى من اللحظة وأقلّ من النفس، لو لم يكن إلا بمرور أجزاء الساعات عليه وجريان الشمس التي عنها تحدث الأوقات، واعتبر ذلك بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام: هل زالت الشمس؟ قال: لا نعم، فسأله عن قوله لا نعم وقال: كيف هذا؟ فقال: بين قولي لا ونعم قطعت من الفلك خمسين ألف فرسخ، وسيأتي هذا مستوفى في باب الراء إن شاء الله تعالى. فخرج من هذا أن كل شيء يتغيّر ويتبدّل إلا القديم سبحانه وتعالى، وهو الفرق بينه تعالى وبين من لا يصح منه إلا التغيّر، ألا ترى أنه لا يأتي على شيء في الوجود وقت وإن دقّ إلا تغيّر ذلك الشيء لو لم يكن إلا بمرور الشمس عليه كما تقدّم، ودوران الفلك الذي لا يعلم سرعة حركته إلا الذي دبّره، نعم ثم لا يعود ذلك الذي تغيّر إلى الحالة الأولى أبداً لتغيّر جميع المخلوقات في كل الأوقات، واعتبر ذلك بنفسك إذا تكلمت بكلمة أو تحرّكت بحركة لا بدّ أنّ فلاناً في المشرق وفلاناً في المغرب قد أحدث في ذلك الوقت حدثاً أو تحرّك بحركة أو تكلم بكلمة، أو استقبلك أو استدبرك أو مات فيه ميت أو ولد فيه مولود، وقس على ذلك جميع المخلوقات والحيوانات والنباتات من الزيادة والنقصان في ذلك الزمان، أترى ذلك يعود أبداً إلى ما كان إذا تحركت أنت أو تكلمت أيها الإنسان؟ هيهات ذلك لا يكون ولا يتصوّر ولا

يتمثل ولا يتقدّر، بل خلق الله الزمان جديداً ويخلق فيه خلقاً جديداً، هكذا سرمداً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، فسبحان الحكيم العلام الخلاق على الدوام، ويخلق ما لا تعلمون، وقد تهدي لهذا لمعنى الذي يقول:

منع البقاء تصرف الشمس وطلوعها من حيث لا تمسي
وطلوعها بيضاء صافية وغروبها صفراء كالورس

يقال: إن قائل هذا هو تبع الأوّل وكان مؤمناً، وفي هذا الشعر بعد الورس:

تجري على كبد السماء كما يجري حمام الموت في النفس
اليوم أعلم ما يجيء به ومضى بفصل قضائه أمس

وقد كذر بعض العلماء جميع ما ذكرته، وتعلق الأشياء بعضها ببعض، وافتقار كل شيء إلى شيء، واضطرار كل أمر إلى غيره، واحتياج الوجود كله إلى أن يكون كما هو الآن عليه مما لا يستغنى عنه، حتى مثّل لك الدنيا أمامك على هيئتها وصفتها، ذلك تقدير العزيز العليم، المفتقر كل ذلك إليه وحده، الذي يمسك السماوات بغير علاقة، والأرضين دون دعامة، بل بلطف القدرة وخفي الحكمة، وهو اللطيف الخبير، وهذا الذي ذكره هذا العالم أين يقع في علم من فوقه من العلماء والحكماء، ثم ارقَ إلى علم التابعين، واصعد إلى علم الصحابة، واسمُ إلى علم رسول رب العالمين الذي أوتي جوامع الكلم وبدائع الحكم واختصر له الكلام اختصاراً، ثم اعلُ إلى علم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والملائكة المقرّبين صلى الله عليهم وسلم أجمعين، فإذا انتهيت إلى هنا فاتلُ ما قاله إلهنا: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥] ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فالحمد لله الذي أعطانا من علمه قسماً نعلم به أن له علماً، وعلمنا كصفتنا ناقص ذو آفات وعيوب، وعلمه لا إله إلا هو كهو لا يسع كنهه القلوب، كيف وهو علام الغيوب قديم أزلي حكيم عليّ، لا تحيط به الأفهام ولا تصوّره الأوهام، بل كل في كنه رصفه قد هام، سبّوح قدّوس رب الملائكة والروح.

ويكفي من ذلك ما أضربه لك مثلاً محسوساً، وهو ما قاله الخضر لموسى على نبينا وعليهما السلام والتحية والإكرام، وقد أراه الآيات المستبينة حتى وقع العصفور على السفينة، فأخذ بمنقاره من البحر بلّه وناهيك بها قلّة: يا موسى ما نقص علمي وعلمك وعلم الخلائق من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر. وفي رواية: ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره. ولعلك أن تلحظ من مقتضى هذا الحديث قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ

ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩] مع قوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان: ٢٧]، أفادك بهذا أنّ البحار والأقلام متناهية، وأنّ كلامه سبحانه غير متناهٍ، وأنه أحد صفاته القديمة، وكل شيء سواه من مخلوقاته متناهٍ. واحذر أن تعتقد أن كلام الله تعالى ليس إلا ما أنزل على نبينا من القرآن، وعلى موسى من التوراة، وعلى عيسى من الإنجيل، وعلى داود من الزبور، أو ما أنزل على بعض الأنبياء من الصحف، إذ لو كان ذلك لكان متناهياً، ولكتب هذا كله بقلم واحد أو بقلمين أو بأكثر مما هو متناهي العدد، وكذلك المداد متناهٍ، لكن كلامه تعالى غير متناهٍ لا ينفد ولا ينعدم، كما قال سبحانه: ﴿ لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩]. قال ابن عباس: معنى الكلمات هاهنا ما انفرد به الباري جلّ وعزّ من علم ما كان وما يكون. وكذلك فسر مجاهد الكلمات بالعلم. وقال الخطابي رحمه الله مثل ذلك أيضاً: كلماته علمه، وقال في قول النبي صلى الله عليه وسلم: أعوذ بكلمات الله التامات؛ أنّ كلماته القرآن، وصفه بالتمام تنزيهاً له أن يلحقه عيب أو نقص، كما يوجد ذلك في كلام الآدميين. قال: والكلمة تتصرف على وجوه جماعها ما أمر الله به ودعا الناس إليه، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ ﴾ [آل عمران: ٦٤] الآية، ثم فسرها فقال: ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [آل عمران: ٦٤] الآية. وقوله تعالى: ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ ﴾ [آل عمران: ٤٥] فإنه يريد والله أعلم أنه أوجده بالكلمة وكوّنه بها، وهي قوله: كن، من غير توليد من فحل أو تنسيل من ذكر، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴾ [البقرة: ٣٧]، فبيان ذلك قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾ [الأعراف: ٢٣] الآية، وقوله تعالى: ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا ﴾ [التحريم: ١٢] فإنها أربع كلمات تكلم بها عيسى عليه السلام في المهد صبياً: ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ [مريم: ٣٠] الآية، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ ﴾ [البقرة: ١٢٤] الآية، قال المفسرون: هي عشر خصال في الطهارة أمر الله بهن: خمس في الرأس: فرق الرأس وقص الشارب والسواك

والمضمضة والاستنشاق، وخمس في الجسد: تقليم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة والاستجمار والختان، ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٢٤] أي وفاهنّ، ثم قال تعالى: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٧].

وقول النبي صلى الله عليه وسلم في النساء: واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله تعالى، يريد والله أعلم ما شرطه لهنّ في كلمته، وهو قوله تعالى: ﴿ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وقال بعض الأصوليين: كلام الله تعالى صفة واحدة لا تنعدم ولا تفنى، بها يأمر وينهي ويعد ويتوعد، ومنها يفهم جميع المقاصد، وكلامه هو قوله، وإنما سمي كلامه كلمات في قوله تعالى: ﴿ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان: ٢٧] على جهة التعظيم كما عظّم نفسه في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾ [الحجر: ٩] وهو واحد لا إله إلا هو، وكذلك يقول جميع أهل الحق أنه تعالى يقدر على المقدورات التي لا تتناهى بقدرة واحدة، ويعلمها بعلم واحد، ويدبرها بإرادة واحدة.

وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ١٩] القول من الله تعالى على أربعة أنحاء: يكون بمعنى التكليم كما قال الله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]، ويكون بمعنى التكوين كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠] وقول بمعنى الأمر مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ [البقرة: ٣٤] وقول بمعنى الخطاب مثل قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]. والفرق بين التكليم والقول: إن التكليم لا يكون إلا ثناء وفضيلة كما قال تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]، والقول قد يكون ذماً وإبعاداً، كما قال تعالى لإبليس: ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الأعراف: ١٨]. والمسلمون مجمعون على أنه لا يقال كلم الله إبليس ولا هو كليم الله ولا أنه تعالى كلم أهل النار، ويقال في هذا: قال لإبليس كذا، وقال لأهل النار كذا.

فصل:

ولا يجوز عليه سبحانه أن يتكلم تارة ويسكت أخرى، كما لا يجوز عليه تعالى أن يعلم تارة ويخرج عن العلم تارة أخرى، لأن ذلك تغيير لا يجوز إلا على المحدثين،

والربّ يتعالى عن ذلك، هذه صفة الخالق، وأما المخلوق فبخلاف ذلك يتكلم مرة ويسكت أخرى ويسمع تارة ولا يسمع أخرى لا سيما إذا لم يسمعه الله تعالى، وشاهد ذلك أن الرجل يكلمك في بعض الأحيان ولا تسمعه وكذلك يمر عليك فلا تراه، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُ ﴾ [فاطر: ٢٢]، وقال عز وجل: ﴿ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرًا لَّأَسۡمَعَهُمۡ ﴾ [الأنفال: ٢٣]، فإذاً الله تعالى يتكلم على الدوام، فإذا كشف الغطاء عن أذن المخلوق سمع، كما فعل بموسى عليه السلام حين سمع كلام ربه تعالى، ونشأت هنا مسألة، يقال: كيف عرف موسى صلة الله على نبينا وعليه كلام الله سبحانه وتحقق أنه هو ولم يكن سمع قبل ذلك خطابه، فقيل في ذلك أقوال: منها أنه سمع كلاماً ليس بحروف ولا أصوات وليس فيها تقطيع ولا نفس، فعلم حينئذ أن ذلك ليس هو كلام البشر وإنما هو كلام ربّ العزّة. وقيل فيه أيضاً: أنه سمع كلاماً لا من جهة وكلام البشر يسمع من جهة من الجهات الست، فعلم أنه ليس من كلام البشر. وقيل: إنه صار جسده كله مسامع حتى سمع بها ذلك الكلام، فعلم أنه كلام الله تعالى. وقيل فيه: إن المعجز دلّ على أنّ ما سمعه هو كلام الله تعالى جدّه، وذلك أنه قال له: ﴿ أَلۡقِ عَصَاكَ ﴾ [الأعراف: ١١٧] فألقاها فصارت ثعباناً، فكان ذلك علامة له على صدق الحال، وأن الذي يقول له أنا ربك هو الله جلّ جلاله، وقيل: إنه كان قد أضمر في نفسه شيئاً لا يقف عليه إلا علام الغيوب، فأخبره الله عزّ وجلّ في خطابه بذلك الضمير، فعلم أن الذي يخاطبه هو الله تعالى جدّه وجلّ ثناؤه، وعلى كل حال فلا بدّ أن تعتقد أن موسى عليه السلام سمع كلام الله تعالى بأذني رأسه كما رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه بعيني راسه، كما أثبته المحققون من أهل العلم فقالوا: قسم الله عز وجلّ الرؤية والكلام بين محمد وموسى عليهما السلام، انظره في شرف المصطفى لعياض رحمه الله، فإذا ثبت هذا الكلام فارجع إلى بقية الكلام واقرأ قوله سبحانه: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم مفاتح الغيب بما فسّرها الله في قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [لقمان: ٣٤]، فقال عليه الصلاة والسلام: مفاتح الغيب خمسة لا يعلمها إلا الله: لايعلم ما تغيض الأرحام وما تزداد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله، ولا تدري نفس ماذا تكسب غداً، ولا تدري نفس بأيّ أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله. وانظر ما تحت قوله سبحانه:

﴿ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩] هل ترك شيئاً من الأشياء أي نوع كان. وقد قرئ: (ولا من رطب ولا يابس) خارج السبع، ويزيد الأمر توكيداً لأنه يدخل ما قبله فيه، إذ لا يخلو من أن يكون رطباً أو يابساً، وكذلك من في قوله تعالى: ﴿ مِن وَرَقَةٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩] قالوا: هي للتوكيد، والله يعلم الورقة سقطت أو لم تسقط، وقوله: ﴿ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩] يعني اللوح المحفوظ.

اللوح المحفوظ:

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: خلق الله تعالى اللوح المحفوظ من درّة دفّتاه من ياقوتة بيضاء قلمه نور وكتابته نور، ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة نظرة وستين نظرة يحيي في كل نظرة ويميت، ويعزّ ويذلّ، ويفعل ما يشاء. ذكر ذلك المهدوي. وفي رواية: وعرضه ما بين السماء والأرض، وإثباته في اللوح المحفوظ لا لحاجة منه إلى ذلك، و﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ [طه: ٥٢]، ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم: ٦٤]، لكن لتعتبر به ملائكته الموكلون بمقابلة الحوادث بما في اللوح المحفوظ.

قال الحسن رضي الله عنه: فعل ذلك ليعلم ابن آدم أن عمله أولى بالإحصاء. وكذا يروى أن الحفظة الموكلين بإحصاء أعمال العباد يعطى أحدهم بطاقتين إحداهما مكتوبة مختومة والأخرى بيضاء، فيكتب عمل العبد طول يومه، فإذا فرغ قابلها بالمختومة فيجد ما في هذه في هذه بلا زيادة ولا نقصان، هذا معنى الكلام والله أعلم. فإذا تقرر هذا فانظر أيّ بحار أو أيّ أقلام وكثر عددها ما شئت تحيط بكلمات الله، وكيف يتصوّر أن يحيط ما هو متناهٍ معلوم محصور محدود بكلام الله الذي لا نهاية له، وعلمه القديم الذي لا يهتدى إلى معرفة كيفيته.

وأضرب لك مثلاً بالبحار أجمعها والأقلام كلها: أليست أجزاء مؤلفة ردّها بوهمك بحراً واحداً، أليس في اعتقادك أن الله تعالى يعلم كم من نقطة فيه، ولو لم يكن ذلك كذلك لكان عجزاً، كما أن عندك الراعي الذي لا يعرف عدد ماشيته، والأمير الذي لا يعرف عدد جنده عاجز، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر: ٢١] يعني: المطر. وفي غيره قال: ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ [هود: ٦]، ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد: ٨]، ولا تتحرك ذرّة إلا بإذنه، فإذا استقرّ هذا وثبت ردّ ذلك البحر مع جميع ما خلق الله أجزاء، ثم خذ جزءاً واحداً من نقطة من

البحر أو رملة واحدة من رمال الدنيا، أليست تلاصق أختها من فوقها ومن تحتها ومن جميع جهاتها؟ أليس الماء يتحرّك أحياناً؟ وكذلك الرمل، ثم يسكن أحياناً، أليس الله تعالى يعلم مقدار أوقات مماسة ذلك الجزء صاحبه ومقدار مفارقته إياه؟ ثم إذا فارقه أليس يماسّ غيره كذلك من جميع جهاته إن كان فوقه مثله، وإلا فقد ماسّه الهواء وقابله من السماء جزء آخر، ثم قد يجتمع مع صاحبه الأوّل كهيئته إذ كان معه قبل التفرّق، أو لا يجتمع ويجتمع مع غيره، وإن اجتمع متى يماسه مثل المماسة الأولى مع هيجان البحر واضطرابه، وتكويم الرمال بالرياح أمثال الجبال يميناً وشمالاً وجنوباً وشمالاً، ثم هكذا في جميع المخلوقات المتحرّك منها المعلوم حركته والساكن المعلوم سكونه، ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد: ٨]، وهذا كله محصي في كتاب مبين، ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ [القمر: ٥٣]، أليس الحفظة والملائكة الموكلون بجميع المخلوقات الذي أيضاً لا ﴿ يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١] لو احتاجوا إلى مداد يكتبون كل ما ذكرته لك وما لم أذكره مما لا يتصوّر فيه أن يذكر أي مداد كان يقوم بهم في تصريف نقطة بل جزء من الأجزاء التي لا يعلم مقدارها إلا الذي خلقها، ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

ثم نرجع إلى المداد الذي تكتب به الحفظة ما تقدّم، فتفعل في نقطة ما فعلت في هذا، ثم في مداد المداد إلى ما لا ينحصر ولا ينضبط، وما يعلم حقائق الأشياء على ما هي عليه إلا من خلقها. ثم انظر نظراً آخر فيما قرئ من كتب الله جميعاً منذ أنزلت على جميع الأنبياء، وكرّرت مع ما أجرى الله تعالى على ألسنة خلقه من الملائكة والإنس والجنّ من الذكر على أنواعه من تقديس وتسبيح وغير ذلك من أوّل ما خلق الله الخلق إلى أن تقوم الساعة، نعم وفي الجنة التي لا آخر لها، وتكرير ذلك الكلام المحمود على الألسن مع الكلام المذموم الواقع من الجهال والكفرة الذي أحصاه الله ونسوه، ومع نطق البهائم والحشرات مع النطق المقدّر في الكل من الحيوانات مع قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤] على مذهب من جعل ذلك من العلماء حقيقة بلسان المقال مع تقديس الربّ نفسه قبل أن يخلق خلقه في الأزل الذي لا يفهم ولا يدرك بوهم، وهذا كله الإيمان به واجب، والتفكر فيه محمود، وهو أولى ما أعمل فيه الخاطر وأجيل فيه الفكر الحاضر وهو يدرك بالعقل الذي جعله الله تعالى آية من آياته فيمن شاء من عباده، ومن أوتيه ورزق العمل بمقتضاه وأطاع مولاه فما حرم شيئاً سواه، والخيرات له تبع. كما يروى

أن جبريل عليه السلام أتى آدم عليه السلام فقال له: أتيتك بثلاث فاختر واحدة، قال: وما هم؟ قال: العقل والحياء والدين، قال: اخترت العقل، فخرج جبريل عليه السلام إلى الحياء والدين فقال: ارجعا فقد اختار العقل عليكما، فقال: أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان، ولله در الذي يقول:

وما بقيت من اللذات إلا ... مجالسة الرجال ذوي العقول
وقد كانوا إذا ذكروا قليلاً ... فقد صاروا أقلّ من القليل

وأعقل العقلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وحقّ له ذلك، لأنه يروى عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: بلغني أن العقل قسم على ألف جزء فأعطي محمد صلى الله عليه وسلم تسعمائة وتسعة وتسعين جزءاً وأعطيت منه جزءاً واحداً. وكذلك الأنبياء عليهم السلام قبله إلا ما فضّل الله به محمداً صلى الله عليه وسلم، وإنما اختار الله الأنبياء لعقولهم، وما أعطاهم من العلم والصبر، وما زهدوا في الدنيا مع القيام والصبر عليه، إلا بفضل عقولهم، فمن زهد في الدنيا وصبر على الحق فقد استكمل العقل، وإنما فاز العابدون بالاجتهاد.

وقال سعد بن أبي عروة عن قتادة عن الحسن قال: كيف يسمى عاقلاً وهو يمسي ويصبح في الدنيا ومباهاة أهلها في المطاعم والمشارب والملابس والمراكب؟ أولئك هم الخاسرون وأولئك هم الغافلون وأولئك هم الجاهلون.

ويروى أن الله تبارك وتعالى لما خلق العقل قال له: أقبل، فأقبل وقال له: أدبر، فأدبر، ثم قال له: اسكن، فسكن، فقال: وعزتي وجلالي لأركبنك في أحب الخلق إليّ. وقال في الحمق ضدّ ذلك، إلى أن قال: في أبغض الخلق إليّ. اختصرته، ومما أرويه في العقل لبعض أشياخي رحمهم الله:

العقل نور الله يهدي به ... من شاء أن يكتب من حزبه
ومن يمت شوقاً إلى ربه ... يكشف له مولاه عن حجبه

وزدت أنا على هذا:

فيرتقي منه إلى رتبة ... تفضي إلى ما شاء من قربه
ما أقرب الأمر على مفلح ... ساعده التوفيق من ربه

في أبيات كثيرة، انظرها في التكميل.

وقد تكلم الناس في ماهية العقل وفي أسمائه وفي محله، فمن أسمائه: العقل واللب والحجا والحجر والنهى، فقالوا: سمي عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن ركوب شهواته، ومنه أخذ: عقل الناقة.

قال عامر بن عبد القيس: إذا عقلك عقلك فأنت عاقل. وفي القرآن: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٣]. وسمي لباً لأنه صفوة الرب وخالصه ولبابه، ولب كل شيء: خالصه ومحضه، وجمع اللب ألباب، وفي القرآن العزيز: ﴿ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [البقرة: ١٧٩]. وسمي حجا لإصابة الحجة به والاستظهار على جميع المعاني، يقال: حاجيته فحجيته، وسيأتي طرف منه إن شاء الله عز وجل. وسمي حجراً لأن يحجر عن ركوب المناهي، ومنه: حجر الحاكم على فلان، ويقال للرجل إذا كان ضابطاً لنفسه رابطاً لجأشه مالكاً لإربه: إنه لذو حجر، وفي القرآن الكريم: ﴿ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ [الفجر: ٥]. وسمي النهي وهو جمع نهية لأنه إليه ينتهي الذكاء والمعرفة والنظر، وهو نهاية ما يمنح العبد من الخير المؤدي إلى صلاح الدنيا والآخرة، ولذلك قيل: نهي الوادي ونهيه، وهو مبلغ ما ينتهي إليه السيل، وفي القرآن العظيم من هذا: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ [طه: ٥٤].

وأما ماهيته: فقيل هو إدراك العلوم الضرورية، وقيل: إدراك العلوم على ما هي عليه، وقالوا: إصابة الفهم وإدراك البيان، وقالوا: هي معرفة تكون في الإنسان تزيد باكتساب العلوم وتظهر عند إفادة المعلوم، ولكل هذه الأقوال حجج وتفسير أمرها كبير.

محل العقل :

وأما محله: فقيل: الدماغ لإشرافه على البدن، ولأنه مقر الحواس، وقيل: محله الدماغ وصفاؤه في القلب، وقيل: محله القلب لأنه سلطان البدن، وهذا هو الأظهر والله أعلم، لأن الله تعالى قال: ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الحج: ٤٦] فجعل السمع في الآذان والعقل في القلب، وكما قال تعالى: ﴿ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ﴾ [الأعراف: ١٩٥].

وقد جاء مثل هذا في الحديث الذي يرويه النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه تبارك وتعالى: إن العبد ليتحبب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت رجله التي يمشي بها ويده التي يبطش بها ولسانه الذي يتكلم به وقلبه الذي يعقل به، إن سألني أعطيته، وإن دعاني أجبته. فأضاف سبحانه كل جارحة إلى ما جعل فيها، وهذا الحديث أيضاً يحتاج إلى شرح، ومعناه والله أعلم أن يتكلم فيما يرضي الله، ويمشي في طاعة مولاه، ويبطش فيما لا يكره الله، ويعقل عن الله مراده. وقيل في العقل: إنه نور موضوع

في القلب كنور البصر في العين ينقص ويزيد ويذهب ويعود، وإليه أشار شيخي رحمه الله في شعره المتقدّم. وكما يفقد البصر من العين ولا يتغيّر شكلها كذلك يفقد العقل من القلب ولا تتغيّر هيئته، وأسوأ العمى عمى القلب، وفي القرآن العزيز: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وفي الحديث: ليس الأعمى من عمي بصره إنما الأعمى من عميت بصيرته، نعوذ بالله من هذين العميين، ونسأله السلامة في الدارين.

قيل لعمرو بن العاص: ما العقل؟ قال: الإصابة بالظن ومعرفة ما يكون بما قد كان، وقال له يوماً معاوية رحمه الله: ما بلغ من عقلك؟ قال: ما دخلت في شيء قط إلا خرجت منه، قال له معاوية: لكني ما دخلت في شيء قط أريد الخروج منه، قلت:

خرجت من شيء إلى غيره ... ولم أقف ها أنا ذا أخرج
لكن لما لا بدّ منه وما ... أنت له من غيره أحوج

فصل:

تقدّم ما خرّج أهل الصحيح من حديث موسى والخضر عليهما السلام وما قص الله تعالى عنهما في كتابه العزيز، وفيه من قول الخضر لموسى عليهما السلام: يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر. وفي رواية: ما علمي وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره.

قلت: قال بعض أهل العلم: أما قوله: مقدار ما غمس، فبيّن، وكذلك ما ذكره ابن سلام في تفسير الآية أنهما لم يتفرقا حتى بعث الله طائراً فطار إلى المشرق، ثم طار إلى المغرب، ثم طار نحو السماء، ثم هبط إلى البحر، فتناول من ماء البحر بمنقاره وهما ينظران، فقال الخضر: أتعلم ما يقول هذا الطائر؟ يقول: ورب المشرق ورب المغرب ورب السماء السابعة ورب الأرض السابعة ما علمي وعلمك يا خضر وعلم موسى في علم الله إلا قدر الماء الذي تناولته من البحر في منقاري.

وأما ما وقع في الحديث الأوّل من ذكر النقص من العلم، وما وقع في حديثه الآخر فيما يرويه عليه السلام عن ربه تعالى: يا عبادي لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في البحر.

وفي حديث آخر في معناه: ما نقص ذلك من ملكي إلا كما لو أن أحدكم مرّ

بالبحر فغمس فيه إبرة ثم رفعها إليه، ذلك بأني جواد ماجد أفعل ما أريد، عطائي كلام وعذابي كلام، إنما أمري لشيء إذا أردته أن أقول له كن فيكون. فذكر النقص في هذه الأحاديث على معنى ضرب المثل في النهاية من القلة على ما تعرفه العرب وتستعمله، تقول: ما غمضت البارحة ولا أستطيع القيام ولا أطيق الحركة ولا الكلام، وفي كتاب الله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤]، ومعلوم أن الساعة تنقسم إلى أجزاء ودقائق، وكما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء: ٤٠]، والذرّة تنقسم إلى أجزاء وأشياء، وقال في موضع آخر: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا ﴾ [يونس: ٤٤]، فهذا كله على النهاية في الدقة والقلة. وكما قال: ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء: ٤٩]، فخرّج النقص في الحديثين والله أعلم على هذا المعنى، إذ علم الله تعالى قديم لا يقبل التبعيض والتقسيم، وأيضاً فإن العلم المبثوث في جميع الخلائق من أهل السماوات وأهل الأرضين هو من عند الله، ومن الحيطة التي شاء سبحانه أن يخلقها لنا، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وكما قال تعالى: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ٥]، وأمرنا بالسؤال فيه والزيادة منه بقوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]، فإذا لم ينقص من علم الله تعالى شيء وما عندنا منه خلق يخلقه لنا نعلم به علمنا ومعلومنا على قدر تفاضلنا في ذلك، ونعلم أن لله علماً غير أن علم الله تعالى مخالف لعلم المخلوق لا يشبهه ولا يقاربه ولا يحمل عليه ولا هو منه في شيء إلا في مشاركة الاسم، لأن علم المخلوقين يكون بالتعلم والتبصر والتدبر والتذكر، وأخذ البعض عن البعض، ولذلك وقع الاختلاف وتفرقت المذاهب وتفرقت المذاهب وتشعبت الطرق، ألم تسمع قوله تعالى في القرآن الذي أنزل بعلمه: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، فسبحان من سبق علمه جميع المعلومات قبل كونها، وتقدّم جميع الموجودات قبل عينها، إذ الأشياء كلها مستفادة من علم الله بسبقه إياها، وعلم الإنسان مستفاد من الأشياء لأنها سابقة له بإذن الله.

وأما علم الأنبياء عليهم السلام وإن كانوا بشراً مثلنا فهو تخصيص من ربهم إياهم بما شاء من علمه بوحي ينزله إليهم، أو إلهام يقرره في نفوسهم، وبعضهم في ذلك أعلى من بعض قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة:

٢٥٣] الآية، نعم ومتباينون في العلم، ألم تسمع ما قال الخضر لموسى عليهما السلام حين أراد الافتراق: يا موسى إنك على علم من علم الله لا أعلمه، وأنا على علم من علم الله لا تعلمه. قال بعض العلماء: كان الخضر عليه السلام يعلم الباطن، وموسى عيه السلام يعلم الظاهر، والله أعلم. وكذلك علم الملائكة صلوات الله عليهم بعضهم أعلى من بعض وأعلم وأرفع جاهاً وأعظم، ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٦] وبعد هذا كله فالله أعلم بما أراد وبما أراد أنبياؤه عليهم السلام من ذلك، وينظر إلى هذا كله قوله تعالى: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: ١١٧]، وكم بين الكاف والنون من الأزمنة، ولو لم يكن إلا التبعية، وليس في كلام الله تعالى حرف ولا صوت، وإن كان قد ورد في الحديث ذكر الصوت فله تأويل يحمل عليه ولا يشبه بخلقه تعالى، وليس فيه تقديم ولا تأخير، إذ هو صفة واحدة لا تشبه صفاتنا، وشتان بين القديم والحديث، ألم تسمع: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]، وكذلك صفاته تعالى فليس كمثله شيء في شيء، وليس في الوجود شيء إلا الله وصفاته وما أحدث تعالى من مخلوقاته، فمعنى كن كناية عن سرعة الشيء وإجابة المأمور في أقرب ما يكون، وليس في الكلام شيء يعبر به عنه في السرعة أو جزء من كن، فهو عبارة عن السرعة، فإن قال قائل: قد خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام وهي ستة آلاف سنة، ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: ٤٧]، وقد كان قال لذلك: كن، فالجواب عن ذلك: إن قول الباري سبحانه: كن، يتوجه إلى المخلوق مطلقاً ومقيداً، فإذا كان مطلقاً كان كما أراد لحينه، وإن كان مقيداً بصفة أو زمان كان كما أراد بحسب ذلك الزمان أو الصفة، فإن قال كن في ألف سنة، كان في ألف سنة، وإن قال كن فيما دون اللحظة، كان كذلك.

وفيما قرأته بالإسكندرية في أحد المجالس على شيخي أبي محمد العثماني رحمه الله من الحديث المسلسل ويده على كتفي قال: حدّثني شيخي فلان وسماه ويده على كتفي، ثم كذلك فكذلك كل شيخ يقول عن شيخه: ويده على كتفي، حتى انتهى بالسند إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: حدّثني حبيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويده على كتفي، قال: حدّثني الصادق الناطق رسول رب العالمين وأمينه على وحيه جبريل عليه السلام ويده على كتفي، قال: سمعت إسرافيل عليه السلام يقول: سمعت القلم يقول: سمعت اللوح يقول: سمعت الله عز وجل يقول من فوق

العرش للشيء: كن، فلا تبلغ الكاف والنون إلا ويكون الذي يكون، فهذا يحمل على ما تقدّم من سرعة المكوّن، ولا بدّ للمخلوقين من عبارة يفهمون بها مراد الله تعالى في السرعة، فليس ثم أسرع ولا أوجز في اللفظ من كن كما تقدّم، فقيل لنا ذلك لنفهم، والله ورسوله أعلم. وقال النبي عليه الصلاة والسلام: إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء، حذار حذار من توهم جارحة أو تخيل تشبيه، وإنما ذلك كناية عن السرعة أيضاً في التقليب في كل جزء من الزمان على وقته، ألم تسمع: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ ﴾ [الأنعام: ١١٠]، قيل: يقلبها من إيمان إلى كفر، ومن كفر إلى إيمان. وكانت يمينه عليه السلام: لا ومقلب القلوب، ويقول: يا مقلب القلوب قلّب قلبي على طاعتك، وقال: لقلب ابن آدم أشدّ تقلباً من القدر إذا استجمعت غلياناً، أو كما قال عليه السلام، ومعنى بين إصبعين: بين أثرين وأمرين، كذا فسره أهل العلم، وخص الاثنين لأن المعلوم عندنا في المخلوق إذا قلب شيئاً بين إصبعيه إنما يقلبه إلى جهة اليمين أو إلى جهة الشمال وكذلك تقليب الله تعالى القلوب إلى الطاعة أو المعصية أو الكفر أو الإيمان، فتكون أصحاب القلوب من أصحاب اليمين أو من أصحاب الشمال كما قال تعالى: ﴿ فَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾ [الواقعة: ٨-٩]، وليس هناك مماسة ولا حاسة تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

فائدة لغوية:

ويستشهد على قوله بين إصبعين أي على أثرين بقول الشاعر أنشد ابن دريد:

من يجعل الله عليه إصبعا ... في الخير أو في الشر يلقاه معا

وبقولهم: لراعي بني فلان على ماشيتهم إصبع، أي أثر حسن، وأنشدوا على هذا قول الشاعر يصف راعياً:

صفيف العصا بادي العروق ترى له ... عليها إذا ما أجدب الناس إصبعا

فائدة زائدة:

يقال: إصبع وأصبع، بكسر الألف وضمها والباء مفتوحة فيهما، ولك أن تتبع الضمة فتقول: أصبُع، ولك أن تتبع الكسرة فتقول: إصبِع، ولغة خامسة أصبع، بفتح الألف وكسر الباء، وكذلك يقال: ابلم وأبلم وأبلم، وكله جمع أبلمة، وهي الخوصة، وقس على هذا حديث القبضتين وذكر اليمين والشمال في ذلك إنما هو راجع إلى المخلوقين، ألم تسمع في الحديث: وكلتا يديه يمين، أدباً منه عليه السلام، ونفياً لما عسى أن يقع في الأوهام، نسأل الله الثبات إلى الممات والعصمة من الزيغ والنزغ.

توجيه مشكلات الصفات

والحق بهذا الفصل ما جاء في الحديث والقرآن من ذكر الصفات نحو قوله تعالى: ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: ٧٥]، و﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر: ١٤]، و﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦]، و﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص: ٨٨]، و﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران: ٢٨] و﴿ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] وما أشبه ذلك، وما في الحديث من ذكر النزول والقدم والرجل وما أشبه ذلك، وسيأتي تفسيره إن شاء الله والباب كله واحد والحمد لله، ويسهل مفهوم المعنى إذا نفيت عن نفسك تشبيه المعبود وتجسيم اليهود وتعطيل الفيلسوف وعدوى الطبيعي السخيف، ويظهر لعين قلبك بالعين اليقين الحق المبين ذو القوّة المتين من غير تشبيه ولا تكييف ولا تمثيل ولا تخييل موجود لا كالموجودات بصفات كمال ليست كالصفات، حي عالم متكلم مريد قدير ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]، وما أبدع وأجمع قول من قال فيما روى عن أسلافه: مهما قام في نفسك شيء فالله بخلافه، ويستشعر مع ذلك العجز عن معرفة الحقيقة، كما قال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه: الحمد لله الذي لم يجعل معرفته إلا بالعجز عن معرفته. وتقول أيضاً: العلم بالعجز عن المعرفة هو المعرفة، ويقال في مثل هذا: العجز عن درك الإدراك إدراك، ويكفي من هذا قوله عليه السلام: لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

وقد اختلف قول العارفين في هذا المعنى فقال الجنيد رحمه الله: لا يعرف الله إلا الله. وقال غيره: لا أعرف شيئاً إلا الله، وقال: أغلقت عيني ثم فتحتها فلم أر شيئاً غير الله. وكلام هؤلاء يحتاج إلى شرح وبسط، أما قول الجنيد فأراد الحقيقة، ومن أين للعبد المخلوق بهذه الطريقة وهو لا يعرف حقيقة نفسه مع استصحاب الحال.

وقد قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله متى يعرف الإنسان ربه؟ قال: إذا عرف نفسه. وهذا أيضاً يحتمل معنيين أحدهما: أن هذا ممتنع يقول هو لا يعرف نفسه حق المعرفة فكيف يعرف ربه؟. والمعنى الآخر: أن يعرف نفسه بأنه مخلوق فيستدل به على الخالق، كما قال تعالى: ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١]، ويعرف نفسه بالنقص فيعرف ربه بالكمال، وسر على هذا المسرى في جميع صفات الخالق الكاملة وصفات المخلوق الناقصة، فإذاً قد عرف ربه من هذه الجهة، وهذا الذي أراد الذي قال: لم أر إلا الله، يعني أنه رأى المخلوقات فاستدل على الخالق، والله عز وجل

أعلم بحقائق الأمور وبما أراد رسوله صلى الله عليه وسلم من ذلك. ورأيت في بعض الحكم من ترك التوهيم في صفة الله تعالى وفي الشك والنفاق، ولذلك قيل: تفكروا في مخلوقاته لا في ذاته. وقال أبو طالب المكي رحمه الله: صفات الشهيد لا تشهد بنور العقل وإنما تشهد بنور اليقين، ونور اليقين من نور القادر، ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٤٠].

وقال سهل رحمه الله: اثبتوا الرؤية فإن خالج قلوبكم التشبيه ورأيتم ذلك فانفوا التشبيه في الله تعالى وأثبتوا الرؤية ونزهوه عن الأشياء والأشباح. وقال غيره: ظاهر التوحيد لا يجري على ترتيب العقول ولا يمثل بقياس العقول، لأن نفي الصفات أو إثباتها بالممثلات موجود في رأي العقول، كما أن الفكر والإضلال موجود في طبائع النفوس لعدم مشاهدة الأبصار، ولفقد وجود الإلهية في تخييل الأفكار، ولجريان المعتاد من ظهور الأسباب.

كما يروى أن بعض الصدّيقين دعا إلى الله بحقيقة التوحيد فلم يستجب له إلا الواحد بعد الواحد، فعجب من ذلك، فأوحى الله إليه: تريد أن تستجيب لك العقول؟ قال: نعم، قال: احجبني عنهم، قال: كيف أحجبك وأنا أدعو إليك؟ قال: تكلم في الأسباب وفي أسباب الأسباب، قال: فدعا إلى الله من هذه الطريق، فاستجاب له الجم الغفير، فإنما صحة التوحيد بإثبات الصفات وأوصاف الذات التي جاءت بها السنن وشرعها الرسول مع نفي الشبهة والماهية ونفي الجنس والكيفية ثم سكون القلب وطمأنينة العقل إلى الإيمان بهذا والتسليم له لأجل نور الإيمان الموهوب، لأن هذا إنما يشهد بنور اليقين وعلمه لا بعلم العقل ونوره، والعقل مرآة الدنيا بنوره يشهد ما فيها، والإيمان مرآة الآخرة به ينظر إليها فيؤمن بما فيها، والله تعالى إنما يرى بنور اليقين، وفي هذا النور مشاهدة الصفات وهي حقيقة الإيمان، وأعز ما نزل من السماوات هو السكينة المنزلة في قلوب المؤمنين لتزايد الإيمان، لأنا أخذنا الإيمان بمشيئة الله تعالى ورحمته من قبل التصديق واليقين والنقل لا من قبل التقليد وحسن الظن والعقل.

سأل أعرابي محمد بن الحسين رضي الله عنه فقال له: هل رأيت الله حين عبدته؟ قال: لم أكن لأعبد رباً لم أره، قال: فكيف رأيته؟ قال: لم تره الأبصار بمشاهدة العيان لكن رأته القلوب بحقيقة الإيمان، لا يدرك بالحواس ولا يشبه الناس، معروف بالآيات منعوت بالعلامات لا يجور في القضيات، ذلك الله الذي لا إله إلا هو، فقال الأعرابي: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقالوا: أربعة أشياء تسلم تسليماً ولا تعارض اعتراضاً: أخبار الصفات وأوصل العبادات وفضائل الصحابة وفضائل الأعمال، ولولا أن الله تعالى تولى قلوب المؤمنين فحبب الإيمان إليها وزينه فيها وكره الكفر وشانه عندها لتاهوا في الظلمات وغرقوا في بحار الهلكات لظهور الاعتباد ومعاينة الأسباب ولمغيب القدرة عن العيان، ولما ابتلوا به من الحجب والأعيان، ولكنّ الله سلم وحبب الإيمان في القلوب وزيّن وكرّه الكفر والعصيان وشين. وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧] فلولا أنهم كانوا في ظلمة الطبع ما امتن عليهم بإخراجهم منها إلى ما أدخل عليهم من نور اليقين.

وجاء في الخبر أن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه اهتدى ومن أخطأ ضلّ.

وفي أحد المعاني من قوله تعالى: ﴿ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ [الرعد: ٣٩] قال: يمحو الأسباب من قلوب الموحدين ويثبت نفسه، ويمحو الوحدانية من قلوب الناظرين ويثبت الأسباب. وسئل بعض العارفين عن علم الباطن، فقال: هو سرّ من أسرار الله تعالى يقذفه في قلوب أحبابه لم يطلع عليه ملكاً ولا بشراً، وهو من نور الهداية المخصوص به الأنبياء ومن اصطفى من الأولياء.

ومن أحسن ما رأيت في المعرفة قول الحسين بن منصور رحمه الله: ألزم الله لكل الحدوث لأن القدم له، فالذي بالجسم ظهوره فالعرض يلزمه، والذي بالأداة اجتماعه فقوتها تمسكه، والذي يؤلفه وقت يفرقه وقت، والذي يقيمه غيره فالضرورة تمسه، والذي الوهم يظفر به فالتصوير يرتقي إليه، ومن آواه محل أدركه أين، ومن كان له جنس طالبه كيف، والله سبحانه لا يظله فوق ولا يقله تحت، ولا يقابله حدّ ولا يزاحمه عند، ولا يأخذه خلف ولا يحدّه أمام، لم يظهره قبل ولم يفته بعد، ولم يجمعه كل ولم يوجده كان، ولم يفقده ليس، وصفه لا صفة له، وفعله لا علّة له، وكونه لا أمر له، منزه عن أحوال خلقه، ليس له من خلقه مزاج ولا في فعله علاج، باينهم بقدمه كما باينوه بحدوثهم، إن قلت متى؛ فقد سبق الوقت كونه، وإن قلت هو؛ فالهاء والواو خلقه، وإن قلت أين؛ فقد تقدّم المكان وجوده، فالحدود آياته، ووجوده إثباته ومعرفته توحيده، وتوحيده تمييزه من خلقه، ما تصور في الأوهام فهو بخلافه، كيف يحل به ما منه بدأ أو يعود إليه ما هو أنشأه، لا تماقله العيون ولا تقابله الظنون، قربه كرامته وبعده إهانته، علوّه في غير ترق ومجيئه من غير تنقل، ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾

[الحديد: ٣]، القريب البعيد الذي ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]، وقد تهدى الشاعر لهذه المعاني فقال:

إن قلت جسم فما ينفك عن عرض ... أو جوهر فإلى الأقطار مردود
أو قلت متصل بالشيء فهو به ... أو قلت منفصل فالكل تحديد
لا تجعلنّ إلى التشبيه من سبب ... إن الطريق إلى التشبيه مسدود

تَم القسم الأول من كتاب (ألف با)

لأبي الحجاج يوسف البلوي

المذكور في صحيفة ١٠٩ من الجزء الأول من كشف الظنون

ويليه القسم الثاني منه وأوّله

فصل: ومما يمنع منه السؤال

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل: ومما يَمنع منه السؤال بأين:

قيل لصوفيّ: أين الله؟ فقال: أتطلب مع العين أين؟. وقد سئل علي بن أبي طالب: أين كان ربنا قبل أن يخلق السماوات والأرض؟ فقال: أين توجب المكان وكان الله ولا مكان.

وقال لآخر وقد سأله: أين الله؟ فقال: الذي أين الأين لا يقال فيه أين، فبيّن للسائل فساد سؤاله بأن الأينية مخلوقة وكان قبلها سبحانه وتعالى.

قال الأستاذ رحمه الله: مثال هذا السائل كمن سأل عن نور العلم أو ظلم الشك، يريد في فساده.

وقيل ليحيى بن معاذ: أخبرنا عن الله، فقال: إله واحد، فقيل: كيف هو؟ فقال: هو ملك قادر، فقيل له: أين هو؟ قال: بالمرصاد، فقال السائل: لم أسألك عن هذا، فقال: ما كان غير هذا مزيداً كان من صفة المخلوقين، فأما صفته فما أخبرنا عنه.

وقال بعض العلماء: وجائز أن نسأل عن الله بأين، ونجيب عنه بما يليق بالله، مثل أن تقول: أين الله من قلبك أو من ذكر محله، كما قال الشاعر:

فـــــــــأين الله والقـــــــــــدر

وكما قالت الأمة للنبي صلى الله عليه وسلم حين قال لها: أين الله؟ قالت: في السماء، لم ترد المكان إنما أرادت الرفعة والعلو. كما يقال: فلان في السماء، إذا أرادوا مكانته ورفعته في جاه أو علم، وحسن قولها في السماء أنها كانت في زمان المشركين، وكانوا يعبدون آلهة كثيرة في الأرض من الأصنام والأوثان، فنفت تلك وأشارت إلى المعبود في السماء، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]، والله تعالى أعلم. وكذلك تقول في المكان: مكان الله من قلبي معظم، أي: أعرف قدره وأحبه بقلبي، ويستشهد على هذا المعنى بقول عباس بن مرداس للنبي صلى الله عليه وسلم:

فمــن مـبلغ عنـي النبـي محمـداً وكـل امـرئ يجـزى بمـا قـد تكلمـا
تعالـى علـواً فـوق عـرش الهـنا وكـان مكـان الله أعلـى وأعظمـا

فلم يرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم لعلمه بمراده، وقال الشاعر:

قلـت لـه والـرحيل يعجلـه وقـد تدانـى الفـراق أيـن أنـا

فمــــدّ كفـــــاً إلـــــى تـــــرائبه وقـــال ســـر آمـــناً فأنـــت هـــنا

وفي الترمذي عن أبي رزين العقيلي قال: قلت يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: كان في عماء ما تحته هواء ولا فوقه هواء وخلق عرشه على الماء. وفسره قال يزيد ابن عمرون: أي ليس معه شيء.

وجاء في البخاري الذي هو أصح من هذا: كان الله عز وجل ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء. زاد النسائي: ثم خلق سبع سماوات، فسره أبو عبيد فقال: العماء: السحاب، وقال غيره: الرقيق من السحاب.

وقال بعض أهل العلم: قوله: أين كان ربنا؟ يريد: أين كان عرش ربنا، فحذف اتساعاً، كما قال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿ وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [البقرة: ٩٣] أي: حب العجل، ويدل على صحة هذا قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [هود: ٧] وذلك أن السحاب محل الماء فكنى عنه.

وقال الأستاذ رحمه الله نحواً من هذا، قال: إنما سأل عن مستقر الملائكة وغير ذلك من خلقه، ألا تراه قال: أين كان ربنا، ولم يقل: أين هو؟ وقال: قبل أن يخلق خلقه، وقد علم أنه ليس هو في خلقه، ثم لما أجابه بذكر العماء سكت ولم يقل: وأين كان قبل أن يخلق العماء، فدل على أنه سأل عن مخلوق ولم يسأل عن الخالق، والله أعلم، ذكر ذلك في تفسير حديث الأمة السوداء الذي فيه: أين الله، وساق فيه حديثاً بديعاً نحواً من خمسة أوراق رحمه الله.

وسأل ابن شاهين الجنيد عن معنى مع، فقال: مع على معنيين: مع الأنبياء بالنصر والكلاءة، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦]، ومع العامة بالعلم والإحاطة، قال الله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ هُوَ مَعَهُمْ ﴾ [المجادلة: ٧].

وسئل ذا النون المصري رحمه الله عن قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]، قال: أثبت ذاته ونفى مكانه فهو موجود بذاته، والأشياء موجودة بحكمه كما شاء.

وسئل الشبلي عن ذلك فقال: الرحمن لم يزل والعرش محدث والعرش بالرحمن استوى. وقال بعضهم: فعل العرش فعلاً سماه استواء فكان هو به مستوياً، كما خلق في غيره رزقاً فكان هو به رازقاً، وخلق نعمة في غيره كان بها منعماً. وقيل:

الاستواء هو العلوّ، والعلوّ راجع إلى استحقاق صفات المدح، ويتضمن القهر والغلبة، كما يقال: استوى فلان على العراق بمعنى: استولى وغلب، والله أعلم.

وسئل جعفر بن نصير عن ذلك فقال: استوى علمه بكل شيء، وليس شيء أقرب إليه من شيء. وقال جعفر الصادق: من زعم أن الله تعالى في شيء أو من شيء أو على شيء فقد أشرك، لو كان على شيء لكان محمولاً، ولو كان في شيء لكان محصوراً، ولو كان من شيء لكان محدثاً.

وسئل مالك رضي الله عنه عن ذلك فقال: الاستواء منه غير مجهول، والكيف منه غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. وقال للسائل: وإني أخاف أن تكون ضالاً.

وجاء في العرش أنه أعلى المخلوقات كلها، فإنه أكبر خلق الله تعالى، وهو فوق الجنان كالسقف لها، والكرسي دون العرش في المنزلة والقدر. يقال: ما السماوات السبع والأرضون السبع والكرسي في العرش إلا كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، واستعظم قدرة الله وخلقه، ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ويروى عن عكرمة أنه قال: ما أعطى الله عبده من النور في عينيه أن لو جعل نور جميع أعين خلق الله من الجنّ والإنس والدواب وكل شيء مما خلق الله فجعل نور أعينهم في عين عبد من عباده ثم كشف عن الشمس ستراً واحداً ودونها ستراً ما قدر على أن ينظر إلى الشمس، والشمس جزء من سبعين جزءاً من نور الكرسي، والكرسي جزء من سبعين جزءاً من نور العرش، والعرش جزء من سبعين جزءاً من السترة. قال عكرمة: فانظر ماذا أعطى الله عبده من النور، ينظر إلى وجه ربه الكريم عياناً، يعني بالسترة في هذا الخبر والله أعلم: الحجاب. وقد جاء في الحديث: حجابه النور.

وعن مجاهد قال: بين الملائكة وبين العرش سبعون حجاباً: حجاب من نور، وحجاب من ظلمة، وحجاب من نور، وحجاب من ظلمة. وجاء في حديث آخر: ما بين كل حجابين كما بين السماء والأرض. وسيأتي الكلام في الحجاب، وأنه في أبصارنا ما يخلق الله فيها من الموانع، وإن لم تعتقد هذا، والأسبق إلى الوهم أن الحجاب أكبر من الله سبحانه وتعالى، إذ يستره على تخيلك، وهذا محال، والله أكبر من كل شيء وأعظم وأجلّ سبحانه وتعالى، فنحن إذاً المحجوبون، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، انظره في باب الذال عند ذكر

الأذان من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وقال ابن مسعود: ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة، ثم ما بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام، وبُصر(*) كل سماء، يعني غلظ كل سماء، مسيرة خمسمائة عام، ثم ما بين السماء السابعة إلى الكرسي مسيرة خمسمائة عام، ثم ما بين الكرسي إلى العرش مسيرة خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، ولا يخفى عليه شيء من أعمالكم.

وفي حديث آخر عن النبي صلى الله عليه وسلم: وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، وفوق ذلك العرش، وبين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله فوق ذلك، ولا يخفى عليه من أعمال بني آدم شيء.

وعن الحسن عن كعب الأحبار قال: أقرب الخلق إلى الله عز وجل جبريل وميكائيل وإسرافيل، وهم تحت زوايا العرش، وبينهم وبين رب العالمين مسيرة خمسين ألف سنة.

وعن وهب بن منبه قال: أربعة أملاك يحملون العرش على أكتافهم، لكل واحد منهم أربعة وجوه: وجه نور، ووجه وجه أسد، ووجه وجه نسر، ووجه وجه إنسان، ولكل واحد منهم أربعة أجنحة: أما جناحان فعلى وجهه من أن ينظر إلى العرش فيصعق، وأما جناحان فيهفو بهما، ليس لهم كلام سوى أن يقولوا: قدّسوا الملك القوي الذي ملأت عظمته السماوات والأرض.

وعن كعب قال: حملة العرش ما بين أخمص أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يحمل عرشه يومئذ ثمانية، وهم اليوم أربعة أقدامهم على تخوم الأرض السفلى، والسماوات إلى حجزهم، والعرش إلى مناكبهم.

وجاء في تفسير الكرسي أقوال منها: ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كرسيه: علمه. وقاله ابن جبير أيضاً، ذكره البخاري، وكان الطبري يقوّي هذا القول بأنّ العرب تسمي العلماء كراسي، ومنه سميت الكراسة لما تضمنته وجمعته من العلم، وأنشد:

يحفهم بيض الوجوه وعصبة ... كراسي بالأحداث حين تنوب

(*) البُصر بضم الباء: السمك.

أي عالمون بالأحداث، وقيل كرسيه: ملكه. وقال الحسن: الكرسي: العرش.

وكان الأستاذ رحمه الله يقوّي هذا القول لأنه لم يرد أن العلم وسع الكرسي فما دونه دون ما فوقه، فجائز أن يريد به العرش وما تحته، والله أعلم. ويستشهد بما ذكره ثابت بن قيس خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبته إذ يقول فيها: وسع كرسيه علمه، فليس الكرسي على هذا علمه، والله أعلم.

فصل:

وقد تقدّم أن العرش أكبر المخلوقات، وأنه لا يعلم قدره إلا الذي خلقه، وأنه مختص بالعلوّ والارتفاع فوق جميع ما خلق، وقد جاء في القرآن العزيز ذكره وأنه تحمله الملائكة، وجاء في الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أذن لي أن أحدّث عن ملك من ملائكة حملة العرش، ما بين شحمة أذنه وعاتقه بخفق الطير سبعمائة عان. والعرش في اللغة: السرير.

وكذلك فسر ابن عباس قوله تعالى: ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل: ٢٣] أي سرير كريم في حسن الصنعة وغلاء الثمن، ذكره البخاري، يريد بذلك بلقيس. والكرسي في عرف اللغة: ما يقعد عليه أو يرقى به إلى السرير، قال ابن أبي زمنين في كتابه في أصول السنة: ومن قول أهل السنة أن الكرسي بين يدي العرش، وأنه موضع القدمين، والله تعالى يتعالى عن التحديد والتشبيه والتكييف، وهذه المخلوقات التي أظهرها لا شك أن بعضها أكبر من بعض وأعلى من بعض، والعرش أعلى خلقه وأكبر، وهو غني عن جميع ما خلق غير محتاج إليه، وإنما هو ملك أظهره وليس ما أظهره لنا وعلمناه كنه خلقه، بل هو بعض خلقه، إذ يقول سبحانه: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٨].

وقد جاء في الخبر أن السماوات والأرض والدنيا والآخرة والجنة والنار في جوف الكرسي والكرسي نور يتلألأ، وقد تقدّم أن العرش أكبر المخلوقات وأكبر من الكرسي، وليس العرش والكرسي إلا التشبيه في الرفعة، كما أضاف الكعبة التي في الأرض عندنا إليه وسماها بيته، فيقال: بيت الله، كما أضاف المساجد أيضاً إليه، فيقال: بيوت الله، والبيت عندنا إنما هو معدّ للسكنى، والله تعالى يتعالى عن صفات البشرية كلها في جميع صفاته. وقد ذكر أبو طالب المكي أيضاً بسنده إلى مجاهد في قوله تعالى: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩] يقعده على العرش، وهبه لحبيبه في الآخرة فجعله مكانه تفضيلاً له وتشريفاً، ليكون هناك فوق المرسلين في الجلالة كما كان آخرهم في الرسالة، فيحتمل والله أعلم أن يكون خلقه من أجله

صلى الله عليه وسلم، فلا أرفع منه، ويكفيه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [الفتح: ١٠]. وجاء في الخبر عن الله تعالى: وخلقت ما خلقت لأجل محمد، فهذه غاية الشرف والحمد لله.

وقال أبو طالب المكي أيضاً، وقد ذكر ما يعتقده المؤمن، قال: وأن تعتقد أن الله تعالى رفيع الدرجات من العرش، وأن قربه من الثرى ومن كل شيء كقربه من العرش، وأن العرش غير ملابس له بجنس ولا مفكر فيه بوجس ولا ناظر إليه بعين ولا محيط به يدرك لأنه تعالى محتجب بقدرته عن جميع بريته، ولا نصيب للعرش منه إلا كنصيب عالم موفق به واجدها أوجده منه، وإن الله تعالى محيط بعرشه فوق كل شيء وفوق تحت كل شيء، فهو وفق الفوق وفوق التحت، ولا يوصف بتحت فيكون له فوق لأنه العليّ الأعلى أين كان لا يخلو من علمه وقدرته مكان، ولا يحدّ بمكان ولا يفقد من مكان ولا يوجد بمكان، فالتحت الأسفل والفوق الأعلى، وهو سبحانه فوق كل فوق وفوق كل تحت في السموّ، هو فوق ملائكة الثرى كهو فوق ملائكة العرش والأماكن الممكنات، ومما يقوّي هذا ما قاله بعض العلماء، وقد سئل عن معنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: لا تفضلوني على يونس بن متى، فقال: إن الله تعالى أسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم إلى سدرة المنتهى، والتقم الحوت يونس عليه السلام فهبط به إلى قعر البحار في أسفل الأرض،، فلا تقولوا إني كنت أقرب إلى ربي من يونس، بل كنا في القرب سواء، أو كما قال.

وجاء في الخبر: أربعة أملاك اجتمعوا في الهواء: أحدهم هبط من العلو، والآخر ارتفع من السفل، والآخر من المشرق، والآخر من المغرب، وكل واحد منهم يقول: أقبلت من عند ربي، أو كما قالوا، فسبحان الموجود في الكل، مكانه مشيئته، ووجوده قدرته، والعرش والثرى وما بينهما هو حدّ الخلق الأسفل والأعلى بمنزلة خردلة في قبضته، هو أعلى من ذلك، محيط بجميع ذلك بما لا يدركه العقل ولا يكيفه الوهم، ولا نهاية لعلوّه، ولا فوق لسموّه، ولا بعد في دنوّه، ولا حسّ في وجوده، ولا مسّ في شهوده، ولا إدراك لحضوره، ولا حيطة لحيطته. وقد قال الله تعالى للكل: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ [الأعلى: ١] وقال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ [فصلت: ٥٤]. رفع ذاته عن القلوب والأفكار فلم يخيله عقل، ولم يصوّره وهم، لئلا يملكه الوهم، فيكون مربوباً وهو رب، ولا ينظر إليه بفكر فيكون مقهوراً وهو قهار، ولا يعقل بعقل لأنه

عاقل العقل ولا يدرك بحيطة وهو محيط بكل حيطة، يشهد الكون من أوّله إلى آخره من حيث علمه يعلم هو وصفه ومشاهدة هي نعته، لأن كلامه بذلك يخبر بأنه قد كان دليل على شهوده المآل لأنه شهد ما علم كما علم ما به تكلم، فلم يتفاوت كلامه وعلمه ولم يختلف علمه، وشهادته قوّته كنه قدرته، وقدرته دوام بقائه، نظره سعة علمه، وعلمه مدّ بصره، يدرك الأشياء كلها على اختلاف أوصافها بصفة من صفاته، ثم يدرك بجميع أوصافه ما أدركه بهذه الصفة، فثبتت بذلك مشيئته أنه علم ونظر وتكلم، لا يدخل الترتيب في صفاته، أعني بقبل ولا بعد، ولا يوقت بحدّ، ولا يوصف بالتعقيب بقدرته وأحكامه، أعني: بِمَ ولِمَ، ولزم بذلك أنه يعلم بنظره وينظر بعلمه، وصارت الأوائل والأواخر لديه كشيء واحد، وصارت صفاته كلها آحاداً كاملات تامّات غير محدودة للمحدودات، ولا موقتة مرتبة للموقتات المرتبات، إذ الترتيب في النعوت من وصف الخلق والأدوات، رأى خلقه قبل أن يخلقهم، كما رآهم بعد أن خلقهم، أدخلهم الجنان قبل أن يطيعوه، وأدخلهم النار قبل أن يعصوه، هو أعز من أن تغضبه أعمال خلقه، لكنه نظر إلى قوم بعين الغضب قبل أن يخلقهم، فلما أظهرهم استعملهم بأعمال الغضب، فأسكنهم دار الغضب، وهو أكبر من أن ترضيه أفعال خلقه، ولكنه نظر إلى قوم بعين الرضى قبل أن يخلقهم، فلما أظهرهم استعملهم بأعمال الرضى فأسكنهم دار الرضى، وكان من هجيرى الشيخ أبي الحسن الكانشي رحمه الله: هانوا عليك فعصوك، ولو أحببتهم لحميتهم عن المعاصي.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان: ١] يعني كان في علم الله أن يكون، فكأنه علق قوله: ﴿ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا ﴾ بقوله: ﴿ مَّذْكُورًا ﴾، والله تعالى يخبر بما يكون في الدنيا وبما يكون في القيامة وما بعدها، بلفظ أنه كان لاستواء ذلك في علمه آخراً كالأوّل، إذ لا ترتيب في العلم ولا حدّ ولا مسافة ولا بعد في القدرة، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢١٩] يعني: تقلبك في أصلاب الأنبياء، في صلب نبي بعد نبي حتى أخرجك من ذرّيّة إسماعيل، والله سبحانه عالم بالكون قبل الكون، ثم أظهر الخلق عالماً بعد عالم وقتاً بعد وقت، فجازوا على نظره وسمعه وكلامه، كما كانوا في علمه ومشيئته بغير زيادة ذرّة ولا نقصان خردلة، سبحانه وتعالى علواً كبيراً. والكلام كثير اختصرته من كتب العلماء وحكم الحكماء.

وسئل أبو عثمان المقري رضي الله عنه عن الخلق فقال: قوالب وأشباح تجري عليهم أحكام القدرة.

وقال الواسطي: لما كانت الأرواح والأجساد قامتا بالله وظهرتا به لا بذواتها، كذلك قامت الحركات والخطرات بالله لا بذواتها، إذ الحركات والخطرات فروع للأجساد والأرواح. صريح هذا الكلام أن اكتسابات العباد مخلوقة لله، وكما أنه لا خالق للجواهر إلا الله تعالى؛ فكذلك لا خالق للأعراض إلا الله تعالى، صدق الذي يقول هذا، وشاهده قول الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦]، و﴿ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [فصلت: ٢١].

وفي الخبر: الله صانع كل صانع وصنعته، وهذا الخبر أطول من هذا، رويته عن الحافظ رحمه الله بسنده إلى حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: المعروف كله صدقة، وإن الله عز وجل صانع كل صانع وصنعته، وإن آخر ما تعلق به أهل الجاهلية من كلام النبوّة: إذا لم تستح فاصنع ما شئت.

وسئل بعض العلماء عن التوحيد، فقال: هو اليقين، فقال السائل: بيّن لي ما هو، فقال: هو معرفتك أن حركات الخلق وسكونهم فعل الله عز وجل، فإذا عرفت ذلك فقد وجدته.

وسئل الواسطي عن الكفر بالله أو لله، فقال: الكفر والإيمان والدنيا والآخرة من الله وإلى الله وبالله ولله، من الله ابتداء وإنشاء، وإلى الله مرجعاً وانتهاء، وبالله بقاء وفناء، ولله ملكاً وخلقاً.

وقال بعضهم: ذكر الله إياك ومحبته ورحمته لك باق ببقائه، والجنة باقية بإبقائه، فشتان ما بين باق ببقائه وباق بإبقائه.

قلت: ينظر هذا إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] على تأويل من فسره: ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه، لأن الله تعالى ذاكر من ذكره، قال تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وسئل بعضهم عن المعرفة فقال: المعرفة اسم ومعناه موجود تعظيم في القلب يمنعك من التعطيل والتشبيه. وقال غيره: التوحيد أن تعلم أنه غير مشبه بالذوات ولا بمنفي الصفات.

وقال بعض المشايخ: ما توهمتموه بأوهامكم أو أدركتموه بعقولكم فهو محدث مثلكم.

وقال أبو المعالي: من اطمأن إلى موجود انتهى فكره إليه فهو مشبه، ومن انقطع إلى موجود اعترف بالعجز عن درك حقيقته فهو موحد، ومن اطمأن إلى النفي المحض فهو معطل.

والقول أيضاً في هذا الباب يطول، وقد أحكمه أهل الأصول في أبواب وفصول، فمن طلبه أصابه فاقتنع منه بهذه الصبابه وإن كانت لك بها صبابه، وسيأتي طرف منه في هذا الكتاب في مواضع، فاسترحم الرحمن للواضع، وقد نسيت نفسي بقال فلان وفلان قال حتى طال المقال، ولما خرجت من ثقاف اللغات الثقال صرت كالمنشط من العقال، والحديث ذو شجون وذو شعوب وفنون، وقلت:

خرجت من اللغات فطاب عيشي … وجاء الفكر بالدرّ النفيس
وأفرح حين آخذ في سواها … كما فرح المؤدّب بالخميس
ولكن بسدّ يحضر يوم سبت … فيعبس فيه أكثر من عبوسي
إذا ما قلت لي فسر حروفاً … فتلجيني إلى حرب البسوس
ولو صحفته قشر خروفاً … لكان عليّ أسهل من جلوسي
ولكني سأرجع للذي قد … أردت كرامة لك يا جليسي

ولكن بعد أن أفسر لكم أيها البنون الشجون والفنون، أمّا الشجون فمصدر شجن، وهو الحزن، يقال: أشجنني الأمر فشجنت شجوناً، والجمع أشجان، ويقال: رجل شجٍ بكذا، وقد أجازوا في الشعر شجيّ بالتشديد، وأنشدوا:

أيا ويح الشجيّ من الخليّ

ولهم في ذلك كلام، والشجنة: قرابة مشتركة، ومنه الحديث: الرحم شجنة من الرحمن فمن وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله، يروى بضم الشين وكسرها، يعني قريبة، أي قريب ثوابها من الواصل قريب عقابها من القاطع، وأصله الاختلاط، يقال: شجر متشجن أي ملتف، ومنه: قالوا الحديث ذو شجون كما تقدّم.

وقال البكريّ وذكر الحديث ذو شجون مأخوذ من الشواجن وهي أودية كثيرة (الشيح) (*) الشجر غامضة، يقال: أشجنت الأرض، إذا كثرت فيها الشجون، وهي الأودية، واحدها شجن قالوا: والشجون أيضاً الحاجات، قال الشاعر:

والنفس شتى شجونها

وقد يستعمل في معنى الحبّ، قال الراجز:

(*) قد ذُكر في التعقيبة الشيح وصوابه الشجر كما هنا.

إنـي سـأبدي لـك فـيما أبـدي لـي شـجنان شـجن بـنجد
وشـجن لـي بـبلاد الهـند

والفنون: جمع فنّ، وهو الحال والضرب من الكلام، يقال: رجل معنّ مفنّ، وهو الذي لا يعرض له شيء إلا تكلم فيه، وهو محمود إذا أصاب الصواب ومذموم إذا تعرّض في الأمور وتكلم بغير علم ولا دعته إليه ضرورة. قال ابن السيد: وهو الذي تسميه الناس الفضولي، وأما المُعنّ، بضم الميم فهو الفرس الذي جعل له عنان، وهو من: أعننت، والفنن: غصن الشجرة وجمعه أفنان، قال الله تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٨]، ومنه يقال: فلان متفنن في الكلام كأنه يمضي من غصن إلى غصن. وفسر ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٥] قال: في كل فنّ يذهبون.

وقال مجاهد: في كل فنّ من القول يفتنون. وقال الحسن: قد رأيت أوديتهم التي يهيمون بها في مديح هذا مرّة وفي هجاء هذا مرّة، يعني ما هو على وزن هذا شؤون، وسيأتي إن شاء الله تعالى في فوائد باب الراء، وتقدّم معنّ مفنّ، وكما تقول ذلك للرجل فكذلك تقول للمرأة معنّة مفنّة، قال الراجز:

إنـــا لـــنا لكـــنّه معـــنّة مفـــنّه
ســـمعنّة نظـــرنّه كالـــريح حـــول القـــنّه

ويروى:

كالـــذئب وســـط العـــنّه إلا تـــره تظـــنّه

كان الأحمر يكسر سمعنّة نظرنّه.

وقال أبو زيد: امرأة سمعنّة نظرنّه، بالضم: وهي التي إذا تسمعت أو تبصرت فلم تر شيئاً تظنته تظنياً. وأما قولهم: الحديث ذو شجون، فأوّل من قاله ضبة بن أدّ، وهو والد سعد وسعيد الذي تقدّم ذكرهما، وكان قد أرسلهما في طلب إبل له، فرجع سعد ولم يرجع سعيد، فكان ضبة إذا رأى شخصاً يقول: أسعد أم سعيد، فذهبت مثلاً، ثم إن ضبة خرج في سفر في الشهر الحرام ومعه الحارث بن كعب، فمرّا بمكان، فقال الحارث لضبة: إني لقيت في هذا الموضع فتى من صفته كذا وكذا، فعرف ضبة صفة ابنه سعيد، فقال له: وما فعلت به؟ قال: قتلته وأخذت منه هذا السيف، فقال ضبة: أرني إياه، فسلّه ودفعه إليه، فرأى أنه سيف ابنه، فقال: الحديث ذو شجون، ثم ضرب الحارث فقتله، فلامه الناس على ذلك فقالوا: أقتلت في الشهر الحرام؟ فقال: سبق السيف العذل، فقال الفرزدق في ذلك من شعر له آخره:

ولا تأمنَنَّ الحرب إن استعارها　　كضبة إذ قال الحديث شجون

وسيأتي سبق السيف العذل، وأنَّ أوّل من قاله خزيم بن نوفل، انظره في فصل الأجواد من باب الجيم إن شاء الله. وأنا أقول أيضاً: الحديث يجرّ بعضه بعضاً، تقدّم في هذا الفصل:

أيا ويح الشجيّ من الخليّ

ولي من لفظ الشجيّ قطعة مطوّلة أوّلها:

ليت شعري أيستريح الشجيّ　　فيرى بعد ذاك وهو خليّ

انظرها في التكميل. ومن أملح ما رأيت في هذه اللفظة ما خرّج البكري قال: أوقف عبد الملك بن مروان جارية للشعراء فقال: أيكم يجيز هذا البيت وهذه الجارية له؟ ثم أنشد:

بكى كل ذي شوق يمان فشاقه　　شآم فأنّى يلتقي الشجنان

فجثا جرير على ركبتيه وقال: هلمّي يا جارية إليّ، ثم قال:

يغور الذي بالشرق أو ينجد الذي　　بنجد تهامات فيلتقيان

فأخذ الجارية وانصرف.

فصل

معنى الحرف في اللغة

الحروف في اللغة تأتي على وجوه، منها: القراءة، تقول: قرأت بحرف فلان. ومنها: المذهب والجهة على غير يقين بمعنى الشك والتجربة، وفي القرآن: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١] جاء في تفسيره عن مجاهد: أي على شك، وحقيقته أنه على ضعف في عبادته كضعف القيام، على حرف جرف، قاله المهدوي، وسيأتي طرف من هذا المعنى داخل الكتاب إن شاء الله، فهذا وجه.

وجاء في الحديث: أنزل القرآن على سبعة أحرف، فسره ابن شهاب رحمه الله قال: بلغني أنّ السبعة الأحرف إنما هي في الأمر الذي يكون واحداً لا يختلف في حلال ولا حرام، ذكره مسلم رحمه الله، وفسره أبو عبيد فقال: يعني سبع لغات من لغات العرب، وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه، هذا لم نسمع به قط، ولكن هذه اللغات السبع متفرّقة في القرآن، فبعضه نزل بلغة قريش، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة هذيل، وبعضه بلغة أهل اليمن. ثم فسر عن ابن سيرين هو كقولك:

هلمّ وتعال وأقبل. وقال أيضاً في حديث يرفعه: على سبعة أحرف حلال وحرام وأمر ونهي وخبر من كان قبلكم وخبر ما هو كائن بعدكم، وضرب الأمثال، ثم قال أبو عبيد: ولسنا ندري ما وجه هذا الحديث لأنه شاذ غير مسند، وصحح ما قاله أوّلاً في القرآن حسبما ذكره في الغريب، وهذه نخبة قوله رحمه الله.

قلت: ولعمري إن النفس تميل إلى ما قاله أبو عبيد رحمه الله من أنها لغات متفرقة في ألسنة العرب، ألا ترى أن من لغة عمر بن الخطاب رضي الله عنه نعِم، بكسر العين، على ما حدث به الكسائي عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سألهم عن شيء، فقالوا: نعم، فقال: إنما النعم الإبل قولوا: نعِم. وكان مذهب علي بن أبي طالب رضي الله عنه نعم بالفتح، يدلك على ذلك حين أخذ البيعة على أصحابه فجعلوا يقولون: نعام، يريدون: نعم، فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن النعام والباقر في الصحراء لكثير، ولم ينكر عليهم إلا زيادة الألف في نعم، والله أعلم.

وأمّا ابن قتيبة رحمه الله فقال: تدبرت الاختلاف في وجوه القراءات فوجدنها سبعة:

أولها: في إعراب الكلمة أو في حركات بنائها بما لا يزيلها عن صورتها ولا يغيّر معناها، نحو قوله تعالى: ﴿ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ [هود: ٧٨] وأظهر، وهل يجازى إلا الكفور ﴿ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ [سبأ: ١٧]، والبخل والبخل، وميسرة وميسرة.

والوجه الثاني: أن يكون الاختلاف في إعراب الكلمة وحركات بنائها بما يغيّر معناها ولا يزيلها عن صورتها في الكتاب، نحو قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ [سبأ: ١٩] وربنا بعد و﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ ﴾ [النور: ١٥] وتلقُونه ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف: ٤٥] وبعد أمَة، وهو النسيان.

والوجه الثالث: أن يكون الاختلاف في حروف الكلمة دون إعرابها بما يغيّر معناها ولا يزيل صورتها، نحو قوله تعالى: ﴿ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾ [البقرة: ٢٥٩] وننشرها وقوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ [سبأ: ٢٣] وفزع.

والوجه الرابع: أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها في الكتابة ولا يغير معناها نحو قوله: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ [يس: ٢٩] وزيعة، و﴿ كَالْعِهْنِ

ٱلْمَنفُوشِ ﴾ [القارعة: ٥] وكالصوف.

والوجه الخامس: أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يزيل صورتها ومعناها، نحو قوله تعالى: ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ [الواقعة: ٢٩] وطلع.

والوجه السادس: أن يكون الاختلاف بالتقديم والتأخير، نحو قوله: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ﴾ [ق: ١٩] وجاءت سكرة الحق بالموت في موضع.

والوجه السابع: أن يكون الاختلاف بالزيادة والنقصان، نحو قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ [يس: ٣٥] وما عملت أيديهم، ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الحج: ٦٤] ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ﴾ [الحديد: ٢٤] في سورة الحديد، وقراءة بعض السلف: (إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة أنثى)، و(إن الساعة آتية أكاد أخفيها من نفسي فكيف أظهركم عليها).

وقد تكلم ثابت رحمه الله في الدلائل على هذا الحديث وذهب في ذلك مذهب أبي عبيد رحمه الله، وقال: إن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم والعرب متباينون في كثير من الألفاظ واللغات، ولكل عمارة لغة دلت بها ألسنتهم، وفحوى قد جرت عليها عاداتهم، وفيهم الكبير العاسي والأعرابي القح، ومن لازم نفي عادته وحمل لسانه على غير دربته تكلف منه حملاً ثقيلاً وعالج منه عناء شديداً، ثم لم يكسر غربه ولم يملك استمراره إلا بعد التمرين الشديد، فأسقط الله عنهم هذه المحنة وأباح لهم القراءة على لغاتهم، وحمل حروفهم على عاداتهم، فكان رسول الله عليه الصلاة والسلام يقرئهم بما يفقهون، ويخاطبهم بالذي يستعملون، بما طوّقه الله من ذلك وشرح له صدره وفتق به لسانه وفضله على جميع خلقه، صلى الله عليه وسلم. وهذا معنى الحديث، والله أعلم.

وأيضاً فلم يكن لهم يومئذ كتاب يعتبرونه ولا رسم يتعارفونه، ولا يقف أحدهم في الحروف على كتبة ولا يرجعون منها إلى صورة، وإنما كانوا يعرفون الألفاظ بجرسها ويحذّونها بمخارجها، وكان أكثرهم لا يعلم بين الراء والزاي سبباً، ولا بين الصاد والضاد سبباً، فلهؤلاء جاءت الرخصة من رسول الله صلى الله عليه وسلم في القراءة على سبعة أحرف، أي على سبع لغات، والله أعلم.

والدليل على ذلك أنه كان أكثرهم لا يكتب ولكنهم يفقهون ما روى بعض الأخباريين أن هشام بن عبد الملك مرّ على ميل فقال لأعرابي: انظر ما الذي عليه مكتوب، فنظر ثم أقبل، فقال محجن وحلقة وثلاث كأنها أطباء الكلبة، وهامة كأنها

منقار طائر، فقال هشام: هذه خمسة.

وقال ثابت أيضاً في قول أبي عبيد حين أنكر أبو عبيد أن يكون في الحرف الواحد سبع لغات وقال: هذا لم نسمع به قط، قال ثابت: قد جاء في كتاب الله عز وجل ما له وجوه من القرآن سبعة، أو تزيد على السبعة، من غير أن نقول: هذا مراد النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: أنزل القرآن على سبعة أحرف، ثم ذكر قوله تعالى: وعبد الطاغوت، بضمها، وعبد الطاغوت مضافة، وعبد الطاغوت بالإضافة وضم العين والباء، وعبد الطاغوت بضم العين وتشديد الباء، وعابد الطاغوت، وعباد الطاغوت، وعبدوا الطاغوت، فهذه سبعة أوجه محفوظة عن أبي حاتم السجستاني، وسمي من قرأ بكل حرف منها.

ثم قال: وذكروا عن الخليل رحمه الله أنه قال: ويقرأ (وعبد الطاغوت) كما تقول: ضرب عبد الله، وعب الطاغوت هنا معناه: صار الطاغوت معبوداً، كما تقول: فقد زيد. وعبد الطاغوت أراد عبدة الطاغوت، وطرح الهاء في اللفظ، والمعنى في إثباتها: وعابدو الطاغوت، وفسر ذلك كله فقال: أما من قرأ: (وعبد) فعلى لفظ من، أي: ومن عبد الطاغوت، ومن قرأ: (وعابدو الطاغوت) فعلى معنى من، لأن لفظها لفظ الإفراد ومعناها الجمع، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ [الأنعام: ٢٥]، ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ [يونس: ٤٢]. ومن قرأ: (وعبد) فله وجه مثل: رهن ورهن وسقف وسقف، ويجوز إسكان الثاني في هذا، فتقول: سقف وسقف، وأما عبد فجمع عابد، مثل شهد وشاهد وغيب وغائب. وأما عباد فجمع مثل كافر وكفار وغائب وغياب. وأما وعبد الطاغوت بالإضافة فمردود ولا يوجد ذلك إلا في ضرورة الشعر، مثل قوله:

أنـــا ابـــن ماويـــة إذ جـــدّ النقـــر

على أن سليمان التيمي قرأ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ ﴾ [النمل: ١٨]، والله أعلم. قلت: وكثيراً ما يجيء في الكلمة الواحدة لغات كثيرة، مثل: عضد من قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف: ٥١] فسره مكي في الهداية، أي عوناً، ثم قال: وفيه ست لغات: عضداً، وعضداً، وعضداً، وعضداً، وعضداً، وعضداً، وسترى في هيهات كذلك لغات كثيرة، وفي آزر كذلك، وفي غير هذا كثير، فاطلب تصب والله الموفق.

وقال المازني رحمه الله في هذا الحديث: إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف،

وزيف قول من قال: إنها معان مختلفة، كالأحكام والأمثال والقصص وغير ذلك. وقال: ذلك خطأ لأنه لا يجوز إبدال آية أمثال بآية أحكام، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ ﴾ [يونس: ١٥]، وكذلك زيف قول من قال: إن المراد به إبدال خواتم الآي، فيجعل مكان (غفور) (رحيم، سميع، بصير)، ما لم يناقض المعنى، فيبدل آية رحمة بآية عذاب، قال: وهذا أيضاً فاسد لأنه قد استقرّ الإجماع على منع تغيير القرآن، ولو زاد أحد من المسلمين حرفاً أو كلمة أو نقص أخرى أو خفّف مشدّداً أو شدّد مخفّفاً لبادر الناس إلى إنكاره، فكيف بإبدال كثير من كلماته، وإذا فسد هذا فينبغي أن تعلم أن الحرف في اللغة هو الرطف والناحية، ومنه حرف الوادي، أي طرفه وناحيته، ومنه تسميتهم الشكل المنقطع من حروف المعجم حرفاً، لأنه ناحية من الكلام وطرف، ولا بدّ من حمل الحديث على وجه يجوز إبدال بعضه من بعض، فلم نجد إلا أنه نحو الترقيق والتفخيم والإظهار والإدغام والهمز والتسهيل والفتح والإمالة، فهذا لا يغيّر المعنى، والله أعلم.

والحرف في اللغة أيضاً:

حرف الشيء، مثل الجبل وغيره، تقول: انحرف الرجل وتحرّف واحرورف، إذا مال عن الشيء، وأما الحُرف بالضم: فحبّ الرشاد، والحرف أيضاً: الحرمان، والمحارف المحروم، وهو خلاف قولهم: مبارك، وقد حورف كسب فلان: إذا شدّد عليه في معاشه كأنه ميل برزقه عنه. وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: موت المؤمن بعرق الجبين، تبقى عليه البقية من الذنوب فيحارف بها عند الموت، أي يشدّد عليه لتمحص عليه ذنوبه. والحرفة: الصناعة، والمحترف: الصانع، وفلان حريفي: أي معاملي. قال الأصمعي: هو يحرف لعياله، أي يكتسب من ها هنا وهنا مثل يغرف، وتحريف الكلام عن مواضعه: تغييره، وتحريف القلم قطه محرّفاً وانحرف عنه وتحرّف واحرورف: مال وعدل، والحرف بالفتح أيضاً: الناقة الصلبة، ويقال: الهزيلة، ولبعض أصحابنا يلغز في الحروف التي هي جمع حرف، يعني النوق المتعبة في السفر:

وقائلة ولم تلفظ بحرف ... وكم لفظت حروفاً أضمرتها
عوامل دائباً رفعاً ونصباً ... وخفضاً في معاني أضمرتها

يعني بالقائلة: الهاجرة، وبالحروف: الإبل التي أضعفها العمل حتى أضمرت جسومها لكثرة السير في المرتفع من الأرض والمطمئن والمنخفض، حتى لفظتها يعني طرحتها وألقتها عنها مهزولات مضمرات، والمعاني التي أضمرتها هي ما نوتها في سيرها من صنوف المآرب وضروب المنافع.

واعلم أنه يقال لفظ بالكلام: إذا نطق به، بكسر الفاء وبفتحها، ولفظ الشيء: رمى به، بلفظ فيهما جميعاً، ولفَظ بالفتح وفلظ: مات، والحروف التي بني عليها جميع الكلام هي حروف الهجاء.

قال ابن عطاء: إن الله تعالى لما خلق الأحرف جعلها سراً له، فلما خلق آدم عليه السلام بثّ فيه ذلك السرّ، ولم يبثّ ذلك في أحد من الملائكة، فجرت الأحرف على لسان آدم عليه السلام بفنون الجزئيات في فنون اللغات، فجعلها الله صوراً لها وهي الثمانية والعشرون حرفاً المذكورة، وجعلها أبو القاسم الزجاجي تسعة وعشرين وعدّ منها الهمزة.

وقال ابن دريد: الحروف التي استعملتها العرب في كلامها في الأسماء والأفعال والحركات والأصوات تسعة وعشرون حرفاً، مرجعهن إلى ثمانية وعشرين حرفاً، وأما الحرف التاسع والعشرون فجرس بلا صوت، أي تصويت، وهي الألف الساكنة، وذلك أنه لا يكون إلا ساكناً، فمن أجل ذلك لم يبدؤوا به، فإذا احتجت إلى أن تحركه تحول إلى لفظ أحد الحروف المعتلاّت: الياء والواو والهمزة، فمن ثم لم يعدّوه في حروف المعجم، لأن اللسان لا يبتدئ بساكن ولا يقف على متحرّك، فإذا كانت الكلمة أوّلها ألف صارت همزة، فمن الحروف حرفان تختص بهما العرب دون الخلق وهما الحاء والظاء.

وزعم آخرون أن الحاء في السريانية والعبرانية والحبشية كثير، وأن الظاء وحدها مقصورة على العرب، ومنها ستة أحرف للعرب ولقليل من العجم، وهي: العين والصاد والضاد والقاف والظاء والثاء، وما سواها فللخلق كلهم من العرب والعجم إلا الهمزة فإنها ليست في كلام العجم إلا في الابتداء، وهذه الحروف تزيد على هذا العدد إذا استعملت فيها حروفاً لا تتكلم بها العرب إلا ضرورة، فإذا اضطروا إليها حولوها عند التكلم بها إلى أقرب الحروف من مخارجها، فمن تلك الحروف الحرف الذي بين الباء والفاء، مثل بور، إذا اضطروا إليها قالوا: فور. ومثل الحرف الذي بين القاف والكاف، وبين الجيم والكاف، وهي لغة سائرة في اليمن مثل: جمل، إذا اضطروا قالوا: كمل. وأما بنو تميم فإنهم يلحقون القاف بالكاف، فتغلظ جداً، فيقولون: الكوم، في موضع القوم، فتكون القاف بين الكاف والقاف، انتهى كلامه، وسترى في هذا الكتاب ما جاء من ذلك في أبوابه إن شاء الله.

وإذا تباعدت مخارج الحروف حسن وجه التأليف، وإذا تقاربت صعب النطق بها، لا سيما حروف القلب، لا يجيء منها إلا ثلاثة في كلمة واحدة، وسيأتي طرف من

هذا إن شاء الله تعالى.

وأما أبو القاسم فقال: إنها تبلغ خمسة وثلاثين حرفاً بحروف مستحسنة، نحو النون الخفيفة، والألف الممالة، وهمزة بين بين، وألف التفخيم، والصاد التي كالزاي، والشين التي كالجيم، قال: ثم تصير اثنين وأربعين حرفاً بحروف غير مستحسنة.

قال ابن دريد: وهذه الحروف تسعة أجناس يجمعهن لقبان: المصمتة والمذلقة، ثم فسر ذلك مع مخارجها على ما سأذكر لك ذلك مفرقاً في باب كل حرف إن شاء الله تعالى، ويجمع الحروف المصمتة قولك: حثه شخص فسكت، وهي عشرة، وقيل لها مصمتة، أي: صمت عنها أن يبنى منها كلمة رباعية أو خماسية معراة من الحروف المذلقة في الأكثر، والمذلقة مشتقة من ذولق اللسان، وهو طرفه، ولا تكاد تجد خماسياً ولا رباعياً يخلو من أحدها، ولذلك استغربوا لفظة العسجد والزهزقة والعسطوس، إذ ليس فيها حرف منها، وهي ستة: الراء واللام والنون والباء والفاء والميم، يجمعها: مل بفرن، وهذه الحروف ثلاثة منها شفهية، وهي: الفاء والباء والميم، سميت بذلك لحركة الشفتين عند ذكرها، وثلاثة ذولقية، وهي: الراء واللام والنون، سميت بذلك لخروجها من طرف أسلة اللسان كما تقدّم، يقال: لسان ذلق طلق، وذليق طليق، وذلق طلق، وذلق طلق، أربع لغات، وذلق كل شيء حدّه، وكذلك ذولقه، تقول: ذلِق اللسان، بالكسر، يذلق ذلقاً، أي ذرب، وكذلك السنان، تقول: ذلق يذلق، فهو ذلق، وأذلق، وهذه الحروف منها عوامل ومنها حروف علة ومنها صحاح، وجميعها يذكّر ويؤنّث ما لم تسمّ حروفاً، تقول: هذه ألف، وهذا ألف، قال الشاعر في التذكير:

كافاً وميمين وسيناً طاسما

وقال آخر في التأنيث:

كما بنيت كاف تلوح وميمها

وقد ذكرت من ذلك في هذا الكتاب ما قدّر الله لي أن أذكره، وعسى الله أن ينفع بالنية فيه.

فصل:

قد تقدّم فضل حروف المعجم، وأخبرتك أن الله تعالى قد فضّل الأشياء بعضها على بعض، ورأيت أن الألف أفضل الحروف، ويتلوها في الفضل الباء لوجوه، منها إجماعهم على تقديم الألف في أبجد وبعدها الباء، على مذهب من استعمله، وفي ألف با تا ثا، ولأن أوّل ما نزل من القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ [العلق: ١] فأوّل اللفظة الألف وإن كانت همزة فالألف تحملها، وأوّل كلمة

بعد هذه اللفظة: ﴿ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ فالباء أوّل هذه الكلمة الأخرى، فهي تالية للألف، وإن أزلت الباء وقلت إنها زائدة بقي اسم وأوّله الألف، والباء هنا لها معنى عظيم، أي إنك لا تقرؤه بحولك وقوّتك ولكن اقرأ مفتتحاً باسم ربك مستعيناً، فهو يعلمك ويحفظك، لأنه قال قبل ذلك: ما أنا بقارئ، أي إني أمّي ولا أقرأ الكتاب، فقيل: اقرأ باسم ربك الذي خلقك، فينبغي على هذا أن لا يتحرّك متحرّك إلا بذكر اسم الله تعالى، ألم تسمع قوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ [هود: ٤١].

وينبغي أن يتحفّظ في لفظه فيقول: باسم الله، ولا يقل: على اسم الله، فإنه قد جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كره أن يقول الرجل للقوم: قوموا على اسم الله، وسمع قائلاً يقول في جنازة: ارفعوا على اسم الله، فقال ابن عمر: إن اسم الله على كل شيء، ولكن قولوا: ارفعوا باسم الله. ويروى أن رجلاً قال لصاحبه: اجلس على اسم الله، وذلك بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل اجلس على استك. وقع هذا الخبر في كتاب آداب الإسلام لابن أبي زمنين.

قلت: لا أدري كيف هذا وقد خرّج مسلم رحمه الله عن جندب بن سفيان قال: شهدت الأضحى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قضى صلاته بالناس نظر إلى غنم قد ذبحت فقال: من ذبح قبل الصلاة فليذبح شاة مكانها، ومن لم يكن ذبح فليذبح على اسم الله فرغ الحديث، اللهم إلا أن يكون كره للرجل الذي قال لصاحبه: اجلس على اسم الله، سوء الأدب في لفظه هذا، والله أعلم. وعند العامة من هذا كثير، يرسلون أقوالهم ويسيبون كلامهم ألا ترى قول الناس: الحمد لله الذي جئت، يقولونه لمن قدم عليهم. قال بعض العلماء: لا ينبغي أن يقال هذا، ولكن يقال: الحمد لله الذي جاء بك، أو الحمد لله إذا جئت.

رجع الكلام إلى فضل الألف :

خرّج أبو عمرو المقري رحمه الله في المحكم بسنده إلى عبد الله بن سعيد قال: بلغنا أنه لما عرضت حروف المعجم على الرحمن، تبارك اسمه وتعالى جدّه وهي تسعة وعشرون حرفاً تواضع الألف من بينها، فشكر الله له تواضعه، فجعله قائماً أمام كل اسم من أسمائه، قال أبو عمرو: قال بعض العلماء: إنما تقدّمت الألف على سائر الحروف لأنها صورة الهمزة المتقدّمة في أوّل الكلام.

ويروى عن بكر بن خنيس أن الله تعالى لما خلق الألف انتصب قائماً، فلما خلق

الباء اضطجعت، فقيل للألف: لم انتصبت قائماً؟ قال: أنتظر ما أومر. وقيل للباء: لم اضطجعت؟ قالت: سجدت لربي. قال بكر: فأيهما أجلّ، الذي فعل ما يؤمر أو الذي انتظر ما يؤمر؟ كأنه فضّل الألف على الباء. ثم هي مع اللام في اسم الله، وفي أوّل كل اسم من أسمائه التسعة التسعين اسماً، ولذلك جاءت في القرآن في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ [الحديد: ٣]، وفي الحشر: ﴿ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٣] إلى آخر السورة. وحيثما ذكرت هذه الأسماء تذكر بالألف واللام وإن لم يكونا من نفس الكلمة.

وسمعت بعض أشياخي ينكر على من يكتب أو يذكر اسم الله تعالى منكراً، وأنكر على من قال: إن (إلاّ) من قوله تعالى: ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة: ١٠] هو الله، وقال: حذار حذار من أن تقول هو اسم الله فتسمي الله باسم لم يسمّ به نفسه. ألا ترى أن جميع أسماء الله تعالى سبحانه معرفة، وأنّ (إلاّ) نكرة، وحاش لله أن يكون اسمه نكرة، إنما الإلّ ما له حرمة وحق، مثل القرابة والرحم والجوار، وهو من أللت إذا اجتهدت في الشيء وحافظت عليه، فإذا كان المصدر (ألاّ) بالفتح فالإلّ بالكسر: الاسم كالذبح من الذبح. قلت: وهذا الذي أنكره هذا الشيخ قد قاله ابن عزيز رحمه الله، وذكر أنّ (إلاّ) تجيء على خمسة أوجه ذكرها، وأوّل ما قال الإلّ الله عز وجل، وكذلك فسر أبو عبيد الإلّ أنه الله في قول أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه حين سمع سجع مسيلمة: إن هذا شيء ما جاء عن إلّ، وسيأتي هذا كله في بابه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وجاءت الألف في أوّل آمين فيمن جعله اسماً من أسماء الله تعالى، وفي أوّل سورة في المصحف: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢]، وجاء في معنى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾، لا نفسره بغيره، لأن لفظة الحمد أعمّ من كل لفظة ترجمت عن الحمد، وهو أعمّ من الشكر، فبدأ بالألف في ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ في أوائل السور، وحيثما وقع في أوّل آية الكرسي التي هي أعظم آية: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وفي أوّل الصلاة: الله أكبر، وفي آخرها: السلام عليكم، وهذا كله راجع إلى اسم الله تعالى.

فصل:

تقدّم أن الحمد أعمّ من الشكر، وقد قال في ذلك الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي رضي الله عنه:

ما لي بوصف الإله الْحق من قبل ... جلت معاليه عن قولي وعن عملي
لا حمد إلا الذي قد جاء عنه له ... فرد عن الْمثال معلوم على الْمثل
يا أيها الْمتعاطي وصفه صلفاً ... مهلاً فقد خلق الإنسان من عجل
سلني عن الدين والدنيا أجبك وعن ... محامد الله رب الناس لا تسل
هذا النبيّ وقد أوتي جوامعه ... من الكلام بلا عيّ ولا خطل
قد قال ما أحسن الأحبار عنه ولا ... أحصي ثناء عليه آخر الأجل
وأنت إن كنت تبغي وصفه فلقد ... ركبت في الأمر ظهر الْحادث الْجلل
وقد وجدت مكان القول ذا سعة ... فإن وجدت لساناً قائلاً فقل
ما كلف الله نفساً فوق طاقتها ... ولا يقابل حول الله بالْحيل

قال الفقيه الأستاذ أبو الحجاج رضي الله عنه: قد تقدّم أن الحمد أعمّ من الشكر، ولذلك قلت:

الحمد أبلغ في الثنا ... من لفظ شكر فاعتبر
بمقالة العلماء فيه ... أولي البصائر والبصر
وأنا أقول بقولهم ... وأزيد معنى لي حضر
في لفظ حمد أحرف ... مدح وإلا فاختبر
تجد الذي لك قلته ... ليس المعاين كالخبر

قد تقدّم الألف في: ﴿الٓمٓ﴾ و: ﴿الٓر﴾ و: ﴿الٓمٓر﴾ و: ﴿الٓمٓصٓ﴾، كما تقدّم أن الباء تتلو الألف في الفضل لكونها كما تقدّم في: ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ وفي: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ على مذهب من جعلها آية من كل سورة من القرآن، فيبدأ بها في المصحف قبل: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، وكونها في أوّل كل سورة للفصل وللفضل.

وقد خرّج الدارقطني عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إذا قرأتم الحمد فاقرؤوا: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إنها أمّ القرآن وأمّ الكتاب والسبع المثاني، و: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أحد آياتها.

وخرّج أبو داود عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وقد جاء في

فضلها ما لا ينبغي لأحد إذا سمعه أن يترك قول ذلك، وأذكر منه هنا بعض ذلك لعل أحداً يستعمله فأكون دالاً على خير، والكريم ذو الجلال لا يضيع الدلال.

ذكر النقاش في كتابه بسنده إلى ابن جريج عن عكرمة قال: إن الله كان ولا شيء غيره، فخلق نوراً وخلق من النور القلم واللوح أوّل كل شيء، ثم أمر القلم فجرى على اللوح بما هو كائن إلى يوم القيامة، فأوّل ما كتب على اللوح: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، وجعل الله هذه الآية أماناً لخلقه ما داموا على قراءتها، وهي قراءة أهل سبع سماوات وأهل سرادقات المجد والكروبيين والصافين والمسبحين.

وأوّل ما نزلت على آدم، فقال: قد أمن ذريتي من العذاب ما داموا على قراءتها، ثم رفعت بعده فأنزلت على إبراهيم الخليل في سورة الحمد، فتلاها وهو في كفة المنجنيق، فجعل الله عليه النار برداً وسلاماً، ثم رفعت بعده فأنزلت على موسى في الصحف، فقهر بها فرعون وسحرته وهامان وجنوده وقارون وأشياعه، ثم رفعت بعده فأنزلت على سليمان بن داود، فعندها قالت الملائكة: اليوم والله تمّ ملكك يا ابن داود، فلم يقرأها سليمان على شيء إلا خضع له، وأمره تعالى يوم أنزلت عليه أن ينادي في أسباط بني إسرائيل: ألا من أحب منكم أن يستمع أمان الله فليحضر إلى سليمان في محراب داود، فإنه يريد أن يقوم خطيباً، فلم يبق محبوس حبس نفسه في العبادة ولا سائح إلا هرول إليه، حتى اجتمعت الأحبار والعباد والزهاد والأسباط كلها عنده، فقام فرقي منبر الخليل عليه السلام وتلا عليهم آية الأمان: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، فلم يسمعها أحد إلا امتلأ فرحاً وقالوا: نشهد أنك لرسول الله حقاً، فقهر بها سليمان الملوك، وبها فتح الله عز وجل لنبيه عليه السلام مكة، ثم رفعت بعد سليمان وأنزلت على المسيح عيسى ابن مريم، ففرح بها واستبشر بها الحواريون، فأوحى الله إليه: يا ابن العذراء أتدري أي آية أنزلت عليك؟ آية الأمان ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، فأكثر من تلاوتها في قيامك وقعودك ومضجعك ومجيئك وذهابك وصعودك وهبوطك، فإنه من وافى يوم القيامة وفي صحيفته: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ثمانمائة مرة وكان مؤمناً بي وبرسولي عتقته من النار وأدخلته الجنة، فلتكن في افتتاح قراءتك وصلاتك، فإنه من جعلها في افتتاح قراءته وصلاته ومات على ذلك لم يروّعه منكر ونكير، وأهوّن عليه سكرات الموت وضغطة القبر، وكانت رحمتي عليه، وأفسح له في قبره وأنوّر له مدّ بصره، وأخرجه من قبره أبيض الجسم وأنور الوجه يتلألأ نوراً، وأحاسبه حساباً يسيراً، وأثقل ميزانه، وأعطيه النور التام على الصراط حتى يدخل به الجنة، وآمر

المنادي أن ينادي له في عرصات القيامة بالسعادة والمغفرة. قال عيسى عليه السلام: اللهم يا رب فهذا لي خاصة؟ قال: لك خاصة ولمن اتبعك وأخذ بأخذك وقال بقولك عامة، وهو لأحمد وأمته من بعدك. فأخبر عيسى عليه السلام أتباعه بذلك فقال: ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦] ونعته وفضله كيت وكيت، وأخذ ميثاقهم بالإيمان به، وجدّد ميثاقه حين رفعه الله إلى السماء لأصحابه، فلما انقرض الحواريون ومن اتبعهم وجاء الآخرون فضلّوا وأضلّوا وبدّلوا واستبدلوا بالدين دنيا؛ رفعت عندها آية الأمان من صدور النصارى، وبقيت في صدور مؤمني أهل الإنجيل مثل بحيرا وأمثاله، حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم فأنزلت عليه في سورة النمل بمكة، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكتب على رأس السور وصدور الدفاتر والرسائل، فكان نزول هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتحاً عظيماً، وحلف رب العزّة بعزّته أن لا يسمّي بها مؤمن على شيء إلا باركت عليه، ولا يقرؤها مؤمن إلا قالت الجنة: لبيك وسعديك، اللهم أدخل عبدك هذا فيّ بـ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، فإذا دعت الجنة لعبد فقد استوجب له دخولها.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يردّ دعاء أوّله: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، قال: وإن أمّتي يأتون يوم القيامة وهم يقولون: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، فتثقل حسناتهم في الميزان، فتقول الأنبياء: لم؟ فيقال: لأن مبتدأ كلامهم ثلاثة أسماء من أسماء الله المرام، ولو وضعت في كفة الميزتان ثم وضعت سيئات الخلق كلهم في كفته الأخرى لرجحت حسناتهم. قال: وقد جعل الله هذه الآية شفاء من كل داء، وعوناً لكل دواء، وغنى لكل فقير، وستراً من النار، وأمناً لهذه الأمة من الخسف والمسخ والقذف ما داموا على قراءتها.

وفي هذا الكتاب من فضائلها أكثر مما ذكرته، لكني اختصرته، وفضلها لا شك فيه، لكن أين الداعي والمتكلم بها كما يجب لها من حرمة ورعاية؟ كما حدّثني بعض أشياخي عن من كان يكتب ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ في الصحفة فتنشق، ثم يأتي بأخرى فيكتب فتنشق مراراً، كان هذا من الذين يتلونه حق تلاوته، كما فسره بعضهم: ليس بحفظ حدوده.

وجاء عن عثمان رضي الله عنه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، فقال: هو اسم من أسماء الله، وما بينه وبين اسم الله الأكبر إلا كما بين سواد العين وبياضها من القرب، جعلنا الله ممن وفقه لطاعته وحماه

عن معاصيه، إنه منعم رحيم كريم. وهذا الفضل المذكور في ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يذكر لمن لا يرى أنها آية من كل سورة من القرآن، وقد أجمع العلماء أنها آية منه في سورة النمل، وإنما اختلفوا في كونها آية في كل سورة، أو في الحمد خاصة، فمالك والأوزاعي لا يريانها من القرآن إلا في سورة النمل، ولا يقرأان بها في الفريضة سراً ولا جهراً، وهي عند الشافعي وابن حنبل وغيرهم آية من أمّ القرآن يقرؤونها في الفريضة جهراً في صلاة الجهر وسراً في الإسرار، وذلك يروى عن عمر وعلي وزيد ابن ثابت رضي الله عنهم. وكذلك اختلفوا في التعوّذ مع إجماعهم أنه ليس من القرآن، ومالك لا يراه في الصلاة المفروضة، والشافعي وأبو حنيفة وغيرهما يتعوّذون في أوّل ركعة منها، ومحمد بن سيرين يتعوّذ في كل ركعة، وكانوا يكتبون أوّلاً باسمك اللهم، حتى نزلت: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ [هود: ٤١] فكتبوا: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾، فلما نزلت: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾ [الإسراء: ١١٠] كتبوا: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾، فلما أنزلت في النمل: ﴿ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠] كتبوها كذلك. وكان بعد ذلك جبريل عليه السلام ينزل بـ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مع كل سورة.

ومن بركة هذه الكلمة وفضلها ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا عثرت بك الدابة فلا تقل: تعس الشيطان، فإنه يتعاظم حتى يصير مثل البيت، ويقول: بقوّتي صنعته، ولكن قل: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ فإنه يتصاغر حتى يصير مثل الذباب. فمثل هذا الكلام لا ينبغي أن يترك مع إثباتها في سواد المصحف في أوّل كلّ سورة بإجماع من الصحابة، وحاشاهم أن يثبتوا في المصحف ما ليس بقرآن، مع ما تقدّم في ذلك من الفضل العظيم، والله الموفق.

سبب الإسرار بالبسملة

ووقع في مصنف عبد الرزاق السبب الذي منع من الجهر بـ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في الصلاة وصله بسنده إلى البراء بن عازب رضي الله عنه قال: لما ظهر مسيلمة الكذاب باليمامة ادّعى النبوّة، فقيل له: من أنت من الأنبياء؟ فقال: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قيل له: فمن يعلم ذلك؟ قال: محمد وأصحابه فإنهم لا تجوز لهم صلاة حتى يذكروا اسمي. فأرسلوا معبد ابن مالك الأشجعي وأمية بن أبي الصلت

الثقفي إلى المدينة ليقفوا على تحقيق قوله، فهبط جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم فأمره أن يخافت بـ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، قام بها ثلاثة أيام فرجعا بتكذيب مسيلمة، فأتت الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله نعود إلى ما كنا عليه؟ فهبط جبريل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد دمْ على ما أنت عليه فقد جرت سنة الله بذلك، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يقرؤوا بها في نفوسهم ولا يتركوها. نقلته على المعنى من كتاب غير المصنف والحمد لله.

وتقدّم ذكر أمية بن أبي الصلت، ووقع في المسعودي أنه أوّل من أدخل مكة لفظة باسمك اللهم، جاء بها من الشأم في خبر عجيب علمه إياها شيخ أبيض الرأس واللحية، وجده في كنيسة في فلاة من الأرض نجا بها وأصحابه من الهلكة، وقد كتبت الحكاية بكمالها في باب الهاء من هذا الكتاب عند ذكر الحيات، فانظرها هناك. وهذا الفضل العظيم قد أورده النقاش رحمه الله في هذه الكلمة، وأورد في فضل ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ المذكور في أمّ القرآن وفي علمها عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال لي علي رضي الله عنه: يا ابن عباس إذا صليت العشاء الآخرة فالحق إلى الجبانة، قال: فصليت ولحقته وكانت ليلة مقمرة، قال: فقال لي: ما تفسير الألف من الحمد؟ قلت: لا أعلم، فتكلم في تفسيرها ساعة تامة، قال: ثم قال: ما تفسير اللام من الحمد؟ قلت: لا أعلم، فتكلم فيها ساعة تامة، ثم قال: ما تفسير الحاء من الحمد؟ قال: قلت: لا أعلم، قال: فتكلم في تفسيرها ساعة تامة، ثم قال: ما تفسير الميم من الحمد؟ قال: قلت: لا أعلم، قال: فتكلم في تفسيرها ساعة تامة، قال: فما تفسير الدال من الحمد؟ قال: قلت: لا أدري، فتكلم فيها إلى أن بزق عمود الفجر، قال: وقال لي: قم يا ابن عباس إلى منزلك فتأهب لفرضك، فقمت وقد وعيت ما قال، ثم تفكّرت فإذا علمي بالقرآن في علم عليّ كالقرارة في المثعنجر، قال: القرارة: الغدير الصغير، والمثعنجر: البحر. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: علم رسول الله صلى الله عليه وسلم من علم الله، وعلم علي رضي الله عنه من علم النبي صلى الله عليه وسلم، وعلمي من علم علي، وما علمي وعلم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في علم علي رضي الله عنه إلا كقطرة في سبعة أبحر. فانظر كيف تفاوت الخلق في العلوم والفهوم.

ذكر فضل عليّ رضي الله عنه

يقال: إن عبد الله بن عباس أكثر البكاء على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه حتى ذهب بصره، وإذ وقع ذكر عليّ وابن عباس رضي الله عنهما فلنذكر بعض فضائلهما، ولنبدأ بمفاخر علي الزكي العلي ابن عمّ النبي، ولنثن بالثناء على ابن عباس العدل الرضيّ ابن عمّ النبي أيضاً. قال أبو الطفيل: شهدت علياً يخطب وهو يقول: سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به، وسلوني عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أم في سهل أم في جبل، ولو شئت أوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب، وسيأتي قول النبي صلى الله عليه وسلم فيه: أنا مدينة العلم وعليّ بابها، فمن أراد العلم فليأته من بابه.

وقول ابن عباس فيه: لقد أعطي عليّ تسعة أعشار العلم، وأيم الله لقد شاركهم في العشر العاشر، وكان معاوية رحمه الله يكتب فيما ينزل به فيسأل علي بن أبي طالب عن ذلك، فلما بلغه قتله قال: لقد ذهب الفقه والعلم بموت ابن أبي طالب، وكان عمر بن الخطاب يتعوّذ من معضلة ليس لها أبو حسن. وسئل عطاء: أكان في أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أحد أعلم من عليّ؟ قال: لا والله ما أعلمه. وفضائله كثيرة قد جمعها الناس ودوّنوها، وأجمعها لنعته ما وصفه به ضرار الصدائي إذ قال له معاوية: صف لي علياً، قال: اعفني يا أمير المؤمنين، قال: لتصفنه، قال: أما إذ لا بدّ من وصفه فكان والله بعيد المدى شديد القوى، يقول فصلاً ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل ووحشته، وكان غزير العبرة طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن، كان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه وينبئنا إذا استنبأناه، ونحن والله مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نكاد نكلمه هيبة له، يعظم الدين ويقرب المساكين، لا يطمع القويّ في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله، وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين، ويقول: يا دنيا غرّي غيري إليّ تعرّضت أم إليّ تشوقت، هيهات قد باينتك ثلاثاً لا رجعة فيها فعمرك قصير وخطرك قليل، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق. فبكى معاوية وقال: رحم الله أبا الحسن، كان والله كذلك، فكيف حزنك عليه يا ضرار؟، قال: حزني حزن من ذبح ولدها في حجرها.

وسئل الحسن بن أبي الحسن عن علي بن أبي طالب فقال: كان عليّ والله سهماً صائباً من مرامي الله عز وجل، وربانيّ هذه الأمة، وذا فضلها وسابقتها، وذا قرابتها من

رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يكن بالنومة عن أمر الله، ولا باللومة في دين الله، ولا بالسرقة لمال الله، أعطى القرآن عزائمه ففاز منه برياض مونقة، ذاك علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأعزّ من مدحه وأخزي من قدحه.

تقدّم في هذا الخبر قوله: يا دنيا غرّي غيري، كذلك كان علي رضي الله عنه لا يستأثر من الفيء بشيء قسم ما في بيت المال بين المسلمين، ثم أمر به فكنس ثم صلى فيه رجاء أن يشهد له يوم القيامة، وكان يلبس القميص إذا مدّ كمه بلغ إلى الظفر، وإذا أرسله بلغ إلى نصف الساعد وإزاره إلى نصف الساق، ويكفيه فضلاً قول النبي صلى الله عليه وسلم فيه: من كنت مولاه فعلي مولاه.

وقوله عليه الصلاة والسلام: لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق. وهو أوّل من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خديجة وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وقيل: خمس عشرة سنة، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة، رضي الله عنه وأرضاه.

فضل ابن عباس رضي الله عنه

وأما ابن عباس رضي الله عنهما فإن طاوساً قال: ما رأيت أحداً كان أشدّ تعظيماً لحرمات الله من ابن عباس، والله لو أشاء إذا ذكرته أن أبكي لبكيت.

وعن أبي رجاء قال: كان هذا الموضع من ابن عباس مجرى الدموع كأنه الشراك البالي. وعن ميمون بن مهران قال: شهدت جنازة ابن عباس بالطائف فلما وضع ليصلى عليه جاء طائر أبيض، حتى دخل في أكفانه فالتمس فلم يوجد، فلما سوى عليه سمعنا صوتاً نسمع صوته ولا نرى شخصه: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ۝ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

ومن فضائله رضي الله عنه أنه كان أعلم الصحابة بالتأويل، وحقّ ذلك له فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم مسح رأسه ودعا له بالحكمة، وقال: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل واجعله إمام المتقين. وفي رواية: ضمّه إلى صدره وكل ميسر لما خلق له.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يدني مجلسه ويقدمه على من كان أسنّ منه لأن سنّه كان يوم توفي النبي صلى الله عليه وسلم ابن ثلاث عشرة سنة، وقيل: ابن عشر سنين. وكان عمر رضي الله عنه يقول: من كان سائلاً عن شيء من القرآن فليسأل عبد الله بن عباس، وكان إذا عضل به الأمر قال له: غص يا غوّاص، أي أشر برأيك.

وكان يقول فيه علي بن أبي طالب: كأنه ينظر إلى الغيب من ستر رقيق، ومع هذا فلم يغفل نفسه عن الطلب، قال: والله لربما مررت بالآية من كتاب الله تعالى في جوف الليل فلا أعرف فيمن أنزلت، فآخذ ثوبي ثم آتي المسجد وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه، فأوقظ الرجل منهم فأسأله فيمن نزلت آية كذا وكذا، فإن لم أجد عند واحد منهم وجدت عند آخر حتى أمرّ عليهم جميعاً، وربما غدوت فأبدأ بالمهاجرين فأسألهم، فإن لم أجد عند واحد منهم أتيت قرى الأنصار فتتبعتهم رجلاً رجلاً حتى أجد حاجتي، وكان يقول: ذللت طالباً فعززت مطلوباً.

وقال سعيد بن جبير: كنت عند ابن عباس جالساً إذ أتاه أهل التفسير فسألوه، وأتاه أهل القرآن فقرؤوا عليه وأخذوا علمهم بإعرابه، ثم جاء أهل الحلال والحرام فسألوه، ثم جاء أهل العربية والشعر فسألوه فأخبرهم، حتى جاء قوم من فارس فسألوه عن رستم واسفنديار فحدّثهم بحديثهم، فقمت إليه فقبّلت رأسه وقلت: يا ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما على الأرض أعلم منك، فتبسّم. وقال مجاهد: كان ابن عباس يسمى البحر لكثرة علمه، وقال عطاء: ما رأيت بيتاً أكثر علماً وعملاً وخيراً من بيت عبد الله بن عباس رضي الله عنه، وفيه يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

إذا قال لم يترك مقالاً لقائل ... بملتقطات لا ترى بينها فصلا
وكفى وشفى ما في الصدور فلم يدع ... لذي حجة في القول جداً ولا هزلا

ووجدت شبه هذين البيتين وقبلهما مكتوب لمعاوية:

إذا قال لم يترك مقالاً ولم يقف ... لعيّ ولم يثن اللسان على الهجر
يصرّف بالقول اللسان إذا انتحى ... وينظر في أعطافه نظر الصقر

كذا وجدته لمعاوية، فلا أدري أقيلت في معاوية أو قالها معاوية في ابن عباس، وكذا أظنه والله أعلم، رضي الله عنهما.

وسئل عنه الحسن بن أبي الحسن رضي الله عنهما فقال: كان والله سيحاً يسيل عذباً، بحر بيان يتدفق على لسانه، أعذب في الأسماع من الشهد في الأحناك، وأحسن في الإبصار من الردّ في الأسلاك، سأله رجل: ما تقول فيمن طلق امرأته عدد نجوم السماء؟ فقال: يكفيه منها كواكب الجوزاء. وكان من سجيته أنه ينشد الشعر فيحفظه من سمعة واحدة، فيقال له: أكنت ترويه؟ فيقول: لا، وهل أحد يسمع شيئاً ولا يحفظه؟ يتعجب ممن سمع ولا يحفظ ما سمع.

ومن فضائله رضي الله عنه ما خرّج البخاري رحمه الله بسنده عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكان بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم تدخل هذا

معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من قد علمتم، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم قال: فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم، فقال: ما تقولون في قول الله عز وجل: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ [النصر: ١]؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه بذلك فقال: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ [النصر: ١] وذلك علامة أجلك ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ [النصر: ٣]. فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم.

ومن غير البخاري قال يوماً وقد سأل ابن عباس عن شيء، فأجابه فالتفت إلى المهاجرين فقال: أعييتموني إن تأتوا بمثل ما جاء به هذا الغلام الذي لم تجتمع شؤون رأسه، وسيأتي تفسير الشؤون إن شاء الله.

وفي البخاري أيضاً عن عبيد بن عمير قال عمر يوماً لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: فيم ترون هذه الآية نزلت؟ أيود أحدكم أن تكون له جنة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، فغضب عمر فقال: قولوا نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين قال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقرنّ نفسك، وذكر باقي الحديث.

وفضائله كثيرة رضي الله عنه، وكان له ابن اسمه علي كان له خمسمائة أصل زيتونة يصلي كل يوم إلى كل أصل ركعتين، وكان يقال له ذو النفثات لما كان بوجهه وركبتيه من أثر السجود، والنفثات من البعير ما بركبتيه وذراعيه من الأثر من كثرة بروكه على الأرض، هذا شكر مولاه على ما أولاه، وبذلك كان أهل الدين والصون يتواصون، ألم تسمع قول الشاعر وقد دخل على بعض الأجواد في حديقة له، فقال له: صف هذه الحديقة ولا تعدو الحقيقة، فقال:

ترفعت عن ندى الأعماق وانحدرت … عن المعاطش فاستغنت بمسقاها
فاهتز بالبقل والريحان أسفلها … واعتم بالنخل والرمان أعلاها
أيا معاوية اشكر فضل واهبها … وكلما جئتها فاعمر مصلاها

وكان أيضاً يقال لعبد الله بن وهب الراسبي رئيس الخوارج: ذو النفثات، لأن طول السجود كان قد أثر في ثفناته كذلك.

تقدّم أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يدني مجلس ابن عباس وهو حديث السنّ وقد كان يفعل ذلك بغيره. وروي عن يوسف بن الماجشون أنه قال لابن شهاب ولابن عمر ولآخر معنا: لا تستحقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم فإن عمر بن الخطاب

رضي الله عنه كان إذا أعياه الأمر المعضل دعا الأحداث فاستشارهم لحدّة عقولهم، ذكره القاضي أبو محمد الحسن ابن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي في كتابه المسمى بالفاصل بين الراوي والواعي، وهو رواية شيخي أبي الطاهر السلفي رحمه الله عن أبي الحسين المبارك بن عبد الجبار عن أبي الحسن علي بن أحمد بن علي القالي عن أبي عبد الله محمد بن إسحاق بن حدبان النهاوندي عن المؤلف، وفي هذا الكتاب تفضيل كثير من الصغار، وقال: أنشدنا أصحابنا البغداديون:

إنّ الحداثة لا تقصر بالفتى المرزوق ذهنا

لكن تذكي قلبه فيفوق أكبر منه سنا

وذكر عن بعض البصريين قال: مرّ رجل بحماد بن سلمة وحوله صبيان، فقال: يا أبا سلمة ما هذا؟ قال: هؤلاء الذين يحفظون عليك دينك. وقيل لابن المبارك وكان يدني الأحداث على الأشياخ: قد غلبنا عليك هؤلاء الصبيان، فقال: هؤلاء أرضى عندي منكم، إنكم كنتم تعبثون، وهؤلاء عسى الله أن يبلغ بهم.

وكان هشام بن عروة يقول: كان أبي يقول: أي بني كنا صغار قوم فأصبحنا كبارهم، وأنتم اليوم صغار قوم ويوشك أن تكونوا كبارهم، ولا خير في كبير لا علم عنده، فعليكم بالسنة.

وقال إسماعيل بن عياش: كان ابن أبي حسين يدنيني منه، فقال له أصحاب الحديث: نراك تقدّم هذا الغلام السلمي وتؤثره علينا، فقال: إني أؤمله، فسألوه يوماً عن حديث حدّث به عن شهر بن حوشب: إذا جمع الطعام أربعاً فقد كمل، فذكر الثلاثة ونسي الرابعة، فسألني عن ذلك فقال لي: كيف حدّثتكم؟ فقلت: حدّثتنا عن شهر أنه قال: إذا جمع الطعام أربعاً فقد كمل: إذا كان أوّله حلالاً، وسمّي الله عليه حين يوضع، وكثرت عليه الأيدي، وحمد الله حين يرفع، فأقبل على القوم فقال: كيف تروني؟ وذكر في الكتاب المذكور بسنده قال: سمعت سفيان بن عيينة يقول: كان أبي صيرفياً بالكوفة، فركبه الدين فحملنا إلى مكة، فلما ذهبنا إلى المسجد لصلاة الظهر وصرت إلى باب المسجد إذا بشيخ على حمار فقال لي: يا غلام أمسك عليّ هذا الحمار حتى أدخل المسجد فأركع، فقلت: ما أنا بفاعل أو تحدّثني، فقال: وما تصنع بالحديث؟ واستصغرني، فقلت: حدّثني، فقال: حدّثني جابر بن عبد الله وحدّثنا ابن عباس، فحدّثني بثمانية أحاديث، فأمسكت حماره وجعلت أتحفظ ما حدّثني به، فلما صلى وخرج قال: ما نفعك ما حدّثتك فحبستني؟ فقلت: حدّثتني بكذا وحدّثتني بكذا، فرددت عليه جميع ما حدّثني به، فقال: بارك الله فيك، وذلك الشيخ هو عمرو بن دينار.

الماجشون:

تقدّم في أوّل السند الماجشون وهو لقب لجدّه، وكان من أصبهان، انتقل مع طائفة منهم إلى المدينة، فكان أحدهم إذا لقي صاحبه قال له: شون شون، يريد بذلك: كيف أنت، فلقبوا بالماجشون. ذكر ذلك الرامهرمزي المذكور.

وقد زدت على التطويل بهذا القيل، لكنه من الخفيف ليس الثقيل، وقد آن أن أعود إلى الذي وعدت بعد أن بدأت وأعدت، فأقول:

رجعت إلى الذي منه خرجت ... ولكن بعد ما نفسي أرحت
وقد أنفقت ما في الكيس حتى ... لآخر حبّة ثم استرحت
وآخذ بعد في شرح الذي قد ... ذكرت كما سواه قد شرحت

فصل: ما اختصت به الجلالة عن الأسماء

واسم الله تعالى الذي هو الله مخالف لغيره من الأسماء، ألا ترى أنك تقول: يا ألله، فتهمز الألف، ولا تقول: يا ألعباس، وتدخل عليه حرف النداء فتقول: يا ألله، ولا تفعل ذلك بغيره، وتقول: يا أيها الرجل، ولا تقول: يا أيها الله، فمن أجل هذه المخالفة قال جابر بن زيد: اسم الله الأعظم هو الله، ألا ترى أنه يبتدأ به؟.

ويروى عن أبيّ بن كعب أنه قال: جميع الأسماء تفيد معنى ربوبية الربّ جلّ وعزّ، قال: واسمه الذي هو اسمه الله، وقال غيره: هو اسم علم وليس بمشتق، إنما هو اسم خصّ به نفسه، فترك اسماً بكماله لأنه يكون نعتاً، ولا ينزع منه الألف واللام لأنه وضع للربّ جلّ جلاله مفرداً لا شريك له فيه، فيكون متى سمعه سامع علم أن الله هو المراد به، فلذلك لا يكون منه صفة يوصف بها غيره، وهو معنى قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

وقال الخليل: لا تطرح الألف واللام من الاسم إنما هو على التمام وليس من الأسماء التي يجوز منها اشتقاق فعل، كما تقول: رحم يرحم، قلت: ومع ذلك فقد تجاسر قوم وطرحوا منه اللف واللام وجعلوه مشتقاً من كذا، وقالوا فيه كذا وكذا كسائر الأسماء، وهم أهل علم وسداد ولكل نية واجتهاد.

فصل: أسماء الله الحسنى

تقدّم ذكر التسعة والتسعين اسماً التي لله تعالى، ولذلك جاء في الحديث: إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة، خرّجه الترمذي.

قلت: لا تظنّ أن ليس لله تعالى أسماء غير هذه، بل أسماؤه تعالى كثيرة لا نهاية لها كما لا نهاية لذاته ولا لصفاته ولا لأفعاله، والدليل على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في دعائه: أسألك بكل اسم سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك. ووقع في جامع ابن وهب: سبحانك لا أحصي أسماءك. وخصّ العدّة المذكورة في الحديث لكونها في القرآن أو لفضلها على غيرها، بمعنى أن الله تعالى يعطي السائل إذا دعاه بهذه الأسماء ما لا يعطيه إذا دعاه بغيرها، فتكون الزيادة في الثواب والنقصان منه راجعاً إلينا لا إلى الأسماء، لأنّ المدعو بها كلها واحد، كما قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء: ١١٠]، فله على هذا سبحانه أسماء استأثر بها لم يعلمها غيره. قال بعض العلماء: أسماء الله تعالى المعدودة في الحديث في قوله عليه السلام: إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة، هذا الكلام كله قضية واحدة لا قضيتان وخبران، فقوله: من أحصاها دخل الجنة؛ بمنزلة قولك: إن لزيد ألف درهم أعدّها للصدقة، لا يقتضي هذا الكلام أنه ليس له دراهم إلا هذه الألف، بل له دراهم سواها هي لغير الصدقة، والله ورسوله أعلم بما أراد من ذلك كله.

فصل:

وقع في هذا الحديث ذكر الإحصاء، قال بعض الإحصاء: يكون الإحصاء بمعنى العدّ، أي يستوفيها حفظاً فيدعو بها ربه، كقوله تعالى: ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًۢا ﴾ [الجن: ٢٨] ويكون الإحصاء بمعنى الطاقة، كقوله تعالى: ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ ﴾ [المزمل: ٢٠] أي: لن تطيقوه، وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم: استقيموا ولن تحصوا.

ويكون الإحصاء بمعنى حسن المراعاة لأسماء الله تعالى والمحافظة على حدودها في معاملة الربّ سبحانه بها، مثل أن يقول: الرحمن الرحيم، فيخطر على قلبه الرحمة على خلق الله تعالى. وإذا قال: السميع البصير؛ علم أنه لا تخفى على الله تعالى خافية، وأنه بمرأى من الله ومسمع، فيخافه في سرّه وإعلانه، ويراقبه في كافة أحواله وجميع أزمانه. وإذا قال: الرزاق؛ اعتقد أنه المتكفل برزقه. وإذا قال: المنتقم؛ استشعر الخوف من نقمته واستجار به من سخطه. وإذا قال: الضارّ النافع؛ اعتقد أنّ الضرّ والنفع من قبل الله سبحانه، وكذلك في سائر الأسماء.

وينبغي أيضاً إذا ذكر ما اختصّ الله به من الكبرياء والعظمة والجلال من مثل

قوله: الجبار المتكبر ذو الجلال والإكرام؛ أن يستشعر في نفسه الذلة والقلة والخضوع والاحتقار والمسكنة والافتقار، فإذا كان بهذه الصفة فقد أحصاها قولاً وعملاً إن شاء الله تعالى، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وكان الداعي ربه باسم من أسمائه على هذه الحالة حبيبه وخليقاً أن يجيبه، وهذا الغرض قد ورد به الخبر:

روي في بعض الآثار أن الله أوحى إلى داود عليه السلام أن تخلّق بأخلاقي، وإن من أخلاقي أنني أنا الصبور. وفي رواية أخرى: يا داود عليك بالصبر تأتك المعونة، إنّ من أسمائي إنني أنا الصبور.

وإلى هذا المعنى أشار أبو حامد رحمه الله حيث قال: اعلم أن من لم يكن له حظ من معاني أسماء الله تعالى إلا بأن يسمع لفظاً ويفهم في اللغة تفسيره ووضعه ويعتقد بالقلب وجود معناه لله تعالى؛ فهو مبخوس الحظ نازل الدرجة، فإن سماع اللفظ لا يستدعي إلا سلامة حاسة السمع التي بها تدرك الأصوات، وهذه رتبة تشارك البهيمة فيها الأديب، وأما فهم وضعه في اللغة فلا يستدعي إلا معرفة العربية، وهذه رتبة يشارك فيها الأديب اللغوي، بل الغبي البدوي. وأما اعتقاد ثبوت معناه لله تعالى من غير كشف فلا يستدعي إلا فهم معاني هذه الألفاظ والتصديق بها، وهذه رتبة يشارك فيها العامي بل الصبي. وحظوظ المقربين في معاني أسماء الله ثلاثة:

الأوّل: معرفة هذه المعاني على سبيل المكاشفة والمشاهدة حتى يتضح لهم حقائقها بالبرهان الذي لا يجوز فيها الخطأ معه، وتنكشف لهم أوصاف الله تعالى انكشافاً يجري في الوضوح والبيان مجرى اليقين الحاصل للإنسان بصفاته الباطنة التي يدركها بمشاهدة باطنه لا بإحساس ظاهره.

الثاني: استعظامهم ما ينكشف لهم من صفات الجلال على وجه يبعث من الاستعظام شوقهم إلى الاتصاف بما يمكنهم من تلك الصفات ليقربوا بها من الحق قرباً بالصفة لا بالمكان.

الثالث: اكتساب الممكن من تلك الصفات والتخلق بها والتحلي بمحاسنها وذكر ما تقدّم والله أعلم بما أراد رسوله من ذلك.

تقدّم قبل في الكلام وهو في أسماء الله تعالى: الضارّ النافع، أعتقد أن الضرّ والنفع من قبل الله سبحانه، فأذكر في ذلك حديثاً عجيباً حدّثنيه الفقيه أبو محمد عبد الحق. قال: حدّثني عبد الرحمن بن محمد الإمام حدّثنا أبو الحسن محمد بن مرزوق الزعفراني حدّثنا أبو بكر بن ثابت الخطيب بإسناده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي: يا غلام أو يا بني ألا

أعلمك كلمات ينفعك الله بهنّ؟ فقلت: بلى، قال: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إليه في الرخاء يعرفك في الشدّة، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، فقد جفّ القلم بما هو كائن، فلو أنّ الخلق جميعهم أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه، ولو أرادوا أن يضرّوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه، واعمل لله بالشكر واليقين، واعلم أنّ في الصرب على ما تكره خيراً كثيراً، وإنّ النصر مع الصبر، وإنّ الفرج مع الكرب، وإنّ مع العسر يسراً. قرأته عليه ببجاية، وقال: خرّجه ابن ثابت في كتاب الفصل للوصل، وهو حديث صحيح، وقد خرّجه الترمذي، وهذا أتم.

وقد ذكر أبو حامد رحمه الله في معنى تسمية الله نفسه الضارّ النافع كلاماً بديعاً، قال: الضارّ النافع هو الذي يصدر منه الخير والشرّ والضرّ والنفع، وكل ذلك منسوب إلى الله عزّ وجلّ إما بواسطة الملائكة أو الإنس أو الجمادات أو بغير واسطة، فلا تظنّ أنّ السمّ يقتل ويضرّ بنفسه، وأنّ الطعام يشبع وينفع بنفسه، وأنّ الملك أو الإنسان أو الشيطان أو شيئاً من المخلوقات من فلك أو كوكب أو غيرها يقدر على خير أو شرّ أو نفع أو ضرّ بنفسه، بل كل ذلك أسباب مسخّرة لا يصدر منها إلا ما سخرت له، وجملة ذلك بالإضافة إلى القدرة الأزلية كالقلم بيد الكاتب كما أنّ السلطان إذا وقع بكرامة أو عقوبة لم ير ضرر ذلك ولا نفعه من القلم، بل من الذي القلم مسخّر له، فكذلك سائر الوسائط والأسباب على أنّ الجاهل يرى أنّ القلم مسخّر للكاتب، والعارف يعرف أنه مسخّر في يد الله تعالى، وأنّه مهما خلق الكاتب وخلق له القلم وسلط عليه الداعية؛ صدرت حركة الأصابع والقلم لا محالة شاء أو أبى.

فصل: اسم الله الأعظم

وقد ورد في اسم الله الأعظم أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: هو في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣] الآية، و: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وسمع رجلاً يدعو ويقول: اللهم إني أسألك بأنّ لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السماوت والأرض ذو الجلال والإكرام، فقال: لقد دعا الله باسمه الأعظم. وقال في حديث الترمذي: وقولك: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] هو الاسم الأعظم لأنه لا سميّ له. وقال بعض العلماء في التسعة والتسعين اسماً: إنها كلها تابعة للاسم الذي هو الله، فهو اسمه الأعظم، لأنك تقول:

العزيز اسم من أسماء الله، ولا تقول: الله اسم من أسماء العزيز، وكذلك سائرها، وتفخم اللام من هذا الاسم، وليس ذلك في كلام العرب إلا مع حروف الإطباق نحو الطلاق، فهذا فضل الاسم، بقي شرط الداعي به من الخشوع وخضوع القلب وأكل الحلال وعمل الصالحات، وفي أي شيء يدعو، وله أوقات تفضل غيرها منها: الدعاء إثر الصلوات المكتوبات، وثلث الليل الأخير، وعند الأذان، وعند الصف في سبيل الله، وفي الساعة التي في يوم الجمعة. وقد جاء في ذلك كله الحديث، من ذلك ما ذكره عبد الرزاق أنّ أبا أمامة سأل النبي صلى الله عليه وسلم: أيّ الدعاء أسمع؟ قال: شطر الليل الآخر وأدبار الصلوات المكتوبات، ويقوّي ذلك رجاء الداعي أن الله يستجيب له بكرمه إلى غير ذلك، ومن شروطه خوف الداعي، وهيبة المدعوّ عنده، والتزام حرمته، كما يروى عن بعض الشيوخ أنه كره أن يقول الداعي: يا الله، فيناديه باسمه تعالى مفرداً فرداً، ولكن ليقل: يا مولاي يا الله أو يا رب يا الله، أو اللهم ربنا، لأن الله تعالى قال: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف: ٥٥] فيخضع ويتضرّع ويناديه من نعوته بما أحبّ، نحو: يا أرحم الراحمين، ويا أكرم الأكرمين، ونحو هذا.

فصل:

مبحث إطلاق السيد على الله:

وقد اختلف في تسمية الله تعالى بالسيد، فكره أكثر العلماء أن يقال في الدعاء: يا سيدي، وأجازه بعضهم واحتج بحديث ليس إسناده بالقوي أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له رجل: يا سيدي، فقال: السيد هو الله.

وأما مذهب القاضي في مثل هذا من الأسماء التي يراد بها المدح والتعظيم فذكر الله به جائز ما لم يرد نهي عنه أو تجمع الأمة على ترك الدعاء به كما أجمعوا على أنه لا يسمى بفقيه ولا عاقل ولا سخيّ، وإن كان في ذلك مدح.

نقلت هذا الفصل من كلام الأستاذ رحمه الله. ثم قال متصلاً به: والذي أقول في السيد: إنه اسم يعتبر بالإضافة لأنه في أصل الوضع بعض ما أضيف إليه، تقول: فلان سيد قيس إذا كان واحداً منهم، ولا يقال في قيسيّ: إنه سيد تميم، لأنه ليس واحداً منهم، فكذلك لا يقال في الله عزّ وجلّ: هو سيد الناس وسيد الملائكة، وإنما يقال: ربهم، فإذا قلت: سيد الأرباب، كما قال كعب بن زهير في شعره:

مــــن نــــصر ربــــك ســــيد الأربــــاب

جاز، وقد سمعه النبي صلى الله عليه وسلم فلم ينكره، وكذلك إذا قلت: سيد الكرماء، جاز لأنّ معناه أكرم الكرماء، وكذلك سيد الأرباب معناه أعظم الأرباب، ثم

يشتق له من اسم الربّ فيوصف بالربوبية ولا يوصف بالسودد لأنه ليس باسم له على الإطلاق. وقد جاء في شعر حسان الذي رثى به النبي صلى الله عليه وسلم:

يـــــا ذا العـــــلا والـــــسودد

يصف به الرب، ولكن لا تقوم به الحجة في إطلاق هذه الأسماء إلا أن يسمعها الرسول عليه السلام كما سمع شعر كعب فلم ينكره، وإنما يوصف الرب على الوجه الذي قدمناه وعلى المعنى الذي بيّنّاه. انتهى كلامه رحمه الله.

قلت: قد جاء في أشعار العرب ما ذهب إليه القاضي رحمه الله من أنه إذا ذكر الله باسم فيه مدح وتعظيم، فذلك جائز كما قال أبو النجم: الحمد لله الوهوب المجزل. وقال غيره: تم الكتاب وربنا المحمود. وإن لم يكن قديماً ففي سكوت أهل العلم عنه دليل على جوازه، وكيف ما دارت الحال فتعظيم ذي الجلال من أفضل الخلال، ودعاء العبد مولاه القريب المجيب بكرم الله وفضله لا يخيب، لأنه لا يخلو من إحدى ثلاث، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: إما أن يستجاب له وإما أن يدخر له وإما أن يكفّر عنه. ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم هذا لأصحابه قالوا: إذاً نكثر يا رسول الله، قال: الله أكبر، فالحمد لله على ما به أنعم.

وقد جاء في الحضّ على الدعاء مع البر ما لا ينبغي للعاقل أن يتركه. خرّج الترمذي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ليس شيء أكرم على الله من الدعاء. وفي حديث آخر: من لم يسأل الله يغضب عليه. وفي حديث آخر: لا يردّ القضاء إلا الدعاء، والأصل العمل، كما قال أبو ذر رضي الله عنه: يكفي من الدعاء مع البرّ ما يكفي الطعام من الملح. وقال وهب بن منبه: مثل الذي يدعو بغير عمل كمثل الذي يرمي بغير وتر. وقيل لأنس ابن مالك رضي الله عنه: يا أبا حمزة ادعُ الله عزّ وجلّ لنا، فقال: الدعاء يرفعه العمل الصالح. وصدق، قال الله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر: ١٠].

ويروى أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: ادعوا الله بأعمالكم، وصدق رضي الله عنه. انظر إلى الثلاثة الذين أووا إلى الغارة فانحطت على فم غارهم الصخرة كيف دعوا الله فاستجيب لهم، وفي هذا الحديث المقطوع بصحته ما يثبت كرامة الأولياء، وإذا كان في غير هذه الأمّة فأمّة محمد عليه السلام أولى بهذه الفضيلة مع قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، مع قوله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل: ٦٢]. جاء في التفسير: المضطرّ هو الذي يقف

بين يدي مولاه فيرفع إليه يديه بالمسألة فلا يرى بينه وبين الله حسنة يستحق بها شيئاً، فيقول: هب لي يا مولاي بلا شيء هذا وإن كان أصحاب الغار قد كانت لهم أعمال رفيعة أدلوا بها، فهذا المضطرّ قد أحدث عملاً جديداً وهو الافتقار إلى الله تعالى، وهو من أنفع شيء مع الذلة للعزيز الجبار، وما التوفيق إلا من عند الله، ولكن لا تغفل عن العمل فترى الأمل، وكما يروى: من استطاع منكم أن تكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل. ويقال: لا يستجاب دعاء داع حتى يرضى عمله ولا يرضى عمله حتى يطيب مطعمه، ولا قوّة إلا بالله.

وفي الصحيح: في الرجل يرفع يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام وملبسه حرام فأنى يستجاب له. وقد خرّج عليّ بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية له عن عبد الله بن عمر قال: من اشترى ثوباً بعشرة دراهم وفي ثمنه درهم من حرام لم تقبل منه صلاة ما كان عليه. قال: ثم أدخل أصبعيه في أذنيه ثم قال: صمتاً صمتاً إن لم أكن سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّة أو مرّتين أو ثلاثاً.

وخرّج أيضاً عن خالد بن الحسن قال: إذا وضع الرجل مائدته من حرام فقال: بسم الله، قال الله لملائكته: العنوه لعنه الله، قالت الملائكة: لعنه الله، فإذا فرغ قال: الحمد لله، قال الله لملائكته: العنوه لعنه الله، قالت الملائكة: لعنه الله.

ويروى عن يوسف بن أسباط رحمه الله قال: بلغنا أنّ دعاء العبد يحبس عن السماء بسوء الطعمة. وقال عليه السلام: إن الرجل ليتناول اللقمة الحرام فيقذفها في فيه فما تستجاب له دعوة أربعين يوماً. ومن العون على استجابة الدعاء ترك المعاصي والذنوب أنشدني الحافظ رحمه الله لبعضهم:

نحن نخشى الإله في كل كرب ... ثم ننساه عند كشف الكروب
كيف نرجو استجابة لدعاء ... قد سددنا طريقه بالذنوب

فصل

مبحث تعظيم أسْماء الله تعالى

وأسماء الله كلها عظيمة وإن كانت تابعة لهذا الاسم الذي هو الله كما تقدّم فحذار حذار أن تلحظ اسماً منها إلا بعين التعظيم والوقار والإجلال والإكبار، فإنها ترجع إلى القديم المتسمي بها قبل أن يوجد خلقه في الأزل، وإن اختلفت ألفاظنا بها مع ألفاظ العبراني والسرياني والعجمي والبربري وغير ذلك من الألسنة؛ فإنها كلها

ترجع إلى معنى واحد وهو الله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفراً أحد.

قال بعض العلماء: لا ينبغي أن يدعو الله أحدٌ إلا بأسمائه العربية المعلومة، ولا يسعه إلا أن يعرفها بالعربية ويتلفظ بها، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم، فيدعو الله بأسمائه ويسأله حوائجه بلغته، وإن كان ذلك كله في الصلاة لم تفسد صلاته بعد أن يأتي بكل ما لا تتم الصلاة إلا به بالألفاظ العربية، وكذلك لا ينبغي أن ينظر إلى حرف من جميع الحروف بعين الاحتقار، وإن كان مفرداً، بل يرفع من الأرض ويعظم كل ما يعطى من معنى أسماء الله تعالى، كما تقدّم من قول ابن عباس رضي الله عنه في: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١]: إن الصاد من صادق، والعين من عليم، وغير ذلك.

ولقد شاهدت رجلاً من المؤدّبين الفضلاء كان له رحمه الله إناء إلى جنبه إذا أراد أن يمحو حرفاً من حروف ألواح الصبيان أدخل أصبعه في الماء ومحاه به لئلا يمحوه بالبزاق، وإن لم يأخذه أهل الصحاح فالأخذ بهذا الأدب حسن، وكان هذا المؤدّب يجمع ما تناثر من براية الأقلام وكسر القصب فيؤلفها ثم يطرحها إذا اجتمعت في موضع طاهر، وربما ألقاها في الماء بحيث لا تداس ولا تمتهن، ويقول: إن لهذه الأقلام حرمة بما قد كتبت من أسماء الله. وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من كتاب فيه اسم الله ملقى في الأرض إلا بعث الله إليه ملائكة يحفونه بأجنحتهم، حتى يبعث الله ولياً من أوليائه يرفعه، فإذا رفعه أدخله الله الجنة وخفف عن والديه العذاب وإن كانا مشركين.

ورأيت في طرة كتاب: وقع من عبد الله بن مروان فلس في بئر قذرة فاكترى عليه بثلاثة عشرة ديناراً حتى أخرجه، فقيل له في ذلك فقال: كان عليه اسم الله تعالى، قلت: هذا كان يعرف حرمة اسم الله، فينبغي على هذا أن يرفع كل كتاب كائناً ما كان، لأنه حروف يجتمع منها اسم الله، ولكل امرئ ما نوى.

وقد تقدّم عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: ﴿الٓر﴾ و﴿حمٓ﴾ و ﴿نٓ﴾ فواتح ثلاث سور، إذا اجتمعت كانت الرحمن.

وحروف القرآن من مثل هذه اجتمعت وائتلفت منها الكلمات، ومن الكلمات الآي، ومن الآي السور، فعدد السور مائة سورة وأربع عشرة، وعدد آياته ستة آلاف ومائتان وستة وثلاثون، وعدد كلماته سبعة وسبعون ألف كلمة وأربعمائة وأربع وعشرون كلمة، وعدد حروفه ثلاثمائة ألف حرف وأحد وعشرون ألف حرف ومائتان وخمسون حرفاً، فيما يذكر يعطى لكل قارئ بكل حرف منه حسنة.

كما خرّج أبو داود عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ﴿الٓمٓ﴾ حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف.

وعلى هذا الترتيب عند أحمد بن حنبل: من حلف بالقرآن فحنث وجبت عليه كفارة بكل حرف. وخالفه في ذلك مالك وغيره، فأوجبوا عليه كفارة واحدة في جميعه، وأهل هذه المقالة يقولون: إن حلف بحرف واحد منه فحنث فعليه كفارة كما لو حلف بجميعه.

ووقع في كتاب الإعراب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من حلف بسورة من القرآن فعليه بكل آية منها يمين صبر إن شاء برّ وإن شاء فجر. وبه يقول الحسن وأحمد، وزاد في موضع آخر: وابن مسعود، نقلته من الأحكام الشرعية، وحيث وقع لفظ جميعه أو بعضه أو جزء منه إنما يرجع إلى ما هو من عملنا وكسبنا من نسخه أو قراءته أو كتابتنا إياه بأيدينا في الصحف بالمداد وبالحروف، وهو الذي يباع ويشترى.

وأما كلام الله تعالى وحقيقته فصفة من صفاته القديمة، كقدرته وإرادته، وعلمه لا يقبل التبعيض ولا التفريق ولا الانتقال إلا من جهة الذكر منا والإنزال علينا، وعلمنا بذلك مع الاعتقاد أنه متلوّ بألسنتنا مذكور بأفواهنا محفوظ في قلوبنا مكتوب في مصاحفنا. كما أنا نذكر الله بذلك، وهو مع ذلك غير حال في شيء من ذلك ولا منتقل إليه، وكما يكتب الموثق في الوثيقة الدار ويحدّدها، ويذكر قبضها، وحلول المشتري فيها محل البائع، ونزوله فيها منزلته وهو لم يحل فيها، ولا انتقلت الدار إلى الوثيقة، ولا زالت عن موضعها، ولله المثل الأعلى.

ومعنى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦] أي أفهم جبريل عليه السلام كلامه، وجبريل في علوّ، وعلمه قراءته ثم أدّاه جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو في سفل، فكان ذلك معنى نزول الكلام، لا أن الكلام يزول أو ينتقل أو يتحوّل لأنه صفة من صفاته تعالى، كقدرته وعلمه وإرادته كما تقدّم سبحانه.

وما جاء من ذكر التفضيل في السور والآي بعضها على بعض على مذهب من رآه، فإن ذلك راجع إلى التلاوة المخلوقة في ألسنتنا، والحروف المؤلفة الخارجة من مخارجها في أفواهنا المحدثة، الكائن من جملتها كلامنا الذي هو عمل من أعمالنا، يعطي الله العبد إذا وفقه لذكر من الأذكار ثواباً لا يعطيه مثله إلا على ذلك الذكر بعينه، الذي ربما يخلق في العبد عنده ما لم يخلقه عند ذكر غيره من خشوع أو رقة أو حدث ما، مما لم يكن قبل ذلك فيه، وقد تعرف ذلك بالذوق من نفسك إذا تلوت مثل أوّل الحديد

أو آخر الحشر، أو مثل آية الكرسي أو آخر البقرة أو آخر آل عمران، و: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١]، وربما وجدت من نفسك ما لا تجده إذا قرأت: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ ﴾ [المسد: ١]، وقصة امرأة العزيز، وحديث ذي القرنين، وقصة أصحاب الكهف، وإن كان كل كلام الله صفة واحدة من صفاته القديمة لا يقبل التفضيل والاختلاف إلا من جهتنا المخلوقة وكلامنا المحدث، وكما إنك إذا خفت أسرعت إلى قراءة مثل ﴿ يسٓ ﴾، وفيها: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾ [يس: ٩]، وإذا وجع منك عضو قرأت: ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ [الأنعام: ١٣]، ومثل الرقى بـ: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ [الفلق: ١]، و: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس: ١]، ومثل ما قرأ السائب على اللديغ بفاتحة الكتاب مع قول النبي صلى الله عليه وسلم له: وما يدريك أنها رقية، مع قوله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢] مع اعتقادك أنه كله شفاء وبركة، ونافع من كل ضرّ، ولكن النفس تسرع إلى ذكر هذه الآيات التي فيها معنى من الغرض الذي قصدت إليه واستشعرته فيه، حتى لو قرأ عليك قارئ وأنت مريض: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، و: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن: ٢٦]، لوجدت من نفسك فرقاً بين من يقرأ عليك: ﴿ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٤]، و: ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٣٧].

وكذلك لو فتحت المصحف فنظرت فيه على جهة الفأل فخرج لك من الآيات ما فيه استبشار؛ لسرّك ذلك، وضدّه بضدّه، وكذلك إذا أخذت في عمل من أعمال البر مثل التلبس بالوضوء أو الطهارة للصلاة مثلاً وجدت في نفسك نشاطاً أحدثه الله فيك لا تجده قبل ذلك، نعم وبعد الفراغ من العمل تستشعر نفسك الثواب عليه بفضل الله، فتفرح عند ذلك فرحاً لم يكن قبل، وترجو ممن أعانك على تلك الطاعة وقوّاك عليها وألهمك لها ما لم تكن ترجو قبل ذلك.

كما يروى أن رجلاً قام من الليل للصلاة، فلما توضأ أصابه البرد فتألم لذلك، فطفق يبكي، فسمع هاتفاً يقول: لما أقمناك لخدمتنا وأنمنا غيرك كان جزاؤنا منك أن تبكي علينا، ففرح عند ذلك وزاد في نشاطه، وحق له فهذه درجة رفيعة، وكذلك فضل

الله تعالى بعضها على بعض، وفضّل فرائضها على النوافل منها، وكل طاعة له يراد بها القربة من رحمته، وكذلك جميع العبادات والقرب، وجعل أمّ القرآن لا تجزئ صلاة بدونها، وهو مع ذلك غنيّ عن جميع أعمال خلقه، غير محتاج إلى شيء من ذلك، سبحانه هو الغنيّ الحميد، ألا ترى قوله صلى الله عليه وسلم لأبيّ: أي آية معك في كتاب الله أعظم؟ فقال: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فقال: ليهنك العلم يا أبا المنذر، فانظر قوله أوّلاً: معك، بمعنى عندك، وفي نفسك، وفيما خلق الله فيك من العلم بموقعها من قلبك ورقتك عند قراءتك إياها، وبما أحدثه لك من الفهم بثواب ما يعطيك على تعظيم المذكور فيها، لا أنها عند الله أعظم من غيرها، وكله كلام الله، والله أعلم بما أراد رسوله من ذلك.

وقال المازري في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١] تعدل ثلث القرآن، كلاماً قريباً من هذا المعنى، قال رحمه الله: يقال معنى ذلك: إن الله تعالى يتفضل بتضعيف الثواب لقارئها، ويكون منتهى التضعيف إلى مقدار ثلث ما يستحق من الأجر على قراءة القرآن من غير تضعيف أجر. وقال: معنى ذلك أن القرآن على ثلاثة أنحاء: قصص وأحكام وأوصاف لله تعالى، و﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تشتمل على ذكر الصفات فقط، فكانت ثلثاً من هذه الجهة، وربما أسعد هذا التأويل الحديث الذي ذكر أن الله جزأ القرآن على ثلاثة أجزاء، فجعل: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ جزءاً منها أو كما قال.

وقال الربيع بن خيثم: سورة يراها الناس قصيرة وأنا أراها طويلة عظيمة لله تعالى بحتاً ليس لها خلط، فأيكم قرأها فلا يجمعن إليها شيئاً استقلالاً لها، وليعلم أنها تجزئه، يعني سورة الإخلاص، ولما كانت ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ صفة الربّ تبارك وتعالى؛ جعل رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يلهج بقراءتها، وكان إمام قومه، فكان يقرأ بها في كل ركعة مع السورة، وذلك في مسجد قباء، فقال له أصحابه: إنك لتفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بأخرى، فإما أن تقرأ بها وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى، فقال: ما أنا بتاركها، إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت وإن كرهتم تركتكم، فأخبروا بذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فسأله النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال: إني أحبها، فقال: حبك إياها أدخلك الجنة، خرّجه البخاري أطول من هذا، وانظر حديث الرجل الآخر الذي كان يردّدها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: وجبت، يعني الجنة. وبلال رضي الله عنه سمعه النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ

آية من سورة وأخرى من أخرى، فسأله فقال: أخلط الطيب بالطيب، والكل عنده طيب لا محالة، ولكن يخلق الله في العبد عند ذكر شيء ما لا يخلقه عند غيره، ألا ترى أنه يخلق فيك من السرور به إذا أعطاك وأنعم عليك ما لا يخلقه إذا منعك وأصابك بمصيبة، مع اعتقادك أنه نظر منه لك إذ لا يمنع من بخل ولا عدم، بل يأخذ ليعطي ويبلي ليجزي، كما ورد الحديث، ولكن النفس أمارة بالسوء تحبّ المسار وتكره المضارّ، ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦]، و﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٣].

قال الأستاذ رحمه الله عند ذكر حديث أبيّ رضي الله عنه: ومحال أن يريد بقوله: أعظم معنى عظيم، لأن القرآن كله عظيم، فكيف يقول له: أيّ آية في القرآن عظيمة، وكل آية فيه عظيمة كذلك، وإنما سأله عن الأعظم منه والأفضل في ثواب التلاوة وقرب الإجابة. وفي الحديث دليل أيضاً على ثبوت الاسم الأعظم، وأن لله اسماً هو أعظم أسمائه، ومحال أن يخلو القرآن عن ذلك الاسم، والله تعالى يقول: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨] فهو في القرآن لا محالة، وما كان الله ليحرمه محمداً صلى الله عليه وسلم وأمّته، وقد فضّله على الأنبياء وفضّلهم على الأمم.

فإن قلت: فأين هو في القرآن؛ فقد قيل: إنه أخفي فيه كما أخفيت الساعة في يوم الجمعة وليلة القدر في رمضان، ليجتهد الناس ولا يتكلوا. وفي قوله عليه السلام لأبيّ: أيّ آية معك في كتاب الله أعظم، ولم يقل: أفضل، إشارة إلى الاسم الأعظم أنه فيها، إذ لا يتصور أن تكون هي أعظم آية، ويكون الاسم الأعظم في أخرى، بل إنما صارت أعظم الآيات لأنّ الاسم الأعظم فيها، ألا ترى كيف هنّى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبياً بما أعطاه الله من العلم، وما هناه إلا بعظيم بأن عرف الاسم الأعظم والآية العظمى التي كانت الأمم قبلنا لا يعلمه منهم إلا الأفراد مثل عبد الله بن التامر، وآصف بن برخيا صاحب سليمان عليه السلام، وبلعوم قبل أن يتبعه الشيطان، فكان من الغاوين، وكان هذا الاسم عندهم مصوناً غير مبتذل، ومعظماً لا يمسه إلا المطهرون، ولا يلفظ به إلا طاهر، ويكون الذي يعرفه عاملاً بمقتضاه متولهاً لحبه، قد امتلأ قلبه بعظمة المسمى به، لا يلتفت إلى غيره ولا يخاف سواه، فلما ابتذل وتكلم به في معرض البطالات والهزل ولم يعمل بمقتضاه؛ ذهبت من القلوب هيبته، فلم يكن فيه من سرعة الإجابة وتعجيل قضاء الحاجة للدّاعي ما كان قبل، ألا ترى إلى قول أيوب

عليه السلام في بلائه: قم كنت أمرّ بالرجلين يتراغمان فيذكران الله، يعني في تراغمهما، أي تخاصمهما، فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق. وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: كرهت أن أذكر الله إلا على طهر، فقد لاح تعظيم الأنبياء له.

وقد ذهبت طائفة إلى ترك التفضيل بين أسماء الله تعالى وقالوا: لا يجوز أن يكون اسم من أسماء الله أعظم من الاسم الآخر، وقالوا: إذا مرّ في خبر أو أثر ذكر الاسم الأعظم، فمعناه العظيم، كما قالوا في أكبر من قولك: الله أكبر، إنه بمعنى كبير، وإن لم يكن قول سيبويه، وفي أهون من قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧] إنه بمعنى هين، واستشهدوا على ذلك بقولهم: إني لأوجل، أي: وجل. ونسب أبو الحسن بن بطال هذا القول إلى جماعة منهم ابن أبي زيد والقابسي وغيرهما.

ومما احتجوا به أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن ليحرم العلم بهذا الاسم وقد علمه من هو دونه ومن ليس بنبيّ، ولم يكن ليدعو حين اجتهد في الدعاء لأمّته أن لا يجعل بأسهم بينهم، وهو رؤوف بهم عزيز عليهم عنتهم إلا بالاسم الأعظم ليستجاب لهم، فلما منع ذلك علمنا أنه ليس اسم من أسماء الله تعالى إلا وهو كسائر الأسماء في الحكم والفضيلة، يستجيب الله له إذا دعي ببعضها إذا شاء، ويمنع إذا شاء، وكذلك ذهبوا إلى أنه ليس شيء من كلام الله تعالى أفضل من شيء، لأنه كلام واحد من ربّ واحد.

قال الأستاذ رحمه الله: ولا يستحيل أن يفضل الله سبحانه عملاً من البر على عمل، وكلمة من الذكر على كلمة، فإن التفضيل راجع إلى زيادة الثواب ونقصانه، وقد فضلت الفرائض على النوافل بإجماع، وقد فضلت الصلاة والجهاد على كثير من الأعمال، والدعاء والذكر عمل من الأعمال، فلا يبعد أن يكون بعضه أقرب إلى الإجابة من بعض، وأجزل ثواباً في الآخرة من بعض، والأسماء عبارات عن المسمى وهي من كلام الله سبحانه القديم، ولا نقول في كلام الله تعالى هو هو ولا غيره، كذلك لا نقول في أسمائه التي تضمنها كلامه إنها هو ولا هي غيره، فإن تكلمنا نحن بألسنتنا المخلوقة وألفاظنا المحدثة، فكلامنا عمل من أعمالنا، والله تعالى يقول: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦].

وقبحاً للمعتزلة فإنهم زعموا أن كلامه سبحانه مخلوق، فأسماؤه على أصلهم الفاسد محدثة غير المسمى بها، وسوّوا بين كلام الخالق تعالى وكلام المخلوق في الغيرية والحدوث، وإذا ثبت هذا وصحّ جواز التفضيل بين الأسماء إذا دعونا بها،

فكذلك القول في تفضيل السور والآي بعضها على بعض، فإن ذلك راجع إلى التلاوة التي هي عملنا لا إلى المتلو الذي هو كلام ربنا وصفة من صفاته القديمة.

وأما استشهادهم في أكبر بمعنى أنه كبير، وفي أهون بمعنى هين، فليس بمذهب سيبويه ولا عليه حذاق النحاة.

وأما دعاؤه عليه الصلاة والسلام في أمته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعها، فقد أعطي عوضاً من ذلك وهي الشفاعة لهم في الآخرة، وقد قال: أمتي هذه أمة مرحومة ليس عليها في الآخرة عذاب، عذابها في الدنيا الزلازل والفتن. خرّجه أبو داود.

فإذا كانت الفتن سبباً لصرف عذاب الآخرة عن الأمة فما خاب دعاؤه لهم، على أني تأملت هذا الحديث وتأملت حديثه الآخر حين نزلت: فقال: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ أعوذ بوجهك، فلما سمع: ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال: أعوذ بوجهك، فلما سمع: ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال: هذه أهون. فمن هاهنا والله أعلم أعيذت أمته من الأولى والثانية ومنع الثالثة حين سألها بعد، ونزول هذه الآية كان قبل دعائه لأن سورة الأنعام مكية بلا خلاف، ودعاؤه عليه السلام كان بالمدينة في مسجد بني معاوية، والحمد لله. انتهى كلامه رضي الله عنه.

فصل:

في ذكر سور من القرآن مسمى فضلها وكله فاضل، جاء في الحديث: أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن، تقدّم طرف من القول في ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، وجاء في ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أنها السبع المثاني والقرآن العظيم، وما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها.

وجاء أيضاً عنه عليه السلام: من قرأ فاتحة الكتاب فكأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. وقال للرجل الذي رقى بها اللديغ فبرأ: وما يدريك أنها رقية؟ كما تقدم.

وجاء عن ابن عباس رضي الله عنه: أمّ الكتاب تعدل ثلثي القرآن، ذكره القضاعي في كتاب الأعداد.

وجاء في السبع الطوال وهي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: أعطيت السبع مكان التوراة، وأعطيت المبين مكان الإنجيل، وأعطيت المثاني مكان الزبور، وفضلت بالمفصل وأوّل

المفصل من الأحقاف، وقيل من قاف.

وكان الصحابة رضوان الله عليهم قد حزبوا القرآن سبعة أحزاب عدد أيام الجمعة، الحزب الأول ثلاث سور، والثاني خمس سور، والثالث سبع سور، والرابع تسع، والخامس إحدى عشرة، والسادس ثلاث عشرة، والسابع المفصل من قاف، والمفصل يقال له المحكم، ووقع في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه: جمعت المحكم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل له: وما المحكم؟ قال: المفصل، كذا كان قبل أن تحدث فيهم هذه الأخماس والأعشار والأجزاء.

يقال: إن الحجاج جمع قرّاء البصرة والكوفة على ذلك، منهم عاصم الجحدري ومطر الوراق وغيرهم. وكان الحسن البصري وابن سيرين ينكران ذلك، وقد تقدّم طرف من هذا، وكان بعضهم لا يقف على الأحزاب التي أحدثها الحجاج بل يتعداها ويخالفها بزيادة أو نقصان أو بتمام السورة، وتقدّم الكلام في آية الكرسي.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما أرى رجلاً ولد في الإسلام أو أدرك عقله الإسلام يبيت أبداً حتى يقرأ هذه الآية: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] الآية، ولو تعلمون ما هي؟ إنما أعطيها نبيكم صلى الله عليه وسلم من كنز تحت العرش ولم يعطها أحد قبل نبيكم عليه الصلاة والسلام، وما بتّ ليلة قط حتى قرأتها ثلاث مرات، أقرؤها في الركعتين بعد العشاء الآخرة، وفي الوتر، وحين آخذ مضجعي من فراش.

وكذلك جاء في الآيات من آخر سورة البقرة: إنهنّ لمن كنز تحت العرش. وقال عليه السلام: إن الله ختم البقرة بآيتين أعطانيهما من كنزه الذي تحت العرش فتعلموهما وعلموهما نساءكم وأبناءكم فإنهما صلاة وقرآن ودعاء. ولقن جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم عند خاتمة القرآن أو قال خاتمة البقرة: آمين.

وقد جاء عن جماعة من الصحابة والتابعين أنهم كانوا يقولون عند خاتمة البقرة: آمين. وقال فيهما النبي عليه السلام: من قرأ بهما في ليلة كفتاه.

وجاء في البقرة وآل عمران أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: اقرؤوا الزهراوين سورة البقرة وسورة آل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غيايتان(*)، أو قال: غمامتان، أو قال: كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما.

وجاء في المائدة أنها نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع

(*) الغياية: كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه كالسحابة وغيرها. كذا في النهاية.

فيما بين مكة والمدينة وهو على ناقته، فانصدعت كتفها، فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي من آخر ما نزل، وليس فيها ناسخ ولا منسوخ، هذا من ثقل الوحي، كيف لا والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: ٥].

وكذلك قال زيد بن ثابت رضي الله عنه: نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وركبته على فخذي فثقلت عليّ حتى خشيت أن ترضّ فخذي، أو كما قال. وأبو بكر رضي الله عنه يقول: إن الحق ثقيل وهو على ثقله مريء. ومن أسماء القرآن الحق. وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: ٥] يعني فرائضه وحدوده والعمل به.

وجاء في الأنعام عن ابن عباس أنها نزلت بمكة ليلاً جملة ونزل معها سبعون ألف ملك لهم زجل حولها بالتسبيح.

وجاء في براءة عن أبي عطية قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن تعلموا سورة التوبة وعلموا نساءكم سورة النور.

وجاء في هود من قوله عليه السلام: شيبتني هود وأخواتها. وفي آخر: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير: ١]. وأنشدني شيخي أبو محمد عبد الحق رحمه الله من قطعة مطوّله لنفسه:

بالذي في النجم ظاهرة ... وبما في هود والزمر

وقبله:

بين نظم الآي والسور ... خبر أربى على الخبر

فقلت له: وما في النجم؟ قال: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩-٤٠]. قلت: وما في هود؟ قال: ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٥]. قلت: وما في الزمر؟ قال: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ﴾ [الزمر: ٧١] الآية. انظر الآية بكمالها في التكميل بحول الله تعالى.

وجاء في سورة الكهف عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: من حفظ عشر آيات من أوّل سورة الكهف ثم أدرك الدجال لم يضرّه، ومن حفظ خواتيم سورة الكهف كانت له نوراً يوم القيامة.

وجاء في: (طه) و: (يس) عن شهر بن حوشب قال: يرفع القرآن عن أهل الجنة إلا طه ويس. وجاء في الشهاب وفي البزار أيضاً: قلب القرآن يس. وخرّج أبو نعيم

الحافظ في كتاب الحلية عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من قرأ يس في ليلة التماس وجه الله غفر له. وفي النسائي: يس قلب القرآن لا يقرؤها رجل يريد الله واليوم الآخر إلا غفر له فاقرؤوها على موتاكم. وخرّج الترمذي عن أنس بن مالك قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس، ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات.

وجاء في سورة الحج عن النبي عليه الصلاة والسلام: فضلت سورة الحج على غيرها بسجدتين.

وجاء في سورة النور من قول عمر: علموها نساءكم، وقد تقدّم. وقرأها ابن عباس رضي الله عنه وجعل يفسرها، فقال رجل: لو سمعت الديلم هذا لأسلمت.

وجاء في: ﴿ الٓمٓ تَنزِيلُ ﴾ السجدة، و: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ ﴾ عن ابن عمر رضي الله عنه قال: فيهما فضل ستين درجة على غيرهما. وجاء هذا عن النبي عليه السلام قال: فضلهما على كل سورة في القرآن بستين درجة. وجاء عنه عليه السلام: تجيء ﴿ الٓمٓ تَنزِيلُ ﴾ السجدة يوم القيامة لها جناحان تظل صاحبها تقول: لا سبيل عليك لا سبيل عليك.

وجاء في ص كان ابن المسيب رضي الله عنه لا يدع قراءة ص كل ليلة، فسئل عن ذلك فقال: ما من عبد قرأها إلا اهتز لها العرش. وزاد في رواية: أنه سئل عن ذلك فقال: أخبرت أن رجلاً من الأنصار صلى إلى شجرة فقرأ بـ ص، فلما مر بالسجدة سجد وسجدت الشجرة معه فسمعها تقول: اللهم أعطني بهذه السجدة أجراً، وضع عني بها وزراً، وارزقني بها شكراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود.

وجاء في الـ: (حم) عن ابن عباس رضي الله عنه: إن لكل شيء لباباً وإن لباب القرآن الـ (حم)، أو قال: الحواميم. وقال عبد الله: الـ (حم) ديباج القرآن.

وجاء في الواقعة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة.

فائدة:

وهذا الحديث قرأته على الحافظ رحمه الله بالإسكندرية بسنده قال: مرض عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فعاده عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال له: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي، قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي، قال: ألا آمر لك بطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني، قال: ألا آمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لي فيه، قال: يكون لبناتك، قال: لا تخشى على بناتي الفقر، إني أمرت بناتي يقرأن كل ليلة سورة الواقعة، وإني

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من قرأ سورة الواقعة لم تصبه فاقة أبداً. وقال مسروق: من سرّه أن يعلم علم الأوّلين والآخرين وعلم الدنيا والآخرة فليقرأ سورة الواقعة.

وجاء في المسبحات كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ المسبحات، ويقول: إن فيها آية كألف آية، وكان يحب: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾.

وجاء في فضل تبارك ما تقدّم. وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم: إن سورة من القرآن ثلاثين آية شفعت لرجل حتى غفر له وهي: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾.

وجاء في: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾، أنها تعدل نصف القرآن.

و: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ربع القرآن.

و: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ ربع القرآن. وقد تقدّم ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ثلث القرآن.

وجاء في المعوّذتين عن النبي صلى الله عليه وسلم: نزلت عليّ آيات لم ينزل عليّ مثلهنّ قط المعوّذتان. وفي لفظ آخر: وقرأته على شيخي الحافظ بالإسكندرية بالسند الصحيح المتصل إلى عقبة بن عامر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنزل عليّ آيات لم ير مثلهن: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ إلى آخر السورة و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ إلى آخر السورة.

وعنه قال: قلت: يا رسول الله أقرأ من سورة يس أو من سورة هود؟ قال: يا عقبة اقرأ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ فإنك لن تقرأ سورة أحب إلى الله عز وجل وأبلغ عنده منها، فإن استطعت أن لا تفوتك فافعل.

وخرّج أبو داود عن عقبة بن عامر: بينا أنا أسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الجحفة والأبواء إذ غشيتنا ريح شديدة وظلمة شديدة، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوّذ بـ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾، ويقول: يا عقبة تعوّذ بهما، فما تعوّذ متعوّذ بمثليهما. قال: وسمعته يؤمّنا في الصلاة.

وجاء عن ابن شهاب: من قرأ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ والمعوّذتين بعد صلاة الجمعة حين يسلم الإمام قبل أن يتكلم سبعاً سبعاً كان ضامناً. قال أبو عبيد: أراه قال: على الله هو وماله وولده من الجمعة إلى الجمعة.

وجاء: من شهد فتح القرآن فكأنما شهد فتحاً في سبيل الله، ومن شهد ختمه

فكأنما شهد غنيمة تقسم في سبيل الله، ويكفي حامل القرآن أنه من أهل الله وخاصته.

وخرّج البزار عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن لله أهلين من الناس قيل: يا رسول الله من هم؟ قال: هم أهل القرآن هم أهل الله وخاصته. وقد تقدّم أنه يعطى لقارئه بكل حرف فيه عشر حسنات. ورأيت في بعض الكتب الصحاح أن ذلك في غير الصلاة، وأما في الصلاة فإن كان قاعداً فخمسون حسنة، وإن كان قائماً فمائة حسنة، ومن قرأ فختمه كانت له دعوة عند الله مستجابة معجلة أو مؤخرة، وختمة كل أحد من حيث علمه.

ومما قرأته على الحافظ بسنده إلى ابن عمر رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيّ الأعمال أفضل عند الله؟ قال: قراءة القرآن في الصلاة ثم قراءة القرآن في غير صلاة، فإن الصلاة أفضل عند الله وأحبها إليه. وتمام الحديث: والدعاء والاستغفار فإن الدعاء هو العبادة، وإن الله يحبّ الملحّ في الدعاء، ثم الصدقة فإنها تطفئ غضب الرب، ثم الصيام فإن الله تعالى يقول: الصوم لي وأنا أجزي به، والصيام جنة للعبد من النار.

وأما صفة القارئ فقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذ الناس نائمون، وبنهاره إذ الناس مفطرون، وبحزنه إذ الناس يفرحون، وبخشوعه إذ الناس يختالون، ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافياً ولا غافلاً ولا صخاباً ولا صياحاً ولا حديداً، ويكون باكياً محزوناً حليماً مسكيناً.

نقلت أكثر هذا الذي تقدّم من كتاب فضائل القرآن لأبي عبيد رحمه الله إلا يسيراً من غيره، هذا كله لتعلم أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، ومن أراد الله أن يرفقه ألهمه للأعمال الصالحة في الأوقات الفاضلة، فذلك يزكي عمله فيرى أمله. وما جاء في هذه السور من أنها تجيء يوم القيامة كذا، وتجادل عن كذا، إنما هو ثواب ذلك المتلوّ وجزاء ذلك العمل، كذا أوّله العلماء رضي الله عنهم، والحمد لله على نعمه، وقد طال الكلام في هذا الفصل ولكنه نعم الأصل، يؤدي إلى منال من الله وفضل ونوال وبذل.

خرجت من خبر لا مثله خبر ... لفرط حبي لم أقدر لأتركه
لا شيء أوسع من باب العلوم فما ... شبهته مثلاً إلا كما الشبكه
تجز عيناً تجز العين أربعة ... كذاك حتى تعم الكل بالحركه
وبالشباك يصاد الوحش في جبل ... والطير في الجوّ والحيتان في البركه
كذاك بالعلم يدري من أحاط به ... من سدرة المنتهى حتى إلى السمكه
وفوق ذلك ما إن ينتهي أحد ... له ويعلمه المولى بلا شركه

لكن لذا العلم شرط أن تكون بما علمته عاملاً فاعمل على البركه إن
في سنة مع إخلاص يتم به لم يكن هكذا أدّى إلى الهلكه

تقدّم في هذه الأبيات سدرة المنتهى.

وقع في مسند الحارث: لو غطيت بورقة من ورقها هذه الأمة لغطتهم. وقال ابن عباس: سألت كعباً عن سدرة المنتهى فقال: ينتهي إليها بأرواح المؤمنين إذا ماتوا، لا يجاوزها روح مؤمن، فإذا قبض المؤمن تبعه مقرّبو أهل السماوات حتى ينتهي به إلى السدرة، فيوضع ثم تصف الملائكة المقرّبون فيصلون عليه كما تصلون على موتاكم أنتم هاهنا.

وفي حديث الإسراء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثم رفعت لنا سدرة المنتهى فإذا ورقها مثل آذان الفيلة، وإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا أربعة أنهار تخرج من أصلها نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: يا جبريل ما هذه الأنهار؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات. وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النجم: ١٦] قال: غشيها فراش من ذهب، ذكر هذا ابن سلام. فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيّرت فما أحد من خلق الله تعالى يستطيع أن ينعتها من حسنها. وسيأتي في باب النون ذكر الأنهار وأنها خمسة. وذكر في حديث آخر أنها في السماء السابعة. وقال في حديث آخر: إنها في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها. وذكر أنه رأى في السماء السابعة إبراهيم صلى الله عليه وسلم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه. وفي آخر: ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام، وذكر أنه رأى آدم عليه السلام في سماء الدنيا.

قال بعض العلماء: حكمة ذلك لأنه أبو البشر، وإذا مات أحد من ولده لا بدّ أن يعرج بروحه حتى يراهم أبوهم، وروح الكافر لا تفتح له أبواب السماء، كما في القرآن، فكان في السماء الدنيا لذلك، حتى يرى الكافر والمؤمن فيعرج بالمؤمن إلى عليين ويهبط بالكافر إلى أسفل السافلين، وشاهد ذلك في الحديث أن النبي عليه السلام رآه في السماء الدنيا عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، قال: فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، فسأل عن ذلك جبريل عليه السلام فقال: هذا آدم صلى الله عليه وسلم وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه، فأهل اليمين أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر

قبل شماله بكى. ذكر هذا أيضاً مسلم. والأسودة: الشخوص. وسيأتي تفسير ذلك في باب الدال، وهذا من الذي قلنا إن الحديث يتسلسل وإنه يجري كالماء المسلسل.

وارجع إلى ذكر الأبيات والأعمال بالنيات:

وذا فصل الفوائد قد تقضى ... وآخذ بعد في تفسير شعري
أوطئه فيرجع بعد عسر ... إلى يسر وسهلاً بعد وعر

قد وقفت أعزّك الله على بداءة الشعر، وما رأيته قبل من الأبيات ذوات الكلمات المزدوجات، فإن أعجبتك فحسن وإلا فاسلك هذا السنن، واجعل ابتداء الأبيات جمعت لغات، واستعن بالله الكريم وقل بسم الله الرحمن الرحيم:

جمعت لغات وضمنتها ... حروف الهجاء كآلٍ وأل

باب الألف مع الباء

وآب وآب وأبّ وأب   وأتّ وأثّ وبلّ وبل

قد تقدّم تفسير الحروف ووجوهها، وأفسّر لك هنا معنى الهجاء، تقول: هجوت الحروف هجواً وهجاء، وهجيتها تهجية، كله بمعنى، وأنشدوا:

يـا دار أسـماء قـد أقـوت بإنشاج   كالوحي أو كإمام الكاتب الهاجي

والهجو خلاف المدح، وقد هجوته هجواً وهجاء وتهجواً فهو وهجوّ، واسم الفاعل هاجٍ كما قال:

فهـــل لمنهاجـــي مـــن هاجـــي

بدأت في أوّل لفظة من القافية بالألف لفضلها، وجعلتها بين الواو التي لا بدّ منها للعطف واللام التي هي القافية، فقلت: وال، وسترى تفسير ذلك في باب الألف واللام إن شاء الله مستوفى.

وكان ينبغي أن أبدأ بالألف مع الألف فأقول: وآء وأآ، ولكني لما سميت الكتاب بألف با بدأت بهما، وأيضاً فلم يجتمع لي من الألفين بيت كامل، لأنه لا ينعكس، فأخّرت ذلك إلى باب الألف مع الياء في آخر بيت، إذ لا يجتمع أيضاً من الألف والياء بيت، فبالحريّ أن يكمل من جميع ذلك كله بيت وليت، فأما آب فمعناه رجع، قال الشاعر:

فـآب مـضلوه بعـين جلـية   وغـودر بالجـولان حـزم ونائـل

وهذا البيت سيأتي تفسيره إن شاء الله في باب الضاد، يقال منه: آب يؤوب أوباً وإياباً، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴾ [الغاشية: ٢٥]، وآبت الشمس غابت، والمآب المرجع، وائتاب مثل آب، فعل وافتعل بمعنى، قال الشاعر:

ومـن يـتّق فـإنّ الله معـه   ورزق الله مـؤتاب وغـادي

ومآبة البئر: حيث يجتمع الماء، واسم الفاعل منه آيب، ومنه الحديث: آيبون تائبون، وتوباً توباً لربنا أوباً لا يغادر علينا حوباً، الحوب والحوب الإثم، وقد جاء في الحديث رويته حُوباً بضم الحاء.

وقع في المعاني للنحاس أن أبا أيوب طلق امرأته أو عزم على أن يطلقها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن طلاق أم أيوب لحوب.

قال المهدوي في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ [النساء: ٢] الحوب: الإثم، وأصله الزجر للجمل، فسمي الإثم حوباً لأنه يزجر عنه. والتحوّب: التأثم، وهو أيضاً: التحزن، وهو أيضاً: الصياح الشديد كالزجر. وقرأ الكل: (حُوبا) بالضم، وقراءة

الحسن: (حَوبا) بالفتح كما وقع في الحديث. والحاب مثل الحوب، تقول: حبت بكذا، أي: أثمت، تحوب حوباً وحوبة وحيابة، وفلان أحوب وأعق، والحوبة أيضاً: القرابة من ذوي الأرحام يخاف عليها الضيعة، تقول: إن لي حوبة أصلها، ويقال: ألحق الله به الحوبة، أي: المسكنة والحاجة، وفلان يتحوّب من كذا، أي: يتأثم. والتحوّب أيضاً: التوجه والتحزن. قال الشاعر:

مـــن الغـــيظ فـــي أكـــبادنا والـــتحوّب

وأما الأوب فيقال: جاء القوم من كل أوب، أي: من كل وجه، والتأويب في السير: تباري الركاب. وفي القرآن العزيز: ﴿ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ ﴾ [سبأ: ١٠] قيل: المعنى سيري معه حيث شاء، من التأويب الذي هو سير النهار. وقيل: من التأويب الذي هو الرجوع ومبيت الرجل في منزله. فعلى هذا يكون التأويب سير الليل والنهار، وأصله من سرعة رجع أيدي الإبل وأرجلها في السير الحثيث. وقيل: معناه سبّحي، ويكون معناه ترجيع التسبيح، ومن الأوب الذي هو سرعة تقليب اليدين والرجلين في السير؛ قال الشاعر:

كـــأن أوب مـــائح ذو ألـــب مـــدارك النهـــر ســـريع الـــتعب
أوب يـــديها بـــرقاق ســـهب

ويقال: فلان سريع الأوبة، أي: الرجوع. قال أبو عبيد: وقوم يحوّلون الواو ياء فيقولون: سريع الأيبة، ويقال: ناقة آلوب على وزن فعول.

أبـي: وأما آب فاسم فاعل من أبى يأبى إباءة وإباء فهو آب وأبيّ وأبَيَان بالتحريك، قال الشاعر:

وقـبلك مـا هـاب الـرجال ظلامتـي وفقـأت عـين الأشـرس الأبـيان

قالوا: أبة يأبى، بالفتح فيهما، مع خلوّه من حروف الحلق وهو شاذ، ومعنى آب: كاره وأبى فلان كذا، إذا كرهه، وفي أسماء رجال الحديث مولى آبي اللحم، وأنشد الفراء:

لقـــد غـــدوت خلـــق الأثـــواب أحمـــل عدلـــين مـــن الـــتراب
بعـــوزم وصـــبية ســـغاب فآكـــل ولاحـــس وآبـــي

قال: والعوزم: العجوز، وهي الناقة المسنّة أيضاً وفيها بقية من شباب، ومنه قولهم: رجل أبيّ من قوم أباة. قال الزبير بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم:

ويعلـم مـن حوالـي البـيت أنـا أبـاة الـضيم نمـنع كـل عـار

ابّ: وأما أبّ من قوله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس: ٣١] فقال ابن عباس رضي الله عنه: الفاكهة الثمار التي يأكلها الناس، والأبّ: ما ترعاه البهائم. وعنه أيضاً: الأبّ: الثمار الرطبة، ذكره المهدوي. وقال صاحب كتاب العين: الأبّ: الكلأ، وهو ما رعته الأنعام، مثل الأوّل، وقال الشاعر:

جذمنا قيس ونجد دارنا ولنا الأبّ بها والمكرع

يقال: كرعت الماشية، إذا شربت الماء وهي فيه واقفة، ثم كثر ذكر ذلك حتى سمي كل شارب كارعاً. وأما أبّ: فعلى وجوه شتى: يقال: أبّ الرجل يؤبّ أبابة، إذا تهيأ للسير، وهو في أبابه، أي: جهازه، وأبت أبابة الشيء، إذا استقامت طريقته، وأبّ للشيء: إذا تهيأ له. قال الأعشى:

صرمت ولم أصرمكم وكصارم أخ قد طوى كشحاً وأبّ ليذهبا

أي: تهيأ وشمر للذهاب، وأبّ الرجل أباً، إذا حنّ لوطنه. قال هشام بن عقبة أخو ذي الرمة:

وأبّ ذو المحضر البادي ابابته وقوضت نيه أطناب تخييم

ويقال: أبّ يؤبّ وأوّب يؤوّب وأبّ الرجل يده إلى سيفه، إذا ردّها إليه ليستله.

اتّ: وأما أتّ فيقال: أتّه يؤتّه أتاً، إذا غلبه بالكلام أو كبته بالحجة، قاله ابن دريد في الجمهرة.

اثّ: وأما أثّ فمن قولهم: أثّ النبت يأثّ، وينثّ أكثر من يأثّ أثاً، إذا كثر، ونبت أثيث وكذلك الشعر أثيث أيضاً، وكل شيء وطأته ووثرته من فراش أو بساط فقد أثثته تأثيثاً، وأثاث البيت من هذا، قال الراجز:

يخبطن منه نبته الأثيثا حتى ترى قائمه جثيثا

أي: مجثوثاً مقلوعاً. وفي القرآن العزيز من هذا: ﴿ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [إبراهيم: ٢٦]. والأثاث: متاع البيت، قال الله عز وجل: ﴿ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ﴾ [مريم: ٧٤]. يقال: أثّ الرجل يأثّ أثاً إذا صار ذا أثاث. قال الأعمش: الأثاث المال يستمتع به إلى حين الموت. وقال المهدوي: واحد الأثاث أثاثة، كحمام وحمامة، قاله الأحمر. وقال الفراء: لا واحد له من لفظه، ويجمع على أثثة وأثث، وما قبل هذا فمن الجمهرة، وأنشد ابن دريد قول النمري وهو محمد بن نمير بن أبي نمير:

أهاجتك الظعائن يوم بانوا بذي الزي الجميل من الأثاث

قال: وأحسب أن اشتقاق اسم الرجل أثاثة من هذا، ويقال: أثاثة، بالضم والفتح،

وأنشد لرؤبة:

ومن هواي الرجرج الأثائث تميلها أعجازها الأواعث

الوعثة: العظيمة العجز، والوعث من الرمل: ما غابت فيه الأرجل.

وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستعيذ من وعثاء السفر، أي مشقته والأثائث: الوثيرات الكثيرات اللحم، وقد جمعوا أثيثة أثاثاً، ووثيرة وثاراً. وقال صاحب العين: أث الشعر يؤث أثاثة وهو أثيث، وكذلك النبات، وتأثث فلان: أصاب خيراً.

وقال امرؤ القيس يصف الشعر:

وفرع يغشى المتن أسود فاحم أثيث كقنو النخلة المتعثكل

فرغ البيت، وبقيت قافيته وقد أخرتها إلى آخر بيت من هذا الباب.

ومما ضاق عنه، ولو احتجته لأخذته مثل آت: اسم فاعل من أتى يأتي، وسيأتي الكلام عليه في باب أتا. وآب اسم شهر من شهور العجم وهو أغشت، وقد تقدّم، وهو كله يتّزن وإنما ذكرته لك هنا تقدمة لأني أدخل مثل هذا البيت إذا لم أجد غيره لإقامة الشكل وإكمال البيت كما صنعت في البيت الثالث الذي يأتي بعد هذا، سقت فيه مصادر أفعال هذا البيت، إذ لم أجد مما أقيم به بيتاً إلا بها حسبما تراه بعد إن شاء الله.

وأب: ومما لم يتّزن وهو من هذا الشكل وأب على أن تكون الواو أصلية مصدر: وأب الحافر يئب: انضمت سنابكه، وحافر وأب: خفيف، قاله ع.

أب: ومما لم يتّزن أيضاً وهو من هذا الشكل أب مخفف، وهو معلوم، والأبوّة الآباء، مثل العمومة والخؤولة، وكان الأصمعي يروي قول أبي ذؤيب:

لو كان مدحة حي أنشرت أحداً أحيا أبوّتك الشم الأماديح

وغيره يرويه:

.... أباكن يا ليلى الأماديح

وقوله: يا أبة افعل كذا، يجعلون علامة التأنيث عوضاً من ياء الإضافة، كقولهم في الأم: يا أمّة، وتقف عليها بالهاء إلا في القرآن فإنك تقف عليها بالتاء لأجل الكتاب، وقد يقف بعض العرب على هاء التأنيث بالتاء، فيقولون: يا طلحت، وستراه في باب الهاء من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، وإنما لم تسقط التاء من يا أبت أقبل، في الوصل كما سقطت في قولك: يا أم أقبلي، لأن الأب لما كان على حرفين كان كأنه قد أخلّ به فصارت الهاء لازمة وصارت الياء كأنها بعدها، وقول الشاعر:

تقول ابنتي لما رأتني شاحباً كأنك فينا يا أبات غريب

أراد: يا أبتاه، فقدّم الألف وأخّر التاء، ويقال: يا أبتَ ويا أبتِ، وقرئ بهما، فمن نصب أراد: الندبة فحذف. ويقال: لا أب لك ولا أبا لك، وهو مدح وربما قالوا: لا أباك، لأن اللام كالمقحمة. قال أبو حية النميري:

أبالموت الذي لا بدّ أني ... ملاق لا أباك تخوّفيني

أراد: تخوّفينني فحذف النون الآخرة. والأبوّة أيضاً فعل الأب. وتأبيت فلاناً: اتخذته أباً، وهو يأبو اليتيم أباوة، أي: يغذيه ويربيه. والنسبة إليه أبويّ، وأصل أب أبو بالتحريك، لأن جمعه آباء مثل قفا وأقفاء ورحا وأرحاء، فالذاهب منه واو لأنك تقول في التثنية: أبوان، وتقول: أبوت خمسة أو ستة، إذا كان لك من الولد ذلك العدد. وكذلك أخوت في الأخوّة.

وقال أعرابي: أبوت عشرة وأخوت عشرة، وسيأتي خبره. وبعض العرب يثني أبا مرفوعاً أبان، ويجمعه أبون، وكذلك أخون وحمون وهنون، قال الشاعر وهو الكميت:

فلما تعرّفن أصواتنا ... بكين وفدّيننا بالأبينا

وعلى هذا قرأ بعضهم: (نعبد إلهك وإله أبيك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق) يريد أبينك فحذف النون للإضافة، وعلى هذه اللغة تقول في الإضافة: أبيك، إذا ثنيت، والعرب تسمي الجدّ أباً أيضاً، وكذلك العم، وسيأتي الشاهد على ذلك في فصل الفوائد إن شاء الله تعالى.

فصل من الفوائد الزوائد

بيان الفوائد:

تقدّم آيبون تائبون، وأوباً وحوباً، وذلك في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على كل شرف ثلاث تكبيرات، ثم يقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده. وأما أوباً فروى ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد الرجوع يعني من سفره قال: آيبون تائبون، الحديث، وإذا دخل على أهله قال: توباً توباً لربنا أوباً لا يغادر علينا حوباً. وتقدّم قول بعض العرب: أبوت عشرة وأخوت عشرة، وهذا الخبر ذكره الخطابي رحمه الله عن الأصمعي رحمه الله قال: كنت يوماً في منزلي فأتاني رجل فقال: تركت في سوق الصيارفة أعرابياً يسأل، لم أر أفصح منه فقمت وأنا أجرّ ثوبي حتى أتيت السوق، فإذا أنا به قائماً يسأل، فوجأت في صدره

فقلت: من أنت؟ فقال: أنا عكاف بن رويبة أبوت عشرة وأخوت عشرة، كنت مقنعاً للمهمة ومفزعاً للملمة، فانباق عليّ الدهر بكلكله متحيفاً إخوتي واحداً فواحداً، حتى أساف رجاليه وأباد ماليه، فقرع مراحي وفنيت أوضاحي، وملكتني السنون وحذفتني بالمذلة العيون، فرحم الله من أعان أخا جهد وشصاصاء وحاجة لأواء، نعشكم الله بإسباغ الرزق واصطناع المعروف، وإذا هو أبو عون الأعرابي.

وفسره الخطابي قال: قوله: انباق عليّ الدهر بكلكله، أي وطئني بثقله وأصابني بمكروهه وأصله من البوق، ويقال: باقته بائقة، إذا نزلت به نازلة شديدة، ويقال: إن أصل البوق كثرة المطر. وقوله: متحيفاً إخوتي، أي متتبعاً لهم يأتيهم من نواحيهم فيهلكهم، وأصله من الحافة وهي الناحية، يقال: حافة الوادي، أي ناحيته، وقد يكون التحوّف من الحيف أيضاً. وقوله: قرع مراحي، أي صفر وخلا من الغنم. قلت: وسيأتي تفسير هذا الحوف إن شاء الله، والأوضاح جمع الوضح وهي الدراهم الصحاح، والوضح حلي من فضة يجمع على الأوضاح. وقوله: ملكتني السنون، أي جهدتني. قلت: وسيأتي هذا في باب الكاف إن شاء الله. وقوله: حذفتني بالمذلة العيون، أي رمتني أبصار الناظرين بالذل، وتقدّم كرعت الماشية، وجاء منه في الحديث من طريق ابن عمر قال: مررنا مع النبي صلى الله عليه وسلم على برك فجعلنا نكرع، فقال: لا تكرعوا ولكن اغسلوا أيديكم فاشربوا منها، فإنه ليس من إناء أطيب من اليد. خرّجه ابن أبي شيبة، والحديث معتل من قبل الإسناد، والصحيح ما خرّجه البخاري عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على رجل من الأنصار ومعه صاحب له، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: إن كان عندك ماء بات هذه الليلة في شنه وإلا كرعنا. قال والرجل يحوّل الماء في حائطه، الحديث.

وقد سألت بعض أشياخي عن الكرع فقال: هو مشتق من الأكارع التي للدواب، كأنه يدخل الرجل في الماء برجليه ويشرب بفيه كما تفعل الدابة ذات الأكارع، والله أعلم. وقد جاء في الحديث الأوّل النهي عن ذلك وإن كان الحديث معلولاً فترك ذلك أسلم، والله أعلم.

وقد يلام الفتى في الشيء يصنعه ... وليس يلحقه لوم إذا تركه

وهذا البيت لي من شعر مطوّل إن أردته انظره في التكميل.

وتقدّم أن العرب تسمي الجدّ أباً وكذلك العم، وشاهد ذلك قوله تعالى: ﴿ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ﴾ [البقرة: ١٣٣] فبدأ بإبراهيم وهو الجدّ وثنّى بإسماعيل وهو العم لأنه كان أسنّ من إسحاق. وكذلك قال يوسف عليه

السلام: ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [يوسف: ٣٨]. وكذلك تسمي العرب الخالة أماً كما قال تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [يوسف: ١٠٠] يعني أباه وخالته، وسيأتي فيها حديث بعد هذا إن شاء الله. وكما سموا أبا الأب وإن علا أباً كذلك سموا ابن الابن ابناً وإن سفل، وجعلوهما في الميراث عند عدم من فوقهما سواء.

نكتة:

واحتج يحيى بن يعمر علي الحجاج بأغرب من هذا. روى ابن عبد ربه أن الحجاج بعث إلى يحيى هذا فقال له: أنت الذي تقول إن الحسين بن علي ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ والله لتأتين بالمخرج من ذلك أو لأضربن عنقك، فقال له ابن يعمر: وإن جئت بالمخرج فأنا آمن؟ قال: نعم، قال له: اقرأ ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ [الأنعام: ٨٤-٨٥] فمن أبعد أعيسى من إبراهيم أو الحسين من محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما هو ابن بنته، فقال له الحجاج: والله كأني ما قرأت هذه الآية قط، وولاه قضاء بلده، فلم يزل بها قاضياً حتى مات.

فائدة في اسم إبراهيم عليه السلام:

يقال إبراهيم وإبراهام وقرئ بهما، وإبراهم وأبراهم وإبرهام، واختلف العلماء في ميراث الجدّ وكذلك الصحابة رضي الله عنهم، والذي ورد في البخاري قال أبو بكر وابن عباس وابن الزبير: الجدّ أب، وقرأ ابن عباس: (يا بني آدم واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب)، ولم يذكر أن أحداً خالف أبا بكر في زمانه وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم متوافرون. وقال ابن عباس: يرثني ابن ابني دون إخوتي ولا أرث أنا ابن ابني، قال هذا على جهة الإنكار على من لا يقول بقوله، وكان يمثله بابن الابن ويقول: ألا يتقي الله زيد بن ثابت ويجعل ابن الابن ابناً ولا يجعل أبا الأب أباً.

وأما علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: من سرّه أن يتقحم في جراثيم جهنم فليقض بين الجد والإخوة، ذكره ثابت رحمه الله وقال: الجرثومة ما اجتمع وكثر من رمل أو تراب حول أصول الشجر، وأنشد:

وجرثومة لا يبلغ السيل أصلها ....

ثم يستعار في غير ذلك فيقال في جرثوم العرب: قبائلها، قلت: وهذا من علي بن أبي طالب رضي الله عنه على جهة التغليظ لمن لم يتثبت، وذلك لاختلاف الصحابة رضي الله عنهم في ذلك، والله أعلم. وإلا فقد حكم رضي الله عنه في ذلك وقضى بمبلغ علمه واجتهاده كما فعل غيره من الصحابة رضوان الله عليهم.

وذكر ثابت في الدلائل أيضاً عن الشعبي قال: احتاج الحجاج إليّ في فريضة فقال: ما تقول في أم وأخت وجدّ؟ فقلت: اختلف فيها خمسة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان وعلي وابن عباس وابن مسعود وزيد بن ثابت رضي الله عنهم، قال: ما قال فيها ابن عباس إن كان لمتقناً؟ قلت: جعل الجد أباً ولم يعط الأخت شيئاً، وأعطى الأم الثلث. قال: فما قال فيها أمير المؤمنين يعني عثمان؟ قلت: جعلها أثلاثاً. قال: فما قال فيها زيد بن ثابت؟ قلت: جعلها من تسعة، فأعطى الأم ثلاثة وأعطى الجد أربعة، وأعطى الأخت سهمين. قال: فما قال فيها ابن مسعود؟ قلت: جعلها من ستة فأعطى الأخت ثلاثة وأعطى الأم سهماً وأعطى الجد سهمين. قال: فما قال فيها أبو تراب؟ يعني علياً رضوان الله عليه، قلت: جعلها من ستة فأعطى الأخت ثلاثة وأعطى الأم سهمين وأعطى الجد سهماً. ذكر هذه الحكاية محمد بن يزيد في الكامل، وجعل عوض ابن عباس أبا بكر رضي الله عنه، فلما انتهى إلى آخر قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: فأطرق ساعة، يعني الحجاج، ثم رفع رأسه فقال: فإنه المرء يرغب عن قوله. قلت: ولما رأيت هذه الحكاية في الكامل وقول الحجاج في علي رضي الله عنه هذا الجفا لم أملك نفسي وحملتني الغيرة على حبيبي علي رضي الله عنه أن كتبت في طرة الكتاب:

حجاج فيما قلته تكذب ... في قول من فيه الورى يرغب
ذاك علي بن أبي طالب ... من مثله أو منه من يقرب
يكفيه أن كان ابن عم الذي ... في جاهه تطمع يا مذنب
صلى عليه الله من سيد ... ما تطلع الشمس عليه وتغرب

وقلت أيضاً: انظر إلى الحجاج وقلّة جده مع سطاحة خده، يقول في مولانا علي هذه المقاله ويرغب عما قاله، تالله ما حمله على هذا القول الردي إلا الحسد المردي، وإلا فقد علم الغوي أن مكان علي في العلم المكان العلي، كيف لا والنبي صلى الله عليه وسلم يقول فيه: أنا مدينة العلم وعليّ بابها، فمن أراد العلم فليأته من بابه. وابن عباس رضي الله عنه يقول: والله لقد أعطي علي بن أبي طالب رضي الله عنه تسعة أعشار العلم، وأيم الله لقد شاركهم في العشر العاشر. وقال عمر بن الخطاب رضي الله

عنه: أقضانا عليّ. وقال ابن مسعود: أعلم أهل المدينة بالفرائض ابن أبي طالب، وصدقوا رضي الله عنهم، كم له من تشقيق في العلوم وترقيق وبصر بالحساب وتدقيق، حتى كأنه ينظر إلى الغيب من ستر رقيق، وكم من قضية قضاها لما بلغت إلى النبي صلى الله عليه وسلم أمضاها، وربما تبسم عليه السلام إذا سمعها استصواباً ثم أنفذها إذ رآها صواباً، وكم من مسألة بديعة دقق فيها النظر فأتى بالعبر.

مسألة حسابية :

روي عن زرّ بن حبيش رضي الله عنه قال: جلس رجلان يتغذيان مع أحدهما خمسة أرغفة ومع الآخر ثلاثة أرغفة، فلما وضعا الغذاء بين أيديهما مرّ بهما رجل فسلم، فقالا له: اجلس للغذاء، فجلس وأكل معهما، واستوفوا في أكلهم الأرغفة الثمانية، فقام الرجل وطرح إليهما ثمانية دراهم وقال: خذ هذا عوضاً مما أكلت لكما ونلته من طعامكما، فتنازعا فقال صاحب الخمسة الأرغفة: لي خمسة دراهم ولك ثلاثة، فقال صاحب الأرغفة الثلاثة: لا أرضى إلا أن تكون الدراهم بيننا نصفين، فارتفعا إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فقصا عليه قصتهما، فقال لصاحب الثلاثة: قد عرض عليك صاحبك ما عرض وخبزه أكثر من خبزك فارضَ بالثلاثة، فقال: والله لا رضيت منه إلا بمرّ الحق، فقال علي رضي الله عنه: ليس لك في مرّ الحق إلا درهم واحد وله سبعة، فقال الرجل: سبحان الله هو يعرض علي ثلاثة دراهم فلم أرضَ وأشرت عليّ بأخذها فلم أرضَ، وتقول لي الآن إنه لا يجب لي في مرّ الحق إلا درهم واحد، فعرفني بالوجه في مرّ الحق حتى أقبله، فقال علي رضي الله عنه: أليس الثمانية الأرغفة أربعة وعشرين ثلثاً أكلتموها وأنتم ثلاثة أنفس ولا يعلم الأكثر منكم أكلاً ولا الأقل، فتحملون في أكلكم على السواء؟ قال: بلى، قال: فأكلت أنت ثمانية أثلاث وإنما لك تسعة أثلاث، وأكل صاحبك ثمانية أثلاث وله خمسة عشر ثلثاً أكل منها ثمانية وتبقى له سبعة، وأكل لك واحداً من تسعة فلك واحد بواحدك وله سبعة، فقال الرجل: رضيت الآن. انتهت الحكاية.

وشبيه بهذه المسألة رجل استأجر أجيراً يحفر له صهريجاً في الأرض طوله ثمانية أذرع وعرضه كذلك وعمقه كذلك بثمانية دراهم، فحفر له أربعة في أربعة، ثم جاء يطلبه بما شرط له، فحاسبه على مقدار حفره، فلم يبرز له الحساب إلا درهماً واحداً، وهذه إذا نظرتها وجدتها مثل الأولى، والحمد لله وحده.

لطيفة :

وتقدّم من فضائل علي رضي الله عنه في هذا الكتاب ويأتي أيضاً بعضها وهي

أكثر من ذلك.

ومن أغرب مسألة وقع فيها الاختلاف ما خرّج ثابت رحمه الله أيضاً في الدلائل حدث بسنده إلى عبد الصمد بن عبد الوارث، قال: وجدت في كتاب جدي: أتيت مكة فأصبت بها أبا حنيفة وابن أبي ليلى وابن شبرمة، فأتيت أبا حنيفة فقلت له: ما تقول في رجل باع بيعاً واشترط شرطاً؟ قال: البيع باطل والشرط باطل. وأتيت ابن أبي ليلى فقال: البيع جائز والشرط باطل. وأتيت ابن شبرمة فقال: البيع جائز والشرط جائز، فقلت: سبحان الله ثلاثة من فقهاء الكوفة يختلفون علينا في مسألة، فأتيت أبا حنيفة فأخبرته بقولهما، فقال: لا أدري ما قالا، حدّثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن بيع وشرط. فأتيت ابن أبي ليلى فأخبرته بقولهما، فقال: لا أدري ما قالا، حدّثنا هشام بن عروة عن أبي عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: اشتري بريرة واشترطي لهم الولاء فإن الولاء لمن أعتق، فأجاز البيع وأبطل الشرط. فأتيت ابن شبرمة فأخبرته بقولهما، فقال: ما أدري ما قالا، حدّثني مسعر بن حكيم عن محارب بن دثار عن جابر بن عبد الله قال: اشترى مني رسول الله صلى الله عليه وسلم ناقة فشرطت حملاني، فأجاز البيع والشرط.

وإنما ساغ للصحابة الاختلاف فيما لم يأت فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نص فحينئذ رجعوا إلى القياس واجتهاد الرأي، والحجة فيه لهم من السنة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل حين أنفذه إلى اليمن: بم تحكم؟ قال: بكتاب الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي، فقال له النبيّ عليه السلام: الحمد لله الذي وفّق رسول رسول الله لما يحب رسول الله.

وقد أجمع كثير من الصحابة رضوان الله عليهم على الرأي والقياس في عدة مسائل مع عدم النص، ولم ينكر عليهم ذلك سائر الصحابة، بل صار أمراً معمولاً به إلى اليوم على اختلافهم فيها واتباع الفقهاء إياهم عليها على مذاهبهم، من ذلك مسألة العول والحرام والخمر وغير ذلك. قال أبو بكر رضي الله عنه: أقضي فيها برأيي، وقوله: كدنا نقضي فيها برأينا. وقول عثمان لعمر رضي الله عنهما: إن نتبع رأيك فرأي سديد وإن نتبع فيها رأي من قبلك فنعم ذو الرأي كان. وقول علي رضي الله عنه: أجمع رأيي ورأي عمر أن لا يبعن، يعني أمهات الأولاد ثم رأيت بيعهن. وقال ابن مسعود: ثم أقول فيها برأيي.

وردّ بعضهم الحرام إلى اليمين، وبعضهم إلى الطلاق الثلاث، وبعضهم إلى

الظهار، وبعضهم إلى الإيلاء، وبعضهم إلى أخف من هذا، هذا كله انظره في التحصيل.

ومما قرأته على الحافظ رحمه الله بالإسناد المتصل إلى علقمة أن ابن مسعود رضي الله عنه أتي في رجل هلك وترك امرأته ولم يكن دخل بها، قال فتردد إليه فيها شهراً لا يقول له فيها شيئاً، فقال: أقول فيها برأيي، فإن كان صواباً فمن الله عز وجل وإن كان خطأ فمن نفسي. قال: أقول: لها مثل مهر نسائها وعليها العدّة ولها الميراث، فقام معقل بن سنان الأشجعي فقال: قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بروع بنت واشق بمثل ذلك، ففرح ابن مسعود. قلت: وهذا كله فيما لم يجئ فيه نص جلي كما تقدّم، وأما مع الأثر فلا يصحّ لأحد من الناس معه رأي ولا قياس. ألم تر إلى ما أخرجه البخاري رحمه الله من طريق أبي الزناد رضي الله عنه قال: إن السنن ووجوه الحق لتأتي كثيراً على خلاف الرأي، فما يجد المسلمون بداً من اتباعها، من ذلك: الحائض تقضي الصيام ولا تقضي الصلاة. انتهى كلامه. قلت: وهذا الذي تقدّم كان في زمن الصحابة رضي الله عنهم، وأما اليوم فليس لنا إلا اتباعهم فيما أمضوا وحكموا به وقضوا، واستمر عليه عملهم حتى جاء أجلهم، ولا نبتدع ولا نخترع بل نستمع ونتبع، ولا نتخير الرخص في المذاهب بل نسلك الجادة وندع البسابس والسباسب، وسيأتي تفسير البسابس والسباسب. ولو ألقيت بالك أيها السائب لرأيت إحدى اللفظتين عكس الأخرى، ففخرت بالأدب فخراً، فاجتهد إن كنت به تعنى أن تنفقه في اللفظ والمعنى، والله المعين على الرشاد والهادي إلى السداد.

ونرجع إلى القول الذاهب في تخيير الرخص في المذاهب، في مثل هذا حدثني شيخي أبو الطاهر السلفي رحمه الله بالإسكندرية قال: سمعت والدي رحمه الله بمكة يقول: سمعت معمر بن أحمد العبدي بأصبهان يقول: قال متقدمو مشايخنا: الصوفي إذا تمذهب يصفع قفاه حتى يذهب،وقد تقدّم له ولغيره من فضلاء الناس طرف في ذم القياس، وسيأتي منه طرف أيضاً في باب الميم إن شاء الله. قلت: ولعل ذلك الذم إنما هو فيمن يقيس برأيه في مثل زماننا هذا ويدع قول علمائنا المتقدمين، والله أعلم.

فصل:

معاني الجد:

وإذ وقع ذكر الجد فلنستقص هذه اللفظة بمبلغ الجهد: الجد أبو الأب والجد: البخت والسعد، ومنه قول اليهودي حين رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم داخلاً المدينة أوّل يوم دخلها: يا بني قيلة هذا جدّكم قد جاء، أي سعدكم، يقال: رجل ذو جدّ ورجل مجدود وضدّه محدود بالحاء، أي: محروم، كما قال ابن قتيبة في امرئ: ليخرج

من جملة المجدودين ويدخل في جملة المحدودين. وفي القرآن العزيز: ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ [الجن: ٣] فسره ابن عزيز: عظمة ربنا. يقال: جدّ فلان في الناس، أي عظم في عيونهم وجلّ في صدورهم، ومنه قولهم: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا، أي عظم في أنفسنا. وقال المهدوي عن مجاهد كذلك عظمته. وعنه أيضاً: ذكره. وعن أنس بن مالك: غناه.

وعن الطبري قال بعض أهل التأويل: جهل الخلق فيما قالوا، يشير والله أعلم إلى قول ابن عباس رضي الله عنه إذ قال: لو علمت الجن أن في الإنس جداً ما قالوا: ﴿ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ [الجن: ٣]. وقال أبو عبيد: يذهب به ابن عباس إلى أن الجد إنما هو الغنى، ولم يكن يرى أن أبا الأب جد إنما هو عنده أب، ذكر هذا أبو عبيد في تفسير حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول إذا انصرف من الصلاة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد. قال أبو عبيد: الْجَدّ بفتح الجيم لا غير، وهو الغنى والحظ في الرزق، ومنه قيل لفلان في هذا الأمر: جدّ، إذا كان مرزوقاً منه، فتأويل قوله: لا ينفع ذا الجد منك الجد، أي لا ينفع ذا الغنى منك غناه إنما ينفعه العمل بطاعتك، وهذا كقوله عليه السلام: قمت على باب الجنة فإذا عامة من يدخلها الفقراء، وإذا أصحاب الجدّ محبوسون، يعني ذوي الحظ في الدنيا والغنى.

قال: وزعم بعض الناس أن الْجِدّ بكسر الجيم، وهذا خلاف ما دعا الله إليه المؤمنين ووصفهم به من الخير، وهو الاجتهاد والعمل الصالح في قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١-٢] إلى آخر الآيات. فكيف يحثهم على العمل وينعتهم به ويحمدهم عليه ثم يقول: إنه لا ينفعهم؟ لم يرضَ أبو عبيد هذا الحرف الْجِدّ بالكسر في هذا الموضع، والذي اختاره الْجَدّ بفتح الجيم، وكذا جاء في البخاري عن الحسن جد: غنى، وجمع الجد الذي هو البخت جدود، قال الشاعر:

وليس الغنى والفقر من حيلة الفتى ... ولكن أحاظي قسمت وجدود

وأحاظي: جمع حظ وهو النصيب، ويجمع أيضاً على حظوظ وفي القلة أحظ. والْجُدّ بضم الجيم البئر تكون في الكلأ، قال الأعشى:

ما نجعل الجد الظنون الذي ... جنب صوب اللجب الماطر

مثل الفراتي إذا ما طما يقذف بالبوصيّ والماهر

الظنون: البئر التي يظن أن فيها ماء ولا يكون، والظنون: الذي لا يوثق بما عنده. واللجب: السحاب الذي له صوت، واختلاط الأصوات من كل شيء: لجب من الناس وغيرهم. والبوصيّ: السفينة. والماهر: السابح الحاذق، وتفسير السابح: العائم، سبح في الماء سباحة من قوله تعالى: ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٣] أي يسيرون. وجدّ كل شيء: جانبه. والجد أيضاً: شاطئ النهر، وهو الجدة أيضاً، وأكثر ما يقال: جدّه بالهاء، وبها سميت جده لأنها ساحل البحر، وسيأتي ذكر هذا إن شاء الله. والجِدّ بالكسر: نقيض الهزل، وقد جدّ وأجدّ، والجدة مصدر الجديد. وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في موعظة له يقول فيها: فبادروا وأنتم في مهل الأنفاس وجدة الأحلاس قبل أن يؤخذ بالكظم ولا يغني الندم. ويقال: أجد الرجل ثوباً واستجده. وجاء ذكر ذلك في الحديث وسيأتي إن شاء الله.

ومن مضاعف هذا الباب الجدجد بفتح الجيم: المفازة الملساء، والجدجد بالضم: دويبة كالجندب، قال ابن قتيبة: هو الذي يصرر بالليل في الصيف. ووقع في السير الجداجد وهو أحد المواضع التي سلك عليها النبي صلى الله عليه وسلم حين هاجر إلى المدينة. قال الأستاذ رحمه الله: كأنها جمع جدجد، قال: وأحسبها آباراً، ففي الحديث: أتينا على بئر جدجد، قال: وهو كما يقال في الكم: كمكم، وفي الرف: رفرف. وجدود: موضع بالبادية، وجدة: بلدة على ساحل البحر بينها وبين مكة شرفها الله مسافة تقصر فيها الصلاة عند مالك، وذلك أربعة برد، والبريد اثنا عشر ميلاً، والفرسخ ثلاثة أميال، والميل من الأرض قدر مد البصر، وقيل: قدر ألفي ذراع وهو ألف باع، قيل بباع الجمل، وقيل وهو أصح: بباع الفرس وهي عشرة غلاء، والغلوة مائتا ذراع، وهي طلق الفرس. وقال أبو عمر بن عبد البر: الميل ثلاثة آلاف ذراع وخمسمائة ذراع، ويستشهد على الغلوة بقول عنترة:

فلله عيناً من رأى مثل مالك عقيرة قوم إن جرى فرسان
فليتهما لم يجريا نصف غلوة وليتهما لم يرسلا لرهان

فسره أهل اللغة فقال بعضهم: الغلوة منتهى رمي السهم. وقال بعضهم: قدر رمية الرامي. وقال بعضهم: هو المطلق والأكثر على أنه منتهى الرمي، واستعير للطلق. وجدة النهر: ما قرب منه من الأرض. والجد: الناقة المقطوعة الأذن. والجد أيضاً: المفازة اليابسة، وكذلك السنة والشاة، وناقة جدود: يابسة اللبن، والجمع جداد وجدائد، والجداد زمن تجد فيه النخل، ويقال في هذا: جداد، كما يقال: حصاد وحصاد، وقرئ

بهما معاً. والجدد: وجه الأرض وطريق جادّة وتجمع على جوادّ. وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تصلوا على جوادّ الطريق.

والجدد من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ [فاطر: ٢٧] جمع جدّة: وهي الطرائق المختلفات الألوان، ولو كان جمع جديد لكان جدداً، قاله الأخفش، ذكر ذلك المهدوي، وقال ابن عزيز: جدد خطوط وطرائق واحدتها جدة. ومن شكل الجد الجذ بالذال المعجمة: القطع، والجذاذ: قطع ما تكسر، والسويق الجذيذ: الكثير الجذاذ، وفي القرآن العظيم: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾ [الأنبياء: ٥٨] أي حطاماً عن ابن عباس، وعن قتادة: قطعاً، من قولهم: جذذت الشيء إذا قطعته. وقال أبو عبيدة في قوله عز وجل: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨] أي غير منتقص، وقال مرة: غير منقطع.

دج: بقي مقلوب هذه اللفظة دج، الدجة: الظلمة، وليل دجوج وديجوج، وشعر دجوجي وليلة دجداجة، والمدجج: الفارس المتدجج في شكيمته، والدجاجة معروفة، والدجاجان: الدبيب، وهو يدج على الأرض دجاً إذا مشى رويداً في تقارب خطو، ومنه قولهم: أقبل الحاج والداج، فالحاج الذين يحجون، والداج الذين يدبون في آثار الحاج من التجار وغيرهم.

وفي كلام بعضهم: أما وحواجّ بيت الله ودواجّه لأفعلن كذا وكذا. وقال ابن عمر رضي الله عنه ـ وقد رأى قوماً في حج لهم هيئة أنكرها ـ قال: هؤلاء الدّاجّ! فأين الحاجّ؟!.

قال الخطابي: قال أبو عمر، قال ثعلب: يقال لهم: الحاجّ والداجّ والناجّ، فأما الحاجّ فهم أصحاب النيات، والداجّ: الأتباع، والناجّ: المراؤون.

قال الخطابي: أنشدني بعضهم:

عصابة إن حج موسى حجوا ... وإن أقام بالعراق دجوا

ما هكذا يكون الحج

يريد: موسى بن عيسى الهاشمي، وقد يقال في هذا: حاجة وداجة. ومنه حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال له رجل: ما تركت من حاجة ولا داجة إلا أتيتها، فقال له: أليس تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟. قال: نعم، قال: فإن الله قد غفر لك كل حاجة وداجة. قال الخطابي: هكذا رواه ابن قتيبة بالتخفيف، وفسره فقال: أراد لم يدع شيئاً دعته نفسه إليه من المعاصي إلا ركبه. قال: وداجة: اتباع، كقولهم: شيطان ليطان وأخواتها. قال الخطابي: وقد روي هذا الحرف من غير هذا الطريق مثقلاً، وفسر

على غير هذا المعنى أن الرجل قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها وهو مع ذلك لا يترك حاجة ولا داجة إلا قطعها بيمينه هل له من توبة؟ قال: هل أسلمت؟ قال: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، قال: فاعمل الخيرات بين الشرات يجعلهنّ الله لـم خيرات. قال: رواه محمد بن إسحاق بن خزيمة عن أبي نشيط عن أبي المغيرة قال: سمعت مبشر بن عبيد الله يقول: الحاجة الحجاج إذا أقبلوا، والداجة: إذا رجعوا. وقال غيره: الحاجة: القاصدون إلى البيت، والداجة: من كان في ضمنهم من مكار وتاجر.

خدّ: ومن شكل جد خد، وهو معروف، وهما خدّان يكتنفان الأنف عن يمين وشمال، وفيه مسيل الدمع، والجمع خدود، والخدّ والأخدود: شقّان في الأرض مستطيلان غامضان، كذا فسره أبو عبيد في قوله عز وجل: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾ [البروج: ٤]، والله أعلم. وقد قيل للخدّ في الأرض: خدّة وخدود، والمخدّة مفعلة لأن الخدّ يوضع عليها، والمخدّة أيضاً حديدة يخدّ بها الأرض، والمصدر فيهما خدّ، تقول: خددت أخدّ خداً، وتخدُّد اللحم: ذهابه من الهزال، يقال: رجل متخدّد، ومنه قول الشاعر:

يا من لشيخ قد تخدّد لحمه ....

وسيأتي بكماله في باب الفاء إن شاء الله.

ومقلوب هذه اللفظة؛ دخ: لغة في الدخان، قال الشاعر:

لا خير في الشيخ إذا ما اجلخا وسال غرب عينه فلخا

تحت رواق البيت يغشى الدخا

ومعنى لخ: سال وجرى. وسيأتي في مقلوب خل في بابه إن شاء الله.

وجاء من هذا في حديث النبي صلى الله عليه وسلم في قصة ابن صياد: إني قد خبأت لك خبأ، قال: فما هو؟ قال: دخ، فزجره النبي صلى الله عليه وسلم، وسيأتي أيضاً إن شاء الله. وقد ألحق هذا الفعل بالرباعي فقالوا: دخدخه، بمعنى ذلله ووطأه، والدخدخة: مشتقة من الدوخ، يقال: دخدخناهم ودوّخناهم. ومن شكل خد خذ، أمر من أخذ وهو مفهوم.

حدّ وما تصرف منه: ومن شكل جد: حد؛ فصل ما بين الشيئين، ودار فلان حديدة دارك، أي: تحاذها، وحدّ كل شيء: طرفه، وحددت الرجل: منعته، ورجل محدود عن الخير: ضدّ مجدود، والحداد: البواب، والمحدود: الذي ضرب الحدّ، ويقال: ما لك عن هذا الأمر محيد ولا حدد؛ أي: معدل، وأحددت الحديدة، واستحدّ

الرجل: إذا حلق شعره بالحديد. ومنه الاستحداد الذي ورد في الحديث: وتستحدّ المغيبة. وحدّان: حيّ من الأزد. ومن الجمهرة: حدّ السكين وغيره معروف، تقول: حددته أحدّه حداً، وحدّ الرجل عن الشيء: صرفه عنه، ومنه: فلان محدود، أي: مصروف عن الخير، ورجل حدّ: إذا كان محدوداً، وأصل الحدّ: المنع، ومنه الحدّ بين الشيئين: الفرق بينهما لئلا يتعدّى أحدهما على الآخر. ويقال: حدّه عن كذا وكذا، أي منعه، وبه سمي السجان حدّاداً لمنعه عن الحركة، قال الشاعر:

يقول لي الحداد وهو يقودني إلى السجن لا تجزع فما بك من باس

وسمى الأعشى الخمار حدّاداً لأنه حبس الخمر عنه، فقال:

فقمنا ولما يصح ديكنا إلى خمرة عند حدّادها

وحدّت المرأة وأحدّت فهي محدّ وحادّ: إذا تركت الطيب والزينة بعد زوجها، وأبى الأصمعي إلا أحدّت فهي محدّ، ولم يعرف حدّت.

وقال أبو عبيدة: لغة النبي صلى الله عليه وسلم تحدّ، ويقال: هذا أمر حدد، أي ممتنع، وقالوا: دعوة حدد، أي مردودة لا تجاب. وبنو حداد: بطن من طيئ، وحدّان من بني سعد، وحدّان من الأزد.

دح: ومعكوسه: دح، بمعنى: بسط ووسع، وفي التنزيل: ﴿ دَحَىٰهَآ ﴾ [النازعات: ٣٠] أي: بسطها. وذكر الخطابي من حديث عطاء رحمه الله أنه قال: بلغني أن الأرض دحيت دحياً من تحت الكعبة، وفسره الخطابي: دحيت: بسطت ووسعت، ويقال: دححت الشيء: إذا وسعته. وبنى فلان بيته فدحاه، أي وسعه، وأصله دحه، كقولك: لباه، وأصله لببه، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ١٠]، قالوا: الأصل دسسها. انتهى كلامه.

ويقال: دح في قفاه يدح دحاً ودحوحاً، مثل دع سواء، وفي القرآن: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطور: ١٣] بمعنى: يدفعون، والدح: شبه الدس، ومن مضاعفه: دحدح، ومعكوسه: حدحد، وهو الرجل الغليظ القصير، ويقال فيه أيضاً: دحداح ودحداحة، وفي الصحابة رضي الله عنهن أبو الدحداح الأنصاري، وله خبر عجيب، والدحندح؛ بالكسر: دويبة قاله صاحب العين.

ومن شكله حذ الشيء يحذه حذاً، إذا قطعه قطعاً سريعاً، والحذة: القطعة من اللحم، وهي الفلذة، وقال الشاعر:

تكفيه حذة فلذات ألمّ بها من الشوا ويروّي شربه الغمر

ويروى: حدة، وقد تقدّم. والحذّ أيضاً الناقة السريعة، ويقال: حذاء أيضاً، والحذ: خفة وسرعة، ويقال: قطاة حذاء سريعة الطيران. وفي خطبة عتبة بن غزوان: إن الدنيا قد أدبرت حذاء، أي: سريعة الإدبار. وقالوا: قطاة حذاء، قليلة ريش الذنب. وقال صاحب العين: والحذاء: اليمين المنكرة التي يقطع بها حق صاحبه، والأحذ: الماضي بين الحذذ، والأحذ اسم لضرب من الشعر.

فصل من الفوائد

ذكر الفوائد: تقدّم في الحديث: وجدّة الأحلاس. يعني: جديد هذا النوع من الثياب، ويكنى به عن صحة الجسم وشبابه وقوّته قبل أن يأخذ في البلاء والضعف وانحطاط الجسم والعجز عن العمل، والله أعلم بما أراد من ذلك. وفي الحديث: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استجدّ ثوباً سماه باسمه، إما قميصاً أو عمامة، ثم يقول: اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه، أسألك من خيره ومن خير ما صنع له، وأعوذ بك من شرّه وشرّ ما صنع له. وقال أبو نضرة: وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لبس أحدهم ثوباً جديداً قيل له: تبلي ويخلف الله عليك. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأم خالد بن سعيد وكان عليها قميص أصفر: أبلي وأخلقي ثم أبلي وأخلقي ثم أبلي وأخلقي. ولبس عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً ثوباً جديداً فقال: الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي وأتجمّل به في حياتي، ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من لبس ثوباً جديداً فقال: الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي وأتجمّل به في حياتي، ثم عمد إلى الذي أخلق أو قال: الذي ألقى، فتصدّق به؛ كان في حفظ الله وفي كنف الله وفي ستر الله حياً وميتاً.

فصل:

مبحث الخال:

تقدّم ذكر الأب والجدّ والعم، بقي الخال أخو الأم والخالة أختها. يقال: خال بين الخؤولة، وكان للنبي صلى الله عليه وسلم خال اسمه عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة. وقال عليه السلام: الخال وارث من لا وارث له. وسميت الخالة أماً، وكذا قيل في قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [يوسف: ١٠٠] أبوه وخالته لأنّ أمّه كانت قد ماتت، وقد تقدّم.

وأزيدك فائدة، أروي عن الحافظ السلفي رحمه الله فيما أذن له فيه: أتى رجل فقال: يا رسول الله إني أصبت ذنباً كبيراً فهل لي من توبة؟. قال: فقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم: هل لك والدان؟. قال: لا. قال: فلك خالة؟. قال: نعم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فبرّها إذاً. وتقول العرب للرجل الشريف: مخول معم.

ولي في هذا المعنى من شعر مطوّل:

مخـــول فـــي عـــشيرته معـــم ....

انظره في التكميل.

ولما قتل الزبير بن العوّام ياسر اليهودي يوم خيبر مبارزة؛ قام إليه النبي صلى الله عليه وسلم فاعتنقه وقبّل بين عينيه وقال: فدا لك عم وخال. وقد يفتخر بالخال إذا كان أشرف من الأب، كما يقولون في مثل هذا: من أبوك يا بغل؟. قال: خالي الفرس. قال الشاعر:

يــا رب خــال لــي أغــر أبلجــا مــن آل كــسرى يفــتدي مــتوّجا

وكان عبد الرحمن بن حسان يفتخر لأنه ابن خالة إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد تقدّم. وذكر صاحب العين هذه اللفظة على أنواع فقال: الخال الخيلاء، يقال: خال الرجل يخول، واختال يختال، ويقال: فلان خال وخائل ومختال، مفتعل منه، وفي التنزيل: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد: ٢٣]، وجمع الخائل خالة، كبائع وباعة، وصائغ وصاغة، قال الشاعر:

أودى الشباب وحب الخالة الخلبه وقـد بـرئت فمـا للقلـب مـن قلبه

من رواه: (الخلِبة) بكسر اللام، فإنه أراد: الخدّاعة من النساء. ومن روى: (الخلَبة) بفتح اللام، فجمع الخالب. ويقال في الخيلاء: مخيلة أيضاً، ومنه قول ابن عباس رضي الله عنهما: كل ما شئت إذا أخطأتك خلتان: شرف أو مخيلة. ويقال: فلان ذو خال، أي ذو مخيلة، وأنشد:

فــإن كــنت ســيدنا ســدتنا وإن كـنت للخـال فاذهـب فخـل

ومن الخيلاء قول طلحة لعمر رضي الله عنهما حين استشار في جموع الأعاجم: أنت وليّ ما وليت من لا ينبو في يديك ولا يخول عليك، خرّجه ابن قتيبة. والتخوّل: التعهد. وفي الحديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوّلنا بالموعظة مخافة السآمة علينا. وكان الأصمعي يقول: يتخوّلنا، أي يتعهدنا.

ومما هو على شكله قولك: خال الرجل، أمر من قولك: خاليته، إذا فارقته. ومنه قولهم للمرأة: أنت مني خلية، ومنه قول الشاعر:

قالــت بــنو عامــر خالــوا بنــي أســد

ويقال: خال الرجل الشيء: إذا ظنه. وفي المثل: من يسمع يخل. تقول: خلت

إخال؛ بكسر الألف وهو الأصح، وبنو أسد تقول: أخال؛ بالفتح؛ وهو: القايس. وخال الراعي يخول خولاً: إذا حفظ، والخوليّ والخائل: الراعي، والخال: اللواء، كالظلع في الدابة، والخال: سحابة تنشأ يخيل لك أنها ماطرة، وهي: المخيلة، يقال: تخيلت السماء: إذا نشأ بها ذلك، وجمعها: مخايل، وقد يقال للسحاب: الخال، فإذا أرادوا السحابة قالوا: مخيلة؛ بالفتح؛ قاله أبو عبيد. وفي الحديث من هذا: أنه عليه السلام كان إذا تخيلت السماء تغيّر لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سري عنه. خرّجه مسلم من طريق عائشة رضي الله عنها. وفي غيره: إذا رأى مخيلة، والخال أيضاً: جبل ببلاد غطفان، وقال امرؤ القيس:

ديار لسلمى عافيات بذي خال

والخال أيضاً: برود حمر فيها خطوط سود، وهي من رفيع الثياب، وقال امرؤ القيس:

وشي البرود من الخال

وقال أنس بن سليم:

وأعطي لثوب الخال قبل ابتذاله

انظره في السير. وقال الشماخ:

وبردان من خال وسبعون درهماً

وقالت عفيرة: فجاؤوا متفضلين في الخال والنعال، في حكاية حسنة ستأتي إن شاء الله تعالى. والخال: الرجل السمح، وفلان مخيل للخير؛ أي: خليق به، والخال: شامة سوداء، والجمع: خيلان. وفي الحديث في صفة موسى عليه السلام: كثير خيلان الوجه. وجاء في التفسير في قوله تعالى: ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴾ [طه: ٢٧-٢٨] كان على طرف لسانه شامة، وهي العقدة التي حلها الله له، وكان على أرنبته أيضاً شامة، وكان في جبهة أخيه هارون شامة صلى الله عليهما وسلم. ويقال: رجل أخيل: إذا كان كثير الخيلان، وكذلك مخيل ومخيول مثل: مكيل ومكيول، ويقال أيضاً: مخول، مثل مقول، وتصغير الخال خييل؛ فيمن قال مخيل، ومن قال: مخول قال: خويل. وجمع الشامة شام وشامات، ورجل مشيم مثل مكيل، والأشيم: الذي له شامة، والجمع شيم، والمرأة شيماء، وألف الخال منقلبة عن واو لأنهم قالوا: جاء القوم أخول أخول، إذا جاؤوا متفرّقين كأنهم لزهوهم واختيالهم كرهوا أن يجيئوا مجتمعين.

معاني الْخال :

وقد جمع أبو محمد عبد الله بن السيد البطليوسي رحمه الله الخال في شعر له بعد أن ذكر الخال كذا والخال كذا نحو ما تقدّم. ثم قال: والخال لفظة مشتركة تتصرف على معان كثيرة، وقد وجدت ثعلب والمفضل وابن مقسم قد أنشدوا ثلاثة عشر بيتاً آخر كل بيت منها خال بغير معنى الآخر، ورأيت قائلها وقد أغفل ألفاظاً أخر كان ينبغي أن تضم إليها؛ فزدت فيها أبياتاً ضمنتها ما لم يذكره الشاعر بلغت اثنين وعشرين بيتاً. وفي الروايات اختلاف ذكرت منها ما وقع عليه الاستحسان، وهي:

أتعرف أطلالاً شجونك بالْخال ... وعيشاً غزيراً كان في العصر الْخالي
ليالي ريعان الشباب مسلط ... عليّ بعصيان الإمارة والْخال
وإذ أنا خدن للغويّ أخي الصبا ... وللغزل الْمرّيح ذي اللهو والْخال
وللخود تصطاد الرجال بفاحم ... وخدّا أسيل كالوذيلة ذي الْخال
إذا رئمت ربعاً رئمت رباعها ... كما رئم الْميثار ذو الريبة الْخال
زمان أفدّي من يروح إلى الصبا ... بعمى من فرط الصبابة والْخال
وقد علمت أني وإن ملت للصبا ... إذا القوم كفوا لست بالرعش الْخال
ولا أرتدي إلا الْمروءة حلة ... إذا ضن بعض القوم بالعصب والْخال
وإني إذا نادى الصريخ أجبته ... على سابح عبل الشوى أو على خال
إذا قطعت عنس وذم خلاؤها ... فما هو بالواني القطوف ولا الْخال
وإنا لنقفي الْخيل دون عيالنا ... فمن غابق طرفاً بمحض ومن خال
جياد تباري العاصفات ولا يرى ... بها من لجان يستبين ولا خال
وإني لَجاد للكماة إلى العلا ... ولست بجاد للعروج ولا خال
وإني لَخلو للصديق مرزأ ... ولست بخيس في الرجال ولا خال
وإن ضن خال الْمزن يوماً بنيله ... فإنّ ندى كفيّ مغن عن الْخال
نهاني إلى العلياء كل سميدع ... تراه إذا حلت حبا القوم كالْخال
حوينا جميع الْمجد جوداً ونَجدة ... فما شئت من ليث هصور ومن خال
وما أبصرت عين لنا قط سيداً ... على حدج يزجي إلى الرمس بالْخال
فحالف بحلفي كل قرن مهذب ... وإلا تُحالفني فخال إذا خال
وما زلت حلفاً للسماحة والعلى ... كما احتلفت عبس وذبيان بالْخال
وثالثنا في الْحلف كل مهند ... لَما ريم من صلب العظام به خال
حرام عليك الدهر خدع سراتنا ... فلاقهم في مجمع القوم أو خال

وهذا تفسير ما مرّ من هذه الألفاظ على توالي الأبيات: الخال: اسم موضع، والعصر الخالي: الماضي. وفي البيت الثاني: اللواء: الذي يعقد للأمير، وقال بعضهم: لا يقال له خال حتى يكون أبيض. والخال في البيت الثالث: التكبر والخيلاء، قال الشاعر:

فـإن كـنـت سـيـدنـا سـدتـنـا وإن كـنـت للخـال فـاذهـب فـخـل

والمرّيح: الكثير المراح والنشاط، وقوله: كالوذيلة ذي الخال، الخال هنا النكتة السوداء، والوذيلة: القطعة من الفضة. وقوله: ذي الريبة الخال، الخال هاهنا منقوص، على مثال القاضي، وهو الذي لا أهل له، فهو يتبع المواضع التي لا أحد فيها للرّيب والفجور. وقوله: من فرط الصبابة والخال، الخال هاهنا: أخو الأم. وقوله: بالرعش الخال، هذا أيضاً منقوص على مثال القاضي، وهو الجبان. وقوله: بالعصب والخال، هما نوعان من الثياب تصنع باليمن، قال امرؤ القيس

وشـي الـبـرود مـن الـخـال

وقد قيل: إن الخال في بيت امرئ القيس: موضع باليمن تصنع فيه هذه الثياب. وقوله: على سابح عبل الشوى أو على خال، الخال هاهنا: البعير الضخم. وقوله: فما هو بالواني القطوف ولا الخال، الخال هنا: اسم فاعل من خلأ البعير إذا حزن، خففت همزته، وكان الأصمعي يزعم أن الخلا لا يكون إلا في الناقة وأما الجمل فإنه يقال فيه: ألح الجمل ولا يقال: خلأ. وقوله: فمن غابق طرفاً بمحض ومن خال، هو اسم فاعل منقوص من قولك: خليت الخلي، إذا قطعته، وخليت الدابة، إذا أطعمتها الخلى وهو رطب النبات. وقوله: لجان يستبين ولا خال، الخال: ظلع يعترض الدابة، واللجان: البطء في المشي. وقوله: ولست بجاد للعروج ولا خال، من قولهم: هو خال مال، أو خائل مال، إذا كان يرعى الإبل ويحسن القيام عليها. وقوله: ولست بخيس في الرجال ولا خال، الخيس: الخسيس، والخال منقوص: الذي لا يعنى بأمر ولا يهتبل به ويخلد إلى الراحة. وقوله: مغن عن الخال: يعني خال السحاب. وقوله: إذا حلت حبا القوم كالخال: هو الجبل الضخم، كذا قال ثعلب، وقال ابن دريد: الخال الأكمة الصغيرة. وقوله: فما شئت من ليث هصور ومن خال، الخال هنا: الرجل الجواد شبه بخال السحاب. وقوله: يزجي إلى الرمس بالخال، الخال هنا: ثوب يسجى به الميت، يريد أنهم إنما يموتون في الحرب لا على فرشهم. وقوله: فخال إذا خال، هذا فعل أمر من قولهم: خاليته، إذا تركته وتخليت عنه، كما قال النابغة:

قـالـت بـنـو عـامـر خـالـوا بـنـي أسـد

وقوله: عبس وذبيان بالخال، هذا موضع غير الموضع الذي ذكره امرؤ القيس في قوله:

.... عافـــيات بـــذي خـــال

ولذلك كرر في موضعين. وقوله: لما ريم من صلب العظام به خال، أي: قاطع، وأصله من قطع الخلي من النبت، ثم يستعار في غير ذلك، فلذلك ذكر في موضعين. وقوله في آخر الشعر: أو خال من قولك: خاليت الرجل مخالاة وخلاء، إذا انفردت به على خلوة، ومنه قول الشاعر:

أبيت مع الحدّاث ليلي فلم أبن ... فأخليت فاستعجفت عند خلائي

وروي بكسر الخاء وفتحها. انتهى كلامه رحمه الله.

فصل من الفوائد

ذكر الخيلاء:

تقدّم في الحديث: أن من الخيلاء ما يبغض الله ومنها ما يحب، فأما الخيلاء التي يحب الله فاختيال الرجل بنفسه عند القتال واختياله عند الصدقة، وأما التي يبغض الله فاختياله في البغي والفخر. فمن المخيلة ما خرّج الترمذي رحمه الله عن أسماء بنت عميس الخثعمية قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: بئس العبد عبد تخيل واختال ونسي الكبير المتعال، بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسي الجبار الأعلى، بئس العبد عبد سها ولها ونسي المقابر والبلى، بئس العبد عبد عتى وطغى ونسي المبتدأ والمنتهى، بئس العبد عبد هوى يضله، بئس العبد عبد رغب يذله. ومن المخيلة ما خرّج أبو داود عن جابر بن سليم قال: رأيت رجلاً يصدر الناس عن رأيه لا يقول شيئاً إلا صدروا عنه، قلت: من هذا؟. قالوا: رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال قلت: عليك السلام يا رسول الله، مرتين، قال: لا تقل عليك السلام فإن عليك السلام تحية الميت، قلت: السلام عليك. وذكر الحديث وفيه: قلت: اعهد إلي قال: لا تسبنّ أحداً، قال: فما سببت بعده حراً ولا عبداً ولا بعيراً ولا شاة، قال: ولا تحقرن من المعروف شيئاً، وأن تكلم أخاك وأنت منبسط إليه وجهك إن ذلك من المعروف، وارفع إزارك إلى نصف الساق فإن أبيت فإلى الكعبين، وإياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة، وإن امرؤ شتمك وعيّرك بما يعلم فيك فلا تشتمه ولا تعيّره بما تعلم فيه فإنما وبال ذلك عليه. وقال النسائي: يكون أجر ذلك لك ووباله عليه.

هذا الحديث فيه فوائد يجب على الموفق استعمالها، ذكر فيها التعيير بالتعبير ورجوع المقال على من قال والبغي على من بغى، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: لو سخرت من شيء لخشيت محاره، معناه: يرجع كهيئته، خرّجه ثابت، قال: ومنه قولهم: لا تسخر من شيء فيحور بك. وقال بعضهم: إني لأرى الرجل يعمل العمل فأكرهه فما يمنعني أن أعيبه إلا مخافة أن أبتلى به، والبلاء موكل بالقول. وخرّج الترمذي رحمه الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من عيّر أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله، قيل: من ذنب قد تاب منه.

الحور والكور :

ومنه قوله في الحديث: محاره، وفيحور بك: يرجع مثله. وفي القرآن: ﴿ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ [الانشقاق: ١٤]، ومنه الدعاء: ونعوذ بك من الحور بعد الكور، ويروى: بعد الكون. يقال: حار بعد ما كان، أي: رجع عن حالة صالحة كان عليها، ومن قال: بعد الكور، فهو من كور العمامة، أي إنها تنتقض وترجع عن حالتها الأولى سريعاً، والله أعلم. وفي المثل: حور في محارة، أي نقصان في نقصان، يقال: حور وحور، يضرب للرجل إذا كان أمره مدبراً، قال الشاعر:

والذم يبقى وزاد القوم في حور

أي: في نقصان، وقال لبيد:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ... يحور رماداً بعد إذ هو ساطع

وفي هذا الشعر:

وما الناس إلا كالديار وأهلها ... بها يوم حلوها وغدوا بلاقع

أراد: غداً لأن أصل غد غدو فجاء به على أصله، والغدوة: ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس والغدوّ: نقيض الرواح، قاله جمع. تقدّم قول الشماخ:

وبردان من خال وسبعون درهماً

وآخر البيت

على ذاك مقروظ من القدّ ماعز

ويروى: من الجلد. قوله: على ذاك، أي ضمت على الدراهم، والبردين: عية مقروظة، أي مدبوغة بالقرظ، وهو من أنفس الدباغ وأطيبه رائحة. وفي الحديث من هذا: أتى من اليمن بذهبية في أديم مقروظ، ومن القرظ قول الشاعر

وحتى يؤوب القارظان كلاهما

وكانا رجلين ذهبا يلتمسان القرظ فهلكا ولم يسمع لهما خبر، فضرب بهما المثل. كما قيل: حتى يشيب الغراب، يأساً من الشيء المذكور، وسيأتي ذكر النعال المدبوغة بالقرظ في باب الراء إن شاء الله. وقوله: ماعز، هو الشديد، يقال: فلان ماعز من الرجال، إذا كان شديد الأمر، وماعزة من النساء، ويقال: ما أمعزه من رجل، أي ما أشدّه وأطيبه. ومن الماعزة حديث نجبة بن ربيعة إذ جاءه الحارث بن عوف فقال له: إنا متحبون فجئت لتمنحني وتنكحني، فقال: يا أم فلان أعندك امرأة للحارث بن عوف؟ فإنما امرأة الحارث بن عوف المؤدمة المبشرة الماعزة المقروظة، قالت: عندي جارية من خير نساء، قال: من هي؟ قالت: قرصافة بنت نجبة، قال: قد زوّجته فادفعها إليه، قالت: واكربها ما خطبت خطباً إنما سفرت سفراً كما تنكح الإماء، قال: ادفعها إليه، ثم دفع إليه أربعين حلوباً، وقال: احتلب هذه حتى تخصب واتق الله. وقوله: المؤدمة المبشرة، فإنه يقال للرجل الكامل: إنه لمؤدم مبشر، أي جمع شدّة وليناً، وذلك أنه جمع لين الأدمة، وهو باطن الجلد، وخشونة البشرة، وهو ظاهره الذي ينبت فيه الشعر. ويقال في المثل: إنما يعاتب الأديم ذو البشرة، أي يعاد في الدباغ، يقول: إنما يكلم من يرجى خيره ومن به شدّة أو قوّة أو مسكة، فيقال من هذا: امرأة فلان المؤدمة المبشرة، يراد أنها تامّة في كل وجه.

قصة طسم وجديس :

تقدّم قول عفيرة: فجاؤوا متفضلين في الخال والنعال، وكان حديثها وهي عفيرة بنت عفار، وقيل اسمها الشموس أخت الأسود بن عفار، وكان سيداً في جديس أنه كان قد ملكهم وغلب عليهم رجل من طسم يقال له عملوق، وكان ظلوماً غشوماً لا ينهاه شيء عن هواه، فبلغ من ظلمه وعتوّه أنه لا تتزوّج في جديس بكر حتى تحمل إليه فيعتذرها، وبعد ذلك تحمل إلى زوجها، فلما تزوّجت الشموس وهي عفيرة المذكورة وكانت ليلة هدائها، حملت إلى عملوق ليطأها ومعها القيان يغنين ويقلن:

إبدي بعملوق وقومي فاركبي ... وبادري الصبح بأمر معجب
فما لبكر بعدكم من مذهب

فلما حملت إليه وافتضها، خرجت على قومها في دمائها شاقة جيب قميصها عن قبلها ودبرها، وهي تقول:

لا أحد أذل من جديس ... أهكذا يفعل بالعروس

وأبت أن تمضي إلى زوجها، وقالت تحرّض قومها:

أيصلح ما يؤتى إلى فتياتكم ... وأنتم رجال فيكم عدد النمل

فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه فكونوا نساء لا تفر من الفحل
ودونكم طيب العروس فإنّما خلقتم لأثواب العروس وللكحل
فلو أننا كنا الرجال وكنتم نساء لكنّا لا نقرّ على الذل

فلما سمعت جديس قولها أنفت وغضبت واجتمعت إلى الأسود بن عفار، فأجمعوا أن يصنع طعاماً لعملوق وأصحابه فيدعوهم إليه، فإذا جاؤوا متفضلين في الخال والنعال نهضوا إليهم بأسيافهم فأتوا عليهم، فقالت عفيرة لأخيها: الغدر عار وعاقبته بوار، صبحوا القوم في ديارهم تظفروا أو تموتوا كراماً، فقالوا: المكر أمكن من نواصيهم، فنفذوا لمذهبهم واصطنعوا طعامهم واخترطوا سيوفهم ودفنوها في الرمل، فلما توافى القوم أتوا عليهم جميعاً، وأفلت منهم رجل فاستعدى عليهم بعض الملوك فأتاهم فاجتاحهم، فصاروا مثلاً. ولي من لفظ الخال ما قلت من مكفرة لزومية:

تظل من كل شيء خال إلا بذكر ذوات الخال

الخال الأول: من الخلاء، والثاني من الخيلاء، وفي هذه المفكرة من هذا التجنيس كثير منها:

كم من غني وكم من وال أمسى وما إن له من وال

وفيها:

هل ثم شيء من الأقوال أقوى من الذكر أو أقوالي

ومنها:

هل صوت ذي نغمة قتال في قلب ذي لوعة كالتالي

في أبيات كثيرة من هذا النوع، انظره بكماله في التكميل.

وتقدّم ذكر الخال التي هي الشامة، وجاء من الشامة في الحديث ما خرّج ثابت في الدلائل: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة فبعث عائشة تنظر إليها، فجاءت فقالت: يا رسول الله ما رأيت طائلاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد رأيت بخدّها خالاً اقشعرت كل شعرة منك، فقالت: يا رسول الله ما دونك ستر. قال ثابت: الاقشعرار من القشعريرة وهو انتفاش الشعر وقيامه. ومنه حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما اقشعرّ جلد عبد من خشية الله إلا تحاتت خطاياه كما يتحات ورق شجرة يابسة أصابتها ريح شديدة.

وإذ وقعنا في ذكر الشامة فلنذكر حديثاً خرّجه أبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إنكم قادمون على إخوانكم فأصلحوا رحالكم وأصلحوا لباسكم حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس. وفي حديث سيف بن ذي يزن في صفة النبي صلى الله

عليه وسلم: بين كتفيه شامة، وقد تقدّم.

ذكر البياض والسواد :

ومن الخال أيضاً فصل للفقيه أبي محمد عبد الوهاب رضي الله عنه وسببه أنا اجتمعنا ذات يوم ولم يكن حاضراً، فذكرنا السودان والبيضان، فكان في الطلبة من رأى بزعمه أن له الغلبة، ففضل الجواري على البيض، وأراد النهوض بجناح مهيض، واستشهد بقول الشاعر:

لام العواذل في سوداء حلكاء كأنها لسواد الليل تمثال
وهام بالخال أقوام وما علموا أني أهيم بشخص له خال

إلى آخر الفصل، وهو طويل نبيل، انظره بكماله في التكميل. ففضل فيه الأبيض على الأسود وحكم لعمر بالأجود.

وإذ وقعنا في ذكر السوداء والبيضاء فلنذكر فيه فصلاً أيضاً. جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: بادروا بموتاكم ملائكة الليل فإنهم أرأف من ملائكة الليل. وجاء في البياض عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله خلق الجنة بيضاء وإن أحبّ الزيّ إلى الله تعالى البياض فليلبسه أحياؤكم وكفنوا فيه موتاكم، ثم جمع الرعاء فقال: من كان منكم ذا غنك سود فليخلطها ببيض. وذكر ثابت في الدلائل من هذا المعنى كراهية السواد، قال من ذلك أن العرب لا تكاد تصف السواد إلا في موضع المناكرة والمنافرة، تقول: كلمته فما ردّ عليّ سوداء ولا بيضاء، أي كلمة حسنة ولا سيئة. وفي الحديث: كان رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقال له أسود، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبيض، قال: وإن احتج محتج بقول الشاعر:

آليت لا أعطي غلاماً أبداً دلالة إني أحب الأسودا

قيل له: إن الأسود هنا اسم ابن كان له. وقوله: دلالة، أي نحلة ونصيباً من ودّي. قلت: وليس ينكر حب الولد وإن كان أسود، ألم تسمع قول الشاعر:

أراد عراراً بالهوان ومن يرد عراراً لعمري بالهوان فقد ظلم
وإن عراراً إن يكن غير واضح فإني أحب الجون ذا المنكب العمم

ووقع في الأغاني:

يديرونني عن سالم وأديرهم وجلدة بين العين والأنف سالم

وسالم هذا هو ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما. قال ابن الهندي في وثائقه: وكان أسود حسن الصبغة، وكان يلبس العباءة بنحو الدرهمين. وقال ابن

قتيبة في المعارف: كان سالم من خيار المسلمين وفقهائهم يكنى أبا عمرو. وقال الواقدي: أبا المنذر، وكان أبوه يلام في حبه فيقول البيت. وقال البكري في اللآلي: اختلف في قائل هذا البيت، فقال قوم: أبو الأسود الدؤلي يقوله في غلام له اسمه سالم:

يديرونني عن سالم وأديرهم

البيت، وبعده:

ولو بان من ملكي لبت مسهداً ونبهان عما بي من الشجو نائم

ونبهان جار لأبي الأسود كان يديره على بيعه ثم مات سالم، فقال أبو الأسود الشعر. وقال ابن الكلبي: إن البيت لعبد الله بن معاوية الفزاري يقوله في ابنه الأشيم واسمه سالم، قال الخطابي بسنده إلى سعيد بن المسيب قال: قال لي عبد الله بن عمر: هل تدري لم سكيت ابني سالماً؟. فقلت: لا. قال: باسم سالم مولى أبي حذيفة. قال: هل تدري لم سميت ابني واقداً؟. قلت: لا. قال: باسم واقد بن عبد الله اليربوعي. قال: هل تدري لم سميت ابني عبد الله؟. قال: قلت: لا. قال: باسم عبد الله بن رواحة رضي الله عنهم.

وممن كان أسود عبادة بن الصامت وسعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح وغيرهم رضي الله عنهم. وقال عبادة للمقوقس حين دخل عليه فهابه المقوقس، فقال له عبادة: إن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل أسود لو رأيتهم كنت أهيب لهم، وقد تقدّم قول الأخضر وهو بلونه يفخر، وهو الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب بن عبد المطلب:

وأنا الأخضر من يعرفني أخضر الجلدة في بيت العرب

وفي معنى هذا الشعر:

من يساجلني يساجل ماجداً يَملأ الدلو إلى عقد الكرب

ولما سمعه الفرزدق وكان شريفاً في قومه أيضاً نضى ثيابه وقال: أنا أساجلك، فلما انتسب له وتبيّن أنه من ولد عبد المطلب لبس ثيابه وقال: والله لا يساجلك إلا من عض بذكر أبيه.

وكان الفضل هذا أحد شعراء بني هاشم وفصحائهم، وكان شديد الأدمة، وهو هاشمي الأبوين، وإنما أتته الأدمة من قبل جدّته وكانت حبشية. ومن أحسن ما اعتذر به الجون الأسود اللون قول نصيب:

كسيت ولم أملك سواداً وتَحته قميص من القوهيّ بيض بنائقه

والقوهية: ثياب بيض، وكذلك قيل جسم قوهي، قال الشاعر:

وذات خـــد مـــورّد قوهـــية المتجـــرّد

ويقال: عيش قاه، أي مخصب ناعم. ولأبي الطيب:

إنّما الجلـد ملـبس وابيـضاض الـ ـجلـد خيـر مـن ابيـضاض العـباء

وفي النوادر لعبد بني الحسحاس:

أشعار عبد بني الحسحاس قمن له عـند الفخـار مقـام الأصـل والـورق

إن كـنت عـبداً فنفـسي حـرة كـرماً أو أسـود اللـون إنـي أبـيض الخلـق

اسم هذا العبد سحيم، وكان حبشياً أعجمي اللسان، ومولاه جندل من بني الحسحاس، فباعه فاشتراه عبد الله بن أبي ربيعة، وكتب إلى عثمان رضي الله عنه: إني قد ابتعت لك غلاماً شاعراً فكتب إليه عثمان: لا حاجة لي به فاردده، فإنما قصارى أهل العبد الشاعر إن شبع أن يشبب بنسائهم، وإن جاع أن يهجوهم، فردّه عبد الله فاشتراه أبو معبد، فكان كما قال عثمان، شبب بابنته عميرة وفحش وشهرها، فحرقه بالنار.

ذكر العشاق والفساق :

ومن ملح هذا الفصل وفيه ذكر التحلي بالعشق والتخلي من الفسق، كان في شعر العبد سحيم الأسود الذي شبب فيه بابنة أبي معبد:

توسـدني كفـاً وتثنـي بمعـصـم علـيّ وتحـنو رجلهـا مـن ورائـيا

قلت: حق للعاهر الأخرق إذا أحصن أن يرجم إن لم يحرق. ثم هذا العبد الأحمق لا يخلو أن يكذب أو يصدق، فإن صدق فقد عهر وشهر، وإن كذب فقد فخر وفجر وابتأر وابتهر. وفي الحديث: الابتهار بالذنب أعظم من ركوبه، والعاقل يستتر ويستحيي من ذكر ذنوبه. ثم العشاق لا الفساق إلى هلم جراً إذا خلا أحدهم بمعشوقه لم يضرب زيد عمراً، بل يقنع بالشكوى وذكر حديث البلوى. كما يروى أن أعرابياً قيل له وقد كان طال عشقه بجارية: ما كنت صانعاً لو ظفرت بها ولا يراكما غير الله؟ قال: إذاً والله لا أجعله أهون الناظرين، كنت أفعل ما أفعله بحضرة أهلها، شكوى وحديث عذب، وأعرض عما يسخط الرب. وقال آخر: كنت أطيع الحب في لثمها وأعصي الشيطان في إثمها.

وأما العشاق الفساق فأكثر ما ينشدون:

رأيـت الحـب لـيس لـه دواء سـوى وضـع الـبطون علـى الـبطون

نعم ولو أمكنهم وضع الزقاق على الزقاق لكان ذلك في الزقاق. أف لهم! أما علموا أن الحب يفسد بالنكاح ولا يكون بعده فلاح، كما قالوا: الظفر بالمعشوقة يسقط

شطر عشقها والنكاح يفسد الحب. قلت: وإذا كان الخلوّ والدنوّ فليترك العلو والغلو، فإن بعدهما السلو، ويستشهد على هذا بما أنشده البكري للمأمون:

مـــا الحـــب إلا قـــبلة وهمـــز كـــف وعـــضد
أو كـــتب فـــيها رقـــى أنفـــذ مـــن نفـــث العقـــد
مـــن لـــم يكـــن ذا حـــبه فإنّمـــا يبغـــي الـــولد
مـــا الحـــب إلا هكـــذا إن نكـــح الحـــب فـــسد

ذكر هذا شاهداً على ما خرّجه أبو علي في النوادر من قول الأعرابي: هذا طالب ولد وكيف، ما دارت الحال فلا بأس بالعشق الحلال، ولا يلام عاشق السوداء إذا بلغ حبها إلى السويداء، ألم تسمع:

أحـــب لحـــبها الـــسودان حتـــى أحـــب لحـــبها ســـود الكـــلاب

وسيأتي في ذكر الكلب الأسود كلام أحسن من هذا وأجود، انظره في باب ناب، وقد أذكر في هذا الخبر أبياتاً قلتها لرجل اسمه علي، وكنت أمرته أن يشتري لي سوداء:

أبـــا حـــسن هجـــرت نـــساء داري لأمـــر لـــيس مـــن عـــيب وعـــار
ولكـــن عـــندهن جفـــاء قـــول وإغـــلاظ يقـــلّ لـــه اصـــطباري
ويعلمـــن احتياجـــي كـــل وقـــت لهـــن فيقتـــصدن لـــذا ضـــرار
فـــسق لـــي مـــن هـــنالك يـــا عمـــادي بالاســـتعجال مـــنك والابـــتدار
بمـــا عـــنهن أســـتغني ولـــو لـــم تكـــن إلا ســـويدا مـــثل قـــار
تكـــون خديمتـــي وتكـــون أنـــسي وتقـــضي حاجتـــي عـــند اضـــطراري
فعجـــل يـــا علـــي بهـــا وســـقها إلـــي علـــى المـــراد والاختـــيار
فـــتاة بـــنت خمـــس بعـــد عـــشر مهفهفـــة بجـــسم كالنـــضار

وجعلت أصفها إلى أن قلت:

وطـــال علـــي ذلـــك فاختـــصرنا ألا إن الـــبلاغ فـــي الاختـــصار
تكـــون ملـــيحة وبـــذا تـــسمى فالاســـم هـــو المـــسمى لا تمـــار
فـــإن جـــاءت علـــى المزغوب أشدو وأنـــشد بـــيت ملـــذوع بـــنار
أحـــب لـــحبها الـــسودان حتـــى أحـــب لـــذاك تـــين الانـــبذار

أستغفر الله مما لا يرضاه، وخار لنا فيما قدّره وقضاه. وقد أريتك أعزّك الله السواد الظاهر للاجتلاب، فانظر في السواد الباطن للاجتناب.

اعلم أن الران هو السواد الذي يغشى قلب العبد من تراكم الخطايا والذنوب، ثم لهذا الداء والحمد لله دواء، يقلعه ويمحوه وهو التوبة والإقلاع والنزوع والاستغفار،

أخبر بذلك طبيب القلوب محمد الحبيب صلى الله عليه وسلم، قال عليه السلام: إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهو الران الذي ذكره الله تعالى قال: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]، خرّجه الترمذي وقال: حديث صحيح. ولي من قطعة مطوّلة:

وما اسوداد الوجوه إلا ... من فعل سوء وشؤم وحوب
وما اسودّ أبناء حام إلا ... بعد ابيضاض من الذنوب
نعوذ بالله من سواد ... على وجوه وفي قلوب

والكذب أيضاً مما يسوّد القلب، خرّج مالك رحمه الله في الموطأ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقول: لا يزال العبد يكذب وينكت في قلبه نكتة سوداء حتى يسودّ قلبه فيكتب عند الله من الكاذبين.

فصل:

تقدّم في شعر امرئ القيس:

وفرع يغشي المتن أسود فاحم

أردت أيها الولد أن أفرّع لك من لفظة الفرع فروعاً، فتحلب منها ضروعاً، تكرع فيها كروعاً، وتشرع فيها شروعاً، فدونكها مخلوطة اللغة بالفوائد تزري بالفرائد، فأقول:

تقدّم ذكر الجدّ والخال إنني ... أجيء بشيء في فؤادي قد وقع
أفسر من بيت امرئ القيس لفظة ... هي الفرع فانظر ما تفرّع من فرع
ولو كان غيري ساق ما قد ذكرته ... ولم يدره إن كان في العلم قد برع
عسى ينفع المولى بذلك من قرا ... عليّ ومن أصغى بأذنيه فاستمع
ومن كان لي شيخاً وعلمني الذي ... جمعت ويا مولاي لا تنس من جمع

الفرع: الشعر الكثير، يقال: رجل أفرع وامرأة فرعاء: بينة الفرع، وهو الشعر التام الذي لم يذهب منه شيء، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرع، وأبو بكر أفرع، وكان عمر أصلع له حفاف، وكان علي رضي الله عنه أصلع. والحفاف أن يكون الشعر حول رأسه كالطرة. ولعل عمر رضي الله عنه حين قال له رجل: الصلعان خير أم الفرعان؟ قال عمر: الفرعان، إنما عنى بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر رضي الله عنه. ويقال: فرع الرجل، صار أفرع، والفرعل الشعر أيضاً، قالت صبية من العرب لأبيها: اشتر لي لوطاً أغطي به فرعلي فإني قد عتقت. اللوط: الإزار، وعتقت: أدركت، وجمعها عواتق، ومنه في الحديث: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن

نخرجهنّ في الفطر والأضحى العواتق والحيض وذوات الخدور. الحديث. ولشيخي أبي محمد عبد الوهاب رضي الله عنه من قطعة مطوّلة لزومية:

هو الشيب مشتعل في المفارق ... فوصلاً وإلا فهجر المفارق
أما في ثلاثين حولاً تقضت ... له زاجر عن هوى كل عاتق
وكم ذا تحمل عبء الهوى ... على ثقله بين أذن وعاتق

وقد تقدّم بعضه، وفي هذا الشعر:

وكم شققت منه قلباً سليماً ... قدود الغصن خدود الشقائق
وكم خالل القلب حتى تبدّت ... خلال مصلاه خمس شقائق

انظرها بكمالها في التكميل.

شقائق :

ولا أخليك هنا من فائدة الشقائق في البيت الأول، يريد شقائق النعمان الذي يقال له الشقر، كما قال طرفة:

وعلا الخيل دماء كالشقر

وشقائق جمع شقة ويجمع على شقق، وسميت شقة لبعد طرفيها، وليس غيرها من الثياب كذلك، ومنه شقة السفر، أي بعده، والله أعلم. وقوله في البيت الآخر: خمس شقائق، يريد أخوات أو أتراب. وقال ثابت رحمه الله في قوله عليه السلام: إنما النساء شقائق الرجال، يقول: هنّ في شبههنّ بالرجال كعصا ارفضت شقتين، فكان الرجل شقة والمرأة شقة، والشق والشقيق واحد، تقول: هذا أخي شق نفسي وشقيقي. انتهى كلامه، وتصغيره شقيق، كما قال الشاعر:

يا ابن أمي ويا شقيق نفسي

البيت. والفرع أيضاً: أعلى كل شيء، ومنه فرع الشجرة، قال الشاعر واكن قد اتخذ قوسه من فرع شجرة، أي من غصن غير مشقوق، فإذا كان كذلك قيل: قوس فرع، والذي يعمل من المشقوق يقال لها قوس فلق، فقال:

أرمي عليها وهي فرع أجمع ... وهي ثلاث أذرع وأصبع

ذكر هذا الخبر ثابت في الدلائل، قال: ويقال: رميت عن القوس ورميت عليها، ولا يقال: رميت بها. قلت: قد جاء في الحديث: ورميه بقوسه وأسهمه في حديث: ليس من اللهو إلا ثلاث.

الفرع والعتيرة :

هذا الكلام في الفرْع بتسكين الراء، فأما الفرَع بتحريكها بالفتح فإنه أوّل النتاج، وقد أفرع القوم، إذا نتجوا أوّل الناس، وكانوا في الجاهلية يذبحونه لآلهتهم، فلما جاء الإسلام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا فرع ولا عتيرة. والعتيرة هي الرجبية: ذبيحة كانوا يذبحونها في رجب لأنه أوّل الأشهر الحرم. وخرّج أبو داود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يا أيها الناس إن على أهل كل بيت في كل عام أضحية وعتيرة، أتدرون ما العتيرة؟. هي التي يقول لها الناس الرجبية. قال أبو داود: العتيرة منسوخة، وقد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا فرع ولا عتيرة. ذكر هذا بعد حديث آخر أن النبي عليه السلام قال: من شاء عتر ومن شاء لم يعتر، ومن شاء فرع ومن شاء لم يفرع. والفرع أيضاً: الطول، ومنه حديث سودة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة عظيمة تفرع النساء. يقال: فرعت النساء، إذا طالتهنّ. ومنه قيل: جمل فارع، وفارع: اسم أطم حسان بن ثابت رضي الله عنه. والأطم: اسم كل بناء مرتفع مطوّل. والفرع: أن يسلخ جلد فصيل فيلبس فصيلاً آخر يعطف عليه سوى أمه. ومنه وقل أوس بن حجر وذكر أزمة في سنة شديدة البرد:

وشبه الهيدب العبام من الـ ... أقوام سقباً مجللاً فرعا

وتقول: فرعت الجبل، صعدته، كما تقول: طلعته بالكسر، وأفرعت في الجبل: انحدرت منه. قال بعض العرب: لقيت فلاناً فارعاً مفرعاً، يقول: أحدنا مصعد والآخر منحدر. قال الشماخ:

فإن كرهت هجائي فاجتنب سخطي ... لا يدهمنك إفراغي وتصعيدي

ويروى: لا يدركنك. وقد قالوا: فرعت في الجبل تفريعاً: انحدرت، وفرعت الجبل أيضاً: صعدت. ويقال فيهما: أفرعت، وهو من الأضداد. ويقال: فرعت بين القوم؛ بالتخفيف: إذا حجزت بينهم. وفرعت الفرس: إذا قدعته باللجام. ويقال: أفرعت وفرعت رأسه بالعصا: إذا علوته بها، وافتراع البكر: هو افتضاضها، مأخوذ من الفصل بين الشيئين. وفي الحديث: أن جاريتين من بني عبد المطلب جاءتا تشتدّان، والنبي صلى الله عليه وسلم قائم يصلي، فأخذتا بركبتيه ففرع منهما، أي: فرق. وقد يقال في افتراع الجارية أنه إدماؤها، مأخوذ من: أفرع اللجام الدابة: إذا أدمى فاها. والفرعة: القملة الكبيرة تسكن وتحرّك، وجمعها: فرع وفرع، وتصغيرها: فريعة، وبها سميت المرأة. ومن أسماء القملة أيضاً: الحمكة؛ بتحريك الميم؛ وجمعها: حمك، قال ذلك أبو زيد. قال: وقد يقال ذلك في الذرة، والحمك: الصغار من كل شيء. والفرع بالضم:

موضع. وفي الحديث: فعادت القبيلة وهي من ناحية الفرع. وفرعة الطريق: أعلاه، وقال في البيت:

كقـــنو الـــنخلة المتعـــثكل

القنو: العذق، وهو العثكول، وهي كباسة النخلة ذو الشماريخ وهي العراجين القضبان الرقاق واحدها عرجون، كما قال الله تعالى: ﴿كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩]. وفي الحديث من العرجون: أن سيف عبد الله بن جحش قطع يوم أحد، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرجوناً فعاد في يده سيفاً فقاتل به، فكان يسمى ذلك السيف العون، وبيع بعد قتله رحمه الله بمائتي دينار من بغا التركي. وواحد الشماريخ شمراخ، والعذق بالكسر هو القنو، ويقال له أيضاً قني، ويجمع قني أقناء، ويجمع قنو قنوان، والعذق، بالفتح: النخلة، والمتعثكل: المتوارد بعضه فوق بعض لكثرته. ويقال: عثكول وعثكال، كما يقال عنقود وعنقاد، ويقال له أيضاً أثكول وإثكال، وكذا جاء في حديث المقعد الذي زنى بالوليدة فأمر به صلى الله عليه وسلم أن يضرب بإثكال النخل من أجل ضعفه وضرّه، ويروى بأثكول يعني الشماريخ، كذا وقع في الدلائل. ووقع في كتاب أبي دواد: فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأخذوا له مائة شمراخ فيضربوه بها ضربة واحدة.

عرف: ومعكوس فرع: عرف بمعنى: علم، والمعرفة عند بعضهم فوق العلم، والعرفان: المعرفة، والعُرف بضم العين: المعروف. وفي القرآن: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. وعرف الفرس سمي بذلك لتتابعه، وفي القرآن: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾ [المرسلات: ١] أي: يتبع بعضها بعضاً بالوحي والرسالة، والله أعلم. والعرف أيضاً: موضع، والعرف: شجر الأترجة، والعرف أيضاً: جمع عرفة مواضع، منها: عرفة ساق وعرفة الأملح، وعرفات: جبل معروف، وأعراف الرمال: ظهورها، والأعراف: سور بين الجنة والنار حبس عليه رجال استوت حسناتهم وسيئاتهم. والمعرفة: منبت عرف الفرس، والعَرف؛ بفتح العين: الرائحة الطيبة، وقيل: سواء كانت طيبة أو خبيثة، لأنهم قالوا: ما أطيب عرفه، وقالوا في المثل: لا يعجز مسك السوء عن عرف السوء، ومنه قوله تعالى: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾ [محمد: ٦] أي: طيبها لهم، وقيل: يعرفون منازلهم فيها إذا دخلوها. وجاء معنى هذا في الحديث: لأحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه به كان في الدنيا. ومن أمثالهم: الكريم سفح عرفه ونقح عرفه، والرّف بفتح الراء: نبت، والعرفة: قرحة تأخذ في اليد والرجل، وربما أشلت،

قاله أبو علي. والعِرف بكسر العين، من قولهم: ما عرفت عرفي إلا بأخرة، أي ما عرفتني إلا أخيراً، والعارفة: المعروف، ورجل عروفة بالأمور أي عارف بها، والهاء للمبالغة، تقول: عرف الرجل عرافة، صار عريفاً، كما نقول خطب خطابة، فإن أردت أنه عمل ذلك قلت: عرف فلان علينا سنين يعرف عرافة، كما تقول: كتب يكتب كتابة. والعريف: القيّم بأمر القوم وهو النقيب، وهو دون الرئيس، وجمعه عرفاء. وفي الحديث: حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم. وفي التنزيل من ذكر النقيب: ﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ [المائدة: ١٢]. والتعريف: الإعلام، والتعريف أيضاً: إنشاد الضالة، والتعريف: الوقوف بعرفات، يقال: عرف الناس، إذا شهدوا عرفات، وهو المعرف للموقف.

رعف: ومقلوبه رعف يرعف ويرعف رعافاً، ورعف بالضم: لغة ضعيفة، ويقال: رماح رواعف إما لتقدّمها للطعن وإما لما يقطر منها من الدم. ورعف الفرس يرعف ويرعف إذا سبق وقد تقدّم. واسترعف مثله، والراعف: طرف الأرنبة، والراعف: أنف الجبل. وراعوفة البئر وأرعوفتها: حجر ناتئ في أسفلها، ويقال بل في أعلاها، يقوم عليها المستقي. وفي الحديث: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سحر وجعل سحره في جف طلع ودفن تحت راعوفة البئر، وفيها لغتان: راعوفة وأرعوفة بالضم، حكاهما أبو عبيدة. ويقال أيضاً راغوفة بالغين المعجمة.

عفر: ومقلوبه أيضاً عفر، وهو التراب، والعفرة غبرة في حمرة، وبه سمي الظبي أعفر، وجمعه عفر، وعفير اسم رجل، وعفيرة اسم امرأة، وقد تقدّم حديث عفيرة. والعفر: الليلة السابعة والثامنة والتاسعة من الشهر، لم يذكر ابن قتيبة العفر لكنه قال: العرب تسمي ليالي الشهر كل ثلاث منها باسم، فتقول: ثلاث غرر، وثلاث نفل، وثلاث تسع، وثلاث غفر، وثلاث بيض، وثلاث درع، وثلاث ظلم، وثلاث حنادس، وثلاث دآدئ، وثلاث محاق. وعفرت الرجل بالتراب: إذا ضربت به الأرض. والعفار: شجر، ومنه: استمجد المرخ والعفار، وسيأتي. والعِفر بكسر العين: ذكر الخنازير، والعفر أيضاً: الرجل الخبيث، وجمعه أعفار. والشيطان أيضاً عفريت وعفرية وعفارية. وللفقيه أبي محمد من قطعة:

وربّ غاو كأنه عفريت ذي هجار إلى الخنا خرّيت

رفع: ومقلوبه رفع، وهو معلوم، ورفُع بضم الفاء رفاعة: صار رفيعاً، كما تقول: شرف. والرفعة ضدّ الذّلة. ومن شكل الافتراع الاقتراع بالقاف وهو الاستهام. ومن هذا الباب مقراع: وهي الناقة التي تلقح في أوّل قرعة الفحل، ومنه قول ابن الرعيل بن

الكلب: تحازمت إلى هشام ابن عبد الملك وأهديت له ناقة نجيبة فلم يقبلها، فلما قوّضت سرادقاته وقرّبت نجائبه، قمن فقلت: يا أمير المؤمنين إنها مطواع مسراع مرباع مرباع مقراع مسياع، فضحك وأمر بأخذها وأمر لي بمال، خرّجه ثابت أيضاً وفسر المقراع بما تقدّم وقال: مطواع، أي تطيع راكبها لكرمها، ومسراع: تسرع من نجابتها وفراهتها، ومرياع: تسبق النوق لحدتها وسرعتها، ثم تريع، أي ترجع لألفتها، والمرباع: التي تنتج في أوّل الربيع، وقوله: مسياع يعني أنها طليت بالشحم كما يطلى الشيء بالطين، والسياع: الطين. وقوله: تحازمت، أي عارضته في ركوبه. قال الفراء: حازمت الرجل الطريق، وهو أن تأخذ في طريق ويأخذ في غيره حتى تلتقيا في مكان.

ريع: ومن غير الدلائل الريع: النماء والزيادة، وهو أيضاً: العود والرجوع، كما في هذا الخبر، ومنه قول البعيث:

طمعت بليلى أن تريع وإنّما — تقطع أعناق الرجال المطامع

وسئل الحسن عن القيء يذرع الصائم، فقال: هل راع منه شيء؟. فقال السائل: ما أدري ما تقول. فقال: هل عاد منه شيء؟، والريع، بالكسر: المرتفع من الأرض، ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨].

والريع أيضاً الطريق، ويقال: الجبل. وجاء أيضاً: رجل مضياع مسياع للمال، وهو أيضاً مضيع مسيع عن أبي عبيد.

قرع: وأما القرع فهو ذهاب الشعر، وقد قرع فهو أقرع بيّن القرع، ورجال قرعان وقرع، وموضع ذلك من الرأس القرعة، ويقال: ألف أقرع، أي تام. والأقرع من الرجال يكنى أبا الجعد كما يكنى الأعمى أبا بصير وكما يقال للغراب أعور، على القلب لحدّة بصره، ويسمى اللديغ سليماً، من قولهم: سليماً ومسلوماً، والسلم: لدغ الحية، قاله ثابت رحمه الله. والقرع في المراح من هذا، وكانوا يستعيذون بالله من قرع المراح وصفر الفناء. وقال ثعلب: نعوذ بالله من قرع الفناء، بالتسكين على غير قياس. وفي الحديث عن عمر رضي الله عنه: قرع حجكم، أي خلت أيام الحج من الناس. ومن دعائهم: اللهم إني أعوذ بك من جهد البلاء وسوء القضاء وصفر الفناء وعضال الداء.

ومن هذا قول الشاعر:

وجزال لمولاه إذا ما — أتاه عائلاً قرع المراح

جزال: يجزل له من ماله إذا أتاه مولاه، وهو ابن عم له أو ما أشبهه عائلاً فقيراً قد قرع مراحه فليس له مال ولا إبل، ومراحه: حيث تأوي إبله إذا انصرفت من مرعاها، وقد تقدّم قول الأعرابي: فقرع مراحي وفنيت أوضاحي. والأقرع من الحيات الذي لا

شعر على رأسه، ومنه الحديث: من كان له مال لم يؤدّ زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع، أي قد تمعط شعره لكثرة سمه، وجمع الشجاع أشجعة ثم شجعان، وقال الشاعر:

قد سالم الحيات منه القدما الأفعوان والشجاع الشجعما

وسيأتي تفسيره. والقرعة معروفة، والقارعة: يوم القيامة، وقارعة الطريق: أعلاه، وقارعة الدار: ساحتها، وقوارع الدهر: شدائده، وقوارع القرآن: الآيات التي يقرؤها الإنسان إذا فزع من الجنّ أو الإنس، نحو آية الكرسي، كأنها تقرع الشيطان، والمقارعة: المساهمة، يقال: قارعته فقرعته. والمقارعة أيضاً: مقارعة الأبطال إذا قرع بعضهم بعضاً، وأما القرع بإسكان الراء فهو الدباء المعروف، وهو جمل اليقطين. ومن لفظ الدباء: الدبى، مقصور، وهو الجراد. قال امرؤ القيس:

إذ هن أقساط كرجل الدبى

والرجل: الجماعة منها، وأقساط: قطع، وربما قالوا في الدباء: القرع بتحريك الراء. قال المعري: هما لغتان والتحريك أجود، وأنشد:

بئس إدام العرب المعتل ثريدة بقرع وخل

وأكثر ما تسميه العرب: الدباء والقرع بالتحريك بثر يخرج بالفصال في الأعناق والمشافر، ودواؤه الملح وجباب ألبان الإبل، فإن لم يجدوا ملحاً نتفوا أوباره ونضحوا جلده بالماء ثم جروه على السبخة. ومنه المثل: أحر من القرع، وربما قالوا: أحر من القرع، بالتسكين، يعنون به قرع الميسم وهو المكواة، قال الشاعر في ذلك:

كأنّ على كبدي قرعة حذاراً من البين ما تبرد

والعامة تريد به القرع الذي يؤكل، وليس كذلك، والمقرع هو المجرور كما تقدّم، قال أوس ابن حجر:

لدى كل أخدود يغادرن دارعاً يجر كما جر الفصيل المقرّع

والفصيل: قريع والجمع قرعى مثل مريض ومرضى، ويقال في المثل: استنت الفصال حتى القرعى، والقرع أيضاً مصدر قرع الشيء يقرعه قرعاً إذا ضربه بعصا أو غيره، ومنه المقرعة. ومن القرع قول الشاعر:

قرع القواقيز أفواه الأباريق

وقال آخر:

العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الملامه

وأنشد ابن قتيبة في عيون الأخبار:

لذي الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا وما علم الإنسان إلا ليعلما

وأنشد غير ابن قتيبة:

وزعمـتم أن لا حلـوم لـنا إن العـصا قـرعت لـذي الحلـم

عرق: ومعكوس قرع عرق، والعرق معروف، ولبن عرق إذا فسد طعمه، وعرق الشجر وأعرق إذا امتدت عروقه، والعرق واحد العروق. وفي الحديث: وليس لعرق ظالم حق، وتفسيره: أن يجيء الرجل إلى أرض قد أحياها غيره فيغرس فيها أو يزرع فيستوجب الأرض. قال الخطابي: يروى على وجهين عرقٌ بالتنوين وظالم نعته، وعرقُ ظالمٍ بالإضافة، يعني به الغارس، والعرق الجبل الصغير، والعرق نبات أصفر يصبغ به، ورجل معرق في الحسب، وعرق فيه أعمامه وأخواله وأعرقوا، وإنه لمعروق في الكرم، ويقال أيضاً معرق كما قال بعض الصالحين: إن امرأ ليس بينه وبين آدم عليه السلام أب حيّ لمعرق له في الموت، وأعرق الفرس: صار عريقاً، والعراق شاطئ البحر وبه سمي العراق لأنه على شاطئ دجلة، والعُراق بضم العين: العظم بلا لحم، فإن كان عليه لحم فهو عرق، وقد تعرقت العظم واعترقته وعرقته أعرقه عرقاً: أكلت ما عليه من اللحم. وفي الحديث: وفي يده عرق، ورجل معروق ومعترق خفيف اللحم، والعرق: الطير تصطف في السماء، واحدته عرقة، والعرق: السطر من الخيل، والعرق: السقيفة من الخوص وغير المنسوجة، وبه سمي الزنبيل عرقاً، وفي الحديث: فأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرق فيه تمر.

قعر: ومقلوبه: قعر كل شيء: أقصاه، وبئر قعيرة، وتقعر الرجل وقعر، إذا تشدق في كلامه وتكلم بأقصى قعر فيه، والمقعر الذي يبلغ قعر الشيء.

رعق: ومقلوبه أيضاً رعق يرعق رعاقاً، وهو صوت يسمع من قتب الدابة، والقتب غلاف ذكر الفرس.

رقع: ومقلوبه أيضاً رقع الثوب رقعاً ورقعته، والرقيع: الأحمق الذي يتمزق عليه رأيه، وقد رقع رقاعة، ويقال للرقيع أرقع، والرقيع اسم لسماء الدنيا، ويقال كل واحدة رقيع الأخرى وهو الذي ألغز به الحريري رحمه الله في قوله:

أينـام العاقـل تحـت الـرقيع قـال أحـبب بـه فـي البقـيع

عنى بالرقيع: السماء، وبالبقيع: بقيع المدينة؛ شرفها الله. وفي الحديث: من فوق سبعة أرقعة، جاء على لفظ التذكير، كأنه ذهب به إلى السقف، والله أعلم. والرقعة: القطعة من الثوب والأرض وغيره.

عقر: ومقلوبه أيضاً عقر، والعقر والعقر مصدر العاقر من النساء، وقد عقرت المرأة وعقرت تعقر فهي عاقر وعقير، وفي التنزيل: ﴿ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞ ﴾ [آل عمران:

٤٠]، ويقال: عقرت تعقر، والعاقر من الرمل: ما لا ينبت، والعقر: دية الفرج المغصوب، والعقر: بيضة الديك، وعقر الحوض: موقف الإبل إذا وردت، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إني لبعقر الحوض، أو بعقر حوضي، أو كما قال. وعقر الدار وعقرها: محلة القوم، ويقال: العقر والعقر: فرجة ما بين الشيئين، والعقر كالجرح، والعقر أيضاً القتل، ومنه: عقر فرسه، وفي الحديث: عقر جواده وأهريق دمه، ومنه معاقرة الأعراب التي نهانا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي ما كانوا يعقرونه للمباهاة والفخر، وقال عليه السلام: لا عقر في الإسلام، وفسر بهذا أو بما يعقر على القبور، وسيأتي في باب الواو إن شاء الله. والعقار: الضيعة، والعقار: الخمر، والعقار والمعاقرة: إدمان شربها، وعقيرة الرجل: صوته، وأصله ما ذكره ابن قتيبة في أدب الكاتب، انظره في الكتاب. والعقيرة أيضاً ما عقرت من صيد وغيره، وعقر الرجل: إذا دهش، ومنه قول عمر رضي الله عنه: فعقرت حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي. والعقر: موضع، وامرأة عقرى حلقى، وهو في الحديث من قول النبي صلى الله عليه وسلم، ومعناه: عقرها الله وحلقها، ومن ذلك الدعاء الذي لا يراد وقوعه، كما قال: تربت يداك، وسيأتي إن شاء الله تعالى.

قال الخطابي قال أبو عبيد: إنما هو عقراً حلقاً على معنى الدعاء، معناه: عقرها الله وحلقها، أي عقر جسدها وأصابها برجع في حلقها. قال الخطابي وقال غيره: والعرب تقول لأمه العقر والحلق، أي ثكلته أمه فتحلق شعرها وهي عاقر لا تلد. وروي عن وكيع بن الجرّاح قال: قوله حلقى، هي المشؤومة، والعقرى التي لا تلد، وقيل هي المشؤومة تحلق قومها وتعقرهم، أي تستأصلهم من شؤمها.

قزع: ومما يشبه القرع القزع بالزاي: وهو السحاب واحدتها قزعة. ومنه الحديث: وما نرى في السماء قزعة، أي قطعة سحاب. قال الزبرقان:

ونحن نطعمهم في القحط ما أكلوا ... من العبيط إذا لم يؤمن القزع

قال أبو عبيد: أكثر ما يكون في الخريف، والقزع من الصوف ما تناتف في الربيع، وكبش أقزع: منتتف الصوف. والقزع أيضاً: أن يحلق من رأس الصبي بعض ويترك بعض، ولعله من هذا يشبه به ونهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم. وجاء من ذكر القزع ما خرّج أحمد عن عدي من حديث أبي هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم نهى أن يتغوّط الرجل في القزع من الأرض، قيل: وما القزع؟ قال: أن يأتي أحدكم الأرض فيها النبات كأنما قمت قمامته، فتلك مساكن إخوانكم من الجنّ.

ومن القزع قول الأعرابي الذي وصف الإبل فقال: هي تطاير قزعاً، يريد أنها طار عنها وبرها من السمن، وقال الشاعر:

فلما فنى ما في الكنائن ضاربوا ... على القزع من جلد الهجان الْمجوّف

قوله: فنى، هي لغة في فني، يقولون: فني الشيء وبقي مثله، وأنشد:

فلولا زهير إن أكدر نعمة ... لقازعت عنه ما بقيت وما بقي

خرّجه ثابت رحمه الله. وقد قالوا: سخا يسخو وسخي يسخي، ومحا يمحو ويمحي ولم يقولوا محى، وسيأتي نوع من هذا. ويقال: قزع الصبي وغيره يقزع قزوعاً: أسرع وخف، ومنه قولهم: قوزع الديك، غذ ا غلب فهرب. قال يعقوب: ولا تقل قنزع لأنه ليس بمأخوذ من قنازع الرأس وهو الشعر حوالى الرأس، وإنما هو من قزع يقزع إذا خف في عدوه هارباً، وواحد القنازع قنزعة. وفي الحديث: غطي عنا قنازعك يا أم أيمن. وقالوا: رجل مقزع، رقيق شعر الرأس متفرقه، وربما قالوا في جمعها: قنزعات. قال حميد الأرقط يصف الصلع:

كأنّ طسا بين قنزعاته ... مرتاً تزل الكف عن فلاته

ذلك نقص المرء في حياته ... وذاك يدنيه إلى وفاته

لا الرزء في بعيره وشاته

عزق: ومعكوس قزع عزق، وهو علاج في عسر، ورجل عزق منه، ومتعزق، والمعزاق: المسحاة من الحديد ونحوه مما يحفر به، وأرض معزوقة: إذا شققتها بالمعزقة.

زعق: ومقلوبه زعق؛ وهو: الخوف، وقد أزعقه الخوف حتى زعق: فهو مزعوق، والماء الزعاق: المرّ، وقد أزعق الرجل إذا حفر فأنبط ماء زعاقاً، وبئر زعقة، وطعام مزعوق: كثير الملح.

زقع: ومقلوبه أيضاً: زقع الحمار زقعاً وزقاعاً: إذا ضرط.

فزع: ومن شكل قزع: فزع، يقال: فزعت إليك وفزعت منك، ولا تقل: فزعتك. والمفزع: الملجأ. وفلان مفزع للناس، يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث إذا دهمهم أمر فزعوا إليه، فهو مفزع، وكذلك هم مفزع وهي مفزع. والفزع أيضاً: الإعانة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار: إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع. وقد فسر هذا الحديث صاحب الكامل في أول الكتاب فانظره هناك. والإفزاع: الإخافة والإعانة أيضاً. يقال: فزعت إليه فأفزعني: أي لجأت إليه من الفزع فأعانني، وكذلك التفزيع من الأضداد، يقال: فزعه أي أخافه، وفزع منه أي كشف عنه

الخوف، ومنه قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ: ٢٣] أي: كشف عنها الفزع.

عزف: ومعكوس فزع عزف، تقول: عزفت نفسي عن الشيء تعزف عزوفاً، أي زهدت فيه وانصرفت عنه. والعزيف: صوت الجن، وقد عزفت تعزف، والمعازف: الملاهي، والعازف: اللاعب بها والمغني، وقد عزف عزفاً، ومنه قول أبي جهل في قصة بدر: وتعزف بها علينا القيان. وعزف الرياح أصواتها، وسحاب عزاف: يسمع منه صوت الرعد وهو دويه.

زعف: ومقلوبه زعف، تقول: زعفه زعفاً: قتله مكانه، وكذلك أزعفه زعفاً، ومنه: سم زعاف وموت زعاف، وزؤاف أيضاً مثل زعاف، والزعيفة بالكسر القصيرة، وأصل الزعائف: أطراف الأديم وأكارعه، وذلك ذم.

زغف: فإن نقطت العين قلت زغف وزغف جمع زغفة وزغفة وهي الدرع اللينة. وقال الشيباني هي الواسعة.

فرغ: بقي من شكل فزع: فرغ، فرغت من الشغل أفرغ فروغاً وفراغاً، وتفرغت لكذا واستفرغت مجهودي في كذا، أي: بذلته، وفرغ الماء، بالكسر، يفرغ فروغاً: مثل سمع سماعاً، أي: انصب وأفرغته أنا، وحلقة مفرغة، أي: مصمتة الجوانب، والفرغ: مخرج الماء من الدلو بين العراقي، ومنه سمي: الفرغان، من منازل القمر، والفراغة: ماء الرجل وهي النطفة، وقوس فريغ: واسع السي، وذهب دمه فرغاً وفراغاً، أي: هدراً لم يطلب به، والفراغ في اللغة على ضربين: الفراغ من شغل، والفراغ إلى الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] قيل: معناه سنقصد لكم، أي لحسابكم فنعذبكم، يقال: سأفرغ لفلان، أجعله قصدي، والله يتعالى أن يشغله شأن عن شأن. وقوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] معناه: يميت ويحيي ما يولد، ويعز ويذل، ويعطي سائلاً ويجيب داعياً ويشفي مريضاً، ويفك عانياً، وشأنه كثير لا يخفى، لا إله إلا هو.

غرف: ومعكوس فرغ غرف، الغرف: شجر يدبغ به، يقال: سقاء غرفي، أي مدبوغ بالغرف، وربما جاء غرف بالتحريك، قال أبو خراش:

أمسى سقام خلاء لا أنيس به ... إلا السباع ومر الريح بالغرف

وسقام: اسم واد، والغريف: الشجر الملتف الكثير من أي شجر كان، ومنه قيل: أسد الغريف، وغرفت الشيء فانغرف، أي قطعته فانقطع، ومنه قول قيس بن الخطيم:

تنام عن كبر شأنها فإذا ... قامت رويداً تكاد تنغرف

وغرفت الماء بيدي فانغرف غرفاً واغترفت منه، وفي التنزيل: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٤٩] أي مرة واحدة، وقرئ: (غَرفة) بالفتح، وهو اسم للمنقول منه لأنك ما لم تغترفه لا تسميه غرفة، والجمع غراف، مثل نطفة ونطاف، وزعموا أن ابنة الجلندي وضعت قلادتها على سلحفاة فانسابت في البحر فقالت:

يـا قـوم نـزاف نـزاف   لـم يبق فـي البحـر غير غـراف

والغرفة: العلية، والجمع غرفات وغرفات وغرفات وغرف، وفي التنزيل: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [الفرقان: ٧٥]، ﴿ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧]. والمغرفة معلومة ما يغترف به.

رفغ: ومقلوبه رفغ، الرفغ: السعة والخصب، يقال: رفغ عيشه بالضم رفاغة: اتسع فهو عيش رافغ، ورفيغ: واسع طيب، وترفغ الرجل: توسع، والرفغ والرفيغ: واحد الأرفاغ، وهي المغابن من الآباط وأصول الفخذين.

فغر: ومقلوبه أيضاً فغر، يقال: فغر فاه، أي فتحه، وفغر فوه: انفتح، وافغر النجم، والنجم: الثريا، يقال ذلك في الشتاء لأن الثريا إذا توسطت كبد السماء من نظر إليها فغر فاه، والفاغر: ضرب من الطيب وهو أصل النيلوفر.

رغف: ومقلوبه أيضاً رغف جمع رغيف، قال الراجز:

إن الـشواء والنـشيل والـرغيف   والقينة الحسناء والروض الأنـف

للطاعنين الخيل والخيل قطف

ويجمع رغيف أيضاً رغفان مثل كثيب وكثبان، وأرغفة مثل قميص وأقمصة.

غفر: ومقلوبه أيضاً غفر بمعنى ستر، ومنه غفر الله لنا، أي ستر وغطى عيوبنا. ومنه مغفر الرأس، أي الذي يستره:

خرجت من شيء إلى غيره   من آب حتى سقت فيه وأب
وكله علم ومن يخله   فإنه خلو من أم وأب

فصل:

قصة أيوب عليه السلام :

مما بقي من فوائد هذا الفصل تقدّم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن يضرب المقعد الذي زنى بالوليدة بمائة شمراخ ضربة واحدة. قلت: ولعل هذا أخذه صلى الله عليه وسلم من فعل أيوب عليه السلام حين حلف أن يضرب امرأته مائة ضربة، ففرج الله عنه وعنها، بأن قال: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا

تَحۡنَثۡ ﴾ [ص: ٤٤] فأخذ شمراخاً فيه مائة عرجون فضربها به ضربة. وكان سبب يمينه ما روى وهب بن منبه قال: كان أيوب عليه السلام من ذرية العيص بن إسحاق، وتزوّج ليا ابنة يعقوب عليه السلام. وقيل: بل كانت زوجته رحمة ابنة افرائيم بن يوسف بن يعقوب عليهما السلام، وكانت أم أيوب ابنة لوط عليه السلام، وإن إبليس اللعين سمع تجاوب ملائكة السماوات بالصلاة على أيوب حين ذكر ربه وأثنى عليه، فأدرك إبليس الحسد والبغي فسأل الله أن يسلطه عليه ليفتنه عن دينه، فسلط على ماله دون جسده، فأذهب ماله كله، فشكر أيوب عليه السلام ربه، ولم يغيره ذلك عن عبادة ربه، فسأل إبليس أن يسلطه على ولده، فأهلك ولده، فشكر الله أيوب ولم يغيره ذلك عن عبادة ربه، فسأل إبليس أن يسلطه على جسده، فسلط عليه دون لسانه وقلبه وعقله، فجاءه وهو ساجد فنفخ في منخره نفخة اشتعل بها جسده، فصار أمره إلى أن تناثر لحمه، فأخرجه أهل القرية من القرية إلى كناسة خارج القرية، فلم يغيره ذلك عن عبادة ربه وذكره.

ومما أرويه عن الحافظ رحمه الله بالإسناد الصحيح أن أيوب عليه السلام لما ابتلي قال لنفسه: قد نعمت سبعين سنة فاصبري على البلاء سبعين. خرّجه الثقفي في الأربعين له.

قلت: لعله يهجس في خاطرك أن تقول: مثل هذا العبد الصالح يبتليه الله بمثل هذا البلاء وهو الكريم عليه والعزيز لديه؟ فاعلم أن البلاء للأنبياء والأولياء كرامة ورفعة، ويكفي أيوب عليه السلام شرفاً وفضلاً أن ابتلاه أياماً قلائل، وبقي الثناء عليه يتلى في الصلاة ويقرأ في المساجد: ﴿ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴾ [ص: ٤٤]. وقال أبو طالب في كتاب القوت وذكر هذا المعنى قال: وبين ذكر سليمان بهذا النعت وبين ذكر أيوب عليه السلام بهذا الثناء ثلاثة عشر مدحاً يزيد بها أيوب على سليمان عليهما السلام، وعدّدها كلها، انظرها في الكتاب المذكور. وقد جاء في الحديث: إن الأنبياء أعظم الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل، لكن ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وفي كتاب الأربعين للثقفي المذكور عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: تنصب الموازين يوم القيامة فيؤتى بأهل الصلاة وأهل الصيام وأهل الصدقة وأهل الحج فيوفون بالموازين، ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ويصب الأجر عليهم بغير حساب.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لما أصاب أيوب البلاء أخذ إبليس تابوتاً وقعد

على الطريق يداوي الناس، فجاءته امرأة أيوب فقالت له: أتداوي رجلاً به علة كذا؟ قال: نعم بشرط أني إن شفيته قال لي: أنت شفيتني، لا أريد منك أجراً غيرها، فجاءت امرأة أيوب إلى أيوب فأخبرته، فقال: ذلك الشيطان، والله لئن برأت لأضربنك مائة، فكان ما تقدّم.

حدّثني بعض أشياخي قال: رحل رجل في طلب العلم إلى بغداد فقرأ ما شاء الله، ثم بدا له في الانصراف إلى وطنه، فاكترى دابة وخرج من البلد، فوقف المكتري يشتري بعض حوائجه فسمع رجلاً بقالاً في حانوته يقول لآخر في حانوته أيضاً: أي فل ألم تر ما يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه يجيز الاستثناء في اليمين بعد سنة؟ قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: ذاك باطل، قال له: ومن أين تقول ذلك؟ قال: تفكرت البارحة في قول الله تعالى في قصة أيوب عليه السلام: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ [ص: ٤٤]، فلو كان الاستثناء ينفع لقال له: قل إن شاء الله ولا تحنث، فقال هذا الطالب للمكاري: ردّني إلى البلد، إن بلداً باعته في هذه المنزلة من العلم فضلاً عن العلماء لا ينبغي أن يرحل عنه. هذا معنى الحكاية. وقد ذكرت هذه الحكاية لبعض العلماء فقال: يحتمل أن يكون ذلك في شريعة أيوب عليه السلام وليس في شرعنا، والله أعلم.

وتقدّم: المعرفة منبت عرف الفرس. وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: رأيتك يا رسول الله واضعاً يدك على معرفة فرس وأنت قائم تكلم دحية الكلبي، قال: أوَقد رأيتيه؟ قالت: نعم، قال: فإنه جبريل وهو يقرئك السلام، قالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، وجزاه الله خيراً من زائر ودخيل، ونعم الصاحب ونعم الدخيل.

وتقدّم: الاقتراع، ومنه حديث حميد بن هلال رحمه الله وذكر شأن يونس عليه السلام قال: ركب مع قوم في سفينة فجعلت السفينة لا تمضي، فقال بعضهم لبعض: ما هذا إلا بذنب بعضكم، فاقترعوا أيكم يلقى في الماء؟ قال: فاقترعوا وبقي سهمه في الشمال. خرّجه ثابت وقال: قوله: بقي سهمه في الشمال، يعني أن سهمه خرج مقموراً. قال الشاعر:

رأيت بني العلات لما تظافروا ... يجرّون سهمي دونهم في الشمائل

وذلك أن الضارب بالقداح إذا خرج المنيح أمسكه بيده الشمال لأنه لا حظ له، فيقول: صيروا حظي في الشمائل، أي: صيروا حظي المنيح ولم يعطوني شيئاً. ومعنى تظافروا: تعاونوا. وخرّج أيضاً عن سالم بن أبي الجعد في قصة يونس: فأوحى الله إلى

الحوت أن لا تصرّ له لحماً ولا عظماً. وفسره قال: صرّبت الشيء، قطعته. انتهى كلامه. والمنيح: من سهام الميسر، وهي عشرة ذكرها أبو عبيد وغيره، سبعة منها لها أنصباء وثلاثة لا شيء لها، فمن التي لها سهم: المعلى، ومن التي لا شيء لها: المنيح، أخذ هذا المعنى الشاعر فقال:

فسهمي من قطيعته المعلى ... وسهمي من مودّته المنيح

وهذا شيء مستحسن مليح.

وجاء في الهداية: تقول العرب: اجعلني في يمينك ولا تجعلني في شمالك، أي اجعلني من المتقدّمين عندك ولا تجعلني من المتأخرين، وهو قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ [الواقعة: ٨] و﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ [الواقعة: ٩] أي: أصحاب التقدّم وأصحاب التأخّر، وأنشد:

أبيني أفي يَمنى يديك جعلتني ... فأفرح أم صيّرتني في شمالك

وسيأتي في باب الهاء نوع من هذا في الإيسار والميسر.

وتقدّم ذكر القرع، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكله ويحبه ويقول: نكثر به طعامنا. وروى أبو طالوت قال: دخلت على أنس بن مالك وهو يأكل القرع ويقول: يا لك من شجرة ما أحبك إليّ لحبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم إياك. وفي حديث آخر عنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتتبع في الصحفة، يعني الدباء، فلم أزل أحبه. وفي حديث آخر عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر من أكل الدباء، فقلت: يا رسول الله إنك تكثر من أكل الدباء، قال: إنه يكبر الدماغ ويزيد في العقل.

ومن ملح هذا الفصل أن الغراب يقال له أعور، ويقال له أيضاً أبو البيضاء. وأنشدني بعض الأصحاب ولم يسمّ قائله:

لي عبد سوء وعبد السوء منقصة ... والمسترق لعبد السوء مولاه
قالوا سعادة فأل من سعادته ... كأنهم جهلوا اسماً ضدّ معناه
هذا الغراب أبو البيضاء كنيته ... فانظر بأيّ سواد خصّه الله

وتقدّم: المقرعة، وأنشدني الخطيب الفقيه أبو محمد عبد الوهاب قال: كنت أمشي في الشعواء في موضع قفر وإذا بأيل، فلما رآني تفرسني وفزع، وكان على عنقي أشياء أحملها، فقلت وهو لزومي:

ألا لا تكثر الرعبا ... فلست بمن به تعسبا
وكيف تخاف من عدوي ... ضعيف حامل أعبا

ولكـــن لـــيت مقـــرعة تفـــتت ذلـــك الكمـــا

وتقدّم:

لـذي الحلـم قـبل الـيوم مـا تقـرع العـصا

هذا البيت للمتلمس، وسببه أن سعيد بن مالك عند بعض الملوك فأراد الملك أن يبعث رائداً يرتاد له منزلاً ينزله، فبعث عمرو بن مالك بن ضبيعة، وهو الذي قيل فيه البيت المتقدّم، فأبطأ عليه، فقال الملك: لئن جاء ذامّاً أو حامداً لنقتلنه، فلما جاء عمرو وسعيد عنده قال سعيد للملك: أتأذن لي فأكلمه؟ قال: إذاً أقطع لسانك، قال: فأشير إليه، قال: إذاً أقطع يدك، قال: فأومئ إليه، قال: أقطع جفن عينك، قال: فأقرع له بالعصا، قال: اقرع، فأخذ العصا فضرب بها عن يمينه ثم ضرب بها عن شماله ثم هزّها بين يديه فلقن عمرو، فقال: أبيت اللعن جئتك من أرض بعيدة زائرها واقف وساكنها خائف، والشبعاء بها نائمة والمهزولة ساهرة جائعة، ولم أر خصباً ممحلاً ولا جدباً مهزلاً.

وتقدّم:

إن العـــصا قـــرعت لـــذي الـــحلم

وهذا البيت للحارث بن وعلة، ومعناه: إن الحليم إذا نبه انتبه، وأصله أن حكيماً من حكماء الرعب عاش يقضي بين الناس ثلاثمائة سنة، يقال هو عمرو بن حممة الدوسي، فلكا كبر وأهتر قال لابنته: إذا أنكرت من فهمي شيئاً عند الحكم فاقرعي المجنّ بالعصا لأرتدع، ويقال: ألزموه السابع من ولده يقرع له العصا إذا غلط.

وتقدّم: العرق، ومنه حديث الأعرابي الذي أكل عرقاً، فلما بقي العظم يلوح قال لأحد أولاده وكانوا ثلاثة: إن أعطيتك هذا العظم ما أنت صانع به؟ فقال: أتعرّقه حتى لا أدع فيه لذرّ مقيلاً، قال له: لست بصاحبه، ثم قال لأخيه مثل ذلك: ما أنت صانع به؟ قال: أتعرقه حتى يمرّ المارّ به فلا علم ألعامين هو أم لعامه الأوّل، فقال: لست بصاحبه، فقال للآخر: إن أنا أعطيتكه ما أنت صانع به؟ قال: أدقّه ثم أسفّه، فقال: أنت صاحبه، فأعطاه إياه، أو كما قالوا هذا معناه:

وذا فـصل الفـوائد قـد تقـضى وآخـذ بعـد فـي بـاء وتـاء
لعـل الله ينفعنـي مـسناً بمـا ألفـته زمـن الفـناء

ومقلوب البيت:

وبـاء وبـاء وبـاء وبـا وتـاء وثـاء وبـل وبـل

باء: أما باء الأوّل: فحرف من حروف الهجاء، وسيأتي الكلام عليها وعلى مخرجها مع الألف في باب لفظة القافية إن شاء الله.

وأما باء الثاني: فالنكاح، يقال: باه وباءة وباهة، ويقال للجماع نفسه: باءة، وكذلك لعقد النكاح، وأصله من المباءة والباءة، وهو في اللغة: المنزل، لأنه من تزوّج امرأة بوّأها منزلاً، ويجمع على باآت، قال الراجز:

إن كــنت تبغــي صــالح الــباآت ... فاعمــد إلــى هاتــيكم الأبــيات

وأفصح هذه اللغات ما نطق بها الرسول عليه السلام حين قال: يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوّج فإنه أغضّ للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء. والوجاء: نوع من الخصاء، ممدود ومهموز، ومعناه والله أعلم: أنه يضعفه ويكسر عنه شهوة النكاح. وكذلك جاء في الصوم أنه يجيء، أي يقطع شهوة النكاح، وسيأتي الوجاء والكلام عليه مستوفى في باب الجيم إن شاء الله. وكذلك يأتي الحضّ على النكاح في باب النون بحول الله. وقال عبد الملك بن مروان: من أراد الباءة فبنات بريد، ومن أراد النجابة فبنات فارس، ومن أراد الخدمة فالروم.

ومن شكل باءة: باه، يقال للبيت الخالي: به، ومن أمثالهم: المعزى تبهي ولا تبني، وذلك أنها تصعد على الأبنية وهي الأخبية فتبهيها، أي تخرقها، ومع ذلك فإن الخباء لا يكون من شعرها إنما يصنع من الصوف، ذكر معناه أبو عبيد في حديث النبي عليه السلام: وسمع رجل حين فتحت جزيرة العرب، أو قال: فتحت مكة، يقول: أبهوا الخيل فقد وضعت الحرب أوزارها فقال عليه السلام: لا تزالون تقاتلون الكفار حتى يقاتل بقيتكم الدجال. قوله: أبهوا الخيل، أي عطلوها من الغزو، وكل إناء فرغته فقد أبهيته. ومنه قيل للبيت الخالي: باه، كما تقدّم. وفي مسند البزار: يوهي بالخيل والسلاح، وزعموا أن لا قتال، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كذبوا الآن جاء القتال.

وأما باء الثالث: ففعل ماض، تقول منه: باء الشيء يبوء بوءاً: رجع، وباء بذنبه: احتمله وانصرف به. وفي القرآن العزيز: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٢]، وقوله تعالى: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠]، و﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ [المائدة: ٢٩]، ولا يكون إلا في الشر، ثم قال تعالى بعد ذلك: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ [المائدة: ٣٢] أي: من سبب ذلك، وقيل: من جراء ذلك، وجراء بالمد والقصر، ويقال: فعلته من أجلك بالفتح والكسر، ومن أجلاك، أي من جراك، والأجل بالكسر لا غير: القطيع من بقر الوحش، والجمع آجال. والأجل أيضاً: وجع في العنق، يقال منه: أجل الرجل، إذا نام على عنقه فاشتكى، تقول: بي أجل

فأجلوني منه، أي داووني، والأوّل مثله كذلك وجع في العنق. والأجل، بالفتح: مدّة الشيء، وأجل مسكن اللام: بمعنى نعم هو جواب مثله، ويصلح في التصديق إذا قيل لك: أنت تذهب، فقل: أجل، هو أحسن من قولك: نعم، ونعم في الاستفهام أحسن إذا قيل لك: أتذهب؟ فقال: نعم، هو أحسن من أجل، قاله الأخفش. ويقال: باء بفلان: إذا قتل به، وأبأت بفلان قاتله: قتلته به، واستنبأت به: استقدت به، وباء بدم فلان: أقرّ به على نفسه، من قولهم: بؤ على نفسك بكذا، أي اعترف به وأقرّ. وقال الأعشى:

أصـــــالحكم حتـــــى تـــــبوؤوا

وأما: وبأ، فإنه مهموز مقصور، وفيه لغة أخرى: وباء، ممدود وجمعه على هذه اللغة أوبية، وعلى مثل المقصور: أوباء، والواو أصلية في هذه اللفظة أدخلتها مع أخواتها لإقامة الشكل، وتركت همزه ضرورة لأنهم أجازوا ترك الهمز فيما يهمز ولم يجيزوا همز ما لا يهمز. والوباء: الحمى، وقال صاحب كتاب العين: الوباء الطاعون، وأرض وبئة وموبئة، وقد وبؤت وأوبأت.

ومن هذا الشكل من غير المعنى: أوبأت، وذلك أنهم قد يبدلون الميم في أومأت باء فيقولون: أوبأت، قال الفرزدق:

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا ... وإن نحن أوبأنا إلى الناس وقفوا

ويقال في هذه أيضاً: ومأ وأومأ وأوبأ، كما تقدّم ووبأ، وقيل الإيباء: إيماء إلى خلف، وأنشد شاهداً على ومأ:

ومـــا كـــان إلا رمـــؤها بالحـــواجب

وصدره:

فقلـــنا ســـلام فاتقـــت مـــن أميـــرها

فصل:

ومما يقرب من هذا الباب مما لا يتزن: بأى يبأى بأواً: إذا افتخر وزها، وسيأتي مع نأى ينأى في باب النون. ومثل بأى ثأى، بمعنى أفسد. قال صاحب العين: الثأي(*) الإفساد، ومثله: الثأى، يقال في الجراحات والقتل ونحوه. وفي خرم الخرز يقال: أثأيت خرز الأديم، وهو أن تغلظ الإشفى وتدق السير فيسيل الماء.

ومن مضاعف هذا الباب: البأبأة: هدير الفحل، وبأبأت الرجل، إذا قلت له: بأبي أنت. ومن العرب من يقول: بأبأنا، ومنهم من يقول: بيبنا. وكذا جاء في الحديث بهذا

(*) الثأي الأولى كالسقي، والثانية كالثرى. قوله: البأبأة صوابه بأبيه وزان فيقبه كما في القاموس ولسان العرب.

اللفظ ذكره البخاري وغيره. وقال بعض العلماء أظنه المازري: فيه ثلاث لغات: بأبأنا وببينا وبيبا، ليّن الهمزة وأبدل منها ياء. قال الفراء: من قال ببينا توهم أنه اسم واحد فجعل آخره بمنزلة سكرى وغضبى، قال الشاعر:

ألا بيبا من لست أعرف غيره ولو درت أبغي ذلك الشرق والغربا

وقالت امرأة:

بأبي أنت ويا فوق البيب

وقال الشاعر:

وصاحب ذي غمرة داجيته بأبأته وإن أبي فديته

حتى أتى الحي وما آذيته

والبؤبؤ: الأصل، يقال: بؤبؤ الكرم، والبؤبؤ أيضاً: السيد الطريف الخفيف. ومن أسماء السيد أيضاً: البدء، والذي يليه في السودد يقال له: الثنيان، قال الشاعر:

ثنياننا إن أتاهم كان بدأهم وبدؤهم إن أتانا كان ثنيانا

ويأتي من مقلوب وبأ: واب، وقد تقدّم ذلك مع أوب وبأو. وأما تاء وثاء فهما من حروف المعجم، وسيأتي الكلام عليهما مع الهاء إن شاء الله. وأقدّم هنا: وثأ، إذا جعلت الواو أصلية وهمزت الألف من غير تنوين مثل وجأ فيصير فعلاً، تقول منه: وثأ فلان رجل فلان أو يده، إذا أصابه بكسر أو نحوه. وكذلك وثئت يده، مثل فدعت وعثيت:

خرجت من شيء إلى غيره من باب باء ثم تاء وثا

وكله علم ومن لم يكن لديه علم نفسه قد وثا

فصل:

من الفوائد الزوائد:

تقدّم: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ [المائدة: ٢٩] نزلت في هابيل وقابيل ابني آدم عليه السلام، وكان هابيل مؤمناً وقابيل كافراً، وقيل: كان عاصياً ولم يكن كافراً. وروي أنه حسد أخاه بسبب أخته التي ولدت معه في بطن، وأمر آدم أن يزوّجها من هابيل على ما كان يصنع من تزويج ذكر بطن من أنثى البطن الأخرى. وقيل: إنه زوّجها من هابيل فحسدها على ذلك، فلما قرّبا القربان الذي وصفه الله تعالى؛ وكان قربان هابيل كبشاً؛ فتقبّله الله تعالى منه، وحبسه عنده حتى أخرجه لإبراهيم عليه السلام فداء لابنه، وكان قربان قابيل زرعاً فلم يتقبّل، وكان علامة تقبّل الله القربان أن تأتي نار من السماء فتأكله، فازداد قابيل حسداً لهابيل فقال له: لأقتلنك، فقال له:

أتقتلني إذ لم يتقبل قربانك؟ و﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ ﴾ [المائدة: ٢٧-٢٩] قيل: معنى إرادته أنه أراد الثواب بكف يده عمن يقتله، فصار في ذلك بمنزلة من يريد الإثم لأخيه مجازاً. وقيل: لما كان لا بدّ قاتلاً أو مقتولاً أراد أن يكون مقتولاً ضرورة، وليست بإرادة محبة ولا شهوة. وقيل المعنى: إذا قتلتني أردت ذلك لك لأن الله أراده للقاتل. ومعنى: إثمي وإثمك، فيما روي عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما: إثم قتلك إياي وإثمك الذي كان منك قبل قتلي. وقيل: بإثم قتلك إياي وإثمك الذي لم يتقبل قربانك من أجله، عن مجاهد. وقيل: قال ذلك لأنه لو بسط يده إليه لأثم، فرأى أنه إذا أمسك يده عنه رجع إثمه على صاحبه الذي بسط يده إليه. وقال الحسن: كان هذان اللذان أخبر الله عنهما من بني إسرائيل. وقال ابن عباس وابن عمر وغيرهما: هما ابنا آدم لصلبه كما تقدّم. قال مجاهد: لم يدر كيف يقتله حتى علمه إبليس. قال ابن عباس وابن مسعود: وجده نائماً فشدخ رأسه بحجر، ولما قتله ندم على قتله فقعد يبكي عند رأسه، إذ أقبل غرابان فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر ثم حفر له فدفنه، ففعل القاتل بأخيه كذلك.

ويروى أنه حمله على عنقه سنة حتى بعث الله له غرابين يقتتلان كما تقدّم. والسوأة يراد بها العورة، وقيل يراد بها جيفة المقتول. وجاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تقتل نفس إلا كان على ابن آدم الأوّل كفل منها. وفي رواية: لأنه أوّل من سنّ القتل. وفي أخرى: لا تقتل نفس ظلماً.

وتقدّم: بؤ على نفسك بكذا، أي اعترف وأقرّ به. وجاء منه في الحديث: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الاستغفار أن تقول اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شرّ ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. قال: ومن قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة. خرّجه البخاري.

وفي الحديث أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما. ويقال: باء بذنبه، إذا احتمله كرهاً لا يستطيع دفعه عن نفسه، كما باءت اليهود بغضب الله، نعوذ بالله من غضبه وجميع سخطه.

وتقدّم ذكر الحمى والوباء، وجاء من ذلك في الحديث: لما قدمنا المدينة نالنا وباء من وعكها شديد. والوعك: إصابة المرض، ومنه قال عليه السلام: إني لأوعك

كما يوعك رجلان منكم، وقال له بعض أصحابه: ذلك بأن لك أجرك مرّتين؟ قال: أجل، أو كما قال عليه السلام. وقالت عائشة رضي الله عنها: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وعك أبو بكر وبلال، فكان أبو بكر يقول إذا أخذته الحمى:

كل امرئ مصبح في أهله ... والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بواد وحولي إذخر وجليل
وهل أردن يوماً مياه مجنة ... وهل يبدون لي شامة وطفيل

شامة وطفيل: جبلان بينهما وبين مكة عشرون ميلاً. ويروى: وقفيل بالقاف، وهذه كلها مواضع بمكة وما يليها، قاله البكري. وقال الخطابي: كنت أحسبهما جبلين حتى وقفت عليهما فإذا هما عينان من ماء، ذكر ذلك في كتاب الأعلام. قلت: ويحتمل أن يكونا عينين في جبلين، ولا يكون خلاف بين الخبرين. والإذخر: حشيش بمكة معروف. والجليل: الثمام، وسيأتي فيه الكلام. ومجنة: موضع.

وقع في النوادر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال؛ لما سمع بلالاً ينشد هذا البيت: حننت يا ابن السوداء.

قلت: انظر حنين بلال إلى تلك الجبال، ولم تزل الشعراء على قديم الزمن تذكر الحنين إلى الوطن، وقد تسلسل ذلك الأمر وانجر إلى هلم جراً، هذا ابن ميادة يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بوادي الخزامى حيث ربتني أهلي
بلاد بها نيطت علي تمائمي ... وقطعن عني حين أدركني عقلي

وقال آخر:

بلاد بها حل الشباب تمائمي ... وأوّل أرض مسّ جسدي ترابها

وكان عامر بن فهيرة يقول:

إني رأيت الموت قبل ذوقه ... إن الجبان حتفه من فوقه

قالت عائشة: فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال: اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة وأشدّ، وصححها وبارك لنا في صاعها ومدّها وانقل حماها فاجعلها بالجحفة، فأجاب الله دعاءه. قال عليه الصلاة والسلام: رأيت مرة امرأة سوداء ثائرة الرأس خرجت من المدينة حتى قامت بمهيعة، فأوّلتها أن وباء المدينة نقل إلى مهيعة وهي الجحفة. خرّجه البخاري.

وقال أبو طالب في كتابه قوت القلوب: ما جاءت الحمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اذهبي إلى أهل قباء. وهذا أحد الوجهين في قوله تعالى: ﴿ رِجَالٌ

﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ [التوبة: ١٠٨] أي بالأمراض من الذنوب. ولذلك سأل زيد بن ثابت أن لا يزال محموماً، فلم تكن الحمى تفارقه. وفي خبر: حمى يوم كفارة سنة، قال: لأن حمى يوم تدخل في جميع المفاصل، وفي الإنسان ثلاثمائة وستون مفصلاً عدد أيام السنة، فله بكل مفصل كفارة يوم، وبسبب هذه الدعوة يقال: إن الطائر كان يمرّ بغدير خم فيسقم، وغدير خم فيها، وهو على ثلاثة أميال من الجحفة يسرة على الطريق. ويقال: ما ولد فيها مولود فبلغ الحلم، فمن أجل ذلك لا تسكن، وهي أرض نجعة، والله أعلم.

ويقال: إن مهيعة قريب من الجحفة، والجحفة ميقات أهل الشام والمغرب، وهي من جهة البحر بينها وبينه نحو من ستة أميال. ويقال: إنها سميت بهذا الاسم لأن الوباء اجتحفها. ومن الحمى حديث عائشة: أخذتها حمى نافض في حديث الإفك. وفي رواية أخرى: قالت عائشة: فارتكبني صالب من الحمى، قاله ثابت، أيضاً قال: والصالب من الحمى ما لا ينفض، وقد يذكر ويؤنث. قال الكسائي: يقال: صلبت عليه الحمى فهو مصلوب عليه.

وفي خبر عن عبد الرحمن بن حفص قال: قدم رجل من بني كلاب المدينة يكنى أبا حبال فنزل على أبي ومعه ابنه حبال، فلم ينشب حبال أن وعك ثم مات، فقام أبي لحاجته حتى إذا هممنا أن نواريه في أكفانه قال أبوه لأبي: دعني حتى أدخل فأسلم عليه، فقال له: أنت وذاك، قال: فدخل فأكب عليه فسمعناه يقول:

فلولا حبال لم تنخ بي مطيتي ... بأرض به الحمى بوجه وصالب
وقائلة أرداك والله حبه ... بنفسي حبال من خليل وصاحب

فلم يزل يردّدها حتى هدأ صوته فقال لنا أبي: ادخلوا على الرجل فإني أراه قد مات، فدخلنا عليه فوجدناه قد مات. والأمراض والعلل كفارة الذنوب والخطايا، والحمى من جملتها، وفيها حبس عن المعاصي وضعف عن ارتكابها، ولا يبتلي الله بذلك إلا من يحب، كما روي عن الله تعالى أنه قال: الفقر سجني والمرض قيدي، أحبس بذلك من أحب من خلقي. وفي الحديث: لا تزال الحمّى بالعبد حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة. وقال بعضهم: علل الأجسام رحمة وعلل القلوب عقوبة. ويقال: سبب دعائه عليه الصلاة والسلام: وانقل حماها فاجعلها بالجحفة؛ أن الجحفة إذ ذاك كانت لأهل الشرك. ويقال: إنما قال ذلك عليه السلام لأن الحمّى كما قال حظ كل مؤمن من النار، فلم يكن عليه السلام ليدعو أن تنقل إلى أرض فارس والروم فلا تصيب أمته وهي حظهم من النار. وفي الحديث بشرى إن شاء الله لمن أصابته الحمّى

من أمته في الدنيا أنها حظه من نار الآخرة، ولذلك نهى عن سبها حين دخل على أم السائب وأم المسيب فقال: ما لك تزفزفين؟ قالت: الحمى لا بارك فيها، فقال: لا تسبي الحمى فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد. والزفزفة صوت المرتعد من البرد، وقال فيها: الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء. وجاء في لفظ آخر: الحمى رائد الموت وسجن الله في الأرض فبردوا لها الماء في الشنان ثم صبوه عليكم، فيما بين الصلاتين، قال: يعني المغرب والعشاء، خرّجه ثابت بن قاسم في الدلائل، وقال في تفسير: سجن الله في الأرض، يريد أنها تمنع من التقلب والتصرف كما يمنع المسجون. قال: وحدّثنا إسماعيل الأسدي قال: حدّثنا عمر بن شبة قال: حدّثني عاصم بن بهلول قال: دخلت على شيخ الأعراب له زهد وورع قد أحرضته العلة وهو يتقلب على فراشه وينظر في وجوه أحبته، لا يستطيعون كشف كربته، يريد النهوض فلا يستطيع، وما عليه غل ولا قيد، وأسير الملوك في المطابق والحبوس وفي الأغلال والقيود، وأنشد يقول:

أسير الملوك له المطبق ... ومن دونه رتج مغلق
وإما هواناً بثقل الحديد ... وضرب السياط التي تحرق
وأما أسير مليك العباد ... وإن حازه الغرب والمشرق
ففي بيته وعلى فرشه ... أسير وظاهره مطلق
يطيل التقلب فوق الفرا ... ش مخلى وباطنه موثق
ففي مثل هذا وفي شبهه ... دليل على الله مستنطق

قوله في أوّل بيت: رتج، فإنه الباب المغلق، ويقال له: الرتاج. وقالوا: فلان في كلامه رتج، أي تتعتع وعيّ، وهو من قولهم: رتج فلان وبكم، إذا انقطع عن الكلام، وكذلك: أرتج على فلان، إذا أراد قولاً فلم يصل إلى تمامه. ويروى أن عثمان رضي الله عنه صعد المنبر فأرتج عليه، ثم قال: الحمد لله، إنّ أوّل كل مركب صعب، وإنّ أبا بكر وعمر كانا يعدّان لهذا المقام مقالاً، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام قائل، وإن أعش تأتكم الخطبة على وجهها وتعلم الناس إن شاء الله.

ونوع من هذا أرتج على أمير يوم عيد الأضحى، فسكت طويلاً ثم قال: سيجعل الله بعد عسر يسراً وبعد عيّ بياناً، وأنتم إلى أمير فعّال أحوج منكم إلى أمير قوّال، وإني لا أجمع عليكم عياً ولوماً، من كانت له أضحية فليذبحها، ومن لم تكن له فعليّ ثمنها، قوموا رحمكم الله، أو كما قال. ومن أحسن ما قيل في خطيب:

ركوب المنايا وثابها ... معز لخطبته مجهر

تـربع إلـيه هـوادي الكـلام إذا خطـل النثـر المهمـر

هذان البيتان لابن بطحاء العدوي قالهما متمثلاً عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما في معاوية رحمه الله في حديث مدحه به، قال في آخره: وكان والله كما قال ابن بطحاء العدوي، وذكر البيتين.

رجع: وقوله في الحديث: فأبردوها بالماء، فأصلها من الحرارة فلذلك أمر ببردها بالماء، ومنه الحمئة: عين فيها ماء سخن يستشفي بها الأعلاء والمرضى. وفي الحديث: العالم كالحمئة يأتيها البعدى ويزهد فيها القربى. ومنه الحميم: القيظ، والحميم: المطر الذي يأتي في شدّة الحر. والحميم: العرق، وسيأتي ذكره مع ما شاكله في باب حم إن شاء الله. والحميم أيضاً: الماء الحار، والحميمة مثله. وفي البخاري: وتوضأ عمر بحميم. ومنه قول أبي هريرة لابن عباس رضي الله عنهما حين ذكر له حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في الوضوء مما مسّت النار، فقال له ابن عباس: أتوضأ من الدهن أتوضأ من الحميم، يريد الماء السخن، فقال له أبو هريرة: يا ابن أخي إذا سمعت الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تضرب له الأمثال. ومنه الحمام أيضاً، والحميم: العرق. وقد استحم: إذا عرق، ويقال لمن دخل الحمام: طاب حميمك، أي عرقك، لأن الصحيح يطيب عرقه. وقيل للصديق: حميم، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٠١]، قال أهل التأويل: الحميم من الناس: الخالص، ومنه: حامّة الرجل، كأنهم الذين يحرقهم ما أحرقه، مأخوذ من الحميم وهو الماء الحار. ومنه حمة العقرب والزنبور، يعني حرارة لدغهما، والله أعلم.

وأما قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴾ [الدخان: ٤٨] فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الحميم حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان. خرّجه الترمذي في الصحيح. واليحموم: الدخان. ويأتي في باب الحاء طرف من هذا الكلام إن شاء الله تعالى.

فصل:

فيما تقدّم من اللغات في فصل الفوائد: تقدّم في بيت ابن ميادة: حيث ربتني أهلي، يقال: ربيت الصبي وربيته تربية، وربيت الأمر أربه رباً: إذا أصلحته، قال الشاعر:

يربون بالمعروف معروف من مضى وليس عليهم دون معروفهم قفل

ومنه قولهم: ربيت الزق: أصلحته بالرب، والأصل في هذه اللفظة الزيادة والإتمام، تقول: ربيت النعمة عند فلان: تممتها وزدت فيها، ومنه: ربيت الصبي كما

تقدّم. والربيب: ولد المرأة، وكان عمر بن سلمة وأخته زينب ربيبا النبي صلى الله عليه وسلم أمهما أم سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم. والربيبة: الحاضنة، والربيبة أيضاً: الجارية في الخدر، وقالوا: فلانة ربة بيت، والربة أيضاً: العزى، وكانت تسميها ثقيف الربة، وسيأتي حديثها. والراب: زوج الأم، والربى: الشاة التي تربي ولدها، ذكره مالك في الموطأ، وهي الحديثة الوضع، وجمعها ربات، والرباب: اسم امرأة، والرباب أيضاً: العود الذي يغنى به، والرباب: السحاب، والربابة بالكسر: خرقة تجعل فيها القداح، والربرب: القطيع من بقر الوحش، والرب: الله تعالى ذو الربوبية، والرب: المالك، والرب: المربي، وسيأتي في آخر الكتاب تفسير قوله تعالى: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ ﴾ [المائدة: ٢٤] أنه هارون لأنه ربى موسى عليهما السلام. ورب وربما وربتما كلمة يراد بها التقليل، وقد جاء أنه يراد بها التكثير.

فصل:

الميم في مهيعة زائدة والهاء للتأنيث، كما يقال: أرض قفر، فإذا أردت أردت منزلة أو محلة قلت: قفرة، والأرض المهيعة الواسعة المنبسطة، والطريق المهيع مفعل من التهيع، وهو الانبساط، ومن قال: فعيل، فقد أخطأ لأنه ليس من كلام العرب فعيل إلا وصدره مكسور، مثل: عثير وحذيم قاله ثابت رحمه الله.

فصل:

آخر في قوله عليه السلام: الحمى من فيح جهنم: يقال: فاحت القدر تفيح، إذا غلت، وفاحت الشجة إذا نفحت بالدم. قلت: ومعلوم أن الشجة والدم رائحتهما وبيلة قبيحة، ألم تر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في رائحة دم المقتول في سبيل الله كيف يأتي يوم القيامة، كما قال: اللون لون دم والريح ريح مسك. فلولا أن رائحة الدم عندنا في الدنيا كريهة لما كانت في الآخرة محمودة كرائحة المسك، كما قال في مثل هذا: لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. فإذاً كما يقال: فاح الطيب فوحاً، بالواو، يقال في ضده: فيحاً، بالياء، والله أعلم.

وذا فصل الفوائد قد تقضى ... وفيه قد أتتك لغات شتى
فخذ هذا وذا واشدد عليه ... يديك بني واقبل ما تأتى
وهاأنا ذا أعود أفي بشرطي ... وأكتب بعد ذا أبا وأتا

مقلوب البيت حرف بين ألفين:

وأبا وأتا وأثا وآبا ... وأبا وأتا وبلّ وبل

أما: أبا وأتا وأثا، فمصادر ألفاظ البيت الأول. وأما: آبا، فجمع أب جمع التكسير

وهو مهموز ممدود، وإن ترك همزه فللضرورة كما تقدّم. وقد تقدّم جمعه وتثنيته سالمين، ويأتي منه فعل الرجل الآبي، تقول: أنا آبي هذا الأمر، أي أكرهه، ويأتي منه أباء فعال للكثير الإباء. قال كعب بن الأشرف:

رب خال لي لو أبصرته ... سبط المشية أباء أنف

يقال من فعله: أبيت الشيء آباه إباء، ورجل أبيّ من قوم أباة، وقد تقدّم قول الزبير رضي الله عنه:

ويعلم من حوالي البيت أنا ... أباة الضيم نمنع كل عار

ويقال للرجل يأبى قبول الشيء: وما هذا الأباء؟ بالضم، وأما الأباء بالفتح مقصوره فداء يأخذ المعز في رؤوسها فلا تسلم، وقد أبيت أباً شديداً، وعنز أبية وأبوء، قاله صاحب العين، وأنشد ابن دريد في قصيدته التي جمع فيها بين المقصور والممدود:

وكأنهم معز الأبا ... أو كالحطام من الأبا

كذا قرأتها على الدياجي رحمه الله بسنده فيها إلى ابن دريد، وقال في شرح البيت: الأبا المفتوح الأوّل مقصور، وهو داء يأخذ المعز في رؤوسها إذا شمت بول الأروى، ولا يكاد يكون ذلك في الضأن، ويكتب بالألف لأن أصله الواو، يقال: عنز أبوأ وتيس أباء بيّن الأبا، والأباء: أطراف القصب. وقال الأصمعي: الأباءة: القصبة، والأباءة: الأكمة. انتهى كلامه. والشرح ليس من رواية العثماني.

وقال غيره: الأباءة: الأجمة التي فيها الأسد، وكذلك الغيل والخدر والعرين والعريسة، وينشد في الأباء الذي هو القصب قول كعب بن مالك:

من سره ضرب يمعمع بعضه ... بعضاً كمعمعة الأباء المحرق

وقد قيل في هذا إنه البردي، قاله ابن السيد، واحدته أباءة كما تقدّم. قال ابن جني: الهمزة الأخيرة فيه بدل من ياء هو عنده من الأباية، كأنّ القصب يأبى على من أراده بمضغ أو نحوه، كما قال الشاعر:

يراه الناس أخضر من بعيد ... وتمنعه المرارة والأباء

أصوات النار :

والمعمعة صوت النار فيما عظم وكثف من الشجر أو القصب أو نحوهما. والكلحبة صوتها فيما دق كالسراج ونحوه. والغطغطة صوت الغليان، وكذلك الغرغرة، تقول: أبأت الرجل منزلاً، كما تقول: بوّأته، أنزلته فيه فتبوّأه، وأبأت عليه ماله أرحته عليه، وأبأت بفلان قاتله، قتلته به، وقد تقدّم. وكذلك أبا يأبى أباية، ومن هذا قولهم:

أبيت اللعن، كما قال النابغة:

أتانــي أبـيت اللعــن أنـــك لُمتنـــي

البيت. معناه أنك كرهت أن تأتي ما تلعن عليه.

اتى: وأما آتى فمعناه أعطى من قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية. تقول منه: آتى يؤت فهو مؤت، اسم فاعل، كما قال تعالى: ﴿ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [المائدة: ٥٥]، واسم المفعول مؤتي مثل معطي، ويجيء مؤتى على وزن مفعل بمعنى مهيأ، ويجيء آتي إذا مددت الهمزة بمعنى أفعل، ومن ذلك قول أبي جهل في يوم بدر حين دنوا للقتال: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة، فكان هو المستفتح. ومما لم يتزن سوى ما ذكر قبل هذا: أتى مقصور يأتي فهو آت. وفي القرآن من هذا: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١] قيل معناه يأتي كقولك: إن أكرمتني أكرمتك، تقول منه: أتى يأتي أتياً وإتياناً: جاء، قال الشاعر:

فاحــتل لنفــسك قــبل أتــى العــسكر

وتقول: أتوته آتوه، لغة فيه، ومنه قول خالد بن زهير:

يــا قــوم مــا لــي وأبــي ذؤيــب كــنت إذا أتــوته مــن غــيب

وتقول: ما أحسن أتو يدي هذه الناقة. وأتى أيضاً أي رجع يديها في السير، والإتاوة: الخراج، تقول منه: أتوته آتوه أتواً وإتاوة، قال الشاعر:

ففــي كــل أســواق العــراق إتــاوة وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم

وتقول: آتيته على هذا الأمر مؤاتاة، والعامة تقول: واتيته، وتقول: أتى البعير أتواً، استقام وأسرع، وأتت الماشية إتاء: نمت، وزرع لا إتاء له، أي لا نماء. والإتاء أيضاً الغلة وحمل النخل، تقول منه: أتت النخلة تأتو أتاء، وأنشد:

هــنالك لا أبالــي نخــل بعــل ولا ســقي وإن عظــم الإتــاء

والمؤاتاة: المطاوعة، وتأتى له الأمر: طاع له، وقد أتاه الله تأتية، وأتيت الماء تأتية وتأتياً، أي: سهلت سبيله ليخرج إلى موضع، والأتي: السيل لا يدرى من حيث أتى، ورجل أتي وأتاوي: غريب. وجاء في الحديث ذكر الأتي مفسراً: كان فينا رجل أتي لا ندري ممن هو يقال له قزمان، الحديث. ومنه حديث عثمان رضي الله عنه حين أرسل سليط بن سليط وعبد الرحمن بن عتاب إلى عبد الله بن سلام فقال: ائتياه فتنكرا وقولا له: إنا رجلان أتاويان، وقد صنع الناس ما ترى الحديث. وقال أبو عبيد وذكر هذا الحديث. أما الحديث فيروى بالضم، وكلام العرب بالفتح، يعني الهمزة من أتاوي.

والأتيّ أيضاً ما وقع في النهر من خشب أو ورق والجمع أتيّ وآتاه.

اثى: ومن هذا الشكل أثى مقصور مثل أتى، تقول: أثا به يأثو ويأثى إثاوة وإثاية: سعى عليه ونمّ به، ومنه حديث ضبة بن محصن قال: انطلقت آثي على أبي موسى عند عمر بن الخطاب، ذكره ثابت، قال وقال أبو عبيد: أثوت بالرجل وأثيت وثئت به، وتقول: أثأته بسهم إثاءة: رميته، وهذا مهموز، ويشبه أثوت وأثيت. وأما آت اسم الفاعل وهو الذي وعدت به بذكره فقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، و﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ﴾ [الحجر: ٨٥]، و: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ﴾ [العنكبوت: ٥]، واسم المفعول منه مأتي، وفي القرآن العزيز: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١]، قال المهدوي: مأتي مفعول من الإتيان، وكل ما وصل إليك فقد وصلت إليه. وقال القتيبي: هو مفعول بمعنى فاعل، وكذلك قال غيره، أي آتياً كما قال: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥] أي ساتراً، ويجمع بين القولين ما تقدّم من أن ما أتاك من أمر الله فقد أتيته أنت، وتقول: أتيت الأمر من مأتاته، أي من مأتاه، أي: من وجهه الذي يؤتى منه، قال الشاعر:

وحاجة كنت على صماتها ... أتيتها وحدي من مأتاتها

وجاء في الحديث: ما كان في طريق ميتاء. قال أبو عبيد: الميتا الطريق العامرة المسلوك عليها.

فصل:

من الفوائد الزوائد:

تقدّم أبيت، ومنه قول أبي هريرة رضي الله عنه وقد سئل عن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما بين النفختين أربعون، فقيل لأبي هريرة رواية: أربعون يوماً؟ قال: أبيت، قيل: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، قيل: أربعون سنة؟ قال: أتيت، أي كرهت أن أحدّ في ذلك وقتاً إذ لم يحدّه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وترك الحدّ مبهماً رضي الله عنه، والله أعلم بما أراده رسوله عليه السلام من ذلك.

وتقدّم مؤتى، ومن ذلك قول الأقرع بن حابس حين فاخر هو وقومه بنو تميم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجابه حسان بن ثابت بشعر، وهو شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم وثابت بن قيس بن شماس خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما سمع ذلك الأقرع وقومه قال: إن هذا الرجل لمؤتى له، لخطيبه أحسن من خطيبنا، وشاعره أشعر من شاعرنا. انظره في السير.

وتقدّم: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١]، وأخبار الله في الماضي والمستقبل سواء، وأمر الله: عقابه لمن أقام على الشرك به وتكذيب رسوله عليه الصلاة والسلام، وقيل: أمره ما جاء به القرآن من فرائضه وأحكامه، وقيل: أمره نصره، وقيل: هو القيامة، وقيل: المعنى أتت أشراط الساعة وما يدل على قربها، وقيل: هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم كقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ [هود: ٤٠]، ذكر ذلك المهدوي.

آتى: وتقدّم أتي بمعنى جاء، وآتى بمعنى أعطى، وفي القرآن العزيز ما يقرأ بالوجهين ويكون بالمعنيين، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ [الأنبياء: ٤٧] يعني جئنا، وقد قرئ: (آتينا) بمعنى أعطينا، يعني جازينا بها، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون: ٦٠] بمعنى يعطون ما أعطوا وقلوبهم وجلة أي: خائفة، وفي الآية تخويف شديد لهذه الأمة. وذلك أن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أهو الرجل يزني ويسرق أو يشرب الخمر؟ فقال: لا يا ابنة الصدّيق، ولكنه الرجل يصلي ويصوم ويتصدّق ويخاف أن لا يتقبل منه، ذكره أبو جعفر النحاس وقال: هكذا روي، ومعناه يعطون، ولكن المعروف من قراءة ابن عباس: (والذين يؤتوا ما أتوا) بالقصر، وهي القراءة المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن عائشة رضي الله عنها، ومعناها: يعملون ما عملوا. ومثل ما تقدّم قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا ﴾ [الأحزاب: ١٤] يقرأ بالقصر بمعنى لجاؤوها، وبالمد بمعنى أعطوها. وفي الرقائق عن الحسن: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، قال: يعطون ما أعطوا وقلوبهم وجلة، قال: يعملون من أعمال البر وهم يحسبون أنه لا ينجيهم ذلك من عذاب ربهم.

وتقدّم الميتاء، ومنه حديثه عليه السلام أنه بكى على ابنه إبراهيم عليه السلام، وقال: إنه لولا وعد حق وقول صدق وطريق ميتاء لحزنًا عليك يا إبراهيم أشدّ من حزننا. وفي هذا الحديث رخصة في البكاء ما لم يكن صوت ولا كلام قبيح، كما قال عليه السلام إذ بكى: تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون، أو كما قال عليه السلام. والفرح والحزن حالان يجعلهما الله في العبد لا يقدر أن يدفعهما عن نفسه، فليس عليه في ذلك إثم إلا أن يتكلم بمحظور،

فحينئذ يتعلق به الوزر من أجل الكلام. ألا ترى إلى قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ يقول: اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينت لنا، اللهم إني أسألك أن أنفقه في حقه، خرّجه البخاري، وكذلك فسر قوله تعالى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٣] يريد الفرح الذي يكون معه الأشر والبطر، بدليل قوله في آخر الآية: ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد: ٢٣]، وكذلك الأسى على ما فات، يريد الحزن الذي يكون معه الفجر والنطق بالفحش، والله أعلم.

وذكر البخاري رحمه الله أيضاً عن علقمة بن أبي وقاص أن مروان قال لبوّابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل له: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذبن أجمعين، فقال ابن عباس: وما لكم ولهذه؟ إنما دعا النبي صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب فسألهم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره فأروه أن قد استحمدوا عليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم، ثم قرأ ابن عباس: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧] كذلك حتى أتى إلى قوله: ﴿ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزن ويبكي كما تقدّم في الخبر عند موت ابنه إبراهيم، وكذلك بكى إذ عاد سعد بن عبادة، فلما رأى القوم بكاءه بكوا فقال: ألا تستمعون إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب ولكن يعذب بهذا، وأشار إلى لسانه، أو يرحم. وقد أرسلت إليه إحدى بناته تخبره أن ابناً لها في الموت وأقسمت عليه في أن يأتيها، فقام النبي صلى الله عليه وسلم وقام سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأسامة بن زيد، فرفع إليه الصبي ونفسه تقعقع كأنها في شنة، ففاضت عيناه، فقال له سعد بن عبادة: ما هذا يا رسول الله؟ قال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عبادة الرحماء.

وخرّج النسائي عن أبي هريرة قال: مات ميت من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمع النساء يبكين، فقام عمر ينهاهنّ ويطردهنّ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دعهنّ يا عمر، فإن العين دامعة والفؤاد مصاب والعهد قريب. وخرّج مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة، جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف فيه الحزن، وذكر الحديث.

وفي الدلائل عن عائشة رضي الله عنها قالت: أقبل رسول الله صلى الله عليه

وسلم من قبر سعد بن معاذ، وإن الدموع تجري على وجنتيه وهو قابض على لحيته. وعنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اشتدّ غمّه مسح بيده على رأسه ولحيته وتنفّس الصعداء وقال: حسبي الله ونعم الوكيل، فيعرف بذلك شدّة غمّه صلى الله عليه وسلم. وفي الرسول صلى الله عليه وسلم أسوة، كيف لا وهو القدوة صلى الله عليه وسلم وعلى آله، وفي هذا كفاية، وسيأتي نوع من هذا الكلام في باب الواو إن شاء الله.

وذا فصل الفوائد قد تقضى   وآخذ بعد في باب وناب
وثاب وتاب تاب الله ربي   على من ناب في هذا منابي

مقلوب البيت ألف بين حرفين:

وباب وثاب وناب وتاب   وثاب وبات وتل وتل

◆◆◆

وذا البيت استعرت النون فيه   وما في ذلكم يا قوم عار
وإذ جاءت فأعملها بجهدي   أحق الخيل بالركض المعار

وقد كنت وجدت لباب وأخواته من الكلم ألفه وأؤخر النون إلى بابه فأسوقه وحرفه، ولكن لأمر ما جدع قصير أنفه، كنت أسوق عوض ناب وتاب لفظة نات، اسم فاعل نتا، ولفظة وثاب اسم الفراش، ووثاب أيضاً مصدر وثب، نعم وثم وثاب اسم مشهور إلا أنه لا يتزن، وستأتيك فيه حكاية طريفة مع الوثاب المصدر، مع الوثاب الذي هو الفراش المذكورين، لكن رأيت كما قال إن من العلم في النون شتى فنون، حسبما تراه مفسراً بعد دام لنا ولك السعد.

باب: وأما باب فهو المدخل إلى الشيء، ومنه يكتب باب كذا وهو الثقب المنفتح في الحائط وألفه منقلبة عن واو لأنك تقول: بوّبت باباً، وتجمعه على أبواب فتظهر الواو وتجمعه على أبوبة أيضاً، لكن للازدواج، كما قال:

هتاك أخبية ولاج أبوبة   يخالط البرّ منه الجدّ واللينا

وأما الذي يسدّ به فهو مصرع وجمعه مصاريع. ويقال له أيضاً: خلف، وقد يسمى الكل باباً اتساعاً على ما يأتي إن شاء الله.

والباب عند أهل المساحة والذرع: قصبة طولها ستة أذرع بالذراع الهاشمي التي هي اثنان وثلاثون أصبعاً. والأشل عندهم عشرة أبواب، وأشل في أشل عندهم جريب، ذكره ابن السيد.

والباب أيضاً اسم بلد مشهور، ويقال فيه أيضاً باب الأبواب، وإليه ينسب الفقيه

أبو القاسم بن إبراهيم الورّاق المعروف بالبابي وهو ممن شرح الشهاب، وستمرّ له أحاديث من تفسيره في هذا الكتاب إن شاء الله.

وباب أيضاً اسم والد رجل من الخوارج وفيه يقول الشاعر:

برئت من الخوارج لست منهم ... من الغزال منهم وابن باب

قال ابن يزيد: ليس من الخوارج ولكنه معتزلي، واسمه عمرو بن عبيد بن باب، وهو مولى بني العدوية، ويقال من الباب: تبوّبته بواباً، وهي البوابة. وقد جاء باب يبوب، والبوّاب الحاجب، ويقال للبوّاب أيضاً: التراع، والترعة: الباب، وبه فسر قول النبي صلى الله عليه وسلم: إن منبري على ترعة من ترع الجنة، ويقال: الترعة: الروضة.

ناب: وأما ناب فواحد الأنياب، وهي التي تلي الرباعيات في الفم إلى جهة الشدقين، ويجمع أيضاً نيوب، قال الشاعر:

فجئت وقومي يصرفون نيوبهم

البيت. يصرفون: من الصريف وهو صوت حك الأسنان بعضها ببعض من الحنق، كما قال النابغة:

له صريف صريف القعو بالمسد

والناب أيضاً سيد القوم، قاله صاحب العين. ووقع في السير في قصة ثقيف: يخرج ناب القوم وصاحب أمرهم، فخرج عبد ياليل. والناب أيضاً الناقة المسنة، قال الراجز:

ليس بأنياب ولا حقائق

والحقائق جمع حقة وهي الناقة الفتية التي قد استحقت أن يطرقها الفحل ويحمل عليها الحمل، ويجمع الناب أيضاً نيب، قال الشاعر:

تعدّون عقر النيب أفضل مجدكم ... بني ضوطرى لولا الكميّ المقنعا

وقوله: بني ضوطرى، هو كقولهم: بنو الغبراء وبنو كهيبة وبنو جدرة، كل ذلك اسم لمن يسبّ وعبارة عن السفلة، قال الشاعر:

أولاد درزة أسلموك وطاروا

قيل هذا في زيد بن علي بن الحسين حين قتل رحمه الله، وصدر البيت:

يا با حسين لو سراة عصابة ... صحبوك كان لوردهم إصدار

يا با حسين والجديد إلى بلى ... أولاد درزة أسلموك وطاروا

وقال حسان في الكهيبة:

بني كهيبة إن الحرب قد لفحت

وهو مشتق من الكهبة وهي الغبرة، ولذلك يقال للفقراء: بنو غبراء، ويقال ذلك أيضاً للصوص. ومن الناب ما أنشد ثابت في الدلائل:

ونــاب همــة لا خيــر فــيها   مــشرّمة الأشــاعر بالمــدار

وفسر الهمة بالهرمة، وقال: يقال شيخ هم وأشياخ أهمام، وامرأة همة ونسوة همات وهمائم، وناقة همة أيضاً. وذكر الخطابي رحمه الله من حديث أبي الأسود رضي الله عنه أن أعرابياً وقف عليه وهو يأكل تمراً، فقال شيخ هم غابر ماضين ووافد محتاجين: أكلني الفقر وردّني الدهر ضعيفاً مسيفاً، فناوله تمرة فضرب بها وجهه وقال: جعلها الله حظك من عنده. وفسر قوله: مسيفاً، من أساف الرجل إذا ذهب ماله، وأصله من السُّواف، وهو داء يصيب الإبل فيهلكها، مضمومة السين مثل القُلاب والكُباد. وقال أبو عمرو الشيباني: هو السَّواف، بفتح العين، قال: وجاء هذا شاذاً خارجاً عن قياس أخواته. وقد تقدّم في أوّل هذا الباب حديث الأصمعي وقول الأعرابي، ووصف كيف أفنى الدهر إخوته فقال: حتى أساف رجاليه وأهلك ماليه. ومن الناب أيضاً قول الشاعر:

ألــم تــر أن الــناب تحلــب علــبة   ويتــرك ثلــب لا ضــراب ولا ظهــر

عود: فالناب كما تقدّم الناقة المسنة، والثلب: الجمل المسن، وهو العود أيضاً وجمعه عودة وعيدة، وعود البعير إذا أسنّ، وأنشد:

يـــا أيهـــا العـــود المـــسن الأثـــيل

والأثيل: العظيم الثيل، وهو وعاء قضيب الجمل، وكان لأبي بن خلف لعنه الله فرس يسمى العود، انظره في غزوة أحد من السير. ومن أمثالهم: زاحم بعود أو دع، أي استعن في حربك بأهل السنّ والمعرفة، فإنّ رأي الشيخ خير من مشهد الغلام. ومن أمثالهم أيضاً: عود بعلم العنج. والعود أيضاً مصدر عاد يعود عوداً، قال الشاعر:

جــزينا بنــي شــيبان أمــس بقرضــهم   وجئــنا بمــثل الــبده والعــود أحمــد

وقالوا: رجع عوده على بدئه. ومن عاد اشتق العيد، لأنه من عاد يعود، لأنه يأتي لوقت معلوم كأنه يعود إليهم أو يعودون إليه، كما قال الشاعر:

كمـــا يعـــود العـــيد بـــصراني

وكان القياس أن يقال في مصدره: عود، إلا أنهم لم يقولوا إلا عيداً، فلما انكسرت العين تحوّلت الواو ياء لكسرة العين، وصغّروه عييد وتركوه على التغيّر، وكذا جمعوه على التغيّر فقالوا: أعياد، وحسن الجمع على هذه الصفة فرقاً بينه وبين أعواد جمع عود، وكذلك كل شيء هاج لوقت فهو عيد، كما قال ذو الرمة في ذلك:

ما زلت منذ نأت مي لطيتها   يعتادني من هواها بعدها عيد

وقال آخر:

عاد قلبي من الطويلة عيد

وقد جمعوا عيداً عيدات، خرّجه ثابت في حديث مكحول رضي الله عنه أنه سئل عن ذبائح عيدات أهل الكتاب والمزينات لكنائسهم، فتلا هذه الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة: ٥]، وقال: طعامهم ذبائحهم. وقال: سئل القاسم بن مخيمرة عن ذبائح أهل الكتاب والمزينات لكنائسهم فقال: كل. والعود أيضاً: الطريق القديم، قال الشاعر:

عود على عود لأقوام أول

أي: بعير مسنّ على طريق قديم، يعني: أنه محمود، وربّما قالوا: سودد عود، أي: قديم، قال الطرماح:

هل المجد إلا السودد العود والندى   ورأب الثأي والصبر عند الموطن

والعود: الرجل الكبير، وأنشد لشيخ يرقص ولده:

يا لك من فرخ كبير عود   قد فكني من مالك وزيد

فك الأسير من كبول القيد

وكانا ابني أخيه، وكانا ينتظران موته ولا وارث له غيرهما، حتى ولد له هذا المولود فقال هذا الرجز. والعود: العنز الهرم، يقال: عوّد تعويداً وعاد يعود عوداً، والأنثى عودة، ذكر ذلك ثابت رحمه الله، وساق حديث جابر: وأراد أن يذبح للنبي صلى الله عليه وسلم، فقمت إلى عنز لي لأذبحها فثغت، فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم ثغوتها قال: يا جابر لا تقطع دراً ولا نسلاً، قلت: يا رسول الله إنما هي عودة علفناها الرطب والبلح حتى سمنت.

والعود أيضاً: العائد، مصدر عاد على أهله بخير يعود عوداً. وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا أخبركم بنسائكم من أهل الجنة؟ الودود الولود العؤود على زوجها، التي إذا آذت أو أوذيت جاءت حتى تأخذ بيد زوجها ثم تقول: والله لا أذوق غمضاً حتى ترضى. والعود بالضم: كل شجرة دقت أو غلظت. والعود أيضاً: خشبة يدخن بها. ومقلوبه: دعوت الرجل: ناديته، والدعوة من الدعاء، والدِّعوة بالكسر في النسب. ومقلوبه أيضاً: وعد وعداً وعِدَة، ووعدته خيراً وشراً، وأوعدته: في الشرّ خاصة، والوعيد: التهدّد. ومقلوبه أيضاً: عدوّ، يقال للواحد والاثنين والجمع والذكر والأنثى، وجمعه أعداء وأعادي وعِدا

وعداً وعداة. ومن شكله: عدو، مصدر عدا يعدو عدواً، وعدوا إذا أحضروا لعدو، والعداء: الطلق، والعدو والعدواء: العدوان.

فصل:

بان: ومعكوس ناب: بان، اسم فاعل من البنيان، وتقول أيضاً: بان الشيء يبين بينونة وبيوناً: انقطع، والبين: الفرقة، والبين: الوصل، ومنه قوله تعالى: ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام: ٩٤] على قراءة الجماعة غير نافع والكسائي وحفص، أي وصلكم الذي كان يواصل به بعضكم بعضاً على عبادة الأوثان، ومن قرأ: (بينَكم) بالنصب فالمعنى لقد تقطع ما بينكم. يروى أنها نزلت في النضر بن الحارث: ﴿ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٤] أنها تشفع لكم. والبِين بكسر الباء: قطعة من الأرض بقدر منتهى البصر، والجمع بيون، والبين أيضاً: الناحية، عن أبي عمرو.

ومن شكله: تين، لهذا الذي يأكل الناس، وتبن للدّواب. وتبن: فطن، وثبن، تقول: ثبنت الثوب إذا ثنيت طرفه وخطته، ونتن اللحم مثل نشت: أنتن، ونتن جمع نتة، ويقال: بان الشيء وأبان وبين، إذا استبان. ورجل بين: فصيح. والبانة: الشجرة، وجمعها بانات، ومنه: دهن البان. ومن مقلوبه: بناء، وألفه منقلبة عن ياء، تقول: بنى يبني بناء، والبنى: جمع البنية، ومنه قول الشاعر:

أولـئك قـوم إن بـنوا أحـسنوا البنـى وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدّوا

وهذا البيت هو الذي سأل عنه حماد بن سلمة الأصمعي: كيف تنشده؟. فأنشده الأصمعي: البِنا، بكسر الباء، فقال له: انظر جيداً، قال: فنظرت فقلت: لا أعرف إلا هذا، فقال: يا بنيّ القوم إنما بنوا المكارم ولم يبنوا باللبن والطين، فلم أزل هائباً لحماد بن سلمة. والبنية: الكعبة شرّفها الله، ومنه قول عمر رضي الله عنه: أسألك برب هذه البنية.

ابن: ومن مقلوبه: ابن، وهو الولد وولد الولد وولد البنت. قال النبي عليه الصلاة والسلام في الحسن: إنّ ابني هذا سيد لولد علي بن أبي طالب، وأمه فاطمة رضي الله عنها، وقد تقدّم. يقال منه: تبنيت فلاناً: ادّعيت بنوّته، والنسبة إليه بنويّ، وإن شئت أبناوي مثل أعرابي. والبواني: أضلاع الزور، والزور: الصدر، وسيأتي. ويقال: بنى يبني، إذا أريد التكثير، قال الشاعر:

ألـم تـرجو شـناً أضـحى يبنـي حـصوناً نفعهـا الله لبنـي بقـيلة

ومن ذلك: ابن بيّن البنوّة، وتصغيره بنيّ، وتناديه فتقول: يا بنيّ ويا بنيّ مثل يا أبت ويا أبت، وتجمعه بنون وأبناء، وتصغير ابن أبين وإن شئت أبينون، قال:

من يك لا ساء فقد ساءني ترك أبينيك إلى غير راع

ويقال: ابن وابنم، قال:

ولم يحم أنفاً غير عرس ولا ابنم

أبن: ومن مقلوبه: أبن، أمر من أبان يبين، وأبن بأهلك: أمر من البناء الذي هو النكاح، وأصله أن الرجل إذا أراد الدخول إلى أهله ضربت عليهما قبة، فقيل لكل داخل على أهله: بانٍ. ويكون أيضاً أمراً من البنيان، ومن هذا اللفظ: أبن فلان فلاناً يأبنه أبناً: رماه بالقبيح، ومنه في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أشيروا عليّ في أناس أبنوا أهلي. ويروى: وأبنوهم بمن لا أعلم عليه إلا خيراً. التأبين: ذكر الشيء وتتبعه. ويروى: أبنوا على أهلي، ومعناه: قذفوها وذكروها بالقبيح. ومنه: رجل مأبون، قال الأصمعي: إذا كان في القوس مخرج غصن فهو أبنه، ومنه حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧] قال: هي الأرض المستوية ليس فيها أبنة، والأبنة هنا: ما نشز من الأرض. ومن الشكل: جمع الأبنة: أبن، قال الشاعر:

وأرزات ليس فيهنّ أبن

ويقال: بينهم أبن، أي عداوات، والأبنة أيضاً: العيب، والتأبين: مدح الميت وعدّ محاسنه.

اتن: ومن شكله: أتن بالمكان، أي أقام، أتوناً. ويقال فيه: وتن بالواو يتن وتناً، بمعنى ثبت وهما سواء. وفي الموطأ من هذا: العين الواتنة، وهي ذات الماء العذب الذي لا ينقطع. ومن شكله: أتن، جمع أتان، وهي الأنثى من الحمير. وفي الحديث منه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أقبلت راكباً على أتان وأنا يومئذ قد ناهزت الاحتلام. وفيه: فأرسلت الأتان ترتع، والمأتوناء: الأتن، مثل المعيوراء من العير. واستأتن الرجل: اشترى أتاناً واتخذها لنفسه، وقولهم: كان حماراً فاستأتن، أي صار أتاناً، يضرب مثلاً للرجل يهون بعد العز. والأتّون، بالتشديد: موقد النار. وبالثاء: اثن على زيد، وبالياء: أين زيد.

ويأتي من معكوس هذا وشكله: نثا ونتا، وبثاء: نثا الحديث، أفشاه. وفي حديث أم زرع: ولا تنث حديثنا تنثيثاً، في إحدى الروايات. ونتا ينتو، إذا ارتفع، وتبا: طبق من خوص، ويقال: مائدة من حلفاء، وبتا بالمكان بتواً وبتوّاً: أقام به. وبثا، بثلاث نقط: أرض سهلة، ويقال: هي أرض بعينها من بلاد سليم، قاله صاحب التاج.

نبا: ومن مقلوبه: نبا، بمعنى ارتفع، ألفه منقلبة عن واو، يقال: نبا ينبو نبواً،

ويقال: نبا السيف عن الضريبة نبوة. وفي صفة قدمي النبي صلى الله عليه وسلم: ينبو عنهما الماء. ونبابه: منزله لم يوافقه. والنبو: الارتفاع، قال:

ما لعيني كحلت بالسهاد ... ولجنبي نابياً عن وسادي

والنبي بغير همز: ما ينبو من الأرض، أي يرتفع، قال الشاعر:

لأصبح رتماً دقاق الحصى ... مكان النبيّ من الكاثب

قال البكري: هذا البيت لأوس بن حجر، والكاثب: جبل معروف في ديار بني تغلب. وقد أشكل عليّ إعراب هذا البيت ومعناه، لأنه يروى: مكان بالرفع، ومكان بالنصب، حتى وجدته في تاج اللغة أنه قاله يرثي به فضالة بن كلدة، وقبله:

على السيد الصعب لو أنه ... يقوم على ذروة الصاقب
لأصبح...................... ... البيت

وقال: الكاثب جبل وحوله رواب يقال لها النبي، الواحد ناب مثل غاز وغزى، يقول: لو قام فضالة على الصاقب وهو جبل يذلله لتسهل عليه، حتى يصير كالرمل الذي في الكاثب. وقيل: يقوم بمعنى يقاوم، وقيل: الكاثب اسم قنة في الصاقب.

رتيمة: ورأيته في عدّة كتب رتماً بالتاء باثنتين. وفي الدلائل: رثماً بالثاء المثلثة، وفسره المرثوم المكسور، وقال في التاج في البيت: رتماً بالتاء باثنتين، قال: ويقال رتمت الشيء رتماً: كسرته، ثم قال: يقال بالتاء والثاء، وقال: الرتم المرتوم، والرتم: ضرب من الشجر، وأنشد:

نظرت والعين مبينة التهم ... إلى سنا نار وقودها الرتم

واحدها: رتمة، والرتمة بإسكان التاء: خيط يشدّ في الإصبع تستذكر به الحاجة، وهي الرتيمة أيضاً. وقال أبو زيد: يقال منه أرتمت الرجل إرتاماً. وخرّج ابن شاهين رحمه الله في الناسخ والمنسوخ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من حرك خاتمه أو عمامته أو علق خيطاً في إصبعه ليذكره بما فيه فقد أشرك بالله عز وجل، إن الله تعالى هو يذكر الحاجات. ثم ذكر الخلاف في ذلك عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أشفق من الحاجة أن ينساها ربط في إصبعه خيطاً، ثم قال: إنما هذه الأحاديث منكرة. ومن غير هذا الكتاب في الرتم قول بعض الشعراء يعزي بعض الكبراء:

إن الرياح إذا ما أعصفت قصفت ... عيدان نبع ولا يعبأن بالرتم

مبحث النبأ واشتقاق النبيء

ومن شكل نبا: نبأ بالهمز، قال تعالى: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ [ص: ٨٨] يعني القرآن وما فيه من الأخبار، وقيل: بعد الموت، وقيل: يوم بدر، وقيل: يوم القيامة. وأصل نبأ: أخبر، كما تقول: أنبأني وأخبرني وحدّثني، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۢ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [التحريم: ٣]. ومنه اشتقاق: النبيء، بالهمز، ثم يسهل تخفيفاً كما تقدّم، فقوله تعالى: ﴿ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [النبأ: ٢] قيل: القرآن، وقيل: البعث، لأن الكفار كان فيهم من يؤمن به ومنهم من يكذب. وقيل: الاختلاف هنا بين المؤمنين والمشركين. قال سيبويه: كل العرب تركوا الهمز في النبي، يعني الرسول، والذرّية والبرية والخابية إلا أهل مكة فإنهم يهمزونها، وخالفوا فيها جميع العرب.

كانت نبيئة مسيلمة نبيئة سوء، على وزن نبيعة، وقال أبو جعفر النحاس في كتاب المعاني له رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ [آل عمران: ٢١] من همز نبيئاً اشتقه من أنبأ ونبأ، أي: أخبر عن الله عز وجل، ومن لم يهمز اشتقه من نبا أي: ارتفع، ويجوز أن يكون من الأوّل وخفف الهمز. وقال الكسائي: يقال للطريق، كما قال:

نبـــــي لمـــــــا ورد نبـــــــياً

قال: فنبي أصله من النبوة مثل النجوة، ويراد أنه علم وطريق إلى الحق، ثم أورد حديثاً مسنداً قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: السلام عليك يا نبيء الله وهمز، فقال صلى الله عليه وسلم: لست بنبيء الله وهمز، ولكني نبي الله، ثم قال: وهذا الإسناد ليس بجيد ولكن القياس يوجب ترك الهمز لأن أكثر استعمالهم في جمعه المكسر أنبياء، فصار كغني وأغنياء، وقد يقال نبآء، والواحد منه مهموز لأنه مثل ظريف وظرفاء، هذا نص الكتاب وعليه طرة نصها هذا الحديث لا يصح لأنه لو لم يكن مهموزاً لم ينتف النبي صلى الله عليه وسلم من النبوّة بخطأ الذي همز، ولما كان للعباس بن مرداس أن يمدحه بما ينتفي منه وقد قال:

يـــا خـــاتم النـــبآء إنـــك مرســـل	بالحـــق كـــل هـــدى الســبيل هـــداك
إن الإلــــه ثنــــى علــــيك محــبة	فـــي خلقـــه ومحمـــداً ســـماك

وهذا الجمع لا يجمع إلا في المهموز، لأن فعيلاً على وجهين: معتل وسالم، فالمعتل يجمع على أفعلاء كغنيّ وأغنياء ووليّ وأولياء، ويجمع السالم على فعلاء مثل ظريف وظرفاء وكريم وكرماء ونبيء ونبآء، لأن نبيئاً إذا كان مهموزاً فليس بمعتل ولهذا جمعه العباس على فعلاء، وإذا جمع على أنبياء فهو مأخوذ من غير ذوات الهمز، وبالله التوفيق. ونبأ أيضاً: اسم جارية كانت لأبي سلمة الكلابي، ولها خبر سيأتي إن شاء الله.

ثبا: ومن شكله ثبا، قال الأصمعي: ثبيت على الشيء تثبية: دمت عليه. وقال أبو عمرو: التثبية الثناء على الرجل في حياته. ومن شكله: ثبا، الثباء: سويق المقل. ومن شكله: ثناء، الثناء مفتوح الثاء ممدوداً معلوم، والثني مقصور مكسور تثنية الأمر مرّتين. وفي الحديث: لا ثني في الصدقة، أي لا تؤخذ في السنة مرّتين، ومنه قول الشاعر:

لعمري لقد كانت ملامتها ثني

ومن شكله: نثا الحديث: أفشاه، والنثا مقصور مثل الثناء الممدود إلا أن الممدود في الخير خاصة والمقصور في الخير والشرّ جميعاً.

ومن شكله: نتا، والنتوّ الانتفاخ والارتفاع، والنواتيون: الملاحون، والثنا مقصور أيضاً: الشريف، ويقال له أيضاً: الثنيان، وهو دون البدء، والبدء: السيد، وأنشد:

ترى ثنانا إذا ما جاء بدؤهم ... وبدؤهم إن أتانا كان ثنيانا

وسمي بدءاً لأنه يبدأ به، والثنيان لأنه يثنى به، وقيل: لأنه تثنى عليه الخناصر إذا عدّ أهل الشرف كما قال

ويثنى على فضلك الخنصر

والخنصر: الإصبع الصغرى التي يجعل فيها الخاتم، والتي تليها عن يمينها البنصر، ثم الوسطى، ثم السبابة، ثم الإبهام، وصدر البيت:

يشار إليك بسبابة ... ويثنى على فضلك الخنصر

وهو للمعري يمدح بعض الرؤساء، وبعده:

فمن أجل ذا رفعت هذه ... إلى خالق الخلق تستغفر

ومن أجل ذا كسيت خاتماً ... يزين وعرّيت البنصر

فصل:

ناب: وأما ناب ففعل ماض، تقول منه: ناب فلان كذا وكذا ينوبه نوباً، أي لزمه، ومنه النوب الذي هو المرض عافانا الله منه. قال صاحب العين: ناب الأمر نوبة، والنائبة: النازلة.

نوب: والنوب: أن يكون بينك وبين الشيء ثلاثة أيام. ويقال: النوب القرب،

ويقال: النوب من الانتياب ما كان على فرسخين أو ثلاثة. وانتبت المكان ونبته نبتاً، وفي الحديث: كانوا ينتابون إلى الجمعة من منازلهم ومن العوالي. والنوب: جيل من السودان، والنوب: النحل، لأنها تنوب إلى مواضعها، ويقال لها أيضاً: لوب، باللام.

حديث غريب:

وقد جاءت اللفظتان معاً في حديث زبان بن قسور قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نازل بوادي الشوحط فكلمته فقلت: يا رسول الله إن معنا لوباً، يعني نحلاً، فكانت في عيلم لنا به طرم وشمع، فجاء رجل فأحله حبين فأنتجهما حباً وكفنه بالشمام، يعني ناراً من زندين، ونحسه يعني دخنه فطار اللوب هارباً ودلى مشوره في العيلم، فاشتار العسل فمضى به، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ملعون ملعون من سرق شور قوم فأضرّ بهم، هلا تبعتم أثره وعرفتم خبره؟ قال: قلت يا رسول الله إنه دخل في قوم لهم منعة وهم جيرتنا من هذيل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: صبرك صبرك يا زبان ترد نهر الجنة، وإن سعته كما بين اللفيقة والسحيقة، يتسبسب جرياً بعسل صاف، من قذاهما تقيأه لوب ولا مجه نوب. أعجبني هذا الحديث فكتبته لفصاحته ورونق لفظه وصناعته، وفيه لغات فسر في الحديث بعضها وبقي سائرها. أصل العيلم: البئر، وأراد بها هنا وقبة النحل أو الخلية، ويقال لموضعها في الجبل: شيق وجمعه شيقان، والطرم: الشهد، والطرم أيضاً: الزبد، وشاهده في صفة النساء:

فمنهن من يلفي كصاب وعلقم ومنهنّ مثل الشهد قد شيب بالطرم

والطرم أيضاً: اسم الكانون، والسحاب الكثيف يقال له: الطريم، ويقال لكل دخان: نحاس، ولدخان النحل خاصة: أيام، يقال: آمها يؤومها إذا دخنها، شاهده:

فلما جلاها بالأيام تحيرت وبات عليها ذلها واكتئابها

يصف النحل. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ ﴾ [الرحمن: ٣٥] الشواظ: اللهب الذي لا دخان فيه، والنحاس: الدخان الذي لا لهب فيه، والنحاس في غير هذا الموضع النحاس المعلوم وهو القطر. وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ [الكهف: ٩٦] إنه النحاس. وقال غيره: الصفر. وقيل: الحديد. وقيل: الرصاص، من البخاري. وقوله: شور قوم، كذا جاء في الحديث. ووقع في كتاب العين: الشور الموضع الذي تعسل فيه النحل، بتقديم الواو على الراء، وقال: تقول شرت العسل أشوره مشوراً، وأشرته واستشرته فهو مشور ومشار ومشتار. ومنع الأصمعي أشاره، وكان يعيب على عدي بن

زيد قوله:

وحـــديث مـــثل مـــاذيّ مـــشار

وكان يرويه: ماذي مشار، بفتح الميم؛ وقال: هي الخلية يشتار منها. وقال غيره: يقال شرت العسل وشرت الدابة وشورتها، إذا استخرجت جريها وعلمت خبرها، والماذي: العسل الأبيض. وقد جمعت ألفاظاً من هذا الوزن، وهي: الداذي والماذي والآذي، ولفقتها بالنظم فقلت:

قـــل للـــذي يغـــري بـــداذي   يقـــول إذ يـــشرب غـــاذي
هـــلا تغـــذيت بمـــاذي   وقلـــت بالخمـــر فـــي الآذي

وقد تقدّم شرح الداذي في باب الدال وأنه نبت يجعل في النبيذ، وقيل: هي الخمر، والماذي قد تقدّم هنا أنه العسل الأبيض. وأما الآذي فإنه الموج، ومنه حديث ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] قال: أخذ الله ذرّيّتهم من ظهورهم كأنهم الذر في آذي من الماء. خرّجه ثابت وفسره بهذا، وجمع الآذي أواذي، قال النابغة

يرمـــي أواذيـــه العبـــرين بالـــزبد

العبر: شاطئ الوادي، وتقدّم في الحديث هنا: الخلية، وتقدّم أيضاً في باب الخاء الخلية: واحدة الخلايا، وهي الجباح، وأنشدني الخطيب أبو محمد رضي الله عنه لبعضهم:

يقـول لـي القاضـي معـاذ مـشاوراً   وولى امرأ فيما يرى من ذوي الفضل
نعـيذك مـاذا تحسب المـرء صـانعاً   فقلـت ومـاذا يـصنع الـدب بالـنحل
يـدق خلاياهـا ويأكـل شـهدها   ويتـرك للـذبان مـا كـان مـن فـضل

والدب: اسم عربي مشهور، والأنثى دبة، واسم ولدها: الديسم. ويقال أيضاً: مدبة أي ذات دبة، والدبة في غير هذا: السنة والطريقة، يقال: جرى على غير دبة أهله، ودعني ودبتي، أي طريقتي وسجيتي، وفلان ركب دبة فلان وأخذ بدبته، إذا عمل بعمله. ومنه حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لتلينكم قريش ثم لتركبن بكم دبة فارس والروم. والدبة أيضاً: ظرف للزيت، قال الشاعر:

إلـــيك بالعـــنف عفـــاص الدبـــة

والدَّبة بالفتح: موضع، وفي السير: ثم سلك الدبة، ويقال: هو الكثيب من الرمل. وفي السير أيضاً ذكر المجانيق والدبابات كأنها آلات يدخل فيها ويدب عليها للقتال. والدبيب: معروف، وهو المشي راكعاً. وفي الحديث أن عبد الله بن مسعود كان يدب

راكعاً، وكذلك دخل زيد بن ثابت المسجد فوجد الناس ركوعاً، فركع ثم دب حتى وصل للصف، ذكره مالك في الموطأ. والدِّبة بالكسر: كهيئة الدبيب، تقول: جلست دبة.

بون: ومعكوس نوب: بون، وهو مسافة ما بين الشيئين، والبِوان بكسر الباء: عمود من أعمدة الخباء، والجمع أبونة وبون، مثل أخونة وخون، ويقال بواني أيضاً، وقد تقدّم البواني: أضلاع الزور. قال الراجز:

ألقـــى بوانـــي زوره للمبـــرك

وسيأتي الكلام في الزور في باب الزاي. وجاء ذكر النوائب في الحديث الذي خرّجه البخاري أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال في خيبر وفدك: هما صدقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانتا لحقوقه التي تعروه ونوائبه. ومنه قولهم: نوائب الدهر. بقي من الباب ما جاء في الحديث من ذكر الناب، وهو نهيه عليه السلام عن أكل كل ذي ناب من السباع. وبقي أيضاً ناب: اسم فاعل من نبا ينبو، إذا ارتفع، كما تقدّم في البيت:

ولجنبـــي نابـــياً عـــن وســـادي

وألف ناب الذي هو فعل منقلبة عن واو، لأنك تقول: ناب ينوب كما تقدّم، وألف ناب الذي هو السنّ منقلبة عن ياء، لأنك تقول في الجمع: أنياب، وتقول: نيب السبع البهيمة ينيبها تنييباً، وقس على هذا ما يرد عليك من الألفات المنقلبة عن الياء والواو في مثل قال ونال وشبهه، فبالتصريف والمصدر والجمع تعرفه إن شاء الله. فقد قال بعض الأدباء: علم التصريف من العربية شريف وجنس من اللغة لطيف، إذا كانت المباني مقرونة والمعاني به مدفونة، والأصول معه محروسة والعلوم به محسوسة، لا يصح فيه التمويه والتصحيف ولا يستقيم معه التلبيس والتحريف.

تاب: وأما تاب فمعناه رجع، ومعنى: ﴿ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النور: ٣١] أي ارجعوا إلى الله من هوى أنفسكم. وتاب الله على فلان: وفقه للتوبة. قال سيبويه: واستتابه: سأله أن يتوب.

ثاب: وأما ثاب فمعناه رجع مثل تاب، يقال: ثاب الشيء يثوب ثوباً وثؤباً، ومنه التثويب بالصلاة، كأنّ المقيم للصلاة عاد إلى معنى الأذان فأتى به، يقال: ثوّب الداعي إذا كرّر دعاءه للحرب، قال حسان بن ثابت:

فـي فتـية كـسيوف الهـند أوجههـم   لا يـنكلون إذا مـا ثـوّب الداعـي

ومنه: ثاب الرجل إلى عقله، وثاب إلى المريض جسمه، أي: عاد إلى حالته

الأولى من الصحة، وقوله تعالى: ﴿ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٢٥] أي: يحجون، ويتوبون إليه، أي: يرجعون. وقيل: يحجون فيثابون، فهي مفعلة أصلها مثوبة، وقرأها الأعمش: (مثابات) قاله صاحب العين.

ومثاب البئر: وسطها، والمثابة: مجتمع الناس بعد تفرّقهم، وثاب الحوض ثؤباً: امتلأ. والثوبة: وسط الحوض، وتصغيرها ثويبة، وقال الزبيدي: ثييبة، وبها سميت المرأة ثويبة، والله أعلم. وثويبة: جارية أبي لهب، وهي التي أرضعت النبي صلى الله عليه وسلم، وسيأتي ذكرها إن شاء الله في باب النون. والثبة: عصبة من الفرسان، والجمع ثبات. وفي التنزيل: ﴿ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ ﴾ [النساء: ٧١] تفسيره: جماعات متفرّقة. وقيل الثبات: السرايا، والجميع الزحف، وقياس ثبة وظبة أن يجمع بالألف والتاء فيقال: ظبات وثبات على قياس المؤنث الصحيح، إلا أنهم قد جمعوا المعتل مثل ثبة وظبة بالواو والنون، والمؤنث الصحيح لا يجمع بهما، إلا أنهم قالوا: أرضون جمع أرض، فجعلوا الواو والنون عوضاً من الألف والتاء، وذلك في المؤنث الذي ليس فيه هاء، وقد يجمع أيضاً أرضات كما قالوا عرصات. وقال أبو الخطاب: يقال أرض وأراضٍ مثل أهل وأهالٍ، ويقال أيضاً: الأراضي، على غير قياس، كأنه جمع أراضٍ. والثوب واحد الثياب ويجمع على أثواب، وقد جاء أثوب، وقيل يهمز ولا يهمز، والثوب أيضاً مصدر ثاب يثوب مثل تاب يتوب.

وللخطيب أبي محمد، أكرمه الله وأعزه، من خطبة له على فقرة واحدة: أيها الناس ثوبوا إلى صالح الأعمال أسرع ثوب، والبسوا من تقوى الله تعالى أسبغ ثوب، وتوبوا إلى الله فإنه غافر الذنب وقابل التوب.

وثوبان: اسم رجل من رواة الحديث، فعلان من ثاب، مثل نومان من نام، فإن أدخلت على ثاب ألفاً قلت: أثاب، إن جعلت الألف للاستفهام فهو ثاب بعينه، وإن جعلتها أصلية فمعناه جازى، من قوله تعالى: ﴿ فَأَثَـٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّـٰتٍ ﴾ [المائدة: ٨٥] أي: جازاهم، واشتقاق الثوب من هذا، والله أعلم.

ومنه: ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ ﴾ [المطففين: ٣٦] بمعنى: جوزوا. وفي الحديث: إذا ثوّب بالصلاة يحتمل أن يكون من الثواب، لأن في الصلاة الثواب العظيم، والله أعلم. وقال عز وجل: ﴿ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٠٣] فسره ابن سلام: يعني الثواب يوم القيامة. والأثأب: شجر الواحدة: أثأبة، قال الكميت:

وغادرنا المقاول في مكرّ ... كخشب الأثأب المتعطر سينا

والثوباء، ممدود؛ يقال: تثاءبت تفاعلت، ولا تقل: تثاوبت. وفي مثل: أعدى من الثوباء. وأما الوثاب الذي ذكرت لك في أوّل البيت فإن الواو فيه أصلية، وهو مصدر وثب يثب وثباً ووثباناً، وقد جاء وثاباً، قال الزبير بن عبد المطلب في شأن الحية التي كانت قريش تهاب بنيان الكعبة لها حتى اختطفها العقاب:

عجبت لما تصوّبت العقاب على الثعبان وهي لها اضطراب
وقد كانت يكون لها كشيش وأحياناً يكون لها وثاب

والوثاب الآخر المذكور أيضاً هو الفراش بلغة حمير، يقال: وثبته وثاباً، إذا فرشته له. وفي الحديث: إن عامر بن الطفيل قدم عليه فوثب له وسادة، أي أقعده عليها وألقاها إليه. وفي شرح السير للأستاذ رحمه الله: وأما عمرو أخو حسان الذي ذكر أن إسحاق قصته وقتله لأخيه فهو المعروف بموثبان، سمي بذلك للزومه الوثاب وهو الفراش وقلة غزوه. وقال القتيبي: ويقال للفراش: ضجاع.

خرّج مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينام عليه أدماً حشوه ليف. وفي لفظ آخر: كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويقال للفراش أيضاً: المثال، وهو في الحديث أيضاً من قول عائشة رضي الله عنها قالت: كنت إذا حضت نزلت عن المثال إلى الحصير، الحديث. وفي حديث آخر أن النبي صلى الله عليه وسلم لما مات حفر له في موضع المثال الذي كان ينام عليه صلى الله عليه وسلم. ويجيء من لفظة وثاب وثاب فعال من الوثوب أيضاً، قال الشاعر:

ركـــوب المنابـــر وثابهـــا

وسيأتي. تقدّم المثال وهو الفراش وجمعه مثل، وإن شئت خففت فقلت: مثل، والمثال معروف وجمعه أمثله، ومثلت له كذا تمثيلاً، إذا صوّرت له مثاله، والمثل: ما يضرب له من الأمثال، ومثل: كلمة تسوية، ويقال فيها أيضاً: مثله، كما يقال: شبهه وشبهه، والعرب تقول: هذا مثيل هذا، بالتصغير، وهو من أميثلهم، يريدون أن المشبه به حقير، كما أن هذا حقير. ومثل به أي نكل به، والمثلة بالضم: الاسم، والمثلة بفتح الميم والثاء: العقوبة، والجمع: المثلات، كما في القرآن العزيز: ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَـٰتُ ﴾ [الرعد: ٦] أي وقائع الله في الأمم السالفة.

وقال الجوهري: ثب في لغة حمير: اقعد. قال الأصمعي: ودخل رجل من العرب على ملك من ملوك حمير فقال له الملك: ثب، فوثب الرجل فتكسر، فقال الملك: ليست عندنا عربيت من دخل ظفار حمر. قوله: عربيت، أراد عربية فوقف على

الهاء بالتاء وهي لغتهم. وقوله: من دخل ظفار حمر، يعني: تعلم لغة حمير، وظفار: اسم بلدهم وإليه ينسب الجزع، يقال له جزع ظفار. وخرج الخطابي رحمه الله أن عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه خرج ذات يوم إلى المسجد وفيه شباب قريش، فتنحوا له عن الأسطوانة فقالوا: اجلس إليها يا عم، فقال: يا بني أخي أنتم خير من شيوخكم من بني مهرة، كانوا إذا كبر الشيخ شدّوه عقالاً ثم قالوا له: ثب، فإن وثب خلوا سبيله وقالوا: فيه بقية من علالة، وإن لم يثب تركوه في العقال حتى يموت.

وأما بات: فأخت ظلّ، كلمة ترفع الاسم وتنصب الخبر، إلا أن ظلّ تستعمل في النهار وبات في الليل، وسيأتي الكلام على ظلّ في باب الظاء إن شاء الله تعالى.

وجاء من بات في القرآن العظيم قوله تعالى: ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ﴾ [النمل: ٤٩] أي نطرقه بالليل، وكذلك قوله تعالى: ﴿ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ﴾ [النساء: ٨١]، وكذلك قوله عز وجل: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ [الأعراف: ٤] يعني: بياتاً بالليل وهم نائمون، أو وهم قائلون نصف النهار، يعني على غفلة، والبأس العذاب أعاذنا الله من سخطه، وليست أو هاهنا بمعنى الشك إنما هي بمعنى أو نصرف الشيء مرة كذا ومرة كذا ولم يقل: وهم قائلون، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٧] لأن هذا لا إشكال فيه، وأما هذا فلئلا يشتبه أن العذاب جاءهم بالليل وهم قائلون ولم يقل أو وهم قائلون لئلا يجمع بين حرفي عطف، وهذه الواو عند النحويين تسمى واو الوقت، وفي أول الآية تقديم وتأخير أعني: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا ﴾ [الأعراف: ٤] المعنى: وكم من قرية أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا، لأن الهلاك إنما يكون بعد العذاب، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨] أراد: فإذا أردت القراءة فاستعذ بالله، وكما قال تعالى: ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ ﴾ [المائدة: ٦] وقيل في هذا غير هذا، قيل: إذا قمتم إلى الصلاة محدثين، وقيل: من المضاجع يعني النوم، وكذلك أيضاً قيل في قوله: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا ﴾ أي: بإرسالنا إليها ملائكة العذاب ﴿ فَجَآءَهَا بَأْسُنَا ﴾ [الأعراف: ٤] وقيل: أهلكنا أهلها بمنعنا إياهم التوفيق للطاعة فجاءها البأس بغتة، وقيل: الفاء هنا بمعنى الواو، فلا يلزم الترتيب، والله أعلم بما أراد من ذلك كله، وهو الموفق للصواب. وكم للتكثير، كما أن رب للتقليل، قال المهدوي: وقد قيل في رب: إنها للتكثير أيضاً

وليست من الأضداد، وهي بمنزلة كم، قاله صاحب العين. وللفقيه أبي محمد جواب رسالة بديعة ذكر فيها بعد كلام نبيل: غير أن رب للتقليل، انظرها إن أردتها في التكميل. فرغ البيت.

مبحث الألفات

بقي الكلام على الحروف وهي: الألف، والباء، والتاء، والثاء مع القافية:

أما الألف: فقد تقدّم من الكلام عليها ما في بعضه كفاية، وأزيدك هنا شيئاً آخر إن شاء الله تعالى: اعلم أن الألف على ضربين: لينة ومتحركة، فاللينة تسمى ألفاً والمتحركة تسمى همزة، وقد يتجوّز فيقال لها أيضاً: ألف، وهما جميعاً من حروف الزيادة، والألفات كثيرة ولها ألقاب عديدة مثل ألف قطع وألف وصل وألف استفهام وألف المتكلم وألف ما لم يسمّ فاعله، وهي تكون في الأسماء والأفعال والحروف العاملة، وتأتي في آخر الكلمة للإلحاق والتمكين، وتأتي للتأنيث، ومنها ما ينقلب عن ياء، ومنها ما ينقلب عن واو، وتأتي للإمالة وذلك للتقريب والدلالة، فالتقريب أن تقرّب الألف من الياء من أجل كسرة أو ياء، لتشاكل اللفظ، والدلالة أن تكون الألف منقلبة عن ياء، فتمال لتدل بإمالتها على أصلها، هذا في أغلب الأمر، وتكون علامة للرفع والنصب، وهي من حروف الزوائد على ما ستراه إن شاء الله، وتبدل النون الخفيفة في الوقف ألفاً إذا كان ما قبلها مفتوحاً، وكذلك التنوين في حال النصب، إلى غير ذلك مما لا أذكره الآن، وهذا كله مفسر مشروح في الكتب، فاطلبه تصب.

وقد جمع العلماء رضي الله عنهم من ذلك الطويل والوجيز، ونظموا فيه الأراجيز، وأنا أيضاً قد قلت في ألفات الأمر وإن لم يكن درمكاً فهو تمر:

اسمع كلاماً قاله من ينصح ... واحفظه إن كنت تريد تفلح
نظمته في ألفات الأمر ... هل تبدأن بالفتح أو بالكسر
والضم أو فهل لها من أصل ... في حالة القطع وحال الوصل
فبعد بسم الله والصلاة ... على الرسول فاستمع وصاتي
كل رباعي فمقطوع الألف ... في الأمر مفتوح كأقبل لا تخف
كذاك في الماضي فقس وبادر ... لكنها تكسر في المصادر
والياء فاضممها لما يستقبل ... وقل كذا أقبل زيد يقبل
وانظر إلى الثالث في المضارع ... من الثلاثي فعه وسارع
إن كان مضموماً فضم الأمرا ... فالأمر من ينظر أنظر شزرا

أو كان مكسوراً فقل في الأمر … اضرب فلاناً وابتدئ بالكسر
وإن يكن ثالثه مفتوحا … فابدأه بالكسر تكن فصيحا
تقول من يعلم علماً اعلم … لا تفتحن خيفة التكلم
شبهه واترك كذاك الضما … خشية ما الفاعل لم يسمّى
وكل ما زاد على الرباعي … أو كان عدّه أتى في الداعي
بإؤهما تفتح في المستقبل … كقولهم يصلى وزيد يصطلي
ألف هذين معاً قد توصل … إن كان حرف بهما يتصل
فإن عدمت فابتدئ بالكسر … في مصدر أو ماض أو في أمر
تقول منه اصطل هذا واصلي … هذا المثال فاتخذه أصلا
وقس عليه واحذر الفضيحة … فقد نصحت فاقبل النصيحة
وقل متى تقرؤه يا رب … اغفر لمن نظم كل ذنب
وصلّ من بعد على الرسول … محمد تَحظ بكل سؤل

وهذه الأرجوزة قد عارضها الأستاذ أبو محمد القرطبي وفقه الله، انظرها وما قيل بسببها في التكميل. والألف إذا انفتح ما قبلها فهي من حروف المد واللين الثلاثة، وأختاها الواو المضموم ما قبلها، والياء المكسور ما قبلها، وإنما سميت لينة لأن الصوت يمتد فيها فيقع عليها الترنم في القوافي وغير ذلك، وإنما احتملت المدّ لأنها سواكن اتسعت مخارجها حتى جرى فيها الصوت، قاله ابن دريد رحمه الله. وقال ابن السيد رحمه الله في تفسير بيت المعرّي رحمه الله:

ولي أمل كأتم القنا … وحال كأقصر سهم يكون
فيا ألف الوصل لا تأملي … حراكاً فما لك إلا السكون

يريد: المعري نفسه، شبهها بالألف التي بنيت على السكون فتريد تحريكها وذلك ما لا يكون.

قال ابن السيد رحمه الله: ليس في حروف المعجم حرف يبنى على السكون إلا الألف وذلك أنها صوت لا مقطع له في شيء من الحلق والفم، وإنما يخرج مستطيلاً بمنزلة الصوت الذي يخرج من البوق إذا لم يضع الزامر أصابعه على الثقب، فإذا وضع أصابعه على الثقب وداول بينها تقطع ذلك الصوت فصار نغمات. وكذلك الصوت المندفع من الرئة إذا انقطع في المخارج صار حروفاً. ،يشارك الألف في هذه الصفة أختاها الموضوعتان للمد واللين، وهما الواو الساكنة المضموم ما قبلها في نحو عنقود، والياء المكسور ما قبلها في نحو قنديل، فإنهما صوتان لا مقطع لهما كما لا مقطع

للألف، غير أن الياء والواو قد ينفتح ما قبلهما فيذهب ما فيهما من المدّ ويبقى فيهما اللين في نحو ثوب وبيت، وقد يحركان فيذهب عنهما المد واللين معاً، ويلحقان بالحروف الصحاح التي لا مقاطع لها، وأما الألف فالمد واللين لازمان لها أبداً، ومتى تحركت رجعت همزة،انتهى كلامه رحمه الله. وقال غيره: وهذه الحروف الثلاثة هي من علامات الإعراب، وأضيف إليها النون من بين سائر حروف المعجم للغنة التي فيها من الخيشوم فأشبهت حروف المدّ واللين بهذه الشبهة، فجعلت حرف إعراب معها، فأما الألف فهيمن علامات الرفع في قولك: الزيدان، وفيها ثلاث معان: علامة الرفع كما تقدّم، وعلامة التثنية، وحرف الإعراب. وفي الواو ست علامات: في قولك الزيدون، هي علامة رفع وعلامة جمع وعلامة تذكير وعلامة سلامة وعلامة تقليل وحرف إعراب. ومثل ذلك الياء، وأما النون فعلامة الرفع في يفعلان وأخواتها الأربعة، وحذفها علامة الجزم والنصب، والنون في التثنية والجمع عوض من ذهاب الحركة والتنوين في المفرد، والدليل على ذلك أنها تثبت في الموضع الذي تثبت فيه الحركة مع الألف واللام، نحو قولك: الرجلان، وتسقط في الموضع الذي يسقط فيه التنوين مع الإضافة، كقولك: غلاما زيد، وصاحب أخيك، ولو كانت عوضاً من التنوين فقط لسقطت في الموضع الذي يسقط فيه التنوين، ولو كانت عوضاً من الحركة فقط لسقطت في الموضع الذي تسقط فيه الحركة للاستغناء عنهما، فلما لم يكن ذلك علم أنها عوض منهما جميعاً، والله أعلم.

فصل:

حروف الحلق:

والألف تحمل الهمزة، والهمزة من حروف الحلق، وأخواتها: الهاء، والحاء، والعين، والخاء، والغين، فالهمزة من أقصى مخرج الأصوات، ولذلك عدّوها أوّل الحروف، وتليها الهاء وهي من موضع النفس، والحاء أرفع منها، وهي أقرب حرف يليها حتى ربما أشبهتها في النطق على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى، والعين تتلو الحاء في المدرج والارتفاع، والخاء أرفع منها، والغين على مدرج الخاء، إلا أنها أسفل منها، والهمزة تبدل من الهاء كثيراً، وكذلك تبدل الهاء منها، كقولهم: أيهات وهيهات. وأزيد وهازيد في الدعاء، وأراق الماء وهراق، قال الشاعر:

فأصاخ يرجو أن يكون حياً ... ويقول من طرب هيا ربا

أراد: أيا رب. وقال الآخر:

وأتى صواحبها فقلن هذا الذي ... منح المودّة غيرنا وجفانا

أراد: إذا الذي، وتبدل من الواو في مثل أرّخ الكتاب، وأصله ورّخ، وفي التنزيل: ﴿ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴾ [المرسلات: ١١]، وقرأ أبو عمر: (وقتت)، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع باختلاف عنه: (وقتت) بتخفيف القاف. وعن الحسن رواية: (ووقتت) بواوين، وكله من الوقت. قال المهدوي: ولو قلبت الواو في هذا ألفاً جاز، ولذلك قالوا: إكاف ووكاف وولاف وإلاف ووشاح وإشاح، وأما الواو المفتوحة فلم تبدل من الهمزة في الكلام إلا في حرفين قولهم: امرأة أناة أي حليمة، يقال فيها: وناة، وفي أحد من قوله تعالى: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١] بمعنى: واحد، وأصله: وحد فأبدلت الواو همزة فقالوا: أحد، قاله ابن عزيز. وقال البخاري في جامعه: قل هو الله أحد، لا ينوّن أحد، أي: واحد. انتهى كلامه.

حروف الزوائد:

والألف أيضاً من حروف الزوائد وهي عشرة: الهمزة والألف والواو واللام والياء والتاء والميم والسين والهاء والنون، يجمع هذه الحروف كلمتان: اليوم تنساه. قال ابن دريد: وهذا عمله أبو عثمان المازني، قال: وبعضهم يجعلها تسعة، يريد؛ والله أعلم؛ أن الألف والهمزة شيء واحد، ويجمعها أيضاً: هويت السمان، ونظمه بعضهم:

هويت السمان فشيبنني وقد كنت قدماً هويت السمانا

ويجمعها أيضاً قولك: أمان وتسهيل، وقد جمعت أنا أيضاً هذه الحروف في قولك: أنّ سهيل ومات، وفي قولك: موسا ليته ناه، وتكتب موسى بالألف على مذهبهم في جواز كتب ما هو من ذوات الياء باللف، ومنعهم من عكسه أعني أن يكتب ما كان من ذوات الألف بالياء، وقالوا: إذا شككت فيها فاكتبها بالألف، وسترى في هذا الكتاب منها كثيراً مما كتب بالألف وأصله الياء للضرورة وللشكل فلا تنكره.

وحروف الزوائد أصل في علم التصريف، فتزاد الهمزة أوّلاً فيما عدده أربعة أحرف فصاعداً، نحو: أسود وأحمر وأصفر وأخضر، لأنها من السواد والحمرة والصفرة والخضرة، ولا تنظر إلى الألف في أوّل أسود وأحمر، إنما هي الهمزة والألف تحمل الهمزة كما تقدّم، ولا يمكن زيادة الألف أولاً لأنها ساكنة ولا يبتدأ بساكن ولكن تزاد ثانية في مثل: ضارب وقاتل، وثالثة في: ذهاب وكتاب، ورابعة في: حبلى ومعزى، وخامسة في: حبنطا وحبركا، وسادسة في: قبعثرى. الحبنطا: العظيم البطن، والحبركا: القصير الفخذين والرجلين. والقبعثرى: الجافي الغليظ.

تقدّم حروف الزوائد في قولك: اليوم تنساه، وثم أيضاً كلام يجمع حروف البدل على ما ذكره أبو علي في الأمالي، وهو: طال يوم أنجدته، واستشهد على كل حرف منه

على ما يأتي مفرداً في هذا الكتاب إن شاء الله.

وقد تقدّم في ذكر الهمزة أنها تبدل من الهاء في مثل: هيهات وأيهات وبابه، قال: وتبدل الألف من أختيها الواو والياء في آخر الفعل في مثل: غزا ورمى وبابه، وحروف المدّ واللين أمهات الزوائد لأنّ منهنّ الحركات، فلا تخلو الكلمة من بعضهن في الخماسي والملحق بالسداسي خاصة وفي كثير من الرباعي.

فصل:

وشكل ألف: ألف، وألف، وألف، وألف، وألف، وألف، وألف، وفي القرآن العزيز من هذا: ﴿الٓمٓ﴾ فهذا لا ينطق فيه بألف، ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ﴾ [الأنفال: ٦٦]، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣]. وفي الحديث: قالت عائشة رضي الله عنها: فخرت بمال أبي في الجاهلية وكان ألف ألف أوقية، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اسكتي يا عائشة فإني كنت لك كأبي زرع لأم زرع، ثم أنشأ يحدّث حديث أم زرع المشهور.

وأما ألف وألف ففي القرآن مصدرهما، وقد قرئ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش: ١] على وجوه: فمن قرأ: (لإيلاف قريش) فمصدر آلف إذا جعله يألف، ومن قرأ: (لإلاف) فمن ألف يألف ألفاً وإلافاً، وكذلك قرئت إلفهم، وقرأ عكرمة: (ليألف قريش ألفهم على الأمر، وكذلك قال عكرمة: أمرهم أن يألفوا عبادة البيت، وفتح لام الأمر لغة حكاها ابن مجاهد وغيره. وقد روى حماد بن أبي بكر عن عاصم: (لإلاف قريش ائلافهم) فجمع بين الهمزتين. قال المهدوي: وهذا شاذ. وألف سيأتي في باب الفاء: رجل ألف، ثقيل اللسان وهو العي أيضاً، وألف صاحبه وجمعه آلاف كعدل وأعدال، ويقال أيضاً: آلف وآلاف كضارب وضرّاب، وهو أيضاً الأليف وجمعه ألائف، مثل تبيع وتبائع وأفيل وأفائل، والولاف مثل الألاف والولاف، والوليف: ضرب من العدو، وهو أن تقع القوائم معاً، وكذلك أن يجيء القوم جميعاً. والإئلاف أيضاً: الأمان والعهد يؤخذ من الملوك جميعاً على الأمر، جاء منه في خبر هاشم بن عبد مناف: فأخذ من أشراف الشام إيلافاً أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حلف إنما هو أمان الطريق، في حديث طويل انظره في الذيل على النوادر.

ومعكوس ألف: فلا جمع فلاة، مثل حصاة وحصى، ويجمع أيضاً على فلوات وفليّ وهي المفازة، قال الشاعر:

موصولة وصلابها الفليّ   القيّ ثم القيّ ثم القيّ

أي القفر بعد القفر، ويقال: فلوت الفلو عن أمه: عزلته، وافتليته: اتخذته. ويقال:

فلو وفلو مثل جرو إذا فتحت شدّدت وإذا كسرت خففت، وجمعه أفلاء مثل عدوّ وأعداء، وفلاوى أيضاً مثل خطايا، ويقال أيضاً: فلا فلان فلاناً، إذا رباه، قال الشاعر:

سعيد وما يفعل سعيد فإنه نَجيب فلاه في الرباط نَجيب

وقال آخر:

وليس يهلك منا سيد أبداً إلا افتلينا غلاماً سيداً فينا

ومن شكله أيضاً: فلا، على شرطي المتقدّم وبنائي الغي متهدّم، من أني أسوق الحرف الزئتد ليكثر الفائد، فإن فلا هي النافية دخلت عليها الفاء الواقية. وفي القرآن العظيم من ذلك: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥] و: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ [الانشقاق: ١٦] جاء في التفسير أن: (لا) صلة، والمعنى: فأقسم، وكذلك قالوا في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١-٢] أن معنى ذلك كله: أقسم، ويشهد لذلك قراءة قنبل عن ابن كثير: (لأقسم) هي لام التأكيد دخلت على فعل الحال، ومن قرأ: (لا أقسم) وجعل (لا) نفياً فهو ردّ لكلام تقدّم، وجاز وقوعها في أول السورة لأن القرآن متصل بعضه ببعض، فهو في حكم كلام واحد، و(فلا) أيضاً: قطع، وألفه منقلبة عن ياء، تقول: فلا رأسه بالسيف فلياً، أي قطعه، ومنه قول حسان بن ثابت في شأن بني قريظة:

فما برحوا بنقض العهد حتى فلاهم في بلادهم الرسول

وقال الراجز:

أفليه بالسيف إذا استفلاني

وفليت الثوب فلاية، والتفلي: التكلف لذلك، وتفالت الحمر: احتكت. وفي الحديث من هذا حديث أم حرام: وجعلت تفلي في رأسه، يعني النبي صلى الله عليه وسلم. وقالت عائشة رضي الله عنها وسئلت عما كان يعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته؟ قالت: كان بشراً من البشر يفلي ثوبه ويحلب شاته ويخدم نفسه. والفالية: خنفساء رقطاء ضخمة، قاله صاحب العين رحمه الله. وفي الأمثال للأصبهاني: أفحش من فالية الأفاعي، وأفحش من فاسية، وقال: هما اسمان لدويبة شبيهة بالخنفساء لا تملك الفساء، وأنشد عليه:

لنا صاحب مولع بالخلاف كثير الخطاء قليل الصواب
ألج لجاجاً من الخنفساء وأزهى إذا ما مشى من غراب

والغراب يوصف بالزهو.

فائدة في مدّ المقصور:

مدّ هذا الشاعر للضرورة الخطا فلا تقل أخطا، قد قالها قبله الشعراء القدماء الكبراء، قال ورقة:

إلا ما غفرت خطائيا

وقال آخر:

فكلهم مستقبح لصواب من ... يخالفه مستحسن لخطائه

وقال:

بنصر الله روح القدس فينا ... وجبريل فيا طيب الملاء

قال بعضهم: ليس هذا من باب مدّ المقصور، إنما هو إشباع، كما قالوا: الكلكل والصياريف، ولا يقال في عصا عصاء لأنه يزيد في هذا ألفاً وهمزة،قال غيره: فقد قال طرفة:

وكشحان لم ينقص طواءهما الحبل

وقال آخر:

يا لك من تمر ومن شيشاء ... ينشب في المسعل واللهاء

ومن شكل فلا: قلا قلى، يكتب بالياء، يقال: قليت الرجل أقليه قلى وتقلية: أبغضته، وقد قالوا: قلاء، وأنشدوا:

عليك سلام لا مللت قريبة ... وما لك عندي إن نأيت قلاء

وفي القرآن العزيز: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى: ٣] أي ما تركك وما أبغضك. وفي موضع آخر: ﴿ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦٨] أي: من المبغضين، فعلى هذا إنّما يبغض العمل السوء لا صاحبه، ويقال: قليت اللحم على المقلى وقلوته أيضاً، والقلية: مرقة من لحم الجزور وأكبادها، عربية وجمعها قلايا، والمقلاة والمقلى الذي يقلى عليه. خرّج ثابت في الدلائل عن جبلة بن سحيم قال: ما أكلت أطيب من قلية العصاعص، ذكره في حديث الحسن ابن أبي الحسن رضي الله عنه أنه قال: في العصعص الدية. وفسره فقال: العصعص أصل الذنب الذي ينبت فيه الذنب، وأنشد لذي الرمة:

كما نيط في طول العسيب العصاعص

والمقلاء والقلة خفيفة: عودان يلعب بهما الصبيان، فالعود الذي يضرب به هو المقلاء، والقلة: الخشبة الصغيرة التي تنصب، وقال الأصمعي رحمه الله: هي القلة،

والقال هو المقلاء، ومنه قول الشاعر:

كأنّ نزو فراخ الهام بينهم ... زهو القلاة زهاها قال قالينا

يعني الذين يلعبون بها، يقال منه: قلوت، والقالون: الصبيان الذين يقلون، أي: يضربون القلة، واسم الفاعل من قلا: قال، ونسب أبو علي البغدادي القالي إلى قرية من قرى بغداد يقال لها قاليقلا، ولم يعرف الأصمعي قليت إلا في البغض، وأما في اللحم وغيره: فقلوت قلواً، وعرفه أبو زيد والرجل قلاء.

بقي تصحيف هاتين الكلمتين على شكل اللفظة لا على أصلها، لأني سأذكر في تصحيفها: لفأ، وألف، ولفاء، مع فأل، وأفل، وغير ذلك من المهموز، وليس في قلا همز، ولكني أردت أن أكثر ما يخرج من تصحيف الألفاظ إذا كتبت على هذه الصورة لا غير.

لاف: أما فلا فمعكوسه: لاف اسم فاعل من لف، وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: فإذا كل رجل لاف رأسه يبكي.

فال: ويأتي من مقلوبه: فأل، وهو ما يسمعه الإنسان من خير أو شرّ، يقال منه: تفاءلت بالأمر، وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا طيرة وخيرها الفأل، قيل: يا رسول الله وما الفأل؟ قال: الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم. وفي حديث آخر: ويعجبني الفأل الكلمة الطيبة. وفي حديث آخر: وأحب الفأل الصالح. خرّج ذلك كله مسلم رحمه الله. قال الأزهري: الفأل مهموز. وقال أبو عبيد: وجمعه فؤول. قال ابن السكيت: الفأل هو أن يكون الرجل مريضاً فيسمع آخر يقول: يا سالم، أو يكون طالباً فيسمع آخر يقول: يا واجد.

ألعاب صبيان العرب:

ويقال: فال رأي فلان، إذا لم يصب وأصله من المفايلة لعبة لفتيان الأعراب يخبئون الشيء في التراب ثم يقسمونه فإذا أخطأ المخطئ قيل له: فال رأيك، يقال منه: رجل فال الرأي وفيل الرأي، ويقال: ما كنت أحب أن أرى في رأيك فيالة، قال الكميت:

بني رب الجواد فلا تفيلوا ... فما أنتم فنعذركم لفيل

أي: لستم أولاد الضعيف الرأي؛ وهو الفيل، ولصبيان العرب لعب آخر ذكرها ابن قتيبة في تفسير حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه بينا هو يلعب وهو صغير مع الغلمان بعظم وضاح مرّ عليه يهودي فدعاه، فقال: لتقتلنّ صناديد هذه القرية. قال: وعظم وضاح لعبة الصبيان بالليل، وهو أن يأخذوا عظماً أبيض شديد البياض فيلقوه ثم

يتفرقوا في طلبه، فمن وجده منهم ركب أصحابه.

ولهم لعبة أخرى تسمى الخطرة، وهي بالمخراق. وأخرى تسمى خراج، وهي أن يمسك أحدهم شيئاً بيده ويقول لسائرهم: أخرجوا ما في يدي. ومنها لعبة الضب، وهو أن يصوّر الضب في الأرض ثم يحوّل أحدهم وجهه ويقول: ضع يدك على صورة الضب، ثم يقال: على أي موضع من الضب وضعته؟ فإن أصاب قمر. ولهم لعبة أخرى بالتراب يقال لها النقيرى، يقال: أنقر الصبيان فهم ينقرون. وقال الأصمعي في رجزه:

كأنّ آثار الضرابي تلتقث حولك نقيرى الوليد المنبحث

تراب ما هال عليك المجتدث

والمجتدث: القابر، والجدث: القبر. ولهم لعبة أخرى يقال لها الجثة وتشبه الأولى، ولعلها هي المفايلة، يخبئون شيئاً تحت تراب ثم يصدع صدعين، ثم يضرب بيده على أحدهما أو على بعضه، فإن قبض على الخبء فيه قمر. ذكر هذه اللعبة ثابت في حديث إبراهيم النخعي أن غلامين كانا يلعبان الجثة، فضرب أحدهما الآخر فشجّ أحدهما وانكسرت ثنية الآخر، فضمن الأعلى الأسفل ولم يضمن الأسفل الأعلى.

وقد تقدّم أن المقلاء والقلة عودان يلعب بهما الصبيان. والعرعار لعبة للصبيان أيضاً. وألف فال منقلبة عن ياء لأنك تقول: يفيل، والفيل: الضعيف الرأي، والجمع أفيال، ومنه قول الحريري رحمه الله في لغزه:

وكم رأى ناظري فيلاً على جمل وقد تورّك فوق الرحل والقتب

والفيل معروف الدابة، والتفيل: زيادة الشباب، وتفيل رأيه: أخطأ، وفيلت رأيه.

ويأتي من مقلوبه: أفل، تقول: أفلت الشمس تأفل أفولاً: غابت. وفي القرآن العزيز: ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ ﴾ [الأنعام: ٧٨] و: ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٦]، ويقال: لبوة آفل، أي حامل، وأفل اللقاح في الرحم: استقر، والأفيل: الفصيل، والجمع آفال وأفائل، ومنه قول عباس بن مرداس:

ألا أفائل أعطيتها عديد قوائمها الأربع

قال يوسف: كتبت إلى الفقيه الأديب الخطيب أبي محمد عبد الوهاب بن علي رضي الله عنه مرة أسأله عن الأفيل، وكنت قد رأيته في آخر كتاب كتب به إليّ ولم أعرفه، فكتب إليّ بعد كلام وقلت: ما الأفيل؟ فرأيك إن قرمت إلى لحمه لايفيل، وهو واحد الآفال وأحد الدخال قال الشاعر:

فأرسلها العراك ولم يذدها ولم يشفق على بعض الدخال

يقول: أورد الإبل تحترك احتراكاً، وقد أدمت لازدحامها صدوراً وأوراكاً، ولم

يشفق على بعض الدخال، وهي صغارها المزدحمة، وهذا المورد على هذا النحو اسمه عند العرب: الحطمة قال الشاعر:

أخذ المخاض من الفصيل غلبة ظلماً ويكتب للأمير أفيلا

فرغ بعض كلامه رضي الله عنه، وإن أردته بكماله فانظره في التكميل.

لفأ: ومن مقلوب هذه اللفظة أيضاً: لفأ، يقال: لفأت الريح السحاب عن الماء، كشفته. ولفأت اللحم عن العظم والتفأته، والقطعة منه: لفأة. واللفاء: التراب والقماش على وجه الأرض، ومنه يقال في الدعاء عليه: العفاء واللفاء، ومعنى العفاء محو الأثر، واللفاء أيضاً: الشيء القليل. ويجيء منه أيضاً: لفاً، مصدر لف، ولفاء، يقال: امرأة لفاء ورجل ألف، وسيأتي مع لف في باب الفاء إن شاء الله هذا الكلام في فال.

قال: وأما قال للحوت واللحم، وقال من قلا القلة إذا ضربها، إذا كتبته بالألف على أن تكون ألفه منقلبة عن واو، فاسم الفاعل منه قائل. ومن البغض قال أيضاً، وألفه منقلبة عن ياء وقد تقدّم. ويأتي منه قال من القولومصدره قولاً وقالاً وقيلاً وقالة وقولة ومقالة. وفي الحديث: فشت في ذلك القالة. قال الكسائي: وقرأ ابن مسعود: (ذلك عيسى ابن مريم قال الحق)، واشتقاق القال والقيل من كثرة ما يقولون قال وقيل هما من القول، وقيل: هما اسمان لا مصدران. وفي الحديث: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قيل وقال. وفي القرآن العزيز: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠]، وأصل قلت: قولت، ولا يجوز أن يكون بالضم لأنه يتعدّى، ورجل قوول وقوم قوّل، مثل صبور وصبّر، وإن شئت سكنت الواو. ورجل مقول ومقوال وقوّال وتقوالة؛ عن الكسائي؛ أي: لسن كثير القول، واسم الفاعل: قائل قال الله تعالى: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ [يوسف: ١٠]. وجمع قائل قوّل، مثل راكع وركّع.

وقال رؤبة:

وقـــــــــوّل إلا ده فـــــــــلا ده

وقبل هذا:

فاليوم قد نهنهني منهنهي وأول حلم ليس بالمسفه

وقوّل.......................... إلّخ

ويجمع أيضاً: قائلون، مثل قائم وقائمين، والمقول: اللسان. وقال أيضاً بمعنى ملك ومنه حديثه عليه السلام في التسبيح: سبحان الذي تعطف العز وقال به، يعني ملك به وقهر. ومعنى تعطف: ارتدى العطاف للرّداء، وهو مثل قوله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري من نازعني واحداً منهما قذفته في النار. هذا على ضرب المثل،

إذ العظمة والكبرياء لا يلبسان، وإنما هما صفتان من صفاته التي لا ينبغي لأحد من خلقه أن يتصف بهما، فلما كانا كذلك جعلهما بمنزلة الرداء والإزار لأنهما لا يفارقان صاحبهما، والله أعلم بما أراد من ذلك.

قيل: والقيل منه وجمعه أقيال، ويقال أقوال، وأهل اليمن يقولون في القيل مقول، وجمعه مقاولة، ويقال: رجل تقوالة وقوّال، واقتال قولاً: اجترّه إلى نفسه، واقتال الرجل: احتكم، قال سعد الغنوي:

ومنزلة في دار صدق وغبطة وما اقتال من حكم عليّ طبيب

قوّلته: وأقولته ما لم يقل، وقوّلته أي ادّعيته عليه، وفي القرآن العزيز: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴾ [الحاقة: ٤٤] أي: زاد في الوحي أو نقص منه، وقال أيضاً من القائلة، وهي القيلولة أيضاً، والقائلة: نصف النهار، والقيل: الشرب نصف النهار، كما سموا شرب الغداة: الصبوح، وشرب العشي: الغبوق، وبين المغرب والعشاء: الفحمة، وفي السحر: الجاشرية، وكل شراب يشرب في أي زمان كان يسمى الصفح. يقال: أتاني فصفحته، أي: سقيته، وأتاني فأصفحته: رددته وحرمته، قال ذلك كله الخطابي رحمه الله. ويقال: قال الرجل يقيل مقيلاً، وفي التنزيل العظيم: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٤]، قال قتادة: منزلاً ومأوى، وقيل: هو ما تعرفه العرب من مقيل نصف النهار. ومنه الحديث المرفوع: إن الله تبارك وتعالى يفرغ من حساب الخلق في مقدار نصف يوم فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار. واسم الفاعل من هذا: قائل. وفي القرآن: ﴿ أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ [الأعراف: ٤]. وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان لا يبيت مالاً ولا يقيله، معناه يقسمه لوقته، ويقال من البيع: أقال إقالة، واسم الفاعل من هذا: مقيل، والمفعول: مقال. ويقال أيضاً: قال قيلاً، وتقيل فلان أباه: إذا أشبهه.

لقا: ومن مقلوبها أيضاً: لقا، مصدر لقيت فلاناً لقاء ولقياً ولقية واحدة ولقاة، واللقيان: الملتقيان، ورجل ملقي ولقي: أي شقي، واللقي: الشيء الملقى، وينشد عليه:

كفى حزناً كريي عليه كأنه لقي بين أيدي الطائفين حريم

قال: ومعنى اللقي في هذا البيت الثوب الذي كان يطوف فيه الرجل في الجاهلية حول البيت ثم يلقيه عن نفسه ولا يقربه، يقول لأنه الذي اقترف فيه الذنوب، وكانت المرأة تلقي على فرجها خرقة وتطوف كذلك، قالت إحداهن:

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحله

ويروى أن رجلاً طاف كذلك فانضم إلى امرأة تلذذاً واستمتاعاً فالتزق عضده بعضدها ولم يقدر أحد أن يفك عضده من عضدها، فخرجا من المسجد وهما كذلك، حتى قال لهما قائل: توبا إلى الله مما كان في ضميركما وأخلصا التوبة، ففعلا فانحلّ أحدهما من الآخر، وسيأتي الكلام على لاق الدواة، إذ هو من تصحيف الكلمة المتقدّمة في باب القاف إن شاء الله تعالى. والألقية واحدة الألاقي.

انتهى الكلام في الألف. وقد ألفت فيه ما يأتلف ولا يختلف وبقي لغيري ما يأتلف، كما بقي لي أن أزدلف إلى قوافي الألف، التي في كل لفظة منها ألف، إذ كنت اشترطت ذلك للنجل الكلف والشرط كالحلف:

خرجت من شيء إلى غيره ... بحسب ما يأتي وما يطرا
لكنه علم ومن حقه ... يسمع بل يكتب بل يقرا

معاني الباء:

وأما الباء فاسمها اسم صورتها إذا لم تعربها، أعني أنك تنطق بها كما هي بلا حرف زائد عليها، وكذلك ما كان مثلها كالتاء والثاء والحاء والخاء، وليست كالجيم ولا الدال وما أشبه ذلك مما تزيد في النطق بها حرفاً آخر، ومخرجها من بين الشفتين، وكذلك الميم، ولذلك اشتركا فيما تراه بعد إن شاء الله، وأختهما في المخرج الواو، وهنّ من الحروف المجهورة، وإنما سميت مجهورة لأن مخرجها لم يتسع فانضغط صوتها، والباء من حروف الخفض في مثل: بسم الله، ومررت بزيد، وتكون للقسم في مثل: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨] والباء الأصل في حروف القسم لأنها تشمل على الظاهر والمضمر، تقول في الظاهر: بالله لأفعلنّ وتقول في المضمر: به لأفعلنّ، قال الشاعر:

ألا نادت أمامة باحتمال ... لتحزنني فلا بك ما أبالي

وقد توضع موضع على في مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ﴾ [آل عمران: ٧٥] أي: على دينار، كما قال:

إذا رضيت عليّ بنو قشير ... لعمر أبيك أعجبني رضاها

أي: رضيت بي، وتكون بمعنى من في قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] أي: منها، ومثله: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٤] أي من علم الله. وبعكس هذا تكون من مكان الباء في قوله تعالى: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ

ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] أي بأمر الله، وقال تعالى: ﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤] أي بكل أمر. وتأتي الباء بمعنى عن في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] أي: عن، وبمعنى في كقوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: ١٨] أي: فيه، وبمعنى مع في قول الشاعر:

يجتذب الأذى بالمرود

أي: مع، وبمعنى المصاحبة وهو قريب من معنى مع في قوله تعالى: ﴿وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٦١] وبمعنى البدل في قولهم: هذا بهذا، أي بدل منه وعوض عنه. ويقال لهذه أيضاً: باء العوض وباء المجازاة، وفي القرآن منه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠] وتكون للإلزاق والاستعانة في: كتبت بالقلم، و: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة: ٦] وتكون زائدة في الكلام لمعنى في مثل قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩] ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]. قال الراجز:

نحن بنو جعدة أصحاب الفلج نضرب بالسيف ونرجو بالفرج

وفي مثل قوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٥-٦] في قول بعضهم، و: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] في قراءة من جعله من أنبت، وكذلك قوله تعالى: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١]. ولا تظنن أن في القرآن العزيز حرفاً زائداً لغير معنى، أعوذ بالله من هذا الظنّ، وإنما معناه أن الكلام يتم دونه، كما يتم دونه قوله: (إن الله الغني الحميد) في قراءة من قرأ كذلك، ويذكر هو أتم، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢]، وقال في موضع آخر: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥]، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وهذه أشدّ من الأولى. فهذه الحروف لها معان من التأكيد والتبيين وغير ذلك مما تستعمله العرب في كلامها.

قال الأستاذ رحمه الله في قوله تعالى: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١]: لفظة ألقيت تنقسم قسمين: تكون بمعنى وضع الشيء في الأرض، كما تقول:

ألقيت السوط من يدي، فلا تحتاج هاهنا الباء. وتكون بمعنى الرمي والإرسال، كما تقول: ألقيت إلى زيد بكذا، أي رميته به، وهذا إلقاء بكتاب وإرسال به فحسنت الباء هنا، والله أعلم. وعبّر عن ذلك بالمودّة لأنه من أفعال أهل المودّة، أما عند الفراء رحمه الله فدخولها وخروجها عنده سواء. والباء عند سيبويه رحمه الله لا تزاد في الواجب، ومعناه عند البصريين: تلقون إليهم النصيحة بالمودّة، وقال المهدوي رحمه الله: معنى تلقون إليهم بالمودّة: تخبرونهم بسرائر المسلمين وتنصحون لهم، والباء متعلقة بالمصدر الذي دلّ عليه الفعل، والله أعلم بما أراد من ذلك كله. نزلت الآية في حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، ويقلب التنوين والنون الساكنة عند الباء ميماً في مثل: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ ﴾ [البقرة: ٢٧]، و: ﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ ﴾ [البقرة: ١٨]، فتقول: مم بعد، وصمم بكم، هذا على طريقة البيان والرسم كالأوّل، وتبدل الميم منها في لغة بعض العرب يقولون: با اسمك؟ يريدون: ما اسمك؟ كما يروى أن بعضهم وكان اسمه بكراً دخل على أحد الأمراء فقال له الأمير: با اسمك؟. قال: مكر يا أمير المؤمنين. وقالوا: لازب ولازم، وموماة وبوماة للمفازة، وبيد وميد بمعنى غير. وفي الحديث: أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش ونشأت في بني سعد. وفسره بعضهم: من أجل ذلك. وكذلك بله معناه غير، وقيل أيضاً دع، وفي الحديث: بله ما أطلعتكم عليه، فسر بالمعنيين، وقالوا: أزمة وأزبة للسنة الشديدة. وذكر الخطابي عن ثعلب رحمه الله يقال: أزمة وأزبة وأزلة. وحكى يعقوب: أزبة، قال الخطابي: وأزبة وأزلة. وقد تقدّم أنه إنما يقال سنة في القحط والجدب، وعام في الخصب، واحتج بقوله تعالى: ﴿ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا ﴾ [يوسف: ٤٧]، ثم قال: ﴿ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ ﴾ [يوسف: ٤٩].

فصل:

من مضاعف هذا الحرف ببة، لم يوجد في الكلام الفاء والعين في كلمة واحدة من جنس واحد لا فاصل لهما وهما متحرّكان إلا دد، وهو اللهو، على أنه محذوف من ددن، وسيأتي ذكره في باب الدال إن شاء الله. وفي هذا الباب قالوا: ببة، على أنه مضعف، وهي لغة عربية مشهورة يقلنها النساء حين يرقصن أولادهنّ. قالت امرأة من قريش:

لأنكحـــــنّ ببـــــه جاريـــــة خدبـــــه
مكـــــرمة محـــــبه تجـــب أهـــل الكعـــبه

قال أبو عبيد البكري: اختلف في معنى ببة، فقال الخليل: يوصف به الأحمق.

وقال ابن جني: حكاية الصوت الذي يرقص به الصبي وليس باسم، إنما هو كقولك: قب، اسم لموقع السيف، وليس في الكلام اسم أوّله بآن إلا هذا وقول عمر رضي الله عنه: بياناً، وسيأتي ذكره.

وأما البيغا والبير فعجميتان، ووقع في مختصر العين: ببة لقب رجل من قريش، وكان في طرة الكتاب اسمه، وكرهت أن أذكره صيانة لنسبه الكريم، وذكر أنه كان أصم وبه لوثة. وقالوا من مضاعف هذا الحرف: هم على بيان واحد، أي على طريقة واحدة، على أن هذه اللفظة قد قيل ليست عربية محضة، ولكن قد تكلمت بها العرب، قالوا: ببان واحد، كما قالوا: بأج واحد. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن عشت فسأجعل الناس بباناً واحداً، يريد التسوية بينهم في العطاء والقسم، وكان رأيه التفضيل في الأعطية على السوابق، ورأى أبو بكر التسوية بينهم، وكان يقول: هم إخوة أبوهم الإسلام، فهم في هذا المعنى أسوة، وأجور أهل السوابق عند الله، فرجع عمر إلى رأي أبي بكر آخراً رضي الله عنهما.

تقدم: تجب أهل الكعبة، أي: تغلب نساء قريش حسناً، قال الشاعر:

جبت نساء العالمين بالسبب

قال من فسره: هذه امرأة قدّرت عجيزتها بخيط، وهو السبب، ثم ألقته إلى النساء ليفعلن كما فعلت، ووضع السبب الخيط.

وقال ابن عزيز في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الحج: ١٥] أصل السبب الحبل. وقال ابن سلام مثله، يقول: فليعلق حبلاً من السماء، يعني سقف البيت، ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ [الحج: ١٥] أي ليقطع الحبل. أما قوله تعالى: ﴿ فَلْيَرْتَقُواْ فِي ٱلْأَسْبَٰبِ ﴾ [ص: ١٠] أي في الأبواب وكذا: ﴿ لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [غافر: ٣٦-٣٧]، وكذلك قال في قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ [الكهف: ٨٤] قال قتادة: يعني علماً. وقال في قوله تعالى: ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكهف: ٨٥] يعني منازل الأرض ومعالمها لأنه ملك مشارق الأرض ومغاربها، فالسبب على هذا الوصلة إلى الشيء الذي يحاول المرء فعله، وأصله كما قال ابن عزيز: الحبل ثم استعير في هذه الأشياء، والله أعلم. وقوله:

جبت نساء العالمين بالسبب

بعده:

فهنّ بعد كلهنّ كالمحب

المحب: البعير الحسير المعي الذي لا يستطيع براحاً، يقال: بعير محب وقد أحب إحباباً إذا برك من الضر الذي أصابه، ويكون الإحباب أيضاً في الإبل كالحران في الخيل، وأنشد:

كيف قريت ضيفك الهرزبا لما أتاك يابساً قرشيا
حلت عليه بالقطيع ضربا ضرب بعير السوء إذ أحبا

ويقال أيضاً: أحب الزرع وألب، إذا دخل فيه الحب واللب.

معاني التاء:

وأما التاء فمن الحروف المهموسة ومخرجها من طرف اللسان وأصول الثنايا، وكذلك الطاء والدال، والتاء من حروف الزوائد كما تقدّم، فتزاد في أوّل الفعل، مثل تفعل للمذكر وتفعلين للمؤنث، كما قال تعالى: ﴿ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ [النمل: ٣٣]، وتلحق في آخر جماعة النساء، نحو: ذاهبات والمسلمات والمؤمنات، وكان أصل هذا أن يقال فيه: مسلمتات وذاهبتات، لكن حذفت إحدى التاءين لئلا يجمع بين علامتي التأنيث، وكانت الأولى بالحذف أولى لأنها تدل على معنى واحد وهو التأنيث، وبقيت الثانية لأنها تدل مع التأنيث على الجمع، وتبدل مع الواحدة في الوقف هاء، نحو: ذاهبه ومسلمه، وتلحق أيضاً في نحو: ذهبت وقامت وملكوت وجبروت ورهبوت وغلبوت، الذي وزنه فعلوت، لأنه من الغلب، ولهذا يحتاج معرفة الحرف الزائد من الأصلي لسوق الأصلي من الكلمة بالفاء والعين واللام، والزائد على صورته كائناً ما كان، كما قالوا في وزن نكتل من قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ ﴾ [يوسف: ٦٣] وزنه على اللفظ نفتل، وعلى الأصل نفتعل، لأن أصله نكتيل، ففيه من الأصلي الكاف والياء واللام الموجودة في الكيل، وهذا أصل قس عليه ما يرد عليك من مثله وغيره إن شاء الله. وتزاد التاء أيضاً في باب افتعل واستفعل، وتكون للمقسم كقوله تعالى: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم ﴾ [الأنبياء: ٥٧] ولا تدخل إلا على اسم الله وحده، وتبدل من الواو في مثل: تراث وتكاة وتخمة، لأنه من ورثت واتكأت واتخمت، كما قاله أبو القاسم رحمه الله. وقالوا: تقاة، والأصل وقاة، وجمعها تقى، ورجل تقي أصله وقي، وأصل تقوى وقوى، وسيأتي الكلام في هذه اللفظة في باب الفاء والقاف إن شاء الله. وتبدل أيضاً من الطاء في قطر وأقطار، فيقال: قتر وأقتار، وهي الجوانب، قال الفرزدق:

كم من غني فتح الإله لهم به والخيل مقعية على الأقطار

ويروى الأقتار، قاله ابن هشام في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ﴾ [الأحزاب: ١٤] يعني المدينة. وأنشد زياد الأعجم:

فتـــى زاده الســلتان فـــي الخيـــر رغـبـة

البيت. أراد السلطان، وتبدل تاء افتعل أيضاً طاء إذا كانت فاؤه صاداً أو ضاداً أو طاء أو ظاء، ولا بدّ من ذلك، تقول من الصبر: اصطبر، ومن الضرب: اضطرب، ومن الطرد: اطّرد، ومن الطهد: اطّهد، ويقال: تي وتا، بمعنى ذه للمرأة، وتحقيرها تيا وكان أصلها تتيا فحذفت التاء كراهة لاجتماع التآت، قاله (ع)، وعلى هذا أنشدوا:

هـــا إنّ تـــا عـــذرة إن لـــم تكـــن نفعـــت

البيت. وته مثل ذه، وإذا خاطبت مؤنثاً قلت: تيك وتلك وتِلك، بفتح التاء، وهي لغة رديئة. وفي التثنية: تانك وتانّك بالتشديد، والجمع أولئك، فالكاف لمن تخاطبه في التذكير والتأنيث والتثنية والجمع، وما قبل الكاف لمن تشير إليه في جميع ذلك، فاحفظ هذا الأصل، وتدخل الهاء على تيك وتاك، فتقول: هاتيك هند وهاتاك، قال عبيد يصف ناقة:

هاتـــيك تحملنـــي وأبـــيض صـــارما

وقال أبو النجم:

جئـــنا نحيـــيك ونـــستجديكا فافعـــل بـــنا هاتـــاك أو هاتـــيكا

أي هذه أو تلك تحية أو عطية من التاج. وقد تقدّم في الشعر ألاتا، وقول الآخر: ألافا، ويقال: تأتأ التيس عند السفاد تأتأة وقد تقدّم. ويقال للرجل إذا تردّد في التاء: تأتأ فهو تأتاء على وزن فعلال، وفيه تأتأة مثل فأفأة، وقد تقدّم. ويقال فيه أيضاً: تمتم يتمتم تمتمة فهو تمتام، وامرأة تمتامة، ومنه قوله:

فـلا يحـسب التمـتام أنـي هجـوته ولكنـني فـضلت أهـل المكـارم

وقال الراجز:

لـــــيس بفأفـــــاء ولا تمـــــتام

والفأفاء الذي يتردد في الفاء، وقد قيل: التمتام الذي يعجل في الكلام ولا يكاد يفهمك، والألثغ في الراء أن يجعلها في طرف لسانه أو يجعل الصاد ثاء، والأرث أن يجعل اللام تاء. وقال المبرد في الكامل: والرتة كالرتج تمنع أوّل الكلام فإذا جاء منه شيء اتصل. وذكر معها التمتمة والطمطمة واللكنة واللثغة والغنة والخنة، وفسر ذلك فانظره. فرغ الكلام يا فتى في التاء ولم يبق غير الثاء.

خـرجت مـن شـيء إلـى غيـره بحكـم مـا يأتـي ومـا يـنعت

لكنه علم ومن حقه يقرأ وإلا قلما يثبت

معاني الثاء :

وأما الثاء فمخرجها من طرف اللسان وأطراف الثنايا، وكذلك الظاء والذال وهي من الحروف المهموسة، وتبدل من الفاء لقرب المخرج في مثل: فوم فيقال ثوم، وكذلك يقال: جدف وجدث، قال رؤبة:

لو كان أحجاري من الأجداف

وقالوا: فم وثم، وقالوا: حثالة وحفالة. قال ابن قتيبة: ويقالحثل. روي عن أنس رضي الله عنه أنه قال: اللهم إني أعوذ بك أن أبقى في حثل من الناس لا يبالوا أغلبوا أم غلبوا. ويقولون: التحنف والتحنث، يريدون الحنيفية، وقد قيل: إن التحنث من الحنث، والحنث: الحمل الثقيل، وتفعل يقتضي الخروج من الشيء وإطراحه، مثل التأثم والتحرج والتعذر. وجاء من هذا في الحديث: وأخبر بها معاذ عند موته تأثماً، أي ليطرح عن نفسه الإثم، كما قال الشاعر:

تجنبت إتيان الحبيب تأثماً ألا إن هجران الحبيب هو الإثم

أنشده المازري شاهداً على الحديث. ويجيء أيضاً: تفعل؛ بمعنى: الدخول في الفعل، مثل: تفقه وتنسك، وهو أكثر من الأول وأشهر، فعلى هذا تحنف أي دخل في دين الحنيفية، والله أعلم. قال معنى هذا الأستاذ رحمه الله. ويقال من مضاعفها: ثأثأت الإبل، سقيتها ولم ترو، وقد تثأثأت، إذا شربت، وثأثأت عنه الغضب: أطفأته، وثأثأت عن القوم: دفعت عنهم. والثأي: الفساد، وقد تقدّم، قال الشاعر:

حبست كريماً أن يجود بماله سعى في ثأي عن قومه متفاقم

يقول هذا الشعر الأبيرد لعبيد الله بن زياد، وكان قد حبس مرة بن محكان، وكان جواداً تحمل حمالات عن قومه فعجز عنها، فسجنه عبيد الله بن زياد، فقال الأبيرد:

أبلغ عبيد الله عني رسالة رسالة قاض بالفرائض عالم
فإن أنت عاقبت ابن محكان في الندى فعاقب هداك الله أعظم حاتم
حبست كريماً.............. .... البيت

لغات الفم :

تقدّم في البدل ثم وفم، ومن شكل ثم فم وفيه لغات: يقال هذا فم ورأيت فماً ومررت بفم، بفتح الفاء على كل حال. ومنهم من يضم الفاء ويخفف الميم على كل حال. ومنهم من يكسر الفاء على كل حال. ومنهم من يعربه في مكانين: تقول هذا فم

ورأيت فماً ومررت بفم. أما تشديد الميم فإنما يجوز في الشعر، كما قال:

.... يـا ليـتها قـد خـرجت مـن فمّـه

حتـى يعـود الملـك فـي أصطمّه

قال ابن السكيت: لو قيل من فمه بفتح الفاء لجاز، قال هذا صاحب كتاب تاج اللغة. قال غيره: الميم في فم بدل من واو لأن أصله فوه، دليله أنه يجمع على أفواه، ورجل أفوه وامرأة فوهاء، وقد فوه يفوه، إلا أنهم استثقلوا اجتماع هاءين في قولهم: هذا فوهه بالإضافة، فحذفوا الهاء فقالوا: هذا فوه وفو زيد، ورأيت فا زيد، هذا في الإضافة فإذا خذلوه من الإضافة قالوا: فم، أبدلوا من الواو ميماً كما تقدّم. قال: ومن هاهنا لم يحسن في سعة الكلام فمك ولا فمه ولا فمي، وإنما يقال: فوك وفوه وفيّ، وقد أجازوا فمه في الشعر كما قال

يـصبح عطـشان وفـي البحـر فمـه

وكما قال الآخر

مـا للغـراب ولـي دق الإلـه فمـه

وأكثر ما يأتي في الكلام فوه وفاه وفيّ، كما تقدّم في الحديث: حتى اللقمة تضعها في فيّ امرأتك. وقالوا: كلمته فاه إلى فيّ، أي مشافهة، ونصبوا فاه على الحال، والبيت الذي تقدّم

يـا ليـتها قـد خـرجت مـن فمّـه

هو لجرير في سليمان بن عبد الملك يخاطب الرشيد:

إن الإمـام بعـده ابـن أمّـه ... ثـم ابنه ولـيّ عهـد عمّـه

قـد رضـي النـاس بـه فـسمّه ... يـا ليـتها قـد خـرجت مـن فمّـه

قلت: قد خرجت من فمه كما تمنى جرير لكنه لم يرض بها الجم الغفير، بل حمل الناس عليها بالسوط والعصا وحلق الرؤوس واللحى، منهم سعيد بن المسيب رضي الله عنه حلق رأسه ولحيته وطيف به المدينة وأمر به بعد ذلك إلى السجن فرفعه الله، وسيأتي خبره في باب الجيم إن شاء الله.

وقد فرغ في الثاء الكلام ولم يبق إلا أبياتها والسلام فدونكها يا غلام:

خـرجت مـن شـيء إلـى غيـره ... بحكـم مـا يأتـي ومـا يحـدث

لكـنه علـم ومـن حقـه ... يقـرأ وإلا قلمـا يلـبث

قافية الأبيات:

بقيت قافية الأبيات:

بـل وبـل وبـل وبـل ... وبـل وبـل وتـل وثـل

أما بل فمن قولهم: بل الرجل بللاً من مرضه، واستبل: برأ، قال الشاعر:

إذا بل من داء به ظن أنه ... نجا وبه الداء الذي هو قاتله

ويقال أبل أيضاً.

فائدة :

قول هذا الشاعر: (إذا بل من داء به)... البيت. يريد أن الكبر الذي أمامه قاتله آخراً لا محالة، كما قال الشاعر:

يود الفتى طول السلامة والغنى ... فكيف ترى طول السلامة يفعل

يود الفتى بعد اعتدال وصحة ... ينوء إذا رام القيام ويعدل

وقال الآخر:

دعوت ربي بالسلامة جاهداً ... ليصحني فإذا السلامة داء

وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم أفصح من هذا وأوجز: كفى بالسلامة داء، قيل: يريد هذا المعنى، وقيل: كفاه داء في الدنيا سلامته من الأسقام والأمراض والمصائب التي لو كانت لأجر عليها وأثيب، فجعل هذا داء حيث حيث لم يرزأ في نفس ولا أهل ولا مال، والله أعلم.

وأما بل خفيفة فحرف من حروف العطف معناه التدارك، وقد يكون بمعنى أو وبمعنى الواو وبمعنى لكن، وسيأتي الكلام عليها في باب الواو إن شاء الله. ولا أخليك هنا من فائدة: قد تأتي بل في موضع رب كقول الآخر:

بل مهمه قطعت بعد مهمه

يعني: رب مهمه، وكما قال الآخر:

بل جوز تيهاء كظهر الجحفت

يريد: رب، وقال الجحفت ووقف عليها بالتاء وهي لغة لبعض العرب، يقولون: هذا طلحت وخذ الذرت، أنشد قطرب:

الله نجاك بكفي سلمت ... من بعد ما وبعد ما وبعد مت

صارت نفوس القوم عند الغلصمت

وربما استعملت العرب بل في قطع الكلام واستئناف آخر فينشد الرجل منهم الشعر فيقول:

بل هاج أحزاناً وشجواً قد شجا ... من طلل كالأتحمي أنهجا

ويقول:

بـــل وبلـــدة مـــا الأنـــس مـــن آمالهـــا

فـ (بل) في أوّل هذا الرجز ليست من البيت ولا تعدّ في وزنه، ولكن جعلت علامة لانقطاع ما قبله. قلت: قد تفعل العرب هذا في غير بل، قال الشاعر ويروى أنها لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، أو قالها متمثلاً رضي الله عنه:

أشـــدد حـــيازيمك للمـــوت فـــإن المـــوت لاقـــيكا
ولا تجـــزع مـــن المـــوت إذا حـــلّ بـــواديكا

إنما يصح البيت بأن يسقط منه اشدد، ولكن الفصحاء من العرب يزيدون ما يتم به المعنى ولا يعتدون به في الوزن، ويحذفون منه علماً بأن المخاطب يعلم ما يريدون به، فهذا إذا قال: حيازيمك للموت، فقد أضمر أشدد، فأظهره ولم يعتد به. قال أبو العباس: حدّثني أبو عثمان المازني قال: فصحاء العرب ينشدون كثيراً:

لـــسعد بـــن الـــضباب إذا غـــدا أحـب إلينـا مـنك فـا فـرس حمـر

وتمام الشعر: لعمري لسعد بن الضباب.

رجع القول إلى بل، هي كلمة نقصانها مجهول، ومثلها: هل وقد، إن شئت جعلت نقصانها واواً فقلت: بلو هلو قدو، وإن شئت جعلته ياء فقلت: بلي هلي قدي، ومنهم من يجعل نقصانها مثل آخر حرف منها فيدغم فيقول: بلّ هلّ قدّ، بالتشديد، وإنما يقدّر فيها ذلك كله إذا سميت بها، ولا يردّ إلا في التصغير، ولا تكون إلا حرف لين، فإن لم تصغر فهي كيد ودم، وتقدّم بلي بالتخفيف والسكون، وشكله شكل بلي القبيلة المشهورة في العرب والنسب إليها بلوي، ومن شكل بلي قولهم: فلان بذي بلي مشدد اللام والياء: للذي لا يعرف موضعه، وفيه لغة أخرى: فلان بذي بليان مخفف الياء على وزن فعليان مثل صليان جمع صليانة، وهي حشيشة تأكلها الإبل.

وأما بل الثالث فمن بلّ الثوب وغيره، فعل ماض وسيأتي. وأما بل الرابع فالمباح، من قولهم: حل وبل، واختلف في قولهم: وبل، فمنهم من جعله اتباعاً على مذهب من يجيزه بحرف العطف، ومنهم من جعل له معنى وهو المباح كما تقدّم، وهذا أحسن، لأن الأصمعي قال: كنت أرى أن بل اتباع حتى زعم المعتمر بن سليمان أن بل في لغة حمير: المباح. قال أبو عبيدة: شفي، من قولهم: بل الرجل من مرضه، وأبل: إذا برأ، كما تقدّم. قال العباس بن عبد المطلب في زمزم: لا أحلها لمغتسل وهي لشارب حلّ وبل. وقالوا: والاتباع في الكلام إنما يأتي للتقوية لا معنى له إلا ذلك، كما قالوا: شيطان ليطان، وحسن بسن.

سئل بعض العرب عن الاتباع في الكلام فقال: إنما هو شيء نشدّ به كلامنا، أي:

نقوّيه. وقالوا: جائع نائع، واختلفوا فيه أيضاً، فجعله بعضهم اتباعاً، وبعضهم قال: نائع عطشان، وعليه أنشد ابن قتيبة:

لعمـــر بنـــي شـــهاب مـــا أقامـــوا صـــدور الخـــيل والأســـل النـــياعا

يعني الرماح العطاش. وتقول: بللت به بلالة وبلولاً، صليت به، ومنه قولهم: لئن بللت به لتبلن بالأسد، وسيأتي الكلام عليه في باب الراء إن شاء الله تعالى.

ويقال أيضاً: بللت به: ظفرت، ولئن بلت بك يدي لا تفارقني أو تؤدي حقي، ويقال: لا تبلك عندي بالة، أي: لا يصيبك مني ندى ولا خير، ويقال أيضاً: لا يبلك عندي بلال، مثل قطام، قالت ليلى الأخيلية:

فـــلا وأبـــيك يـــا ابـــن أبـــي عقـــيل يـــبلك بعـــدها عـــندي بـــلال

والأبل: الشديد اللؤم، يقال منه: رجل أبل وامرأة بلاء، إذا لم يدرك ما عندهما من اللؤم، ورجل أبل: إذا كان خبيثاً، وأنشد ابن دريد في ذلك لبعضهم:

ألا تـــتقون الله يـــا آل عامـــر وهـــل يتقـــي الله الأبـــل المـــصمم

وفسر ثابت: الأبل بالمطول في قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في بعض عماله: ما له قاتله الله، إنه لفاجر أبل أو أمين ما يفل. وفي بعض الروايات: أو هو ممن لا يفل. وفسر الأبل الذي يمضي على أمره وشأنه لا يرجع عنه، وأنشد:

محـــرش يخلـــط إفكـــاً بجـــدل أبـــل إن قـــيل اتـــق الله احـــتفل

والأبل: الحاذق البصير برعية الإبل، ومنه المثل: أبل من حنيف الحناتم. وكذلك قالوا: أبل من مالك بن زيد مناة، وكانا يحسنان معاً رعي الإبل. والأبل مخفف مضموم الهمزة والباء: الأوان. قال الرياشي: سألت أبا العطاف قلت: ما النشو؟ قال: الذي ينبت في غير أبل، فسره بعضهم الأوان كما تقدّم، ويقال: نشو ونشي ونشأة ونشوة.

لبأ: ومعكوس أبل: لبأ، مهموز مقصور، وسيأتي. ومن شكله: لبى فلان بالحج، ويكتب بالياء، وكتبه بالألف جائز كما تقدّم. ويقال: لبأ فلان بالحج تلبئة، بالهمز (وج) وقال متصلاً به. قال الفراء: وربما خرجت بهم فصاحتهم إلى أن يهمزوا ما ليس بمهموز، قالوا: لبأت بالحج وحلأت السويق، ورثأت الميت، والأبل: الذي لا يستحيي. قال ابن دريد: بللت من المرض، وبللت من فلان بشرّ: إذا لقيته منه، وبلة الشباب: طراوته. ويقال: طويت فلاناً على بلته وبلالته وبلوله، وبللته وبلولته: إذا طويته على ما فيه من عيب، وأنشد:

ولقـــد طويـــتكم علـــى بلاتكـــم وعـــرفت مـــا فـــيكم مـــن الأذراب

ويقال لنور العضاه إذا خرج: البلة، والبلة: داء يصيب الإنسان في جسمه، ويقال:

في الثوب بلة، أي: رطوبة. والبلبلة: الحركة والاضطراب، تبلبل القوم بلبلة وبلبالاً، والبلبلة والبلبال أيضاً: ما يجده الإنسان في قلبه من حركة الحزن، والبلبلة: حكاية صوت التيس عند السفاد، وفسر أيضاً بلحس الشاة ولدها.

ومن البلبال ويجمع بلابل، حديث علي رضي الله عنه: صيام ثلاثة أيام من كل شهر يذهبن بلابل الصدر، يعني وساوسه، وخرّجه ثابت وقال في تفسيره نحو ما تقدّم. والبلبلة: وسواس الهموم في الصدر، وأنشد:

وإني لأرضى منك يا ميّ بالذي ... لو أيقنه الواشي لقرت بلابله
بلى وبأن لا أستطيع وبالمنى ... وبالوعد والتسويف قد مل آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول ينقضي ... أواخره لا تنقضي وأوائله

والبلبلة، بالضم: ضرب من الكيزان في جنبه بلبل ينصب منه الماء، والبلبل: الخفيف العوان.

وأما بل الخامس فأمر من: بل الشيء يبله بالماء وغيره بلاً وبللاً وبلة، وتقول: ما أحسن بلة لسانه، بالكسر، والبليل: الريح الباردة، وبللت رحمي بللاً: وصلتها. وجاء منه في الحديث: بلوا أرحامكم ولو بالسلام. وجاء في حديث آخر: لكم رحماً سأبلها ببلالها. كذا رواه المحدّثون بكسر الباء. وقال الخطابي: إنما هو بلالها، الباء مفتوحة من بله، كالملال من مله يمله.

وأما بل الآخر فمن بل أيضاً مبني لما لم يسمّ فاعله، وإن شئت فقل: بل، مخففاً أمر من البول، ولا نخلي هذه اللفظة من فائدة والغرض في ذكرها أن لا تكرر في القوافي لفظة إلا لمعنى، وكذلك في ألفاظ الأبيات إن شاء الله، فالبول معروف، وسيأتي في فصل الفوائد: من كره أن يقول: أبول، ولكن ليقل: أريق الماء، ومن أجاز ذلك، وسيأتي إن شاء الله. والبول أيضاً: ولد الرجل، فإن جعلت الواو أصلية في وبل فله معنى، تقول: وبُل المرتع، بالضم، وبلاً ووبالاً فهو وبيل، أي: وخيم. ومنه: استوبلت البلد، أي: استوخمته. وفي الحديث في شأن العرنيين: استوبلوا المدينة، وهو من هذا. والوبل والوابل: المطر الشديد، وقد وبلت الأرض توبل فهي موبولة. قال الأخفش: ومنه قوله تعالى: ﴿ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ [المزمل: ١٦] أي: شديداً، وضرب وبيل، وعذاب وبيل، منه، أي: شديد، والله أعلم.

لب: بقي من معكوس هذه اللفظة: لب، لب كل شيء من الثمار ولبابه: داخله الذي يطرح خارجه، وجمعه لبوب، ولب الرجل: عقله، ولباب كل شيء: خالصه، كما قال الشاعر:

لـــــباب البــــر يلــــبك بالـــــشهاد

وسيرد في الكتاب عليك ساقه الله حلالاً إليك. ورجل ملبوب: موصوف باللبابة واللبة، وقد لب يلب، واللب معروف، واللبب: البال، يقال: هو رخي اللبب واللبة، واللبب من الصدر: أوسطه، ولبة القلادة: واسطتها، والتلبيب: ما في موضع اللبب من ثياب الرجل، ولببته: جعلت في عنقه ثوباً وقبضت عليه. وفي الحديث من هذا قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فلببته بردائه وجئت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعني حكيم بن حزام رضي الله عنه. والمتلبب: المتحزم بالسلاح، واللبب: الملازم للشيء، ورجل لب: قريب لطيف، ولب بالمكان: أقام به، ومنه قولهم: لبيك، معناه: لزوماً لأمرك طوعاً لك، وقيل معناه: إجابة بعد إجابة، ومخرج مخرج حنانيك، وقد تقدّم، ونصب على المصدرية كقولك: حمداً وشكراً، وكان حقه أن يقال: لباً لك، وثنى على معنى التأكيد، أي: إلباباً لك بعد إلباب وإقامة بعد إقامة. قال الخليل: هو من قولهم: دارة فلان تلب داري، أي: تحاذيها، أي: أنا مواجهك بما تحب إجابة لك. وقد جمع على ألب، كما جمع بؤس على أبؤس، ونعم على أنعم، وربما أظهروا التضعيف، قال الكميت:

إلـــيكم ذوي آل النبـــي تطلعـــت نـــوازع مـــن قلبـــي ظمـــاء وألـــبب

ويقال بنات ألبب: عروق في القلب تكون منها الرقة، وقيل لأعرابية تعاتب ابناً لها: ما لك لا تدعين عليه؟. فقالت: تأبى له ذلك بنات ألببي. واللبلبة: لحس الشاة ولدها، وقد تقدّم. واللبلابة: حشيشة، ولبابة: اسم امرأة، قال أكثر هذا (ع).

وقال ابن دريد: يقال لب بالمكان وألب لباً وإلباباً. وقال في باب الراء: رب بالمكان وأرب به، إذا أقام، ورب الرجل النعمة يربها رباً: إذا تممها.

وقد تقدّم:

يـــربون بالمعـــروف معـــروف مـــن مـــضى

البيت. وقد تقدّم أيضاً اللب: الزرع، وألب: إذا دخل فيه الحب واللب. ولب الرجل: إذا صار لبيباً. قالت صفية بنت عبد المطلب:

أضــــربه لكـــــي يلـــــب وكـــــي يعـــــود ذا اللجـــــب

ورأيت في موضع آخر ذا الرجز، وفيه قالت أم الأحنف وأنشدت:

أضــــربه لكـــــي يلـــــب وكـــــي يعـــــود ذا اللجـــــب

واللب: العقل، والرجل اللبيب: العاقل، وجمعه: ألباء، تقول منه: لببت يا رجل،

بالكسر، تلب لبابة، أي: صرتذا لب. وحكى يونس فيه: لببت، بالضم، وقالوا: رجل لبيب، وكذلك قالوا: امرأة لبيبة، وقد تقدّم لبّ كل شيء: خالصه، وربما سمي سم الحية: لباً. وجاء في الحديث من لفظة لبيب: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن رؤيا المسلم جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة، وهي على رجل طائر ما لم يحدّث بها، فإذا حدّث بها وقعت. خرّجه الترمذي وقال: حديث صحيح. وفي مسند شعبة من الزيادة: فلا يحدّثن بها إلا حبيباً أو لبيباً. فرغ هذا.

تل: وأما تل وثل، فالتل مصدر تل يتل تللاً، وسيأتي إن شاء الله تعالى. والتل أيضاً: الرابية، والجمع تلال، ويجمع أيضاً: تلول. وجاء في حديث الإبراد بالصلاة وقال فيه: حتى رأينا فيء التلول، يعني بالتلول: ما ارتفع من الأرض كالهدف ونحوه، وسيأتي إن شاء الله. وفي الحديث أيضاً منه ما قال عليه السلام: يحشر الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي على تل ويكسوني ربي حلة، ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله، فذلك المقام المحمود، وقيل في المقام المحمود غير هذا، وسيأتي في باب السين إن شاء الله، والتل أيضاً: موضع معروف، قال الشاعر:

الضاربون عميراً عن بيوتهم ... بالتل يوم عمير ظالم عادي

ويقال: رجل ضال تال، وجاء بالضلالة والتلالة، وهو الضلال ابن التلال، وكل ذلك اتباع، والتلتلة الإقلاق والحركة، وقد تقدّم، وفي الأمالي: التلاتل والثراثر: الهزاهز، والتليل: العنق، وتلتله، أي: زعزعه وزلزله. وقد جاء في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حين أتي بسكران أو بشارب فقال: تلتلوه وهزهزوه. خرجه أبو عبيد، وقال: قال أبو عمر: وهو أن يحرك ويزعزع ويستنكه حتى يوجد منه الريح ليعلم ما شرب. وهي التلتلة والهزهزة والثرثرة بمعنى واحد، والتلاتل: الشدائد، مثل الزلازل، والتلاتل، بضم التاء: آنية تصنع من جف الطلعة. قال أبو حنيفة: والجف غلاف الطلعة ويكون لغيرها أيضاً، ويقال للجف أيضاً: القيقاء، والمتل: القويّ الشديد، يقال: رمح متل، وأسد متل: منتصب. وكان بعض أهل اللغة يقول: إنما سمي الرمح متلاً لأنه يتل به، أي: يصرع، كأنه مفعل، وهذا لا يقوله البصريون. وقال الأصمعي: المتل: الغليظ، وأنشد:

فرأين منهوس الشجا ... ع بكفه رمح متل

والمتل، بالفتح: المصرع، ومنه حديث أبي الدرداء: ابتنوا عليك البنيان وتركوك لمتلك، ويقال: هو بمتلة سوء، أي: بحال سوء، وتأمر من هذا الفعل فتقول: تل زيداً، وكذلك المبني لما لم يسمّ فاعله تقول فيه: تل زيد. وأما تل الثاني فهو فعل ماض،

تقول: تللت الشيء في يد فلان، إذا وضعته في يده. وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتي بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلام وعن يساره الأشياخ، فقال للغلام: أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟ فقال: لا والله يا رسول الله لا أوثر بنصيبي منك أحداً، قال: فتله رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده. خرّجه مالك رحمه الله في الموطأ. وفي القرآن العزيز: ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ [الصافات: ١٠٣]، معنى أسلما: استسلما لأمر الله، رضي إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه، ورضي ابنه عليه السلام بالذبح. وقراءة علي وابن مسعود رضي الله عنهما: (فلما سلما)، ومعنى تله: صرعه على جبينه، قاله المهدوي. وقال البخاري في جامعه: وتله: وضع وجهه بالأرض، وكلاهما قريب بعضه من بعض، إلا أن الجبين على ما قاله ابن قتيبة: ما عن يمين الجبهة ويسارها. وقد جاء في الحديث أن الجبين هي الجبهة، لقول الراوي: فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف من مصلاه وعلى جبينه وأنفه أثر الماء والطين. وفي حديث آخر: لا صلاة لمن لا يصيب أنفه من الأرض ما يمس الجبين، فهو هنا الجبهة بلا شك، وإن سمي ما يكتنف الجبهة جبيناً على ما قاله ابن قتيبة فجائز على الاتساع.

لت: وأما معكوس تل فهو لت، لت السويق وغيره يلته لتاً: إذا بسه بالماء أو غيره، واسم الفاعل من هذا لاتّ، والمفعول: ملتوت، أنشد الأصمعي لرؤبة:

ويأكل الحية والحيوتا ... ويدمق الأقفال والتابوتا
ويخنق العجوز أو تموتا ... أو تخرج المأقوط والملتوتا

والمأقوط: المعمول بالأقط، يقال منه: أقط طعامه يأقطه أقطاً، ونوع منه البكيلة، وهو السمن يخلط بالأقط، وأنشد:

غضبان لم تؤدم له البكيله

وقال أبو زيد: البكيلة والبكالة، جميعاً: الدقيق يخلط بالسويق ثم تبله بماء أو سمن أو زيت، تقول منه: بكلت السويق بالدقيق أي: خلطته، وبكيل: حيّ من همدان، ولعل نوفاً البكالي الذي جاء في حديث موسى والخضر عليهما السلام من هذا الحيّ، أو مما ذكر قبل هذا، والله أعلم.

لات: وكذلك قرأ ابن عباس ومجاهد: (أفرأيتم اللاتّ والعزى) بالتشديد. قال ابن دريد وقد ذكر اللات: قد جاءت في التنزيل بالتخفيف والتثقيل، والله أعلم. فإن حملت هذه الكلمة على الاشتقاق لم أحب أن أتكلم فيها، ولم يجئ في الشعر إلا بالتخفيف، قال زيد بن عمرو بن نفيل:

تــركت الــلات والعــزى جمــيعاً كــذلك يفعــل الجلــد الــصبور
فــلا عــزى أديــن ولا ابنتــيها ولا صــنمي بنــي عمــرو أزور

بقي من شكل هذا الحرف: لات الذي تقدّم ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ [ص: ٣] لات عند سيبويه مشبهة بليس، ولا تستعمل إلا مع الحين، واسمها مقدر في الجملة محذوف، التقدير: وليس الحين حين مناص، وجاز الحذف مع تشبيه المرتفع بها المحذوف بالفاعل، والفاعل لا يحذف لأن أصل هذا الكلام بعد لات الابتداء والخبر، فجاز الحذف كما يحذف المبتدأ. وحكى سيبويه أن من العرب من يرفع الحين بعدها ويظهر الخبر وهو قليل، والوقف عليها بالتاء في مذهب سيبويه وابن كيسان والفراء والزجاج، وعلى مذهب المبرد والكسائي بالهاء. وذكر أبو عبيد أن التاء في المصحف متصلة بـ حين، وهو غلط عند النحويين وخلاف قول المفسرين. وكذلك روى الدوري وابن قتيبة عن الكسائي قراءتها: (ولاه) في الوقف بهاء، ومعنى الآية: ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ [ص: ٣] وليس حين فرار، عن ابن عباس. وقال عكرمة: ليس حين انفلات. وقال قتادة: نادوا حين لا حين نداء. وسيأتي الكلام على (حين) وزيادة التاء في (تحين) و(تلان) على ما أنشدوه في الشعر، ولا أقول في القرآن العزيز شيئاً، انظره في باب النون في الشعر الذي لي فاستمعه تلانا إن شاء الله. ويقال: ناص ينوص نوصاً، إذا فرّ وإذا تأخر، والمناص أيضاً: المنجأ، قاله المهدوي.

وبقي من شكله اللات أيضاً جمع التي، وفيها خمس لغات: اللاتِ بكسر التاء بلا ياء، واللاتي بالياء، واللواتي، واللوات بلا ياء، واللوا بإسقاط التاء، وأنشد أبو عبيد:

مــن اللواتــي والتــي واللاتــي زعمــن أن قــد كبــرت لداتــي

وفي تثنيتها ثلاث لغات: اللتان، واللتانّ بتشديد النون، واللتا بحذفها. وفي مفردها ثلاث لغات أيضاً: التي، واللتِ بكسر التاء مخففة، واللتْ بإسكانها، وهي اسم مبهم للمؤنث، وهي معرفة ولا يجوز نزع الألف واللام منها للتنكير، ولا يتم إلا بصلة، وتصغيرها اللتيا، قال الراجز:

بعــد اللتــيا واللتــيا والتــي إذا علــتها نفــس تــردّت

ويقال: وقع فلان في اللتيا والتي، وهما اسمان من أسماء الداهية، وبعض الشعراء أدخل على التي حرف النداء، وهو لا يدخل على ما فيه الألف واللام إلا على اسم الله تعالى وحده، فقال:

مــن أجلــك يــا التــي تــيمت قلبــي وأنــت بخــيلة بالــودّ عنــي

ومن شكله أيضاً: لات بمعنى نقص، من قوله تعالى: ﴿ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ﴾ [الحجرات: ١٤] أي: لا ينقصكم، وفيها لغتان: لات يليت، وعليها قراءة الجميع غير أبي عمرو، فإنه قرأ: (يألتكم) من ألت يألت، تقول: ألته حقه ألتاً: نقصته.

وجاء في حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: لا تغمدوا السيوف عن أعدائكم فتوتروا ثاركم وتولتوا أعمالكم، أي: تنقصوها. قال ابن قتيبة: كأنه من أولت يولت أو ألت يألت إن كان مهموزاً، وقوله: توتروا ثاركم، أي: توجدوهم الوتر في نفوسكم، والثأر: العدوّ، لأنه موضع الثار.

فصل:

تال: ومعكوس لات: تال، اسم فاعل من تلا يتلو، إذا قرأ أو تبع، تقول: تلوت الرجل أتلوه تلواً: خذلته، وتلوته: تبعته، وناقة متلية: التي تنتج في آخر النتاج، ومتل: التي يتلوها أولادها، والجميع: متال، وأتليت عليه من حقي تلاوة، أي: بقية، وتلوت القرآن. وجاء في الحديث: لا دريت ولا أتليت، يقوله منكر ونكير عليهما السلام للمسؤول في القبر إذا قال: لا أدري. قال الخطابي رحمة الله عليه: المحدّثون يقولون: تليت، والصواب: ائتليت، افتعلت من ألا بمعنى استطاع، تقول: ما ألوت هذا الأمر. وفيه وجه آخر وهو أن يقال: وما أتليت، يدعو عليه بأن لا تلي إبله، أي: لا يكون لها أولاد تتبعها. ويقال: ناقة متلية، كما تقدّم، والله أعلم.

ويقال: فلان تلاء للقرآن، جاء منه في الحديث ما خرّج الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لرجل حين دلاه في قبره: رحمك الله، إن كنت لأوّاهاً تلاء للقرآن. ويقال: تلى فلان صلاته المكتوبة بالتطوّع. والتلاء، بالتخفيف: الذمة. قال الشاعر:

وســــيان الكفالـــــة والـــــتلاء

أتل: ومقلوبه: أتل يأتل أتلاناً، إذا قارب الخطو كأنه في غضب، وأنشد الفراء:

أرانـــي لا آتـــيك إلا كأنمـــا أســأت وإلا أنــت غــضبان آتــل

واتـل: أمـر مـن تـلا، قـال الله تعالـى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

لاث: ومن شكله لاث بالثاء المثلثة وألفه منقلبة عن واو، لاث عمامته على رأسه، ولاث إزاره عليه: أداره مرتين، يلوث في ذلك لوثاً. واللوث أيضاً: كثرة اللحم، يقال: ناقة ذات لوثة، وديمة لوثاء تلوث النبات بعضه على بعض، واللاثث من الشجر:

ما التبس بعضه على بعض، ويقال: لاث على القلب، أي: لائث، كما قال الراجز:

لاث بـــــه الأشـــــاء والعبـــــريّ

وفي القرآن العزيز من هذا النوع: ﴿جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة: ١٠٩] أي: هائر، والله أعلم. وفي الحديث منه: لا يحتكر الطعام إلا طاغ أو باغ أو زاغ، أراد: أو زائغ، فقلب للمطابقة، ولو لم تكن لجاز على مذهب العرب. والتاث فلان: إذا أبطأ، والتلوّث في الأمر منه، ورجل فيه لوثة، أي: حمق. والملاث والملوث: السيد الشريف. وجاء في الحديث من لاث أنّ النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً وقد أقيمت الصلاة يصلي ركعتين، فلما انصرف لاث به الناس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الصبح أربعاً الصبح أربعاً، خرّجه الخطابي وقال: معنى لاث به الناس: أحاطوا به واجتمعوا عليه، وكل شيء اجتمع ولبس بعضه ببعض فهو لائث، وأنشد البيت المتقدّم:

لاث بـــــه الأشـــــاء والعبـــــريّ

اثل: ومن مقلوبه: أثل، من قوله تعالى: ﴿خَمْطٍ وَأَثْلٍ﴾ [سبأ: ١٦]. فالخمط: الأراك، والأثل: شجر شبيه بالطرفاء إلا أنه أعظم، قاله ابن عزيز، واختلف في الطرفاء، فمنهم من قصره، ومنهم من مدّه وهو الأكثر، قاله ابن أبي زمنين. قال صاحب العين: ويقال: أثل يأثل أثولاً، إذا تأثل، وأثل الله ملكه، أي: عظمه، وأثلة كل شيء: أصله. وفي الحديث من قول أبي قتادة رضي الله عنه: إنه لأوّل مال تأثلته في الإسلام.

لثا: ويأتي من هذه اللفظة: لثا، يكتب بالياء، قال (ع): اللثي: شيء أبيض من ماء الشجر يسيل كالصمغ، فإذا جمد فهو صعرور. وقد لثيت الشجرة وألثت ما حولها، واللثياء التي يعرق قبلها. وجاء في كتاب الخطابي من اللثي قول أبي ثوران العكلي: أخويت فلم أطعم ثلاثاً إلا لثي الإذخر ومجاجة صمغ الشجر، أي: ما تحلب من الصمغ، وخبز مجاج: خبز الذرة يفت فيروى باللبن ثم يؤكل. قال الشاعر:

أطـــيب شـــيء بالـــيمن خبـــز مجـــاج باللـــبن

ذكره في تفسير حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يأكل القثاء بالمجاج، وقال: المجاج أحد شيئين: العسل أو اللبن، واللثة واحدة اللثات، وهي لحم الأسنان، وتجمع أيضاً لثى، وأصل لثة لثي والهاء عوض من الياء، قاله صاحب التاج.

ليث: ومن مقلوب هذا الحرف بالياء: ليث، وهو الأسد، لايثت فلاناً: زاولته مزاولة الليث، وقد تليث وليث: صار كالليث، ومنه حديث عبد الله بن الزبير أنه كان يواصل سبعاً ثم يصبح اليوم السابع وهو أليثنا، أي: أشدنا مزاولة وأعظمنا غناء، مشتق

من اسم الليث، ويقال: تليث وليث أيضاً: إذا صار ليثيّ الهوى. قال الراجز:

دونـــك مـــدحاً مـــن أخ ملـــيث

ومنه قول العجاج يصف الثور والكلاب:

شــــكس إذا لابثــــته ليثــــيّ

لاب: ومن شكل لاث: لاب يلوب لوباً ولواباً: إذا عطش، ونخل لوب ولوائب. ومن شكله لاب: جمع لابة، وهي الحرّة، ويقال: لوب، ومنه الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: ما بين لابتيها حرام، يعني المدينة. ويقال: لابة وجمعها لاب ولابات ولوب، يقال: ما بين لابتيها مثل فلان، ولا يقال ذلك إلا في المدينة شرفها الله تعالى وفي الكوفة.

بال: ومعكوس هذه اللفظة بال يبول، من البول، والاسم البيلة كالجلسة والركبة، والمبولة بالكسر: إناء يبال فيه، ويقال: لنبيلن الخيل في عرصاتكم، وبال: قديم، كما قال امرؤ القيس:

ألا إننـي بـال علـى جمـل بـال   يقـود بـنا بـال ويتبعـنا بـال

وقال الحريري:

فكـــم أخطـــر فـــي بـــال   ولا أخطـــر فـــي بـــال

والبال: الحال، والبال: رخاء العيش، والبال: بال النفس، وتقول: ما باليت بهذا الأمر، أي: لم أعبأ به، وما أباليه بالة، ولم أبال، ولم أبل. وفي الحديث من هذا: لا يباليهم الله بالة، بمعنى أنه يهينهم ولا يجزيهم خيراً، والله أعلم. والبالة أيضاً: القارورة التي يجعل فيها الطيب، فارسي معرب، وأصله بلغتهم: مبيلة. والبال: الذكر، والبال: القلب، والبال: جمع بالة، وهي الحراب الضخم. والبال: سمكة ربما كان طولها أكثر من خمسين ذراعاً، قاله الجاحظ. والبوال: داء يصيب الإنسان فيأخذه البول، ويقال: رجل بولة.

بلى: ومن مقلوبها: بلى، مقصور، جواب: ألم تفعل، ولا يكون إلا في السؤال المنفي، بخلاف نعم تكون جواباً للسؤال الموجب، وإذا غير هذا عن هذه الحال فسد المعنى وانقلب. جاء من هذا في القرآن: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤] و: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. وأما بلاء بالهمز فمعناه: الاختبار والتجربة. بلوته أبلوه بلواً وبلاء، وابتليته: جربته، والبلاء يكون في الخير والشر، يقال: أبليته بلاء حسناً وبلاء سيئاً. ويقال: بلي الشيء بلى، بالقصر، وبلاء بالمدّ والهمز، وأبليت فلاناً عذراً، والبلوى: البلية، والبلية أيضاً: دابة كانت تشدّ

في الجاهلية عند قبر صاحبها حتى تموت، وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله تعالى.
وبلى: حيّ من اليمن، ويقال: الناس بذي بليان وبذي بلى، أي: متفرّقون، وقد تقدّم.
وأزيدك فائدة: قال خالد بن الوليد رحمه الله في كلام: أمّا وابن الخطّاب حيّ فلا، ولكن إذا كان الناس بذي بليّ وذي بليّ. قال أبو عبيد: يريد تفرّق الناس وأن يكونوا طوائف مع غير إمام يجمعهم وبعد بعضهم عن بعض، وأنشد الكسائي:

ينام ويذهب الأقوام حتى يقال أتوا على ذي بليان

ألب: ومن مقلوبها: ألب، وقد تقدّم. وألب عليه بمعنى: كثر، وأمال ومالاً وألب منه يقال: الناس ألب واحد عليه، قال الشاعر:

والناس ألب علينا فيك ليس لنا إلا السيوف وأطراف القنا وزر

ويقال: ألب الإبل يألبها ويألبها ألباً: جمعها وساقها، وتألبوا: تجمعوا، فهم ألب وألب، وقال: الألب: الصغو، ومعناه: الميل، ومنه: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤] أي: مالت. وفي الحديث: فأصغى لها الإناء حتى شربت، يعني أماله.
والألب أيضاً: نبات مسموم إن وجدت سباع الطير ريحه عميت وصمت، وإن أكلته ماتت، والقشب: ضرب منه، وهو نبات رطب مسموم ينصب لسباع الطير في لحم، فإذا أكلته ماتت، والعرب يجنبونه ماشيتهم فيالمرعى كي لا تحطمه فيفوح من ريحه ما يقتلها، قال هذا كله أبو حنيفة في كتاب النبات، وقال أيضاً: الفجاج كل نبات مسموم.
والألب لغة في اليلب وهي الترسة، ويقال: الدرق، ويقال: هي البيض من جلود الإبل. ويقال: اليلب الفولاذ من الحديد، الواحدة يلبة.
قال (ع): ويقال للبيضات أيضاً: الخوذ، قال الشاعر:

وما يمنع الخائفين الحمسى لمس دروعهم والخوذ

لبى: ومن مقلوبها: لبى، يكتب بالياء، تقول: لبى الرجل يلبي تلبية، بمعنى: أجاب، وقد تقدّم. ولبأ مقصور، وهو لبن خاثر تأتي به الشاة وغيرها عند الولادة، يقال: لبأت الشاة ولدها وألبأته: أرضعته اللبأ، والتبأها ولدها، ولبأت الشاة والتبأتها: حلبت لبأها، واللبوة واللبوة واللباة: الأنثى من الأسد، قاله (ع). وعن أبي حاتم: اللبوة واللبة واللباة. وفي الحديث من اللبأ ما خرج الترمذي عن كلدة بن حنبل أن صفوان بن أمية بعث بلبن ولبأ إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وسيأتي كاملاً مفسراً.
إبل: ومن مقلوبه: إبل وأبل وأبل وأبل. فأما الإبل فمعلومة: جمع لا واحد لها من لفظها، لأن أسماء الجموع التي لا واحد لها من لفظها إذا كانت لغير الآدميين فالتأنيث لها لازم، فإذا صغرتها أدخلتها الهاء فقلت: أبيلة وغنيمة، وربما قالوا للإبل

إبْل بسكون الباء للتخفيف، والجمع إبال، قال الراجز يصف الغيم:

إبــل فــي الـسـمن إلــى ربابــه   أسـنمة الإبــال فــي ســحابه

يعني أن سمن الإبل وارتفاع أسنمتها إنما هو من المرعى الذي ينبت من هذا المطر، فتأكله فتسمن عليه، وإذا قالوا: إبلان وغنمان، فإنما يريدون قطيعين من الإبل والغنم، والنسبة إلى الإبل إبَلي بفتح الباء استيحاشاً لتوالي الكسرات، وإبل أبل مهملة، فإن كانت للقنية فهي إبل مؤبلة، وإن كانت كثيرة قلت: أوابل. والإبل المؤبلة أيضاً: التي جعلت قطيعاً قطيعاً، والآبل: ذو الإبل، كما تقول: لابن وتامر لصاحب اللبن والتمر، وقد تقدّم. والأبل: الحاذق البصير برعية الإبل.

وأما أبل، تقول: أبلت الإبل تأبل وتأبل أبلاً وأبولاً: إذا اجتزأت بالرطب عن الماء، والأبول: الإقامة في المرعى، وتأبل الرجل عن امرأته: اجتزأ عنها، والأبيل: القطعة من الخيل، وخيل أبابيل كما تقول في الطير من قوله تعالى: ﴿ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ [الفيل: ٣] قال ابن عزيز: أبابيل: جماعات متفرقة، أي: حلقة حلقة، واحدها أبال وأبول وأبيل، ويقال: هو جمع لا واحد له.

وأما أبل وأشكاله فقد تقدّم، وتقدّم أيضاً بل وأبل من مرضه، بمعنى برأ، والوبلة بالتحريك: الوخامة والثقل من الطعام، وفي الحديث: كل مال أديت زكاته فقد ذهبت أبلته، وأصله وبلة من الوبال فأبدل بالواو الألف مثل أحد أصله وحد كما تقدّم. والإبالة، بالكسر: الحزمة من الحخطب. وفي المثل: ضغث على إبالة، أي: بلية على أخرى كانت قبلها، وبعضهم يقول: إبالة مخففاً، وينشد:

لــي كــل يــوم مــن ذؤالــه   ضــغث يــزيد علــى إبالــه

والأبيل: راهب النصارى، وكانوا يسمون عيسى عليه السلام أبيل الأبيلين، حذفوا ياء النسبة كما حذفوا في الأشعرين وغيره.

ثل: فرغ الكلام من القافية على حد الاختصار، بقي من شكلها ثل، أخرت الكلام عليها إلى باب النون لأني لم أجد في قافية النون إلا نل، واحتجت إلى ما يشاكلها فسقت معها ثل، على ما تراه إن شاء الله، وكنت أيضاً قرنت مرة النون في باب الباء وأخواتها فردّدت لها الثاء عوضاً عما استعرت، وقلت في ذلك:

لمــا اسـتعرت الـنون فـي بـاب بـا   عوّضــتها بالــثاء فــي حـرف نـون
فــإن تــصرفه يلـح فـيه مــن   علمهمـــا أن تتبحــر فــنون
فخــذ هــداك الله بيتــين فــي   آخــر كــل فـيهما حــرف نــون

◆◆◆

خرجت من شيء إلى غيره — من باب ناب ثم ناب وتاب
وها أنا أذكر من بعد ذا — فوائد الباب بنص الكتاب
وأنت يا قارئه فاجتهد — وادع لمن ألفه بالمتاب

فصل:

من الفوائد:

تقدّم في أوّل الباب مثلان: أحدهما: أحق الخيل بالركض المعار. والآخر: لأمر ما جدع قصير أنفه. أما هذا فقد تقدم طرف منه، وشارح مقصورة ابن دريد ذكره مطوّلاً، انظره هناك موفقاً. وأما: أحق الخيل بالركض المعار، فإن فيه أقوالاً

قالوا: المعار من العارية، وذلك أنه لا شفقة من المعير على العارية، لأنها ليست له، واحتجوا بالبيت الذي قبله وهو لبشر بن أبي حازم في صفة الفرس:

كأنّ حفيف منخره إذا ما — كتمن الربو كير مستعار
وجدنا في كتاب بني تميم — أحق الخيل بالركض المعار

قالوا: والكير إذا كان عارية كان أشدّ لكدّه، وقال من ردّ هذا المعار السمين يقال: أعرت الفرس إعارة، إذا سمنته، واحتج بقول الشاعر:

أعيروا خيلكم ثم اركضوها — أحق الخيل بالركض المغار

واحتج أيضاً بأن أبا عبيدة زعم أن هذا البيت وما بعده في كتاب بني تميم ليس لبشر وإنما هو للطرماح. وكان أبو سعيد الضرير صاحب عبد الله بن طاهر يردّ هذه الرواية فيرويها:

أحق الخيل بالركض المغار

بالغين المعجمة، أي: المضمر، من قولهم: أغرت الحبل، إذا فتلته.

وإذ وقعنا في ذكر الخيل العراب فدونك فيها حديثاً غريباً: روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أباكم إسماعيل أوّل من ذللت له الخيول العراب فاعتنقها ثم أورثكم حبها، وذلك أنها كانت كسائر الوحش، فلما أذن الله تعالى لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام برفع القواعد من البيت أعطى كل واحد منهما كنزاً من كنوزه، فأوحى الله تعالى إلى إسماعيل عليه السلام: إني معطيك كنزاً من كنوزي لم أعطه أحداً قبلك فاخرج فناد بالكنز يأتك، قال: فخرج إسماعيل عليه السلام وما يدري ما ذلك الكنز ولا يدري كيف الدعاء به، حتى أتى أجياداً، فألهم الله تعالى إسماعيل الدعاء بالخيل، فنادى: يا خيل الله أجيبي، فلم يبق في بلاد العرب كلها فرس إلا أتاه وذلّله الله له، فأمكنته من نواصيها. قال ابن عباس رضي

الله عنهما: فلذلك سمي ذلك الموضع أجياداً. وقال عليه الصلاة والسلام: الخيل العراب تراث أبيكم إسماعيل عليه السلام فاعتنقوها واركبوها، فإنها ميامين. فالخيل المعروفة عند العرب بنات الأعوج والوجيف ولاحق وبنات العسجد وآل ذوي العقال وداحس والغبراء والجرادة والحبقاء والنعامة والشما وحافل والشقراء والزعفران والحرون ومكتوم والبطين وقرزل والصريح والزبير والوجيف وغلوى.

ومن كتاب التاج قال الأصمعي: الحرون من الخيل أعوج، وسمي بذلك لأنه كان يسبق الخيل ثم يحرن، ثم تلحقه، فإذا لحقته سبقها ثم حرن ثم سبقها.

ومن كتاب عياض رحمه الله قال أبو العباس المبرد: وأعوج فرس لغنيّ، وسمي أعوج لأنه ركب صغيراً رطباً قبل أن تشتدّ عظامه فاعوجت قوائمه وقبل بل ظهره وأمه سبل، وكانت لغني، وهذا أعوج الأصغر. وأما أعوج الأكبر فهو فرس اسمه الهجرس، والهجرس ولد فرس اسمه الدينار، والدينار ولد زاد الراكب فرس سليمان بن داود عليهما السلام، وهو بقية من الخيل التي خرجت من البحر، وكان أعطاه لقوم وفدوا عليه، وقال لهم: تصيدوا عليه ما شئتم وكانوا من جرهم، فكان لا يفوته شيء، فسمي زاد الراكب، والله أعلم. انتهى كلام عياض رحمه الله.

ومن بركة الخيل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والغنيمة. قال بعض العلماء: يخرج من هذا الحديث أن الغزو مع كل بر وفاجر إلى يوم القيامة.

ومن بركة الخيل ما قاله أبو ذر رضي الله عنه خرّجه أبو ثابت رحمه الله قال: ليس فرس إلا أنه يدعو الله في كل سحرية، يعني سحراً، وأنشد:

في ليلة لا نحس في ... سحريها وعشائها

وذكر ابن قتيبة رحمه الله في كتاب تفضيل العرب وقد ذكر جهل بعض الناس بمعرفة الشعر، فقال بعد كلام طويل وبعضده كقول القائل:

يا ابنة عبد الله وابنة مالك ... ويا ابنة ذي البردين والفرس الورد

الأبيات وتأتي. ويعارض ذلك بملوك فارس وأسرّتها وتيجانها، وبأنّ أبرويز ارتبط تسعمائة وخمسين فيلاً على مرابطه، وبلغت نجدتها التي كان يشرب بها الداخل عليه ألف إناء من الذهب، وخدمته ألف جارية، وقد جهل هذا معنى الشعر فأخطأ في المعارضة، وفخر بما ليس له فيه حظ ولا نصيب. أما معنى الشعر فإن أبا عبيدة رحمه الله ذكر أن وفود العرب اجتمعت عند النعمان بن المنذر، فأخرج بردي محرّق وهو عمرو بن هند وقال: ليقم أعز العرب قبيلة فيأخذهما، فقام عامر بن أحيمر بن بهدلة

فأخذهما، فاتزر بواحد وارتدى بالآخر، فقال له: بم أنت أعز العرب؟ قال: العز والعدد من العرب في معد، ثم في نزار، ثم في مضر، ثم في خندف، ثم في بني تميم، ثم في سعد، ثم في كعب، ثم في بهدلة، فمن أنكر هذا من العرب فلينافرني، فسكت الناس. قال النعمان: هذه عشيرتك كما تزعم، فكيف أنت في أهل بيتك وفي بدنك؟ قال: أبو عشرة وعم عشرة وأخو عشرة وخال عشرة، يعني الأكابر على الأصاغر والأصاغر على الأكابر، وأما أنا في بدني فهذا شاهدي، ثم وضع قدمه على الأرض وقال: من أزالها من مكانها فله مائة من الإبل، فلم يقم إليه أحد من الناس، فذهب بالبردين، فسمي ذا البردين، قال الفرزدق:

فما تَمّ في سعد ولا آل مالك ... غلام إذا ما قيل لم يتهدل
لهم وهب النعمان بردي محرّق ... بمجد معدّ والعديد المحصل

وأما الفرس الورد فإن الخيل حصون العرب وسبب الغزو وسلم المجد وثمال العيال، وبها يدرك الثأر، وعليها تصيد الوحش، وكانوا يوثرونها على الأولاد باللبن، ويشدونها بالأفنية للطلب والهرب، وقد كنى الله عنها بالخير في كتابه فقال حكاية عن سليمان عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] يعني الخيل، وبها شغل حتى غابت الشمس، وقال لبيد:

وللخيل أيام فمن يصطبر لها ... ويعرف لها أيامها الخير يعقب

وقال آخر:

ولقد علمت على توق للردى ... أن الحصون الخيل لا مدر القرى

والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة. وإذا كان للرجل منها جواد كريم مبرز شهر وعرف. وقيل: العسجدي ولاحق وداحس والورد كانوا يسمونها ويفتخرون بها في كلام طويل. وكان للنبي صلى الله عليه وسلم خمسة من الخيل ذكرها البخاري وسماها السكب واللحيف والمرتجز واليعبوب واللزاز، ويأتي تفسيرها في باب الزاي إن شاء الله تعالى عند ذكر اللزاز، وقد نظمتها في بيتين وهما:

خيل النبيّ السكب ... واليعبوب ثم المرتجز
ثم اللحيف واللزاز ... خمسة في ذا الرجز

وكان للنبيّ صلى الله عليه وسلم خيل غيرها، ذكر أبو داود أن ذا الجوشن الضابي قال: أتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد أن فرغ من بدر بابن فرس يقال لها القرحاء، وذكر الحديث، إلا أنه ليس فيه بيان أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم اتخذ هذا

الفرس أم لا، وصح أنه كان له فرس يسمى الضريس، وآخر يقال له ملاوح، وآخر يقال له الورد، وهو الذي وهبه عليه الصلاة والسلام لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فحمل عليه رجلاً في سبيل الله، ثم أراد الرجل بيعه وأراد عمر أن يشتريه، قال عمر: وظننت أنه بائعه برخص، فسألت عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: لا تشتره وإن أعطاكه بدرهم واحد، فإن العائد في صدقته كالكلب يعود في قيئه. وهو المذكور في الموطأ. وكان للمسلمين يوم بدر ثلاثة من الخيل لا غير: تفرجة فرس المقداد، واليعسوب فرس الزبير، وفرس لا أقف على اسمه الآن، وفرس جبر يل عليه السلام حيزوم. وقيل: ما اكتسب أحد من العرب فرساً إلا سماه، وكذلك الإبل، وذلك مشهور عندهم معلوم، ويذكرون ذلك في أشعارهم، كما قال بعضهم:

قد لفها الليل بسوار حطم ... هذا أوان الشد فاشتدي زيم

وسيأتي الكلام في الغزو بالخيل، وما لصاحبها في ذلك من النيل في باب الهاء إن شاء الله تعالى.

فصل:

في فضل العرب:

من ذلك ما جاء في الخبر من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ماذا أريت وما أعطيت الليلة، أعطيت الكنز من كنز كسرى وقيصر، وأمددت بالملوك ملوك حمير، الهم ارحم حمير، وخص قضاعة بالسلام. وقال رجل لعبد الله بن عمرو بن العاص: إن حمير تزعم أن تبعاً منهم، قال: نعم، والذي نفسي بيده وإنه في العرب كالأنف بين العينين، وكان بينهم سبعون ملكاً، قال النعمان بن بشير:

لنا من بني قحطان سبعون تبعاً ... أطاعت لها بالخرج منها الأعاجم

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: ملوك العرب حمير، ومن حمير المثامنة، وهم ثمانية رهط ولاة العهد بعد الملك، وبعد المثامنة أربعة آلاف قيل، والقيل الذي يسمع الملك كلامه ولا يكلمه غيره، ومنهم الوزعاء المشاة، وهم عمال المخاليف. وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الأقيال والأقوال والعباهلة، وإنما قيل له قَيل لأنه إذا قال شيئاً لم يردّ عليه.

ذكر فضل العرب على العجم:

وقال خلف الأحمر: المتوّجون من ملوك العرب في ثلاث قبائل: قضاعة ومتوّجوها في بني آكل المرار، وبنو عامر ومتوّجوها في الخزرج، وفي مضر متوّجون.

وذكر ابن عبد ربه رحمه الله أن النعمان بن المنذر وفد على كسرى فوجد عنده

وفود الروم والهند والصين، فذكروا من ملوكهم وبلادهم، فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم لا يستثني فارساً ولا غيرهم، فقال كسرى وأخذته عزّة الملك: يا نعمان لقد فكرت في أمر العرب وغيرهم من الأمم، فرأيت الروم كذا، ووصف من حالهم وجعل يثني عليهم، ورأيت الهند التي لها كذا وكذا، ثم قال مثل ذلك من الترك والخزر والصين، متى ذكر قبيلة أثنى عليها ووصف ما يفتخرون به، ثم قال: ولم أر للعرب شيئاً من خصال الخير، وجعل يصف شأنهم وهو يحقرهم ويصغرهم، فقال النعمان: أصلح الله الملك، وجعل يثني عليه، ثم قال: ألا إن عندي جواباً في كل ما نطق به الملك في غير ردّ عليه ولا تكذيب له، فإن آمنني من غضبه نطقت به، قال كسرى: فأنت آمن، فقال النعمان: أما أمتك أيها الملك فليست تنازع في ذلك الفضل لموضعها الذي هي به في عقولها وأحلامها وبسطة محلها وبحبوحة عزها وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك، وأما الأمم التي ذكرت فأيّ أمة تقرنها بالعرب إلا فضلتها، قال كسرى: بماذا؟. قال النعمان: بعزها ومنعتها وحسن وجوهها ودينها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها وشدّة عقولها وأنفتها ووفائها.

فأما عزها ومنعتها، فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوّخوا البلاد ووطدوا الملك وقادوا الجنود، لم يطمع فيهم طامع ولم ينلهم نايل، حصونهم ظهور خيولهم، مهادهم الأرض وسقفهم السماء، وجنتهم السيوف وعدتهم الصبر، إذ غيرها من الأمم إنما عزها الحجارة والطين وجزائر البحور.

وأما حسن وجوهها وألوانها، فقد تعرف فضلهم في ذلك على غيرهم من الهند المتحرّقة والصين المحتنمة والترك المشوّهة والروم المقشوّة.

وأما أحسابها وأنسابها، فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها، وكثيراً من أوّلها وآخرها، حتى إنّ أحدهم يسأل عما وراء أبيه دنياً فلا ينسبه ولا يعرفه، وليس أحد من العرب إلا يسمي آباءه أباً أباً، حفظوا بذلك أحسابهم وضبطوا به أنسابهم، فلا يدخل رجل في غير قومه ولا ينتسب إلى غير نسبه، ولا يدعي إلى غير أبيه.

وأما سخاؤها، فإن أدناهم رجلاً الذي يكون عنده البكرة أو الناب، عليها بلاغة في حمولته وشبعه وريه، فيطرقه الطارق الذي يكتفي بالفلذة ويجتزي بالشربة، فيعقرها له ويرضى أن يخرج له من دنياه كلها فيما يكسبه حسن الأحدوثة وطيب الثناء.

وأما حكمة ألسنتها، فإن الله أعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه مع معرفتهم بالإشارة وضرب الأمثال وإبلاغهم في الصفات ما ليس لشيء من

السنة الأجناس.

ثم خيلهم أفضل الخيول، ونساؤهم أعف النساء، ولباسهم أفضل اللباس، ومعادنهم الذهب والفضة، وحجارة جبالهم الجزع، ومطاياهم التي لا يبعد عن مثلها سفر، ولا يقطع بمثلها بلد قفر.

وأما دينها وشريعتها، فإنهم متمسكون بها حتى يبلغ أحدهم من تمسكه بدينه أن لهم أشهراً حرماً وبلداً حراماً وبيتاً محجوجاً، ينسكون فيها مناسكهم، ويذبحون ذبائحهم، فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه وهو قادر على أخذ ثأره وإدراك دمه، فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بالأذى.

وأما وفاؤها، فإن أحدهم يلحظ اللحظة ويومي الإيماء، فهي ألب وعقد لا يحلهما إلا خروج نفسه. وإنّ أحدهم يرفع عوداً من الأرض فيكون رهناً بدينه، فلا يغلق رهنه ولا تخفر ذمته. وإنّ أحدهم ليبلغه أنّ رجلاً استجار به وعسى أن يكون نائياً عن داره، فيصاب فلا يرضى حتى تفنى تلك القبيلة التي أصابته أو تفنى قبيلته لما أخفر من جواره، وإنه ليلجأ إليهم المجرم المحروب من غير معرفة ولا قرابة، فتكون أنفسهم دون نفسه، وأموالهم دونه ماله.

وأما قولك أيها الملك: يئدون أولادهم من الحاجة؛ فإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث أنفة من العار، وغيرة من الأزواج. وأما تحاربهم وأكل بعضهم بعضاً وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم؛ فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا آنست من نفسها ضعفاً وتخوّفت نهوض عدوّها إليها بالزحف، وإنه إنما يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائرهم، فيلقون إليهم أمورهم وينقادون إليهم بأزمتهم. فأما العرب فإن ذلك كثير فيهم، حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين مع أنفتهم من أداء الخراج والوطء والعسف. وقال إلى غير ذلك كلاماً طويلاً اختصرته، فعجب كسرى مما أجابه النعمان به، وقال: إنك لأهل لموضعك من الرياسة في أهل إقليمك، ولما هو أفضل، ثم كساه من كسوته وسرحه إلى موضعه من الحيرة.

فلما قدم النعمان الحيرة وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى من تنقيص العرب وتهجين أمرهم؛ بعث إلى أكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة وجماعة من رؤوس العرب سماهم، فلما قدموا عليه في الخورنق قال لهم: قد عرفتم حال هذه الأعاجم وقرب جوار العرب منهم، وقد سمعت من كسرى مقالة أتخوّف أن يكون لها غور، واقتص عليهم مقالة كسرى وما ردّ عليه، فقالوا: وفقك الله أيها الملك ما أحسن ما رددت عليه، وأبلغ ما حاججته به، فمرنا بأمرك وادعنا إلى ما شئت، قال النعمان:

إنما أنا رجل منكم، وإنما ملكت وعززت بمكانكم وبما يتخوّف من ناحيتكم، وليس شيء أحبّ إليّ مما سدّد الله به أمركم وأصلح به شأنكم، والرأي أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط وتنطلقوا بكتابي هذا إلى باب كسرى، فإذا دخلتم عليه نطق كل واحد منكم بما حضره، ليعلم أن العرب على غير ما ظنّ أو حدّثته به نفسه، ووصاهم بوصايا وكتب لهم كتاباً سماهم فيه واحداً بعد واحد، بعد أن اعتذر إليهم في تقدمة بعضهم على بعض، وقال: إنما فعلت ذلك لعلمي بحرص كل رجل منكم على التقدّم قبل صاحبه في الكلام، فلا يكونن ذلك، فيجد في آدابكم مطعناً، فإنه ملك مترف وقادر مسلط، ثم دعا لهم بما في خزائنه من طرف حلل الملوك، فكسا كل واحد منهم حلة، وعممه بعمامة، وختمه بياقوتة، وأعطاه نجيبة مهرية وفرساً يجنب معه، وكتب في كتابه: أما بعد فإن الملك ألقى إليّ من أمر العرب ما قد علم، وقد أوفدت إليك أيها الملك رهطاً من العرب، فليسمع الملك منهم، وليغض عن جفاء إن ظهر من منطقهم، وليكرمني بإكرامهم ويعجل سراحهم، فلما قدموا على كسرى أذن لهم بالكلام، فتكلم كل واحد منهم بما قد كتب ودوّن، واتخذ أصلاً حسبما هو مذكور في العقد، فعجب كسرى من بلاغتهم وخطابتهم، وربما كان في بعضها قوّة وجفاء، فقال لهم آخر ذلك كله: قد قبلت ما كان في منطقكم من صواب، وصفحت عما كان فيه من غير ذلك، فانصرفوا إلى ملككم والتزموا طاعته، وأمر لكل واحد منهم بخمسين ديناراً وحلة وصرفهم. اختصرت الخبر فهذا بعض فضل العرب.

ولخلف الأحمر في فضلهم أيضاً كلام كثير، وقد تقدّم منه طرف في أوّل الكتاب، وتقدّم أيضاً قول النبي صلى الله عليه وسلم لسلمان رضي الله عنه: يا سلمان لا تبغضني، في أخبار كثيرة من هذا المعنى، فإذا لا يبغضهم إلا زنديق أو من حاد عن الطريق. كما يذكر عن أبي عامر بن غرسية البشكسي أنه أنشأ رسالة يفضل فيها العجم على العرب، ظن أنه أعرب فيها وأغرب، ففسق فيها وبدع وسب بسببها وجدع، وردّ عليه جماعة من العلماء الفضلاء النبلاء، أما أحدهم فافتتح الردّ عليه بقوله:

وذي خطل في القول يحسب أنه ... مصيب فما يهتف به فهو قائله

والبيت لزهير.

وممن ردّ عليه الفقيه الفاضل أبو مروان عبد الملك بن محمد الأوسي في رسالة سماها رسالة الاستدلال بالحق في تفضيل العرب على جميع الخلق والذب والانتصار لصفوة الله المهاجرين والأنصار. وللفقيه الأديب أبي الطيب عبد المنعم بن منّ الله رسالة سماها حديقة البلاغة ودوحة البراعة المونقة أفنانها المثمرة أغصانها، بذكر

المآثر العربية ونشر المفاخر الإسلامية والرد على ابن غرسية فيما ادّعاه للأمم العجمية. وللفقيه الإمام الكاتب ذي الوزارتين أبي عبد الله بن أبي الخصال الغافقي رسالة سماها خطف البارق وقذف المارق في الردّ على ابن غرسية الفاسق في تفضيله العجم على العرب وقرعه النبغ بالغرب.

ومن المتأخرين أيضاً الفقيه الأجلّ المحدّث الأفضل أبو محمد عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم الخزرجي الغرناطي، عرف بابن الغرس، رحمهم الله. فأما ابن أبي الخصال فأخنى عليه وصال بحجاج أمضى من النصال ما له عنها انفصال، وقد أراني جميع ذلك بعض الأصحاب ممن هو في العلم في السحاب، وفي جملتها كلام ابن غرسية المذكور في رسالته الدالة على فساد القول وفسالته التي فضل فيها على العرب العجم وأراد أن يعرب فأعجم. فقلت: وقد غاظني ما رأيت لهذا الجاهل من الاقتراف، وأنا بالعجز عن معارضة من سبقني من العلماء ذو اعتراف:

أقول لباغ في مقالته يهفو ... حسود كثير الضغن شيمته السخف
يعيب بما قد قاله العرب الألى ... هم الرأس والباقون بعدهم الظلف
وزاد كذا تفضيل قوم لبؤسهم ... رئيسهم شيخ الكنيسة أسقف
ألا فاغضبوا يا مؤمنين لديكم ... ولا تضعفوا فالدين ليس به ضعف
أليس عظيماً يقدم الأوجه القفا ... ومعلوم أن الأذن يقدمها الأنف
ولكنه من عاش يبصر عجائباً ... ويسمع حديثاً ليس يبلغه الوصف
فقلت لنفسي مسلياً عن تلهف ... ترفق بنفس كاد يتلفها اللهف
وهل حاسد إلا مقالته أف ... وهل ضوء نور الشمس يستره كف
فقل للذي قد عاب قوماً أعزة ... رويدك إن النكر يغلبه العرف
حضضت على نشر الثناء عليهم ... ولم يك مستوراً فينشى له كشف
ولكنه كالعود شب له الغضى ... فألقي فيه فانثنى وله عرف
وأيضاً فمن هذا الذي رام حطهم ... بما حط من سخف تضمنه صحف
إذا قيل من قالوا ابن غرسية كفى ... به شرفاً أن النصارى له إلف
تعلم منهم قسوة القلب والجفا ... ولكنه جاف ولفظ له جلف
فهب أنه سحبان والله قد وفى ... بما لاح في مكتوبه إنه خلف
أيطفئ نور الله نفثة نافث ... وهل ماء هذا البحر ينزفه غرف
أبيت ويأبى الله ذلكم لهم ... ولو جاء من مثل ابن غرسية ألف
فقل للكرام السادة العرب حسبكم ... لسان الورى طراً على مدحكم وقف

ونصركم حقاً عليهم بكل ما | يطيقونه والودّ منهم لكم صرف
ولو لم يكن إلا لأنّ محمداً | عليه سلام منكم أيها الصنف
خليل إله العالمين نبينا | ومن منه نرجو العطف يتبعه العطف
ولكن سيدري من يقول مقالتي | ومن قال أيضاً ضدّها من له العنف
وقد قلت ذا أبغي به الله وحده | وإن شا به شيء فربي قد يعفو
فإن كنت لم أشبع فقد قيل قبل ذا | كلام ويكفي من مضمنه النصف
وأستغفر المولى وأسأله الرضى | فمن عنده تأتي المبرات واللطف

وكان ذلك الصاحب المذكور أيضاً قد ردّ عليه بمكتوب فيه مقطوعة من نظم فيه أبدع فيها وفي قوافيها، وأراد مني أكرمه الله أن أحذو حذوهم في ذلك الغرض، ورآه على أهل الأدب كالشيء المفترض:

فقلت له دع ذا فليس بشأني | وتكليف مثلي ذا من الهذيان
ومن أين للمقصوص بالطيران | وللفرس المرهوص بالجريان

ظن، وفقه الله، أن عندي في ذلك طول اتساع وطول ذراع وباع، فناديته: أيا ذا المعقول لو كنت كما تقول ورزقت من العلم ما رزقه أولو العقول ما زدت على أن أسلم ذلك المنقول، وهل تركوا رضي الله عنهم لقائل ما يقول، سبقوا إلى المشاهد والأثر واستبقوا إلى الشاهد بالخبر والأثر، وحلوا كتبهم بالشعر والمثل، وخلوا ابن غرسية حلت به المثل، فشقوه وبدّعوه وسبّوه وجدّعوه، وكأس الموت قبل الفوت جرّعوه، فليت شعري الذي يسلك اليوم مسلكهم أو يقفوه بماذا يفوه فوه، فكيف وليت من يقفو آثارهم وكيف يشق غبارهم، لكني لا أخليك من صحيفة كلام كصفيحة حسام، هو لذلك العائب كلام ككلام وملام ذو إيلام، ثم أقصد السجع والفصاحة ولا أشينه بفحش وقباحة، إذ قد كفاني أصحابنا ذلك أولو الحفائظ والرجاحة، الذين فللوا سلاحه وقللوا صلاحه، لكن قصدت بهذا الكتب نوعاً من العتب على سبيل الاقتصار على الاختصار، ومن الصنف الذي عهدت مني ورويت عني من المقلوب المعكوس في ذم هذا المنحوس المنكوس، ولم آت منه إلا باليسير القليل بجمود الذهن الحسير الكليل، لكنه مع قلته آهل عامر بثلب مكتوب أبي عامر، لأنه آذاني بما وقع في آذاني من سبه في كتابه جميع العرب الأبعد منهم والأقرب، عابهم فيه وشانهم وحقر أمرهم فيه وشانهم، ثم مدّ لسانه الألكن بما قدر عليه من القبيح وأمكن، فجاهر بذكر المطهرة هاجر، صرح في ذلك الكتاب المنطوي على العمه بأنها أمه، وهب كان ذلك كذلك أليس إبراهيم الخليل عليه السلام خليلها وضجيعها وحليلها؟ أليس إسماعيل الكريم

ولدها؟ ومكة شرّفها الله بلدها؟ حيث فجرت زمزم بسببه فجرت عيناً لمشربه، وقيل فيها: هذه زمزم لا تنزف أبداً ولا تزم، تذهب الوله والبله وماء زمزم لما شرب له، وكم لها رضي الله عنها من فضيلة وسنة ووسيلة ومنة، هي لنا إلى اليوم أسوة وعبادة وقدوة، كالطواف بين الصفا والمروة، والسعي في بطن المسيل ودمعها يسيل، شفقة على ابنها إسماعيل، إذ كان من صبرها عليه قد عيل، وكجرّ الذيل ستراً للنساء حتى في المرط والكساء، وكتدميتهن في الارتفاع منهن، والانخفاض في ثقب الأذنين، والخفاض هذا لإبقاء ماء الوجه وحظوة الزوج الألوف، وذلك لتعليق القرط والشنوف، إلى غير ذلك من الشعائر والمشاعر التي عمي عن علمها المطاعن المباهر المكنى بأبي عامر الملقب بالشاعر، الذي ترك ذكر هذا كله من العرف وهدم عليه أيّ جرف، ولم يتفقه فيه بحرف، بل قصدنا بالمعائب وأمّنا وأدخل معنا في ذلك المبرأة أمّنا، فعمنا وغمنا، فهلا إذ قدح مدح ولما فتق رتق، وحين جرح داوى ذلك الجرح، وترك موضعاً للصلح، لا جرم أنه اجترم ولم يحفل بمنصب النبوّة ولم تهزه أريحية الفتوّة، ولا لاح عليه عرف البنوّة ولا فاح منه عرف الأبوّة، فلذلك استحق على قوله المقت من وقته إلى هذا الوقت، ولما صرح به من القبوح والفضوح، وهل بعد شتم الوالدين صلوح. ثم إن المسكين زاد الطين بلة بمدحه غير أهل الملة، من الأكاسرة والقياصرة، ويأبى الله إلا أن يعزّ هذا الدين وينا صره، أقام له حماة أمجاداً كماة أنجاداً، ونصروه بكلامهم وزبروه في الكتب بأقلامهم، إذ لم يمكنهم إلا ذلك حين أعجلهم بموته وأعجزهم بفوته، ولو أدركوه حياً لما أبقوه ولا خافوه ولا اتقوه. والعجب من أهل ذلك الزمن كيف استقرّوا على هذه الفتن وأقرّوا هذا المجترئ على هذا الاجتراء وما جاء به من الافتراء، أم كيف أبلعوه ريقه وأوسعوا له طريقه ولم يهلكوه وفريقه، هلا ضرّجوه بالأضاميم أو أخرجوه من بين آل حاميم، الظن بهم وبه أنهم لا يعلموا بكذبه، وأنه حين أنشأ هذه الرسالة وأوجدها جحدها، وحين كتبها كتمها، ولعله بعث بها سراً إلى إخوانه وأفشاها لأخدانه، وحين مات ظهرت واشتهرت، وحينئذ ردّ عليه من وقعت إليه، ويحتمل أن يكون عن هذا المذهب قد نزع، وأقلع عنه ورجع، والله يعلم السرائر وما تخفي الضمائر، ونسأل الله العصمة من مثل هذه الوصمة، والتوب من الحوب، وصلى الله الغفور الرحيم على سيدنا محمد رسوله الكريم وعلى آله الطيبين الطاهرين، وسلم عليهم أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

فصل:

وأنت أيها الطالب المريد لا بدّ من إسعافك ولو في بعض ما تريد لما كثر من

القول في ابن غرسية من أولئك العلماء الأحبار الفضلاء الأخيار، وألفوا فيه الأجزاء كالأسفار، وسارت بها السفار، وأنجد ذكرها في البلاد وغار، وانتشر أمرها في البلاد وطار، واشتهر خبرها في أكثر الأقطار، اقتصرت أنا لضعفي من تلكم الأخطار على ثلاثة أسطار، وفي ظني أني لم أسبق إليها ولا وقع أحد منهم عليها، لأنها من ذلك الفن المقلوب المعني للقلوب، الذي ولعت به على قديم الزمن ولم يأت بمثله إلا من ومن، وكل ينفق من كيسه ويوسف من تنكيسه، السطر الأوّل عكس الثاني والثاني عكس الأوّل، وهذا هو القلب المحوّل، والسطر الثالث أولاه أخراه، فرجلاه رأسه ورأسه رجلاه:

أعجوبة لمن يرى ... يمشي أماماً وورا
كأنه لما جرى ... أمامه تذكرا
شيئاً نسي فاذكرا ... فكرّ يمشي القهقرى

وبتلكم الثلاثة الأسطار الرفيعة الأخطار أخذت نصيبي من نصرة الدين وحماية حوزة العرب الموحدين، وأعملت يراعتي على قلة براعتي، فعل المجاهدين للعين بالغلبين على شرط أن يكون ابن غرسية لم يتب من تلكم البلية، فإن كان مقيماً على تلكم القضية إلى المنية فقد وقع الكلام في حقه ورجع على مستحقه، وإن كان قد تاب ورجع وعن مذهب السوء أقلع، فلست بمغتاب من تاب، والله يتوب على التائبين ويعفو عن المذنبين ويغفر لنا أجمعين، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين. وقد نظمت هذه المعاني كلها في أبيات تبين لك من الأسطار معناها وتشرح لك مغزاها:

أصاح مهلاً كتاب أبي عامر ذا إذا ... نكال إلى العرب لوقتنا ذا هنا
إنه أذان تقول برع لا لا لا كن إذا ... إذ رما عيباً باتكالهم حاصنا
هذا كتاب انتهجه هجو كله هنا تمالأت ... الأمة أنه هلك وجهه جهتنا باتك أذاه

◆◆◆

يا جامعاً للكتب بالأوقار ... من شاعر أو كاتب أو قار
لا تحتقر هذا الكلام فإنه ... عجب لما فيه من الإضمار
أنظر إلى السطرين الأوّل منهما ... عكس لثانيه من الأسطار
وكذلك الثاني للأوّل عكسه ... فاعجب لذا التردد والتكرار
لا زائد حرفاً ولا نقص ولا ... معنى سوى القلب الغريب للدار أولاه
والثالث اردد منه أخراه على ... ثم تحيك في المضمار
إن تتله نصاً يجئك بفائد ... وكذلكم عكساً بلا إنكار
قلب أتى قلب به فكأنه ... ترق بكفي حائك مكثار

فمن اليسار إلى اليمين يردّه ومن اليمين كذلكم ليسار
إن كنت تحقره فجئ بمثاله تشرف وتعظم آخر الإعصار
إن أنت لم تقدر عليه فعندها تدري بذاك حقيقة المقدار
وتقول يا ابن الشيخ إنك أوحد ما قلته سحر من الأسحار
وأنا أقول الحمد للمولى وأسـ ـأل رحمة ربي الغفار
ومذمتي هذي بشرط أن يمو ت ولم يتب من قول ذاك العار فالله
وإن استقال من الذي قد قاله يصرف عنه حرّ النار
ثم الصلاة على النبي محمد خير البرايا المصطفى المختار

❖❖❖

ونسأل الله الرضى وجميل الصفح عما لا يرضى من مكتوب هذا الصفح وجميل العفو عما وقع فيه من الهفو، والتجاوز عن الخطأ والخطل والتهافت والزلل، ونرغب إليه في السداد في القول والعمل، فعليه المتكل وهو الرجاء والأمل، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم. وكان أبو عمرو هذا وفقه الله وإياي قد عودته كما تقدّم أن أبعث إليه بما أمكن من هذا المقلوب وكان يولع به، بعث إليّ مرة بأرنب فكتبت إليه بأبيات منها:

ابن راه نسيلاً أتى أتى إلينا أرنبا
ابني نوتا مثلها هل ثم آتوني نبا
أبلغت رحب تكلم وملكت بحر تغلبا

وبقية الأبيات وسواها من هذا الفن مذكور حيث قلت لك والحمد لله.

وقد أطلت الكلام وخرجت عن النظام، وتقدّم المصراع، وفي الحديث منه أن بين المصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام، وفي هذا رجاء عظيم لهذه الأمة. وأرجى منه ما جاء في الخبر أن للجنة ثمانية أبواب، ولأمة النبي صلى الله عليه وسلم خاصة باب يدخلون منه. وخرّج الترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: باب أمتي الذي يدخلون منه الجنة عرضه مسيرة الراكب الجواد ثلاثاً، ثم إنهم ليضغطون عليه حتى تكاد مناكبهم تزول، وسيأتي في باب الياء عند ذكر الأطيط نوع من هذا، لأنه يروى في ذلك الباب: وله أطيط من الزحام، وتقدّم باب ولي من لفظة باب كلام هو عندي من لباب اللباب، أردت أن أثبته في هذا الكتاب ليعلم حذاق الكتاب أن قد جاء في الخلف من ينحو نحو ما سلف للسلف.

كان يقرأ عليّ بعض الطلبة المقامات المذكورة للحريري؛ رحمه الله؛ فلما انتهينا منها إلى ذكر الكلمات التي تنعكس، وقول كل واحد من الخمس كلماته المعكوسة

التي قال أوّلهم: لم أخامل، وقال الآخر: كبر رجاء أجر ربك، وكذلك إلى آخرها، مع الأبيات الخمسة أيضاً التي أوّلها:

أس أرملاً إذا عرا وارع إذا المرء أسا

قلت: كان من حق الحريري رحمه الله أن تكون الأبيات سبعة على عدد الكلمات، فكان ثم من قال: ومن يقدر على هذا كأنه يعرّض بي، فقلت أنا في ذلك منظوماً عشرة أبيات، وقد تقدّم ذكرها، وكتبت له منها بيتاً واحداً باسم الشوق إلى الذوق والترقي من الأسفل إلى الفوق، ومن الذيل إلى الطوق، وأزيدك هنا بيتاً آخر فافخر به فبمثله يفاخر:

اسبق تقوم لعلا العلم وقت قبسا

إلى آخرها.

وقلت من المنثور كذلك عشر كلمات وجعلت قبلها كلاماً وبعدها مثله، وأضفت إليها ما جمعته من شكل الكلمات التي تنقط كلها، والأخرى العرية من النقط، وما يخلط من الخط وما لا يخلط، وما يعكس ولا ينقط وما يعكس وينقط، وغير ذلك من البديع، وما أجاب عليه بعض من رآه، وجمعت ذلك في الجزء المذكور قبل هذا، فمن الكلمات التي ذكرت جعلت الجماعة عشرة، وقال أحدهم كلمة، والثاني ثنتين، وكذلك إلى تمام العشرة، فقال الأول: باب، وقال الثاني: عد ودع، وقال الثالث: إن البلا ناء، وقال الرابع: ليس يلب بل يسيل، وقال الخامس: تربص أملك تؤت كلما صبرت، وكذلك إلى آخر النثر والنظم، وقد أنبأتك أين تجد هذا وسواه من التكميل الذي ذكرت لك إن شاء الله، والحمد لله على مننه.

وتقدّم أنه يسمى الغلق الذي يسدّ به الفتح في الحائط باباً اتساعاً، كما قالوا في المطر سماء لأنه ينزل من السماء، وللسقف سماء، وفي حديث إسلام عمر رضي الله عنه: إذ جاء إلى البيت الذي كان فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رجل: فنظرت من خلل الباب. وفي الحديث أيضاً: وأنا أنظر من صائر الباب، شق الباب. فهذا يحتمل أن يكون من بين ألواح الباب أو من بين اللوح والحائط. وفي الآخر: اطلع رجل في باب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وحديث الموطأ في الفتى الذي قتل الحية برمحه فماتت، وخرّ هو ميتاً، فوجد امرأته قائمة بين بابين. وفي حديث آخر: إذا لم يكن على الباب ستر ولا باب، فلا بأس أن يطلع في الدار، وسيأتي إن شاء الله وكيفما كان يسمى هذا باباً وهذا باباً اتساعاً كما تقدّم. وكذلك تقدّم أيضاً أنه يقال له الخلف.

ذكر الكعبة:

وجاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضي الله عنها: لولا حداثة عهد قومك بالكفر لنقضت الكعبة ولجعلتها على أساس إبراهيم، فإنّ قريشاً حين بنت الكعبة استقصرت وجعلت لها خلفاً. وفي حديث آخر: وجعلت لها بابين باباً شرقياً وباباً غربياً. خرّج هذا مسلم. وقال البخاري: قال أبو معاوية عن هشام: وجعلت لها خلفاً، يعني باباً، كذا فسره في الحديث. وقال حماد بن سلمة عن هشام: ولجعلت لها خلفين. وفي رواية: وألصقت بابها بالأرض وأدخلت فيها الحجر، أو كما قال عليه الصلاة والسلام. فلما كان ابن الزبير وحدّثته خالته عائشة رضي الله عنه هذا الحديث قال: ليس بنا اليوم عجز عن النفقة، فبناها على مقتضى حديث عائشة رضي الله عنها، ووافق ذلك أنها احترقت في عهده، يقال: طارت شرارة من أبي قبيس فوقعت في أستارها فاحترقت. ويقال: إن امرأة أرادت أن تجمرها فطارت شرارة من المجمرة في أستارها فاحترقت، فشاور ابن الزبير في هدمها من حضره، فهابوا هدمها وقالوا: نرى أن تصلح ما وهى ولا تهدم، فقال: لو أن بيت أحدكم احترق لم يرض له إلا بأكمل صلاح، ولا يكمل إصلاحها إلا بهدمها، فهدمها حتى أفضى إلى قواعد إبراهيم عليه السلام، فأمرهم أن يزيدوا في الحفر، فحركوا حجراً منها فرأوا تحته ناراً وهولاً أفزعهم، فأمرهم أن يقرّوا القواعد وأن يبنوا من حيث انتهى الحفر. وفي الخبر أنه سترها حين وصل إلى القواعد فطاف الناس بتلك الأستار، فلم تخل قط من طائف، حتى لقد ذكر أن يوم قتل ابن الزبير اشتدت الحرب واشتغل الناس فلم ير طائف يطوف بالكعبة إلا جمل يطوف بها، فلما استتم بنيانها ألصق بابها بالأرض وعمل خلفاً، أي: باباً آخر من ورائها وأدخل الحجر فيها، فلما قام عبد الملك بن مروان قال: لسنا من تخليط أبي خبيب في شيء، فهدمها وبناها على ما كانت عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما فرغ من بنائها جاءه الحارث ابن أبي ربيعة المعروف بالقباع، وهو أخو عمرو بن أبي ربيعة الشاعر، ومعه رجل آخر، فحدّثاه عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم بالحديث المتقدّم، فندم وجعل ينكت الأرض بمخصرة في يده ويقول: وددت أني تركت أبا خبيب، وما تحمل من ذلك.

قال أبو يوسف ابن الشيخ: وأما أنا فدخلت يوماً تحت أستار الكعبة شرفها الله من جهة الغرب فرأيت أثر الباب في الحائط قد أغلق وأحكم إلصاقه بالكذان المنحوت، حتى كاد يخفى على من أبصره وهو مقابل الباب الشرقي وعلى قدره، إلا أنه ينتهي شقه إلى الأرض، وما يظهر منه إلا قدر غلظ الخيط من أثر الباب القديم على

شكل الباب المنفتح اليوم من جهة الشرق، إلا أن البيت قد ردم وقدر ارتفاعه دون القامة، والله أعلم، إلى المنكب، يصعد إليه بدرج شبه المنبر يضم إليه يوم يفتح البيت، ثم يزال لئلا يمنع من الطواف، وعدد درجاته عشرة على سعة الباب يصعد فيه رجلان في صف واحد، وأسفل البيت مبسوط بالرخام وأعلاه مسطح، قد سمرت في سقفه شقق الحرير الملوّن من أبيض وأحمر وأصفر وأسود، وحيطانه فوق القامة، منه رخام مرصع، ومنه إلى السقف شبه شجرة ملتفة الأغصان قد دخل بعضها في بعض من أحسن ما يرى، وكسي ذلك البيت ذهباً يكاد يغشي البصر، وفي وسطه قائمتان من خشب من الأرض إلى السقف.

الكوكب هو المسمار :

وكان في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ كما جاء في الموطأ؛ على ستة أعمدة، والموضع الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أفرغ فيه كوكب من فضة في رخامة هناك يعلم به، وبابه مصفح بصفائح الفضة المنيلة بالسواد، في غاية من الترصيع ونهاية من الإتقان، وكواكب فضة تمسك الصفائح عوض المسامير، وعتبته من ذهب، وعليه قفل عظيم في حلق فضة، وأظن القفل من فضة أيضاً، أو مغسولاً بفضة؛ والبيت مستور كله بالديباج، إلا موضع الباب وموضع الحجر الأسود، ولون أستاره خضر، منسوج فيها صور المحاريب، في كل محراب منها؛ على صغرها؛ مكتوب طرة قد قطعت من الخلدي الأحمر، وخيطت على الأستار حروفها، تقرأ على بعد لعظم الحروف، مكتوب بعد البسملة: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ [آل عمران: ٩٦] الآية، هذا ما أمر بعمله فلان ابن فلان عام كذا، يعني: صاحب بغداد، وهو يرسل كسوتها كل عام مع أشياء سوى هذه من الأسباب يطول بذكرها الكتاب، قال:

أراهـا الله رأي العـين عـبداً ... شـديد الـشوق للـبلد الحـرام
فيـشفي سـقمه بطـواف بـيت ... كـريم عـند زمـزم والمقـام

وقد ذكرت بعض وصف البيت في قصيد مطوّل أقول فيه:

وقـد حلـوا أعالـيه بتبـر ... وقـد بـسطوا أسـافله رخامـا
وقـد جعلـوا لـه باباً وقفـلاً ... وحلـوا بابـه ورقـاً وسـاما

إلى آخره، وهو فوق المائة بيت، انظره في التكميل.

ويروى أن أبا الفضل الجوهري رحمه الله لما انتهى إلى الكعبة شرفها الله ورأى

ما علق عليها من الزينة تمثل بهذين البيتين:

ما علق الدرّ على نحرها ... إلا لما يخشى من العين
أقول والدّرّ على نحرها ... من علق الشين على الزين

وقلت أنا في ذلك وذيلت البيتين:

أهلاً بمن مكة قد حاكى ... بمحو ما بالقلب من رين
فإذ رأى البيت وقد علقوا ... من فوقه الأستار للزين
لم يتمالك إذ رأى ذاك أن ... أنشد في الكعبة بيتين
قالهما صب رأى جيد من ... حلي باللؤلؤ والعين
ما علق الدر................... .... البيتين

وينظر هذا إلى قول الشاعر:

مبتلة الأعطاف زانت عقودها ... بأحسن مما زينتها عقودها

ومثله ما قال خالد بن عبد الله القسري حين دخل على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولي الخلافة: يا أمير المؤمنين، من تكن الخلافة قد زانته فأنت قد زنتها، ومن تكن قد شرفته فأنت قد شرفتها، فأنت كما قال الشاعر:

وإذا الدّرّ زان حسن وجوه ... كان للدّرّ حسن وجهك زينا

رجع الحديث إلى ذكر الكعبة:

فلما قام أبو جعفر المنصور أراد أن يبنيها على ما بناها ابن الزبير، وشاور في ذلك فقال له مالك بن أنس رضي الله عنه: أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك بعدك، لا يشاء أحد منهم أن يغيره إلا غيره، فتذهب هيبته من قلوب الناس، فصرفه عن رأيه فيه. وكانت الكعبة قد بنيت في الدهر خمس مرات: الأولى حين بناها شيث بن آدم. والثانية حين بناها إبراهيم عليه السلام على القواعد الأول. والثالثة حين بنتها قريش قبل الإسلام بخمسة أعوام. والرابعة حين بناها ابن الزبير. والخامسة حين بناها عبد الملك كما تقدّم. وقيل إنه بني في أيام جرهم مرة أو مرتين من أجل السيل، وكان إصلاحاً لم يكن ابتداء بنيان ولا هدمت، وكانت قبل أن يبنيها شيث عليه السلام خيمة من ياقوتة حمراء، يطوف بها آدم عليه السلام ويأنس بها، لأنها أنزلت إليه من الجنة، وكان قد حج إليها من الهند. وقد قيل: إن آدم عليه السلام هو أوّل من بناها. وفي الخبر: إن موضعها كان على الماء قبل أن يخلق الله سبحانه السماوات والأرض، فلما بدأ الله بخلق الأشياء خلق التربة قبل السماء، فلما خلق السماء وقضاهن سبع سماوات دحا الأرض من تحت مكة، ولذلك سميت أمّ القرى.

وروي في سبب بنيان البيت أن الله سبحانه لَمّا قال للملائكة: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ [البقرة: ٣٠] الآية، خافوا أن يكون الله عاتباً عليهم لاعتراضهم في علمه، فطافوا بالعرش سبعاً يسترضون ربهم ويتضرعون إليه، فأمرهم الله سبحانه أن يبنوا البيت المعمور في السماء السابعة، وأن يجعلوا طوافهم به، فكان ذلك أهون عليهم من الطواف بالعرش. ثم أمرهم أن يبنوا في كل سماء بيتاً وفي كل أرض بيتاً. قال مجاهد: هي أربعة عشر بيتاً كل واحد منها مسامت لصاحبه، أي: في مقابلته، لو سقطت لسقط بعضها على بعض. وروي أن الملائكة حين أسست الكعبة انشقت الأرض إلى منتهاها وقذفت فيها حجارة أمثال الإبل، فتلك القواعد من البيت التي رفع عليها إبراهيم وإسماعيل البيت، فلما جاء الطوفان رفعت وأودع الحجر الأسود أبا قبيس.

وذكر ابن هشام أن الماء لم يعلها حين الطوفان، ولكنه قام حولها، وبقيت هي في خواء إلى السماء، وأن نوحاً عليه السلام قال لأهل السفينة وهي تطوف بالبيت: أنتم في حرم الله وحول بيته فأحرموا لله، ولا يمس أحدكم امرأة، وجعل بينهم وبين النساء حاجزاً، فتعدّى حام فدعا عليه نوح عليه السلام أن يسودّ لون بنيه، فاسودّ كوش بن حام ونسله إلى يوم القيامة. وقد قيل سبب دعوة نوح على حام غير هذا والله أعلم.

فلما نضب ماء الطوفان كان مكان البيت ربوة من مدرة، وحج إليه هود وصالح ومن آمن معهما وهو كذلك. ويذكر أن يعرب قال لهود عليه السلام: ألا نبنيه؟ قال: إنما يبنيه نبي كريم يأتي بعدي، يتخذه الرحمن خليلاً، فلما بعث الله إبراهيم عليه السلام وشب إسماعيل، أمر إبراهيم ببناء الكعبة، فنزلت عليه السكينة وظللت له على موضع البيت، فكانت عليه كالجحفة، فلما بلغ إبراهيم عليه السلام الركن جاءه جبريل عليه السلام بالحجر الأسود من جوف أبي قبيس.

وروى الترمذي عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أنزل الحجر من الجنة أشد بياضاً من اللبن فسوّدته خطايا بني آدم. وعنه: والله ليبعثنه الله يوم القيامة له عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد على من استلمه بحق. وروى الترمذي أيضاً مرفوعاً أن الحجر الأسود والركن اليماني ياقوتتان من الجنة، ولولا ما طمس من نورهما لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب. وفي رواية غيره: ولأبرأا من استلمهما من الخرس والجذام والبرص. وروى غير الترمذي من طريق علي رضي الله عنه أن العهد الذي أخذه الله على ذرية آدم حين مسح ظهره أن لا يشركوا به شيئاً، كتبه في صك وألقمه الحجر الأسود، ولذلك يقول المستلم: إيماناً بك ووفاء بعهدك. وذكر هذا الخبر

الزبير، وزاد فيه: إن الله سبحانه وتعالى أجرى نهراً أطيب من اللبن وألين من الزبد، فاستمدّ منه القلم الذي كتب العهد. وفي الحديث: الحجر الأسود يمين الله في الأرض يصافح به عباده كما يصافح بعضهم بعضاً. ومعناه أن الملك إذا صافح رجلاً قبل الرجل يده، فكأنّ الحجر لله في الأرض بمنزلة اليمين للملك، يستلم ويلثم، هذا على وجه التمثيل في المعنى، والله أعلم.

وذكر أبو عبيد البكري في كتاب المسالك والممالك له أن ابن الزبير رضي الله عنه حين أراد هدم البيت خرجوا من مكة إلى منى وأقاموا بها ثلاثاً خيفة أن ينزل عليهم عذاب، وابن الزبير علا على البيت بنفسه حتى لم يجترئ أحد على هدمه، وجعل يهدمها ويرمي حجارتها، فلما لم يصبه شيء صعدوا وهدموا معه، فما ترحلت الشمس حتى ألصقها كلها بالأرض، وذلك يوم السبت منتصف جمادى الآخر سنة أربع وستين، ولما هدمه عمد إلى الحجر الأسود فجعله في ديباجة وأدخله في تابوت وأقفل عليه ووضعه عند دار الندوة، حتى علا البناء وأمر بوضعه، فبني في الحجر الذي تحته وفي الحجر الذي فوقه، حيث يدخل حتى يكون في نهاية من الإلصاق والثبات، ثم أمر ابنه عباداً وجبير بن شيبة بن عثمان أن يجعلا الركن في ثوب، وقال لهما: إذا دخلت في صلاة الظهر فاجعلاه في موضعه، ففعلا ذلك وارتفع عليه البناء، والناس في الصلاة، وكان طول الحجر ذراعاً وشبراً، وعرضه اثنين وعشرين أصبعاً، وقال من رأى مؤخره الداخل في الجدار: هو مضرّس على ثلاثة رؤوس، ولونه الداخل في الحائط مورّد. وقال بعضهم: هو أبيض، قال: وأرقى ابن الزبير عبيداً من الحبش يهدمونها رجاء أن يكون فيهم صفة الحبشي الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة. قال مجاهد: قال عبد الله بن عمرو بن العاص: كأني به أصيلع أفيدع قائماً عليها يهدمها بمسحاته، والله أعلم.

وأراد ابن الزبير أن يبنيها بالورس، فأخبر أن الورس يذهب ولكن ابنها بالقصة، فأرسل إلى صنعاء بأربعمائة دينار واشترى له بها قصة بها بناها. وذكر أن القرمطي المكنى بأبي طاهر المسمى سليمان بن الحسن لعنه الله، وكان صاحب البحرين، دخل مكة بالسيف في سبعمائة رجل من أصحابه، وذلك يوم الاثنين لسبع خلون من ذي الحجة سنة سبع عشرة وثلاثمائة، فقتل في سكك مكة وشعابها من أهل خراسان والمغاربة زهاء ثلاثين ألفاً، وسبى من النساء والصبيان مثل ذلك، وأقام بها ستة أيام، وقتل الناس وهم متعلقون بأستار الكعبة، وردم منهم زمزم، وفرش منهم المسجد وما يليه، وقلع الحجر الأسود من موضعه وحمله إلى بلاده، فأصابه الله تعالى ببلاء في

جسده حتى تقطعت أوصاله، فلما أهلكه الله ردّ الحجر إلى مكانه بعد مدّة طويلة، ذكر بعد اثنتين وعشرين سنة غير أربعة أيام، والحمد لله على كل حال.

ورأيت في بعض التواريخ أن الذي ردّه إلى مكانه شنبر بن الحسن بن شنبر القرمطي، ولد صاحب البحرين رئيس القرامطة. وحج شنبر هذا مع الناس، وقد نال المدينة شرفها الله نوع من هذه الوقيعة قبل هذا، وذلك يوم الحرّة أيام يزيد بن معاوية على يد مسلم بن عقبة المري، الذي تسميه أهل المدينة مسرف بن عقبة، سنة ثلاث وستين، قتل فيها من وجوه المهاجرين والأنصار ألفاً وسبعمائة، وقتل من أخلاط الناس عشرة آلاف سوى النساء والصبيان، وانتهب المدينة، ودخل على امرأة من الأنصار رجل من أهل الشام وهي ترضع صبيها، وقد كان أخذ ما عندها فقال لها: هات الذهب وإلا قتلتك وصبيك، فقالت: ويحك إن قتلته فأبوه أبو كبشة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا من النسوة اللاتي بايعن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما خنت الله في شيء بايعت عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانتفض الصبي من حجرها وثديها في فيه، وضرب به الحائط حتى انتثر دماغه في الأرض، والمرأة تقول: يا بني لو كان عندي شيء أفديك به لفديتك، فما خرج من البيت حتى اسودّ نصف وجهه، وسار مثلة في الناس.

وكان سبب هذه الفتنة أن أهل المدينة خلعوا يزيد بن معاوية وأخرجوا مروان بن الحكم وبني أمية، وأمروا عليهم عبد الله بن حنظلة بن الغسيل الذي غسلت أباه الملائكة يوم أحد، ولم يوافق أهل المدينة على هذا الخلع أحد من أكابر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولزموا بيوتهم مثل عبد الله بن عمر وأهله، وجابر بن عبد الله، وأبي سعيد الخدري، رضوان الله عليهم، ودخلوا على أبي سعيد بيته، فقيل له: من أنت أيها الشيخ؟ فقال: أبو سعيد الخدري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا له: قد سمعنا خبرك ونعم ما فعلت حين كففت يدك ولزمت بيتك، ولكن هات المال، فقال: قد أخذه الذين دخلوا قبلكم عليّ، وما عندي شيء، فقالوا: كذبت، ونتفوا لحيته وأخذوا ما وجدوا حتى صوف الفراش وحتى زوجين من الحمام كانا في البيت، وقد كان يزيد بن معاوية قد أعذر إليهم فيما ذكروا وبذل إليهم من العطاء أضعاف ما يعطي الناس، واجتهدوا في استمالتهم إلى الطاعة، وتحذيرهم من الخلاف، ولكن أبى الله إلا ما أراد، والله يحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون.

ولتظهر أيضاً معجزة النبي صلى الله عليه وسلم، فه يروى أنه وقف يوماً بتلك الحرّة وقال: ليقتلن بهذا المكان رجال هم خيار أمتي بعد أصحابي. ويذكر عن

عبد الله بن سلام رضي الله عنه أنه قال: لقد وجدت صفتها في كتاب يهودا بن يعقوب عليهما السلام الذي لم يدخله تبديل فإنه يقتل فيها قوم صالحين يجيئون يوم القيامة وسلاحهم على عواتقهم، وذكر الحديث.

وخرّج جابر بن عبد الله رضي الله عنه: في ذلك اليوم يطوف في أزقة المدينة وهو أعمى والبيوت تنتهب، وهو يعثر في القتلى ويقول: تعس من أخاف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له قائل: ومن أخاف رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من أخاف المدينة فقد أخاف ما بين جنبي، فحملوا عليه ليقتلوه، فأجاره منهم مروان وأدخله بيته.

وذكر البخاري أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لما أرجف أهل المدينة بيزيد دعا بنيه ومواليه وقال لهم: إنا قد بايعنا هذا الرجل على بيعة الله وبيعة رسوله، وإنه والله لا يبلغني عن أحد منكم أنه خلع يداً عن طاعته إلا كانت الفيصل بيني وبينه، ثم لزم بيته كما تقدّم. وكان جدار الكعبة أوّلاً رصاً حجارة بعضها على بعض من غير ملاط، طوله تسعة أذرع من غير سقف، فلما بنتها قريش قبل الإسلام زادت في جدارها تسعاً، فكانت ثمان عشرة ذراعاً، ورفعوا بابها عن الأرض، فكان لا يصعد إليها إلا في درج أو سلم.

وقد سألت عائشة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فقال: فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا، أو كما قال عليه الصلاة والسلام. ثم لما بناها ابن الزبير زاد فيها تسعة أذرع فكانت سبعاً وعشرين ذراعاً، وعلى ذلك هي الآن.

وأما المسجد فأوّل من بناه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذلك أن الناس ضيقوا على الكعبة وألصقوا دورهم بها، فقال عمر رضي الله عنه: إن الكعبة بيت الله، ولا بدّ للبيت من فناء وإنكم دخلتم عليها ولم تدخل عليكم، فاشترى تلك الدور من أهلها وهدمها وبنى المسجد المحيط بها.

ثم كان عثمان رضي الله عنه فاشترى دوراً أخر وأغلى في ثمنها وزاد في سعة المسجد. فلما كان ابن الزبير زاد في إتقانه لا في سعته، وجعل فيها عمداً من الرخام، وزاد في أبوابه وحسنها. فلما كان عبد الملك بن مروان زاد في ارتفاع حائط المسجد، وحمل إليه السواري في البحر إلى جدّة، واحتملها من جدّة على العجل إلى مكة، وأمر الحجاج بن يوسف فكساها الديباج. وقد كان ابن الزبير كساها الديباج قبل الحجاج، ذكره الزبير بن بكار. وذكر أيضاً أن خالد بن جعفر بن كلاب ممن كساها الديباج قبل الإسلام، وسيأتي حديث تبع وكيف كساها في باب الكاف إن شاء الله تعالى.

ثم لما كان الوليد بن عبد الملك زاد في حليها، وصرف في ميزابها وسقفها ما كان في مائدة سليمان عليه السلام من ذهب وفضة، وكانت قد احتملت على بغل قوي فتفسخ تحتها فضرب منها الوليد حلية للكعبة.

فلما كان أبو جعفر المنصور وابنه محمد الهادي زاد أيضاً في إتقان المسجد وتحسين هيئته، ولم يحدث فيه بعد ذلك عمل إلى الآن. نقلت هذه الأخبار من كتاب الأستاذ أبي القاسم السهيلي رحمه الله، في شرح السيرة، وقال بعد تمام هذا الخبر وفي اشتراء عمر وعثمان رضي الله عنهما الدور التي زادا فيها دليل على أن رباع مكة ملك لأهلها، يتصرفون فيها بالبيع والشراء إذا شاؤوا، وفي ذلك اختلاف.

ذكر زمزم:

وذكر رحمه الله في حديث زمزم كلاماً بديعاً أثبته هنا فكن له سميعاً، قال: كانت زمزم سقيا إسماعيل عليه السلام، فجّرها له روح القدس بعقبه، وفي تفجيره إياها بالعقب دون أن يفجرها باليد أو غيرها إشارة إلى أنها لعقبه وراثة، وهو محمد وأمته، كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ [الزخرف: ٢٨] أي: في أمة محمد. ثم إن زمزم لما أحدثت جرهم في الحرم واستخفوا بالمناسك والحرم، وبغى بعضهم على بعض واجترم، تغوّر ماء زمزم واكتتم، فلما أخرج الله جرهم من مكة بالأسباب التي أحدثوها، عمد الحارث بن مضاض الأصغر إلى ما كان عنده من مال الكعبة، وفيه غزالان من ذهب وأسياف قلعية، كان ساسان ملك الفرس قد أهداها إلى الكعبة، وقيل سابور، وكانت الأوائل من ملوك الفرس تحجها إلى عهد ساسان أو سابور، فلما علم ابن مضاض أنه مخرج منها؛ جاء تحت الليل حتى دفن ذلك في زمزم وعفي عليها، ولم تزل دارسة عافياً أثرها حتى آن مولد المبارك الذي كان يستسقى بوجهه غيث السماء، وينفجر من بنانه ينابيع الماء، صاحب الكوثر والحوض والرواء، فلما آن ظهوره أذن الله تعالى لسقيا الله أن تظهر، ولما اندفن من مائها أن يجهر، فكان صلى الله عليه وسلم قد سقيت الناس من بركته قبل أن يولد، وسقوا بدعوته وهو طفل، حين أجدب بهم البلد، وذلك حين خرج به جدّه مستسقياً لقريش، وسقيت الخلائق كلها غيوث السماء في حياته صلى الله عليه وسلم، الفئة بعد الفئة والمرة بعد المرة، تارة بدعائه وتارة من بنانه وتارة بإلقاء سهمه، ثم بعد موته استشفع عمر بعمه إلى الله تعالى عام الرمادة، وأقسم عليه به وبنبيه، فلم يبرح حتى قلصوا المآزر واعتلقوا الحذاء وخاضوا الغدران، وسمعت الرفاق المقبلة إلى المدينة صائحاً يصيح في السحاب: أتاك الغوث أبا حفص، كل ذلك ببركة المنبعث بالرحمتين، والداعي إلى الحياتين،

والموعود بهما على يديه في الدارين، صلى الله عليه وسلم صلاة تصعد ولا تنفد، وتتصل ولا تنفصل. فرغ كلامه رضي الله عنه.

حديث الاستسقاء :

قلت: ذكر في هذا الحديث أن جدّه استسقى به لقريش فيما تقدّم فسقوا ببركته صلى الله عليه وسلم، ونفس المؤمن إلى سماع الحديث عن ذلك تتشوّف، وبكونه من أمته عليه الصلاة والسلام يتشرّف، فها أنا قد سقته إليك مسنداً، فاشدد به يداً.

حدّثني الفقيه الحافظ أبو الطاهر رحمه الله فيما أذن لي فيه، قال: أخبرني القاضي أبو المحاسن بالري، أخبرنا أبو نصر البلخي، أخبرنا أبو سليمان أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي حدّثنا أبو سعيد بن الأعرابي قال: حدّثنا محمد بن علي بن البحتري، حدّثنا يعقوب بن محمد ابن عيسى بن عبد الملك بن حميد بن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، حدّثنا عبد العزيز ابن مروان عن ابن حويصة قال: حدّث مخرمة بن نفيل عن أمه رقيقة بنت أبي صيفي بن هاشم قال: تتابعت على قريش سنو جدب، قد أنحلت الظلف وأرقت العظم، فبينا أنا راقدة أو مهمومة ومعي صنوي إذ أنا بهاتف صيت يصرخ بصوت صحل يقول: يا معشر قريش إن هذا النبي المبعوث منكم هذا أبان نجومه، فحي هلاً بالحيا والخصب، ألا فانظروا منكم رجلاً طوالاً عظاماً أبيض وضاء أشم العرنين سهل الخدين له فخر يكظم عليه، ألا فليخلص هو وولده وليدلف إليه من كل بطن رجل، ألا فليشنوا من الماء وليمسوا من الطيب وليطوفوا بالبيت سبعاً، ألا وفيهم الطيب الطاهر لذاته، ألا فليستسق الرجل وليؤمّن القوم، ألا فغثتم إذاً أبداً ما عشتم وشئتم. قالت: فأصبحت مذعورة قد قف جلدي وروله عقلي، فاقتصصت رؤياي، فوالحرمة والحرم إن بقي أبطحي إلا قال: هذا شيبة الحمد، فتتامّت عنده قريش وانفض إليه الناس من كل بطن رجل، فشنوا الماء ومسوا واستلموا وطوّفوا ثم ارتقوا أبا قبيس، وطفق القوم يدفون حوله ما إن يدرك سعيهم مهلة حتى قرّوا بذروة الجبل، فقام عبد المطلب فاعتضد ابن ابنه محمداً صلى الله عليه وسلم، فرفعه على عاتقه وهو يومئذ غلام قد أيفع أو قد كرب، ثم قال: اللهم ساذ الخلة وكاشف الكربة، أنت عالم غير معلم، ومسؤول غير مبخل، وهذه عبداؤك وإماؤك بعذرات حرمك يشكون إليك سنتهم، فاسمعنّ اللهم وأمطرنّ علينا غيثاً مريعاً مغدقاً، فما راموا البيت حتى انفجرت السماء بمائها، وكظ الوادي بثجيجه. فرغ الحديث، وهذه القصة شهدها أبو طالب عمه، ولذلك يقول:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وهو شعر مطوّل. وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر إلى وجه النبيّ صلى الله عليه وسلم يستسقي، فما ينزل حتى يجيش لها كل ميزاب

وأبــيض يستــسقى الغمــام بــوجهه

وروى أنس بن مالك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا. قال: فيسقون.

ويروى أنه قال في استسقائه بالعباس: اللهم إنا نتقرّب إليك بعمّ النبيّ صلى الله عليه وسلم وقفية آبائه وكبر رجاله، دلونا به إليك مستشفعين. خرّجه صاحب التاج وقال: دلونا، معناه: استشفعنا، وقد تقدّم تفسير القفية أنه تلوهم. واستسقى يوماً به فلما فرغ من دعائه قال العباس: اللهم إنه لم ينزل بلاء من السماء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوجه، وقد توجّه القوم إليك بمكاني من نبيك صلى الله عليه وسلم، وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة وأنت الراعي لا تهمل الضالة ولا تدع الكسير بدار مضيعة، فقد ضرع الصغير وفرق الكبير، وارتفعت الشكوى، وأنت تعلم السر وأخفى، اللهم أغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا، فإنه لا ييأس من روحك إلا القوم الكافرون. قال: فما تم كلامه حتى أرخت السماء مثل الجبال، وفي ذلك يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

سأل الخليفة إذ تتابع جدبه ... فسقى الغيوث بغرّة العباس
عم النبي وصنو والده الذي ... ورث النبي بذاك دون الناس
أحيا المليك به البلاد فأصبحت ... مخضرّة الأجناب بعد الياس

هذا كله ووجهه المطيب مغيب، وأما بحضرة غرته فأسرع بالغيث ودرّته. روى أنس أيضاً قال: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو قاعد في المسجد فقال: يا رسول الله لقد أتينا وما لنا بعير يئط ولا صبي يصيح، وأنشد يقول:

أتيناك والعذراء تدمى لبانها ... وقد شغلت أم الصبي عن الطفل
وألقى بكفيه الكبير استكانة ... من الجوع ضعفاً ما يمرّ وما يحلي
ولا شيء مما يأكل الناس عندنا ... سوى الحنظل العاميّ والعلهز الفسل
وليس لنا إلا إليك فرارنا ... وأين فرار الناس إلا إلى الرسل

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يجرّ رداءه حتى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم رفع يديه إلى السماء فقال: اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً سريعاً غدقاً طبقاً

عاجلاً غير رائث نافعاً غير ضارّ، تملأ به الضرع وتنبت به الزرع، وتحيي به الأرض بعد موتها، وكذلك تخرجون. فوالله ما ردّ يده إلى نحره حتى ألقت السماء بأرواقها، وجاء أهل البطاح يضجون: يا رسول الله الغرق، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده إلى السماء ثم قال: اللهم حوالينا ولا علينا، فانجاب السحاب عن المدينة حتى أحدق بها كالإكليل، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه، ثم قال: لله درّ أبي طالب لو كان حياً قرّت عيناه، من ينشدنا قوله؟ فقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: كأنك أردت:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل
تلوذ به الهلاك من آل هاشم ... فهم عنده في نعمة وفواضل

الأبيات. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أجل. وقام أعرابي من كنانة فقال:

لك الحمد والحمد ممن شكر ... سقينا بوجه النبيّ المطر
دعا الله خالقه دعوة ... إليه وأشخص فيها البصر
فلم يك إلا كإلقا الردا ... وأسرع حتى رأينا الدرر
دفاق العز إلى جم البعاق ... أغاث الإله علينا مضر
وكان كما قاله عمه ... فهذا العيان لذاك الخبر
فمن يشكر الله يلق المزيد ... ومن يكفر الله يلق الغير

فقال صلى الله عليه وسلم: إن يكن شاعر يحسن فقد أحسنت، وأختم لكم هذا الفصل أيها الأحباب بذكر الحديث الذي وعدتكم به في أول الكتاب، وسقته هناك كما ذكرته مجملاً فخذوه كما شرطت لكم مكملاً: روت عائشة رضي الله عنها قالت: شكا الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قحوط المطر، فأمر بمنبر فوضع له بالمصلى، ووعد الناس يوماً يخرجون فيه، قالت عائشة: فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بدا حاجب الشمس فقعد على المنبر فكبر وحمد الله ثم قال: إنكم شكوتم جدب دياركم واستئخار المطر عن إبان زمانه عنكم، وقد أمركم الله عز وجل أن تدعوه، ووعدكم أن يستجيب لكم، ثم قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٢-٤] لا إله إلا هو يفعل ما يريد، اللهم أنت الله لا إله إلا أنت الغني ونحن الفقراء، أنزل علينا الغيث واجعل ما أنزلته إلينا قوّة وبلاغاً إلى حين، ثم رفع يديه فلم يزل في الرفع حتى بدا بياض إبطيه، ثم حوّل إلى الناس ظهره وقلب أو حوّل رداءه وهو رافع يديه، ثم أقبل على الناس ونزل وصلى ركعتين، فأنشأ الله سحابة فرعدت وبرقت ثم أمطرت بإذن الله، فلم يأت مسجده

حتى سالت السيول، فلما رأى سرعتهم إلى الكن ضحك حتى بدت نواجذه، فقال: أشهد أن الله على كل شيء قدير وأني عبد الله ورسوله.

وأزيدكم أيها البنون استسقاء سعدون المجنون، قال عطاء السلمي رضي الله عنه: منعنا الغيث، فخرجنا نستسقي، فإذا نحن بسعدون المجنون، فنظر إليّ فقال: يا عطاء هذا يوم النشور أم بعثر من في القبور؟ فقلت: لا ولكن منعنا الغيث فخرجنا نستسقي، فقال: يا عطاء بقلوب خاوية أو بقلوب سماوية؟ فقلت له: بل بقلوب سماوية، فقال: هيهات يا عطاء، قل للمتبهرجين لا يتبهرجوا فإن الناقد بصير، ثم رمق إلى السماء بطرفه وقال: إلهي لا تهلك بلادك بذنوب عبادك ولكن بالمكنون من آلائك إلا ما سقيتنا ماء غدقاً تحيي به العباد وتروي به البلاد، يا من هو على كل شيء قدير. قال عطاء: فما استتم الكلام حتى أرعدت السماء وأبرقت، وجاءنا بمطر كأفواه القرب، فولى وهو يقول:

نعم الزاهدون والعابدونا ... إذ لمولاهم أجاعوا البطونا
شغلتهم عبادة الله حتى ... قيل في الناس إن فيهم جنونا

وروي أن الناس أقحطوا سنة، فرأى رجل من الصالحين في النوم يقال له: استسق بهذين البيتين ففعل فسقوا بهما:

يا محيي الأرض بعد ميتتها ... ومنزل الغيث والورى قنطوا
ارحم عبيداً نفوسهم ظلموا ... وأحيي أرضاً أصابها القحط

وهذا القول أيضاً قد فرغ بعد ما أفرغت عليك منه عباب اللباب خرج من خلل ذلك الباب، ثم أرجع إلى بقية الكلام بعون الله ذي الجلال والإكرام.

وتقدّم ذكر الباب وفي كتاب الله عز وجل منه كثير، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ [الرعد: ٢٣]، ﴿ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾ [البقرة: ١٨٩] ومعناه أن قريشاً كانت في الجاهلية إذا أحرم أحدهم بالحج لم يدخل بيته من بابه، ونقب في الحائط ثقباً من خلف الدار أو الحجرة فدخل منه، وكانوا يفعلون ذلك لئلا يحول بينهم وبين السماء سقف أو عتبة، وكان ذلك من دينهم، فنسخه الله بالإسلام. وقيل: معناه اطلبوا الخير من بابه، ولا تطلبوه من الجهال المشركين. وقيل: هو كناية عن إتيان النساء في أدبارهن، والله أعلم بما أراد من ذلك. وسيأتي الكلام على هذا في باب النون عند قوله تعالى: ﴿ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٣] مستوفى إن شاء الله.

وأختم لك باب باب بحكمة من لباب اللباب: رأيت للفقيه الفاضل أبي القاسم

عتيق بن محمد الصقلي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ [الرعد: ٢٣] كلاماً أعجبني، فنقلته من كتابه الذي سماه جامع الخير، وأنا على ظهر البحر ما بين الإسكندرية والمهدية، وكان في ذلك الكتاب عجائب ورقائق، قال: وقد ذكرت إعجاز القرآن وكثرة معانيه وفوائده، وإن ذلك قد يوجد في اللفظة الواحدة. وقال رحمه الله: وتأمل يا أخي قوله سبحانه: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ كيف أفادك سعة المنازل بكثرة الأبواب وإكبار الملائكة لهم وإعزازهم، حيث عنت بأنفسها إليهم وكثرتهم وجمعهم لدخولهم من كل باب، وشدة عنايتهم ومسارعتهم وسرورهم بالبشرى، لأنه لو لم يستفزهم ذلك لدخلوا من باب واحد وإن كانوا عدداً شيئاً بعد شيء. تأمل هذه الجملة! هل قامت الشعراء في المحافل والخطباء على المنابر بأفصح وأمدح منها؟ ثم أفهمنا أن جماع ذلك كله في الصبر، وعليه جعل الجزاء، ومنه قول الملائكة: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ [الرعد: ٢٤] الصبر: هو ذلك المرّ ليس بالتمني ولا الاقتراح. ثم قال: وانظر يا أخي هل حالي وحالك حال من يكون الله سبحانه مادحه، والملائكة تزدحم على أبوابه، فتعتبر ذلك بما قاله بعضهم: روي عن النبي صلى الله عليه وسلم معناه، إذا شئت أن تعرف ما لك عند الله فانظر ما لله عندك، في كلام جليل طويل.

ذكر الأسنان :

وتقدّم ناب، وأنه واحد الأنياب، وهي التي تلي الرباعيات في الفم إلى جهة الشدقين، وهي الحديدة المديدة القوية الشديدة. قيل لابنة الخس: ما أحدّ شيء؟. فقالت: ناب جائع يلقى في معاء ضائع. وفي الفم اثنان وثلاثون سناً، أربع ثنايا وأربع رباعيات وأربعة أنياب وأربع ضواحك، واثنتا عشرة رحا وأربعة نواجذ، وهي أقصاها وآخرها نباتاً، فمن الناس من لا يخرج له شيء من النواجذ فتكون أسنانه ثمانياً وعشرين، ومنهم من يخرج له اثنان، فتكون أسنانه ثلاثين، فيزعمون أن من خرجت نواجذه كلها كان وافر اللحية عظيمها، ومن لم يخرج له شيء كان كوسجاً، والله أعلم. ذكر ذلك ابن السيد في شرح خطبة أدب الكاتب حين ذكر حديث الأعرابي الذي قدم على أحد الولاة متشكياً من عامله، فذكر ظلامته بعنجهية وجفاء، فقال له الوالي: إني لأحسبك جاهلاً لا تعرف كم تصلي في اليوم والليلة، فقال له الأعرابي: أرأيتك إن أخبرتك بذلك أتجعل لي عليك مسألة؟ قال: نعم، فقال الأعرابي:

إن الصلاة أربع وأربع   ثم ثلاث بعدهن أربع

ثـــم صـــلاة الفجـــــر لا تـــضيع

ذكر فقار الظهر والعظام :

قال: صدقت، فما مسألتك؟. قال: كم فقار ظهرك؟. قال: لا أدري، قال: أفتحكم بين الناس وأنت تجهل هذا من نفسك؟ ثم فسر ابن السيد رحمه الله جميع ما تقدّم في كتابه مع عدد الثقب التي في ابن آدم، مع أشياء لا يستغني عن معرفتها الأديب ولا الكاتب اللبيب، فقال: جميع الثقب التي في بدن الإنسان اثنتا عشرة: العينان، والأذنان، والمنخران، والفم، والثديان، والفرجان، والسرة، حاشا الثقب الصغار التي تسمى المسام يخرج منها العرق وينبت فيها الشعر، فإنها لا تنحصر. وأما الفقار فأربع وعشرون: سبع منها في العنق واثنتا عشرة في الظهر، وخمس في القطن، وهو العجز. والأضلاع أربع وعشرون اثنتا عشرة في كل جنب. وجملة العظام التي فيه مائتان وثمانية وأربعون عظماً حاشا العظم الذي في الكتف، والعظام الصغار التي حشي بها خلل المفاصل، وتسمى السمسمية، سميت بذلك لدقتها، والسمسم هو الجلجان. وذكر ثابت في الدلائل عدد العظام وفسرها فقال: منها خمسة في كل إصبع، وخمسة في ظهر كل قدم، وثلاثة في كل ركبة، وعظمان في كل ساق، وعظم في كل واحد من مرفقيه، وخمسة في كل واحد من المتنين، وتسعة وثلاثون في الرأس، وثمانية في الصدر، وثماني عشرة فقارة في الظهر، وتسعة عشر ضلعاً وثلاثة أعظم تحت كل واحد من الكتفين، وثلاثة أعظم في الذراعين، وفي الكف مثل ما في الرجل. انتهى كلامهما رضي الله عنهما.

وفائدة هذا أن تعلم أن الله عز وجل لم يخلق هذا عبثاً ولا جعل عدد هذه الأعظم لغواً، وإنّما ذلك لحكم علمها من علمها وجهلها من جهلها، وأقل ما يجب على العبد غير العالم بتفصيل هذا كله أن يعلم أن جميع ذلك وسواه؛ مما فيه من لحم وجلد وعظم ودم وعصب وشعر وعرق خلق من ماء مهين؛ لا يظهر فيه شيء من هذه الأكوان ولا الألوان الظاهرة ولا من الصفات الباطنة التي هي الحياة والسمع والبصر وغير ذلك، والعقل الذي يدبر به أمره، وبه تجب الحجة عليه في طاعته ومعصيته، ثم سخر له بعد ذلك ما في السماوات وما في الأرض، وأسبغ عليه النعم الظاهرة والباطنة، ورضي منه بعد هذا كله أن يقرّ له بالوحدانية، وأن جميع ما يتقلب فيه نعمة منه عليه لا شريك له في شيء من ذلك، وأنه لا يجب له على مولاه حق، بل كل ذلك تفضل منه على عبده، فإذا أقرّ بهذا وأمثاله فقد شكره، كما أنه إن جحد منه شيئاً فقد كفره.

كما يذكر عن عيسى عليه السلام أنه قال: يا رب كيف أشكرك وشكري إياك نعمة منك عليّ يجب عليّ الشكر عليها؟ فقال: إذا علمت هذا فقد شكرتني، أو كما قال، فسبحان الله العلي الكبير الذي يرضى من العبد الحقير باليسير ويجزي عليه بالكثير.

وجاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: في ابن آدم ثلاثمائة مفصل وستون مفصلاً، يجب على كل مفصل منها صدقة، قالوا: يا رسول الله ومن يستطيع ذلك؟ قال: ينحي أحدكم الأذى عن الطريق.

وفي حديث آخر: كل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزي من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى. أو كما قال.

وجاء في حديث آخر: تبسمك في وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف صدقة، ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة.

وجاء في الحديث: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا ركع أحدكم يسبح ثلاث مرات؛ فإنه يسبح الله تعالى من جسده ثلاث وثلاثون وثلاثمائة عظم، وثلاثة وثلاثون وثلاثمائة عرق. خرجه الدارقطني رحمه الله. وقال عبد الرحمن بن أبان بن عثمان في مرضه وكان قد أعتق رقاباً كثيرة في صحته: بلغني أن ابن آدم فيه ثلاثمائة وستون مفصلاً، والحمد لله قد أعتقت عشرين وثلاثمائة رقبة، فأنا متمها إن شاء الله حتى تكون ثلاثمائة وستين رقبة. وذكر في هذا الخبر: رقبة. وجاء في حديث آخر: نسمة.

الفرق بين الرقبة والنسمة:

وقد فرّق العلماء بين الرقبة والنسمة، خرّج ثابت من حديث سليمان بن موسى قال: إذا ولد الصبي فهو نسمة، وإذا انقلب ظهراً لبطن فهو رقبة، وإذا صلى فهو مؤمنة، وفسر قوله: نسمة، يعني: يجزئ، في مراد النبي صلى الله عليه وسلم: من أعتق نسمة وقاه الله بكل عضو منها عضواً من النار. وقوله: رقبة، يريد أنها تجزئ في الظهار وكفارات الأيمان، قال تعالى: ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ [المجادلة: ٣] ولم يشترط فيها مؤمنة. وقوله: وإذا صلى فهو مؤمنة، يريد أنه يجزئ في كفارة القتل خطأ، قال الله تعالى: ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ [النساء: ٩٢]. قال: وجاء في

الرقبة والنسمة تفسير آخر عن البراء بن عازب قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة. قال: لئن كنت قصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة، أعتق النسمة وفك الرقبة. قال: أوَليستا سواء يا رسول الله؟ قال: إن عتق النسمة أن تنفرد بعتقها، وإن فك الرقبة أن تعين في ثمنها، والمنحة الوكوف، والفيء على ذي الرحم الظالم، فإن لم تستطع ذلك فكف لسانك إلا من خير.

وتقدّم ذكر الرقبة وهي تجمع على رقاب وفي القرآن العزيز: ﴿ وَفِي ٱلرِّقَابِ ﴾ [البقرة: ١٧٧] قال الجوهري في كتاب التاج: وتجمع أيضاً على رقبات ورقب. قلت: وما زال ذوو الانتظار للموت والارتقاب يعتقون الرقاب لجواز العقاب منهم من لطمه، فأعتقه خشية أن يكون ظلمه ومنهم من أعتقه لسبب من الأسباب من غير هذا الباب.

كما يروى أن عبد الله بن عمر رأى كسرة خبز فقال لغلامه: ارفعها وأمط عنها الأذى، فلما أمسى وأراد الفطر قال لغلامه: ما فعلت بالكسرة؟ قال: أكلتها، قال: اذهب فأنت حر، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من وجد كسرة خبز فرفعها من الأرض ثم أكلها لم تصل جوفه حتى يغفر الله له، فأنا أكره أن أستعبد من غفر الله له. سقت هذا الخبر هنا لأتطرق به إلى ذكر أبيات صنعتها بسبب كسرة خبز من الأرض رفعتها وبعض الأصحاب يراني، وخفت أن يكون ازدراني، فقلت:

يا صاحبي مهلاً ... لا تأكلن عرضي
رزق من المولى ... ملقى على الأرض
هل أخذه إلا ... من أوكد الفرض

ولي أيضاً أبيات فيها ذكر العتق من الرق، فقلت:

لك الحمد يا مولاي حمداً مباركاً ... كثيراً أثيراً دائماً أبداً يبقى
تباركت يا ألله من لم تكن له ... معيناً على أسبابه فالشقا يلقى
وكيف ولا حول ولا قوّة لنا ... ولا ملجأ إلا إليك ولا مرقى
فإن لم تكن عوناً لنا في خلاصنا ... من النار يا رحمن إنا إذاً غرقى
فمنّ وأعتق يا كريم رقابنا ... وكم سيد أعطى مواليه العتقا
وكل مماليك وكل أشحة ... وأنت جواد مالك رقنا حقا
وليس لنا مولى سواك ومن تكن ... إلهي مولاه فلا أبداً يشقى

تقدّم: مالك رقنا حقاً، وفي مثل هذا يقال: عبد قن، وهو الذي يملك هو وأبوه وأمه، فإذا ملك دون أبويه فهو عبد مملكة، بضم اللام وفتحها، قاله ابن السيد رحمه

الله. وقد يعبر بالنواجذ عن الأنياب، كما جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: فضحك حتى بدت نواجذه، وهذا إن حمل على النواجذ المعلومة؛ فبعيد في حقه عليه السلام، لأن هذا لا يمكن، ولم يعرف من ضحكه إلا التبسم، فحمل هذا الحديث على الأنياب، وقد جاء ذلك مذكوراً في بعض الروايات: ضحك حتى بدت أنيابه عليه السلام. خرّجه مالك رحمه الله في موطئه. وقال الأصمعي: هي الأضراس.

وجاء في حديث آخر: إن الملكين قاعدان إلى ناجذي العبد يكتبان. وذكر مكي في الهداية أنه يروى أن الملك يجلس على ناب الإنسان، وقلمه اللسان، ومداده ريق الإنسان، وهذا تمثيل في القرب، والله أعلم بكيفية ذلك. وقال أبو العباس: النواجذ الأنياب، كما تقدّم في الحديث، وقيل: النواجذ الضواحك، ذكره المازري في المعلم.

وكذا قيل في قوله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ [النمل: ١٩]، جاء في التفسير أن الأنبياء عليهم السلام كان ضحكهم التبسم، وقيل لنبينا عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فكان كذلك صلى الله عليه وسلم.

وروي عن جابر بن سمرة أنه كان لا يضحك إلا تبسماً، وعبد الله بن الحارث بن جزء: ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي حديث آخر: جلّ ضحكه التبسم.

النهي عن الضحك والقهقهة:

والقهقهة في الضحك مكروهة جداً، جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ [الكهف: ٤٩]، قال الأوزاعي: الصغيرة: التبسم، والكبيرة: القهقهة. وفي الحديث: كثرة الضحك تميت القلب. وفي حديث آخر: وإياك وكثرة الضحك، فإن كثرة الضحك فساد القلب. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للأحنف: يا أحنف من كثر ضحكه قلت هيبته، ومن مزح استخفّ به الناس، ومن أكثر من شيء عرف به، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قلّ حياؤه، ومن قلّ حياؤه قلّ ورعه، ومن قلّ ورعه مات قلبه. وفي الترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم: ويل للذي يحدّث بالحديث ليضحك به الناس فيكذب، ويل له وويل له.

وقال بعض العلماء: إياك وضحك القهقهة فإن فيه ثمان آفات: الأولى: يذمّك العلماء والعقلاء. والثانية: يجترئ عليك السفهاء والجهال. والثالثة: إن كنت جاهلاً ازداد جهلك، وإن كنت عالماً نقص علمك، لأنه ورد في الخبر: إن العالم إذا ضحك

ضحكة مجَّ من العلم مجّة، يعني: رمي من علمه بعضه. والرابعة: إن فيه نسيان الذنوب الماضية. والخامسة: إن فيه جراءة على الذنوب في المستأنف، لأنك إذا ضحكت قسا قلبك. والسادسة: إن فيه نسيان الموت وما بعده من أمر الآخرة. والسابعة: إن عليك وزر من ضحك بضحكك. والثامنة: إن الضحك في الدنيا يعقب بكاء طويلاً في الآخرة.

ويقال: ثلاثة تقسي القلب، منها الضحك من غير عجب. وقال عليه الصلاة والسلام: ويل لمن يكذب ليضحك به الناس وويل له وويل له، ثلاث مرات. وفي حديث آخر: والذي نفسي بيده ليتكلمن الرجل بالكلمة ليضحك بها القوم فيغضب الله عليه فيها.

ويكفي من ذلك أن الله تعالى عيّر أقواماً بالضحك، فقال تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ [النجم: ٥٩-٦٠]، ومدح آخرين بالبكاء، فقال تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩]. وسيأتي الكلام في البكاء في باب الزاي عند ذكر الأزيز إن شاء الله العزيز.

ومن أشد ما جاء في الضحك أنه ينقض الوضوء ويفسد الصلاة عند طائفة من أهل العلم، وحجتهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي فأقبل رجل في بصره سوء فمر ببئر عليها خصفة فوقع فيها، فضحك بعض من كان خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان ضحك أن يعيد الوضوء والصلاة، ذكره أبو عبيد، وفسر الخصفة أنها الجلة التي تعمل من الخوص للتمر، وجمعها: خصاف. وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير آخر عندنا اليوم، ولئن عشنا قليلاً؛ نسأل الله السلامة؛ كثر عندنا الجهل، فعمّ الحدث والكهل، أتدري من الكهل؟ هو ابن ثلاث وثلاثين سنة، قاله ثابت.

ومما نقلت من كتاب الإخبار بفوائد الأخبار للإمام الحافظ أبي بكر إبراهيم بن محمد بن يعقوب البخاري رحمه الله: الضحك شيء يختص به الإنسان من بين سائر الحيوان، ومعناه استفادة سرور يلحقه، فتنبسط له عروق قلبه، فيجري الدم فيها، فيفيض البشر إلى سائر عروق بدنه، فتثور فيه حرارة، فينبسط لها وجهه، وتملأ الحرارة فاه، فيضيق عنها فينفتح فاه وتبدو أسنانه، فإن تزايد ذلك السرور؛ ولم يكن في الإنسان ما يضبط به نفسه؛ استخفها الفرح، فضحك حتى قهقه، ولذلك قيل في صفة النبي صلى الله عليه وسلم: وضحكه تبسم، لأنه كان لا يستخفه السرور فيغلبه فيقهقه. وهذه الصفة منفية عن الله عز وجل، وجميع أوصاف الحدوث، تعالى الله عن ذلك.

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: يضحك الله. وقال عوف بن الحارث، وهو أحد ابني عفراء: يا رسول الله ما يضحك الرب تعالى من عبده؟، قال: غمسه يده في سبيل الله حاسراً، قال: فنزع درعاً كان عليه ثم شدّ على القوم فقتل بشراً كثيراً، ثم قتل رحمه الله.

يحمل الضحك في هذه الأحاديث على الرضى من عبده، وعلى اختصاصه به، فضحكه له تعالى عبارة عن الرضى عنه والقبول له، ويجوز أن يكون الضحك هنا تجليه لعبده فيراه رؤية عيان، كما جاء في القرآن العزيز: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] والضحك بمعنى الظهور مشهور في لسان العرب، يقال: ضحك الفجر، وضحك السحاب، وضحك الشيب، كله بمعنى الظهور، قال دعبل:

لا تعجبي يا سلم من رجل ... ضحك المشيب برأسه فبكى

فيكون معنى: يضحك إليك، أي: يقدم عليك فرحاً بلقائك. وتضحك إليه، أي: تتجلى له وتكشف الحجب عنك فيراك وينظر إليك. كما قال في حديث جابر بن عبد الله: ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب، وأنه أحيا أباك فكلمه كفاحاً. وقد يكون معنى الضحك من الله تعالى: إدرار الرحمة على عبده كما تدرّ السحاب المطر على وجه الأرض، يقال: ضحك السحاب، إذا صبّ ماءه، لأن الماء فيه كامن، فإذا صبه ظهر. وقد يقال: بكت السماء وضحكت، إذا أمطرت يراد به السحاب، قال الشاعر:

سحابة صادقة الأنواء ... تعقب بين الضحك والبكاء

وقال آخر من غير الكتاب:

كل يوم بأقحوان جديد ... تضحك الأرض من بكاء السماء

فصل:

مما تقدّم من الفوائد في اللغات:

تقدّم: القحَط، بفتح الحاء، وهذا جائز لا سيما ووسط الكلمة حرف حلق، وقد سهلوا ذلك فيما ليس وسطه حرف حلق ولكنه شاذ. وأما: أقحط، فإن ثابتاً رحمه الله قال في الدلائل: يقال: أقحط الناس من القحط، وأجدبوا من الجدب وأخصبوا من الخصب. ويقال: قحط المطر، أي: قلّ واحتبس. وتقدّم ذكر العنجهية، يقال فيه: عنجهانية، بالتشديد والتخفيف، وهي الكبر، ويقال: الجهل والحمق، وأنشد:

عش بجد فلن يضرك نوك ... إنما عيش من ترى بجدود

رب ذي إربة مقل من الـ ... ـمال وذي عنجهية مجدود

وتقدّم الضحك وفيه أربع لغات: ضحك يضحك ضحكاً وضحكاً وضحكاً وضحكاً. والضحك أيضاً: الطلع حين ينشق، تشبه الأسنان به لبياضه وتراصفه. والضحكة: المرة الواحدة والتبسم: دون الضحك. يقال: بسَم، بالفتح، يبسم بسماً فهو باسم، وابتسم وتبسّم، والمبسم: الثغر. ورجل بسّام ومبسام: كثير التبسّم.

فصل:

من الملح:

تقدّم القحط، قال ثابت رحمه الله: زعموا أن أعرابياً علمه بعض الصحابة سورة: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ١]، فجاء الأعرابي ذات يوم إلى الذي علّمه، فقال: أرتج عليّ بعض الذي علّمتني فزدت فيها آيات لا أحسبها دونها، قال: قلت: ماذا؟ قال لما قلت: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القيامة: ٧-٨] أرتج عليّ فقلت: وقحط المطر ويبس الشجر وغلبت ربيعة مضر. فقلت: إن هذا لا يصلح أن يتكلم به في الصلاة.

قلت: انظر إلى هذه الكلمات المتباينات الصورة، ما أبعدها من نظم آيات السورة! والله ما تشبهها في ورد ولا صدر، وما خرج هذا الكلام ولا صدر إلا من جلف جافٍ عن الخير متجافٍ، قلبه في غلاف بلا خلاف، تاب الله علينا وعليه، ورحمنا إذا صرنا إليه. وكذلك ما يروى عن أحد الشعراء المجّان أنه حضر استسقاء قوم، وكانوا خرجوا والسماء مغيمة، فدعوا في الاستسقاء ولم يقضِ الله لهم بالماء، لكن انقشع الغيم وطلعت الشمس، فقال:

خرجوا ليستسقوا وقد نشأت ... بحرية يبدو لها رشح
حتى إذا اصطفوا لدعوتهم ... وبدا لأعينهم بها نضح
كشف الغطاء إجابة لهم ... فكأنهم خرجوا ليستصحوا

نعوذ بالله من دعاء لا يسمع ومن عمل لا ينفع.

وتقدّم الناب، ومنه ما أنشدني بعض أصحابنا للوزير الفقيه الحاج أبي الحسن ابن الشيخ الوزير أبي جعفر أحمد بن جبير:

صحبت الزمان وقابلته ... بصبر جميل إذا الخطب نابا
وكم رام هضمي فما هاض لي ... جناحاً ولا فل للصبر نابا
كذلك كنا قديماً إذا ... دعينا إلى خطة الضيم نابا

فقلت للذي أنشدنيها: ينقصه ناب سيد القوم، وناب للناقة المسنة، كما تقدّم،

وقلت له: ألحق الأبيات:

ولـم أرض بالـدون فـي ديـنـا ولا للـدناءة أعملـت نابـا
ومـن كـان فـي دهـره هكـذا فـذاك يـسمى فـي الأقـوام نابـا

وتقدّم ذكر الأنياب، وهي التي تراها بارزة في السبع والكلب والسنور، مديدة على الأسنان حديدة كالسنان، تفزع الشجعان فكيف الجبان، لذلك قلت: أعوذ بالله المفضل المنان من شر ذي أسنان تلمع كالسنان. ويجوز أن يتعوّذ منها ويتلوّذ عنها، فإن مرآها مرعب مرهب وشباها مهلك معطب، لا سيما وكل من له أنياب فله أظفار حديدة كالشفار، أحدهما يفتق المعا فكيف بهما إذا اجتمعا. هذا امرؤ القيس على جراءته وجزالته وشجاعته وبسالته قد هوّل بهما في مقالته:

وأعلـم أننـي عمـا قـريب سأنـشب فـي شـبا ظفـر ونـاب

وقد ذكرني هذا البيت قصة كانت عندي كالميت، اعترتني فيما سلف أشفيت منها على التلف، حمل عليّ ذات يوم كلب أسود، له مقله تتوقد، كأنها الفرقد أو الشهاب على الموقد، أعجلني عن الإقعاء وألزقني بالدقعاء، فظلت بين يديه طليحاً وكاد يبلعني صحيحاً، فلولا أن الله تعالى جاد بالتلافي؛ لكان في ذلك إتلافي، لكنه سبحانه وتعالى عافى وتلافى، بعد أن كان ما كان، حسبما ذكرته بكماله في غير هذا المكان، وحينئذ أيقنت أني رجل جبان خوّار الجنان، بيد أني أنست نفسي بعض التأنيس بالبيت المتقدّم لامرئ القيس، وقلت:

إن ابـن حجـر حـندجاً لـن يأبـى بـل أن يغفـل الأظفـار والأنـيابا
سـاقها فـي معـرض الـتهويل وهـو الشجاع في الوغـى المهـول
فكـيف ممـن فـزعه مـن فـار يبـصر ذا نـاب وذا أظفـار
كلـب لـه لـون بهـيم أسـود عيـناه حمـر مـثل جمـر يـوقد
أنـيابه حديـدة مديـده مـن أجلهـا هيبـته شـديده
لا سـيما إذا تـراه يكـشر عـنها وعيـناه هـناك تبـصر
أكـتب أخـاك غائـباً عـن محـضره إن فـؤادي طـار مـن تذكـره
وحـق لـي يـا صـاحبي أن أحـذره فـلا تلمنـي واقـبلنّ المعـذره
خـرج لـي يـوماً مـن الأيـام مـن خـرب مـن تلكـم الأطـام
وأنـا عطـل مـن شـبا الـسلاح النـبل والـسيوف والـرماح
مـا فـي يـدي عـصى سـوى أكمامـي كأنـني جـاء مـن الحمـام
فلـم يكـذب بـل سـعى أمامـي يـريد أن يجلـب لـي حمامـي

صـــبرني أمامـــه طلـــيحا وكـــاد أن يبلعنـــي صـــحيحا
والله لـــولا الله مـــا نجـــوت مـــنه ولا قمـــت ولا ســـعيت
ولكـنه نجـى وعافـى بعـد مـا كـدت أرى بعـد وجـودي عـدما
ومـنع ذا مـزق لـي سـلهامتي فالحمـــد لله علـــى ســـلامتي
حـين أصـاب جبتـي لا هامتـي لـوناً لهـا شـالت إذاً نعامتـي
حينـئذ ملـئت مـنه رعـبا وانقلـب القلـب فلـيس قلـبا
هـذا مـن الكلـب فكيف بالأسـد يـا صاحبي اقـرأ قـل هـو الله أحـد
ذاك الـذي يـبلع مـا ألفـاه ولـيس يحـتاج لـسدّ فـاه
وهـــذه خرافتـــي جليـــتها بالـنظم ثـم عـندكم خليـتها
مـا قلـت هـذا القـول يـا أحبابـي إلا لتنـشيط أولـي الألـباب
كـي يـستجيب نـبلهم لفعلهـا أو فـوقها أو تحـتها أو مـثلها

وقد قلت: إني ذكرت هذا الخبر في غير هذا الموضع متموماً ولكن منثوراً لا منظوماً، وكان فيه من المنظوم:

وإن الـذي عافـى مـن الكلـب بعـد مـا ظللـت طلـيحاً بـين كفـيه مـنجدل
يُمـزق أثوابـي علـي وسـترة علـى جلدتـي مـن أن يُمـزق منسدل
لربـي الـذي أرجـو يفـرج كربتـي ويكـشفها إنـي علـى فـضله مـدل

وهذه الأبيات والأرجوزة قد كتبتها في التكميل مجردة مما قبلها من القيل.

فصل:
من الفوائد أيضاً

ذكر الكلاب:

هوّلت في الأرجوزة المتقدّمة بذكر الكلب الأسود، ولم أقض فيها بالأجود، وإذ الكلب الأبيض أجرأ وأجرى؛ فكان بالذكر أولى وأحرى. رأيت في كتاب لبعض الكتّاب ما أقصّه، وهذا نصّه: السواد أشدّ من البياض قوّة وأصدق جراءة، وأهول منظراً وأسوأ مخبراً. قالوا: وليس شيء من الأجناس إلا وسوده أصلب من بيضه، ما خلا الكلاب، فإن بيضها أصلب من سودها. انتهى كلامه. قلت: ولعل ذلك كذلك، كما قالوا: أجلد الإبل وأصلبها الحمر.

وأما ابن قتيبة فقال في عيون الأخبار: سود الكلاب أعقرها، ولذلك أمر بقتلها. قال: والكلب من بين الحيوان يحتلم. وقالوا في الكلبة: إنه يسفدها كلب أسود وكلب أبقع وكلب أصفر، فتؤدّي إلى كل سافد شكله. قال: ومن الأمثال في الكلاب: سمّن

كلبك يأكلك. وأجع كلبك يتبعك. ونعم كلب في بؤس أهله. وأحرص من كلب على عقبى صبي. وألأم من كلب على عرق. وأجوع من كلبة حومل، وهي امرأة كانت تجوّع كلبتها، فنظرت إلى القمر فظنته رغيفاً، فلما لم تقدر عليه جعلت تنبح عليه. وقيل غير هذا، وهو أحسن، في نبح الكلب للقمر أنه إذا أصابه البرد ورأى القمر خرج إليه يستدفئ به يظنه الشمس، فلما لم ينفعه نبح عليه.

وقال في دواء الكلْب الكلِب، عافانا الله من شرّه: بلغني عن الخليل بن أحمد أنه قال: دواء عضّة الكلب الكلِب الذراريح والعدس، وقال: يزعمون أن الذي يصيبه هذا الداء يطلب الماء أشد الطلب، فإذا أتوه به صاح عند معاينته: لا أريد لا أريد، أو معنى هذا.

وأما الذي جاء في الحديث من أمر الكلاب؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا شرب الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبع مرات. وتكلم العلماء على اقتصاره على هذه السبع فقيل: عبادة، إذ لو كان للنجاسة لم يحد. وقيل: فيه معنى من الطب كالنشرة، كما جاء في حديث آخر: أريقوا عليّ من سبع قرب، ثم تحل أوكيتهن. وقيل غير ذلك، والله أعلم. وفي حديث آخر أنه أمر بقتل الكلاب. وفي حديث آخر: لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها كلها، فاقتلوا منها كل أسود بهيم. ويروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: الكلاب من ضعفاء الجن، فإذا حضرت طعامكم فاطردوها، فإن لها أنفس سوء. والحديث المشهور: لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة. وفي حديث آخر: لا تصحب الملائكة رفقة فيها كلب ولا جرس. وفي الحديث المشهور: ما من أهل بيت يرتبطون كلباً إلا نقص من عملهم كل يوم قيراط، إلا كلب صيد أو كلب غنم أو كلب حرس. وفي حديث آخر: قيراطان.

وقد جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه دخل أرضاً له فرأى كلباً، فهمّ بقيّم أرضه فقال: أتدخل أرضي كلباً وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكلاب؟ فقال الرجل: إني لم أتخذه كلباً، إنما هو كلب عابر دخل الأرض، فأخذ المسحاة فقال: حوشوه عليّ، فبطحه حتى قتله. خرّجه ثابت رحمه الله.

وخرّج الترمذي عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا صلى الرجل وليس بين يديه كآخرة الرحل أو كواسطة الرحل قطع صلاته الكلب الأسود والمرأة والحمار. قال الراوي: فقلت لأبي ذر: ما بال الأسود من الأحمر من الأبيض؟ قال: يا ابن أخي سألتني عما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: الكلب الأسود شيطان. وفي الباب، قال أحمد: الذي لا أشك فيه أن

الكلب الأسود يقطع الصلاة، وفي نفسي من المرأة والحمار شيء. وقال إسحاق: لا يقطعها إلا الكلب الأسود.

قلت: وقد تكلم العلماء في معنى قطع الصلاة، فذهب الشافعي أنه يفسدها، وكذلك رأيت المؤذن بمكة شرفها الله إذا أراد أن يقيم الصلاة وقف قبل ذلك بإزاء الطائفين حول البيت وقال: خففن يا نسوة، يقول ذلك مراراً، فإذا سمعنه استعجلن وقضين طوافهن، وحينئذ يأخذ في الإقامة، وما دام يصلي الإمام لا تطوف امرأة. ومذهب مالك وغيره من الأئمة أن معناه: يقطع خاطر المصلي أو يشغله ذلك عن الصلاة. وأما قطع تبتدأ به الصلاة فلا. وفي الموطأ من قول مالك: لا يقطع الصلاة شيء مما يمر بين يدي المصلي.

وسئل سعيد بن المسيب رضي الله عنه: ما يقطع الصلاة؟ فقال: الفجور، ويسترها التقوى. فهذه جملة في الكلاب. وقال الشاعر:

كلاب الناس إن فكرت فيهم ... أضر عليك من كلبَ الكلاب
لأن الكلب تخسأه فيخسا ... وكلب الناس يربض للعتاب
وإن الكلب لا يؤذي جليساً ... وأنت الدهر من ذا في عذاب

وهذا الكتاب فيه من هذا النوع كثير، وفيه حكايات حسان وأشعار وأحاديث منها: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه رأى أعرابياً يسوق كلباً، فقال له: ما هذا معك؟ فقال: يا أمير المؤمنين نعم الصاحب إن أعطيته شكر، وإن منعته صبر، وإن استنصرته نصر، فقال له عمر: نعم الصاحب فاستمسك به. ورأى ابن عمر أعرابياً معه كلب، فسأل عنه فقال: يشكر بري ويستر سري، فقال له ابن عمر: احتفظ بصاحبك. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كلب أمين خير من إنسان خائن. ومن حكايته أن أبا عبيدة أنشد لبعض الشعراء:

يعرّج عنه جاره وصديقه ... وينبش عنه كلبه وهو ضاربه

ثم قال أبو عبيدة: قيل هذا الشعر في رجل من أهل البصرة خرج إلى الجبانة ينتظر ركابه، فاتبعه كلبه فضربه وطرده، وكره أن يتبعه ورماه بحجر فأدماه، فأبى الكلب إلا أن يذهب معه، فلما كان في بعض الطريق والكلب رابض قريباً منه إذ أتاه أعداء له يطلبونه، وكان معه جار له وأخوه قال: فأسلماه وهربا عنه وتركاه، فجرح الرجل جراحات كثيرة ورمي به في بئر غير بعيدة القعر وحثوا عليه التراب حتى غطوا رأسه، والكلب مع هذا يهرّ عليهم وينبح، وهم يرجمونه، ثم انصرفوا وهم لا يشكون في قتله، فأتى الكلب إلى رأس البئر، فلم يزل يعوي ويبحث التراب بيديه ومخالبه حتى ظهر

رأسه، وفيه نفس يتردد، وقد كان أشرف على التلف، ولم يبق فيه إلا حشاشة نفسه، فتنفس ووصل إليه الروح، فبينما هو كذلك إذ مر أناس، فأنكروا مكان الكلب ورأوه كأنه يحفر قبراً، فأتوا إليه فنظروا فإذا الرجل في تلك الحال، فاستخرجوه حياً وحملوه حتى أدّوه إلى أهله، فزعم أبو عبيدة أن ذلك الموضع يدعى بئر الكلب.

وحكى صاحب الكتاب عن أبي بكر بن بكر الجوهري قال: حدّثني جعفر بن الوليد الأنماطي قال: كان لي صديق من التجار، فخرج في بعض تجاراته بمتاع، فقطع عليه الطريق فرجع عارياً، فسرت أتوجع إليه وأهنيه بسلامة نفسه، فقال لي: ما ربحت في خرجتي هذه من جميع ما كان معي غير هذا الكلب، فسألته عن قصته وعن خبر الكلب، فقال: جلست في المنزل الفلاني أتغذى فمثل لي هذا الكلب، فألقيت له شيئاً من الطعام، فأكله، وارتحنا فتبعنا، فجعلنا كلما أكلنا أطعمناه، ولزمنا إلى أن قطع علينا، واتبعني فإني لجالس في منزلي وهو رابض بباب الدار، إذ دق الباب قوم، فقمت إليهم وقلت لهم: ما شأنكم؟ قالوا: كلبك هذا قد هرّ على رجل مارّ بالطريق، ومنعه من طريقه، وما ينبغي أن تلزمه بابك، فقلت: ما عهدته بهذه الصورة وخرجت أنظر إلى الرجل ووثوب الكلب عليه، فإذا الرجل أحد من قطع علينا، فقبضت عليه وسرت به إلى السلطان، فرجع إليّ كثير مما أخذ مني ومن الناس.

وحدّث أيضاً عن رجل آخر عدي عليه في الطريق وكتف وجمعت يداه ورجلاه بقيد ورمي به في واد، قال: وأخذ كل ما كان معي، قال: فيئست من نفسي، وكان معي كلب خرجت به من عند أهلي، قال: فتركني الكلب ومضى ثم جاءني برغيف وطرحه بين يديّ، فأكلته، ولم يزل الكلب يعوي حتى أصبحت، وحملتني عيني فنمت، وفقدت الكلب فما كان بأسرع من أن وافاني برغيف آخر، فأكلته وفعلت فعلي في اليوم الأول، فلما كان في اليوم الثالث غاب عني، فلم ألبث أن جاء ومعه الرغيف فرمى به إليّ، ولم يزل بحذائي رابضاً وأنا أنيله من ذلك الرغيف، فما استوفيت أكله حتى طلع عليّ أبي، فلما نظر إليّ بكى وحل كتافي وأخرجني وحملني، فقلت له: من أين علمت بمكاني؟ ومن دلّك عليّ؟ فقال: كان الكلب يأتينا في كل يوم فنطرح إليه الرغيف فلا يأكله، وقد كان معك فأنكرنا رجوعه ولست أنت معه، وكان يحمل الرغيف في فيه ولا يذوقه، ويخرج يعدو ويلزم المحجة، فلما رأيناه أنكرنا ذلك من فعله، فتبعته حتى وقعت عليك، فكان الرجل بعد ذلك يقرّب هذا الكلب، ويجلسه إلى جنبه، ويغطيه بثوبه، ويدخل بدخوله ويخرج بخروجه، ويقول: هذا الذي خلصني بقدرة الله عز وجل.

وهذا الكتاب ألفه أبو بكر محمد بن خلف بن المرزبان، ويرويه عنه أبو عمر

محمد بن العباس بن محمد بن زكريا ابن حيويه الخراز، ويرويه عن أبي عمر أبو محمد الحسن بن علي بن محمد الجوهري، ويرويه عن أبي محمد المبارك بن عبد الجبار بن أحمد الصيرفي. وفي هذا الكتاب قال: كان للربيع بن بدر كلب قد رباه، فلما مات الربيع ودفن جعل الكلب يتضرب على قبره حتى مات. وكان لعامر بن عنترة كلاب صيد وماشية، وكان يحسن صحبتها، فلما مات عامر وتفرق عنه الأهل والأقارب؛ لزمت الكلاب قبره حتى ماتت.

ومن أشعار هذا الكتاب قال: حدّثني أحمد بن منصور الزيادي عن أبيه عن الأصمعي قال: حضرت أعرابياً الوفاة، وفي جانب خيمته كلب، فقال لأكبر ولده وأومأ إلى الكلب:

أوصيك خيراً به فإن له ... صنائعاً لا أزال أذكرها
يدلّ ضيفي عليّ في غسق الـ ... ـليل إذا النار نام مسجرها

وأنشد لبعض الشعراء فقال:

أيها الشاني الكلاب أصغ لي ... منك سمعاً ولا تكونن خيسا
إن في الكلب فاعلمنّ خصالاً ... من شريف الخصال يعددن خمسا
حفظ من كان محسناً ووفاء ... للذي يقتنيه حرباً وحرسا
واتباع له وذبّ إذا ما ... كان نطق الشجاع للخوف همسا
وهو غوث لنابح من بعيد ... مستجير بقفرة حين أمسى

قال أبو بكر: وذلك أن الرجل في البادية إذا ضلّ عن الطريق وهاله الليل ولم يدر كيف يتوجّه وخاف الهلاك؛ نبح نباح الكلاب، فتنبح كلاب الحي، فيتبع أصواتها حتى يصير إلى الحيّ، قال الشاعر:

ويدل ضيفي في الظلام إذا سرى ... إيقاد ناري أو نبيح كلابي
حتى إذا واجهنه وعرفنه ... فدينه ببصابص الأذناب
وجعلن مما قد عرفن يقدنه ... ويكدن أن ينطقن بالترحاب

وأنشد لعمر بن عصام يمدح:

لعبد العزيز على قومه ... وغيرهم منن غامره
فبابك أكبر أبوابهم ... ودارك مأهولة عامره
وكلبك آنس بالطارقيـ ... ـن من الأم بابنتها الزائره

وقال في تفضيل الكلاب:

أشدد يديك بكلب إن ظفرت به ... فأكثر الناس قد صاروا خنازيرا

ومن غير هذا الكتاب قول الشاعر:

الـنـاس مـنـهم كـلاب ... هـرّوا بكـل طـريق
فـإن ظفـرت بحـرّ ... فاحـذره فهـو سـلوقي

كان هذا الشاعر مجيداً منطيقاً في البيتين والثلاثة، ولم يقل هذا الشاعر: الناس منهم إن أصلحته كذا، وإنما قال والله يعفو عنه: الناس طراً، فاستعظمت طراً، وبدلته بـ(منهم)، والله الموفق.

وفي ذم الناس قال المعري وكان أعمى:

أبـا العـلا ابـن سـليمانا ... إن العمـى زادك إحـسانا
لـو أبـصرت عيـناك هـذا الـورى ... لـم يـر إنـسانك إنـسانا

وكانت كنيته أبا العلاء، يخاطب نفسه. ومن الكتاب المذكور؛ ومما يدل على رفعة الكتاب كثرة ما يجري على ألسنة الناس بالخير والشر والمدح والحمد، حتى لقد ذكر في القرآن وفي الحديث والأشعار والأمثال، حتى استعمل في طريق الفأل والطيرة والاشتقاقات للأسماء، فمن ذلك كليب بن ربيعة، ومكالب بن ربيعة، ومكلب بن ربيعة، وكلب بن يربوع. انتهى كلامه.

والذي ذكر الجوهري في الكلب قال: يجمع على أكلب وكلاب وكليب، مثل عبد وعبيد والأكالب: جمع أكلب، والمكلب: الذي يعلم الكلاب، وفي التنزيل: ﴿ مُكَلِّبِينَ ﴾ [المائدة: ٤]، والكلاّب صاحب الكلاب، وأنشد:

كـأنّ تجـاوب أصـدائها ... مكـاء الكـلاب يدعـو الكليـبا

وأختم لك في هذا الفصل في الكلب الأسود بمسألة نحوية جدلية هزلية ظريفة غزلية، وإن كانت مثبتة في التكميل فكم بينك وبينه من ميل. وجدت بخط الخطيب أبي محمد عبد الوهاب رضي الله عنه:

أحـبّ لحـبّها الـسّودان حتّـى ... أحـبّ لحـبّها سـود الكـلاب

لا يجوز النصب في قوله: حتى أحبّ، لأنه إنما اشترط دوام حبه لمحبوبته، وأنه يألف من يشبهها في اللون وإن خلفها في الحسن، ومن كان على هذا فحبه دائم لا ينقطع مستمرّ لا يقلع، فلو نصب: أحبّ، لنقض ما أصل ونقص ما أكمل، لأنه كان يعتقد الغاية، وهي انتهاء الشيء إذا انتهى، ومن ثم لم يبق له رسم ولا يعرض له وهم، وربما استحال إلى ضدّه لخروجه عن محكم عقده، لو حكمت يا هذا بالأجود لأرحته من هوى الكلب الأسود، إذ لو نصب لرفع عن نفسه النصب، وسلا واستراح ولن يحفل بما غدا أو راح، ولكان النصب يرع غرام قلبه ويقطع دوام حبه، حين أبعد الغواية

واعتقد الغاية، ومن بلغ النهاية كان أحرى أن يرجع القهقرى:

كل أمر إذا تناهى تواهى — وانتقاص البدور عند التمام

هذا ما انتهى فيه القول من وصف الكلب الأسود.

وأما هول السبع المسمى بالأسد الذي ذكرته قبل الرجز؛ فذهني عن وصفه قد عجز، ويكفيك منه في هذا الرسم أن له مائة اسم، وإن أردت أن تتيقن صفته وتتبين معرفته؛ فانظر ما قيل في وصفه، فاعجب من رصفه خرج أبو علي صاحب الأمالي في الذيل عن أبي عبيدة قال: اجتمع عند يزيد بن معاوية أبو زبيد الطائي وجميل بن معمر العذري والأخطل التغلبي، فقال: أيكم يصف لي الأسد في غير شعر؟ فقال أبو زبيد: أنا يا أمير المؤمنين، لونه ورد وزئيره رعد. وقال مرة أخرى: رغد. ووثبه شد وأخذه جد، وهو له شديد وشره عتيد ونابه حديد، وأنفه أخشم وخده أدرم ومشفره أدلم، وكفاه عراضتان ووجنتاه ناتئتان وعيناه وقادتان، كأنهما لمح بارق أو نجم طارق، إذا استقبلته قلت أفدع، وإذا استعرضته قلت أكوع، وإذا استدبرته قلت أصمع، قصير إذا استقصى همرس إذا مشى، إذا أقعى كمش وإذا جرى طمس، براثنه شثنة ومفاصله مترصة، مصعق لقلب الجبان مروّع للماضي الجنان، إن قاسم ظلم وإن كابر دهم وإن نازل غشم، ثم أنشأ يقول:

خبعثن أشوس ذو تهكم — مشتبك الأنياب ذو تبرطم

وذو أهاويل وذو تجهم — ساط على الليث الهزبر الضيغم

وعينه مثل الشهاب المضرم — وهامه كالحجر المثلم

فقال: حسبك يا أبا زبيد، ثم قال: قل يا جميل، فقال: يا أمير المؤمنين، وجهه فدعم وشدقه شدقم وثغره معردم، مقدمه كثيف ومؤخره خطيف ووثبه خفيف وأخذه عنيف، عبل الذراع شديد النخاع مردٍ للسباع، مصعق الزئير شديد المرير، أهرت الشدقين مترص الخصرين، يركب الأهوال ويهصر الأبطال ويمنع الأشبال، ما إن يزال جاثماً في خيس أو رابضاً على فريس أو ذا ولغ ونهيس، ثم قال:

ليث عرين ضيغم غضنفر — مداخل في خلقه مضبر

يخاف من أنيابه ويذعر — ما إن يزال قائماً يزمجر

له على كل السباع مفخر — قصاقص شثن البنان قسور

فقال: حسبك يا ابن معمر، ثم قال: قل يا أخطل، فقال: ضيغم ضرغام غشمشم همام، على الأهوال مقدام وللأقران هضام، ريبال عنبس جريء دلهمس ذو صدر مفردس، ظلوم أهوس ليث كروس، ثم قال:

قصاقص جهم شديد المفصل ... مضبر الساعد ذو تعثكل
شرنبث الكفين حامي أشبل ... إذا لقاه بطل لم ينكل
ململم الهامة كمش الأرجل ... ذو لبد يغتال في تمهل
أنيابه في فيه مثل الأنصل ... وعينه مثل الشهاب المشعل

فقال له: حسبك، وأمر لهم بجوائز. قوله: إذا لقاه بطل، هي لغة في لقيه، ومثله فنا في فني، وبقا في بقي، وقد تقدّم مع الشاهد عليه في تفسير بيت امرئ القيس. قلت: انظر كلام هؤلاء الرجال على الارتجال، وكيف أجابوا وهم عجال، ولو أرخى لهم في الطول وأمهلوا بعض المهل؛ لجاؤوا بالعلل بعد النهل، ولو لم يسكتهم يزيد لجاؤوا بما ليس له مزيد، وإلا فانظر كلام أبي زبيد قبل هذا أيضاً، والحديث يشبه بعضه بعضاً، وكيف وصف الأسد لعثمان بن عفان رضي الله عنه بعد أن خلصه الله منه، وقد سقت الخبر بطوله لتقف على مهوله. قال عثمان بن عفان رضي الله عنه لأبي زبيد الطائي رحمه الله: يا أخا تبع أسمعنا بعض قولك، فقد أنبئت أنك تجيد، فأنشد قصيدته التي يقول فيها:

من مبلغ قومنا النائين إذ شحطوا ... أن الفؤاد إليهم شيق ولع

ووصف فيها الأسد، فقال له عثمان: تالله تفتأ تذكر الأسد ما حييت، والله إني لأحسبك جباناً هواناً، فقال: كلا يا أمير المؤمنين، ولكني رأيت منه منظراً وشهدت منه مشهداً لا يبرح يتجدد ذكره في قلبي، فأنا معذور يا أمير المؤمنين غير ملوم. فقال عثمان: وأين كان ذلك؟. فقال: خرجت في صيانة أشراف من أبناء قبائل العرب ذوي هيبة وشارة حسنة ترتمي بنا المهاري بإكسائها، ونحن نريد الحارث بن أبي شمر الغساني ملك الشام، فاخرورط بنا المسير في حمارّة القيظ، حتى إذا عصبت الأفواه وذبلت الشفاه وسالت المياه؛ وأذكت الجوزاء المعزاء؛ وذاب الصيهد وصرّ الجندب؛ وضاف العصفور الضب في وجاره؛ وقال قائلنا: أيها الركب غوروا بنا في ضوج هذا الوادي؛ وإذا وادٍ قد تيممناه، كثير الدغل دائم الظلل، شجراؤه مغنّة وأطياره مرنّة فحططنا رحالنا بأصول دوحات كنهبلات، فأصبنا من فضلات الزاد وأتبعناها الماء البارد، فإنا لنصف حرّ يومنا ذلك ومماطلته، إذ صر أقصى الخيل أذنيه، وفحص الأرض بيديه، فوالله ما لبث أن جال ثم حمحم فبال، ثم فعل فعله الفرس الذي يليه واحداً فواحداً، فتضعضعت الركاب وتكمكمت الخيل، وتقهقرت البغال، فمن ناقر بشكاله وناهض بعقاله، فعلمنا أن قد أتينا وادي السبع، ففزع كل امرئ منا إلى سيفه، فاستله من جربانه، ثم وقفنا رزدقاً، فأقبل يتظالع من بغيه كأنه مجنوب، أوفي هجار لصدره نحيط ولبلاعيمه غطيط، ولطرفه وميض ولأرساغه نقيض، كأنما يخبط هشيماً

أو يطأ صريماً، وإذا هامة كالمجنّ وخدّ كالمسنّ، وعينان سجراوان كأنهما سراجان يتقدان، وقصرة ربلة ولهزمة رهلة، وكتد مغبط وزور مفرط، وساعد مجدول وعضد مفتول، وكف شثنة البائن إلى مخالب كالمحاجن، فضرب بيديه فأرهج، وكشر فأفرج عن أنياب كالمعاول مصقولة غير مفلولة، وفم اشدق كالغار الأحرق، ثم تمطى فأسرع بيديه وحفز وركيه برجليه، حتى صار طوله مثليه، ثم أقعى فاقشعرّ، ثم مثل فاكفهرّ، ثم تجهّم فازبأرّ، فلا والذي بيته في السماء ما اتقيناه إلا بأخ لنا من فزارة كان ضخم الجزارة، فوقصه ثم نفضه نفضة قضقض متنه، فجعل يلغ في دمه، فذمرت أصحابي، فبعد لأي ما استقدموا، فكرّ مقشعراً بزبره، كان به سهماً حولياً، فاختلج رجل أعجر ذا حوايا، فنفضه نفضة تزايلت مفاصله ثم نهم ففرفر ثم زفر فبربر، ثم زأر فجرجر، ثم لحظ، فوالله لخلت البرق يتطاير من تحت جفونه من عن شماله ويمينه، فأرعشت الأيدي واصطكت الأرجل، وأطت الأضلاع وارتجت الأسماع وجمحت العيون وخفقت البطون، وساءت الظنون. فقال عثمان رضي الله عنه: اسكت قطع الله لسانك، فقد أرعبت قلوب المسلمين. هذا حديث كبير وفي شرحه علم كثير، تركته لك دون شرح إلى أن يأتيك الله من عنده بالفتح. وقلت:

بني هذا الحديث عدّه ... فيه لغات كالرمل عدّه
سل عنه من رام أن يعدّه ... فلم يطق حصره وعدّه
ألقى عليه منشيه عقده ... فاقرأ عسى أن تحلّ عقده

أظنك أيها الولد لا تعرف من ألفاظ هذا الحديث سوى الأسد، اللهم وإلا الخيل والبغال، وأحسبك تشك في الشكال والعقال، ومع ذلك فاحفظه سواداً في بياض، واكرع مع الورّاد في تلك الحياض، إلى أن يفتح الله لك في علم تفهم فيه هذه الأغراض، ولا تدعه بالإعراض، فتبقى أيها الشهم لا حفظ ولا فهم، ليس لك في الأدب سهم، فإن كان بك همة إلى أن تعرف معناه؛ وجئت مغزاه ومعناه؛ وأين أصله من كتب الأدب ثابت؛ فانظره في الدلائل لثابت، وقد حداني شغفي بألفاظ هذا الحديث إلى أن قلت فيه:

قد قلت قولاً وليس هزلا ... يا صاحبي اسمع فأنت عاقل
رأيت في ذا الحديث فصلا ... أتاك في الليث وصف قائل
به كلام يعدّ جزلا ... إذا تراه تقول هائل
رمى عليه الطائي قفلا ... فسره عالم وفاضل
فثابت حل ذاك حلا ... أعني به صاحب الدلائل

لــولاه كــان الحــديث غفــلا أعطــاه مــولاه كــل طائــل
جــزاه ربــي خيــراً وفــضلا مــن أعظــم الخيــر والفــضائل
ونــال مــنه بــراً ووصــلا بالبكــر والغــدو والأصــائل

أعزك الله لا تحتقر هذه الثمانية الأبيات فإنها لزوميات، إن قرأت السطر من أوّله إلى آخره كان بقافيتين، وإن قرأت النصف الأوّل من البيت وما تحته إلى آخرها كانت الأبيات أربعة كذلك بقافيتين، ثم ترجع إلى السطر الذي تركته إلى آخر السطر فتقرأه كذلك وما تحته إلى آخره فتجده كذلك مثل الأوّل، وقام كل بيت بنفسه ولم يفتقر إلى غيره، مثال الأوّل:

قــد قلــت قــولاً ولــيس هــزلاً رأيــت فــي ذا الحــديث فــصلا

ومثال الثاني:

يــا صــاحبي اســمع فأنــت عاقــل أتــاك فــي اللــيث وصــف قائــل

فيا أخي كل ينفق مما أولاه مولاه، ولم يسوّ الله سبحانه بين العباد بل فضل بعضاً على بعض، حتى في الأزمنة والبلاد، هذا أبو زبيد قد قال بالطبع ما وقر منك في السمع، وليس بغريب فصاحة عربي في زمانه لأنها لغة لسانه، لم يتعلمها بكتابة ولا دراسة ولا لقنها بتمرين ولا سياسة، بل أخذها الولد عن الوالد والطريف عن التالد، ولو كلف أحدهم أن ينتقل إلى مثل لغتنا لما قدر، كما لا ننتقل نحن إلى لغتهم إلا بعد النظر والفكر والسمر والسهر، وبالحريّ أن نقفو آثارهم ونلحق غبارهم، فتستغرب الفصاحة منا والبيان في مثل هذا الزمان، مع اللسان الفاسد والذهن الراكد، ومع الخلط المبرد والخليط المبعد، لذلك لا توجد الفصاحة في ذا الزمن إلا عند من ومن ممن منّ بها عليه الملك الوهاب، مثل شيخنا الفقيه الخطيب أبي محمد عبد الوهاب، خصصته بالذكر لأنه إمامنا وزمنه زماننا، وعليه كانت الدورة وإليه كانت الزورة، فأذكر لك هنا فصلاً من رسالة كتب بها إليّ وتفضل بها على جواب كلام كتبته إليه، فإذا اطلعت عليه استدللت بذلك على معرفته وفضله وحذقه بالأدب ونبله، ووقفت من رونق كلامه وطلاوته على رقة طبعه وحلاوته، وإن أثبتها في الملح فهو أملح.

قال لي رضي الله عنه بعد كلام وبسملة وسلام: صلح في بعض الأعوام زرعي حتى ضاق منه ذرعي، وبقربنا غيران فيها جمع كثير من الفئران، فعندما حصلت الأرزاق في الغرفة توزعها الفساق بالغرفة، فلما عاملوني بالفسوق أعملت القدم إلى السوق، وناديت في أحفله أسمع من بأعلاه وأسفله: يا أوجه الدنانير هل عندكم سنانير؟ فإذا برجل يمشي على عجل، وعنده هرّ أسود كالقار، أسمعت بجبة البقار،

فقال لي: هذا الهر من شأنه كيت وكيت، وسترى إذا ولج البيت، فابتعته منه بكل محبوب شفقة على الجيوب، واحتملته على الفور لا أدري أليث أم سنور، سوى أنه مصبور المتن عريض الزور، عبل الذراعين حديد نظر العين، مصمت العظام ذو مخالب عظام، وربما اختطف بها مسامير الأوضام، إذا بدا فتمثل الليث، وإذا عدا فتخيل الغيث، أخف الضياون نهضه وأثقفهم عضه، ثم يكشر عن أنياب فيكبت فيرانك في الغاب، يرميهم بها وما لديه من رزق، ويختطفهم وليس سوى مقلتيه البرق، عنده في الصيد أعظم الكيد، يأتي بمكر الثعلب عند عسر المطلب، وانقضاق العقاب عند انخفاض الأثقاب، يتقاعس في الوهد كأنه في المهد، وإذا كان في ذرى المطالع فكسيد الغضا إذ يأتي كالمتظالع، يتعاشى فيتلاشى حتى إذا أمكنته الفرصة لم يدعها وإن لوحت له بقرصة، بل يحمل حملة الحوت الملتقم ويفعل فعلة الطاغي المنتقم، فكم إهاب مزقه وناب بالفؤاد ألزقه، في كلام عجيب مثل هذا.

وبعد هذا قال في آخره: نعوذ بالله من شر القدر ونحمده عدد الحصى والمدر، ونستغفره من هذا الهذر، ونسأله أن يجعلنا من الموت على حذر، وصلى الله على سيدنا محمد سيد البشر ما أضاء نور الشمس وانتشر. اختصرت لك هذه الرسالة من كمالها، ولو رأيتها بجملتها عجبت من جمالها، كما لو عاينت رسالتي لعجبت من قلة جزالتي، ولكن لا بدّ أن أذكر لك هاهنا منها شيئاً نزراً، ومن جوابه عليها سطراً، كان رضي الله عنه قد أمرني أن آتيه بسنور، حين جارت عليه الفئران أيما جور، ونعوذ بالله من الحور بعد الكور، فأرسلت به إليه وكان درساً، وكتبت إليه طرساً:

يا خير عجم وعرب ... هل لك في هر أرب
إذ رأى الفأر هرب ... وإن رأى الخبز اقترب

من أرجوزة مطوّلة فوق السبعين، وكان أوّل رسالته إليّ بعد شعر طويل ونثر نبيل: لا كان هذا الضيون ومثله لا يكون، جزاء هذا القط أن تستأصل أذناه بالقط، وبالحريّ أن يكون هذا حديداً إذا ذاق حديداً، وتمادى كذلك في ذمه ولم يرغب في ضمه، إلى أن بلغ بطاقته إلى وصف الهر الممدوح في بطاقته، واختصرت ذلك أيضاً بعد أن شوّقتك لما ذوّقتك، ولتجرب نفسك فهذا وقتك، وما زال أهل الأدب ممن ومن على قديم الزمن؛ يكتبون الرسائل في كل فن، ويسحبون فيها الذيل الرفن. هذا ثابت رحمه الله قد خرّج في الدلائل: أنشد خلف الأحمر في هذا المعنى، وأظنها لخلف الكاتب، يرثي هراً له مات:

رماني الدهر بكل معضله ... ونال مني صرفه ما أمله

مــا هكــذا كــنت عهــدت أوّلــه ... وكـــان لــي هــرّ يــسمى حلحلــه
أســـود ذو بــــراثن مدلـلــــه ... مــــا حــــازه بطــرفه فهــو لــه

قوله: ما حازه بطرفه فهو له، ينظر إلى قول ابن المعتمر في صفة كلب:

قــد وثــق القــوم لــه بمــا طلــب ... فهــو إذا حــل لــصيد واضــطرب
عـــروا ســـكاكينهم مـــن القـــرب

وأوّل من سبق إلى هذا المعنى امرؤ القيس، قال:

إذا مــا ركبــنا قــال ولــدان أهلــنا ... تعالــوا إلــى أن يأتــي الـصيد نحطـب

ومن كلام الشيخ الفقيه الزاهد أبي عمران موسى بن عمران القيسي الميرتلي رضي الله عنه في الهر: نعم الجليس الهرّ لا يخبر ولا يستخبر ولا يبوح بسر، يحفظ سرّك عليك ولا ينقل عنك ولا إليك، كريم المؤانسة سليم المجالسة، لا يهمز ولا يلمز ولا يغتاب ولا صاحبه منه بمرتاب، يحفظه إذا نام ويطرد عنه الهوام، منافعه كثيرة ومؤنته يسيرة، فاقتصر عليه أنيساً واتخذه جليساً، يسلم لك معه دينك ودنياك وإياك أن تفارق موضعك إياك، فهو أنفع لك من كثير من إخوانك وأحرس من خدمك وأعوانك.

نعــم الجلــيس ونعــم الأنــيس ... ونعــم المعــدّ لدفــع الأذى
يجــوس البــيوت لدفــع الهــوام ... إذا عــسعس اللــيل واجلــوّذا
ونعــم الــضجيع لمــستدفئ ... إذا كلــب القــرّ واســتحوذا

وأنا أيضاً أدلي دلوي في الدلاء وإن لم أكن من الأدلاء، وأقول لنفسي حين أردت أن أرعى في ذلك المرعى: استنت الفصال حتى القرعا، مات لنا هرّ فسئلت أن أقول فيه شعراً على طريقة الزهد، فقلت في ذلك شعراً بذلته على قافيتين(*)، فصارت فيه الفئة فئتين، وهو هذا:

ألا اسمع كلاماً فيه منفعة إذا ... تذوّقته (لم تلف في طعمه أذا) ألفيت شهداً بل أطيبا
ورب كـلام يستحق تبعدا ... وآخر (أهل أن ينحى وينبذا) أيضاً يستحق تقربا
وهل يستوي في اللين جلدة أرنب ... وجلدة ذا المدعوّ في الناس (قنفذا) أرنبا
وأنت كما لا تقرن الدر والحصى ... كذلك لا تقرن (عياً وجهبذا) خبيثاً وطيبا
وإني امرؤ إن قلت شعراً فحكمة ... (وليس بحمد الله فحشاً ولا بذا)كبيراً بحمد الله أو زمن الصبا
وقد آخذ الشيء المحقر قدره ... (فأسبك منه لؤلؤاً وزمردا) فأسبكه مفضضاً ومذهبا

(*) هاتان القافيتان إحداهما ذالية والأخرى بائية، فأما الأولى فظاهرة وأما الثانية فتحذف ما بين القوسين وتقرأ بدلها ما بعدها.

وخير كلام المرء ما كان صادقا	ولم يك مأفوكاً مطرّاً (مشعوذاً) مكذبا
فأجدر بإفك أن يذم وينبذا	وأخلق بصدق أن يضم (ويؤخذا) ويصحبا
وكان لنا هزّ فأصبح ميتا	فقلت لنفسي (ويحك اعتبري بذا) إن في موت ذانبا
ألا فانظريه لا حراك بجسمه	كأن لم يكن يجري (على الأرض قبل ذا) طليقاً مسيبا
ولم يك طوّافاً عليك محببا	إليك ترين اللهو منه (تلذذا) تعجبا
فها هو منبوذ إلى جنب حائط	مهاناً ومطروحاً (كما يطرح الأذا) منحى مجنبا
إذا ريء قال الناس أف لجيفة	وقد كان قبل اليوم يسمع (حبذا) مرحبا
وقد كان في حجر الغواني مجلسا	وقد كان محفوظاً مفدى (معوّذا) محببا
فإن قلت ذا هزّ فإنك مثله	تذوقين (من ذوق المنية ذوق ذا) كأسا أهلك الأم والأبا
وقد سل منه الروح من كل شعرة	ولا بد أن ينسل منك (ويجبذا) ويجذبا
فتنسين ما قد كنت قبل رأيته	(ونعمت فيه من لباس ومن إذا) ونعمته لبساً وأكلاً ومشربا
فيا خجلتا إن سيل مم اكتسبته	ويا حسرتا إن قيل (أنفق فيم ذا) لي فيم سربا
ولا بدّ من هذا فأما بهيمة	فليس عليها (من حساب ولا عذا) أن تسأل وتطلبا
فيا ليتني إذ مت كنت كمثله	تراباً ولم أسأل ويا ليتني (قذا) هبا
وأعلم أني ميت ومحاسب	فيا رب كن مما (أحاذر منقذا) أخاف منكبا
ويسر حسابي بالنبي محمد	أعز الورى من (احتفى ومن احتذا) احتذى ومن احتبا
فكل امرئ يحتاج يمسي فؤاده	ويصبح من خوف الحساب (مجذذا) قد أكربا

ولي من هذا النوع المبدل على قافيتين؛ وعلى ثلاث؛ وعلى أربع؛ وعلى خمس؛ وعلى ست؛ وعلى أكثر؛ وحروف المعجم كلها، أكثر من ألف بيت، وقد قال الفقيه الخطيب أبو محمد من ذلك أيضاً شيئاً كثيراً. وقد تقدّم لي بعض ذلك، وسيأتي غيره إن شاء الله تعالى. أقول هذا كله لتنشط فتصنع مثله، أخشى أن تنشدوا يا أولادي:

لقد أسمعت لو ناديت حياً	ولكن لا حياة لمن تنادي

فائدة في الاختصار

مبحث الاختصار :

تقدّم في الشعر: ولا عذا أراد ولا عذاباً، فحذف لعلم السامع، ومن مذهب العرب الاختصار، وقد جاء في الحديث من قول النبي صلى الله عليه وسلم: كفى بالسيف شا. أراد: شاهداً، فحذف اتكالاً على فهم المخاطب.

ومثله من الاختصار ما خرّجه أبو داود عن النبي صلى الله عليه وسلم: الطيرة شرك، ثلاثاً. قلنا: وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل. يريد؛ والله أعلم: وما منا إلا من يجد ذلك. ومثله ما خرجه البزار من حديث أبي الدرداء قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأسه يقطر، فصلى بنا في ثوب واحد متوشحاً به، قد خالف بين

طرفيه، فلما انصرف قال له عمر: تصلي في ثوب واحد وفيه؟. قال: نعم أصلي فيه وفيه. يعني: الجنابة.

ومثله قول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة: ادني مني. فقالت: إني حائض. فقال: وإن. أراد: وإن كنت حائضاً.

ومثله ما خرّج الترمذي بسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من طلق لاعباً وأعتق لاعباً فقد. يريد؛ والله أعلم: فقد لزمه. وقال الشاعر:

من شاذليّ النفس في هوّة ضنك ولكن من له بالمضيق

أراد: من له بالخروج من المضيق. وهذا كثير، ولأبي محمد عبد الوهاب في هذا فصل جزل ذكرته في التكميل.

فصل:

في التوبة:

قال الله تعالى: ﴿ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [التحريم: ٨]، وقال عليه الصلاة والسلام: أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم مائة مرة، خرجه مسلم. ومن غير مسلم قال عليه الصلاة والسلام: إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في كل يوم مائة مرة. فسّر هذا الحديث بعض العلماء، قال: الغين: شيء يغطي القلب بعض التغطية، فهو كالغيم الرقيق الذي يعرض في الهواء فلا يكاد يحجب عين الشمس ولا يمنع ضوءها، أشار بعض الناس إلى أنه كان صلى الله عليه وسلم ينقل من حال إلى ما هو أرفع منه، فإذا رفع إلى درجة رأى ما نقل عنها تقصيراً في واجب حق الله، فرأى ذلك غيناً يجب له الاستغفار منه. وفي الجملة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أرفع الخلق رتبة عند الله وأعلاهم منزلة.

روى ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله تعالى قسم الخلق قسمين، فجعلني في خيرهما قسماً، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴾ [الواقعة: ٢٧] فأنا من أصحاب اليمين وأنا خير أصحاب اليمين، ثم جعل القسمين أثلاثاً، فجعلني في خيرها ثلثاً، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ [الواقعة: ٨-١٠]، فأنا من السابقين، وأنا خير السابقين، ثم جعل الأثلاث قبائل، فجعلني في خير قبيلة، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [الحجرات: ١٣] الآية، فأنا أتقى ولد آدم

وأكرمهم على الله ولا فخر، ثم جعل القبائل بيوتاً، فجعلني في خيرها بيتاً، فذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. فأخبر أنه خير الخلق كلهم صلى الله عليه وسلم.

وفي البخاري: إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تعالى تاب الله عليه. وجاء مصدر هذا الفعل في القرآن على توب كقوله تعالى: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ ﴾ [غافر: ٣]، وعلى متاب كقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ [الفرقان: ٧١]، وعلى توبة كقوله تعالى: ﴿ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ [التحريم: ٨]، ومعنى نصوحاً: خالصة، مأخوذ من النصح، وجاءت على فعول للمبالغة في النصح، وقرئت: نصوحاً، بضم النون، مشتقة من النصاح وهو الخيط، أي: مجردة لا يتعلق بها شيء ولا تتعلق بشيء، وهي الاستقامة على الطاعة. وسئل الحسن البصري رضي الله عنه عن التوبة النصوح، فقال: هي ندم بالقلب واستغفار باللسان وترك بالجوارح وإضمار أن لا يعود. وقال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله: ليس شيء من الأشياء أوجب على الخلق من التوبة. وقال: من قال إن التوبة ليست بفرض فهو كافر. وقال أيضاً: التائب الذي يتوب من غفلته في الطاعات في كل طرفة ونفس.

قلت: ولعل توبة النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان يتوب في اليوم مائة مرة، كما تقدّم، كانت من نحو هذا، والله أعلم. وللتوبة شروط لا تكمل إلا بها: أوّلها الإقرار بالذنب ثم الاعتراف بالذنب، ومقت النفس على الهوى، وحل الإصرار الذي كان عقده على إعمال السيئات، وإطابة الغذاء بغاية ما يقدر عليه، والندم على ما فات، واعتقاد الاستقامة على الأمر ومجانبة النهي، واستبدال السيئات بالحسنات، ويدخل في هذا استبدال الأصحاب السوء بالصالحين، ثم دوام الحزن على ما كان منه من القبيح، ثم المسارعة للخيرات إلى الممات.

قلت: ولا تستقلن هذا ولا تستكثرنه، فإنك تتعرض لمحبة الله تعالى، ألم تسمع قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ومحبة العبد لله عمله بطاعته وانتهاؤه عن معصيته، ومحبة الله للعبد رحمته إياه، كذا فسر في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، قال الحسن: نزلت في قوم من أهل الكتاب قالوا: نحن الذين نحب ربنا، ولي في معنى حب الله تعالى:

ظن قوم بأن حبي إلهي ... مثل ما يحبب الأنيس أنيسه

غلطوا في القياس ما مثله يشبه ... شيئاً فيقتضي أن تقيسه
وكذا حبه يجل عن الوصف ... تعالى عن الصفات الخسيسه
إنما حبه لمن كان أهلاً ... للمعالي وللمعاني النفيسه
كل من كان للمحبة أهلاً ... حبه يلزم النفوس الرئيسه

وسئل أبو محمد سهل رحمه الله: متى يكون التائب حبيب الله تعالى؟. فقال: حتى يكون كما قال الله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾ [التوبة: ١١٢] الآية، ومن رحمة الله تعالى وكرمه أنه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، ويقبل توبة العبد ما لم يغرغر، فالحمد لله على هذه النعمة.

وقد خلق الله تعالى ابن آدم كما قال: ﴿عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١] فلا يتماسك وهو مفتن توّاب، لكن برحمته جعل له التوبة تطهيراً مما سبقها من السوء، كما جعل له الماء طهوراً من الأحداث، فمن أحدث بقلبه تاب فتطهر، كما إذا أحدث ببدنه استعمل الماء فتطهر، والعاقل يودّ أنه لا يحدث أبداً، فإذا كانت ضرورة بادر إلى التوبة بحسب الإمكان، فإذا هو قد عاد كما كان ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، له الحمد شكراً وله المن فضلاً. وقال بعض الصالحين: من يسر للتوبة لم يمنع المغفرة. وقال الشعبي: مثل الذنب والاستغفار كمثل الداء والدواء والشفاء، فالذنب هو الداء، والاستغفار هو الدواء، والتوبة هي الشفاء. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: العجب لمن يهلك والنجاة معه، قيل: وما هي؟ قال: الاستغفار. وقالت عائشة رضي الله عنها: طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً. وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: ما ذكر العبد خطيئة عملها فوجل قلبه منها فاستغفر الله إلا محاها عنه. وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيما أفضل ما يعطيه الله للعبد إذا أحبه؟ قال: يلهمه الاستغفار. وقال محمد بن علي رضي الله عنه: يا بنيّ إذا أنعم الله عليك فقال: الحمد لله، وإذا أحزنك أمر فقل: لا حول ولا قوة إلا بالله، وإذا أبطأ عنك رزق فقل: أستغفر الله. وقال أبو عمران السلمي:

وإنـي لرائي الذنب أعرف قدره ... وأعلم أن الله يعفو ويغفر
لئن عظم الناس الذنوب فإنها ... وإن عظمت في رحمة الله أصغر

تفكرت فيما يتضمن هذا الفصل من الفضائل في ذكر التوب، وما تضمن الذي قبله من الرذائل والحوب، وفي تعطيل الوقت بذكر الكلب والسنور، وأعوذ بالله من الحور بعد الكور، فحملني ذلك على أن صنعت أبياتاً أثبتها في هذا الورق أعتذر فيها

وأستغفر الله مما سبق، وهي:

كم بين ذا الفصل وما قبله ... ذلك قصدير وهذا ورق
لكنني أعجبني ذا لكم ... من أجل ذا أثبته في الورق
فالعين تلتذ ونفسي لما ... تقذفه الأذن لها تسترق
فإن يكن شراً فذا بعده ... خير وفي أنواره يخترق
والعبد إن تاب إلى ربه ... فذنبه في عفوه يحترق
يا رب ذا عبدك مستغفر ... داع بقلب منضج محترق
فاجعل إلهي ما دعاكم به السـ ... ـسبع السماوات العلى يخترق
وفرّق الشر الذي فيه قد ... جمع واجمع خيره المفترق
حتى ينال التوب مما جنى ... ويستفيد الأمن مما فرق

فصل:

وتقدّم الفالية، والفالية: المرأة التي تفلي الرأس، ومنه قول أعرابي أيضاً عيّر ببنت وولد له:

ماذا عليّ إن ولدت جاريه ... تُمشط رأسي وتكون فاليه
خير من ابن عاره علانيه ... يجرّ في كل أوان داهيه

وعلى هذا المعنى قول قتادة رضي الله عنه: ربّ جارية خير من غلام، وربّ غلام كان هلاك أهل بيته على يديه. وذكر عن بعض التابعين أنه قال: ربّ جارية محمودة الأخلاق طاهرة الثياب سعيدة العواقب، جامعة شمل أهلها، يخلق الله تعالى منها النسل الزكي والذرية الطيبة، وربّ غلام طالعه النحوس ومنشوه الريب، عاقّ لوالديه، حياته داء وموته شفاء. وعيّرت امرأة بمثل ذلك فقالت:

وما عليّ أن تكون جاريه ... تحفظ بيتي وتضيء ناريه
وترفع الساقط من خماريه ... حتى إذا تمت لها ثمانيه
أو تسعة من السنين الوافيه ... زوّجتها مروان أو معاويه
أزواج صدق ومهور غاليه

وعاب أعرابي امرأة له ببنت ولدتها له وكان اسمه عروة، فقالت:

تلومني أن لم ألد غلاما ... نجداً هزبراً بطلاً مقداما
يمارس الصعدة والحساما ... عروة مه لا تكثر الملاما
إلا أكن ولدته قمقاما ... مواتياً مقدّماً إماما
فإنها تقتنص الضرغاما ... والملك المتوّج الهماما

وتأســـــر العقــــــول والأحـلامــــا

وغاضب آخر امرأته واعتزل عنها في بيت وجفاها من أجل ذلك، وكان يكنى أبا حمزة، فقالت:

مـــا لأبـــي حمـــزة لا يأتيـــنا يظـــل فـــي البـيت الـــذي يليـــنا
غـــضبان أن لا نلـــد البنيـــنا وإنّمـــا نأخـــذ مـــا أعطيـــنا

وباختـــيـــار الله قـــــد رضـــيـنـــا

فسمع ذلك فاتعظ ورضي عنها. وقال آخر لامرأته: ولدتيها تمان ولا تمون وتصان ولا تصون وتزدريها العيون. فقالت: بل ولدتها تنفج مال أهلها وتعمر بيت بعلها وتسره بدلها. معنى تنفج مال أهلها، أي: تعظمه وتكثره، وكانت العرب يأخذ الرجل مهر ابنته إبلاً فيدخلها في ماله، ولذلك كانوا يقولون للرجل تولد له الجارية: هنيئاً لك بالنافجة. قلت: وقد قيل في النساء كثير منهم من يذمهنّ ومنهم من يضمهنّ، وكل ينفق من ماله وينطق عن حاله، فمن استغنى مدح، ومن استعنى قدح، وليس ذو الشرخ في هذا الفن الساحب الذيل الرفل كمثل الشيخ اليفن، هذا يباح له في الصيام التقيبل وذاك يزاح عن الكلام إلا في قيل، وهل يستوي الشبان ومن ذهب منه الأطيبان؟.

فصل:

مبحث ذم النساء:

وقد ذم جماعة النساء بعض الحكماء من القدماء، قال: هن نار توهج، وسلم إلى كل بلاء، وهنّ مثل شجرة الدفلى لها رونق وبها، فإذا أكله البعير أدّاه إلى الثوى. ومن أمثالهم: طاعة النساء تردي العقلاء وتذل الأعزاء. ونظر بعض الصالحين إلى امرأة تتزين وتتعطر، فلما فرغت من زينتها ظهرت محاسنها وزاد جمالها، فقال لمن حوله: إنما المرأة مثل النار، إذا زيد في حطبها تأججت واشتد حرها وضاءت للناس، فهي حسنة المنظر تحرق من دنا منها. وقال بعض الحكماء: الكيّس من لم تضطره النساء. وقال أيضاً: من كانت لذته في النساء وقع في أعظم البلاء. وقال: من أراد أن يعيش عيشاً رغداً ويحيا حياة بلا نكد فلا يشغل فكره بشهوة النساء، ولا يومي إليهن بطرفه ولا يده. وقال: كل أسير يفتكّ إلا أسير النساء فإنه غير مفكوك، وكل مالك يملك إلا مالك النساء فإنه مملوك، وما استرعين شيئاً قط إلا ضاع، ولا استؤمنّ على شيء إلا ذاع، ولا أطعن شراً فقصرن عنه، ولا حوين خيراً فأبقين منه، فقيل له: كيف تذمهن ولولاهن لم تكن أنت ولا أمثالك من الحكماء؟ فقال: مثل المرأة مثل النخلة الكثيرة

السلاء لا يلامسها جسد إلا اشتكى، وحملها مع ذلك الرطب الطيب الجنا. والسلاء: جمع سلاة، وهي شوك النخل، وسيأتي في باب السين واللام.

وروي فيهن: إنهن محملو الأصار ومكلفو الأوزار وأكثر أهل النار، ولا يصبر عليهن إلا الأخيار، وإنهن يسرعن اللعن ويكثرن الطعن. وفي صحيح الحديث: ويكفرن العشير وينكرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط.

وقال لقمان: استعذ بالله من شرار النساء، وكن من خيارهن على حذر. وقيل لبقراط: أي السباع أحسن صورة؟ فقال: النساء. ورأى امرأة قد ذهبت إحدى عينيها فقال: قد ذهب نصف الشر. ورأى البحر قد حمل امرأة فقال: شر يجني شراً. ورأى رأس امرأة على شجرة فقال: ليت كل الشجر يثمر مثل هذا الثمر. ونظرت عجوز من الفلاسفة إلى رجل يريد أن يعرس، وقد زين داره وزوّقها، وكتب على الباب: لا يدخل عليّ هذا الباب شيء من الشر، فقالت له العجوز: فامرأتك من أين تدخل؟. وقيل: إن الإسكندر خرج إليه في بعض حروبه نساء يحاربنه، فقال لأصحابه: كفوا عنهن فإن ذلك جيش إن غلبناه لم يكن لنا بذلك ذكر ولا فخر، وإن غلبنا فهي الفضيحة الباقية مع الدهر.

ورأيت في بعض الكتب أن هؤلاء النسوة لا يسكنّ مع الرجال، وأن أزواجهن يسكنّ ناحية منهنّ، فمتى احتاج الرجل إلى امرأته أتاها فقضى حاجته منها وانصرف، فإذا ولدت ولداً ربته حتى يكبر، وأرسلته إلى أبيه، وإن كانت جارية طمست ثديها الأيمن حتى ييبس لئلا يمنعها الطعن بالرمح وتركت الآخر الأيسر لترضع به ولدها، ومع هذا فلا بدّ من صحبتهنّ، ولكن لا بدّ من الأدب في ذلك. قال عمر رضي الله عنه: عوّدوا نساءكم: لا، فإن نعم تجريهن على الألسنة. وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: شاوروهنّ وخالفوهنّ.

وقال علي رضي الله عنه لابنه محمد ابن الحنفية: إياك يا بني ومشاورة النساء، فإنّ رأيهنّ إلى الأفن، وعزمهنّ إلى الوهن، واكفف عليهنّ من أبصارهنّ بحجبك إياهنّ، وإن استطعت أن لا يعرفن غيرك فافعل، ولا تطل الجلوس معهنّ فيهلكنك وتملهنّ، واستبقِ من نفسك بقية.

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا امرأتان: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخاطبهنّ فقال: إنكنّ إذا جعتنّ دقعتنّ، وإذا شبعتنّ أشرتنّ، أو قال: حجلتنّ، أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

معنى دقعتنّ: خضعتنّ ولصقتنّ بالدقعاء، وهي غبرة التراب. ويقال في الدقعاء أيضاً: الدقعن، بكسر الدال والميم زائدة، كما قالوا للدرداء: دردم. ويقال: فقر مدقع، أي: ملصق بالدقعاء. وقالوا: رماه الله بالدوقعة، وهي الفقر والذل. وجوع ديقوع، أي: شديد. وقد شبهن بالقوارير لسرعة الكسر إليهنّ ولا يمكن فيهنّ الجبر، وفيهنّ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: رويدك يا أنجشة سوقك بالقوارير، يعني: ضعفة النساء، بقوله عليه الصلاة والسلام لأنجشة وكان حادياً حسن الصوت وسيأتي في باب الراء عند تفسير كلمات من القرآن. وقال النبي عليه الصلاة والسلام في النساء: ما تركت بعدي فتنة أضرّ على الرجال من النساء. وفي الشهاب: النساء حبائل الشيطان.

وقال سعيد بن المسيب رحمه الله: ما أيس الشيطان من شيء إلا أتاه من قبل النساء، وقال وهو ابن أربع وثمانين، وقد ذهب بصره: ما شيء أخوف عندي من النساء. وتكلم نسوة عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال لهنّ: اسكتن فإنما أنتنّ لعب إذا فرغ لكنّ لعب بكنّ.

ولي أنا في هذا المعنى، ولكن متى قلته؟ قلته بعد أن ذهبت الشهوة وضعفت القوّة، وحين قرّت الهوّة وسدّت الكوّة:

أضرّ شيء على الإنسان خصيته ... تلك التي أوردته لجة النكد
إن الفضول لعمر الله أدخله ... في أن يكابد همّ الأهل والولد
يحتاج داراً وأهل الدار يطلبه ... كل بشهوته فليسعط أو يعد
فاضطرّه الحال أن يسعى ليرضيهم ... فظل من بلد يسري إلى بلد
كأنه حجر يرمي به ورق ... من هاهنا لهنا ومن يد ليد
ما همه الدهر إلا ما يؤلفه ... وما يجمعه من جيد وردي
وما يبالي أحلّ أم حرام أتى ... فعل امرئ ليس في الأخرى بمعتقد
حتى إذا اجتمعت تلك المكاسب من ... تلك النهاوش بهد الأين والجهد
أمسى يفرّقها فيهم ونيته ... في كسب أخرى كذا دأباً بلا أمد
وربما أسخط المسكين خالقه ... إذ ليس في فعله هذا بمقتصد
الفرض ضيعه والدين أتلفه ... بالمكر والغش ثم الغل والحسد
وكل ذلك من أجل النساء فلا ... أهلاً بهنّ ولا قرّبن من خلد
يسلبن لب ذوي العقل الرصين كما ... يصرعن من كان ذا أيد وذا جلد
يا رب شهوة وقت أورثت غصصاً ... وأعقبت حسرات آخر الأمد

قد كان في شغل بهمّ قبقبه(*) عن همّ ذبذبه لو كان ذا رشد
لكنه عميت عن ذاك مقلته حتى هوى مكرهاً في هوّة الأسد
عسى تقول رسول الله حض على النكاح يعني بذاكم كثرة العدد
نعم وقال لنا أيضاً عليك بذا ت الدين فاليوم فاطلب ضدّها تَجِد
قد كان يصلح ذاك الأمر في زمن أخنى عليه الذي أخنى على لبد
ذاك الزمان مضى وأهله معه فاليوم يا ليت أمّ المرء لم تلد
يكلف المرء ما لا يستطيع له حملاً وليس على شرع بمطرد
عرس بدف وطبل واصطفاق مزامير ورقص إلى أنواع كل دد
إلى أمور سواها سوف تعلمها إذا أردت الزواج اليوم يا سندي
ولست تسمع من بعد الدخول سوى سق سق وهات وعجل غير متئد
إن قلت قد سقت قالوا ثم ذلك في أمس سق اليوم ما يكفي لبعد غد
إن كنت تقوى على هذا وإلا فرح يجئ غيرك فاصدر بعد أو فرد
فيحوج المرء أن يلقى هنالك ما ذكرت قبل من الأحزان والنكد
يا خائفاً ضرهن اسمع وصية من قد جرّب الأمر لم يحتج إلى أحد
عليك بالصوم واترك ذكرهن ولا تنظر إليهن ينج القلب من كمد
واقنع بثوب وبيت تستتر بهما واجعل طعامك عند الفطر ملء يد
واعكف على طاعة الرحمن مجتهدا فليس يخلص إلا كل مجتهد
وعن قريب يجيء الموت وهو كما علمت يفرق بين الروح والجسد
فإن تكن صالحاً تفرح وتحظ غداً بجنة الخلد دار السيد الصمد
مجاوراً لجميع الأنبياء بها مكلماً ناظراً للواحد الأحد

ومن شعر أبي عمران الميرتلي رضي الله عنه:

يقولون زوج فنعم الفتاة عرضنا عليك تنل خيرها
ولو أستطيع لطلقت نفسي فكيف أضيف لها غيرها
أأشقى بها دون ما ضرة وآمن مع ضرة ضيرها
وما تقنع العرس مني بشيء سوى أن تصيرني عيرها
فنفسي أولى بنفسي ودع سواها تسر وتصل سيرها

(*) القبقب: البطن، والذبذب: الذكر.

وقال يوسف عفا الله عنه وقد سألني تذييل ذا البيت صاحبي:

وكنّ إذا أبصرنني أو سمعن بي ... بدرن فرقعن الكوى بالحواجب
مشيبي يشي بي فاغتديت مبغضاً ... لدى قاصرات الطرف عين ربائب
وعهدي في غضن الشباب وإنني ... لكالشمس في حسن وهنّ صواحبي
وكنّ إذا أبصرنني أو سمعن بي ... بدرن فرقعن الكوى بالحواجب
يسلمن طوراً بالبنان وتارة ... بأنملة زينت بتخضيب خاضب
إذا غبت عن عين فإني حاضر ... بقلب ففي التحقيق لست بغائب
فأضحيت لا شيء بأبغض يا فتى ... إليهن من شخصي وكن حبائبي
ينادينني يا شيخ لا عن كرامة ... كما قد ينادي الناس أهل المراتب
ولكنّ عيباً واحتقاراً وذلة ... ولو كنت ذا عقل لِما كنت عائبي
فما إن يعيب المرء إلا ذنوبه ... وذلك يردي لا ابيضاض الذوائب
فيا رب إن أبغضنني فأحبني ... فأنت وليي دونهن وصاحبي
ولا تَحرق الشيب الذي قد جعلته ... وقاراً بنار يوم يكشف غائبي

وهذه المقطوعة قلتها على أن قافية البيت (بالحواجب) ثم رأيته (بالمحاجر)، فدعت الضرورة إلى أن بدّلته أيضاً على (المحاجر) فقلت:

مشيبي يشي بي فاغتديت مبغضاً ... لدى قاصرات الطرف عين غرائر
وعهدي في عصر الشباب محبباً ... إليهن في بال أقيم وخاطر
وكنّ إذا أبصرنني أو سمعن بي ... بدرن فرقعن الكوى بالمحاجر

الأبيات. وبدّلته أيضاً على قافية القاف، فقلت:

مشيبي يشي بي فاغتديت مبغضاً ... إلى قاصرات الطرف عين عواتق
وعهدي في عصر الشباب محبباً ... إليهن لا يقطعن وصل علائقي
وكن إذا أبصرنني قمن للكوى ... فألقمنها سود العيون الروامق

كذلك إلى آخر الأبيات. انظرها بكمالها في التكميل.

مبحث مدح النساء :

ومن الناس من مدحهنّ، قال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه: ما مرّض المرضى ولا ندب الموتى مثل النساء. وقال بعض الحكماء: ما آنس الإنسان ولا عمر المكان ولا سلى الأحزان ولا أعان على الزمان مثل البيض الغوان. وفي كتاب مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة.

وفي كتاب الأربعين للثقفي: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل النبي صلى

الله عليه وسلم أيّ النساء خير؟ فقال: التي تسره إذا نظر، ولا تعصيه إذا أمر، ولا تخالفه فيما يكره من نفسها ولا ما له. وهذا الحديث من العوالي، حدّثني به الحافظ السلفي عن الثقفي عن الفضل ابن عبد الله عن عبد الله بن جعفر عن مروان بن سليمان عن أبي عاصم عن أبي عجلان عن المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قلت: انظر قوله عليه الصلاة والسلام: تسرّه إذا نظر، هل هو إلا أن تكون من أحسن الصور، وما زال الجمال إليه يمال.

ومن أمثالهم: المرأة الوسيمة من المنن الجسيمة. وفي الشهاب: النظر إلى المرأة الحسناء يزيد في البصر، ولله درّ الذي يقول:

يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدته نظرا

وقول الناس في الملاح معلوم وهو الجمال مرحوم، قال الشاعر:

ويقبح من سواك الفعل عندي فتفعله فيحسن منك ذاكا

وقال الآخر:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

قلت: فكما أن المرأة الصالحة خير متاع الدنيا، فكذلك المرأة السوء شر متاع الدنيا، هي الداء العضال، والعثرة التي لا تقال. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: ثلاث قاصمات للظهر، فذكر منهن: زوجة يأتمنها صاحبها وهي تخونه، ذكر في هذا الحديث زوجة. وأنكر الأصمعي أن يقال: زوجتي، وإنما يقال: زوجي، وكذلك قال غيره، واحتج بقول الله تعالى: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، و: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، قلت: ولعلهما لغتان، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أفصح العرب، وقد قال: زوجة، في هذا الخبر. وفي مسلم من كتاب الجنائز في الدعاء للميت: وأبدله داراً خيراً من داره، وأهلاً خيراً من زوجته، الحديث.

وسيأتي في الحديث بعد هذا: وزوجة مؤمنة، فهي إذاً لغة مشهورة مذكورة. وقال في حديث الاعتكاف للرجل الذي لقيه بالليل والنبي عليه الصلاة والسلام يشيع امرأته إلى منزلها: إنها زوجتي. وفي حديث ذكره النسائي عن معاوية بن حيدة قال: قلت يا رسول الله عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ قال: احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك، الحديث.

وخرج أبو بكر بن أبي شيبة عن ابن عمر قال: أتت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله ما حق الزوج على زوجته؟ قال: لا تخرج من بيته إلا بإذنه، فإن فعلت لعنتها ملائكة الله عز وجل، وذكر باقي الحديث. وذكر البزار عن رسول الله

صلى الله عليه وسلم أنه قال: يا معشر النساء اتقين الله والتمسن مرضاة أزواجكن، فإن المرأة لو تعلم ما حق زوجها لم تزل قائمة ما حضر غداؤه وعشاؤه. وخرج الترمذي رحمه الله عن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلك الله، فإنما هو دخيل عندك يوشك أن يفارقك إلينا. قال: هذا حديث حسن غريب.

وخرّج أيضاً عن طلق بن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا الرجل دعا زوجته لحاجته فلتأته وإن كانت على التنور. قال: هذا حديث حسن غريب. وخرّج مسلم رحمه الله بسنده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها. وهذه فوائد في المعنى واللفظ ينبغي أن تقيد بالحفظ وتتعاهد بالدرس، كي لا تنسى، ويحتج بها على النساء في خروجهنّ بغير إذن أزواجهن.

ونرجع إلى اللغة في الزوج والزوجة فنفصل فيها بالحجة، قال بعض العلماء: لغة أهل الحجاز: زوج، ولغة بني تميم: زوجة، قال الفرزدق وهو تميمي:

وإن الذي يسعى ليفسد زوجتي ... كساع إلى أسد الشرى يستنيلها

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يكلم كل قوم بلغتهم.

رجع الكلام إلى ذكر النساء:

قال النبي صلى الله عليه وسلم في النساء: رأيتهن أكثر أهل النار. ثم ذكر العلة فقال: يكفرن العشير وينكرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئاً تنكره قالت: ما رأيت منك خيراً قط. وقد تقدّم قوله صلى الله عليه وسلم أكثر من هذا، فليس إلا المداراة، فمداراة الناس صدقة، والناس يمكنك التخلص منهم، وليست الزوجة كذلك إلا في القليل، وقد قال عليه الصلاة والسلام: هي كالضلع إن ذهبت تقيمه كسرته، وإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج، وقال: كسرها: طلاقها.

وفي الخبر أن إبراهيم؛ صلى الله على نبينا وعليه؛ شكا إلى الله عز وجل خلق سارة، فأوحى الله عز وجل إليه: إنما المرأة كالضلع المعوج إذا أقمته كسرته، فداره تعش به. وقال بعض الشعراء في هذا المعنى:

أتجمع ضعفاً واقتداراً على الفتى ... أليس عجيباً ضعفها واقتدارها

هي الضلع العوجاء لست تقيمها ... ألا إن تقويم الضلوع انكسارها

وقد كنّ أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم يراجعنه، وتهجره إحداهنّ حتى الليل، وكذلك كثير من الصحابة، وسيأتي حديث أبي ذر رضي الله عنه عند ذكر

الموؤودة.

ويروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن امرأته راجعته يوماً، فقال: لتنتهن أو لأدعونّ الله عليك، فقالت: أنت منذ عشرين سنة تدعو على الحجاج فما يزداد عنه إلا غلظاً.

ومما عدّوه من الحمق التماس مودّة النساء بالغلظة والجفاء، والتماس مودّة الإخوان بلا وفاء، والآخرة بالرياء، والعلم والفضل بالخفض والدعة، ونفع النفس بضرر الغير. وقال المغيرة بن شعبة: ملكت النساء على ثلاث طبقات، كنت أرضيهن في شبيبتي بالباءة، فلما اكتهلت كنت أرضيهن بالمداعبة والمفاكهة، فلما شبت أرضيتهن بالمال.

وفي روايتي عن الحافظ بسنده إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال المهاجرون لما أنزل في الذهب والفضة ما أنزل: وددنا أنا علمنا أيّ المال خير فنتخذه، فقال عليه الصلاة والسلام: ليتخذ أحدكم لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على إيمانه. خرّجه في أحد أجزاء المحاملي رحمه الله. وخرّج أبو داود هذا الحديث بهذا المعنى على غير هذا اللفظ من قوله صلى الله عليه وسلم: ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة إذا نظر إليها سرّته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته. قلت: وينبغي كما يتخير الرجل الأرض لغرسه كذلك فليتخير الزوجة لنفسه، ونجابة ولده بحول الله في صلاح عرسه، ألم تسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس. وقال: وإياكم وخضراء الدمن. وقال عليه الصلاة والسلام: تنكح المرأة لجمالها ومالها وحسبها ودينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك.

ويروى أن رجالاً خطبوا لرجل مجوسي ابنة له كانت جميلة، فقال لهم: العجب من طباعكم، لا تمتثلون قول نبيكم ولا قول مشايخنا، نبيكم يقول: عليكم بذات الدين، ومشايخنا يقولون: عليكم بمن له أصل وجوهر فإن العرق يرجع إلى أصله، فأخجل القوم وتركوا الخطبة. وقال ابن عبدوس رحمه الله وذكر الجمال: كفى بالوجه الحسن أن يستمتع به في كل حالة، وإنه ليخشع له القلب والبصر والأنثى والذكر والشديد والضعيف والفاجر والعفيف.

وقالت حكماء الهند: بحسن الصورة تستمال أعنة الأبصار، ثم قال ابن عبدوس بعد ذلك: ألا إن الجمال من أكبر أسباب الفساد، وقلما تجد الجميلة عفيفة، ولو كانت عفيفة لم تسلم من مراودة من ليس بعفيف، وكم عساها أن تعف. وقد سئل بعض الحكماء عن التزويج فقال للسائل: نعم ما تفعل، تغضّ طرفاً وتحصن فرجاً، ولكن

إياك والجمال الرائع، قال: ولم وإنما يرغب الناس فيه، فقال: أوما سمعت قول القائل:

ولن تمرّ بمرعى ممرع أبداً إلا وجدت به آثار مأكول

وفي الحديث: لا تنكحوا النساء لحسنهن فعسى أن يرديهن، ولا تنكحوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن، وانكحوهن على الدين، ولأمة سوداء جذماء ذات دين أفضل من ذات جمال وليس لها دين. قال ابن عبدوس: والحسناء كثيرة المنّ على زوجها بحسنها، والعفيفة أكثر مناً عليه بعفتها، حتى كأنّ الواجب عندهن أن لا يكنّ عفائف. وقال أكثم بن صيفي: يا بني تميم لا يغلبنكم جمال النساء على صراحة الحسب، فإن المناكح الكريمة مدرجة للشرف، وقال الشاعر:

وأول خبث المرء خبث ترابه وأوّل لؤم المرء لؤم المناكح

وقال الآخر:

ألم تر أن الماء يخبث طعمه وإن كان لون الماء في العين صافيا

وفي هذا الشعر:

على وجه ميّ مسحة من ملاحة وتحت الثياب العار لو كان باديا

ودخل خيري(*) بن أبي أوفى على هشام بدمشق ملفوفاً في عباءة، فسلم وانتسب فقال: كيف أبوك؟، قال: كالخير لنفسه وكالشر لي، قال: وكيف ذاك؟، قال: كنت نطفة في صلبه يضعني حيث شاء، فألقاني في رحم سوداء لو وقع القمر فيه لاسودّ، ثم سماني بشرّ الأسماء، واختار لي شرّ الأعمال رعية الإبل، فأعدني عليه، قال: أما لونك فلا تستطيع تغييره، وأما اسمك فمن أسماء أبيك، وأما عملك فقد أبدلك الله الفريضة السنية والجائزة الحسنة، ففرض له ووصله. أصاب خيري وصدق فيما به نطق، هذه الأوصاف قد قالها غيره قبله، قالوا: من حق الولد على والده أن يستفره أمه ويحسن اسمه، فإن كان ذكراً يعلمه كتاب الله، ويعلمه الرمي والسباحة، وإن كانت أنثى يعلمها سورة النور ولا يعلمها سورة يوسف عليه السلام، ولا يسكنها الغرف، ويعجل سراجها إلى بيت زوجها.

وقال عروة بن الزبير رحمه الله: ما عشقت من امرأة قط إلا حسن شرفها، وفسره بعضهم واستشهد بقوله في موضع آخر: إني لأعشق الشرف كما أعشق الجمال، فعل الله بفلانة ألفت بني فلان وهم بيض طوال فقلبتهم سوداً قصاراً. وقال غيره: إنما أراد الحسب وصراحة النسب واحتج بقول عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: ما عشقت

(*) قوله: خيري، هكذا في النسخ، ولعله حرب أو جزي كما يقتضيه سياق الحكاية.

من امرأة قط إلا حسبها. ولعل قائلاً يمدح القصار ويستشهد بقول كثير الشاعر:

وأنت التي حببت كل قصيرة إلي وما تدري بذاك القصائر

فلم يرد القصيرة القدّ وإنما أراد المقصورة في الحجال، من قولك: قصره، إذا حبسه، يقال منه: قصيرة وقصورة كما يقال: مقصورة إذا كانت محجوبة، ومنه قول الله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢] أي: محبوسات، وقوله تعالى: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الصافات: ٤٨] أي: قصرن نظرهن على أزواجهن فلا يبغين بهم بدلاً، وقال الشاعر:

تراها عند قبتنا قصيرا ونبذلها إذا باقت بؤوق

أي: مقصورة مقربة لا تترك، تتردّد لنفاستها عند أهلها، ويدل على أنه أراد هذا المعنى قوله في البيت الذي بعده:

عنيت قصيرات الحجال ولم أرد قصار الخطى شرّ النساء البحاتر

والبحاتر: القصار، ورواه الفراء وأنشده: البهاتر، بالهاء، وقال بحتر، بالحاء، وبهتار، بالهاء، لغة فيه، وهو القصير كما تقدّم. والهاء تبدل من الحاء كثيراً، وسيأتي ذلك، وقد يحتمل أن يريد بقوله: كل قصيرة، أي: قصيرة النسب وتلك صفة الأشراف، ومعناه: أن يقال بنت فلان، فيعرف ولا يحتاج إلى تطويل في النسب، كما يحتاج من ليس بشريف أن ينتسب حتى يبلغ إلى رأس القبيلة، وبالحري أن يعرف إن عرف، قال رؤبة: قال لي النسابة من أنت انتسب؟، فقلت: رؤبة ابن العجاج، فقال: قصرت وعرفت. وقد بيّن الشاعر هذا المعنى في قوله:

أحب من النسوان كل طويلة لها نسب في العالمين قصير

وقال الطائي:

أنتم بنو النسب القصير وطولكم باد على الكبراء والأشراف

ومع هذا فإن نجابة الولد إنما هو في النسب لا في الطول ولا في القصر. وقال ابن الزبير: لا يمنعكم من تزوّج المرأة القصيرة قصرها، فإن القصيرة تلد الطويل والطويلة تلد القصير، وإياكم والمذكرة فإنها لا تنجب. وسيأتي خبر الأعرابي القبيح الطويل الذي تزوّج امرأة قصيرة جميلة لتلد له بزعمه غلاماً يشبه أمه في الحسن وأباه في الطول، فولدت له ضدّ ذلك. والعرب تقول: إن الغيرى لا تنجب، وإذا أكره الرجل المرأة وأصابها وهي مذعورة فإن أذكرت أنجبت، ولذلك قال عبيد الله بن الحسن: إذا أردت أن تذكر المرأة فأغضبها ثم قع عليها. ولذلك قالوا: أنجب النساء الفروك، لأن الرجل يغلبها على الشبه لزهدها في الرجل. وقالوا: أنجب النساء النزائع، الواحدة

نزيعة، وهي التي زوّجت في غير قبيلتها، قال الشاعر:

نمــت بــي مــن شــيبان أمّ نــزيعة كــذلك ضــرب المنجبات النــزائع

وأولاد الغرائب عندهم أشدّ وأقوى، قال الشاعر:

فتــى لــم تلــده بــنت عــم قــريبة فيضوى وقد يضوي وليد القرائب

ومنه قول عنترة:

أنــــــا الهجــــــين عنتـــــــرة

افتخر بأنه هجين لأنه أقوى من الصريح.

وأجاد ذكر هذا الخطابي رحمه الله في تفسير قوله عليه الصلاة والسلام: طوبى للغرباء، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: النواع من القبائل. ثم فسره قال: النزاع، جمع نزيع، وهو الغريب الذي نزع عن أهله وعشيرته. وجاء في حديث آخر: بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء، فقيل: من الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون ما أفسد الناس. وقال الحارث بن كلدة: إذا أردت أن تحبل المرأة فمشها في عرصة الدار عشرة أشواط فإن رحمها تنزل ولا تكاد تخلف. وكانت العرب تقول: إذا المرأة لقحت قبل الطهر في أوّل الشهر عند تبلج الفجر ثم أذكرت جاءت به لا يطاق، قال الشاعر:

لقحــت فــي الهــلال عــن قبل الطــ ـطهــر وقــد لاح للــصباح بــشير

ذكر اوقات حمل المرأة :

وأوّل أوقات حمل المرأة تسع سنين، وهو أوّل وقت الوطء. وتزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعائشة رضي الله عنها وهي بنت ست، وبنى بها وهي بنت تسع، وتوفي عنها وهي بنت ثمان عشرة، وتوفيت وهي بنت ثمان وخمسين سنة. وتحمل المرأة وهي بنت عشر.

وفي البخاري عن بعضهم: رأيت امرأة جدة وهي بنت إحدى وعشرين سنة. وبضدّه خرّج ثابت أن هند بنت أبي عبيدة حملت بابنها موسى بن عبد الله بن حسن لستين سنة، ويقال: لا تحمل لستين إلا قرشية، ولا لخمسين إلا أعرابية. ويقال: إن امرأة من عجلان أقامت خمس سنين حاملاً ثم ولدت، وحملت مرة أخرى ثلاث سنين. قال الليث: وحملت مولاة لعمر بن عبد الله ثلاث سنين. ويقال: إن الضحاك ولد لسنتين. وقالت عائشة رضي الله عنها: ما حاضت امرأة بعد خمسين سنة. ويقال: إن الرجل يستفرغ ولد امرأتين، يولد له وهو ابن تسعين سنة. وولدت مريم عيسى عليهما السلام لثمانية أشهر، وتلك آية، لأنه لا يعيش مولود لثمانية أشهر. وأتي عمر بن

الخطاب رضي الله عنه بامرأة ولدت لستة أشهر، فهمّ بها، فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن الله تعالى يقول: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف: ١٥] ثم قال: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] فالحمل يكون ستة أشهر. وذكر مالك تلك القصة لعثمان رضي الله عنه.

حَمل مريَم بعيسى عليه السلام :

تقدّم في هذا الخبر أنّ عيسى عليه السلام ولدته أمّه لثمانية أشهر، وقد اختلف في ذلك، فروي عن الحسن أنه قال: حملته تسع ساعات وولدته من يومها. وقال بعضهم: حملته تسعة أشهر كما يحمل النساء، والله أعلم. وحديثها مذكور في القرآن. وجاء في الخبر أنه كان معها في المحراب ابن خال لها يقال له يوسف، كان يخدمها من وراء حجاب ويكلمها كذلك، وكان أوّل من اطلع على حملها، فاهتمّ لذلك وأحزنه وخاف أن يقع في الإثم وسوء الظن، فقال لها: يا مريم هل يكون زرع من غير بذر؟. قالت: نعم، قال: وكيف ذلك؟. قالت: إن الله خلق البذر الأوّل من غير نبات، فلعلك تقول: لولا أنه استعان بالبذر لغلبه. قال يوسف: أعوذ بالله. ثم قال لها: وهل ينبت الشجر من غير ماء ولا مطر؟. قالت: ألم تعلم أن للبذر والزرع والماء والمطر والشجر خالقاً واحداً؟. ثم قال لها: هل يكون ولد أو حمل من غير ذكر؟. قالت: نعم. قال: وكيف ذلك؟. قالت: ألم تعلم أن الله خلق آدم وحواء امرأته من غير حبل ولا ذكر ولا أمّ؟. قال: بلى، قال: فأخبريني خبرك. قالت: فإن الله بشّرني ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران: ٤٥] إلى قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٦]، فسكت عنها.

وممن ولد له وهو صغير عبد الله بن عبد المطلب، وهو والد رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يزيد عليه ثمانية عشر عاماً، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى. وكان لأيوب بن سلمة وهو من ولد الوليد المخزومي ابن يسمي إسماعيل، كان أيوب يزيد عليه في المولد ثلاث عشرة سنة، وكان له من الولد اثنا عشر، ولابنه إسماعيل كذلك اثنا عشر، فوقع بينهم كلام، وكانوا في المدينة في دار واحدة، فأغلقوا عليهم الباب واقتتلوا، واجتمع أهل المدينة فلم يقدروا على فتح الباب، حتى تسوّروا عليهم الجدار، فوجدوا صرعى، ذكره ثابت.

وأغرب من هؤلاء عبد الله بن عمرو بن العاص، يزيد عليه أبوه في السن اثني عشر عاماً هذا نادر، والمعروف الأكثر الأشهر ما قاله بعض العلماء: يستدل على بلوغ

الصبي بالإنبات والاحتلام وبلوغ خمسة عشر عاماً، والجارية كذلك، وتزيد على الغلام بالحمل والحيض، وأقوى ما في الغلام الاحتلام، وفي الجارية الحمل والحيض، ويستشهد على الإنبات بأهل قريظة إذ قتل منهم من أنبت، ومن لم ينبت خلي سبيله. ويستدل على بلوغ خمسة عشر عاماً بما خرّجه مسلم رحمه الله عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: عرضني رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد في القتال وأنا ابن أربع عشرة سنة، فلم يجزني، وعرضني يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني. قال نافع: فقدمت على عمر بن عبد العزيز وهو يومئذ خليفة فحدّثته هذا الحديث، فقال: إن هذا الحدّ بين الصغير والكبير، وكتب إلى عماله أن يفرضوا لمن كان ابن خمس عشرة سنة فما دون ذلك فاجعلوه في العيال.

وإذ وقع ذكر عبد الله بن عمرو، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فلنذكر بعض فضائلهما: أما عبد الله بن عمر فلا خفاء بفضله وورعه وعلمه وسابقته، أسلم مع أبيه وهو صغير لم يبلغ الحلم، وبلغ ستاً وثمانين سنة، وأفتى في الإسلام ستين سنة، وكان كثير الاحتياط والتوقي في فتاواه، وكان لا يتخلف عن السرايا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم كان بعد موته عليه السلام مولعاً بالحج قبل الفتنة وبعد الفتنة إلى أن مات، وكان قد أشكلت عليه حروب علي رضي الله عنه، فقعد عنها وندم على ذلك، حين حضرته الوفاة قال: ما آسى على شيء إلا تركي قتال الفئة الباغية مع علي رضي الله عنه وعلى صوم الهواجر، وكان يقول الحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، ثم خطب الحجاج يوماً وأخّر الصلاة، فقال له ابن عمر: إنّ الشمس لا تنتظرك والحق لا يعذرك، فقال له الحجاج: لقد هممت أن أضرب الذي فيه عيناك، فقال: إن تفعل فإنك سفيه مسلط، فأمر الحجاج رجلاً معه حربة يقال إنها كانت مسمومة، فلما دفع الناس من عرفة لصق به ذلك الرجل فأمرّ الحربة على قدمه وهي في غرز راحلته، فمرض منها أياماً، فدخل عليه الحجاج يعوده فقال: من فعل بك يا أبا عبد الرحمن؟ فقال: وما تصنع به؟ قال: قتلني الله إن لم اقتله، قال: ما أراك فاعلاً، أنت الذي أمرت من نخسني بالحربة، فقال: لا تفعل يا أبا عبد الرحمن، وخرج عنه، فلبث أياماً ثم مات رضي الله عنه، وصلى عليه الحجاج.

وأما عبد الله بن عمرو فكان أيضاً من الفضلاء العلماء، يكنى أبا محمد، وقيل أبا عبد الرحمن، توفي بمصر سنة خمس وستين وهو ابن اثنتين وسبعين سنة، وقيل مات بمكة، وهو الذي استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في كتب الحديث، فأذن له، وهو الذي قال له النبي صلى الله عليه وسلم: صم وأفطر وقم ونم، حين بلغه أنه قال:

لأصومنّ النهار ولأقومنّ الليل ما عشت، فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال له ما تقدّم. وهو الذي كان يقول: ما لي ولصفين وقتال المسلمين، والله لوددت أني مت قبل هذا بعشر سنين، ثم يقول: أما والله ما ضربت فيها بسيف ولا طعنت فيها برمح ولا رميت فيها بسهم، ولوددت أني لم أحضر شيئاً منها، وأستغفر الله من ذلك وأتوب إليه.

خرجت من شيء إلى غيره — لكنني لم أعد عين الصواب
ومني الجمع ومنك ابني الحفـ — ـظ ومن ربي الكريم الثواب

ذمّ البنات ومدحهنّ:

وأما البنات فمن الناس من كرههن لا لذاتهن، لكن لما يتخوّف عليهن، كما قال بعضهم:

ألا يا موت كنت بنا رؤوفاً — فجددت الحياة لنا بزوره
شكرنا فعلك المحمود لما — كفيت مؤنة وسترت عوره
فأنكحنا الضريح بغير مهر — وزوّجنا الفتاة بغير شوره

وقال آخر:

أحبّ بنيتي وودت أني — وضعت بنيتي في قعر لحد
وما بي بغضها غرضاً ولكن — أخاف بأن تذوق الذل بعدي
وتسلم إن فقدت إلى لئيم — فيشتم والدي ويسبّ جدي
فليت الله عاجلها بموت — وإن كانت أعز الناس عندي

وقال آخر:

تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً — والموت أكرم نزال على الحرم

وأوّله:

لولا أمية لم أجزع من العدم — ولم أجب في البلاد حندس الظلم
وزادني رغبة في العيش معرفتي — ذل اليتيمة يجفوها ذوو الرحم
أحاذر الفقر يوماً أن يلم بها — فيهتك الستر عن لَحم على وضم

وقال آخر:

لقد زاد الحياة إليّ حباً — بناتي إنهنّ من الضعاف
مخافة أن يرين البؤس بعدي — وأن يشربن رنقاً(*) بعد صافي

(*) الماء الرنق: هو الكدر.

وأن يعــرين إذ كــسي الجــواري فتنــبو العــين عــن كــرم عجــاف

الكرم في هذا البيت مصدر، يقال: رجل كرم وقوم كرم وامرأة كرم ونسوة كرم.
وقال عبد الله ابن طاهر:

لكــل أبــي أنثــى إذا مــا ترعــرعت ثلاثــة أصــهار إذا ذكــر الــصهر
فبــيت يغطــيها وبعــل يــصونها وقبــر يــواريها وخيــرهم القبــر

وجاء في الشهاب: دفن البنات من المكرمات.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم لما عزي في بنته رقية قال: الحمد لله، دفن البنات من المكرمات. وأنشدنا الحافظ أبو الطاهر رحمه الله، ولم يسمّ قائله، فقال:

القبــر ســتر لجمــيع البــنات وهــو كمــا يــروى مــن المكــرمات
أمــا رأيــت الله ســبحانه قــد وضــع الــنعش بجــنب البــنات

وبنات نعش: سبع كواكب، أربعة نعش وثلاث بنات، ويقال للواحد منها: ابن نعش، لأن الكوكب مذكر، قاله ثابت، وقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: اللهم رب هرر ابن سهيه أعوذ بك من كل عقرب وحيه. وقال في تفسيره: نجم صغير يكون في بنات نعش، وفيه يقول القائل:

أريهــا الــسها وتريــني القمــر

ومن أحسن ما سمعت في هذا قول بعضهم في الحجاج، وكان قد أراد أن يزيد في جباية السواد، فمنع أهل السواد من ذبح البقر ليكثر الحرث والزرع فيما زعم، فقال شاعرهم:

شــكونا إلــيه خــراب الــسواد فحــرّم فيــنا لحــوم البقــر
وكــان كمــا قــال مــن قبلــنا أريهــا الــسها وتريــني القمــر

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتفقدون أبصارهم فيه. وخرج عياض رحمه الله في كتاب شرف المصطفى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى في الثريا أربعة عشر نجماً لحدة بصره صلى الله عليه وسلم. وأخبرني بعض العلماء أن أسماء بنات نعش النجم الأوّل الذي يلي النعش القائد، والثاني: العناق، وهو الذي إلى جنب السها، والثالث: الحوار، وفي هذه النجوم، أعني بنات نعش، فائدة أنها بها يستدل على القبلة إذا جعلتها على كتفك الأيسر في بلادنا هذه، وذلك على الدوام، لأنها لا تدور ولا تغيب، وهذه بنات نعش الكبرى، وبقربها بنات نعش الصغرى، وهي على مثل تأليفها، وفيها الفرقدان والجدي، وفي وسطها القطب، وعليه مدار الفلك

شبيه بقطب الرحا، تدور عليه جميع الأفلاك وهو ثابت على موضعه لا يتحرك.

وكان لمعاوية رضي الله عنه بنت تحبه، وكان يدنيها منه ويلزمها حجره ويعانقها ويقبلها، فرآه بعض خواصه يوماً فقال له: أف لهذه أبعدها عنك ونحها، فوالله ما علمتهن إلا يلدن الأعداء ويورثن البعداء، فقال له معاوية: أجل، ثم سكت ساعة، فقال: أما إنهن بضعة منا يريبهنّ ريبنا ويشينهنّ شيننا، وأيم الله مع ذلك ما علل ذوي العلات ولا عظم المصيبات ولا بكي الأموات مثلهن. وقال بعض الشعراء في هذا المعنى:

رأيت أناساً يكرهون بناتهم وفيهن لا نكذب نساء صوالح
وفيهن والأيام يعثرن بالفتى عوائد لا يمللنه ونوائح

فمن صالحات النساء وفصحائهن ما يروى أن أسماء بنت يزيد الأنصارية من بني عبد الأشهل أتت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله أنا وافدة النساء إليك، واعلم أن نفسي لك الفداء أنه ما من امرأة كائنة في شرق ولا غرب سمعت بخروجي هذا، أو لم تسمع إلا وهي على مثل رأيي. إن الله عز وجل بعثك بالحق إلى الرجال والنساء، آمنا بك وبالذي أرسلك، وإنا معشر النساء محظورات مقصورات، وإنا قواعد بيوتكم ومقضى شهواتكم وحاملات أولادكم، وإنكم معشر الرجال فضلتم علينا بالجمعة والجماعات وعيادة المرضى وشهود الجنائز والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك كله الجهاد في سبيل الله، وإن الرجل منكم إذا خرج حاجاً أو مجاهداً؛ حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا لكم أثوابكم، وربينا لكم أولادكم، أفما نشارككم في الأجر يا رسول الله؟ فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم بوجهه كله إلى أصحابه فقال لهم: هل سمعتم مقالة امرأة أحسن من مقالتها وسؤالها عن أمر دينها؟. فقالوا: يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدي في دينها إلى مثل مقالتها، ثم قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: انصرفي أيتها المرأة، وأعلمي من خلفك من الرجال والنساء أن حسن تبعل إحداكن إلى زوجها؛ وطلبها لمرضاته؛ واتباعها لموافقته، يعدل ذلك كله. فأدبرت المرأة تهلل وتكبر سروراً واستبشاراً بما قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم. ذكر هذا الخبر أبو القاسم علي بن محمد بن عبدوس الكوفي رحمه الله في كتاب التسلي عن الدنيا.

وفي كتاب من حزم النساء ما يروى أن أحد الأمراء شتم امرأة فأفحش في القول، فقالت لأصحابه: أهكذا كلام الأمراء؟ قالوا: لا، فقالت له: خذ إليك العزل الخفي. وجاء في خبر ولم أروه: لا تكرهوا البنات فإني أبو البنات. وقال أيضاً: لا تكرهوا البنات فإنهن المونسات المجهزات والمربيات المبكيات. وأنشدوا في هذا

المعنى:

فخير الناس كلهم جميعاً رسول الله كان أبو البنات
وهنّ المؤنسات وهنّ أيضاً بعيد الموت أحرق باكيات

ومن أحسن ما قيل في تفضيلهنّ:

فما التأنيث في اسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

وأنشدني بعض أصحابي ولم يسمّ قائله:

أحبّ البنات فحبّ البنا ت فرض على كل نفس كريمه
فإن شعيباً من أجل البنا ت أخدمه الله موسى كليمه

صلى الله عليهما وعلى نبينا محمد وسلم. وزاد فيهما أبو عمران الميرتلي رحمه الله:

ودفن البنات من المكرمات وأجر وذخر ونعمى جسيمه

وجاء في الحديث: من يُمن المرأة تبكيرها بأنثى قبل الذكر، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ [الشورى: ٤٩]، وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ [الكهف: ٨١]؛ قال ابن عباس: بدّلا منه جارية ولد من نسلها سبعون نبياً. وقال ابن جبير: كانت أمه حاملاً فولدت غلاماً مسلماً. وجاء في التفسير أن الغلام كان كافراً، وكان اسمه حيسور. وفي الصحيح: من ابتلي من البنات بشيء فأحسن إليهنّ كن له ستراً من النار. وفي آخر: من عال جاريتين حتى يبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو، وضمّ أصابعه صلى الله عليه وسلم. وينبغي أن تفضل البنات على البنين فيما يدخل به من السوق، لأنهن محجوبات لا يرين إلا ما دخل به عليهن، ولأن الكفار كانوا يقتلونهنّ بالوأد، وقد أمرنا بمخالفتهم، فإذاً كان الواجب علينا حبهنّ فنفضلهنّ.

ويروى أن رجلاً ولدت له بنت، فاغتمّ لذلك، فدخل عليه رجل صالح عالم فقال له: ما لي أراك مغموماً؟ فقال له: ولدت لي بنت، فقال له: على الله عز وجل رزقها وعلى الأرض ثقلها، تعيش في غير أجلك وتأكل من غير رزقك، ما سميتها؟ فقال: فاطمة، فقال: آه آه أما إذ سميتها فاطمة فلا تشتمها ولا تضربها. قال الشاعر:

خرجت من الفلا جمع الفلاة لفالية فتاة كالمهاة
وأفضي القول في مدح وقدح إلى ذكر البنات والأمهات
ولم أقنع بمن في الأرض حتى صعدت لذكر نعش والبنات
ولكن كله علم وإن كنـ ـت لا تبغي سوى ذكر اللغات

فها أنا سوف أرجع بعد هذا لها فاسمع فإن القول يأتي

فائدة :

تقدّم ذكر المهاة، وهي البقرة الوحشية، تكتبها بالتاء إذا وصلتها، بخلاف المهاه الذي هو الطراوة والحسن. قال عمران بن حطان:

فليس لعيشنا هذا مهاه وليست دارنا الدنيا بدار

وقال جرير:

كفى حزناً أن لا مهاه لعيشنا ولا عمل يرضي به الله صالح

فصل :

صلة الرحم :

وتقدّم في الحديث: بلوا أرحامكم ولو بالسلام، معناه والله أعلم: صلوا أرحامكم بما أمكن، فإن عدمتم فأقل شيء يكون بالسلام، وهو بأن تزور ذا رحمك فتسلم عليه وتؤنسه بالقول، وتلين له القول، وبمثل هذا يستمال الغريب فكيف بالقريب؟. ألم تسمع إلى قوله صلى الله عليه وسلم: ألا أدلكم على شيء إذا أنتم فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم. وقد جاء في صلة الرحم ما يكاد لكثرة الأمر بذلك أن يكون فرضاً، وجاء في قطيعة الرحم كذلك ما يكاد يلحق بالكبائر، وإذا كان الجار يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم: ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه، وقد جاء في حق الجار كثير، قالوا: للجار القريب المسلم ثلاثة حقوق: حق الجوار وحق القرابة وحق الإسلام. وللجار المسلم حقان ولغيره حق واحد. وخرّج الترمذي أن عبد الله بن عمر ذبحت له شاة في أهله، فلما جاء قال: أهديتم لجارنا اليهودي؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه. وفي البخاري: عن عائشة رضي الله عنها قالت قلت: يا رسول الله إن لي جارين فإلى أيهما أهدي؟ قال: إلى أقربهما منك باباً. وعن ابن شريح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: والله لا يؤمن والله لا يؤمن، قيل: من يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه. وفي حديث آخر: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، وفي آخر: فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت.

ومن أحسن ما قيل في حسن الجوار:

ناري ونار الجار واحدة وإليه قبلي تنزل القدر

ما ضرّ جاراً لي أجاوره أن لا يكون لبابه ستر

هذان البيتان لمسكين الدارمي واسمه ربيعة بن عامر، ومسكين لقب له، ولذلك قال:

وسميت مسكيناً وكانت لحاجة ... وإني لمسكين إلى الله راغب

وفي الشعر الأول بيت خرّجه أبو علي في النوادر، وهو:

لا آخذ الصبيان ألثمهم ... والأمر قد يغرى به الأمر

قال أبو عبيد البكري في شرح الأمالي المسمى باللآلي: ويروى: يغزى، أي: يقصد، من قولك: عرفت مغزاك، ويروى، يعنى به، قال: وأنشد صاعد في هذا المعنى:

إذا رأيت صبيّ القوم يلثمه ... ضخم المناكب لا عم ولا خال

فاحفظ ثيابك منه أن يدنسها ... ولا يغرنك حسن الحال والمال

ذكر هذا المعنى في معنى عفة الجار عن جاريه، وفيه أنشد أبو علي:

ولست بسائل جارات بيتي ... أغياب رجالك أم شهود

ولست بصادر عن بيت جاري ... صدور العير غمره الورود

ولا ألقي لذي الودعات سوطي ... لألهيه وزينته أريد

قال أبو عبيد: ويروى: وربته أريد، قال: وهذا أحسن، يعني أمه. وفسر غمره الورود بشيء حسن، قال: إن الحمار إذا لم يرو صدر متلفتاً إلى الماء، فيقول: لست ألتفت إلى بيت جاري. كذلك انظر في التكميل البيت الذي للخطيب أبي محمد رضي الله عنه:

بإحدى هذه الخيمات جاره ... ترى هجري وتعذيبي تجاره

وكيف ذيله جماعة من أهل الأدب، وجوابه على كلامهم بأبرع كلام وأبدع نظام.

وجاء في الحديث أيضاً: يقول عليه الصلاة والسلام لأبي هريرة رضي الله عنه: يا أبا هريرة كن ورعاً تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن من أغنى الناس، وأحبّ للمسلمين والمؤمنين ما تحب لنفسك وأهل بيتك، وتكره لهم ما تكره لنفسك وأهل بيتك، تكن مؤمناً، وجاور من جاورت من الناس بإحسان تكن مسلماً. وقال لأبي ذر رضي الله عنه: يا أبا ذرّ إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك.

وفي حديث آخر: إن الجار الفقير يتعلق بالجار الغني يوم القيامة ويقول: يا رب سل هذا لم منعني معروفه وسدّ بابه دوني. وفي حديث آخر أنه يقول: يا رب سل هذا لم بات شابعاً وبتّ إلى جنبه طاوياً. ومما يصدّق هذا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأسامة بن زيد في وصيته: يا أسامة إياك وكل كبد جائعة تخاصمك عند الله، فإنه ما آمن بي من يأت شبعاناً وجاره طاو إلى جنبه.

قلت: هذا في الجار، أفليس أولو الأرحام أحق بهذا الإكرام مع قوله عليه الصلاة والسلام: لا يدخل الجنة قاطع رحم؟ ومع قوله عليه الصلاة والسلام: إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة؟. قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟. قالت: بلى. قال: فذاك لك. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٢٢]. وفي رواية: قامت الرحم فأخذت بحقوي الرب فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، وسيأتي تفسير قوله: بحقوي الرب، إن شاء الله تعالى.

وقال عليه الصلاة والسلام في الحض على ذلك: من أحبّ أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه. وقال عليه الصلاة والسلام: صلة الرحم تزيد في العمر. وقال عليه الصلاة والسلام: ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعته رحمه وصلها. وسأله رجل فقال له: إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليّ، فقال: لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم الملّ، ولا يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك. قوله في هذا الحديث: الملّ، قال الخطابي: هو الرماد الحار، وسيأتي الكلام على مثل هذه اللفظة في باب الميم إن شاء الله تعالى.

ما اتقى الله عبدٌ قطع رحمه، ورحم الله عبداً أطاب كلامه وأطال سلامه، وانتهى به إلى البركات فبذلك تحصل له الحسنات المباركات.

كما يروى عن عمران بن حصين قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فجاء رجل فسلم فقال: السلام عليكم، فردّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: عشر، ثم جلس، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فردّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: عشرون، ثم جلس، ثم جاء آخر وقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: ثلاثون. خرّجه النسائي رحمه الله. وقال في حديث آخر: وجاء آخر فزاد: ومغفرته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أربعون، وقال: هكذا تكون الفضائل، أو كما قال صلى الله عليه وسلم. وقال بعضهم: وإن انتهى إلى: ورحمة الله؛ فحسن أيضاً، قد فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم. خرجه الترمذي عن أبي تميمة الهجيمي، واسمه طريف ابن مجالد، عن رجل من قومه قال: طلبت النبي صلى الله عليه وسلم فلم أقدر عليه، فجلست فإذا نفر هو فيهم ولا أعرفه وهو يصلي بينهم، فلما فرغ قام معه بعضهم فقالوا: يا رسول الله، فلما

رأيت ذلك قلت: عليك السلام يا رسول الله عليك السلام يا رسول الله عليك السلام يا رسول الله، قال: إن عليك السلام تحية الميت، ثلاثاً، ثم أقبل عليّ فقال: إذا لقي الرجل أخاه المسلم فليقل: السلام عليكم ورحمة الله، ثم ردّ عليّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: وعليك ورحمة الله وعليك ورحمة الله وعليك ورحمة الله.

وبركة السلام كثيرة، ألم تر أن عبد الله بن عمر كان يغدو إلى السوق، وما كان غدوّه إلا ليسلم ويسلم عليه، فيذكر الله. وقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على صبيان فسلم عليهم، ومن بركة السلام أنك تسلم على الميت فيردّ عليك. وذكر أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في الاستذكار من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا عرفه وردّ عليه السلام. وقال فيه إسناد صحيح. وقال ابن عباس رضي الله عنه: من سلم عشر مرات فله أجر عتق رقبة، وكذلك لو ردّ السلام.

وقد ورد في ردّ السلام ولين الكلام حديث جامع لمن حفظه وعمل به نافع، وهو ما خرّج أبو نعيم الحافظ في كتاب حلية الأولياء، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا معاذ بن جبل انطلق فرحل راحلتك ثم ائتني أبعثك إلى اليمن، قال: فانطلقت فرحلت راحلتي ثم جئت فوقفت بباب المسجد حتى يأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذ بيدي ثم مشى معي فقال: يا معاذ عليك بتقوى الله وصدق الحديث، ووفاء العهد وأداء الأمانة وترك الخيانة، ورحمة اليتيم وحفظ الجار، وكظم الغيظ وخفض الجناح، وبذل السلام ولين الكلام، ولزوم الإيمان والتفقه في القرآن، وحب الفكرة والجذع من الحساب وقصر الأمل وحسن العمل، وإياك أن تشتم مسلماً أو تكذّب صادقاً أو تصدّق كاذباً، أو تعصي إماماً عادلاً، يا معاذ اذكر الله عند كل حجر وشجر، وأحدث مع كل ذنب توبة، السر بالسر والعلانية بالعلانية. قلت: هذا حديث ذكر فيه إنالة السلام ولين الكلام، فمن استعمله ألان كلامه وأنال سلامه، ولا أقل في الصلة من السلام لأهل الإعدام، وأما أهل الإيسار فلا يسعهم إلا الإكثار، والله أعلم.

فصل:

تقدّم ذكر البول، وقد كره قوم أن يقول الرجل عوض بلت: أرقت الماء، وقالوا: هذا كذب ليس بماء، ولكنه بول. ورووا عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: لا تقل أهريق الماء، ولكن قل: أبول. وسمع ابن عباس رضي الله عنهما رجلاً يقول: أهريق الماء، فقال: لا تقل أهريق الماء، ولكن قل: أبول.

وأجاز ذلك قوم، ورووا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال لأبي ذر رحمه الله حين قدم مكة ليسلم، فأدخله النبي صلى الله عليه وسلم، وقال له عليّ: ادخل معي فإن رأيت شيئاً أخافه عليك فإني أقوم كأني أريق الماء، فاذهب أنت.

وجاء في حديث أسامة ذكر البول غير مكنّى: إن النبي صلى الله عليه وسلم حين أفاض من عرفة أتى الشعب فبال. وفي تفسير الحديث قال عكرمة: روى الحديث ولم يقل أراق الماء، وأكثر ما يكنى عن الغائط، ويصرح بذكر البول، كما جاء في الحديث في شأن القبلة: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تستقبل بغائط أو بول.

قلت: وإنما كنى عنه؛ والله أعلم؛ لأنه لما كره مرآه كره النطق به، وليس مرأى البول كذلك، على أنه قد جاء في الحديث غير مكنى عنه، قال النبي صلى الله عليه وسلم: لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخرء بأنفه، إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي وفاجر شقي، كلهم بنو آدم وآدم من تراب.

وكما قال سلمان الفارسي رضي الله عنه وقيل له: علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة؟ فقال: أجل لقد نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول وأن نستنجي باليمنى، وذكر الحديث فذكر الخراءة، وحسن هنا ذكرها على جهة الإغياء. كما قال أبو ذر رضي الله عنه: ولقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علماً. صلى الله عليه وسلم وعلى آله.

وقال حذيفة رضي الله عنه: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً فما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدّث به، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، علمه أصحابي، ألا وإنه ليكون منه الشيء فأعرفه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه. صلى الله عليه وسلم، ورضي الله عن جميع العلماء الذين لم يغفلوا من العلم شيئاً، حتى هذه اللفظة، فإنهم قالوا: خريئ خراءة، والاسم: الخرء، والمكان: المخرأة، بالقصر. وقال أبو عبيد: خُرء الفأرة، بالضم، كذا رأيته بالضم، وكذا وقع في كتاب تاج اللغة: خُرء الكلاب، بالضم أيضاً، ونوع مما تقدّم من يعلم كل شيء حتى الخراءة؛ ما يروى أن رجلاً من بني بكر بن كلاب كان يعلم بني أخيه العلم فيقول: افعلوا كذا وافعلوا كذا، فثقل عليهم، فقال له بعضهم: قد علمتنا كل شيء وما بقي علينا إلا الفعالة، لا يكني. فقال: يا بني والله ما تركت ذلك من هوان بكم عليّ، اعلموا الضراء وابتغوا الخلاء واستدبروا الريح، وخوّوا تخوية الظليم، وانمشوا

بأشملكم. ذكره البكري وفسر الضراء هو ما وارى من الشجر. ويقال: خوّى الظليم، إذا جافى بين رجليه ويديه. وقوله: انمشوا يريد: امسحوا واستنجوا بأشمال أيديكم، ولذلك سمي المنديل المشوش، وأنشد

نـــــمش بأعــــراف الجـــــياد أكفـــــنا

البيت. خرج البكري ما تقدّم على قول أبي عبيدة في الأمثال: لا تفاكه أمه ولا تبل على أكمه.

والنهي عن البول على الأكمه خشية أن يرجع بوله عليها لانصبابها، وإن بال بأعلاها ردّت الريح بوله، ولذلك قال قبل هذا: واستدبروا الريح، والله أعلم.

قلت: وما أحسن العلم وأفضل من اكتسى به وأنبل من جد في اكتسابه، لا أقول في فن واحد بل في جلّ فنونه وكل عيونه. ذكر ابن قتيبة أن الحسن بن علي رضي الله عنهما لما قدم على معاوية بالشام أشار عمرو بن العاص على معاوية أن يأمره أن يصعد المنبر فيتكلم على الناس، والغرض أن يخجل فيخطئ فيعاب، وأبى الله أن ينطقه إلا بالصواب، فلما صعد كان أول كلامه: أيها الناس لو طلبتم ابناً لنبيكم من جابلص إلى جابلق لم تجدوا غيري وغير أخي، وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين. فساء ذلك عمراً وأراد أن يقطع كلامه فقال: يا أبا محمد هل تنعت الخراءة؟ قال: نعم، تبعد المشي في الأرض الصحيح حتى تتوارى من القوم، ولا تستقبل القبلة ولا تستدبرها، ولا تستنج بالروثة ولا بالعظم، ولا تبل في الماء الراكد، وأخذ في كلامه رضي الله عنه. وقد اعترى نوع من هذا لواعظ كان يتكلم على الناس، فسأله رجل وأراد أن يبكته عن صفة الغائط وطعمه، فقال على الفور ولم يتوقف: سأل هذا السائل عن طعم العذرة صفة نفسه القذرة، فأقول: طعمها أوّلاً حلو، دليله أن الذباب ينزل عليه ولا ينزل إلا على حلو، ثم بعد ذلك حامض، دليله أن البعوض ينزل عليه، ثم بعد ذلك مرّ دليله أن لا يقرب منه حيوان، ومن كذبني فليذقه. ثم رجع إلى كلامه رضي الله عنه وعن العلماء.

قلت: ومن مليح ما رأيت في هذه اللفظة على شناعة ذكرها ما قال عمر بن الخطاب لأبي سفيان بن الحارث رضي الله عنهما: خرّج عبد بن حميد أن أبا سفيان قال للنبي صلى الله عليه وسلم حين عرض عليه الإسلام: كيف أصنع بالعزى؟ فسمعه عمر رضي الله عنه من وراء القبة، فقال له: تخرأ عليها، فقال له أبو سفيان: ويحك يا عمر إنك رجل فاحش، دعني مع ابن عمي فإياه أكلم. انتهى كلامهما رضي الله عنهما.

تقدّم ذكر الصاحبين الحسن وأبي سفيان رضي الله عنهما وأرضى، وجعل خدّي

لأخمص أقدامهما أرضاً. أما الحسن بن علي فمكانه العلي وكلامه الذي أراد عمرو أن يعجله ليخجله كان زائداً على ما في الكتاب، بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن أكيس الكيس التقي، وأحمق الحمق الفجور، وإن هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية إما أن يكون حقه فهو أحق به مني، وإما أن يكون هو حقاً لي وقد تركته إرادة إصلاح الأمة وحقن دمائها. وآخر ما قال: وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين. وفيه قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن ابني هذا سيد، وعسى الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين، فكان كما قال عليه الصلاة والسلام، أصلح به بين الناس، ورفع عنهم البأس. وقيل له في ذلك، فقال: قد كانت جماجم العرب في يدي يحاربون من حاربت ويسالمون من سالمت، فتركتها ابتغاء وجه الله تعالى، وحقن دماء أمّة محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن فضله رضي الله عنه أنه قال: إني لأستحيي من ربي أن ألقاه ولم أمش إلى بيته، فمشى عشرين مرة من المدينة على رجليه، وقسم ماله نصفين حتى تصدّق بفرد نعله. وفي رواية: خرج الحسن من ماله مرتين، وقاسم الله تعالى ماله ثلاث مرات، حتى إن كان ليعطي نعلاً ويمسك نعلاً، ويعطي خفاً ويمسك خفاً. وكان آخر أمره أن مات شهيداً رحمه الله، سقي السم حتى قتله.

حدّث عمير بن إسحاق قال: دخلت أنا ورجل على الحسن بن علي رضي الله عنهما نعوده، فقال: يا فلان سلني، قال: والله لا أسألك حتى يعافيك الله ثم أسألك، قال: قد ألقيت طائفة من كبدي، وإني قد سقيت السم مراراً فلم أسق مثل هذه المرة. ثم دخلت عليه من الغد وهو يجود بنفسه والحسين عند رأسه، فقال: يا أخي من تتهم؟ قال: لم لتقتله؟ قال: نعم، قال: إن يكن الذي أظن فالله أشدّ بأساً وأشدّ تنكيلاً، وإن لم يكن فما أحبّ أن يقتل بي بريء، ثم قضى. وفي رواية: لما احتضر قال: أخرجوني إلى الصحن لعلي أنظر في ملكوت السماء، يعني الآيات، فلما خرج قال: اللهم إني أحتسب نفسي عندك فإنها أعزّ الأنفس عليّ، فكان مما صنع الله تعالى له أن احتسب له نفسه رضي الله عنه.

وأما أبو سفيان رضي الله عنه فكان رضيع رسول الله صلى الله عليه وسلم، أرضعتهما حليمة، وكان آلف الناس له قبل النبوّة لا يفارقه، فلما نبئ كان أبعد الناس عنه وأهجاهم له، وإياه عنى حسان بن ثابت بقوله:

ألا أبلغ أبا سفيان عني ... مغلغلة فقد برح الخفاء
هجوت محمداً.................... ....

الأبيات. فلما اسلم كان أصح الناس إيماناً وألزمهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقال: إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حياء منه رضي الله عنه. وفيه قال النبي عليه الصلاة والسلام: أبو سفيان خير أهلي، أو: من خير أهلي. وله قال النبي عليه الصلاة والسلام: أنت يا أبا سفيان كما قيل: كل الصيد في جوف الفرا. وقيل: بل قالها لأبي سفيان بن حرب، والأوّل أصح.

ومات أبو سفيان بن الحارث رضي الله عنه بالمدينة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال عند موته: لا تبكين عليّ فإني لم أنطق بخطيئة منذ أسلمت. ومات من ثؤلول كان في رأسه حلقه الحلاق له في حج فقطعه مع الشعر فنزف دم منه، واسمه المغيرة، وقيل: بل اسمه كنيته والمغيرة أخوه. قال القتيبي: إخوته المغيرة ونوفل وعبد شمس وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. نقلت أكثر ها من كتاب الصحابة لابن عبد البر، وكان أبو سفيان هذا يشبه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يشبهه أيضاً جعفر بن أبي طالب والحسن بن علي وقثم بن العباس والسائب بن عبيد.

وكان أبو سفيان من الشعراء المطبوعين، وله مقطوعات من شعر يبكي بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، منها:

أرقت فبات ليلي لا يزول ... وليل أخي المصيبة فيه طول
وأسعدني البكاء وذاك فيما ... أصيب المسلمون به قليل
لقد عظمت مصيبتنا وجلّت ... عشية قيل قد مات الرسول
وأضحت أرضه مما عراها ... تكاد بها جوانبها تزول
فقدنا الوحي والتنزيل فينا ... يروح به ويغدو جبريل
وذاك أحق ما سالت عليه ... نفوس الناس أو كادت تسيل
نبي كان يجلو الشك عنا ... بما يوحى إليه وما يقول
ويهدينا فلا نخشى ضلالاً ... علينا والرسول لنا دليل
أفاطم إن جزعت فذاك عذر ... وإن لم تجزعي ذاك السبيل
فقبر أبيك سيد كل قبر ... وفيه سيد الناس الرسول

أسلم أبو سفيان هذا يوم الفتح، قال له علي بن أبي طالب: ائت رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل وجهه، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴾ [يوسف: ٩١]، فإنه لا يرضى أن يكون أحداً أحسن قولاً منه، ففعل ذلك أبو سفيان، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ لَا تَثْرِيبَ

﴿عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]. مات رضي الله عنه بعد أخيه نوفل بأربعة أشهر إلا ثلاث عشرة ليلة سنة عشرين، وصلى عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمدينة، وقد حفر قبر نفسه قبل أن يموت بثلاثة أيام، ذكر هذا كله أبو عمر رحمه الله.

فصل:

قصة الذبح وتعيين الذبيح:

تقدّم قوله تعالى: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣] والجبين: الجبهة، والوجه في الآية أحسن، لأنه جاء في التفسير أنه قال لأبيه: يا أبت اشدد رباطي حتى لا أضطرب، واكفف ثيابك لئلا ينتضح عليها شيء من دمي فتراه أمي فتحزن، وانزع هذا الثوب الذي عليّ لئلا يصيبه الدم، وكفني فيه، وأسرع مرّ السكين على خلقي ليكون الموت أهون عليّ، واقذفني للوجه لئلا تنظر إلى وجهي فترحمني، ولئلا أنظر إلى الشفرة فأجزع، وإذا أتيت أمي فأقرئها مني السلام، وكان حينئذ ابن ثلاث عشرة سنة، فلما جرّ إبراهيم السكين ضرب الله عليه صفيحة من نحاس، فلم تعمل السكين شيئاً، ثم ضرب به على جبينه وجرّ في قفاه فلم تعمل شيئاً.

قال ابن عباس: كبّه على جبهته فنودي: يا إبراهيم ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الصافات: ١٠٥] فالتفت فإذا بكبش، وهو الذبح العظيم كان قد رعى في الجنة أربعين سنة. وقيل: فدي بوعل. قال ابن عباس: كان ذبح الكبش بالشام. وقال مجاهد: معنى عظيم: كبير متقبل. واختلف في الذبيح فقيل: إسحاق، وقيل: إسماعيل. فمن قال إسماعيل احتج بقول معاوية بن أبي سفيان: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه أعرابي فتكلم فقال في كلامه: يا ابن الذبيحين فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينكره. قال معاوية: فالذبيح الأول إسماعيل والثاني عبد الله والد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكر قصته مع عبد المطلب، وهذا هو الأصح، لأنه قال تعالى بعد أن فدى ابنه من الذبح: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾ [الصافات: ١١٢].

وقال من جعله إسحاق: إنما بشر بأن يكون نبياً من الصالحين، والله أعلم بما أراد من ذلك. وجواب (لما) عند البصريين محذوف(*)، وهو عند الكوفيين: تله، والواو

(*) قال البيضاوي: تقريره كان ما كان مما ينطق به الحال ولا يحيط به المقال من استبشارهما وشكرهما لله تعالى على ما أنعم. اهـ.

عندهم زائدة في صلة الكلام، والله أعلم.

واختلف العلماء في سبب رؤيا إبراهيم عليه السلام حين أمر بذبح ولده، فقيل: إنه ادّعى المحبة ثم التفت إلى الولد فلم يرض حبيبه محبة مشتركة، فأمر بذبح الولد ليرجع عن محبته، فتكون المحبة خالصة لله عز وجل، فلما فرغ قلبه عن محبة ولده، ووطن نفسه على ذبحه، وتشمر لذلك؛ نودي: يا إبراهيم لم يكن المراد ذبح ولدك، إنما المراد تخلية قلبك عن كل محبة سوى محبتنا، فلما رددت قلبك بكليته إلينا رددنا ولدك عليك. وقيل: كان سبب ذلك أنه كان عليه السلام يعرج به كل ليلة إلى السماء، وهو قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الأنعام: ٧٥]، فعرج به ذات ليلة، فاطلع على مذنب مصرّ على فاحشة، فقال: اللهم أهلكه، يأكل رزقك ويمشي على أرضك ويخالف أمرك، فأهلكه الله، فاطلع على آخر فقال: اللهم أهلكه، فنودي: كف عن عبادي رويداً رويداً، فإني طالما رأيتهم عاصين. فلما أهبط رأى في المنام ما ذكره الله تعالى حيث يقول: ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فلما تشمر لذلك وأخذ السكين بيده قال: اللهم هذا ولدي وثمرة فؤادي وأحبّ الناس إليّ، فسمع قائلاً يقول: أما تذكر الليلة التي سألتني إهلاك عبدي، أوَما تعلم أني رحيم بعبادي كما أنت شفيق بولدك؟ فإذا سألتني إهلاك عبدي أسألك ذبح ولدك واحداً بواحد، والبادي أظلم. ذكر هذا كله الفقيه الحافظ أبو منصور نصر بن منصور بن مهران الهمداني الكوفي رحمه الله، في تفسير قصة يوسف عليه السلام.

ذكر اللات :

وتقدّم اللات، قال ابن عباس رضي الله عنهما: اللات: رجل كان يلت السويق بالسمن عند صخرة ويصب عليها، فلما مات ذلك الرجل عبدت ثقيف تلك الصخرة إعظاماً لصاحب السويق، قاله المهدوي. وقال غيره: زعموا أن عمرو بن لحي لما غلبت خزاعة على البيت ونفت جرهم عن مكة؛ جعلته العرب رباً لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة، لأنه كان يطعم الناس ويكسوهم في المواسم، فربما نحر في المواسم عشرة آلاف بدنة، وكسا عشرة آلاف حلة، حتى قيل: إنه اللات الذي كان يلت السويق إلى الحجيج على صخرة معروفة تسمى صخرة اللات. ويقال: إن الذي كان يلت كان من ثقيف، فلما مات قال لهم عمرو: إنه لم يمت ولكن دخل في الصخرة، ثم أمرهم بعبادتها، وأن يبنوا عليها بيتاً يسمى اللات. ويقال: دام أمره وأمر ولده من بعده

ثلاثمائة سنة، فلما هلك سميت تلك الصخرة اللات مخففة التاء، واتخذت صنماً يعبد، وعمرو بن لحي هذا هو أوّل من سيّب السائبة ونصب النصب.

وفيه قال النبي صلى الله عليه وسلم: رأيته يؤذي أهل النار بريح قصبه. وعمرو هذا هو أوّل من أدخل الأصنام أرض العرب، قدم بهبل من مارب من أرض البلقاء فنصبه في الكعبة، وأمر الناس بعبادته، ثم صار أمر اللات إلى أن بنيت بيتاً يعبده أهل الطائف وهم ثقيف، ويسترونه بالثياب ويهدون له الهدي، ويطوفون حوله ويسمونه الربة، يضاهون به بيت الله الحرام بمكة. فلما قدم وفد ثقيف على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن فتحت مكة يريدون الصلح؛ وتيقنوا أنهم لا طاقة لهم بقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ قدم عليه منهم بضعة عشر رجلاً من أشرافهم، فيهم كنانة وعبد ياليل، وكان رئيسهم يومئذ. ذكر ابن إسحاق عبد ياليل هذا وقال فيه: هو ناب القوم وصاحب أمرهم، وقد تقدّم ناب، وفسّر أنه السيد، فرض عليهم النبي صلى الله عليه وسلم الإسلام، فقالوا له: أرأيت الزنا؟ فإنا قوم نغترب ولا بدّ لنا منه، قال: هو عليكم حرام، قالوا: فالربا؟ فإنه أموالنا كلها، قال: والربا حرام ولكم رؤوس أموالكم، قالوا: فالخمر؟ فإنها عصير أرضنا ولا بدّ لنا منها، قال: إن الله قد حرمها، وتلى عليهم بذلك كله قرآناً، فقالوا: أرأيت الربة ماذا نصنع فيها؟ قال: اهدمنها، قالوا: هيهات! لو تعلم الربة أنك تريد هدمها قتلت أهلها. فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ويحك يا عبد ياليل ما أحمقك! إنما الربة حجر، قالوا: إنا لم نأتك يا ابن الخطاب، ثم قالوا: يا رسول الله تولّ أنت هدمها، فأما نحن فلا نهدمها أبداً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سأبعث إليكم من يكفيكم هدمها، فرجعوا إلى بلادهم، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم رسله، وفيهم المغيرة بن شعبة، وأمّر عليهم خالد بن الوليد رضي الله عنه، فلما قدموا عليهم عمدوا إلى اللات ليهدموها، وانكفت ثقيف كلها الرجال والنساء والصبيان حتى خرج العواتق من الحجال، وهم لا يرون أنها تهدم ويظنون أنها ستمتنع، فقام المغيرة بن شعبة فأخذ الكرزين وقال لأصحابه: لأضحكنكم من ثقيف، فضرب بالكرزين(*) ثم أخذ يرتكض، فارتج أهل الطائف بصيحة واحدة وقالوا: ابعد الله المغيرة، قد قتلته الربة، وفرحوا حين رأوه ساقطاً، وقوالوا: من شاء منكم فليقترب وليجدّ على هدمها فوالله لا تستطاع أبداً، فوثب المغيرة فقال: قبحكم الله يا معشر ثقيف، إنما هي لكاع حجارة ومدر، ثم ضرب الباب فكسره، ثم علا على سورها علا

(*) الكرزين: فأس كبير.

الرجال معه، فما زالوا يهدونها حجراً بعد حجر حتى سووها بالأرض، وجعل صاحب المفاتيح يقول: ليغضبن الأساس فليخسفن بهم الأرض، فلما سمع ذلك المغيرة قال لخالد: دعني أحفر أساسها، فحفروا حتى أخرجوا ترابها وأخذوا حليها وثيابها وكسوتها، فقدموا به على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقسمه من يومه، وحمدوا الله عز وجل على نصر نبيه وإعزاز دينه. وذكر ابن إسحاق أن الذي أرسل مع المغيرة أبو سفيان بن حرب، وهو كان الأمير، والله أعلم.

وأما العزى فكانت نخلات مجتمعات، أخبرهم عمرو بن لحي أن الرب يشتي بالطائف ويصيف بالعزى، فعظموها وبنوا لها بيتاً وأهدوا لها كما يهدون إلى الكعبة، وكان آخر أمرها أن بعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد رضي الله عنه فهدمها.

ومما يحسن ذكره هنا من حديث اللات والعزى من سرعة الجواب وإصابة المعنى ما يروى أن قريشاً قالت: قيضوا لأبي بكر رجلاً يأخذه، فقيضوا له طلحة بن عبيد الله، فأتاه وهو في القوم فقال: يا أبا بكر قم إليّ، فقال: إلامَ تدعوني؟ قال: أدعوك إلى عبادة اللات والعزى، فقال أبو بكر: من اللات والعزى؟ قال: بنات الله، قال: فمن أمهم؟ فسكت طلحة وقال لأصحابه: أجيبوا صاحبكم، فسكتوا، فقال طلحة: قم يا أبا بكر فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فأخذ أبو بكر بيده فأتى به النبي صلى الله عليه وسلم.

ونوع من حديث أبي بكر مع طلحة رضي الله عنهما حديث ذي الكفل مع ملك كان في زمانه، كان أهله يعبدونه من دون الله تعالى، قال له ذو الكفل: تزعم أنك إله أفإله من تملكه أنت أو إله جميع الخلق، فإن كنت إله من تملك فإن له شريكاً فيما لا تملك، وإن كنت إله جميع الخلق فمن إلهك؟ قال: فمن إلهي؟ قال: إله السماوات والأرض.

تقدّم ذكر طلحة بن عبيد الله، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وهو من المهاجرين الأوّلين، ولما أسلم على يد أبي بكر كما تقدّم؛ عدا عليهما عثمان بن عبيد الله أخو طلحة، وكان له قدر في الجاهلية، فقرنهما بحبل، فلذلك سميا القرينين، ويقال: إن الذي عدا عليهما هو نوفل بن خويلد وهو ابن العدوية، والله أعلم. وكان طلحة هذا أحد المياسير، كانت غلته كل يوم ألف دينار واف، ويكنى أبا محمد، قتل شهيداً رضي الله عنه فدفن بقنطرة قرة، فرأته ابنته عائشة بعد موته بثلاثين سنة في المنام أنه يشكو إليها النزّ، فأمرت به فاستخرج طرياً، فدفن في داره بالبصرة، فقبره هناك مشهور، وكان

إخراجه من قبره بعد ثلاثين سنة، ولا يستغرب هذا، فإن حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه حين حفر معاوية العين وجد صحيحاً لم يتغير، وأصابت الفأس إصبعه فدميت، انظر حديثه في الموطأ.

وتزوّج عائشة هذه عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه، ثم تزوّجها مصعب بن الزبير، فأعطاها ألف درهم. ومن مواليه مسلم بن يسار، أحد العلماء، وكان لا يفضل عليه أحد في زمانه، وكان يقول: إني لأكره أن أمس فرجي بيميني، وأنا أرجو أن آخذ بها كتابي، وكان لا يلعن شيئاً، فإذا غضب على البهيمة قال: أكلت سماً قاضياً، رضي الله عنه وعن جميعهم، وجزاهم خيراً على صنيعهم.

وقد فعل مثل ما فعل مسلم هذا من كان أفضل منه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإنه قال: ما بلت قائماً منذ أسلمت، ولا مسست فرجي بيميني. ومثله ما يروى عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: ما مسست فرجي بيميني منذ بايعت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قلت: ولو لم يكن هذا فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن يمس الرجل ذكره بيمينه وهو يبول، ولا يتمسح من الخلاء بيمينه. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم اليمنى لطهوره وطعامه، وكانت اليسرى لخلائه وما كان من أذى. فالموفقون من أرباب الحقائق قد استعملوا هذه الطرائق وألفوا هذه الخلائق، ولقد جعلت بالي لهذه الأعمدة التي في الأبواب، لا تجد الذكر منها إلا من جهة الشمال، ليتناوله الذي يفتحه بشماله، وإن كان من حديد فإن اسمه ذكر، والذي ركبه أوّلاً في الباب كان فقيهاً أو أمره عالم موفق بذلك، وضع الأشياء مواضعها، وأعطى لكل ذي حق حقه، وأقام الوزن بالقسط، لقوله عليه الصلاة والسلام: كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولدها وهي مسؤولة عنهم، والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راع ومسؤول عن رعيته.

قلت: فإن لم يكن للإنسان أهل ولا مال ولا كان والياً على أحد ولا له من يلي عليه، فإن له جوارح وهو راع لها ومسؤول عن رعيتها، كاليدين والرجلين والعينين والأذنين، فعليه أن يرعاها ولا يستعملها إلا فيما ينبغي كما ينبغي. وهنا يحتاج إلى العلم ليقدّم من يجب تقديمه، ويؤخر من يستحق التأخير، ويؤتي كل ذي حق حقه، فلا يستنجي باليمين ولا يأكل بالشمال، ولتكن اليمنى للفضائل واليسرى للرذائل. ألم

تسمع قول عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب التيامن ما استطاع، في ترجله إذا ترجل، وفي انتعاله إذا انتعل، وفي طهوره إذا تطهر، وفي شأنه كله كذلك. وقد تقدّم قولها: كانت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم... الحديث.

وكذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته فقال: إذا انتعل أحدكم فليبدأ باليمين، وإذا خلع فليبدأ بالشمال، ولتكن اليمنى أوّلها تنعل وآخرها تنزع. والحكم في ذلك أن اليمنى أفضل، واللباس أفضل من التعري، فيبدأ بالزينة للأفضل أوّلاً ويتركها مزينة آخراً، ومراعاة هذا القدر وإن دق هو من إقامة الوزن بالقسط. وكذلك يفعل في دخول المسجد، يبدأ بإدخال رجله اليمنى فيه، لأنه أفضل من الزقاق، فيدخل الأفضل في الأفضل، وإذا خرج بدأ بالشمال فأخرجها، أخرج الأدون إلى الأدون، وترك الأفضل في الأفضل. وبضد ذلك في دخول الخلاء، يدخل بالشمال قبل لأنها الأدون إلى الأدون، وإذا خرج قدّم الأفضل في الخروج إلى الأرض التي ليست موضع الخلاء، لأنها أفضل. ولهذا يحتاج العلم فيستعمله صاحبه فيكون طول عمره في عبادة، يأكل ويشرب ويلبس وينام ويتصرف، وحسناته تكتب.

فصل:

الاحتكار:

تقدّم الاحتكار، وجاء في بعض الأخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الاحتكار في عشرة أشياء: في البر والشعير والتمر والزبيب والذرة والسمن والعسل والجبن والجوز والدخن. وقد ذكر أبو الحسن علي بن مهدي الطبري في كتاب المجالس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من تمنى الغلاء على أمتي ليلة واحدة أحبط الله عمله أربعين سنة. وفيه أن محتكر الطعام يحشر مع قتلة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وذكر عن الحسن أنه قال: من تربص بطعام أربعين يوماً يريد الغلاء ثم تصدق به لم يكن ذلك كفارة لما صنع. وقال الحسن: المحتكر ملعون، ينقص من عقله ويزاد في وسوسته في صلاته. نقلت هذا من شرح الشهاب لأبي القاسم بن إبراهيم الوراق رحمه الله. ومنه أيضاً أن المسور بن مخرمة رضي الله عنه احتكر طعاماً كثيراً، فرأى سحاباً من الخريف فكرهه فقال: ما أراني إلا قد كرهت ما ينتفع به المسلمون من جاءني وليته كما اشتريته، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأرسل فيه، فقال: يا أمير المؤمنين: كان من أمري كذا، فآليت أن لا أربح فيه شيئاً، فقال له عمر: جزاك الله خيراً.

وتقدّم: ما بين لابتيها، وأنه لا يقال ذلك إلا في المدينة وفي الكوفة. سمع رجل بالبصرة شبيب بن شيبة يقول في حديث السقط: إنه يظل محبنظئاً على باب الجنة، بالظاء المنقوطة، فقال له الرجل: أخطأت إنما هو بالطاء، قال الراجز:

إنـــي إذا استنـــشدت لا أحبنطـــي ولا أحـــب كثـــرة التمطـــي

فقال له شبيب: أتلحنني وما بين لابتيها أفصح مني؟ فقال له الرجل: وهذه لحنة أخرى، أوَللبصرة لابتان؟ إنما اللابتان للمدينة والكوفة. ومعنى المحبنطي: المتغضب المتكرّه، يقال منه: رجل حبنطأ وحبنطأة: سمين ضخم البطن، والمحبنطي يهمز ولا يهمز، وهو الممتلئ غيظاً.

خرّج الخطابي عن ابن دريد: قال أبو زيد: قلت لأعرابي ما المحبنطئ؟ قال: المتكأكئ، قلت: ما المتكأكئ؟ قال: المتنازق، قلت: ما المتنازق؟ قال: اذهب فأنت أحمق.

فصل:

وتقدّم قوله تعالى: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وهذا القول والإشهاد حقيقة، أعني قوله تعالى: ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، لأنه روي أن الله تعالى مسح ظهر آدم بيده، فاستخرج منه من هو مولود إلى يوم القيامة كهيئة الذر، فقال: يا آدم هؤلاء ذريتك أخذت عليهم العهد بأن يعبدوني ولا يشركوا بي شيئاً، وعليّ رزقهم، قال: نعم يا رب، فقال الله تعالى: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾، فقال للملائكة: اشهدوا، فقالت الملائكة: ﴿ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] إلى قوله: ﴿ بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٣]. هذا كله من قول الملائكة، ومعنى: أن تقولوا: لئلا تقولوا، كما قال تعالى: ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ﴾ [النساء: ١٧٦] أي: لئلا تضلوا. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أشهد بعضهم على بعض، فالمعنى على هذا قالوا: بلى شهد بعضنا على بعض، كي لا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين. فيوقف على القول الأوّل على بلى، ولا يحسن الوقف عليه على الثاني. وفي بعض الروايات أنهم أجابوا الله بالتلبية، فقالوا: أطعناك لبيك اللهم لبيك، فأعطيها آدم عليه السلام في المناسك.

فصل:

فيما ورد في هذا الفصل:

من اللغات:

تقدّم: الضيون، وهو السنور الذكر، والجمع الضياون، واحذر أن تصحف الضيون بالضيزن فتحزن وتحزن، والضيزن: الذي يزاحم أباه في امرأته، وأصله: الذي يزاحمك عند الاستقاء في البئر. وضيزن: اسم صنم، الضيزن: الشريك، والضيزن: النحاس. نقلته من تاج اللغة.

وتقدّم في الأخبار عن الفقيه أبي محمد حذقه بالأدب أصل الحذق: القطع، ويقال: حذقت الحبل أحذِقه، بفتح الذال: إذا قطعته. قال الشاعر:

يكاد منه نياط القلب ينحذق

ومنه يقال: خلّ حاذق، أي: قاطع من شدته وعتقه، ومنه قيل: حذق الغلام القرآن، أي: قطع العمل عنه، فهو حاذق. وقال أبو عبيد: الحذاقيّ: الفصيح اللسان البيّن اللهجة، والفعل منه: حذق يحذق حذقاً وحذقاً وحذاقة وحذاقاً، وقد حذق يحذق لغة، وقد حذقت الحبل أحذقه: إذا قطعته، بالفتح لا غير كما تقدّم. خرّج ذلك كله ثابت في حديث بشير بن أبي مسعود أنه اشترى جوزاً بأربعة دراهم، فأنهبه على ابن له في حذاق أو ختان. قال غيره: والحذيق المقطوع أيضاً، وأنشد:

أنور اشرع ماذا يا فروق وحبل الوصل منتكث حذيق

ويقال لليوم الذي يختم فيه الغلام القرآن: هذا يوم حذاقة. ويقال: فلان في صنعته حاذق باذق، وهو اتباع له، والحاذق: القاطع كما تقدّم، قال أبو ذؤيب:

يرى ناصحاً فيما بدا وإذا خلا فذا لك سكين على الحلق حاذق

وتقدّم اليفن، وهو الكبير والصغير، وهو من الأضداد، فإذا قلت: شيخ يفن، فهو الكبير، وإذا قلت: صبي يفن، فهو الصغير. قال الأعشى:

وما إن رأى الدهر فيما مضى يغادر من شارف أو يفن

والساحب الذيل الرفن، وهو الذي يجرّ أذياله من الخيلاء، ويوصف به الفرس الطويل الذيل. ويقال فيه أيضاً: رفل، باللام، وهو مما يتعاقب فيه النون مع اللام، وله نظائر سترى منها كثيراً في باب النون إن شاء الله.

وتقدّم في الشعر:

أضرّ شيء على الإنسان خصيته

قال ثابت في الدلائل: قال يعقوب: يقال في الواحد: خصية وخصية، وقال

أبو عبيدة: خصية، ولم أسمع خصية، وسمعت خصياه، ولم يقولوا خصي للواحد. وقال غيره: ربّما حذفوا الهاء من بعض الكلام في التثنية، وأقاموا زيادة التثنية مقام الهاء المحذوفة، فيقولون: لدان، تثنية لدة، وأليان: تثنية ألية، وخصيان: تثنية خصية، قال الراجز:

قد حلفت بالله لا أحبه ... إن طال خصياه وقصر زبه

وأنشد:

كأنما عطية بن كعب ... ظعينة واقفة في ركب

ترتج ألياه ارتجاج الوطب

وربّما حذفوا الهاء وجعلوا المضاف إليه عوضاً من الهاء، قال الشاعر:

بان الخليط بليلي منك فانجردوا ... وأخلفوك عد الأمر الذي وعدوا

أراد عدة الأمر، ومثله:

قام ولاها فسقوه صرخدا

أراد: ولاتها. قال ثابت: وقد جاء عن بعضهم: خصيتان. وأورد حكاية قال بسنده: إنّ فتى من أهل الكوفة أتى حماد الراوية فعرض عليه شعراً قاله، فقال له: ليس هذا بشعرك، إنّما اجتلبته، فقال: لا والله إنه لشعري، قال: فإن كان شعرك فاهجني، وكان حماد ضخم البطن، فتنحى الفتى ناحية ثم رجع إليه فقال: قد قلت، قال: هات، فأنشأ يقول:

سيعلم حماد إذا ما هجوته ... أكنت اجتلبت الشعر أم أنا شاعر

ألم تر حماداً تقدّم بطنه ... فجاوز منه ما تجنّ المآزر

فليس براء خصيتيه ولو حنى ... لركبته ما دام للزيت عاصر

فقال له حماد: أشهد أنه شعرك. قال أبو عمرو: الخصيتان: البيضتان، والخصيتان: الجلدتان اللتان فيهما البيضتان، وينشد:

كأن خصييه من التدلدل ... ظرف عجوز فيه ثنتا حنظل

أراد فيه حنظلتان. وقوله في العشر المتقدّم: ولو حنى، معناه: انحنى وأكب. وفي الموطأ في شأن اليهوديين المرجومين قال: فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة. وفسر معنى يحني: يكب عليها. وقال الشاعر:

وبدلتني بالشطاط الحنا

ألقاب القصار والطوال:

وتقدّم البحتر: القصير، ومثله في القصر: الجعبر والدحدح، ويقال أيضاً في هذا:

دحداح ودحداحة، وكذلك الجحدر والحنبل والمجذر والكهمس والأصمع: القصير الأذن، والنفاش: القصير الناقص. وذكره الخطابي في حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه مرّ برجل نفاش، فخرّ ساجداً ثم قال: أسأل الله العافية، وفسره بما تقدّم.

وقال: قال النضر بن شميل: يقال رجل نفاش، أي: قصير وملطي، وهو فوق النفاش، وسئل رجل من أهل اللغة عنه وكان قصيراً، فظن أن السائل يعرض به، فقال: هو أقصر مني، ولم يزده على ذلك. ويقال لكل شيء من الطير والهوام إذا خفّ وتحرّك من مكانه فقد تنفش، قال ذو الرمة يصف القردان:

إذا سمعت وطء المطيّ تنفّشت ... حشاشتها في غير لحم ولا دم

وأما الطوال فالمشعان، وجاء في الحديث: فإذا رجل مشعان يسوق غنماً. والعطبول، ومن صفة النبي صلى الله عليه وسلم: ليس بعطبول ولا قصير. ويقال: رجل عطبول وامرأة عطبول، سواء. والمشذب: الطويل، ووصف هند بن أبي هالة النبي صلى الله عليه وسلم فقال: كان أطول من المربوع وأقصر من المشذب. والممغط أيضاً: الطويل، ومنه في صفة النبي صلى الله عليه وسلم: ولم يكن بالطويل الممغط.

مبحث الثريا :

وتقدّم ذكر الثريا، ولعلك لا تدري مكبرها، يقال للمال الكثير ثرى على فعيل. وفي حديث أم زرع: وأراح عليّ نعماً ثرياً. ومنه قيل: رجل ثروان وامرأة ثروى، وتصغير ثروى ثريا، وبذلك سميت المرأة.

قال صاحب كتاب تاج اللغة: ويقال للثريا النجم معرفاً بالألف واللام، وسواه نجم. وفي القرآن العظيم: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ [النجم: ١]، قال مجاهد: الثريا إذا سقطت مع الفجر. وقيل: والقرآن إذا نزل، والمراد بالنجم النجوم إذا سقطت يوم القيامة. وقيل في قوله تعالى: ﴿ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴾ [الطارق: ٣] إنه الثريا. وقيل: زحل، ومعنى الثاقب: المضيء. وقيل: العالي. وأما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن: ٦]، فقيل: نجم السماء، وقيل: النجم ما لا ساق له، والشجر: ما له ساق، وسجودهما دوران: ظلهما، وسمي النجم، من نجم إذا طلع وظهر، ومنه: نجم ثدي المرأة، وضدّه: أنجم، بالألف، معناه: استتر، قال الشاعر:

فسد الزمان فلا رشاد ناجم ... بين الأنام ولا ضلال منجم

وتقدّم الفرأ، وهو الحمار الوحشي، قال البطليوسي رحمه الله: يمدّ ويقصر، والأشهر القصر، وجمعه: فراء، مثل جبل وجبال، قال الشاعر:

بضرب كآذان الفراء فضوله … وطعن كإيزاغ المخاض تبورها

أي: تختبرها. ومن قصر الفرا، احتج بقولهم في المثل: أنكحنا الفرا فسترى، ومعنى قوله: كل الصيد في جوف الفرا، أن من اصطاد شيئاً من الصيد كائناً ما كان فإنه صغير بالنسبة للفرا، فكأنه في جوفه، ومن صاد الحمار الوحشي فكأنه صاد جميع الصيد.

فصل:

من الملح أيضاً:

تقدّم الوثاب، قال ابن قتيبة: قال ابن أبي عتيق لرجل: ما اسمك؟. قال: وثاب، قال: فما اسم كلبك؟. قال: عمرو، فقال: واخلافاه. ويروى أن الشعبي قال كذلك لرجل: ما اسمك؟. قال: وردان، قال: وما اسم حمارك؟. قال: عمران، فقال: واخلافاه. وتقدّم القائلة، وأنشدني الخطيب أبو محمد عبد الوهاب لنفسه، وكتب به يلغز إلى بعض الأصحاب:

قل للفتى اللوذعي … محمد بن علي
ما قائل ولعمري … ما إن يفوه بشي
وإنه لمصيب … بذاك قول النبي

فأجابه المكتوب إليه:

يا من يرى سيبويه … يحار بين يديه
نوم الهواجر تعني … بما أشرت إليه
ومن ينم لا يفد ما … خاط الكرا مقلتيه

أراد الفقيه؛ وفقه الله؛ وإنه لمصيب بذاك قول النبي عليه الصلاة والسلام: قيلوا فإن الشياطين لا تقيل. ومن القائلة أيضاً حديثه عليه الصلاة والسلام في ذكر ما في القيامة من هول: يحشر الناس على ثلاث طرائق، راغبين وراهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أمسوا. وفي الحديث أيضاً: من مات غدوة فلا يقيلنّ إلا في قبره، ومن مات عشية فلا يبيتنّ إلا في قبره.

وتقدّم تلتلة ومقلوبها لتلتة.

بني أخرجت من تلتله … خبيثاً وما إن تفطنت له
فإن قلت ما هو فاعلم بأنّ … لتلتة عكسها تلتله

فإن قلت أخرجت شيئاً عظيماً ... تلهى وتهزأ قل لا تله
فإن الأديب الموفق لا ... يضيع من أدب خردله
وقد قيل في مثل قبل ذا ... تقدّم ما خاب من قصد له

ومن الملح أيضاً أخرت فيه القول لأن فيه ذكر البول: كان الفقيه أبو محمد عبد الوهاب رحمه الله من أظرف الناس وأعلاهم وأحسنهم خلقاً وأحلاهم، فكان يتصرف في حاله بيده في حفير وزبير وغير ذلك، وأنا كذلك، فقلت له يوماً: ربما أحفر فأرى حيواناً في الأرض فأكره أن أدفنه في التراب، فقال لي: وأنا يعتريني ذلك فأقول له: تبوّا، وأترك ذلك الموضع ثم أرجع إليه، فأجده قد ذهب، فصنعت أنا ذلك أيضاً، فوجدت مرّة ضفدعاً في موضع فقلت له كذلك، ثم عدت إلى الموضع فوجدته في موضعه، فأزحته عن مكانه فوجدت موضعه مبلولاً، وهذا شأنه أبداً، فقلت أخاطبه: إنما قلت لك تبوّأ ولم أقل لك تبوّل، فذكرت الخبر لأبي محمد رحمه الله، فضحك على ذلك وقال لي: أساء سمعاً فأساء جابة.

لعلك أن تقول يا قارئ هذا السخف مثل هذا يعلق في الصحف؟ فانظرأيها الحرّ ما يجيء بعد من الدرّ. قوله رضي الله عنه: أساء سمعاً فأساء جابة، هذا المثل ذكره أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله، وقال: هكذا تحكى هذه الحكاية: الكلمة بغير ألف، وذلك لأنه اسم موضوع، يقال: أجابني فلان جابة حسنة، وإذا أرادوا المصدر قالوا: أجاب إجابة، بالألف، انتهى كلامه.

وقال أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري في فصل المقال في شرح كتاب الأمثال: قال أبو عمرو المطرز: ناديت فلاناً فأجابني إجابة وجواباً وجابة وجيبة، فالجابة: اسم للجواب، كالطاعة والطاقة، فإذا أردت المصدر قلت: إجابة وإطاعة وإطاقة. قال الشاعر:

وما من تهتفين له بنصر ... بأسرع جابة لك من هذيل

وقال أبو العتاهية فنظم هذا المثل:

إذا ما لم يكن لك حسن فهم ... أسأت إجابة فأسأت سمعا
ولست الدهر متسعاً لفضل ... إذا ما ضقت بالإنصاف ذرعا

وقد ذكر الزبير فيما ثبت عنه في الكتاب أن المثل لسهيل بن عمرو، وذكر خبره: قال ابن درستويه: أصل الجابة من قولهم: جاب يجوب البلاد، إذا قطعها طوافاً، لأن الجواب هو ما يرجع إلى السائل، ومنه جواب الأخبار، وقولهم: هل من جائبة خبر؟ وهي الواحدة من الجوائب التي تنوب وترجع.

خرجت من شيء إلى غيره | من واحد لاثنين زد ثالثا
لكنه علم ولو أنني | أحلف فيه لم أكن حانثا

باب الجيم مع أختيها الحاء والخاء

وأج وأج وأح وأخ | وأخ واخ وجل وجل

أما أج، تقول: أج الظليم يئج أجاً، إذا سمعت حفيفه في عدوه. وكذلك أجيج الكير من حفيف النار، ومنه قول الشاعر يصف ناقته:

تئج كما أج الظليم المفزع

والظليم: ذكر النعام. والحفيف: الصوت. وكذلك حفيف الماء: صوت جريه.

وأما أج فمصدر أج، تقول: سمعت أجة القوم، يعني حفيف مشيهم واختلاط كلامهم. وكذلك تقول: أجت النار أجيجاً، وائتج الحرّ، والأجاج: الماء المرّ أو الملح، كما قال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ [الفرقان: ٥٣]، وقراءة طلحة بن مصرف: (هذا مَلِح) بفتح الميم وكسر اللام أراد: مالح، فحذف الألف. ويقال للماء الملح: ماج، وقد مأج يمئج مؤوجة. وقال الجوهري: مؤج الماء يمؤج مؤوجة فهو مأج، إذا صار أجاجاً، والمأج: الأحمق المضطرب كأنّ فيه ضوى (ع) ويقال: ماء ملح وسمك مالح، وقد قيل في الماء أيضاً: مالح، والأفصح: ملح.

وفي حديث موسى عليه السلام مع الخضر حين سأل عن السبيل إلى لقيه، فقيل له: تزوّد حوتاً مالحاً، خرّجه مسلم. والملح والملح: الرضاع، كما قال الشاعر:

وإني لأرجو ملحها في بطونكم

وسيأتي أكثر من هذا.

ويقال في وج: أج، وهي أرض الطائف. قال يعقوب في كتاب الأمثال: ويقال له: وج، بالواو، وهو المشهور. قال أمية بن أبي الصلت:

إنّ وجا وما يلي بطن وج | دار قومي بربوة ورتوق

في الحديث: إن آخر وطأة وطئها الرب بوج، معناه: آخر غزوة، وآخر وقعة، كانت بأرض العرب بوج، لأنها آخر غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقيل غير هذا، وهذا أحسن، والله أعلم. وإن كانت آخر غزواته صلى الله عليه وسلم غزوة تبوك؛ فإنما أراد الروم، وقال في هذا الحديث: بوج، وهي آخر غزواته للعرب صلى الله عليه وسلم.

ويأجوج ومأجوج: قبيلة، من قرأهما بالهمز فاشتقاقه من: أج الحرّ، كما تقدم.

ومن لم يهمزهما جاز أن يكون من: يجج ومجج، وجاز أن يكونا أعجميين. وجاء في السيرة أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه انطلق بالراية يأجج. وفي غير رواية ابن إسحاق: يؤجج، ومعناه: يسرع، يقال: أجت الناقة تؤج، إذا أسرعت في مشيها، ومن رواه: يأنج، فهو من الأنيج، وهو علوّ النفس، يقال: أنج يأنج أنوجاً، إذا تأذى من مرض أو بهر فتنحنح ولم يئن. وقال غيره في مصدره: أنجاً وأنيجاً وأنوجاً، وقوم أنج، مثل: راكع وركع، واسم الفاعل: آنج. وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنه رأى رجلاً يأنج ببطنه، فقال: ما هذا؟ فقال: بركة من الله تعالى، فقال: بل هو عذاب عذبك به. وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

لا طـــائش رعـــش ولا ذو علـــة بالحمـــل آنـــج

وأما أح، فحكاية تنحنح أو توجع. وأح الرجل: إذا ردّد التنحنح في حلقه. وأح أيضاً يؤح أحاً: إذا سعل. قال الشاعر:

مـــا أبتغـــي ســـب اللئيم القـــح يكـــاد مـــن تنحـــنح وأح
يحكـــي ســـعال الـــشرق الأبـــح

وتقول: سمعت لفلان أحة وأحاحاً وأحيحاً، إذا رأيته يتوجع من غيظ أو حزن وفي قلبه أحاح وأحيح، ومنه اشتقاق أحيحة بن الجلاح، قال الشاعر الراجز:

يطـــوي الحـــيازيم علـــى أحـــاح

والأحاح: العطش، والأحاح أيضاً: الغيظ، والأحاح والأحيحة والأحة: الطعن. والحيازيم: جمع حيزوم، وهو ما اشتملت عليه الأضلاع من الصدر. والوحوحة: الصوت. والوحواح: الحديد النفس. والوحوحة أيضاً: صوت الذي يصيبه البرد، وهو أن يقول: أح أح، يقال: سمعت له وحاوح ووحوحة أيضاً. وكذلك تقول: سمعت له قعقعة وزقزقة. ومنه الحديث: ما لك تزقزقين؟ وقد تقدّم. وجاء في كتاب الأصوات لابن السكيت: يقال للتيس: بس بس، وللبقر: وح وح.

وأما أخّ مثقل وأخة: فلغة لبعض العرب في الأخ المخفف، ذكر ذلك ابن الكلبي. والمستعمل المخفف كما قال الله عز وجل: ﴿ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ ﴾ [النساء: ١٢]، ولكن قد روى أبو بكر بن أبي أويس عن نافع أنه قرأ: (الأخّ) مثقلاً إذا كان معرفاً بالألف واللام، وقال الشاعر في الأخ، وإن لم يكن من القدماء فهو من الحكماء:

إصـــحب الـــناس علـــى مـــا كـــان فـــيهم وتوخـــى
كـــل ذي عقـــل وديـــن فاتخـــذه لـــك أخـــا

وهذا الشاعر هو إبراهيم الشامي رحمه الله. ومن معنى البيت الأخيخة، وهو

حساء رقيق من دقيق بزيت أو سمن، قال الراجز:

يصفر في أعظمه المخيخه تجشؤ الشيخ عن الأخيخه

شبه صوت مصه العظام التي فيها المخ بجشاء الشيخ لأنه مسترخي الحنك، وسيأتي الكلام في المخ.

وأما المح، بالحاء غير المعجمة، فهو صفرة البيض. وجمع أخ: إخوان وإخوة وأخوة وإخاء. وتأخيت الرجل: اتخذته أخاً، وآخيته ووراخيته: لغة. ويجوز أن تصنع بـ أخ ما صنعت بـ أب، وقد تقدّم، فتقول في تثنيته: أخان، وفي جمعه: أخون، كما قال الشاعر:

وكان بنو فزارة شر قوم وكنت لهم كشر بني الأخينا

ويجمعه أيضاً إخوة، عن الفراء. والإخوان أكثر ما استعمل في الأصدقاء، قال الله تعالى: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]. والإخوة في الولادة. وقد جاء في أن الإخوة اثنان على مذهبهم أن الاثنين جماعة، قال الله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ [النساء: ١١] قال العلماء: هم الاثنان فما فوق، وهذا أيضاً على حد قولهم: نحن فعلنا ونحن صنعنا، يقوله الاثنان فما فوق، نعم والواحد العظيم، وقد تقدّم. وأصل أخ: أخو، لأنه جمع على آخاء، مثل أب وآباء، فالذاهب منه واو، والنسبة إليه أخوي، وللأخت كذلك، لأنك تقول: أخوات. وقال يونس: أختي، وليس بقياس، والأخية: عود يعرض في الحائط تشدّ إليه الدابة، والجمع: أواخي، ومنه حديثه عليه الصلاة والسلام: مثل المؤمن والإيمان كمثل الفرس في أخينه يجول ثم يرجع إلى أخيته، وإن المؤمن يسهو ثم يرجع إلى الإيمان. فسّره أبو عبيد الله رحمه الله قال: الأخية: العروة التي تشدّ بها الدابة وتكون في وتج أو سكة مثبتة في الأرض. وقال غيره: يقال أخية وأخون، وجمعها أخايا وأخاوين وأواخي. قال: والأخية أيضاً: الحرمة والذمة، تقول: فعلت ذلك به لأواخي وأسباب تدعو له.

وأما أخ فكلمة تقال عند التأوّه، قال ابن دريد: وأحسبها محدثة قد جاءت في الشعر الذي فيه:

لا خير في الشيخ إذا ما اجلخا

وسيأتي، وفيه:

وقال للوصل الغواني أخا

ومعنى اجلخ: سقط حاجباه على عينيه من الكبر. وأما أخ فإن ابن دريد قال: يقال للجمل: أخ ليبرك. ولا يقولون: أخخت الجمل، إنما يقولون: أنخته. قال (ع):

نخخت الإبل، إذا زجرتها فقلت لها: أخ أخ.

والنخ: من الزجر للإبل، يقال: نخها ونخ بها، وهو السوق الشديد، وأنشد:

أكـرم أميـر المؤمنـين الـنخا فالـنخ لـم يـبق لهـنّ مخـا

والنُّخ، بالضم: أن تناخ النعم قريباً من المصدّق، وأنخه والنخة: الحمر. وجاء من هذا الحديث: ليس في النخة صدقة. والنُّخ أيضاً، بالضم: بساط طويل، جمعه نخاخ. وجاء من هذه اللفظة في الحديث من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لجمله أو ناقته: أخ أخ. انتهى.

فصل:

من الفوائد:

قد تقدّم في علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه انطلق بالراية يأنج، وكان هذا الفعل منه يوم خيبر إذ أرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم فجاء وهو أرمد، فتفل في عينيه النبي صلى الله عليه وسلم فبرئ، قال: فما وجعت عينه حتى مضى لسبيله. قال: وكان يلبس القباء المحشوّ الثخين في شدة الحرّ فلا يبالي الحرّ، ويلبس الثوب الخفيف في شدّة البرد فلا يبالي البرد، وسئل عن ذلك فأخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا له يوم خيبر حين رمدت عينه أن يشفيه الله وأن يجنبه الحر والبرد، فكان ذلك. وإذ ذاك قال: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، ويفتح الله على يديه، رضي الله عنه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وتقدّم ذكر يأجوج ومأجوج، وأنها قبيلة. وقع في كتاب الطاعة لعلي بن معبد رحمه الله بسنده إلى جبير بن نفيل قال: إن يأجوج ومأجوج ثلاثة أصناف: صنف طولهم كالأرز، وصنف طولهم وعرضهم سواء، وصنف يفترش الرجل أذنه ويلتحف الأخرى فتغطي سائر جسده. وعن حسان بن عطية رضي الله عنه قال: يأجوج ومأجوج أمتان، كل أمة أربعمائة ألف، ليس منها أمة تشبه الأخرى. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الأرض ستة أجزاء، خمسة فيها يأجوج ومأجوج، وجزء فيه سائر الخلق. اهـ. وهم من ولد يافث بن نوح عليه السلام. وعن أرطاة بن المنذر قال: هم ذر جهنم، ما كان منهم صدّيق قط.

وفيما قرأته بالإسكندرية على الحافظ رحمه الله بالإسناد المتصل إلى حذيفة رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يأجوج ومأجوج، فقال: يأجوج أمة ومأجوج أمة، كل أمة أربعمائة ألف، لا يموت الرجل حتى ينظر إلى ألف ذكر بين يديه من صلبه كلهم قد حملوا السلاح، قلت: يا رسول الله صفهم لنا، قال: هم

ثلاثة أصناف: صنف منهم أمثال الأرز، فقلت: وما الأرز؟ قال: شجر بالشام طول كل شجرة عشرون ومائة ذراع في السماء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هؤلاء الذين لا يقوم لهم جبل ولا حديد. وصنف منهم يفترش أذنه ويلتحف بالأخرى، لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه، ومن مات منهم أكلوه، مقدّمتهم بالشام، وساقتهم بخراسان، يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية. وذكر أبو عبيد البكري أن الذي وجهه الواثق بالله إلى السدّ سأل من هناك: هل رأوا أحداً من يأجوج ومأجوج؟ فذكروا أنهم رأوا مرة منهم عدداً فوق شرف السد، مقدار الرجل منهم في رأي العين شبر ونصف، ثم هبت ريح سوداء فألقتهم إلى ناحيتهم. وسيأتي ذكر السد في تفسير ألفاظ القرآن عند قوله تعالى: ﴿ زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ﴾ [الكهف: ٩٦] في باب الراء والزاي إن شاء الله تعالى.

وتقدّم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في جمله أو ناقته: أخ أخ، خرّجه البخاري عن أسماء بنت أبي بكر الصديق أخت عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم وزوج الزبير بن العوام رضي الله عنهم. وأسوقه هنا بسندي إعظاماً لما فيه من العلم وصنيع الله تعالى بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتعريف بحالهم أوّلاً وآخراً، ولأطرز به هذا الكتاب لعل الله تعالى ينفع به الكاتب والجامع والقارئ والسامع.

قرأت على الشيخ الفقيه الحافظ أبي عبد الله بن إبراهيم المعروف بابن الفخار رحمه الله تعالى، قال: حدّثني الفقيه الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي رحمه الله قال: حدّثني أبي عن أبي عبد الله بن منظور عن أبي ذر قال: قال أبو ذر: أخبرنا أبو محمد الحمروي وأبو إسحاق المستملي وأبو هاشم الكشمهيني عن الفربري عن الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري رضي الله عنه قال: حدّثني محمود قال: حدّثني أبو أسامة قال: حدّثنا هشام قال: أخبرني أبي عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: تزوّجني الزبير وما له في الأرض من مال ولا مملوك، ولا شيء غير ناضح وغير فرس، فكنت أعلف فرسه وأسقي الماء وأخرز غربه وأعجن، ولم أكن أحسن الخبز، وكان يخبز لي جارات من الأنصار، وكنّ نسوة صدق، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأسي وهي مني على ثلثي فرسخ، فجئت يوماً والنوى على رأسي، فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه نفر من الأنصار، فدعاني ثم قال: أخ أخ ليحملني خلفه، فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرت الزبير وغيرته وكان أغير الناس، فعرف رسول الله صلى الله عليه

وسلم أني قد استحييت، فمضى، فجئت للزبير فقلت: لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى رأسي النوى، ومعه نفر من أصحابه، فأناخ لأركب، فاستحييت منه وعرفت غيرتك، فقال: والله لحملك النوى كان أشدّ عليّ من ركوبك معه. قالت: حتى أرسل إليّ أبو بكر بعد ذلك بخادم تكفيني سياسة الفرس، فكأنما أعتقني. هذا كان أمر الزبير أوّلاً، ثم انظر ما كسب بعد ذلك من المال، وما أنفق في سبيل الله وفي وجوه البر، وما أفاء الله عليه في غزواته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم.

خرّج البخاري بسنده إلى عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، وأمه هي أسماء ابنة أبي بكر المتقدمة الذكر، قال عبد الله: لما وقف الزبير يوم الجمل دعاني، فقمت إلى جنبه، فقال: يا بني إنه لا يقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم، وإني لا أراني إلا سأقتل اليوم مظلوماً، وإن من أكبر همي لديني، أفترى ديننا يبقي من مالنا شيئاً؟ فقال: يا بني بع ما لنا واقض ديني، وأوصى بالثلث وثلثه لبنيه، يعني لبني عبد الله بن الزبير، يقول: ثلث الثلث، فإن فضل من مالنا فضل بعد قضاء الدين فثلثه لولدك. قال هشام: وكان بعض ولد عبد الله قد وازى بعض بني الزبير خبيب وعباد، وله يومئذ تسعة بنين وتسع بنات. قال عبد الله: فجعل يوصيني بدينه ويقول: يا بني إن عجزت عن شيء منه فاستعن عليه بمولاي، قال: فوالله ما دريت ما أراد حتى قلت: يا أبت من مولاك؟ قال: الله، قال: فوالله ما وقعت في كربة من دينه إلا قلت: يا مولى الزبير اقض عنه دينه، فيقضيه، فقتل الزبير ولم يدع ديناراً ولا درهماً، إلا أرضين منها الغابة وأحد عشر داراً بالمدينة ودارين بالبصرة وداراً بالكوفة وداراً بمصر. قال: وإنما كان دينه الذي عليه أن الرجل كان يأتيه بالمال فيستودعه إياه، فيقول الزبير: لا ولكنه سلف، فإني أخشى عليه الضيعة. وما ولي إمارة قط ولا جباية خراج ولا شيئاً، إلا أن يكون في غزوة مع النبي صلى الله عليه وسلم أو مع أبي بكر وعمر وعثمان. قال عبد الله بن الزبير: فحسبت ما عليه من الدين فوجدته ألفي ألف ومائتي ألف، قال: فلقي حكيم بن حزام عبد الله بن الزبير، فقال: يا ابن أخي كم على أخي من الدين؟ فكتمه وقال: مائة ألف، قال حكيم: والله ما أرى أموالكم تسع لهذه، فقال له عبد الله: أفرأيتك إن كان ألفي ألف ومائتي ألف؟ قال: ما أراكم تطيقون هذا، فإن عجزتم عن شيء منه فاستعينوا بي، قال: وكان الزبير اشترى الغابة بسبعين ومائة ألف، فباعها عبد الله بألف ألف وستمائة ألف، ثم قام فقال: من كان له على الزبير حق فليوافينا بالغابة، فأتاه عبد الله بن جعفر وكان له على الزبير أربعمائة ألف، فقال لعبد الله: إن شئتم تركتها لكم، فقال عبد الله: لا، فقال: إن شئتم جعلتها فيما

تؤخرون إن أخرتم، فقال عبد الله: لا، قال: فاقطعوا لي قطعة، قال عبد الله: لك من هاهنا إلى هاهنا، قال: فباع منها فقضى دينه فأوفاه، وبقي منها أربعة أسهم ونصف، فقدم على معاوية وعنده عمرو بن عثمان والمنذر بن الزبير وابن زمعة، فقال معاوية: بكم قومت الغابة؟ قال: كل سهم مائة ألف، قال: كم بقي؟ قال: أربعة أسهم ونصف، قال المنذر: قد أخذت سهماً بمائة ألف، وقال عمرو بن عثمان: قد أخذت سهماً بمائة ألف، وقال ابن زمعة: قد أخذت سهماً بمائة ألف، فقال معاوية: كم بقي؟ قال: سهم ونصف، قال: قد أخذته بخمسين ومائة ألف. قال: وباع عبد الله بن جعفر نصيبه من معاوية بستمائة ألف، قال: فلما فرغ ابن الزبير من قضاء دينه قال بنو الزبير: اقسم بيننا ميراثنا، قال: والله لا أقسم بينكم حتى أنادي بالموسم. فلما مضى أربع سنين قسم بينهم. قال: وكان للزبير أربع نسوة، ودفع الثلث، فأصاب كل امرأة ألف ألف ومائتا ألف، فجميع ماله خمسون ألف ألف ومائتا ألف.

قلت: ذكر في هذا الحديث: وما ولي إمارة قط. قد ولي عمر بن الخطاب عنه الإمارة، ولكنه مات وعليه من الدين ثمانية وعشرون ألفاً، لم يأكل منها خبيصاً ولا لبس منها قميصاً، بل كانت جبته مرقعة بالجلود، وباب منزله من الجريد، لكنه أنفق هذا المال في سبيل الخير لا غير. فلما فرغت حياته وحانت وفاته قال لابنه عبد الله ولابنته حفصة رضي الله عنهما: إني قد أصبت من مال الله شيئاً، وإني أحب أن ألقى الله عز وجل وليس في عنقي منه شيء، فبيعا فيه حتى تقضياه، فإن عجز عنه مالي فسلا في بني عدي، فإن بلغ وإلا فلا تعدوا قريشاً. فباع عبد الله من معاوية دار عمر التي يقال لها دار القضاء بالمدينة، وباع ما له بالغابة، فقضى دينه، فلذلك قيل لداره دار القضاء رضي الله عنه.

وقد فعل مثل هذا من هو فوقهما، أبو بكر الصديق رضي الله عنه، قال لابنته عائشة رضي الله عنها: انظري يا بنية، فما زاد في مال أبي بكر منذ ولينا هذا الأمر فردّيه على المسلمين، فوالله ما نلنا من أموالهم إلا ما أكلنا في بطوننا من جريش طعامهم، ولبسنا على ظهورنا من خشن ثيابهم، فنظرت فإذا بكر وجرد قطيفة لا تساوي خمسة دراهم وحبشية، فلما جاء بها الرسول إلى عمر قال له عبد الرحمن بن عوف: يا أمير المؤمنين أتسلب هذا ولد أبي بكر؟ قال: كلا ورب الكعبة لا يتأثم بها أبو بكر في حياته وأتحملها من بعد موته، رحم الله أبا بكر لقد كلف من بعده تعباً. ومعنى تأثم: طرح الإثم عن نفسه، وقد تقدّم شرح ذلك.

انظر رحمك الله هذه الأخبار بعين الاعتبار، وكيف كانت سيرة القوم ومعاملاتهم

وأماناتهم ودياناتهم، هذا كله ببركة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ودعائه لهم بالخير، كما دعا لعبد الرحمن بن عوف بالبركة، وكان قدم المدينة وليس عنده شيء، فقال: دلوني على السوق، وحديثه مشهور. وقيل له: ما سبب يسارك؟ قال: ثلاث: ما رددت ربحاً قط، ولا طلب مني حيوان فأخرت بيعه، ولا بعت بنسأة. ويقال: إنه باع ألف ناقة بربح عقلها، باع كل عقال بدرهم. قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بعد دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم: فلو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب تحته ذهباً، ،فتح الله عليه ومات. فحفر الذهب من تركته بالفوس حتى كلت فيه الأيدي، وأخذت كل زوجة ثمانين ألفاً، وكن أربعاً. وقيل: بل صولحت إحداهن لأنه طلقها في مرضه على نيف وثلاثين ألفاً، وأوصى بخمسين ألفاً. هذا كله بعد صدقاته الفاشية العميمة وعوارفه العظيمة، أعتق يوماً ثلاثين عبداً، وتصدق مرة بعير فيها سبعمائة بعير وردت عليه تحمل من كل شيء، فتصدّق بها وبما عليها، وبأقتابها وأحلاسها.

ويروى عن قتادة قال: ذكر لنا أن عبد الرحمن بن عوف جاء بنصف ماله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله هذا نصف مالي وتركت نصفه لعيالي، فدعا له النبي عليه الصلاة والسلام أن يبارك الله له فيما أعطى وفيما أمسك. زاد في الرقائق: ثم تصدّق بأربعين ألف دينار، ثم حمل على خمسمائة فرس في سبيل الله، ثم حمل على ألف وخمسمائة راحلة في سبيل الله.

وذكر أبو عمر رحمه الله أن النبي صلى الله عليه وسلم حض يوماً على الصدقة، فأتي عبد الرحمن بن عوف بنصف ماله أربعة آلاف درهم وأربعمائة دينار. وأتى عاصم بن عدي بمائة وسق من تمر، فلمزهما المنافقون وقالوا: هذا رياء. وجاء أبو عقيل بصاع تمر، فقال: ما لي غير صاعين نقلت بهما الماء على ظهري، حبست أحدهما لعيالي وجئت بالآخر. فقال المنافقون وتضاحكوا به: إن الله لغني عن صاع أبي عقيل، فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩]. وكان طلحة بن عبيد الله من المياسير، قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: إن ابن الصعبة، يعني طلحة، ترك مائة بهار كل بهار ثلاثة قناطير ذهباً. وإذ وقعنا في هذا الباب فاسمع ما فيه تلقيح للألباب.

خرجت من أجٍ فهو يؤج أجاً ... ومن يأجوج والملح الأجاج
وتصريفي لذلك واشتقاقي ... لغات ذكرها للقلب راج
فالآن أمدّ باعي باتباعي ... لسبل الجود في سبل الفجاج

قد يستحسن الكلام في ذكر الكرام، وإن كانت طريقهم اليوم قفراً ما بها أنيس ففي

المرور بالذكر عليها للقلوب تأنيس، وللنفوس تنفيس، لا تلمني في ارتيادي للأنفس من فعال الناس الأعلى والأنفس، فصفات الجود له تثبت وتدرس، وصفات البخل تنسى وتدرس.

ذكر الأجواد :

الأجواد في الجاهلية ثلاثة: حاتم بن عبد الله، وهرم بن سنان، وكعب بن مامة، ولكل واحد منهم مكارم وأخبار، ولا حاجة لنا في ذكرها إلا على جهة الاعتبار، إذ أربابها كفار وسكان النار، فلنذكر أجواد الإسلام سكان دار السلام.

أما الصحابة رضي الله عنهم، فأجودهم على التحقيق أبو بكر الصديق رضي الله عنه، أتى بماله كله صدقة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يترك لنفسه ثمن درهم.

وأما عمر رضي الله عنه فأتى بنصف ما ملك، ولم يتلبس بشيء من الدنيا حين ملك حتى هلك، وقلت:

وقد فتحت عليه كنوز كسرى ... وجبته تسرقع بالجلود
خطام بعيره من حبل ليف ... ومسكنه بباب من جريد

وهذان البيتان من قصيد لي مطول يزيد على المائة، انظره في التكميل. هذا والله هو الزهد ومبلغ الجهد، وسيأتي من ذكره وفضائله في هذا الكتاب كثير إن شاء الله تعالى.

وأما عثمان رضي الله تعالى عنه فجهز جيش العسرة وهي غزوة تبوك، أنفق فيها فيما قال ابن هشام ألف دينار. وقال قتادة: حمل في جيش العسرة على ألف بعير إلا خمسين فكملها بخمسين. وقال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راض، رضي الله عنه وأرضاه. وقال فيه أيضاً، وقد أتى بدنانير في غزوة تبوك: ما على عثمان ما عمل بعد هذا. وروي عن عبد الرحمن بن سمرة: جاء عثمان بألف دينار في كمه حين جهز جيش العسرة فنثرها في حجره، قال: فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقلبها في حجره ويقول: ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم، مرتين. واشترى بئر رومة وكانت ركية ليهودي يبيع للمسلمين ماءها بالمدينة، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يشتري رومة فيجعلها للمسلمين، يضرب بدلوه في دلائهم، وله بذلك مشرب في الجنة، فأتى اليهودي فساومه بها، فأبى أن يبيعها كلها، فاشترى نصفها باثني عشر ألف درهم، فجعله للمسلمين. فقال عثمان: إن شئت جعلت على نصفي قرنين، وإن شئت فلي يوم ولك يوم، فكان إذا كان يوم عثمان استقى الناس

ما يكفيهم يومين، فلما رأى ذلك اليهودي قال لعثمان: أفسدت عليّ ركيتي، فاشتر النصف الآخر فاشترى النصف الآخر بثمانية آلاف درهم. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: من يزيد في مسجدنا؟ فاشترى عثمان رضي الله عنه موضع خمس سواري، فزاده في المسجد، وفيه يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كان عثمان من الذين ﴿ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [المائدة: ٩٣]، وفيه قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ ﴾ [الزمر: ٩] قال: هو عثمان بن عفان رضي الله عنه. وبلغ من شدة حيائه أنه كان يكون في البيت والباب عليه مغلق، فما يضع عنه الثوب ليفيض عليه الماء، فيمنعه الحياء أن يقيم صلبه. وسيأتي في باب الميم من ذكر الحياء من هذا النوع كثير إن شاء الله تعالى. وهذه بعض فضائل عثمان صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، الحائز منتهى المنى وغاية السؤل، بما أنفق من المال الجزيل في كل وجه جميل من البر والسبيل.

وأما علي رضي الله عنه فمكانه عليّ وشرفه سني، أوّل من دخل في الإسلام، وزوج فاطمة عليها السلام بنت النبي صلى الله عليه وسلم. وقد نظم في أبيات المفاخرة وذكر فيها مآثره حين فاخره بعض عداه ممن لم يبلغ مداه، فقال رضي الله عنه يفخر بعمه حمزة وبجعفر ابن أمه رضي الله عن جميعهم:

محمد النبي أخي وصهري ... وحمزة سيد الشهداء عمي
وبنت محمد بيتي وعرسي ... منوط لحمها بدمي ولحمي
وسبطا أحمد ولداي منها ... فأيكم له سهم كسهمي
وجعفر الذي يمسي ويضحي ... يطير مع الملائكة ابن أمي
سبقتكم إلى الإسلام طفلاً ... صغيراً ما بلغت أوان حلمي
وأوجب لي الولا حقاً عليكم ... رسول الله يوم غدير خم

يريد بذلك قوله عليه الصلاة والسلام: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. ولما ولي الخلافة كان يقسم بيت المال في كل جمعة حتى لا يبقي فيه شيئاً ثم يرشه ويقيل فيه. وفي رواية: ثم يصلي فيه رجاء أن يشهد له يوم القيامة، ويتمثل بهذا البيت:

هذا جناي وخياره فيه ... إذ كل جان يده إلى فيه

وكان يقول إذا ما نظر إلى ما فيه من الذهب: ابيضّي واصفرّي وغرّي غيري، إني واثق من الله بكل خير. وقدم عليه مال من أصبهان فقسمه سبعة أسباع، وكان فيه رغيف

فقسمه سبعة كسر، وجعل على كل جزء كسرة، ثم أقرع بينهم أيهم يأخذ أوّلاً. وفضائله رضي الله عنه لا تحصى، ومن يعد الحصى؟ وجوده وكرمه أكثر من أن يعدّ، وفضله أكبر من أن يحدّ، فمن جوده وفضله أنه عمل خصلتين لم يعملهما أحد قبله:

إحداهما أنه لما أنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ﴾ [المجادلة: ١٢] أشفق المسلمون من ذلك وشق عليهم لضعف مقدرة كثير منهم عن الصدقة، فعمد علي رضي الله عنه فتصدّق بدينار وناجى الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم رحم الله المسلمين ونسخ ذلك عنهم بقوله تعالى: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ﴾ [المجادلة: ١٣]، فهذه آية نسخها العلي ولم يعمل بها غير علي رضي الله عنه. وكان سبب نزول الآية أن المسلمين كانوا يكثرون المسائل على النبي صلى الله عليه وسلم حتى شقوا عليه، فأراد الله التخفيف عنه، فكف كثير من الناس، ثم وسع الله عليهم بالآية التي بعدها، قاله ابن عباس. وقيل: نزلت بسبب أن المنافقين واليهود كانوا يناجون النبي عليه الصلاة والسلام ويقولون: إنه أذن يسمع كل ما قيل له، وكان لا يمنع أحداً من مناجاته، فكان ذلك يشق على المسلمين، فلما أنزل الله ذلك انتهى أهل الباطل عن النجوى، لأنهم لم يقدّموا بين يدي نجواهم صدقة، وشق ذلك على المسلمين لضعف مقدرتهم كما تقدّم، فخفف الله عنهم بالآية الناسخة، والله أعلم.

والخصلة الأخرى التي لعلي وحده رضي الله عنه أنه أعطى مسكيناً خاتماً من فضة وهو رضي الله عنه راكع، فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾ [المائدة: ٥٥]، قال مجاهد والسدي رضي الله عن جميعهم: قيل خرج النبي صلى الله عليه وسلم ومسكين يسأل في المسجد، فسأله عليه الصلاة والسلام: هل أعطاك أحد شيئاً؟ قال: نعم، قال: ماذا؟ قال: خاتم من فضة، قال: من أعطاكه؟ قال: ذلك الرجل القائم، فإذا هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فكبّر رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك، ونزلت الآية بدأت بذكر الأربعة الخلفاء الكرام الشرفاء الذين قال فيهم الشاعر ذو الوفاء:

خيار الناس بعد المصطفى المفضال ذو اللسن
أبو بكر أبو حفص أبو عمرو أبو الحسن

رضي الله عن جميعهم. وقد تقدّم حديث عبد الرحمن بن عوف والزبير وما أنفقا في وجوه البر وسبل الخير، ومنهم من جاد بأكثر من المال، وهي النفس التي لها

يكسب المال، كما قال الشاعر:

يجود بالنفس إذ ضنّ الجواد بها ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود

قال بعض العلماء: هذا أمدح بيت قالته الشعراء. وكذلك الصحابة رضي الله عنهم من عدم منهم المال الذي هو في الحقيقة كالآل، جاد بالنفس في الجهاد الذي هو أفضل الأعمال، ولي فيهم رضي الله عن جميعهم:

أولئك قوم أتلفوا مهجاتهم ... لإحياء دين الله بالطعن والضرب
بكل طويل من رماح ردينة ... وكل حسام مرهف ذكر عضب
على كل مخماص من انسال أعوج ... يمرّ كمرّ الريح في أثر السحب
غيوث إذا أعطوا ليوث إذا التقوا ... معانون منصورون بالرهب والرعب

من شعر لي طويل وهو في حقهم قليل، إن أردته انظره في التكميل.

ذكر أجواد الزهاد:

ومن أجواد الزهاد من إذا أعطى آثر غيره حدباً على فقره وغيره، مثل عائشة رضي الله عنها، وجه إليها معاوية رضي الله عنه مائة ألف درهم، ففرّقتها في يومها، وإن درعها لمرقوع، وقالت لها الخادم وكانت صائمة: لو اشتريت لنا لحماً بدرهم، فقالت: لو ذكرتيني فعلت. فعلت هذا رضي الله عنها طاعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أوصاها فقال: إن أردت اللحوق بي فعليك بعيش الفقراء، وإياك ومخالطة الأغنياء، ولا تنزعي ثوباً حتى ترقعيه. وتمادت على فعلها إلى أن ماتت رضي الله عنها.

خرّج البخاري عن أيمن الحبشي قال: دخلت على عائشة وعليها درع قطن ثمنه خمسة دراهم، فقالت: ارفع بصرك إلى جاريتي انظر إليها فإنها تزدهي أن تلبسه في البيت، وقد كان لي منه درع على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما كانت امرأة تقنّ بالمدينة إلا أرسلت إليّ تستعيره.

وقد فعل مثل فعل عائشة رضي الله عنها إبراهيم التيمي، دفع إليه ستون ألفاً وكان عليه دين وبه حاجات، فأخرجها من يومه، فعوتب في ذلك فقال: كرهت أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء بستين ألفاً.

ويروى عن سعيد بن عامر بن حذيم لما بعثه عمر بن الخطاب رضي الله عنه والياً على حمص اشتدّت فاقته حتى تحدّث الناس بفقره، فبلغ ذلك عمر فأرسل إليه بأربعمائة دينار، وكتب إليه يعزم عليه لينفقها على نفسه وأهله، فلما قرأ الكتاب اهتم هماً شديداً حتى تبين ذلك عليه، فقالت امرأته: نفسي فداك ما لي أراك مهتماً؟ أبلغك موت أمير المؤمنين؟ قال: أعظم من ذلك، فقالت: أبلغك عن ثغور المسلمين شيء؟

قال: أعظم من ذلك، قالت: وما هو؟ قال: ابتليت بالدنيا، وقد كنت صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ابتل بها، وصحبت أبا بكر فلم أبتل بها، وابتليت بها في صحبة عمر، ألا فشرّ أيامي أيام عمر، قالت: وما ذاك بأبي أنت وأمي؟ قال: إني أخافك، قالت: إياي تعني؟ قال: نعم، قالت: فأنت آمن من هذا، قال: فإن أمير المؤمنين أرسل إليّ بأربعمائة دينار، وعزم عليّ أن أنفقها عليّ وعليك، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً، والله ما أحب أن لي حمر النعم وأني أحبس عن الفوج الأوّل، قالت: فدونكها فاصنع بها ما شئت، فقال: هل من خرق؟ فأعطته درعاً لها خلقاً فمزقته خرقاً، ثم صرّ فيه ما بين أربعة إلى عشرة، ثم طرحها في مخلاة، ثم خرج إلى باب الرستق من حمص، فجعل يعطي الناس صرّة صرّة، حتى بقيت صرّة في المخلاة، فدفعها والمخلاة إلى رجل، ثم رجع فذهب عنه واستراح.

وذكر أبو نعيم الحافظ رحمه الله في كتابه الحلية قال خالد بن معدان: استعمل علينا عمر بن الخطاب بحمص سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي، فلما قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه حمص قال: يا أهل حمص كيف وجدتم عاملكم؟ فشكوه إليه، وكان يقال لأهل حمص: الكويفة الصغرى، لشكايتهم العمال، قالوا: نشكو أربعاً: لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار، قال: أعظم بها، قال: وماذا؟ قالوا: لا يجيب أحداً بليل، قال: وعظيمة، قال: وماذا؟ قالوا: له يوم من الشهر لا يخرج فيه إلينا، قال: وعظيمة، قال: وماذا؟ قالوا: يغط الغطة بين الأنام حتى تأخذه موتة. قال: فجمع عمر بينهم وبينه وقال: اللهم لا يفيل فيه رأيي اليوم، ما تشكون منه؟ قالوا: لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار، قال: والله إن كنت لأكره ذكره، ليس لأهلي خادم، فأعجن عجيني فأجلس حتى يختمر، ثم أخبز خبزي، ثم أتوضأ، ثم أخرج إليهم. فقال: ما تشكون منه؟ فقالوا: لا يجيب أحداً بالليل، قال: ما يقولون؟ قال: إن كنت لأكره ذكره، إني جعلت النهار لهم وجعلت الليل لله عز وجل. قال: وما تشكون؟ قالوا: إن له يوماً من الشهر لا يخرج إلينا فيه، قال: ما يقولون؟ قال: ليس لي خادم يغسل ثيابي ولا لي ثياب أبدلها، فأجلس حتى تجف ثم ألبسها ثم أخرج إليهم آخر النهار. قال: وما تشكون منه؟ قالوا: يغط الغطة بين الأنام، قال: ما يقولون؟ قال: شهدت مصرع حبيب الأنصاري وقد بضعت قريش لحمه ثم حملوه على جذعه، ثم قالوا: أتحب أن محمداً مكانك؟ فقال: والله ما أحب أني في أهلي وأن محمداً يشك بشوكة، ثم نادى يا محمد، فما ذكرت ذلك اليوم وتركي نصرته في تلك الحالة وأنا مشرك لا أومن بالله العظيم إلا ظننت أن الله لا يغفر لي بذلك

الذنب أبداً، قال: فتصيبني تلك الغطة. فقال عمر: الحمد لله الذي لم يفل رأيي فيك. فبعث إليه بألف دينار وقال: استعن بها على فقرك. فقالت امرأته: الحمد لله الذي أغنانا من خدمتك، فقال لها: فهل لك في خير من ذلك؟ ندفعها إلى من يأتينا أحوج ما يكون إليها، قالت: نعم، فدعا رجلاً من أهله يثق به فصرّها صراً شديداً ثم قال: انطلق بهذه إلى أرملة آل فلان وإلى يتيم آل فلان وإلى مسكين آل فلان وإلى مبتلى آل فلان، فبقيت منها ذهبة فقال: أنفقي هذه، ثم عاد إلى عمله. فقالت: ألا تشتري لنا خادماً؟ ما فعل ذلك المال؟ قال: سيأتيك أحوج ما تكونين إليه. كذا رواه حسان وأبو خالد بن معدان.

وشبيه بقصة سعيد هذا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى أهل حمص: اكتبوا لي فقراءكم، فكتبوا إليه أسماء الفقراء، وذكروا فيهم عمير بن سعيد، وكان والياً عليهم، فلما قرأ اسمه قال: من عمير بن سعيد؟ قالوا: أميرنا، قال: أوَفقير هو؟ قالوا: ليس أهل بيت أفقر منه قال: فأين عطاؤه؟ قالوا: يخرجه كله لا يمسك منه شيئاً. قال فوجّه إليه بمائة دينار، فأخرجها كلها، فقالت له امرأته: لو كنت حبست لنا منها ديناراً واحداً، فقال: لو ذكرتيني فعلت. ذكر هذه الحكايات أبو طالب رحمه الله في باب الزهد من كتابه.

وذكر من زهد عيسى ابن مريم عليه السلام أنه وضع تحت رأسه حجراً، فكأنه لما ارتفع رأسه من الأرض استراح بذلك، فعارضه إبليس فقال: يا ابن مريم أليس تزعم أنك قد زهدت في الدنيا؟ قال: نعم، قال: فهذا الذي قد وطأته تحت رأسك من أي شيء هو؟ قال: فرماه عيسى بالحجر وقال: هذا لك مع ما تركت من الدنيا، ثم وضع رأسه على التراب. وقد كان من الزهاد من لا يأخذ إذا أعطي.

أمر بعض الأمراء لأحد الفقراء بعطاء، فقال: لا حاجة لي به، قال: فنجري عليك ما يكفيك طول عمرك، قال له: يا أمير المؤمنين أنا وأنت في عيال الله تبارك وتعالى، فمحال أن يذكرك وينساني، وهذا رأس الزاهدين رسول رب العالمين اختار الفقر على الغنى، والضيق على السعة. وكان من دعائه عليه الصلاة والسلام: اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين. فقالت عائشة: لم يا رسول الله؟ قال: إنهم يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً. يا عائشة لا تردّي المسكين ولو بشق تمرة. يا عائشة أحبي المساكين وقرّبيهم فإن الله يقربك يوم القيامة. خرجه الترمذي وقال عن أبي هريرة: يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام. وقال حديث صحيح.

وخرج أيضاً قال: قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله إني

لأحبك فقال: انظر ماذا تقول، فقال: والله إني لأحبك، ثلاث مرات. قال: إن كنت تحبني فأعدّ للفقر تجفافاً، فإن الفقر أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه. وفي الخبر: ما اتضع امرؤ لآخر يريد عرض الدنيا إلا ذهب ثلثا دينه. وقالت عائشة رضي الله عنها: ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض. وكان عليه الصلاة والسلام لا يدّخر شيئاً لغد، رواه أنس رضي الله عنه وقال: ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان، ولا أكل خبزاً مرققاً حتى مات.

وعن سهل بن سعد قال: ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم النقيّ حتى لقي الله. فقيل له: هل كانت لكم مناخل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: ما كانت لنا مناخل، قيل: فكيف كنتم تصنعون بالشعير؟ قال: كنا ننفخه فيطير ما طار، ثم نثريه(*) فنعجنه. ولذلك كان أبو ذر رضي الله عنه يقول للصحابة: أنا أقربكم مجلساً يوم القيامة من النبي صلى الله عليه وسلم، قيل: وكيف ذلك؟ قال: إنه قال: أقربكم مني مجلساً يوم القيامة من تركته على حال فلم يتغير عنها، وكلكم قد نخل الشعير غيري، فأقرب الناس من النبي صلى الله عليه وسلم أقربهم من الله، وأقربهم من الله ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسبقهم بالخيرات.

وأغرب من هذا ما خرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: إنا كنا ننظر إلى الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار، إن هو إلا الأسودان التمر والماء.

ومما قرأته على الحافظ رحمه الله بسنده إلى بلال رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الق الله فقيراً ولا تلقه غنياً، قال قلت: كيف لي بذلك يا رسول الله؟ فقال: إذا رزقت فلا تخبأ، وإذا سئلت فلا تمنع، قال قلت: كيف لي بذلك يا رسول الله؟ قال: هو ذاك وإلا فالنار. وتجشأ رجل عنده فقال عليه الصلاة والسلام: كف عنا جشاءك فإن أكثر الناس شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً في الآخرة. أو كما قال.

يروى أن أبا جحيفة قال: فما أكل أبو جحيفة ملء بطنه حتى فارق الدنيا، كان إذا تغدى لا يتعشى وإذا تعشى لا يتغدى.

ومن فضائل أبي سعيد الحسن بن أبي الحسن الكثير الخوف والحزن، القليل النوم والوسن كان رحمه الله له كلام حرّ يشبه الدرّ يشفي من الضرّ ويبري من العر، وحق ذلك له، فإنه ارتضع ثدي أم سلمة رضي الله عنها، ونفعه بالبركة التي نال منها.

(*) قوله: نثريه، أي: نصب عليه الماء.

حدث عوف بن أبي جميلة الأعرابي قال: كان الحسن ابناً لجارية لأم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، فبعثت أم سلمة جاريتها في حاجتها، فبكى الحسن بكاء شديداً، فرقت عليه أم سلمة، فأخذته فوضعته في حجرها وألقمته ثديها، فأدرّ عليه فشرب منه، فكان يقال: إن المبلغ الذي بلغه الحسن من الحكمة بذلك اللبن الذي شرب من أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم.

وممن وصفه بالحزن علقمة بن مرثد رحمه الله، قال: أما الحسن بن أبي الحسن فما رأينا أحداً من الناس كان أطول حزناً منه، ما كنا نراه إلا أنه حديث عهد بمصيبة، وكان يقول: نضحك ولا ندري لعل الله قد اطلع على بعض أعمالنا فقال: لا أقبل منها شيئاً، ويحك يا ابن آدم هل لك بمحاربة الله طاقة، إنه من عصى الله فقد حاربه، والله لقد أدركت سبعين بدرياً أكثر لباسهم الصوف، لو رأيتهم قلت مجانين، ولو رأوا خياركم قالوا: ما لهؤلاء من خلاق. ولو رأوا شراركم لقالوا: ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب. ولقد رأيت أقواماً كانت الدنيا أهون على أحدهم من التراب تحت قدميه. ولقد رأيت أقواماً يمسي أحدهم ولا يجد عنده إلا قدر ما يكفيه، فيقول: لا أجعل هذا كله في بطني، لأجعلن بعضه لله عز وجل، فيتصدّق ببعضه وإن كان هو أحوج ممن تصدّق عليه.

زاد غيره: والله لقد أدركت أقواماً ما طوى لأحدهم في بيته ثوب قط ولا أمر في أهله بصنيعة طعام قط، وما جعل بينه وبين الأرض شيئاً قط، وإن أحدهم ليقول: وددت أني آكل أكلة تصير في جوفي مثل الآجرة. قال ويقول: بلغنا أن الآجرة تبقى في الماء ثلاثمائة سنة. ولقد أدركت أقواماً إن كان أحدهم ليرث المال العظيم، قال: وإنه لمجهود شديد الجهد، قال فيقول لأخيه: يا أخي إني قد علمت أن ذا ميراث وهو حلال، ولكني أخاف أن يفسد عليّ قلبي وعملي، فهو لك ولا حاجة لي فيه، قال: فلا يرزأ منه شيئاً أبداً.

زاد غيره: والله لقد صحبنا أقواماً كانوا يقولون: ليس لنا في الدنيا حاجة ليس لها خلقنا، وكان يقول: أدركت سبعين من الأخيار ما لأحدهم إلا ثوبه، وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوباً قط. قال: وكان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه وجعل ثوبه فوقه.

ثم ذكر تفاوت الزاهدين ولأي شيء زهدوا، فقال: منهم من زهد حياء من الله تعالى، ومنهم من زهد خوفاً من الله، ومنهم من زهد رجاء موعود الله، ومنهم من زهد مسارعة منه لأمر الله، ومنهم من زهد حباً لأمر الله، ومنهم من زهد حباً لله وهو أعلاهم،

وأدناهم من زهد مخافة طول الوقوف ومناقشة العذاب، كما قيل: ذو الدرهمين يوم القيام أشدّ حساباً من ذي الدرهم، وإن طريق المقربين لا يسلكه من ملك من الدنيا زوجين من شيء.

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لا يصيب عبد من الدنيا شيئاً إلا نقص من درجاته عند الله، وإن كان عند الله كريماً. وقيل له رضي الله عنه: توفي فلان، فقال: رحمه الله، قيل له: يا أبا عبد الرحمن ترك مائة ألف، فقال: لكن هي لم تتركه. وسمع رجلاً يقول: أين الزاهدون في الدنيا الراغبون في الآخرة؟ فأراه قبر النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر، فقال: عن هؤلاء تسأل.

وقال عمران القصير للحسن: إن الفقهاء يقولون كذا وكذا، فقال: وهل رأيت فقيهاً بعينك؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا البصير بدينه المداوم على عبادة الله عز وجل. ويقال: ما أحد يعطى من الدنيا شيئاً إلا ويقال له: خذه على ثلاثة أثلاث: ثلث هم وثلث شغل، وثلث حساب. وإن الرجل من الأغنياء ليوقف للحساب ما لو ورد عليه مائة بعير عطاشاً على عرقه لصدرت رواء، وإنه ليرى منازله من الجنة.

وقال يوسف بن أسباط: لو أن رجلاً ترك الدنيا مثل أبي ذر وأبي الدرداء وسلمان رضي الله عنهم؛ ما قلنا له: إنك زاهد، لأن الزهد لا يكون إلا على ترك الحلال المحض، والحلال المحض لا نعرفه اليوم، وإنما الدنيا حلال وحرام وشبهات، فالحلال حساب، والحرام عذاب، والشبهات عتاب، فأنزل الدنيا منزلة الميتة، خذ منها ما يقيمك، فإذا كانت حلالاً كنت زاهداً فيها، وإن كانت حراماً لم تكن أخذت منها إلا ما يقيمك، كما يأخذ المضطر من الميتة، وإن كانت شبهات كان العتاب يسيراً. ومثله قول بعضهم: ليس الزهد ترك كل الدنيا، ولكن الزهد التهاون بها وأخذ البلاغ منها، قال الله تعالى: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ [يوسف: ٢٠]، فأخبر أنهم زهدوا فيه، وقد أخذوا له ثمناً.

الكلام على الزهد:

وقد تكلم في الزهد في أي شيء هو؟ فقال بشر الحافي بن الحارث: الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس، من زهد فيهم فقد زهد في الدنيا. وقال غيره: الزهد في الدنيا هو الزهد في الجوف، لأنه دنياك، فبقدر ما تملك من بطنك تملك من الزهد. وقال الفضيل: الزهد القناعة، فكأنّ الدنيا عنده الحرص. وقال سفيان الثوري: الزهد في الدنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ ولبس العباءة. قلت: عجباً للمرء كيف لا يقصر أمله ودونه أجله، ألم تسمع قول الشاعر:

أملي من دونه أجلي ... فمتى أفضي إلى أملي

وفي الحديث: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خط خطاً مربعاً وجعل في وسطه خطاً، وجعل خطاً آخر خارجاً من المربع، وجعل حول هذا الخط من داخل خطوطاً كثيرة ثم قال: هذا الإنسان وهذا أجله قد أحاط به في كل جانب، وهذا أمله الخارج من المربع، يعني فمتى ينتهي إليه والأجل قد أحاط به من كل جانب. وقال لهذه الخطوط الكثيرة حوله: وهذه الأعراض والأسقام، إن أخطأه هذا أصابه هذا.

قلت: سقت معنى الحديث لا لفظه، وأقول أو كما قال صلى الله عليه وسلم، ولي في الأمل:

أؤمل آمالاً ولست بعارف ... أأبلغها أم يقطع الموت قبلها
وللمرء نفس لا تزال بحرصها ... تمنى وتهوى أن تبلغ سؤلها
وليست تبالي من سفاهة رأيها ... أكان عليها ذلك الأمر أم لها

ولكن مما رويته بالإسناد عن الحافظ رحمه الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إنما الأمل رحمة من الله، لولا الأمل ما غرس غارس شجراً ولا جنى جان ثمراً. وقال أبو سليمان الداراني: الدنيا كل ما شغل عن الله، فكان الزهد عنده التفرغ لله، وكان يقول: من تخلى من الدنيا واشتغل بالعبادة والاجتهاد فهو الزاهد، فأما من تركها وتبطل فإنما طلب راحة نفسه.

وقال إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه: الزهد على ثلاث مقامات: زهد فرض، وهو الكف عن المحارم. وزهد سلامة، وهو ترك المشتبهات. وزهد فضل، وهو الزهد في الحلال. وقال غيره: الزهد إخفاء الزهد، والزهد ترك ما يشغلك عن الله عز وجل.

وقال بعض الحكماء: الزاهد من لم يطلب المفقود حتى يفقد الموجود. وفي الترمذي عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أوثق مما في أيدي الناس، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها أبقيت لك. قال: تكلم في إسناد هذا الحديث، وخرّج أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم: من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا. وفيه عنه عليه الصلاة والسلام قال: عرض عليّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً، قلت: لا يا رب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً، أو قال: ثلاثاً، أو نحو هذا، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك. وقال: يا ابن آدم إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شرّ لك، ولا تلام على كفاف. أخذ هذا المعنى

شيخي أبو محمد عبد الحق رحمه الله، فقال وأنشدنيه:

دع الدنيا لطالبها وجافي ... بنفسك عن مزاحمة العوافي
وخذ منها كفافاً من حلال ... فإنك لا تلام على كفاف

وفي الحديث أيضاً: طوبى لمن هدي للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع. ولما قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشام صنع له طعام لم ير قبله مثله، فقال: هذا لنا فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير؟ فقال خالد بن الوليد: لهم الجنة، فاغرورقت عينا عمر وقال: لئن كان حظنا في هذا الحطام وذهبوا بالجنة لقد باينونا بوناً بعيداً. وقال لأبي عبيدة رضي الله عنه: اذهب بنا إلى منزلك، قال: ما تريد إلا أن تعصر عينيك عليّ. قال: فدخل منزله فلم ير شيئاً، فقال عمر: أين متاعك؟ لا أرى إلا لبداً وشناً وصحفة، وأنت أمير أعندك طعام؟ فقام أبو عبيدة إلى جونة فأخذ منها كسيرات، فبكى عمر، فقال أبو عبيدة: قد قلت لك لا تعصر عينيك عليّ يا أمير المؤمنين، يكفيك من الدنيا ما بلغ المقيل. فقال عمر: غرتنا الدنيا غيرك يا أبا عبيدة.

وقال الثوري وفضيل رضي الله عنهما: جعل الشر كله في بيت، وجعل مفتاحه حب الدنيا، وجعل الخير كله في بيت، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا. وجاء في الخبر: حب الدنيا رأس كل خطيئة. فيخرج من دليل الخطاب أن بغضها رأس كل طاعة، فعلى هذا ينبغي أن لا يؤخذ منها إلا ما لا بدّ منه. كما يروى عن عمير بن سعيد الذي تقدّم ذكره أنه قدم على عمر بن الخطاب رضي الله عنهما من حمص إذ كان أميراً عليها، فقال له عمر: ما معك من الدنيا يا عمير؟ قال: معي عصاي أتوكأ عليها وأقتل بها حية إن لقيتها، ومعي جرابي أحمل فيه طعامي، ومعي قصعتي آكل فيها وأغسل فيها ثوبي ورأسي، ومعي مطهرتي أحمل فيها شرابي ووضوئي للصلاة، فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معي. فقال عمر: صدقت رحمك الله، رضي الله عنهما.

تقدّم في الشعر الذي لي:

.... وجبته ترقع بالجلود

قال أبو عثمان النهدي: رأيت عمر بن الخطاب يطوف حول البيت وعليه إزار فيه ثنتا عشرة رقعة إحداهن أدم أحمر. وقد فعل مثل هذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال سعيد بن جبير: إن علياً قدم الكوفة وهو خليفة وعليه إزاران قطريان، قد رقع إزاره برقعة ليست بقطرية من ورائه، فجاءه أعرابي ينظر إلى تلك الخرقة مخالفة، فقال: يا أمير المؤمنين كل من هذا الطعام، والبس واركب، فإنك ميت أو مقتول. قال: إن هذا خير لي في صلاتي، وأصلح لعملي، وأشبه بهيئة الصالحين قبلي، وأجدر أن يقتدي بي

من أتى بعدي. وكان علم رضي الله عنه أنه مقتول، إذ كان قد أخبره بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله.

ويروى أنه أتي بابن ملجم إليه وقيل له: إنا قد سمعنا من هذا كلاماً ولا نأمن قتله إياك، قال: ما أصنع به؟ ثم قال رضي الله عنه:

أشدد حيازيمك للمو ... ت فإن الموت لاقيك
ولا تجزع من المو ... ت إذا حل بواديك

وقد تقدّم القول في هذا البيت، وأنّ أوّله: حيازيمك، وأنّ: أشدد، إنّما هو ابتداء كلام ليس من البيت.

قال بعض العلماء: إن لله عباداً جعلوا ما رزقهم الله في بطونهم وعلى ظهورهم. كما يروى أن هشام بن عبد الملك كانت كسوة نفسه دون كسوة عياله وحشمه وقر سبعمائة جمل وعشرين جملاً كان فيها اثنا عشر ألف قميص وسبعمائة تكة، طول كل تكة سبعة أذرع. وكان عمرو بن عامر ملك من ملوك اليمن يلقب مزيقيا، لأنه كان يلبس كل يوم حلة ثم يمزقها بالعشي، يكره أن يعود فيها، ويأنف أن يلبسها أحد غيره.

قلت: أين هذا من الذي قيل له عند الموت: أوص، قال: إذا مت تصدّقوا عليّ بقميصي. قيل له: أين ندفنك؟ قال: الذي يختار موضعي يدري حيث ينقلني، أو كما قال.

وقد تقدّم كيف كان لباس الصحابة رضي الله عنهم، وكان سالم بن عبد الله يلبس العباءة ثمنها نحو الدرهمين، وكان يحيى بن اليمان أحد العلماء الفضلاء، وهو الذي قال فيه شريك: أوَ بالكوفة أحد يشبة يحيى بن اليمان؟ قال يحيى: تزوّجت أم داود وما كان عندنا ليلة العرس إلا بطيخة أكلت أنا نصفها وهي نصفها، وولد لنا داود وما كان عندنا شيء نلفه فيه، حتى اشتريت له كسوة بحبتين، فلففناه فيه.

ويروى أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كانت له نفس تواقة إلى الكسوة والدنيا في حداثة سنة، فلما ولي الخلافة تخلى عن ذلك. روى مالك قال: بلغنا أن عمر بن عبد العزيز أمر رجلاً أن يشتري له لحافاً بستمائة درهم، فلما جاءه به تسخطه، فلما ولي الخلافة أمر ذلك الرجل أن يشتري له كساء بسبعة دراهم، فلما جاء به لبسه، ثم تعجب لحسنه، قال فضحك الرجل، فقال له عمر: إني لأظنك أحمق تضحك من غير شيء، قال: إنما ضحكت لمكان اللحاف الذي أمرتني أن أشتريه لك بستمائة درهم، قال: فصمت ساعة ثم قال: أخشى أن لاّ يشتري أحد ثوباً بستمائة درهم وهو يخاف الله.

زاد غيره: كانت لي نفس تواقة إلى الدنيا، فلما وليت الخلافة تاقت نفسي إلى الجنة. وكان يلبس الثوب المرقوع بعد ذلك. يروى أنه قوّمت ثيابه وهو يخطب باثني عشر درهماً، وكانت قباء وعمامة وقميصاً وسراويل وبرداً وخفين وقلنسوة.

قلت: هكذا يكون الزهد. كما قيل لبعض الزهاد: زهدت في الدنيا، قال: وفي أي شيء زهدت؟ إنما الزهد عمر بن عبد العزيز، أتته الدنيا فزهد فيها.

وفي مثل هذا أنشدوا:

يعف عن الدنيا إذاً عن تودّد ... وإن برزت في زي عذراء ناهد
إذا المرء لم يزهد وقد صبغت له ... معصفرها الدنيا فليس بزاهد

وأنشد الحافظ رحمه الله قول الشاعر:

والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا ترد إلى قليل تقنع

صدق في هذا المقال، وهو لعمري كما قال.

أذكرني هذا البيت خبر بشر بن الحارث: خرّج أبو طالب مكي رحمه الله في القوت قال: كان بشر بن الحارث قد اعتل، فسأل عبد الرحمن الطبيب عن شيء يوافقه من المأكولات، فقال له عبد الرحمن: تسألني، فإذا وصفت لك لم تقبل مني، فقال له بشر: صف لي حتى أسمع، فقال: تحتاج أن تستعمل ثلاثة أشياء، فإن فيهن صلاح جسمك، قال: وما هنّ؟ قال: تشرب سكنجبيناً وتمصّ سفرجلاً وتأكل بعد ذلك اسفناخ، فقال له بشر: أتعلم شيئاً أقل ثمناً من السكنجبين يقوم مقامه؟ قال: لا، قال: فأنا أعرفه، قال: وما هو؟ قال: الهندبا بالخل تقوم مقامه. ثم قال: أفتعرف شيئاً أقل ثمناً من السفرجل يقوم مقامه؟ قال: لا، قال: فأنا أعرفه، قال: وما هو؟ قال: الخروب الشامي في معناه. ثم قال: أتعرف شيئاً أقل ثمناً من الاسفناخ يقوم مقامه؟ قال: لا، قال: فأنا أعرفه، قال: وما هو؟ قال: ماء الحمص بسمن البقر في معناه. فقال له عبد الرحمن: فأنت أعلم بالطب مني، فلم تسألني؟.

قلت: انظر هذا الموفق كيف استعمل زهده حتى في الدواء، وأقل ما صنع أنه زهد في الدواء رأساً، والله أعلم. هكذا أظن به كما فعل غيره وغيره.

ومن الزهد أيضاً ما روي أن ملك الهند أهدى إلى المنصور تحفاً، وأرسل معها بفيلسوف طبيب، فأنزله وأحسن إليه، ثم دعاه بعد ذلك، فقال له الفيلسوف: جئتك يا أمير المؤمنين بثلاث خصال يتنافس الملوك فيها، قال: وما هي؟ قال: أخضب لحيتك بسواد لا ينصل أبداً، وأعالجك بعلاج تتسع به في المآكل فتأكل ما شئت ومتى شئت لا يؤذيك الطعام، وأقوّي صلبك بقوّة تنشط إلى الجماع فتجامع ما شئت لا تمل ولا

يضعف بصرك ولا ينقص من قوّتك. فأطرق المنصور ثم رفع رأسه إليه وقال: قد كنت أظنك أعقل مما أنت، أما ما ذكرت من السواد فلا حاجة لي به، لأنه غرور وزور والشيب هيبة ووقار، ولم أكن لأغيّر نوراً جعله الله في وجهي بظلمة السواد. وأما ما ذكرت من الأكل فوالله ما أنا بشره وما لي في الاستكثار حاجة، لأنه يثقل الجسم ويشغل عن الواجب، وأقل ما فيه اختلافي إلى الخلاء، فأرى ما أكره وأسمع ما لا أحبّ. وأما ما ذكرت من النساء فإن الجماع شعبة من الجنون، وما أقبح بخليفة مثلي يجثو بين يدي صبية، ارجع إلى صاحبك مذموماً مدحوراً. انظر هذا الموفق الآخر كيف زهد مع الملك والقدرة في الأشياء التي هي معنى الدنيا وجلّ شهواتها، لا سيما البطن.

كما قال بعضهم وسئل عن الزهد فقال: اعلم أن البطن دنيا العبد، فبمقدار ما تملك من بطنك تملك من الزهد. وكذلك قال وهب بن منبه: لكل شيء وسط وطرفان، فإن أمسكت بأحد الطرفين مال الآخر، وإن أمسكت الوسط اعتدل الطرفان، كذلك البطن وسط بين الجوارح، إن أمسكته اعتدلت الأطراف السمع والبصر واللسان والفرج والرجل.

وكذلك قال غيره: إذا أعطيت البطن حظه من الشبع طلبت كل جارحة حظها من اللهو فجمحت بك النفس إلى الهلكة، وإذا منعت البطن حظه قصرت كل جارحة عن حظها، فاستقام القلب لذلك.

وقد تقدّم لي في هذا المعنى طرف وإن لم يكن حجة فهو المحجة. تقدّم في أوّل الكتاب: من كان همه بطنه وفرجه فلا ترجه، والأبيات بعده التي أوّلها:

إذا أعطيت بطنك مشتهاه ... وفرجك سؤله أنت البهيمه

وتقدّم أيضاً:

أضرّ شيء على الإنسان خصيته

الأبيات. قلت: ولعمر الله إن الزاهد لفي راحة وحال استراحة، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن، ولقد صدق القائل:

لا عيش يصفو للملوك وإنّما ... تصفو وتُحمد عيشة النساك

لذلك قال بعضهم: إن كنت تريد أن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة فازهد في الدنيا. وقد تقدّم لعبد الحق رحمه الله:

فصرت غنياً بلا درهم ... أتيه على الناس تيه الملك

وقال بعض من تزهد من الملوك: لم أجد طيب العيش حتى استبدلت الخمص

بالكظة(*) ولم آكل مما أغسل يدي منه، ولم ألبس من ثيابي ما أخدمه.

وقال إياس بن معاوية: لأن ألبس ثوباً أقي به نفسي أحبّ إليّ من أن ألبس ثوباً أقيه بنفسي.

وقال عون بن عبد الله: صحبت الأغنياء فلم أر أحداً أكثر هماً مني، أرى دابة خيراً من دابتي وثوباً خيراً من ثوبي، وصحبت الفقراء فاسترحت. وقالوا: عيب الغناء أنه يورث البله، وفضيلة الفقر أنه يبعث الجبلة.

وقالوا: مع الحاجة تقع الفكرة ومع الكفاية يقع العجز والبلادة. وقال أكثم بن صيفي: ما يسرني أنني مكفي كل أمر الدنيا، قيل: ولم؟ قال: أكره عادة العجز.

قلت: لقد صدق عون رحمه الله، إذ يقول: من ترك الفضول فقد استراح، والفضول هي الشهوات، ألم تسمع قول الشاعر هو أبو الطيب المتنبي:

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته ... ما فاته وفضول العيش أشغال

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: أهل الأموال يأكلون ونأكل، ويشربون ونشرب، ويلبسون نلبس، ويركبون ونركب، ولهم فضول أموال ينظرون إليها وننظر إليها معهم، عليهم حسابها ونحن منها برآء. وللفقيه الزاهد أبي عمران موسى:

قنعت فنلت الغنى وادعاً ... وعشت هنيئاً بستر الخمول
ونلت الذي نال منها الملوك ... فلم يفضلوني بغير الفضول
وذاك الفضول متاع قليل ... يكون عليه الحساب الطويل

وله أيضاً:

ما الزهد يا قوم فلا تجهلوا ... بلبس أسمال وأخلاق
لكنه لبس ثياب التقى ... مع حسن آداب وأخلاق

وله أيضاً:

كفى بسليخة في البيت مرطاً ... معداً للشتاء وللمصيف
يكون وطاء جلد في مصيف ... وفي زمن الشتاء وطاء صوف

وله أيضاً:

إن السليخة والحصير كفاية ... ولو اقتصرت على الحصير كفاني
إن القليل لمن يموت مبلغ ... فإن يبلغه قليل فاني
حسبي القليل وليتني أنجو غداً ... عند الحساب عليه من دياني

(*) الكظة: شيء يعتري الإنسان عن الامتلاء من الطعام.

وقال: ورأى رجلاً يبني ويشيد، فذكر قول الرسول عليه الصلاة والسلام: من بنى فوق سبعة أذرع أو تسعة نودي: إلى أين يا أفسق الفاسقين؟ فقال:

أطلت البناء وشيدته وأنفقت ويحك فيه المئينا
وأنت تنادي ولا ترعوي إلى أين يا أفسق الفاسقينا
فهلا اقتصرت على قدر ما يواري ويمنع عنك العيونا
فكنت على هدي من قد مضى ووفرت وفراً وعرضاً ودينا
ولم تك تحمله في غد على الظهر شيداً وصخراً وطينا

ولبعض الزهاد:

كسرة خبز وكوز ماء ورقع ثوب مع السلامه
خير من الملك في نعيم تكون عقباه للندامه

وقال بعض أبناء الملوك ممن أضرّ به الدهر، ورُئي في هيئة رثة فرقّ له من رآه وقال: إلى هذا صار أرك، فقال: رحمك الله ما فقدنا إلا الفضول.

وجاء في الحديث: ما عال من اقتصد، والاقتصاد: الاقتصار على القوت. وقال: القناعة مال لا ينفد.

وقال الشاعر:

كفاهم أقل الزاد إذ قنعوا به ومن قنع استغنى عن القبض بالقبص

القبص، بالصاد غير المعجمة: الأخذ بأطراف الأصابع. والقبض، بالضاد: الأخذ بجميع الكف.

ومما أنشدنيه أبو محمد عبد الحق رحمه الله لنفسه من قطعة أوّلها:

رأيت القناعة أغنى الغنى فصرت بإمساكها أمتسك
وأعتقت نفسي ولم أشرها ببخس فتملك فيمن ملك
فصرت غنياً بلا درهم أتيه على الناس تيه الملك

وقرأت على الحافظ السلفي رحمه الله بسنده لبعضهم:

منزلي منزل الكرام ونفسي نفس حرّ ترى المذلة كفرا
وإذا ما قنعت بالقوت دهري فلماذا أزور زيداً وعمرا

لعلك أن تقول: سمعنا عن الزهاد ولم نرهم. صدقت، لو كنت منهم لرأيتهم، إن في عصرنا هذا الذي هو سنة ثلاث وستمائة رجلاً بإشبيلية عالماً عاملاً زاهداً فقيهاً شاعراً أديباً مشهوراً بذلك كله، وهو الفقيه أبو عمران موسى بن عمران القيسي الميرتلي رضي الله عنه، وقد تقدّم من شعره في هذا الكتاب كثير، ومن شعره وما ألزم

نفسه به قوله رضي الله عنه:

ألزمت نفسي والله المعين على ... إمضاء عزمي فيما بعد أذكره
فمن تصفح ما أملي ويعذرني ... فالله عني يجزيه ويشكره

والمعزوم عليه والله المستعان أن لا أشهد مشهداً ولا أبرح عن منزلي إلا للفرض إن استطعت، وأعجل الانصراف بمشيئة الله، ولا أبايت ولا أبايت ولا أخاطب مبتدئاً ولا مجاوباً، ولا أقبل هدية ولا ديناراً ولا درهماً لنفسي ولا لغيري، ولا تلج يدي في طعام أحد، ولا أدخل في وساطة ولا في حكومة، ولا أقبل وديعة، ولا أجيب لوليمة، ولا أتعرف لمن لا يعرفني، وأقلل ما أمكنني من معرفة كثير ممن يعرفني بالانقباض وحسن التلطف طلباً للسلامة لي وله، ولا أجيب في مشورة إلا بالدعاء، ولا آمل غير مولاي لي أو لسواي، ولا أتولى خطة ما كانت، ولا أكون إماماً ولا خطيباً، ولا أفعل شيئاً من كل ما رسمته إلا لحال ضرورة، والله تعالى يغني من سعة فضله ويعين على هذا كله:

فحسبي نفسي وما كلفت ... وفي ذاك لي شغل شاغل
وحسبي مولاي من خلقه ... لقد خاب من غيره يأمل

عمر الله قلوبنا بذكره، ولا شغلنا عنه بغيره، إنه منعم كريم. وله فصول من كلام الحكماء، مثل: كل ما يفنى ما له معنى. القناعة بالقوت واللباس خير من سؤال الناس. من تقحم فيما لا يعنيه وقع فيما يتعبه ويعييه. من خف قدمه كثر ندمه. ومن تنبط اغتبط. ما لا ينفع لا يصنع. ومن هذا النوع كثير.

ومن أملح ما رأيت له، وهو من الذي كلفت به من المعكوس، رأى رجلاً يكتب بطاقة فأشار إلى القلم وقال: احذر أن تلقي في مكتوبك من مقلوبه، وذلك أن مقلوب قلم ملق. قلت: أعاننا الله على طاعته ووفقنا لاتباع طريقة الصالحين، آمين، بكرمه وفضله.

اجواد الإسلام :

وأما أجواد الإسلام بعد هؤلاء فأحد عشر رجلاً في عصر واحد، وبعضهم قريب من بعض، لم يكن قبلهم ولا بعدهم مثلهم، فأجواد أهل الحجاز ثلاثة: عبد الله بن العباس وعبد الله بن جعفر وسعيد بن العاص. وأجواد أهل البصرة خمسة في عصر واحد: عبد الله بن عامر بن كريز، وعبد الله بن يعمر القرشي، ثم السلمي، ثم التيمي، وطلحة الطلحات وهو طلحة بن عبيد الله بن خلف الخزاعي. وأجواد أهل الكوفة ثلاثة: عتاب بن ورقاء الرياحي، وأسماء بن خارجة الفزاري، وعكرمة بن ربعي

الفياض.

فمن جود عبد الله بن عباس أنه أتاه رجل وهو بفناء داره، فقام بين يديه فقال: يا ابن عباس إن لي عندك يداً وقد احتجت إليها، فصعد فيه بصره وصوّبه فلم يعرفه، ثم قال له: ما يدك عندنا؟ فقال: رأيتك واقفاً بزمزم وغلامك يمنح لك من مائها، والشمس قد صهرتك، فظللتك بطرف كسائي حتى شربت، فقال: أجل إني لأذكر ذلك، وإنه ليتردّد بين خاطري وفكري، ثم قال لقيّمه: ما عندك؟ قال: مائتا دينار وعشرة آلاف درهم، قال: ادفعها إليه وما أراها تفي بحق يده عندنا. قال له الرجل: والله لو لم يكن لإسماعيل ولد غيرك لكان فيك ما كفاه، فكيف وقد ولد سيد الأوّلين والآخرين محمداً صلى الله عليه وسلم، ثم شفع بك وبأبيك.

قلت: والشيء يعرف بالضدّ كالوصل بالصدّ والعطاء بالردّ. انظر هذا السخيّ الجدّين الحيي الخدّين، كيف استحيا أن يردّ من سأله، ويخيب من أمله، وجعل يحدّثه بما نصه أنه يعرف تلك القصة، ويحتمل أن يكون إنما قال ذلك لهذا السائل خشية أن يخجل فيكدر عليه النائل، أين هذا مما أنشدني الحافظ رحمه الله لبعضهم بالإسكندرية وهو عندي في أجزائها المروية، قال رحمه الله:

أتيت أخاً لي في حاجة ... وكنت عليه خفيف المؤن
فأنكر معرفة لم تزل ... وأبدى مماذقة لم تكن
وقال وجاحدني حسبه ... أبو من وممن ومن وابن من

ومن جود عبد الله من جعفر أنه أعطى امرأة سألته مالاً عظيماً، فقيل له: إنها لم تعرفك وكان يرضيها اليسير، فقال: إن كان يرضيها اليسير فأنا لا أرضى إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي.

ولد عبد الله بن جعفر هذا بأرض الحبشة، ووافق أن ولد للنجاشي رحمه الله مولود يوم ولد عبد الله، فأرسل إلى جعفر يسأله كيف سميت ابنك، فقال: سميته عبد الله، فسمى النجاشي أيضاً ابنه عبد الله، وأرضعته أسماء بنت عميس امرأة جعفر مع ابنها عبد الله هذا، فكانا يتواصلان حين كبرا بتلك الأخوة. وولد لجعفر أيضاً بأرض الحبشة محمد وعون الله رضي الله عن جميعهم.

ومن جود سعيد بن العاص أنه كان يسمر معه ليلة قوم، فانصرفوا وبقي رجل، فعلم أنه طالب حاجة ويمنعه الحياء من ذكرها، فأمر سعيد بإطفاء الشمعة وقال: ما حاجتك يا فتى؟ فذكر أن عليه ديناً أربعة آلاف درهم، فأمر له بها. قال: وإطفاؤه الشمعة أكثر من عطائه. وعوتب في كثرة العطاء فقال: إن الله تعالى عوّدني أن يتفضّل عليّ،

وعوّدته أن أتفضّل على عباده، فأخاف إن قطعت أن يقطع، وهو الذي أنشد له:

إن الصنيعة لا تكون صنيعة ... حتى يصاب بها طريق المصنع

فقال: إن هذا ليبخل الناس، ولكن أمطروا المعروف مطراً، فإن أصاب الكرام كانوا له أهلاً، وإن أصاب اللئام كنتم له أهلاً.

وقال الفضل بن سهل: إذا لم أعط إلا مستحقاً فكأني إنما أعطيت غريماً.

ومن السخاء ما روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: السخي قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار، ولجاهل سخي أحبّ إلى الله من عالم بخيل.

ومن جود عبد الله بن أبي بكرة رضي الله عنه أن رجلاً أدلى إليه بحرمة، فأمر له بمائة ألف درهم.

ومن جود عبد الله بن يعمر رضي الله عنه أن رجلاً من أهل البصرة كانت له جارية وصف من حسنها وأدبها شيئاً كثيراً، وأنه أملق فاحتاج إلى بيع الجارية بعد أن استأذنها في ذلك واعتذر إليها، وكان لها محباً وهي له كذلك، فأشارت إليه أن يهديها لابن يعمر، بعد أن أصلحت من شأنها، ففعل وأوقفها بين يديه وقال له: أصلحك الله هذه جارية ربيتها ورضيت لك أدبها فاقبلها مني هدية، فقال: مثلي لا يستهدى مثلك فهل لك في بيعها فأجزل لك الثمن فيها حتى ترضاه؟ قال: الذي ترضاه، قال: يقنعك مني عشر بدر، في كل بدرة عشرة آلاف درهم؟ فقال: يا سيدي والله ما امتدّ أملي إلى عشر ما ذكرت، ولكن هذا من فضلك المعروف وجودك المشهور. فأمر عبد الله بإخراج المال حتى صار بين يدي الرجل وقبضه، وقال للجارية: ادخلي الحجاب، فقال سيدها: أعزك الله لو أذنت لي في وداعها، قال: نعم، فوقفت وقام وقال لها وعيناه تدمعان:

أبوح بحزن من فراقك موجع ... أقاسي به ليلاً يطيل تفكري
ولولا قعود الدهر بي عنك لم يكن ... يفرقنا شيء سوى الموت فاعذري
عليك سلام لا زيارة بيننا ... ولا وصل إلا أن يشاء ابن يعمر

فقال عبد الله بن يعمر: قد شئت ذلك، فخذ بيد جاريتك وبارك الله لك في المال، فذهب بجاريته والمال وعاد غنياً.

ومن الأجواد من غير من ذكر: أبو مرثد، مدحه بعض الشعراء فقال: والله ما عندي ما أعطيك، ولكن قدّمني إلى القاضي وادّع عليّ بعشرة آلاف درهم حتى أقرّ لك بها فتحبسني على دينك، فإن أهلي لا يتركونني محبوساً، ففعل، فلم يمس حتى دفع

إليه المال.

وكذلك كان عبد الله بن جدعان لما كبر أخذ بنو تيم عليه ومنعوه من التصرف لفرط جوده، فكان إذا أتاه الرجل يستعطيه يقول له: ادن مني، فإذا دنا منه لطمه وقال: اذهب فاطلب بلطمتك أو ترضى، فكانت بنو تميم ترضيه من ماله.

ومن الأجواد أيضاً من غير من ذكر: عبد الله بن طاهر رضي الله عنه، حدّث بعض قوّاده أنه فرق في مقام بخراسان ألف ألف دينار. ومنهم عبد الله بن المبارك رضي الله عنه، كان يفرق ماله على إخوانه، ويؤثرهم بأرباحه، ويلبس ثوباً بثلث دينار، ويعطي صاحب الحمام ديناراً والحجام ديناراً. ومنهم الفضل بن يحيى رضي الله عنه، ذكر أنه جاءه رجل فذكر أن بينهما نسباً فقال: وما هو؟ قال: جوار قريب، واسمي مشتق من اسمك، وولادتي تقرب من ولادتك. فقال له: أما الجوار فممكن، وقد يوافق الاسم الاسم، فما أعلمك بالولادة؟ فقال: أخبرتني أمي أنها لما ولدتني قيل لها: قد ولد الليلة ليحيى ولد وسمي الفضل، فسمتني أمي فضيلاً إكباراً لاسمك. فتبسم الفضل وقال له: كم لك من السنين؟ قال: خمس وثلاثون، قال: هو المقدار، وأمر له بألف لكل سنة.

ومن الأجواد عروة بن الورد الذي يقول:

أتهزأ مني أن قد سمنت وقد ترى ... بجسمي مس الحق والحق جاهد
فإني امرؤ عافي إنائي شركة ... وأنت امرؤ عافي إنائك واحد
أقسم جسمي في جسوم كثيرة ... وأحسو قراح الماء والماء بارد

كان عبد الله بن مروان يقول: من قال إن حاتماً أسمح العرب فقد ظلم عروة بن الورد، ما يسرّني أنّ أحداً من العرب ولدني إلا عروة بن الورد لقوله هذه الأبيات، ومثله الذي يقول:

أيا ابنة عبد الله وابنة مالك ... ويا ابنة ذي البردين والفرس الورد
إذا ما صنعت الزاد فالتمسي له ... أكيلاً فإني لست آكله وحدي
قصياً كريماً أو قريباً فإنني ... أخاف مذمات الحديث لِمن بعدي
وإني لعبد الضيف ما زال نازلاً ... وما من خلالي غيرها شيمة العبد

وكان يسمى عروة الصعاليك، لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة ويرزقهم مما يغنمه.

ومنهم الحكم بن حنطب، وحنطب جده، وهو الحكم بن المطلب بن عبد الله بن المطلب ابن حنطب، وكان المطلب بن حنطب ممن اسر يوم بدر، والحكم هذا كريم أهل زمانه وأسخاهم وتزهد في آخر عمره، ومات بمنبج، وفيه يقول الراعي يرثيه:

سألوا عن الجود والمعروف ما فعلا فقلت إنهما ماتا مع الحكم
ماتا مع الرجل الموفي بذمته قبل السؤال إذا لم يوف بالذمم

حكاية ظريفة :

ذكر الدارقطني في موته حكاية ظريفة، قال حميد بن معروف: حضرت وفاة الحكم فأصابه من الموت شدة، فقال قائل في البيت: اللهم هوّن عليه الموت فقد كان وقد كان يثني عليه، فأفاق الحكم فقال: من المتكلم؟ فقال الرجل: أنا، فقال الحكم: يقول لك ملك الموت أنا بكل سخي رفيق، ثم كأنما كانت فتيلة فطفئت. فمن جوده أنه سأله أعرابي فأعطاه خمسمائة دينار، فبكى الأعرابي، فقال: ما يبكيك يا أعرابي؟ لعلك استقللت ما أعطيتك، قال: لا والله ولكني أبكي لما تأكل الأرض منك. وقيل لنصيب بن رباح: خرف شعرك يا أبا محجن، قال: لا والله ولكن خرف الكرام، لقد رأيتني وقد مدحت الحكم بن حنطب فأعطاني ألف دينار ومائة ناقة وأربعمائة شاة. وروى القتيبي قال: أخبرنا رجل من أهل منبج قال: قدم علينا الحكم بن حنطب وهو مملق فأغنانا، قلت له: وكيف أغناكم وهو مملق؟ قال: علمنا المكارم فعاد غنينا على فقيرنا.

وكان الليث بن سعد يستغل كل سنة خمسين ألف دينار، وكان قد أمر لمالك بخمسمائة دينار، فبلغ ذلك الرشيد، فشح عليه وعاتبه، فقال: استحييت أن أنقصه عن غلة يوم، وما وجبت عليه زكاة قط. هكذا قرأته على الحافظ بالإسكندرية رحمه الله. ورأيت في موضع آخر أنه كان يستغل كل يوم ألف دينار، ووصل مالك بن أنس بألف دينار.

وكان أبو شريح الخزاعي من عقلاء أهل المدينة، وقال: إذا رأيتموني أبلغ من أنكحته وأنكحت إليه إلى السلطان فاعلموا أني مجنون فاكووني، وإن رأيتموني أمنع جاري أن يضع خشبة في حائطي فاعلموا أني مجنون فاكووني، ومن وجد لأبي شريح سمناً أو لبناً أو جذابة فهو له حل فليأكله وليشربه.

ويروى أن عبد الله باع غلة بثمانين ألفاً، فقيل له: لو اتخذت بهذا المال ذخيرة لولدك، قال: إنّما أجعل هذا المال عند الله، وأجعل الله ذخراً لولدي. ثم أمر فقسم المال كله في أهل الحاجة.

ونوع من هذا ما صنع عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: يروى أن سلمة بن عبد الملك دخل على عمر بن عبد العزيز في مرضه الذي توفي فيه، فقال له: يا أمير المؤمنين إنك فطمت أفواه ولدك من هذا المال فتركتهم عالة، ولا بدّ لهم من شيء

يصلحهم، فلو أوصيت بهم من أهل بيتك من يكفيك مؤنتهم، فقال عمر: أجلسوني، فأجلسوه، فقال له: يا سلمة أما ما ذكرت أني فطمت أفواه ولدي من هذا المال وتركتهم عالة؛ فإني لم أمنعهم حقاً هو لهم، ولم أعطهم حقاً هو لغيرهم.

وأما ما سألت من الوصاة بهم؛ فإن وصيتي بهم إلى الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين، إنما بنو عمر أحد رجلين: رجل اتقى الله، فجعل الله له من أمره يسراً ويرزقه من حيث لا يحتسب، أو رجل عنده فجور فلا يكون عمر أوّل من أعانه على المعصية. ثم دعا عمر بنيه وهم يومئذ اثنا عشر غلاماً، فجعل يصعد فيهم بصره ويصوّبه حتى اغرورقت عيناه بالدموع، ثم قال: بنفسي فتية تركتهم ولا مال لهم، ثم قال: يا بنيّ إني تركتكم من الله بخير أنكم لا تمرّون بمسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله. يا بنيّ إني نظرت بين أن تفتقروا في الدنيا وبين ن يدخل أبوكم النار، فكان أن تفتقروا خيراً من دخول أبيكم النار. يا بني عصمكم الله رزقكم الله. قالوا: فما احتاج أحد من ولده ولا افتقر إلى آخر الدهر. وفي رواية أنه قال لهم: عصمكم الله من الشيطان الرجيم، فلما ولوا قال: بنفسي الفتية الذين تركتهم عيالاً لا شيء لهم.

ومنهم يزيد بن المهلب، كان هشام بن حسان إذا ذكره قال: والله إن كانت السفن لتجري في جوده. قيل ليزيد بن المهلب: ما لك لا تبني؟ قال: منزلي دار الإمارة أو الحبس. ودخل عليه الفرزدق في السجن، فأنشده:

أصبح في قيدك السماحة والـ ... ـمجد وفك الأعناق والأغلال

فقال له: أتمدحني وأنا في هذه الحالة؟ فقال: أصبتك رخيصاً فاشتريتك. فأمر له بعشرة آلاف.

ومنهم يزيد بن حاتم الذي يقول فيه الشاعر:

شتان ما بين اليزيدين في الندى ... يزيد سليم والأغرّ بن حاتم
فهمّ الفتى الأزدي إتلاف ماله ... وهمّ الفتى القيسي جمع الدراهم

وبعد هذا:

فلا يحسب التمتام أني هجوته

البيت، وقد تقدّم.

وكتب إلى يزيد بن حاتم هذا بعض أصحابه يستوصله، فبعث إليه بثلاثين ألفاً وكتب إليه: أما بعد، فإني قد بعثت إليك بثلاثين ألفاً، لا أكثرها امتناناً ولا أقللها تحقراً، ولا أستثنيك عليها ثناء، ولا أقطع لك بها رجاء، والسلام.

ومنهم خالد بن عبد الله القسري، بينما هو جالس في مظلته إذ نظر أعرابي يخب

به بعيره مقبلاً نحوه، فقال لحاجبه: إذا قدم فلا تحجبه، فلما قدم أدخله الحاجب عليه، فسلم وأنشأ يقول:

أصلحك الله قلّ ما بيدي ... فما أطيق العيال إذا كثروا
ألحّ دهر ألقى بكلكله ... فأرسلوني إليك وانتظروا

فقال خالد: أرسلوك إليّ وانتظروا؟ والله لا تنزل حتى تنصرف إليهم بما يسرّهم، وأمر له بجائزة عظيمة وكسوة شريفة.

ومنهم عدي بن حاتم، دخل عليه ابن دارة فقال له: إني امتدحتك، فقال له أمسك حتى آتيك بمالي ثم امدحني على حسبه، فإني أكره أن لا أعطيك ثمن ما تقول لي، ألف شاة وألف درهم وثلاثة أعبد وثلاث إماء، وفرسي حبيس في سبيل الله، فامدحني على حسب ما أخبرتك فقال:

وأبقى الليالي من عدي بن حاتم ... حساماً كنصل السيف سل من الخلل(*)
أبوك جواد لا يشقّ غباره ... وأنت جواد لست تعذر بالعلل
فإن تفعلوا شراً فمثلكم اتقى ... وإن تفعلوا خيراً فمثلكم فعل

فقال له عدي: أمسك لا يبلغ مالي أكثر من هذا.

ومنهم معن بن زائدة، الذي كان يقال فيه: حدّث عن البحر ولا حرج، وحدّث عن معن ولا حرج. أتاه رجل يستحمله فقال: يا غلام أعطه فرساً وبرذوناً وبغلاً وعيراً وبعيراً وجارية، ولو عرفت مركوباً غير هؤلاء لأعطيتك. وحدّثني بعض الطلبة ونحن على ظهر مركب في النيل طالعين إلى قوص سنة إحدى وخمسين وستمائة، قال: يذكر أن أعرابياً دخل على معن يوم قعوده للناس، فأنشده:

أتذكر إذ لحافك جلد شاة ... وإذ نعلاك من جلد البعير

قال له معن: أذكر ذلك ولا أنساه يا أخا العرب، فقال له:

فسبحان الذي أعطاك ملكاً ... وعلمك القعود على السرير

فقال له معن: سبحانه لا إله إلا هو، فقال له:

فلست مسلماً ما دمت حياً ... عليك ولو لحوني بالأمير

فقال له معن: ذلك إليك إن شئت أن تسلم وإلا فلا تسلم، فقال له:

ولا أسكن بلاداً أنت فيها ... ولو نلت الشآم مع الثغور

فقال له معن: ذلك إليك إن شئت أن تقيم، وإن شئت فارحل، فقال له:

(*) الخلل: جمع خلة، بالكسر، وهي: جفن السيف.

فجد لي يا ابن ناقصة بشيء — فإني قد عزمت على المسير

فقال معن لخادمه: يا غلام ادفع إليه ألف دينار، فقال له الأعرابي:

قليل ما منت به فإني — لأطمع منك في الشيء الكثير

فقال معن: يا غلام ادفع له ألفاً أخرى، فقال:

فثلث إذ ملكت الملك رزقاً — بلا عقل ولا جاه خطير

فأمر له بألف، فكأنَّ الأعرابي استحيا فقال:

فأنت المرء ليس له كفاء — ومن جدواه كالبحر الكبير

قال معن: قد أعطيناه على هجونا ثلاثة آلاف، فأعطه على مدحنا ثلاثة آلاف، فأخذ الأعرابي ستة آلاف وانصرف.

تقدّم ذكر عمرو مزيقيا وهو الذي خرج من اليمن بسيل العرم، ومزيقيا لقب له، وكان أبوه عامر بن حارثة الأزدي، من الأجواد أيضاً، وكان يلقب ماء السماء، لأنه كان إذا أجدب قومه مانهم حتى يأتيهم الغيث، فقالوا: ماء السماء، لأنه خلف منه، وقيل لولده: بنو ماء السماء. وقد قال بعض الأنصار في شعر له يفخر بذلك:

انا ابن مزيقيا عمرو وجدي — أبوه عامر ماء السماء

وجاء في الحديث في شأن هاجر: فتلكم أمكم يا بني ماء السماء. وقالوا: أفخر بيت قالته العرب قول الأحوص:

ما من مصيبة نكبة أرمى بها — إلا تشرفني وترفع شاني

وإذا سألت عن الكرام فإنني — كالشمس لا تخفى بكل مكان

وقال غيره:

وقد شاع ذكري في البلاد فمن لهم — بإخفاء شمس ضوءها متكامل

ومن الأجواد غير من ذكر: الجنيد الذي يقول فيه أبو جويرية:

ذهب الجود والجنيد جميعاً — فعلى الجود والجنيد السلام

أصبحا ثاويين في بطن قبر — ما تغنى على الغصون الحمام

وقد احتجت أنا إلى هذا المعنى في حديث جرى، فقلت في قصيد مطوّل:

صدق الشاعر المجيد الذي قا — ل يبكي خليله وصفيه

ذهب الجود والجنيد جميعاً — فعلى الجود والجنيد التحيه

والشعر بكماله والحكاية بكمالها مذكورة في التكميل. والشيء يعرف بضدّه، وقال أبو علي البصير:

لعمر أبيك ما نسب المعلى — إلى كرم وفي الدنيا كريم

ولكــنّ الــبلاد إذا اقــشعرت وصـوّح نبـتها رعـي الهـشيم

ومما قلته في الكرام:

ذكــرت الكــرام ومــا مــنهم أنــا غيــر أنــي أحــب الكــرام
وإنــي أروم لحاقــاً بهــم فغيــري ذاك مــع الملــك رام
فــنال مــناه وكــم رمــية قــدَ اردت ومــا جالــب الهلــك
ودونــك شــعراً قوافــيه طــرّا رام ثــلاث مــرار الكــرام الكــرام
وهاأنــا أرجــع مــن بعــد ذا بعــون الإلــه لباقــي الكــلام

أذكرتني هذه القافية شعراً قلته في أحد الأصحاب:

أيــا عابــد الله أنــت الوفــي وعــن مــثلك الخلــف قــد ينتفــي
وعــدت بــوعد فهــل لــك يــا خليلــي بمــا قلــته أن تفــي
وإنــي أحــبك مهمــا وفــيت فهــل تــشتهي أنــت فــي أن تفــي
وقافــــية إن تأملــــتها تجــد ينبغــي إن تفــي أن تفــي
وذلــك فــأل وحاشــاك أن تكــون كــذاك ولكــن تفــي

مبحث الصبر :

وإذا اجتمع إلى الكريم الصدق والحلم وانضاف إليهما الصبر والعلم؛ فقد تمت خصاله وتناهى كماله. ويدخل تحت الصبر الشجاعة وما يحتاج إليه في جميع أعمال الطاعة، لأن الطاعة عمل والصبر عليها بالمداومة عمل آخر، وكفى بالصبر شرفاً قول النبي صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن الإيمان، فقال: الصبر. وفي حديث آخر قال: الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله، ولن يفترقا.

والصبر صبران: صبر على الطاعة كما تقدّم، وصبر عن المعصية. وجاء في الخبر: الصبر على ثلاثة أوجه: صبر على المصيبة، وصبر على ما أمر الله به، وصبر عما نهى الله عنه، فمن صبر على المصيبة كان له بذلك ثلاثمائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، ومن صبر على ما أمر الله به كان له بذلك ستمائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء إلى الثرى، ومن صبر عما نهى الله عنه كان له بذلك تسعمائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين العرش إلى الأرض السفلى. ومما قيل في الصبر:

وإنــي إذا لــم ألــزم الــصبر طائعــاً فــلا بــدّ مــنه مكــرهاً غيــر طائــع

وفوق الصبر درجة أعلى منه، وهو الرضاء بالقضاء، فمن رضي رضي الله عنه. وكذا جاء في الحديث: فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط. ولا تصدر هذه

الأخلاق إلا عن الكرماء الحلماء.

وأشجع الناس وأقواهم من ردّ غضبه بحلمه، وقال عليه الصلاة والسلام: ليس الشديد بالصرعة(*)، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب. وقال علي رضي الله عنه: الخير الذي لا شرّ فيه الشكر مع العافية والصبر عند المصيبة، وكم من منعم غير شاكر ومبتلى غير صابر. ومن أمثالهم: الحلم مطية وطية.

ويروى عن علي رضي الله عنه أنه قال لرجل: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يعظم حلمك ويكثر علمك. وقال أيضاً رضي الله عنه: الحلم لا يظهر إلا عند الغضب فمن أغضب ولم يحلم فليس بحليم. وقال الشاعر:

ليست الأحلام في حال الرضى ... إنما الأحلام في حال الغضب

يروى أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أسمعه رجل كلاماً محرجاً، فقال له عمر: أردت أن يستفزني الشيطان بعزة السلطان، فأنال منك اليوم ما تنال مني غداً، انصرف يرحمك الله. وقال بعض العلماء: إذا لم تكن حليماً فتحلم.

ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم، ومن تخير الخير يعطه، ومن توقَّ الشرّ توقَّه.

وقيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت الحلم؟ قال: من قيس بن عاصم المنقري، رأيته يوماً قاعداً بفناء داره محتبياً بحمائل سيفه يحدّث قومه، فإذا برجل مكتوف ورجل مقتول، فقيل له: هذا ابنك قتله أخوك هذا، فوالله ما قطع كلامه ولا حل حبوته حتى فرغ من حديثه، وأنشأ يقول:

أقول للنفس تأنيساً وتعزية ... إحدى يديّ أصابتني ولم ترد

كلاهما خلف من فقد صاحبه ... هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

ثم التفت إلى أخيه وقال: يا أخي أنت رميت نفسك بسهمك وقتلت ابن أخيك، ثم قال لابن له آخر: قم يا بني فوار أخاك، وحل كتاف عمك، واحمل إلى أمك مائة ناقة دية عن ابنها، فإنها غريبة منا.

ونوع من هذا: يحكى عن صلة بن أشيم أنه دخل عليه رجل وبين يديه طعام، فنعى إليه أخاه، فقال له: هلم، فتعجب الرجل وقال: هل سبقني إليك بنعيه أحد؟. قال: نعم، قول الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠] و: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

(*) الصرعة، بوزن همزة: من يصرع الناس.

وكان الأحنف يقول: ما نازعني أحد قط إلا أخذت عليه في أمري بإحدى ثلاث خصال: إن كان فوقي عرفت قدره، وإن كان دوني أكرمت نفسي عنه، وإن كان مثلي تفضلت عليه.

وقيل للأحنف: من أحلم أنت أو معاوية؟ فقال: معاوية قدر فحلم، وأنا أحلم ولا أقدر فكيف أقاس به.

وجعل لرجل ألف درهم على أن يسفه الأحنف، فنال منه والأحنف عنه معرض، فلما رآه لا يردّ عليه أقبل يعض أنامله ويقول: واسوأتاه، والله ما يمنعه من جوابي إلا هواني عليه، وفي مثل هذا أنشدوا:

أسمعني عبد بني مسمع ... فصنت عنه النفس والعرضا
ولم أجبه لاحتقاري له ... ومن يعض الكلب إن عضا

ولي في هذا المعنى، وسمعت رجلاً ينشد:

إذا نطق السفيه فلا تجبه ... ودعه فالسكوت له جواب
أيجمل باللبيب يعض كلباً ... إذا ما عضه ماذا صواب

وقالوا في هذا المعنى: لا تعاقب شاتمك فما يعاقب الأحمق بمثل السكوت، وأنشدوا:

وما شيء أحب إلى سفيه ... إذا سب الكريم من الجواب
متاركة السفيه بلا جواب ... أشدّ على السفيه من السباب

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أوّل ما يرى الحليم من بركة حلمه أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل.

وقال أبو سليمان الداراني: أحضر الناس جواباً من لا يغضب.

وشتم بعض السفهاء المهلب فلم يلتفت إليه، فظن أنه لم يسمعه، فقال: إياك أعني، فقال له المهلب: وعنك أعرض. وينشد في مثل هذا:

ولقد أمرّ على اللئيم يسبني ... فأجوز ثم أقول لا يعنيني

ووقع بين أبي مسلم وبين بعض أصحابه كلام فأغلظ له فيه، فأطرق أبو مسلم، فلما سكنت ثورة الغضب عن الرجل ندم وعلم أنه قد أخطأ، فقال له: أيها الأمير والله ما انبسطت حتى بسطتني، ولا نطقت حتى استنطقتني، فاغفر لي، قال: قد فعلت، قال: إني أحب أن استوثق لنفسي، فقال أبو مسلم: سبحان الله كنت تسيء فأحسن، فحين أحسنت أسيء. وما أحسن قول الشاعر:

فلم ير مني ضعفة متشدّد ... ولم ير مني شدة متلين

وقال رجل للأحنف: إن قلت لي كلمة لتسمعنّ مني عشراً، فقال له الأحنف: لكنك لو قلت لي عشراً لم تسمع مني واحدة.

وقال عيسى عليه السلام: احتملوا من السفيه كلمة تربحوا عشراً.

وقال رجل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: لأسبنك سباً يدخل معك في قبرك، فقال: معك والله يدخل لا معي.

وقال رجل لأخيه: إني مررت بفلان وهو ينال منك ويذكر أشياء رحمتك منها، قال: فهل سمعتني أذكره بشيء؟ قال: لا، قال: فإياه فارحم. وقال مساور الوراق:

إني وهبت لظالمي ظلمي وغفرت ذاك له على علم
ما زال يظلمني وأرحمه حتى رثيت له من الظلم

وقال محمود الوراق:

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب وإن عظمت منه عليّ الجرائم
فما الناس إلا واحد من ثلاثة شريف ومشروف ومثل مقاوم
فأما الذي فوقي فأعرف فضله وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذي دوني فإن قال صنت عن إجابته نفسي وإن لام لائم
وأما الذي مثلي فإن قال أو هفا تفضلت إن الحلم بالفضل حاكم

ومرّ عيسى عليه السلام بقوم من اليهود، فقالوا له شراً، وقال لهم خيراً، فقيل له: إنهم يقولون شراً وأنت تقول خيراً، فقال: كل ينفق مما عنده.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من خاف الله تعالى لم يشف غيظه، ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: أقرب ما يكون العبد من غضب الرب إذا غضب.

وقال عليه الصلاة والسلام لرجل سأله أن يعلمه كلمات يعيش بهن، وقال له الرجل: لا تكثر عليّ فأنسى، فقال له: لا تغضب.

وقال بعض الحكماء: الغضب يفسد الإيمان كما يفسد العسل الصبر.

وشتم رجل الشعبي، فقال له الشعبي: إن كنت صادقاً فغفر الله لي، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك.

ومن منثور الحكم: إذا أردت أن تحتمل المكارم فاحتمل المكاره.

وشتم رجل يوماً الحسن رضي الله عنه فبالغ في شتمه، فقال له الحسن: أما أنت فلم تبق شيئاً، وما يعلم الله أكثر.

وكذلك قال الأحنف لمن سبه: الذي ستر الله علينا أكثر مما قلت.

وكان معاوية رضي الله عنه يقول: لو كانت بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، قيل: وكيف؟. قال: إذا جبذوها أرسلتها وإذا أرسلوها جبذتها. وقال: إني لأنف أن يكون في الأرض جهل لا يسعه حلمي، وذنب لا يسعه عفوي، وحاجة لا يسعها جودي. وقسم يوماً قطفاً، فأعطى شيخاً منها قطيفة فلم يرضها، وأقسم أن يضرب بها رأس معاوية، فأتاه وأخبره بقسمه، فقال له معاوية: أوف بنذرك وليرفق الشيخ بالشيخ. الشيخ: يقع على الكبير السن، وكذلك الشيخة في المرأة المسنة، ويقع على الثيب، من قوله: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة.

ويقال الشيخ أيضاً للرجل العالم وإن لم يكن مسناً، وكذلك الرجل العظيم القدر. ولي من قطعة:

يناديني يا شيخ لا عن كرامة كما قد ينادي الناس أهل المراتب

يقال: شاخ الرجل يشيخ شيخاً وشيخوخة، وشيخته: دعوته شيخاً للتعظيم والتبجيل، وجمع الشيخ: شيوخ وأشياخ وشيخة ومشيخة وشيخان ومشايخ. ولي من قطعة عددها عشرة أبيات كل أحرفها منقوطة فيها ذكر الشيخ:

تخضب شيبة تخضيب غش شييخ نبذت نبذ شخ ضنين

وقبله:

خشيت تجنبي فخضبت شيبي فغنتني ببيت يقتضيني

تخضب.......................... .... البيت

انظرها في التكميل مع أخرى

شيوخ ليس مثلهم شيوخا

وكيف أجيز هذا القسم بالمدح تارة وبالذم أخرى مع قسم آخر

تشيخوا قبل أن تشيخوا

وقال معاوية رضي الله عنه: إني لأجد للعفو عن الذنب العظيم لذة وأريحية ما أجدها لشيء من لذات الدنيا. وطاف يوماً بالكعبة فزحم جنده السائب بن صيفي، فسقط فوقف عليه معاوية وهو يومئذ خليفة، فقال: ارفعوا الشيخ، فلما قام قال: ما هذا يا معاوية؟ تصرعوننا حول البيت؟ أما والله لقد أردت أن أتزوّج بأمك، فقال معاوية: ليتك فعلت فجاءت بمثل أبي السائب، يعني عبد الله بن السائب. وقال له أبو مسلم الخولاني يوماً وكان قد حبس العطاء عن الناس شهرين أو ثلاثة: يا معاوية إن هذا المال ليس بمالك ولا مال أبيك، فأشار معاوية إلى الناس أن امكثوا، ثم دخل فاغتسل

ثم رجع فقال: أيها الناس إن أبا مسلم قد ذكر أن هذا المال ليس بمالي ولا مال أبي، وصدق أبو مسلم، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: الغضب من الشيطان، والشيطان من النار، والماء يطفئ النار، فإذا غضب أحدكم فليغتسل، أغدوا على عطاياكم على بركة الله.

ومن جوده وحلمه رضي الله عنه أنه بعث عامل من عماله إليه بأحمال، فمرت الإبل على الحسين بن علي رضي الله عنهما، فأخذ منها عشرة أحمال فعزلها وقال: هذا حقي وبقي لي أكثر منه، فلما بلغ ذلك معاوية كتب إليه:

يا حسين بن علي ذا الأمل ... لك عندي وثبة لا تحتمل
ليس بعدي لك من يحملها ... ليس بعد المال والوثب عمل
إنّما أحذر أن تبلى بمن ... عذره قد سبق السيف العذل

وهذا المثل أوّل من قاله خزيم بن نوفل الهمداني في خبر طويل ذكره البكري، أذكر معناه مختصراً، قاله لسعيد بن النعمان، كان له إخوان فأراد تجربتهم، فعمد إلى كبش فذبحه ثم أضجعه في قبته وغشاه بثوب، ثم دعا إخوانه وكان أوثقهم به في نفسه فقال: يا أبا فلان إني قتلت فلاناً فما عنك؟ قال: وما تريد؟ قال: أن تعينني عليه حتى أخفيه، قال: لست بصاحب، وفعل ذلك مع ابن نوفل المذكور، فقال له: لهان ما فزعت فيه إلى أخيك، وحضر لذلك عبد لسعيد فقال له: هل اطلع على هذا غير عبدك هذا؟ قال: لا، فأهوى خزيم إلى العبد بالسيف فقتله وقال: ليس عبد بأخ، فقال سعيد: ما صنعت إنما أردت تجربتك، فقال خزيم: سبق السيف العذل. انتهى كلامه.

وأما الذي ذكر أبو عبيد رحمه الله بأن قائل ذلك ضبة بن أدّ، كان له ابنان سعد وسعيد، فخرجا في طلب إبل لهما، فرجع سعد ولم يرجع سعيد، فكان ضبة كلما رأى شخصاً مقبلاً قال: أسعد أم سعيد؟ فذهبت كلمته هذه مثلاً. وقد تقدّم ذلك قبل فصل الحروف بيسير، وجعل لرجل ألف درهم على أن يسأل عمرو بن العاص وهو على المنبر من أمه، فسأله فقال له: أمي سلمى بنت حرملة، تلقب بالنابغة من بني عذرة، أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ، فاشتراها الفاكه بن المغيرة، ثم اشتراها عبد الله بن جدعان منه، ثم صارت إلى العاص فولدت فأنجبت، فإن كان جعل لك شيء فخذه.

وقال بعض العلماء: ثلاث من لم تكن فيه لم ينفعه الإيمان: حلم يردّ به جهل الجاهل، وورع يكفّ به عن المحارم، وخلق حسن يداري به الناس.

وقال الحسن رضي الله عنه: من كان فيه أربع خلال حرّمه الله على النار وأعاذه من الشيطان الرجيم: من يملك نفسه عند الرغبة والرهبة والشهوة والغضب.

ويروى أنه جرى بين الحسين بن علي بن أبي طالب وبين أخيه محمد ابن الحنفية رضي الله عن جميعهم كلام، فافترقا متغاضبين، فلما وصل محمد إلى منزله كتب إلى الحسين رضي الله عنهما: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن علي بن أبي طالب إلى الحسين بن علي بن أبي طالب، أما بعد: فإن لك شرفاً لا أبلغه وفضلاً لا أدركه، أبونا علي لا أفضلك فيه ولا تفضلني، وأنك فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو كان ملء الأرض نساء مثل أمي ما وافين بأمك، فإذا قرأت رقعتي فالبس رداءك ونعليك وتعال فترضني، وإياك أن أسبقك إلى هذا الفضل الذي أنت أولى به مني، والسلام. فلبس الحسين رداءه ونعليه وجاء إليه فترضاه رضي الله عنهما وعمن اقتدى بهما.

مبحث العفو :

ومما يتعلق بهذا الباب: العفو عن الجاني لا سيما مع المقدرة عليه. كما يروى عن علي رضي الله عنه: إذا قدرت على عدوك فاجعل عفوك عنه شكراً للمقدرة عليه. ومن أمثالهم في هذا المعنى: لا تشن حسن الظفر بقبيح الانتقام.

ويروى عن يحيى بن خالد أن رجلاً جفاه فأمر بإحضاره وقال له: أتعلم أني قادر على إساءتك؟ قال: بلى، قال: فانصرف، فإنما يمنعني منك قدرتي عليك.

ومن أمثال الحكماء: الاقتدار يمنع الحرّ من الانتصار. وقيل لبعض الحكماء وكان من أهل المقدرة: إن فلاناً ينتقصك، فلو عاقبته، قال: ذلك أعذر له في انتقاصي. هذا كله مع ترك اعتذار الخاطئ، وأما إذا اعتذر وأقرّ بالذنب فالعفو عنه في حكم المروءة واجب أو قريب منه، ألم تسمعوا قول الشاعر:

إذا اعتذر الجاني محا العذر ذنبه ... وكل امرئ لا يقبل العذر مذنب

آخر:

إذا ما امرؤ من ذنبه جاء تائباً ... إليك ولم تغفر له فلك الذنب

وقال بعضهم: العفو عن الذنوب لذة لا يبلغها بل العليل من الأسقام. ويحكى أن المأمون عتب على إبراهيم بن المهدي، فلما دخل عليه أنشده:

ذنبي إليك عظيم ... وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أولاً ... فاصفح بفضلك عنه
إن لم أكن في فعالي ... من الكرام فكنه

ومثل هذا حكى ابن أبي داود، قال: ما رأيت رجلاً عاين الموت ملء عينيه فلا أذهله ولا أشغله عما كان يجب أن يفعله، غير تميم بن جميل، أتي به إلى المعتصم بالله

في جناية جناها، فدعا بالسيف والنطع، وكان تميم رجلاً وسيماً يملأ العين، فلما رآه المعتصم أراد أن يعلم أين لسانه وجنانه من منظره، فقال له: يا تميم تكلم، وإن كان لك عذر فأت به، وإن كان لك حجة فأدل بها، فقال: أما وقد أذن أمير المؤمنين في الكلام فإني أقول، وذكر خطبة بليغة يقول فيها بعد كلام حسن: إن الذنب يخرس اللسنة، ويصدع الأفئدة، وأيم الله لقد عظمت الجريرة وانقطعت الحجة وساء الظن، ولم يبق إلا العفو أو الانتقام، وأرجو أن يكون العفو أقربهما منك وأسرعهما إليك وأولاهما بك وأشبههما بخلائقك، ثم أنشأ يقول:

أرى الموت بين السيف والنطع كامناً ... يلاحظني من حيث لا أتلفت
وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي ... وأيّ امرئ مما قضى الله يفلت
وأيّ امرئ يدلي بعذر وحجة ... وسيف المنايا بين عينيه مصلت
يعز على الأوس بن ثعلب موقف ... يسل علي السيف فيه فأسكت
وما جزعي من أن أموت وإنني ... لأعلم أن الموت شيء موقت
ولكنّ خلفي صبية قد تركتهم ... وأكبادهم من حسرة تتفتت
كأني أراهم حين أنعى إليهم ... وقد خمشوا تلك الوجوه وصوّتوا
فإن عشت عاشوا خافضين بغبطة ... أذود الردى عنهم وإن مت موّتوا
وكم قائل لا يبعد الله داره ... وآخر جذلان يسر ويشمت

فضحك المعتصم وقال: كاد والله يا تميم أن يسبق السيف العذل، اذهب فقد وهبتك للصبية وعفوت عن الهفوة، وخلع عليه وعقد له على شاطئ الفرات وأحسن وأجمل السيرة. ومثل قول تميم:

وما جزعي من أن أموت وإنني

قول الدراج الضبابي:

فلا السجن أبكاني ولا القيد شفني ... ولا أنني من خشية الموت أجزع
بلى إن قوماً قد أخاف عليهم ... إذا مت أن يعطوا الذي كنت أمنع

ذكر البيتين ثابت في الدلائل، وساق عليهما حكاية شريفة، حدّث عن بعض القرشيين أنه قال: لما قدم علينا عبد الرحمن بن الضحاك والياً بالمدينة؛ اجتمع إليه القرشيون، فقال: يا معشر قريش، لكم عندي ثلاث لعلي أن أقصر، قالوا: فما هنّ؟. قال: والله لا يأتيني فيكم خير إلا عجلته ولا شرّ إلا أخرته، ولا أطلع على سرّ منكم من وراء حجاب، وكان والله على أكثر مما قال، ووليناً سنتين وبعض أخرى، ثم أتاه العزل، فاجتمعنا إليه كاجتماعنا له قبل ولايته، فاستعبر وانتحبنا حوله، فقال: أيكم ينشد قول

الدراج الضبابي؟ وذكر البيتين، ثم قال: والله ما بكائي جزعاً من العزل، ولا أسفاً على الولاية، غير أني أخاف أن يلي هذه الوجوه من لا يرعى لها حقاً.

قلت: هذا والله هو الوفاء لا الجفاء، وعلى الناكث العفاء واللفاء، إن الحجاج على ما كان عليه من قلة الحياء وكثرة سفك الدماء؛ قد كان ينفع عنده الصدق أحياناً، فيعقب الإساءة إحساناً.

قال المدايني: حبس الحجاج رجلاً في مائة ألف، فأخذ فأتي به إليه، فقال لقتيبة: احتفظ به ليلتك ثم بكر به علي، فانصرف به قتيبة إلى منزله، فأحضر له العشاء، فامتنع منه، فقال له قتيبة: ما لك لا تتعشى؟ قال: للذي في صدري أصلحك الله من البلبال، الذي أشفيت عليه من الهلكة، وإن أخاً لي هلك وأوصى إليّ، فلست آمن على تركته الضياع، وأنا محتاج إلى أن أوصي فيها، قال له قتيبة: لو كان لك من يضمنك لتركتك تأتي منزلك وتحكم أمرك، قال: الله كفيلي، قال قتيبة: كفى بالله كفيلاً، انطلق. فانطلق الرجل، وخشي قتيبة أن يؤخذ به، فجعل لا يتقاز ليله حتى أصبح، فأتاه الرجل مصبحاً، فقال له قتيبة: ما الذي خلفك إلى هذا الوقت؟ قال: التجهز للموت أخرني، فركب قتيبة إلى الحجاج وانطلق به معه، فلما رآه الحجاج قال: أين صاحبك؟ قال: قد جئت به أيها الأمير، وأخبره خبره، فقال له الحجاج: فإني قد وهبته لك، فخرج إليه قتيبة، فقال له: إن الأمير قد وهبك لي، وقد وهبتك لله عز وجل، فقال الرجل: نعم القادر الله، ولم يزد عليها، وانطلق إلى المسجد فصلى ركعتين، ثم أقبل إلى قتيبة فقال له قتيبة: قد أعلمتك أني قد مننت عليك وأعتقتك فلم تشكرني الشكر الذي يشبه ما كان مني، فقال: أحببت أن أبدأ بشكر الله تعالى فأخلصه ولا أشرك به أحداً، فقلت ما سمعت ودخلت المسجد فصليت ركعتين، وحمدت أمرك إلى الله عز وجل. فكتب قتيبة على خاتمه من يومئذ: نعم القادر الله.

وشبيه بهذا الخبر ما يحكى أن ملكاً من الملوك كان له يوم بؤس، إذا خرج فيه ولقي أحداً على صورة يكرهها؛ حبسه أياماً معلومة ثم أمر بضرب عنقه، فخرج يوماً من تلك الأيام فلقي رجلاً غريباً قاصياً لم يكن عنده علم بشأنه على الصفة التي كان ينكرها، فأمر بحبسه، وأعلم الرجل بالأمر، فحمد الله وسلم للقدر، فلما قرب الأمر كتب إلى الملك يرغبه في تخلية سبيله ليودع أهله ويوصي في ماله، فأحضره وقال له: هذا أمر لا يكون إلا بضامن آخذه بما أطلبك به، فنظر الرجل في الحاضرين يميناً وشمالاً ثم مدّ يده إلى رجل منهم وقال: هذا يضمنني، فقال الملك: أتضمنه وقد عرفت ما يراد به؟ قال: نعم، فأمر بحبسه مكانه، ونهض المضمون إلى بلده، فأوصى في

ماله وودع أهله وانصرف، وقد وافق قدومه يوم تمام المدّة، فلما استأذن على الملك أمر بإحضارهما معاً وقال للضامن: ما حملك على ضمانه والمخاطرة بنفسك في شأنه، ولو تأخر ساعة لسبق السيف العذل؟ قال له: أيها الملك ما رأيت وقد وثق بي أن أخالف ظنه فيّ، فرجع إلى المضمون وقال له: ما حملك بعد تخلصك على المجيء وقد علمت المراد بك؟ قال: لم يكن يجمل بي أن أراه بمكان الثقة فيراني بمكان الغدر، فعجب من وفائهما جميعاً وعفا عنهما، ورفع بؤس ذلك اليوم فلم يقصده بعد.

وكان يذكر أن ربعي بن خراش رضي الله عنه لم يكذب قط، فأقبل ابناه من خراسان، وكان الحجاج يجدّ في طلبهما، فأعلمه بعض العرفاء بوصولهما، فبعث الحجاج إلى ربعي ليختبر حقيقة ما وصف به، فلما جاءه قال له: أيها الشيخ، قال له: ما تريد؟ قال له: ما فعل ابناك؟ قال: الله المستعان، هما في البيت، قال الحجاج: لا جرم والله لا أسوؤك فيهما أبداً، هما لك. وربعي هذا هو الذي آلى أن لا يضحك حتى يعلم أفي الجنة هو أم في النار. قال الحارث الغنوي، وهو الذي روى هذا الحديث عنه: فلقد أخبرني غاسله عنه أنه لم يزل متبسماً على سريره وهو يغسله حتى فرغنا منه. وكذلك كان أخوه ربيع بن خراش آلى أيضاً أن لا تفتر أسنانه ضاحكاً حتى يعلم أين مصيره، قال: فما ضحك إلا بعد موته. وكان لهما أخ تكلم بعد موته بكلام حسن، فيه رجاء وخير والحمد لله.

ذكر هذه الأخبار الإمام أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن عبيد الله بن أبي الدنيا في كتاب الآيات ومن تكلم بعد الموت، والكتاب قرأته على أبي الحسن علي بن مؤمن القرطبي، لقيته بمكة شرفها الله تعالى، وقرأت عليه، وأجازني رضي الله عنه.

أذكرني حديث ربعي رضي الله عنه قول الله تعالى: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا ﴾ [الكهف: ٨٢]، انظر كيف أنجى الله الابنين بصلاح أبيهما ولم يسؤه فيهما، وقد كان حصلا من الأسد في شدقه فخلصهما الله بصدقه، إذاً فلا سلاح أحسن من الصلاح، ولا جنة أوقى من التقى، وانظر ماذا حصل لتمام من الآثام، ولم ينا في نمه سوى أن شرق بهمه وغرق في يمه، ولم يثبت به في قلب من سمعه من المحبة وزن حبه، فقل يا بنيّ عبد الرحيم لذلك النمام الرجيم:

الفلــس لــست تــساوي	إذا عملــت المــساوي
بــل أنــت للــشيخ إبلـــ	ـــس في الفعــال المــساوي
فاحـــذر طـــريق المعاصـــي	فـــإن فـــيها مهـــاوي
وكـــل مـــن ســـار فـــيها	فإنـــه ثـــم هـــاوي

وللهــوى هــوّة مــن ... هــوى بهــا فهــو تــاوي
فاتــركه رأســاً أخــي لا ... تــركن إلــيه وتــاوي
وكــن لكــل قبــيح ... معاديــاً ومــناوي
وللجمــيل وفعــل الــصـ ... ــصلاح يــا شــهم نــاوي

وهذه أبيات لزوميات أضرب بها وجوه القتات، ويكفيه المسود الوجه بعد هذا النجه، ما قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: لا يدخل الجنة قتات. ولي في هذا المعنى الأوّلي يا صاح إن اللخ ينفع بالصلاح:

عـصيت إلهـي فخفـت الدواهـي ... وخـنت ولـم أطـع الناصـحا
فلـو كـنت بـراً لمـا خفـت ضـراً ... ونلـت المنـى غاديـاً رائحـا
وكـان سـلاحي صـلاحي وكـان ... يقينـي يقينـي لـردي الفادحـا
كـذا سـنة الله فـي الخلـق فاقـرأ ... وأمـا الجـدار إلـى صـالحا
تجـد حفـظ الابـن مـن أجـل صلا ... ح أبـيه فأصـلح تكـن رابحـا
ولا حـول للعـبد فـي ذاك إلـ ... ـلا بمـولاه فاهـتف بـه صـائحا
إلهـي لـي افـتح طـريق الـصلا ... ح فـلا هـمّ إن كـنت لـي فاتحـا

وجاء في التفسير في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ [الكهف: ٨٢] من قول ابن عباس رضي الله عنهما: حفظا لصلاح أبيهما، ولم يكذر منهما صلاحاً. وقال محمد بن المنكدر: إن الله ليصلح بصلاح العبد ولده وولد ولده، ويحفظه في دويرته والدويرات التي حوله ما دام فيهم.

وقال خيثمة: إن الله ليطرد بالرجل الواحد الشيطان من الأدور.

وذكر ابن أبي الدنيا في الكتاب المتقدّم وقرأته بسنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: عدت شاباً من الأنصار، فما كان بأسرع من أن مات فأغمضناه ومددنا عليه الثوب، فقال بعضنا لأمه: احتسبيه، قالت: أوَقد مات؟ قلنا: نعم، قالت: أحق ما تقولون؟ قلنا: نعم، فمدّت يدها إلى الله تعالى وقالت: اللهم إني آمنت بك وهاجرت إلى رسولك، فإذا نزلت بي شدّة دعوتك ففرجتها عني، وأسألك اللهم أن لا تحمل عليّ هذه المصيبة اليوم. قال: فكشف الثوب عن وجهه، فما برحنا حتى أكلنا وأكل معنا.

ومما جاء في النمام في بعض الآثار أن موسى عليه السلام خرج يستسقي ببني إسرائيل ثلاث مرات فلم يسقوا، فقال: إلهي عبادك، فأوحى الله إليه إني لا أستجيب لك ولمن معك لأن فيهم نماماً قد أصر على النميمة، فقال: يا رب ومن هو حتى

نخرجه من بيننا؟ فقال: يا موسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماماً؟.

قلت: والكذاب شر من النمام الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم وقد سئل: أيكون المؤمن كذاباً؟. قال: لا. وقيل له: أيكون المؤمن بخيلاً؟. قال: نعم. قيل: أفيكون جباناً؟ قال: نعم. وقال في الكذاب: لا. وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴾ [النحل: ١٠٥]، وقال الشاعر:

إن النموم أغطي دونه خبري ... وليس لي حيلة في مفتري الكذب

وقال آخر:

لي حيلة فيمن ينم ... وليس في الكذاب حيله

من كان يكذب ما أراد ... فحيلتي فيه قليله

ذكر هذه الأبيات ثابت رحمه الله وقال: قال أبو زيد: يقال منه: رجل نم من قوم نمين، وامرأة نمة من نساء نمات.

يروى عن عبد الله بن حسين أنه كان يقول: لكل تاجر رأس مال، ورأس مال صاحب الحديث الصدق.

وقد تقدّم عن النسابة البكري يصف العلم حيث قال: إن للعلم آفة وهجنة ونكداً، ثم قال: ونكده الكذب فيه. وقال ابن المعتز: لو تميزت الأشياء لكان الصدق مع الشجاعة، والكذب مع الجبن، والتعب مع الطمع، والراحة مع اليأس، والحرمان مع الحرص، والذل مع الدَّين. وهذا كلام جامع ولمن استعمله نافع.

وقال سليمان بن سعد: لو صحبت رجلاً فقال لي: اشترط عليّ خصلة واحدة ولا تزد عليها؛ لقلت له: لا تكذب. اقتدى هذا بقول النبي صلى الله عليه وسلم للرجل الذي جاءه وأسلم وقال له: إني أستسر بخلال، قال: وما هي؟ قال: الزنا والكذب والسرقة وشرب الخمر فأيتهن تحب أن أدعها لك سراً تركتها، قال له: دع الكذب. فلما خرج من عنده همّ بالزنا، ثم قال: يسألني رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن جحدت كذبت ونقضت عهده، وإن أقررت لزمني الحد، فتركه. وقال مثل ذلك في السرقة وشرب الخمر، فترك جميعها ثم جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: قد تركتها أجمع يا رسول الله.

وقال أبو حنيفة لرجل وسمعه يقول: ما كذبت قط، فقال أبو حنيفة: أما هذه فواحدة أشهد بها عليك.

وقال الأصمعي لرجل كذاب: أصدقت قط؟ قال: أكره أن أقول لا فأصدق.

وفي الصحيح: ثلاث من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن

كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان.

ويروى أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وعد رجلاً من قريش أن يزوّجه ابنته، فلما كان عند موته أرسل إليه وزوّجه وقال: كرهت أن ألقى الله بثلث النفاق.

والكذب كله حرام ومنتن مفضح، وهو في اللسان لا في القلب، ومن قبحه وفضيحته أن اللسان يكذب فيكذبه القلب.

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: الكذب فجور والنميمة سحر، فمن كذب فقد فجر، ومن نم فقد سحر. وقال النبي عليه الصلاة والسلام: إذا كذب العبد تباعد عنه الملك ميلاً من نتن ما جاء به. ولم يرخص في شيء منه إلا في ثلاثة مواطن: عند الحرب فإنها خدعة، والرجل يصلح بين اثنين فيقول خيراً ويتمنى خيراً، والرجل يرضي امرأته. وفي هذا كله لا يقصد الكذب المحض ولكنه يورّي.

وقد جاء: إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب، ومعنى مندوحة، أي: سعة وفسحة. يقال: ندحت الشيء ندحاً: وسعته، يعني أن الرجل يتسع في المعاريض عن الكذب إذا اضطر إلى ذلك، والمعاريض ما إذا اضطر إليه الإنسان إليه ورّى بغيره، وعرّض بسواه، والتورية مثل ما جاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد غزوة ورّى بغيرها، وهذه مكيدة من مكايد الحرب وحيلة، والحرب خدعة. مثال ذلك أن يريد غزوة الشرق مثلاً فيسأل في الظاهر عن طريق الغرب وكيف السفر في تلك الجهة، وكيف الماء، وعن أشياء من هذا النوع، حتى يشيع في الناس أنه يريد ذلك الوجه المخالف لمقصوده، فتذهب بذلك الجواسيس فتأمن أهل الجهة التي يريد أن يقصدها، فيلقى أهلها وهم قارّون مطمئنون، فيأخذهم بغتة. وهذا ضرب من السياسة مستحسن عند أهل الرياسة.

وبقي هنا شيء، وهو إذا كان مصلحة العسكر في إفشاء السر إما لبعد الطريق وإما لكثرة العدوّ؛ فلا يسعه إلا إظهار الوجه الذي يقصده، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، وكما جاء في الحديث: فلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورّى بغيرها، فلما أراد غزو الروم ورّى بتبوك، واستقبل مفازات وسفراً بعيداً، وغزو عدد كثير جلي للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك صلى الله عليه وسلم.

يروى عن إبراهيم أن رجلاً أتاه فقال له: إني اعترضت على دابة وإنها نفقت، ولست أعطي عطائي إلا أن أحلف أنها الدابة التي اعترضت عليها، فقال إبراهيم: اذهب فخذ دابة فاعترض عليها بجسدك، ثم احلف أنها الدابة التي اعترضت عليها،

وأنت تعني اعتراضك بجسدك، خرّجه أبو عبيد رحمه الله.

وكما يروى أن أحد الفضلاء اضطره بعض الملوك إلى أكل طعامه وكان لا يرضاه، فقال له: أصلحك الله، الصائم لا يأكل، صدق في قوله وأخفى فطره فيه. وكان بعضهم يقول لأهله: إذا طلبت في الدار فقولوا: اطلبه في المسجد. وربما قيل لبعض الناس: هل عندكم نار؟. فيقول له: مرّ للفرن، ولا يكذب. وكان رجال له امرأتان، فقالت له إحداهما بحضرة الأخرى: من تحب منا أكثر؟ فقال: لا أقول لكما الآن شيئاً، ثم اشترى رأساً وأكله مع إحداهما وقال لها: لا تعلمي بذلك ضرتك، وفعل مع الأخرى مثل ذلك، فلما اجتمعوا بعد ذلك قالت إحداهما المقالة الأولى: لمن تحب أكثر؟ فقال: للتي أكلت معها الرأس، فسكتت كل واحدة منهما وقالت في نفسها: أنا.

وقد صنع مثل هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يروى عنه أنه اجتمع عنده أزواجه ذات يوم، وقلن: يا رسول الله أيتنا أحبّ إليك؟ فوعدهن الغداة، ثم أعطى لكل واحدة منهن خاتماً من غير أن يعلم غيرها، ثم قال لهن: بالغداة اجتمعن، فلما اجتمعن قال: صاحبة الخاتم أحبّ إليّ.

ويروى عن شريح أنه دخل على زياد في مرضه، فلما خرج من عنده قيل له: كيف تركت الأمير؟ قال: تركته يأمر وينهى، فذكر ذلك لمسروق فقال: إن شريحاً صاحب تعريض فاسألوه ما معناه؟ فسئل قال: تركته يأمر بالوصية وينهى عن البكاء.

فصل:

في السعاية وقلة الرعاية:

سعى بعض الناس إلى بعض الولاة برجل، فقال له: من حدّثك بذلك؟ قال: الثقة، قال: إن الثقة لا يبلغ. وقال الشاعر:

إذا الواشي سعى يوماً صديقاً فلا تدع الصديق لقول الواشي

أتى رجل الوليد بن عبد الملك وهو على دمشق لأبيه، فقال لأمير: عندي نصيحة، فقال: إن كانت لنا فأظهرها، وإن كانت لغيرنا فلا حاجة لنا فيها، قال: جار لي عصى من بعثته، قال: أما أنت فتخبر أنك جار سوء، فإن شئت أرسلنا معك، فإن كنت صادقاً أقصيناك، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت تاركناك، قال: بلى تاركني، قال: قد فعلت.

وسأل رجل عبد الملك بن مروان الخلوة، فقال لأصحابه: إذا شئتم، فلما تهيأ الرجل للكلام قال له عبد الملك: على رسلك، إياك أن تمدحني فأنا أعلم بنفسي منك، أو تكذبني فإنه لا رأي للكذوب، أو تسعى بأحد إليّ، وإن شئت أقلتك، قال: أقلني،

قال: قد فعلت.

ووشى واش برجل إلى الإسكندر، فقال له: أتحب أن أقبل منك ما قلت فيه؟ على أن أقبل منه ما قال فيك، قال: لا، قال: فكف عن الشر يكف عنك الشر.

وقال ذو الرياستين: قبول السعاية شر من السعاية، لأن السعاية دلالة والقبول إجازة، وليس من دل على شيء كمن قبل وأجاز، فأمقت الساعي على سعايته، وإن كان صادقاً للؤمه في هتك العورة وإضاعة الحرمة مبارزة لله عز وجل بقول البهتان والزور، قال بعض المحدثين:

لعمرك ما سب الأمير عدوّه ... ولكنما سب الأمير المبلغ

تقدّم من قول عبد الملك رحمه الله: إذا شئتم، وتلك علامة بينه وبين أصحابه إذا أراد أن يقوموا عنه.

وكذلك قال أصحاب معاوية لمعاوية: إنا ربما جلسنا عندك فوق مقدار شهوتك، فكنا نريد أن تجعل لنا علامة نعرف بها ذلك، فقال: علامة ذلك أن أقول: إذا شئتم. وقيل ذلك ليزيد، فقال: إذا قلت على بركة الله. وقيل ذلك لآخر، فقال: إذا ألقيت الخيزرانة من يدي.

رجع الكلام إلى ذكر الحجاج:

خرجت من ذكر سفاك لأفاك بالله ... ومنهما لنموم بالبرى شاكي
أيهم شرّ الثلاثة قل ... هم سواسية ما فيهم زاكي
لكنّ نفسي للحجاج قالية ... لأنه شر قتال وأفاك
لو لم يكن غير قتل ابن الزبير كفى ... وبعده ابن جبير الخاشع الباكي
إلى ألوف سوى هذين حكم في ... رقابهم كل ماض الحدّ بتاك
جوراً وظلماً وعدواناً بكل فتى ... برّ تقيّ زكيّ غير شكاك
لكنني لا أقول النار منزله ... فالله يغفر كلاً غير الإشراك

اتفق العلماء على تفسيقه، واختلفوا في تكفيره، وذكروا له قبائح يشنع ذكرها. فمن جراءته وظلمه ما خرّج ابن قتيبة أنه خطب يوماً، فقال في خطبته: سوطي سيفي، ونجاده في عنقي، وقائمه في يدي، وذبابه قلادة لمن اغتر بي. فقال الحسن: بؤساً لهذا ما أغرّه بالله. وحلف رجل بالطلاق أن الحجاج في النار، ثم أتى امرأته فمنعته نفسها، فأتى ابن شبرمة يستفتيه، فقال: يا ابن أخي امض فكن مع أهلك، فإن الحجاج إن لم يكن في النار لم يضرك أن تزني، وإن كان في النار برّت يمينك. وهذا القول لا يغترّ به، وليس عليه العمل، لأنه أمر غيب، وقد صرح ابن شبرمة أن الرجل على هذه الحالة

زان، لقوله: لم يضرك أن تزني، والله أعلم بمذهبه. وأخبار الحجاج كثيرة مروية، وإنما أردت أن لا أخلي هذا الكتاب من فائدة. ويقال: آخر ما قال الحجاج: اللهم اغفر لي فإن هؤلاء يزعمون أنك لا تفعل.

ذكر ابن الزبير :

تقدّم في البيت ذكر ابن الزبير، وهو أبو خبيب ابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصدّيق رضوان الله عليه، وهو أوّل مولود ولد في الإسلام، وقيل: أوّل مولود ولد في الإسلام الحسن بن علي، ولد سنة اثنتين من الهجرة، وأوّل طعام دخل في جوفه، أعني ابن الزبير، ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعاش كما قال فيه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما حين وقف عليه مصلوباً فسلم وقال: السلام عليك أبا خبيب، السلام عليك أبا خبيب، السلام عليك أبا خبيب، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله ما علمتك إلا صواماً قواماً وصولاً للرحم، أما والله لأمة أنت شرها لأمة خير. ثم نفذ عبد الله بن عمر، فبلغ الحجاج موقف عبد الله وقوله، فأرسل إليه فأنزله عن جذعه وألقي في قبور اليهود، ثم أرسل إلى أمه أسماء بنت أبي بكر الصدّيق رضي الله عنهما، فأبت أن تأتيه، فأعاد إليها الرسول: لتأتيني أو لأبعثن إليك من يسحبك بقرونك، قال: فأبت وقالت: والله لا آتيك حتى تبعث إليّ من يسحبني بقروني، قال فقال: أروني سبيبتي، فأخذ نعليه ثم انطلق يتوذّن حتى دخل عليها، فقال: كيف رأيتني صنعت بعدوّ الله؟ قالت: رأيتك أفسدت عليه دنياه وأفسد عليك آخرتك، بلغني أنك تقول له: يا ابن ذات النطاقين، أنا والله ذات النطاقين، أما أحدهما فكنت أرفع به طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم وطعام أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه من الدواب، وأما الآخر فنطاق المرأة التي لا تستغني عنه، أما إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدّثنا أن في ثقيف كذاباً ومبيراً، فأما الكذاب فرأيناه، وأما المبير فلا إخالك إلا إياه. قال: فقام عنها ولم يراجعها. هذا نص مسلم من قوله: السلام عليك أبا خبيب، إلى هنا. وكان ابن الزبير رحمه الله إذا قاله عدوّه: يا ابن ذات النطاقين، على جهة التعيير، ينشد:

وتلــك شــكاة ظاهــر عــنك عارهــا

وصدر هذا البيت لأبي ذؤيب الهذلي:

وعيّرنــي الواشــون أنــي أحــبها ... وتلـك شـكاة ظاهـر عـنك عارهـا
فــإن أعــتذر مــنها فإنــي مكــذب ... وإن تعــتذر يــردد علـيّ اعــتذارها

ويروى:

فـــتلك شـــكاة نـــازح عـــنك عارهـــا

وهذا بيّن. وأما الرواية الأخرى فمعنى ظاهر، أي: عال عنك، أي: ليس يصيبك ولا يلحقك. ومن هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ [الكهف: ٩٧] أي: يعلوا عليه. وكذلك الحديث: والشمس في حجرتها قبل أن تظهر، أي: تعلو على السقف.

وفضائل ابن الزبير رضي الله عنه كثيرة: روى ابن جريج عن ابن أبي مليكة قال: ذكرت ابن الزبير عند عبد الله بن عباس، فقال رضي الله عنه: كان عفيفاً في الإسلام، قارئاً للقرآن، والله لأحاسن نفسه محاسنة لن أحاسنها لأبي بكر ولا لعمر، أبوه الزبير، وأمه أسماء، وجده أبو بكر، وعمته خديجة، وجدته صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخالته عائشة رضي الله عنها. وذكر حديثاً طويلاً رضي الله عنهم.

وكان سبب فتنته وقتله أن معاوية لما قدم مكة شرفها الله تعالى دعاه إلى البيعة ليزيد ابنه، فأبى عليه وقال: أكره أن أبايع لرجلين، أيكما أطيع بعد أن أعطيكما العهود والمواثيق، فإن كنت ملكته الإمارة فبايع ليزيد فنحن نبايعه معك. وفي رواية أخرى: إنه قال: اختر منا خصلة من ثلاث، قال: إن في ثلاث لمخرجاً، قال: إما أن تفعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ماذا؟ قال: لم يستخلف أحداً، قال: وماذا؟ قال: أو تفعل كما فعل أبو بكر رضي الله عنه، قال: فعل ماذا؟ قال: نظر إلى رجل من عرض قريش فولاه، قال: وماذا؟ قال: أو تفعل كما فعل عمر، قال: فعل ماذا؟ قال: جعلها شورى في ستة من قريش، قال: ألا تسمعون إني قائم فقائل مقالاً، لئن صدقت فعليّ صدقي، وإن كذبت فعليّ كذبي، والله لا ينطق أحد منكم في مقالتي إلا ضربت عنقه، ثم قام خطيباً فقال: إن فلاناً وفلاناً قد بايعوا فبايعوا، ثم ركب نجائبه وانصرف إلى الشام، فبايعه الناس. فلما مات معاوية تثاقل ابن الزبير عن طاعة يزيد بن معاوية، فبلغ ذلك يزيد فأقسم لا يؤتى به إليه إلا مغلولاً، وإلا أرسل إليه، فقيل لابن الزبير: ألا نصنع لك غلاً من فضة تلبس عليه الثوب وتبر قسمه؟ فالصلح أجمل بك، قال: لا أبرّ والله قسمه، ثم قال:

ولا ألـــين لغيـــر الحـــق أســـأله ... حتى يلين الضرس الماضغ الحجر

ثم قال: والله لضربة بسيف في عز أحبّ إليّ من ضربة بسوط في ذل، ثم دعا إلى نفسه وأظهر الخلاف ليزيد، فكان آخر أمره أن قتل رحمه الله في المسجد الحرام، وجعلت الجيوش تدخل من أبواب المسجد، فكلما دخل قوم من باب حمل عليهم

حتى يخرجهم ويقول:

لـــو كـــان قرنـــي واحـــداً كفيـــته

وعلى ظهر المسجد من أعوانه من يرمي عدوّه بالآجر، فأصابته آجرة في مرقه حتى فلقت رأسه، فوقف قائماً وهو يقول:

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ... ولكن على أعقابنا تقطر الدما

ثم سير إليه فأخذ رأسه، ثم صلب منكوساً، فجاءت أمه وهي مكفوفة البصر فقالت للحجاج: أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟ فقال الحجاج: المنافق؟ فقالت: والله ما كان منافقاً إن كان لصواماً قواماً براً، فقال: انصرفي يا عجوز فقد خرفت، فقالت: لا والله ما خرفت، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يخرج في ثقيف كذاب ومبير، فأما الكذاب فقد رأيناه، وأما المبير فأنت، فلما أبى عليها قالت: وددت أن لا أموت حتى يدفع إليّ فأغسله وأحنطه وأكفنه ثم أدفنه، فلم يلبثوا أن جاء كتاب عبد الملك أن يدفع إلى أهله، فأتي به أسماء فغسلته ثم كفنته ثم دفنته، وعاشت بعد ذلك ثلاثة أيام، وكان سنها مائة سنة لم يسقط لها سن رضي الله عنهما.

فصل:

مقتل سعيد بن جبير:

وأما ابن جبير فقصله أيضاً مشهور وفي الدواوين مذكور. ذكر ابن قتيبة في الإمامة والسياسة أنه لما قدم على الحجاج سعيد بن جبير قال له: ما اسمك؟ قال: أنا سعيد بن جبير، فقال الحجاج: بل أنت شقي بن كسير، قال سعيد: أمي أعلم باسمي واسم أبي، قال الحجاج: شقيت وشقيت أمك، قال سعيد: العلم يعلمه غيرك، قال: لأوردنك حياض الموت، قال سعيد: أصابت أمي إذاً اسمي، قال الحجاج: لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى، قال سعيد: لو أني أعلم أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهاً، قال الحجاج: فما قولك في محمد صلى الله عليه وسلم؟ قال سعيد: نبيّ الرحمة ورسول رب العالمين وإمام المتقين وسيد الرمسلين، قال: فما قولك في الخلفاء؟ قال: لست عليهم بوكيل، قال: اشتمهم أو امدحهم، قال سعيد: لا أقول ما لا أعلم، إنما استحفظت أمر نفسي، قال الحجاج: أيهم أعجب إليك؟ قال: حالاتهم تفضل بعضهم على بعض، قال الحجاج: كيف قولك في علي بن أبي طالب رضي الله عنه أفي الجنة هو أو في النار؟ قال سعيد: لو دخلت الجنة فرأيت أهلها علمت، ولو رأيت من في النار من أهلها علمت، فما سؤالك عن غيب قد حفظ وحجب عنك؟ قال الحجاج: فأي الرجلين أنا يوم القيامة؟ قال سعيد: أنا أهون على الله من أن يطلعني على الغيب، قال الحجاج:

أبيت أن تصدقني، قال سعيد: بل لم أحب أن أكذبك، قال الحجاج: دع عنك هذا كله، أخبرني ما لك لـم تضحك قط؟ قال: لم أر شيئاً يعجبني فكيف يضحك مخلوق من طين والطين تأكله النار، ويوم القيامة حسابه، وهو يصبح ويمسي وقد وصفت له النار؟ قال الحجاج: فأنا أضحك، قال سعيد: ليست القلوب كلها بالسواء، قال الحجاج: ما رأيت من اللهو شيئاً؟ قال: لا أعلمه. فدعا الحجاج بالعود والناي، فلما ضرب بالعود ونفخ في الناي بكى سعيد عند ذلك، فقال الحجاج: وما يبكيك؟ قال: ذكرتني يا حجاج أمراً عظيماً، والله لا شبعت ولا رويت ولا اكتسيت ولا زلت حزيناً لما رأيت، قال الحجاج: وما كنت رأيت هذا اللهو؟ قال سعيد: بل هذا والله الحزن يا حجاج، أما هذه النفخة فقد ذكرتني النفخ في الصور، وأما هذا المصران فمن نفس ستحشر معك يوم القيامة، وأما هذا العود فنحت من عود قطع بغير حق، قال الحجاج: أنا قاتلك، قال سعيد: فرغ من سبب موتي، قال الحجاج: أنا أحب إلى الله عز وجل منك، قال سعيد: الله أعلم بالغيب منك، قال الحجاج: كيف ترى ما يجمع لأمير المؤمنين؟ قال: لم أر منه شيئاً. فدعا الحجاج بالذهب والفضة والياقوت، فوضع بين يديه، فقال: هذا لأمير المؤمنين، كيف ترى يا سعيد؟. قال: إن تحملت له يا حجاج أن تشتري له بها الأمن من الفزع الأكبر يوم القيامة فهو صالح، وإلا فإن كل مرضعة تذهل عما أرضعت، ولا تنفع الأموال يوم القيامة إلا ما طاب منها، قال الحجاج: فنحن نرى جميعها طيباً، قال: برأيك جمعته، قال: أتحب أنه لك؟ قال: لا أحب ما لا يحبه الله، قال الحجاج: ويلك يا سعيد، قال: الويل يا حجاج لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار، قال: اذهبوا به فاقتلوه، قال: أشهدك يا حجاج أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أستحفظكهن حتى ألقاك، فلما أدبر به ضحك، قال: ما يضحكك يا سعيد؟ قال: عجبت من جراءتك على الله وحلم الله عليك، قال: اضربوا عنقه، قال: حتى أصلي ركعتين. فاستقبل القبلة وهو يقول: وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، فقال الحجاج: اصرفوه عن القبلة إلى قبلة النصارى، فصرف عن القبلة، فقال سعيد: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٥]، فصلى سعيد ثم قال: اللهم لا تترك له ظلمي واطلبه بدمي ولا تبقه بعدي واجعلني آخر قتيل يقتله. قال: فضربت عنقه، فما قضى حتى خولط الحجاج وجعل يصيح: قيودنا قيودنا، يعني القيود التي كانت في رجلي سعيد بن جبير، متى كان الحجاج يسأل عن قيود أو يعنى بها. ويروى أنه قال: اختر أي قتلة شئت، فقال له ابن جبير: بل اختر أنت لنفسك، فإن القصاص أمامك. انتهى كلامه رحمه الله.

استجاب الله دعاء سعيد التقي واستريح من الحجاج الشقي. ويروى أنه أخذه الكزاز على إثر قتل سعيد، فما زال مكزوزاً حتى مات، وكان يصيح: ما لي ولسعيد بن جبير. وقيل: لما قتل سعيد بن جبير خرج منه دم كثير، فهال الحجاج ذلك، فأرسل إلى طبيب فسأله، فقال: إنك قتلته وهو مستجمع ليس فيه من خوفك شيء.

وتوفي الحجاج بواسط في آخر شهر رمضان سنة خمس وتسعين وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، وكانت إمرته على العراق عشرين سنة، وكان رجلاً قصيراً صغير العينين ناتئ الجبهة جهير الصوت، كأن صوته يخرج من شدقيه.

وكان سعيد بن جبير رضي الله عنه عبداً أسود، يكنى أبا عبد الله، لرجل من بني أسد بن خزيمة، قد اشتراه سعيد بن العاص في مائة عبد فأعتقه، وكان مجاب الدعوة، يروى أنه كان له ديك في قفص يضعه عند رأسه، فإذا صاح قام إلى الصلاة، فاعتلّ ليلة الديك فلم يصح، فنام سعيد فدعا عليه فقال: قطع الله صوتك، قال: فما صاح بعد ذلك. وكانت أمه تقول له: لا تدعونّ على شيء، وكان قد فرّ إلى مكة من أجل الحجاج، وترك امرأته حبلى، فولدت له غلاماً فسمته عبد الله، فلم يره سعيد حتى قدم عليه مكة وقد اخضر شاربه، ولقي سعيد بن منبه رضي الله عنهما بمنى فشكى إليه خروجه من وطنه وخوفه من الحجاج، وقال له: قد خرجت وتركت جنيناً في بطن أمه فما رأيته حتى اخضر شاربه خوفاً من الحجاج، فقال له وهب: إن الصالحين كانوا قبلكم إذا سلك بهم سبيل البلاء فرحوا، وإذا سلك بهم سبيل الرخاء حزنوا فقالوا: ماذا يريد بنا ربنا؟ فسري عن سعيد بن جبير. وقال الأوزاعي: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا أحب الله عبداً سلط عليه من يظلمه. وقال الفضيل بن عياض رضي الله عنه: إذا أراد الله أن يتحف العبد سلط عليه من يظلمه. وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: ما أغبط رجلاً لم يصبه في هذا الأمر أذى.

قلت: يعني عمر رضي الله عنه: ما أصاب العلماء والفضلاء من المحن والفتن، إذ كانوا يؤمرون بأن يقولوا القرآن مخلوق، ويحملون على سب الصحابة، وعلى البيعة لمن لا يرضون، فمنهم من ضرب، ومنهم من حلق رأسه ولحيته، ومنهم من سجن، ومنهم من اختفى وستره الله.

فممن ضرب سعيد بن المسيب رحمه الله، جلد مائة سوط وحلق رأسه ولحيته وطيف به، حتى إن كانت الدور بالمدينة لتغلق كراهية النظر إليه إعظاماً له، وما يسمع فيها إلا بكاء باك، وبعد ذلك أمر به إلى السجن، وسبب ذلك أنه لما جاءت بيعة سليمان مع بيعة الوليد بن عبد الملك بن مروان؛ كره أن يبايع لهما جميعاً، فأمر أن

يفعل به ما تقدّم. ولما جاء الكتاب بذلك سألوا الوالي أن لا يعجل عليه وأن يخوّفه بالقتل فعسى أن يجيب، فأرسلوا مولى له وقالوا: اذهب فأخفه، فجاءه وهو في مسجده وهو يصلي، فبكى المولى، فقال له سعيد: ما يبكيك ويحك؟ قال: مما يراد بك، جاء كتاب فيك إن لم تبايع قتلت، فجئتك لتتطهر وتلبس ثياباً طاهرة، وتفرغ من عهدك قال: ويحك قد وجدتني أصلي، أفتراني كنت أصلي ولست بطاهر وثيابي غير طاهرة، وأما ما ذكرت من العهد فإني أضل ممن أرسلك إن كنت بت ليلة ولم أفرغ من عهدي فإني لم أكن لأبايع بيعتين في الإسلام بعد حديث سمعته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: إذا كانت بيعتان فاقتلوا الحدثاء، فحمل إلى الوالي ففعل به ما ذكر، ثم إنه لما خلي سبيله أتى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، فسمع المؤذن فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون فقيل له: ما لك يا أبا محمد؟ قال: ما سبقني إليه المؤذن منذ أربعين سنة، وكان يسمى حمامة المسجد، ويوم الحرة لم يبق في المسجد غيره، وكان أعمى، فكان إذا كان وقت الصلاة سمع أذاناً من قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وإقامة الصلاة، فكلما سمع الأذان قام وصلى وحده. وكان أهل الشام يدخلون عليه زمراً فيقولون: انظروا إلى هذا الشيخ المجنون. وسيأتي طرف من فضائله في باب الواو إن شاء الله تعالى.

وكذلك ممن ضرب من أهل المدينة محمد بن المنكدر وربيعة بن عثمان التيمي وربيعة بن أبي عبد الرحمن، وحلق رأسه ولحيته وأقيم للناس، وعثمان بن عبد الله بن رافع، ومحمد بن عمران بن طلحة ونفي من المدينة، والضحاك بن عبد الله بن محمد بن عون، وعبد الرحمن بن عبد الله الجهني، وضرب الدراوردي، وضرب مالك بن أنس فوق القميص مائة سوط، وخلعت كتفه، فكان إذا مشى اتكأ على معن بن عيسى، فكان يقال له: عصية مالك، لطول مكثه معه، وأصابه فتق في بطنه فكان يخرج منه الريح، فلم يشهد جماعة ولا جمعة سبع سنين.

وممن ضرب من أهل البصرة قتادة بن دعامة السدوسي، وعبد الله بن عوف، وثابت البناني، وأبو نصر، ومن أهل الكوفة عبد الرحمن بن أبي ليلى، وعبد الرحمن بن الأسود، وأبو حنيفة وسجن ومات في السجن، وكان أريد على القضاء فأبى، فقيل له: إن الوالي قد حلف أن لا يخرجك حتى تلي، فقال: لو سألني أن أعدّ له أبواب المسجد لم أفعل، وحلف أن لا يلي، فقيل له: قد حلف أمير المؤمنين، فقال: أمير المؤمنين على كفارة أيمانه أقدر مني على كفارة أيماني، فمات مسجوناً وله سبعون سنة.

وممن ضرب من أهل اليمن وهب بن منبه، ،ضرب أحمد بن حنبل وغيرهم

رضي الله عنهم. نقلت هذا كله من كتاب محمد بن شبل رحمه الله.

وممن توارى وفرّ إمام الخلفاء سفيان الثوري رضي الله عنه، وكان فراره من أبي جعفر المنصور، فر إلى مكة منه، فدخل ومنادي أبي جعفر ينادي: ألا من آوى سفيان الثوري فقد برئت منه الذمة، فمال سفيان إلى بعض أزقة مكة، فرفع يديه نحو السماء وهو يقول: يا رب حرمك وأمنك يأمن فيه الطير والوحش، ،سفيان لا يأمن فيه، فبينما هو يطوف بالبيت إذا به في الطواف معه، فقيل له: يا أمير المؤمنين هذا الثوري الذي تجعل فيه الجعائل، فلما حاذاه ضرب على منكبه، فحس به، فقال له: أتعرفني؟ قال: ما أعرفك ولكني أحسست في ضربتك، إنها ضربة جبار، قال له أبو جعفر: ما منعك أن ترفع إلينا ظلامات الناس وتعظني فأفعل وأفعل، فقال له سفيان: يا أمير المؤمنين علمت أنك رجل تقرأ القرآن، وكل من يقرأ القرآن ولم يتعظ به لا يتعظ بشيء أبداً. قال: فكان مالك رحمه الله يعجبه هذا الكلام من الثوري، ويراه وجه العمل في ذلك.

قال أبو عمر بن عمر الشيباني: ودخل سفيان الثوري على المهدي، فالتفت إليه الحاجب وقال له: يرسل إليك أمير المؤمنين وتأبى أن تأتيه ما أولاك، كأنه يتهدده، فقال: اسكت يا هامان فقال: يا أمير المؤمنين ألا تسمع ما يستقبلني به عندك؟ فقال له: ويلك اسكت، إذا أنت عنده هامان فما أنا عنده. فجلس الثوري عنده ساعة ثم قال: إني أردت البول، فقال له المهدي: على أن ترجع، فقال له: نعم. فمضى الثوري ثم رجع فأخذ نعليه، فاستبطأه المهدي فقال: يا قوم أما تخشون أن تسقط السماء علينا كسفاً؟ يا قوم أما تخشون أن تنشق الأرض من تحتنا فنذهب فيها سفالاً؟ قيل له: ما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: مثل الثوري يكذب، فقيل له: إنه قد رجع فأخذ نعليه ومضى، فقال: خدعنا والله. قال: ومات الثوري متوارياً عند حماد بن زيد بالبصرة فغسله حماد وأخرجه إلى باب المسجد، فقالوا: جنازة الثوري، فذهب به إلى المقابر في نحو عشرة أو خمسة أعشار، قال حماد: فوالله ما بلغنا المقابر حتى صرنا في نحو من عشرة آلاف رقبة، فأقام الرجال والنساء على قبره ثلاثة أيام يصلون عليه رضي الله عنه، ومات رحمه الله وهو ابن أربع وستين سنة.

وحدّث أحمد بن عبيد في أخبار الحجاج أنه لما حضره الموت قال: أسندوني، وأذن للناس فدخلوا عليه، فذكر الموت وكربته واللحد ووحشته والدنيا وزوالها والآخرة وإقبالها، ثم أنشأ يقول:

إن ذنبي وزن السماوات والأر ض وظني بخالقي أن يحابي
فلئن مرّ بالرضى فهو ظني ولئن مرّ في الكتاب عذابي

لم يكن ذاك منه ظلماً وهل يظـ ـلم رب يرجى لحسن المآب

ثم بكى وبكي جلساؤه، ثم أمر بكتاب يكتب إلى الوليد بن عبد الملك بن مروان: أما بعد، فقد كنت أرعى غنماً أحوطها حياطة الناصح الشفيق، فجاء السد فبطش بالراعي ومزق المرعى كل ممزق، وقد نزل بمولاك ما نزل بأيوب الصابر، وأرجو أن يكون ذلك تكفيراً لما حصل من ذنوبه. ثم كتب في آخر الكتاب:

إذا ما لقيت الله عني راضياً فإن سرور النفس فيما هنالكا

فإن مت فاذكرني بذكر محبب لقد كان عما في رضاتك سالكا

لقد ذاق هذا الموت من كان قبلنا ونحن نذوق الموت من بعد ذلكا

في أبيات كثيرة. ثم دخل عليه أبو يعلى بن مجالد المجاشعي فقال: كيف ترى ما بك يا حجاج من غمرات الموت وسكراته؟ فقال: يا أبا يعلى أرى ألماً فظيماً ونزعاً جريضاً وسفراً طويلاً وزاداً قليلاً، فويلاً وويلاً إن لم يرحمني الجبار، فقال له: إنما يرحم الله من عباده الرحماء أولي الرحمة والتحنن والعطف على عباده، وأنت قتلت الصالحين وأفنيتهم، وأطعت المخلوق في معصية الخالق، وضربت الأبشار وسست سياسة متكبر جبار، عززت بني مروان وأذللت نفسك، وعمرت دورهم وخربت دارك، فاليوم لا ينجونك ولا يغنونك، لقد كنت لهذه الأمة اهتماماً واغتماماً وعناء وبلاء، فالحمد لله الذي أراحها منك. فكأنما قطع لسانه فلم يحر جواباً، وتنفس الصعداء وخنقته العبرة، ثم قال:

رب إن العباد قد آيسوني ورجائي بك الغداة عظيم

ولما مات رُئي في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟. فقال: قتلني بكل قتيل قتلته قتلة، وقتلني بسعيد بن جبير سبعين قتلة. فقيل له: فما تنتظر؟ قال: ما ينتظره الموحدون. وقال علي ابن جدعان: أخبر الحسن بموت الحجاج، فسجد وقال: اللهم عقيرك وأنت قتلته فاقطع سنته وأرحنا من سنته وأعماله الخبيثة.

أحصي من قتل الحجاج بين يديه صبراً فبلغ مائة ألف وعشرين ألفاً، سوى من قتل بسببه في الملاحم والحروب. وأطلق سليمان بن عبد الملك من سجنه سبعين ألفاً قد حبسهم للقتل، وأمر أن يبتتوا، معناه: يكسوا بتاً بتاً، وجمع البت: بتوت. والبتي: الذي يعمله. والبت: ضرب من الطيالسة، يسمى الساج، مربع غليظ لونه أخضر. كذا فسره ثابت، قال: وقد يجوز أن يكون معنى يبتتوا: يزوّدوا. وأنشد على المعنى الأوّل قول الراجز:

يا رب بيضاء عليها بت بت السويق لحمها واللت

كمـــا بتـــي بخـــت العـــــراق القـــت

واستشهد على القول الآخر بقول طرفة بن العبد:

ويأتيك بالأخبار من لم تبع له بتاتاً ولم تضرب له وقت موعد

قال: البتات، هو من لم تستزد له زاداً. وكان الحجاج بلاء على الناس لا يبالي بما يقول ولا بمن يوقع. وحسبك أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قال فيه: لو جاءت كل أمة بفرعونها وجئناهم بالحجاج لغلبناهم.

وقد كان سجن رجلاً من اليمن وحبس معه إبراهيم التيمي، فكان الحجاج إذا أراد أن ينام أتاه في المنام آت يقول له: أخرج اليماني، فلم يزل كذلك ليلته كلها حتى أصبح، فلما أصبح دعاه فأخرجه، وقال له: اذهب بسلام، ثم أتى اليماني إلى السجن ليودع إبراهيم التيمي، فقال: ادع الله لي، فقال اليماني: إن أطعته لم يعصك، أو لم يخالفك.

خرج ثابت من حديثه أن الحجاج قال: ما ذكرت قول ابن عمر وأنا على المنبر: كذبت؛ إلا ندمت أن لا أكون ضربت عنقه، فقال له عبد الله بن عبد الله بن عمر: لو فعلت لصعر الله رأسك في جهنم. ذكره ثابت في الدلائل، وسيأتي في باب الواو بقية الخبر. وذكره أبو عبيج وقال: لكوسك الله في النار رأسك أسفلك، وذلك أن الحجاج قال وهو على المنبر: إن ابن الزبير بدّل كلام الله وغيّره، فقال له عبد الله بن عمر: كذبت. وكذلك قال لأنس بن مالك: لأقلعنك قلع الصمغة ولأعصبنك عصب السلمة، فقال أنس: من يعني الأمير؟ قال: إياك أعني؛ وقال كلمة سبه بها؛ أجل مولاي أنساً عن ذكرها، رضي الله عن أنس. خرّج هذا ثابت، ورأيت لغيره أن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما الحجاج جالس وقد أمر بإخرج خيله إذ التفت إليّ فقال: أين هذه الخيل من خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال له أنس: هيهات هيهات يا حجاج، وأين هذه الخيل من خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم، خيل رسول الله وقد أعدها في سبيل الله، أرواثها وأبوالها ثقل في الميزان ونور يوم القيامة، وخيلك هذه أعددتها في سبيل الشيطان، أرواثها وأبوالها نقص في الميزان وظلمة عليك يوم القيامة. فالتفت الحجاج فقال: والله لقد هممت بقتلك، فقال له أنس: ما أنت على ذلك بقادر يا حجاج، قال: ولم، ألست الأمير عليك؟ قال: بلى، ولكني خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فعلمني كلمات إذا أنا قلتها في يومي وليلتي لم أخف شيطاناً مارداً ولا سلطاناً جائراً مع تيسير الحوائج وقضائها، فقال له الحجاج: هاتها، فقال له أنس: والله ما أراك لهن بأهل.

فلما حضرت الوفاة أنساً بعث إلى أخ له من إخوانه فقال له: اكتب ما علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوالذي بعثه بالحق لولا ما حضرني من الوفاة ما علمتكها، قل إذا أصبحت وأمسيت: الله أكبر الله أكبر الله أكبر، بسم الله على نفسي وديني، بسم الله على كل شيء أعطاني ربي، بسم الله على أهلي ومالي، بسم الله خير الأسماء، بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، بسم الله افتتحت وعلى الله توكلت، الله ربي ولا أشرك به شيئاً، اللهم إني أسألك من خيرك الذي لا يعطيه غيرك، اللهم اجعلني في عياذك وجوارك، وأعذني من الشيطان الرجيم، وأستجيرك من جميع ما خلقت، وأعوذ بك منهم. ثم اقرأ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾. قال عبد الملك بن حبيب: وأنا أحب للرجل أن يدعو بهذا الدعاء كلما أصبح وأمسى.

قلت: وإذ وقعنا في الدعاء فلا نخلي هذا الكتاب من فائدة فيه: حدّثني العثماني رحمه الله بالإسكندرية بلفظه من الحديث المسلسل إلى جعفر بن محمد رضي الله عنه، كل شيخ في السند يقول: حدّثني فلان، ويقول عن هذا الدعاء الذي يأتي ذكره: فكتبته فجعلته في جيبي، وذلك لعظمه عندهم، لأن الله أنقذ به راويه جعفر بن محمد من أمر عظيم، والحمد لله. انظره بسنده وحكايته في المسلسلات.

قال محمد بن جعفر: حدّثني أبي عن جدي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمر دعا بهذا الدعاء، وكان يقول دعاء الفرج: اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكنفني بكنفك الذي لا يرام، وارحمني بقدرتك عليّ، أنت ثقتي ورجائي، فكم من نعمة أنعمت بها عليّ قلّ لك بها شكري، وكم بلية ابتليتني بها قلّ لك بها صبري، فيا من قلّ عند نعمته شكري فلم يحرمني، ويا من قلّ عند بلائه صبري فلم يخذلني، ويا من رآني على الخطايا فلم يفضحني أسألك أن تصلي على محمد وعلى آل محمد، كما صليت وباركت وترحمت على إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللهم أعني على ديني بدنياي، وعلى آخرتي بالتقوى، واحفظني فيما غبت عنه، ولا تكلني إلى نفسي فيما حضرته. يا من لا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة، هب لي ما لا يضرك واغفر لي ما لا ينقصك. يا إلهي أسألك فرجاً قريباً وصبراً جميلاً، وأسألك العافية من كل بلية، وأسألك الشكر على العافية، وأسألك دوام العافية، وأسألك الغنى عن الناس، ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

ورأيت في كتاب محمد بن شبل ولم أروه أنه لما دخل على أبي جعفر حرّك شفتيه، فلما رآه أبو جعفر نهض إليه فاعتنقه وأجلسه معه، ثم عاتبه وقال له: قد وقع إليّ أن الأموال تجبى إليك بلا سوط ولا عصي، ثم أمر بالرافع فأحضره، فقال له أبو

عبد الله: أحق ما رفعت إلى أمير المؤمنين؟ قال: نعم، قال: فاستخلفه يا أمير المؤمنين، قال أبو جعفر رد اليمين عليه، فقال له أبو جعفر: احلف، فقال: والله الذي لا إله إلا هو، فقال له أبو عبد الله رضي الله عنه: ليس هكذا، لأن العبد إذا مجد الله في يمينه أمهله بالعقوبة، ولكن قل: أنا بريء من الله والله بريء مني، وأنا خارج من حول الله وقوّته وراجع إلى حول نفسي وقوّتها، قال: فحلف، فوالله ما رفع إلا ميتاً، فراع ذلك أبا جعفر وقال: انصرف يا أبا عبد الله فلست أسألك بعدها عن شيء. قال: فسئل عن الذي حرّك به شفتيه عند دخوله، فقال: قلت: اللهم بك أستفتح وبك أستنجح وبنبيك محمد صلى الله عليه وسلم أتوجّه. اللهم ذلل لي حزونته وكل حزونة، وسهل لي صعوبته وكل صعوبة. اللهم أعطني من الخير فوق ما أرجو، واصرف عني من الشر فوق ما أحذر، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم.

وهذا دعاء آخر حسن أيضاً: اللهم إن استغفاري إياك مع كثرة ذنوبي للؤم، وإن تركي للاستغفار مع معرفتي بسعة رحمتك لعجز، إلهي كم تتحبب إليّ برحمتك وأنت غني عني، وكم أتبغض إليك بذنوبي وأنا فقير إليك، سائلك عند بابك قد ذهبت أيامه وبقيت آثامه وانقطعت شهواته وبقيت تبعاته، فارض عنه، فإن لم ترض عنه فاعف عنه، فقد يعفو المولى عن عبده وهو عنه غير راض. سبحان من إذا توعّد عفا، وإذا وعد وفى، لا إله إلا هو وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير.

رجع الكلام إلى الحجاج:

يروى أن الحجاج أتي بمانويّ، فأمر بقتلهم، فما وصل إلى أحدهم قال له: يا حجاج لا جزاك الله عن السنة خيراً فإن الله عز وجل يقول: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ [محمد: ٤]، فهذا قول الله عز وجل في كتابه، وقد قال شاعركم:

وما نقتل الأسرى ولكن نفكهم ... إذا أثقل الأعناق حمل القلائد

فقال لهم الحجاج: ويحكم أفعجزتم عن مثل هذا، وأمسك عن الباقين، وأمر بقتل آخر وجعل يسبه: اقتلوا ابن الفاعلة، فقال له: بئس ما أدّبتك به أمك يا حجاج، أبعد الموت منزلة أصانعك عليها؟ أما خشيت أن أردّ عليك مثل الذي قلت لي؟ فاستحيا منه وأمر بإطلاقه. هذا الرجل هو عمران بن حطان، كان ممن خرج على الحجاج، فلما أطلقه قال له أصحابه: والله ما أطلقك إلا الله فارجع إلى حربه، فقال:

هيهات غل يداً مطلقها واسترق رقبة معتقها، ثم قال:

أأقاتل الحجاج عن سلطانه ... بيد تقر بأنها مولاته
إني إذاً لأخو الدناءة والذي ... ظهرت على أفعاله جهلاته
ماذا أقول إذا وقفت إزاءه ... في الصف واحتجت له فعلاته
وتحدث القوم أن صنائعاً ... غرست لديّ فحنظلت نخلاته
أأقول جار علي إني فيكم ... لأحق من جارت عليه ولاته
تالله لا كدت الأمير بآلة ... وجوارحي وسلاحها آلاته

وأتي يوماً بامرأة حرورية فقال لأصحابه: ما تقولون في هذه؟ فقالوا: اقتلها أصلح الله الأمير، ونكل بها ليعتبر غيها، قال: فتبسمت الحرورية، فقال لها: لم تبسمت؟ فقالت: لقد كان وزراء أخيك فرعون خيراً من وزرائك يا حجاج، قد استشارهم في قتل موسى فقالوا: أرجه وأخاه، وهؤلاء يأمرونك بتعجيل قتلي، فضحك الحجاج وأمر بإطلاقها.

وكذلك يروى أنه أمر بتقديم قوم للقتل فقام رجل من الأسرى فقال: أيها الأمير إن لي عندك يداً، قال: وما هي؟ قال: سمعت ابن الأشعث يسبك فرددت عليه، قال: ومن يشهد لك بذاك؟ فقام الرجل فقال: أنشد الله رجلاً سمع مقالتي إلا شهد لي، فقام رجل من الأسرى فقال: صدق، فقال الحجاج: أطلقوا هذا، ثم أقبل على الآخر فقال: ما منعك أن ترد عليه أنت كما ردّ عليه هذا؟ قال: لقديم بغضي فيك، فقال: وهذا أيضاً أطلقوه لصدقه.

ويروى أن معن بن زائدة كان عزم على قتل جماعة من الأسرى، وكان من الكرام كما تقدّم، فلما أمر بإخراجهم للقتل ومثلوا بين يديه، قام إليه أصغر القوم سناً وقال له: يا معن أتقتل الأسرى وقد جاعوا وقد عطشوا؟ فأمر لهم بطعام وشراب، فلما أكلوا وشبعوا وارتووا قام إليه، فقال له: يا معن أتقتل أضيافك؟ فحلم عنهم وخلى سبيلهم، وتعجب من حيلة الفتى.

وأما سوء سيرة الحجاج وقبح سريرته؛ فقد خرج ابن قتيبة في عيون الأخبار أنه خطب الناس حين أراد الحج فقال: أيها الناس إني أريد الحج، وقد استخلفت عليكم ابني هذا، وأوصيته بخلاف ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأنصار، أوصى أن يقبل من محسنهم وأن يتجاوز عن مسيئهم، وإني أمرته أن لا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم، ألا وإنكم ستقولون بعدي مقالة لا يمنعكم من إظهارها إلا مخافتي، ستقولون: لا أحسن الله الصحبة، ألا وإني معجل لكم الجواب:

لا أحسن الله عليكم الخلافة، ثم نزل.

قلت: والشيء يذكر بضدّه ويعرف بندّه. انظر هذا الكلام وهذه النية، أين هي من نية عبد الرحمن بن الضحاك والي المدينة؟ الذي تقدّم قبل، وأين هذا وهذا من نية أحد الأمراء الذي أصيب في سمعه، فتأسف لذلك وقال: والله ما أسفي على سمعي، وإنما أسفي على أني لا أسمع نداء المظلوم. ثم قال: لا جرم إن كان ذهب سمعي فقد بقي بصري، لا يلبس ثوباً أحمر إلا المظلوم. ثم جعل يطوف في البلد يتفقد المظلومين.

قلت: والكلام أيضاً في هذا الفن طويل عريض، وفي الناس الصحيح والمريض.

دع عنك تذكار حجاج وسيرته ... كل امرئ سوف يجزى بالذي فعلا

واذكر حديث فتى ما إن أراق دماً ... أيام دولته هذا سما فعلا

حدّث عن أحد الولاة المتأخرين أنه أقام في رعيته مدّة ما أراق فيها لأحد محجمة دم إلا رجلاً واحداً أخذ في جريرة، فسجنه مدة ثم ألح عليه فيه، فاستفتى فيه فقهاء ذلك الموضع، فأفتوا بقتله وصلبه، فأمر به فقتل وصلب، فكان يركب فيقف عليه ويقول: الله يعلم أيها الإنسان أني بريء من دمك.

وأغرب من هذا ما خرج أبو عمر في كتاب الصحابة رضي الله عنهم عن إبراهيم بن ميسرة قال: ما بلغني أن عمر بن عبد العزيز جلد سوطاً في خلافته إلا رجلاً شتم معاوية عنده، فجلده ثلاثة أسواط. قلت: كذلك ضرب الظهور وسفك الدماء شديد، وقد جاء فيه أشدّ الوعيد، اللهم إلا في إقامة الحدود فإنها تعفر فيها الخدود، وتقام على الآباء والجدود.

الدعاء لولاة الأمور :

والحديث الجامع في هذا المعنى: كما تكونوا يولّ عليكم. وقال عليه الصلاة والسلام: خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم. وقال عليه الصلاة والسلام: ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصيحة لم يجد رائحة الجنة. وذكر البخاري من وصية لصفوان: إن أوّل ما ينتن من الإنسان بطنه، فمن استطاع أن لا يأكل إلا طيباً فليفعل، ومن استطاع أن لا يحول بينه وبين الجنة ملء كف من دم أهراقه فليفعل، ولا بدّ للناس من سلطان به يستقيم أمرهم وبه صلاحهم، فالدعاء إذاً لهم مهمّ، كما قال بعض الصالحين: لو كانت لي دعوة مستجابة لجعلتها في السلطان. ولي في هذا المعنى من قطعة مطوّلة في وصايا:

وأخلص في الدعا للخلق طرّا ... وخصص به القضاة مع الولاة

فإن صلحوا فيصلح من سواهم فما المرعي إلا بالرعاة

وقال عمر بن الفضل: سألت أبا العلاء والحجاج في غيابه فقلت: يا أبا العلاء أسب الحجاج؟ قال: ادع الله له بالصلاح، فإن صلاحه خير لك من فساده. وكذلك قال الحسن رضي الله عنه: أيها الناس تعلمن والله ما سلط الحجاج عليكم إلا عقوبة من الله فلا تعارضوا عقوبة الله بالحمية والسيوف ولكن عليكم بالذلة والاستكانة والتضرع والدعاء والتوبة. وكان يتلو هذه الآية: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وكان يقول: إني لأعجب ممن خف عليك كيف خف مع هذه الآية: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾. وقد روي أن مالك بن دينار قال: وجدت في بعض الكتب يقول الله عز وجل: أنا ملك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، ولكن توبوا إليّ أعطفهم عليكم. وكذلك قال الرشيد لعلي بن عتيق في جملة ما وصاه به: أطع الله يعطفني عليك. وقال سهل رحمه الله: أطيعوا السلطان في سبعة: ضرب الدراهم والدنانير والمكاييل والأوزان والأحكام والحج والجمعة والجهاد. ولا يزال الناس بخير ما عظموا السلطان والعلماء فإذا استخفوا بهذين فسدت دنياهم وأخراهم. وقال آخر: من لم ير طاعة السلطان على نفسه فهو زنديق، ومن دعاه السلطان فلم يجبه فهو مبتدع، ومن يأتيه من غير دعوة فهو جاهل، فإن كان السلطان عادلاً فقد تمت النعمة، وإن كان جائراً فالصبر عليه خير من القيام عليه، واعتزاله سلامة. وقال سحنون: إذا أتى الرجل مجلس القاضي ثلاثة أيام متوالية بلا حاجة فينبغي أن لا تقبل شهادته. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: من أراد أن يكرم دينه فلا يدخل على السلطان الجائر. وقال ابن عباس رضي الله عنهما للرجل الذي سأله: آمر أمامي؟ قال: إن كان فيما بينك وبينه، فإن خفت أن يقتلك فلا. وقال الفضيل: ليس الآمر والناهي من دخل عليهم فأمرهم ونهاهم، إنما الآمر والناهي من اعتزلهم. وللفقيه أبي عمران الميرتلي رحمه الله:

تباعد عن السلطان لا تغش بابه فتسلب ديناً أو تصاب بفاقره
فليس بناج من ألم ببابه وإن هو أغناه وسدّ مفاقره
وما هو إلا النار يحرق من دنا إليه فلا تقربه واخش بوادره

وقال ابن المبارك: من اعتزلهم فقد أمرهم ونهاهم. قلت: هذا كله في غشيانهم وإتيانهم فكيف بمن أكل من حلوائهم، وانحط في أهوائهم، فكأنه لم يسمع ما قيل

فيمن أخذ منهم الدراهم، فضلاً عن المثاقيل، المتلبس بمال السلطان كالسفينة في البحر، إن أدخلت بعضه في جوفها أدخل جميعها في جوفه. وما أقبح بالعالم أن يزور العامل، ولذلك قال الأوزاعي: ما شيء أبغض على الله من عالم يزور عاملاً.

وقال مكحول الدمشقي: من تعلم القرآن وتفقه في الدين ثم صاحب السلطان تملقاً إليه وطمعاً فيما بين يديه؛ خاض في بحار جهنم بعدد خطاه. وقال سعيد بن المسيب: إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فهو لص. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إذا رأيتم العالم يحب الدنيا فاتهموه على دينكم، فإن كل محب يخوض فيما أحب. وقال الفضيل بن عياض: لو كان للعلماء صبر ما تمندل هؤلاء بهم. وقال أيضاً: واسوأتاه من أن يقال فلان القارئ قدم حاجاً في نفقة فلان الفاجر. والكلام الجامع في هذا المعنى: من اقترب من السلطان افتتن، ومن ابتلي بالدخول عليهم والقرب منهم فليسكت، كما فعل الأحنف عند معاوية رضي الله عنهما: روى الحسن قال: ذكروا شيئاً عند معاوية، فتكلموا فيه والأحنف ساكت، فقال معاوية: يا أبا بحر ما لك لا تتكلم؟ فقال: أخشى الله إن كنت كذبت، وأخشاكم إن صدقت. ومثله ما حدّث سفيان قال: قدم الحجاج على عبد الملك وافداً، ومعه معاوية بن قرة، فسأل عبد الملك معاوية عن الحجاج، فقال: إن صدقناكم قتلتمونا، وإن كذبناكم خشينا الله، فنظر إليه الحجاج فقال له عبد الملك: لا تتعرض له، فنفاه الحجاج إلى السند.

وأقوى من هؤلاء قال بعض العلماء: من ابتلي بالدخول عليهم فعليه أن يقول الحق ولا يداهن ولا يمالئ، ويصبر على الإذاية في الله، ولا تأخذه في الله لومة لائم، وعليه أن يقول الحق وإن كان مراً، ويتقي الله سراً وجهراً، فيحب في الله البعيد، ويبغض في الله القريب، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: أحب لله وأبغض لله، وعاد في الله، ووال في الله، فإنه لا تنال ولاية الله إلا بذلك، ولا يجد رجل طعم الإيمان؛ وإن كثرت صلاته وصيامه؛ حتى يكون كذلك.

ويروى عن عيسى عليه السلام أنه قال: يا معشر الحواريين تحببوا إلى الله ببغضكم أهل المعاصي، وتقربوا إلى الله بما يباعدكم منهم، والتمسوا رضاه بسخطهم. وتمام الخبر: يا روح الله فمن نجالس؟ قال: من تذكركم بالله رؤيته، ومن يزيد في علمكم منطقه، ومن يرغبكم في الآخرة عمله. وقول الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين: ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر، فيه تصديق لما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم.

فكان ذلك كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام: بسطت عليهم الدنيا.

كما روى عبد الله بن حوالة الأزدي رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الفقر والعري وقلة الشيء، فقال: أبشروا فوالله لأنا بكثرة الشيء أخوفني عليكم من قلته، والله لا يزال هذا الأمر حتى تفتح لكم أرض فارس والروم وأرض حمير، وحتى تكونوا أجناداً ثلاثة: جند بالشام، وجند بالعراق، وجند باليمن، وحتى يعطى الرجل منكم مائة دينار فيسخطها. قال ابن حوالة: فقلت يا رسول الله ومن يطيق الشام وبها الروم ذات القرون؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليستخلفنكم الله فيها حتى تظل العصابة؛ منهم البيض قمعهم؛ المحلقة أقفاؤهم؛ قياماً على رؤوس الأسود منكم، المحلوق ما أمرهم به من أمر فعلوه؛ وإن بها اليوم رجالاً لأنتم أهون في عيونهم من القردان في أعجاز الإبل. قال ابن حوالة: قلت يا رسول الله خر لي إن أدركني ذلك، قال: أختار لك الشام فإنها صفوة الله من بلاده، وإليها يجبى صفوته من عباده، يا أهل الإسلام فعليكم بالشام، فمن أبى فليلحق بيمنه، فإن الله قد توكل لي بالشام وأهله.

قال عبد الرحمن بن بجير: فعرفت أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم نعت هذا الحديث في جزء بن سهل السلمي، وكان ولي الأعاجم، وكان أويدم قصيراً، فكانوا يمرون به وتلك الأعاجم حوله قياماً يأمرهم بأمره ويبتدرون إليه، فيتعجبون من نعت هذا الحديث، خرجه ثابت في الدلائل وفسره. فمما فسره منه قوله: أخوفني، هي لغة بمعنى: أخوف مني عليكم. قال: وفيه لغة أخرى: أخوفي عليكم، بياء الإضافة. وقال: القمع: جمع قمعة وهي من البعير السنام. فأراد عليه الصلاة والسلام بقمعهم بيض ألوانهم، وذكر القمع وهو مغرز العنق، كما يقولون: بيض السوالف وبيض الطلي، لا يريدونها خاصة إنما يدلون بها على بياض جميع الجسد. وقال: في صفوة ثلاث لغات: صفوة وصفوة وصفوة، فإذا نزعوا الهاء قالوا: صفو، لا غير. وخرج في حديث آخر أن رجلاً قام إليه، فقال: يا رسول الله تخرّقت عنا الخنف، وأمرح بطوننا التمر. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا كنا بمكة وجلّ طعامنا البرير، وإنا قدمنا المدينة على إخواننا، وإنما جلّ طعامهم التمر، فأسونا فيه، وإني لو قدرت لكم على الخبز واللحم لأطعمتكم منه، وعسى أن يبقى منكم بقية حتى يغدى عليه بجفنة ويراح عليه بأخرى. قال: فقالوا: يا رسول الله أنحن اليوم خير أم ذلك اليوم؟ قال: بل أنتم اليوم خير، أنتم اليوم متحابون، وأنتم يومئذ يضرب بعضكم رقاب بعض، أراه قال: متباغضون. البرير: ثمر الأراك، واحدته بريرة، وبه سميت بريرة، وهو أسود، وقد يقال

له أيضاً: البريم، واحدته بريمة. ومنه قولهم: حته الله حت البريمة. ومعنى أمرح: أسهل وأوهى. وقال صاحب العين: الخنيف: ثوب أبيض غليظ. وقد طوّل الكلام على هذا البيت، وليته لو طال ليت، لأن فيه زائداً عن العلم ذكر فضائل الكرم والحلم، وما أجملها من أخلاق يرضى بها الملك الخلاق، ولا ينكرها إلا من ليس له في الأدب من خلاق.

وقد سقت هنا حكاية طريفة عن امرأة من الأعراب ظريفة، أختم لك بها هذا الفصل فاستعملها فهي نعم الأصل: يروى أن امرأة من الأعراب وقفت على جماعة فقالت لهم: ما الكرم يرحمكم الله؟ قالوا: بذل المعروف والإيثار على النفس، قالت: هذا في الدنيا، فما هو في الدين؟ قالوا: طاعة الله سبحانه وتعالى، وبذل المجهود في عبادته واجتناب محارمه، والوقوف عند محارمه، والوقوف عند حدوده، طيبة بذلك نفوسنا، قالت لهم: أتريدون بذلك أجراً؟ قالوا: نعم، قالت: ولم؟ قالوا: لأن الله وعدنا بالحسنة عشر أمثالها، قالت: سبحان الله فإذا أعطيتم واحدة وأخذتم عشرة فأين الكرم؟ قالوا: فما هو يرحمك الله؟ قالت: هو أن يعبد الله حق عبادته، ولا يراد على ذلك جزاء حتى يفعل بكم مولاكم ما يشاء، ألا تستحيون من الله أن يطلع على قلوبكم فيعلم منها أنكم تريدون شيئاً بشيء؟.

قيل لرابعة العدوية رضي الله عنها: هل عملت عملاً قط ترينه قبل منك؟ قالت: إن كان فخوفي أن يردّه عليّ. ولي أيها الأخ المعظم في هذا الكلام منظم، وهو:

الجـــود والكـــرم والحفـــظ للحـــرم
والرعـــي للـــذمم مـــن أرفـــع الهمـــم
وبـــارئ النـــسم مـــولاك قـــد قـــسم
بـــين الـــورى القـــسم فـــي كلهـــا الأمـــم
فأبـــؤس تغـــم وأنعـــم تـــنعم
فاســـمع أيـــا ابـــن عـــم قولـــي وقـــل نعـــم
أشـــكر علـــى الـــنعم واصـــبر علـــى الـــنقم
وارض الـــذي حكـــم العـــادل الـــحكم
وهـــذه حكـــم تـــضم لا تـــذم
نظمـــتها ابـــن أم فاقـــصد لهـــا وأم
ودن بهـــا ودم وانهـــض بهـــا وقـــم
فإنهـــا شـــيم مـــا إن لهـــا قـــيم

◆◆◆

خرجت من شيء إلى غيره ولم أقف ها أنا ذا أخرج
لكنّ من علم إلى مثله أنت له من غيره أحوج

معكوس البيت:

وحاء وخاء وحا وجاء وجاء وحل وجل

أما الحاء فحرف هجاء يمد ويقصر، وقد تقدّم أنّ اسمها اسم صورتها، وأن من حروف الحلق، وكذلك الخاء، والحاء تشبه الهاء في النطق، حتى تجعل إحداهما مكان الأخرى، قال رؤبة

لله درّ الغانيات المزّه

يريد: المزّح. ويروى: المزه، يريد: المزح. وجاء في الحديث: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع الثمرة حتى تشقح. وفي لفظ آخر: حتى تشقه، بالهاء، ثم فسرا جميعاً بمعنى واحد.

قلت: وما تشقح؟ والآخر: وما تشقه؟ قال: تحمارّ وتصفارّ ويؤكل منها. وتقول العرب: هذا الأمر مهم لي ومحم، وقالوا: إنه يأنه فهو آنه، من قوم أنه، في معنى: أنح يأنح، فهو آنح من قوم أنح. وقد تقدّم: هقهق في السير وحقحق. والأبه مثل الأبح، والأجله مثل الأجلح. وفي الشعر المتقدّم:

لله درّ الغانيات المزّه سبحن واسترجعن من تأله

أي: من تعبد وتنسك، وقبل هذا يروى

براق أصلاد الجبين الأجله

ومن الأبه: البوهة، وهي البومة الصغيرة، ويشبه بها الرجل الأحمق، ومنه

يا هند لا تنكحي بوهة

وقال النعمان بن المنذر لرجل ذكر عنده رجلاً بأمر أراد به شينه فكان ذلك زينه: أردت أن تذيمه فمدهته، يريد: مدحته. قوله: أردت أن تذيمه، أراد: تذمه. يقال: ذمه يذمه ذماً فهو مذموم، وذامه يذيمه ذيماً فهو مذيم، وذأمه يذأمه ذأماً فهو مذؤوم. وقال الله تعالى: ﴿ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الأعراف: ١٨]. ومن الذام المثل: لا تعدم الحسناء ذاماً.

وربما أبدلت الحاء من العين في مثل: معهم، في لغة من سكن العين، فتقول: محهم، ولكن لا بدّ من التثقيل. حكي ذلك عن بعض العرب وقالوا: بعثرت الشيء وبحثرته، كشفته واستخرجته. وقالوا: دح في قفاه يدح، في: دع يدع، بمعنى دفع. وقد تقدّم. وقال الخليل: لولا بحة في الحاء لأشبهت العين، ولذلك لم يأتلفا في كلمة

واحدة، وكذلك الهاء، ولكنهما يجتمعان في كلمتين، لكل واحدة معنى على حدة، نحو قولك: حي هل، وكما قال: هيهاؤه وحيهله، فحي معناه: هلم وهلا جئتنا، ومنه: إذا ذكر الصالحون فحيهلا بعمر، وسيأتي الكلام عليه بأكثر من هذا إن شاء الله تعالى. تقدّم قول الخليل في العين والحاء، وأنهما لم يأتلفا في كلمة واحدة. ومن قوله أخذ المعري بيته الذي يقول فيه:

بعض الأقارب مكروه تقاربهم وإن أتوك ذوي قربى وأرحام
كالعين والحاء تأبى أن تقاربها في لفظة قد حماها قربها حام

قال ابن السيد في شرحه لشعر المعري: لا يوجدفي كلام العرب عج ولا جع، وكذلك الحروف التي مخارجها من الحلق أكثرها لا تتجاور في التأليف، فلا يوجد في الكلام حاء تجاورها خاء مقدمة عليها ولا مؤخرة عنها، وكذلك العين والغين، فأما العين غير المعجمة فإنها تجاور الخاء المعجمة في التأليف إذا تقدّمت الخاء، كقولهم: النخع، ولا تقدّم العين عليها. وأما الهمزة فتجاور الهاء متقدمة، وكذلك العين تجاور الهاء في التأليف إذا تقدّمت العين، نحو: عهد وعهن، ولا تتقدّم الهاء عليها. وأما الهمزة فتجاور الهاء متقدّمة ومتأخرة، كقولك: أهأت وهأهأت بالإبل، وتجاور جميع حروف الحلق إذا تقدّمت عليها، فإذا تقدّمت هي قبل الهمزة فمنها ما تجاورها ومنها ما لا تجاورها.

ومما جاء مزجاً في الكلام قولهم: ابن المائة لا حاء ولا ساء، أي: لا محسن ولا مسيء. ويقال معناه: لا يستطيع أن يقول حاء، وهو أمر التيس بالسفاد، ولا ساء: وهو دعاء للحمار. وجاء في الحديث: بيرحاء، وهو اسم حائط أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه الذي تصدّق به، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بخ ذلك مال رابح. ويروى: بيرَحاء وبيرُحاء، بفتح الراء وضمها والهمز والمدّ، وأحسنها: بيرَحا، بفتح الراء وقصر الألف، على أنه اسم مركب، كبعلبك ورامهرمز، والله أعلم. وكان الأصيلي يقيدها بيرُحاء، بالمدّ وضم الراء، وغيره يقول فيها: بيرحا، بفتح الباء والقصر. ويقال: إنما سميت بيرحا بزجر الإبل عنها، وذلك أن الإبل يقال لها إذا زجرت عن الماء: حا حا، وحاء: حيّ من مذحج، قال الشاعر

طلبت الثأر من حكم وحاء

وبنو حاء: من حاء بن معد، وحاء: موضع بالشام. وقوله في الحديث: رابح، بالباء: من الربح. ورائح، بالهمز: بمعنى الرواح، أي: يروح عليك بخير، أو: رائح إلى الله تعالى، يعني أنه متقبل والله أعلم.

والحائط عند العرب: النخل المجتمع، وإن لم يكن عليه بناء، وإن كان محوّطاً بالحيطان فهو حديقة وبستان.

حاء: وأما حاء فاسم فاعل من: حاء، وأما وحا، فالواو أصلية، والوحا، مقصور: بمعنى السرعة، ومنه قولهم: الوحا الوحا، أي: العجلة العجلة. ومنه قول أبي بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه: أين الوضاة وجوههم والمعجبون بشبابهم؟ أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان؟ أين الذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن الحرب تضعضع بهم الدهر فأصبحوا في ظلمات القبور؟ فالوحا ثم الوحا، ثم النجا ثم النجا. خرجه الثقفي في الأربعين، وقرأته على الحافظ رحمه الله. ومنه اشتقاق الوحي، أي إنه يجيء بسرعة. وقد جاء الوحا في الشعر ممدوداً ذكره ابن دريد رحمه الله في قصيدته التي جمع فيها بين المقصور والممدود، فقال:

وإذا سمعت وحا الزما ... ن فلا تقصر في الوحاء

وفسر الممدود بالسرعة، والمقصور بالصوت. وقال يقال: سمعت وحا القوم، أي: صوتهم، والفعل من هذا ثلاثي. قال الراجز:

وحى لها القرار فاستقرت

يعني: الأرض أمرها بالقرار فقرت، ويقال: سخرها. وأما أوحى، بالألف، فيتصرف على وجوه منها: الإرسال، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ ﴾ [النساء: ١٦٣]. ومنها الإلهام، كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ [النحل: ٦٨] أي: ألهمها. ويكون للإشارة، كما قال الله تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم: ١١]. ويكون للإعلام في المنام، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾ [الشورى: ٥١] الآية. ويقال: وحى يحي وحياً، إذا كتب، وأوحى: لغة فيه أيضاً. قال العجاج

بقدر كان وحاه الواحي

وفي مقصورة ابن دريد:

لا بدّ أن يلقى امرؤ ما خطه ... ذو العرش مما هو لاق ووحا

ويقال: سمعت وحاة الرعد، وهو: صوته الممدود الخفي. قال الراجز:

يحدو بها كل فتى هيات ... تلقاه بعد الوهن ذا وحات

وهنّ نحو البيت عامدات

نصب (عامدات) على الحال. والوحى: السيد.

ومقلوب شكل هذه اللفظة إذا كتبتها وحاء، بالألف: احو، يقال: احو احو، للكبش: إذا أمر بالسفاد. ومقلوبها: حوى الشيء يحويه حياً وحواية: إذا ملكه أجمع. والحوية مركب يهيأ للمرأة. وفي الحديث: فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحوي لها حوية خلفه، يعني: صفية رضي الله عنها. والحوية أيضاً: واحدة الحوايا، وهي المباعر. ويقال: الحوايا: ما تحوّى في البطن، أي: استدار. ويقال الحوايا: بنات اللبن، وهي متحوّية، أي: مستديرة، وواحدتها أيضاً: حاوية وحاية، وجمعها حاويات. والحاوي: صاحب الحيات، واشتقاقه من الحية، وقيل: من التحوّي، وهو الاستدارة، والأوّل أحسن، لأنا نقول في تحقيرها: حيية. قال الجوهري: الحاوي ليس من الحية وإنما هو من كونه يحويها في أوعيته. وكذلك الحوي، والحية تكون للذكر والأنثى وإنما دخلتها الهاء لأنها واحد من جنسه، كبطة ودجاجة، على أنه قد روي عن العرب: رأيت حية على حية، أي: ذكراً على أنثى. وفلان حية ذكر، والنسبة إلى حية حيوي، والحيوت: ذكر الحيات، وأنشد لرؤبة

ويأكل الحية والحيوتا

وقد تقدّم من التحوّي ما شرح الخطابي رحمه الله من حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: أتاني جبريل ليلة أسري بي بالبراق، فقال: اركب يا محمد، فدنوت منه لأركب فأنكرني فتحيا مني. قول قوله: فتحيا مني، إنما هو تحوّى، أبدل الواو ياء. والتحوّي: أن يلتوي ويستدير ويقال: إنما سميت الحية لتلويها. يقال: حويت الحية تحوي حوياً، إذا استدارت. ويقال: بل سميت حية لطول حياتها، وهي فيما يقال: طويلة الحياة. ويقال: إنها من أطول الحيوان زماناً. وسيأتي في آخر هذا الباب الحواء والأحواء والحوّ إن شاء الله تعالى.

ويقال للرامي إذا أخطأ: ايحى، وإذا أصاب قيل له: برحى. ومجموع الوحى: كل شيء دللت به من كلام أو كتاب أو إشارة أو رسالة، وأصله كله السرعة، ومنه: وحى الحاجبين والشفتين والعينين، والله أعلم. وجمع الوحى: وحيّ، كحلى وحليّ. ومن شكل الوحى: الوخى؛ بالخاء المعجمة؛ ومعناه: القصد، تقول العرب: جزى الله الوخى خيراً، أي: العجلة.

جاء: وأما جاء فهو فعل ماض، تقول منه: جاء يجيء جيئة ومجيئاً. والجيئة أيضاً: قطعة نعل ترقع بها نعل أخرى. ويقال: أجيء هذا النعل بجيئة. والجئة، بكسر الجيم: مجتمع ماء في بسطة. والجئوة، بسكون الهمزة وبالواو: سير يخاط به. والجياءة، بالمد: وعاء توضع فيه القدر، وجمعها إجاء، مثل: جراحة وجراح. ويقال فيها أيضاً:

جياء، وهذا قول الأصمعي. وقال أبو عمرو: الجياء والجواء، يعني بذلك الوعاء. وقال الآخر مثله. وفي حديث علي رضوان الله عليه: لأن أطلي بجواء قدر أحبّ إلي من أن طلي بزعفران. وأما الخرقة التي ينزل بها القدر عن الأثافي فهي: الجعال. فإن قدمت الهمزة من جاء فقلت: جأى، فمعناه: عض، يقال: جأى عليه جأياً، إذا عضه(*)، ويقال: فلان لا يجأى مرغه، أي: لا يحبس لعابه. وسقاء لا يجأى شيئاً، أي: لا يمسكه.

وأما وجاء فمصدر إعرابه في البيت: فاعل بجا، والواو أصلية من وجأته وجأ، والوجء في الفحل: أن ترض أنثياه لينقطع ضرابه، يقال منه: وجئ وجاء فهو موجوء، فإذانزعت أنثياه نزعاً فهو الخصاء، يقال منه: خصيته خصاء فهو خصي. وجاء منه في الحديث: أخصيته إخصاء وستراه بعد. فإذا شدّت الأنثيان حتى تندرا؛ يقال: عصبته عصباً فهو معصوب، فإذا قطع جميع ما هنالك فهو مجبوب. وقد تقدّم في الحديث: فعليه بالصوم فإنه له وجاء.

وبقي من الباب مما لا يتزن والواو أصلية: وجا، مقصوراً: نوع من الضرب فيه عض ورض. يقال منه: وجأ يجأ، ومنه في الحديث: فقام أبو بكر رضي الله تعالى عنه إلى عائشة رضي الله عنها يجأ في عنقها، وقام عمر إلى حفصة يجأ في عنقها رضي الله عنهم، كلاهما يقول: تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده؟ وكنّ سألنه النفقة. وجاء في الحديث أيضاً: ومن قتل نفسه بحديدة؛ فحديدته في يده يجأ بها بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً. نعوذ بالله من سخطه. وفي الحديث أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد سقيماً فوصف له الوجيئة وأمره أن يأتي الحارث بن كلدة أخا ثقيف وأنه يتطبب، فليأخذ سبع تمرات من عجوة المدينة فليجأهن، ثم ليدلك بهن.، ذكره الخطابي وقال: الوجيئة التمر يبل بلبن أو سمن حتى يلزم بعضه بعضاً ويؤكل. والوجيئة أيضاً: الجراد يدق ثم يلت بسمن أو بزيت. ويقال: التمر يخرج نواه ثم يبل بلبن أو سمن.

ومن شكل هذه اللفظة: وجا، وهو: الحفا، مقصور، يكتب بالياء، يقال منه: وجي الفرس بالكسر، وهو أن يجد وجعاً في حافره، فهو وج، وأوجيته أنا، وإنه ليتوجى. ووجيت الدابة وجى فهي وجيئة ووجآى: إذا حفيت. وأوجيت الرجل: زجرته. وسألني فأوجيت عليه: إذا منعته.

(*) قوله: إذا عضه، الذي في القاموس وتاج العروس: وجأى جأواً: غطى، يقال: أجئ عليك هذا، أي: غطه. اهـ.

ومن مضاعف جاء: جأجأ. تقول: جأجأت بالإبل: إذا دعوتها لتشرب فقلت لها: جئ جئ. والاسم: الجيء. وهأهأت بها: إذا دعوتها للعلف. ثم قد تستعمل في غير الإبل، قال الشاعر:

وما كان على الجيء ولا الهيء امتداحيكا

الجيء: الشراب، أو الجيء: الطعام. ومن مقلوبها: جوى فهو جوٍ، والجوي: الماء المنتن، قال الشاعر:

ثم كان المزاج ماء سحاب لا جو آجن ولا مطروق

فالجوي: المتغير المنتن، ومنه حديث يأجوج ومأجوج: إنهم ليموتون فتجوى الأرض منهم، أي: تنتن. والآجن: المتغير وهو دون الجويّ في النتن، وهو الذي يروى فيه الحديث عن الحسن وابن سيرين رخص فيه الحسن وكرهه ابن سيرين. وأما المطروق: فهو الماء الذي خوّضته الإبل وبالت فيه، فهو مطروق. ويقال فيه أيضاً: طرق، والطرق في غير هذا الضرب بالحصى، وهو ضرب من الزجر. ومنه الحديث: الطيرة والعيافة والطرق من الجبت، قال لبيد:

لعمرك ما تدري الطوارق ولا زاجرات الطير ما الله صانع

واجتويت الطعام واستجويته: كرهته. واجتويت الأرض: إذا لم توافقك. وفي الحديث من هذا في العرنيين الذين اجتووا المدينة، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا إلى البادية وأن يشربوا من ألبان الإبل وأبوالها، الحديث. والجوى: موضع. ويقال: الجواء أيضاً، والجياء، بالياء: موضع توضع فيه القدر. ومن شكل الجواء: الحواء، بالحاء المهملة: أخبية يداني بعضها بعضاً، والجمع: أحوية. والحواء أيضاً: ما يجعل على كفل البعير من كساء أو حلس مطوي ملوي شبه الكعكة، يرفد به الراكب. وجاء منه في الحديث في شأن إحدى نسوة النبي صلى الله عليه وسلم قال الراوي: فرأيته يحوي لها خلفه. ومنه قول المرأة التي نازعها زوجها في ولدها، فقالت: ابني يا رسول الله، كان له بطني وعاء وثديي سقاء وحجري حواء، الحديث. والحوّ: جمع أحوى، وفي الحديث من قول النبي صلى الله عليه وسلم: خير الخيل الحوّ، والأحوى أهون سواداً من الجون، وهو من أحمد الألوان، قال الفرزدق:

أغرّ من الحوّ اللهاميم إذ جرى

البيت. وسيأتي إن شاء الله تعالى. والحو، بالفتح: مصدر حوى، ومنه قولهم: فلان لا يعرف الحوّ من اللوّ، أي: ما حوى مما لوى. وربما قالوا في هذا: لا يعرف الحيّ من اللي، يضرب مثلاً للرجل الجاهل بالأمور، وأصلها: حيو وليو، واجتمعت

واو وياء فقلبت الواو ياء، وأدغمت في الياء. كما قالوا: طويت طياً وشويت شياً، والقياس أن تبدل الياء من حوى واواً وتدغم في الواو التي قبلها اتباعاً للوى، كما قالوا: إني لآتيه بالغدايا والعشايا، وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله تعالى. والحوّة: لون يضرب إلى السواد، ومنه قيل: شفة حوّاء، وامرأة حوّاء الشفة، ورجل أحوى: إذا كان كذلك. وقال الشاعر:

لَمياء في شفتها حوّة لعس وفي اللثات وفي أنيابها شنب

وفي القرآن العزيز: ﴿ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴾ [الأعلى: ٥]، قيل: إن أحوى من نعت المرعى، تقديره: أخرج المرعى أحوى، أي: أخضر، فجعله غضاً يضرب إلى السواد من نعومته وخضرته ويجوز أن يكون حالاً من: مرعى. وقيل: هو من نعت الغثاء، أي: يابساً أحوى، أي: أسود من قدمه. والغثاء: ما يقذف به السيل على جانبي الوادي من الحشيش.

ومن شكل أحوى: أخوى، بالخاء المنقوطة، يقال: أخوى النجم وخوى: إذا سقط، ولم يكن معه مطر على ما كانت العرب تستعمله في كلامها، وسيأتي إن شاء الله تعالى.

خرجت من شيء إلى غيره ولم أطق يا صاح أن أسكتا
ومن يكن يعلم علماً فلا يصلح إذ يعلم أن يسكتا

فصل:

من الفوائد:

تقدّم قول النعمان: أردت أن تذمّه فمدحته، مثل هذا قول الشاعر:

إن الذي تكرهون مني ذاك الذي يشتهيه قلبي

وكما قال ابن شرف:

وربّما عابه ما يفخرون به يثني من الخصر ما يهوي من الكفل

وهذا البيت من قصيدة له يمدح بها أبا الحسن علي بن أبي الرجل الشيباني، وهي من أحسن ما قال رحمه الله. وفيها بيت عجيب، وهو الذي أخبرتك عنه في أوّل الكتاب: إن القاضي أبا الفضل عياض بن موسى رحمه الله استشهد به في بعض تآليفه في ضرب من البلاغة، ولعمر الله إنه لغريب، وهو قوله:

سل عنه وانطق به وانظر إليه تجد ملء المسامع والأفواه والمقل

فانظر كيف بنى هذا البيت على ثلاثة ألفاظ، وهي: سل وانطق وانظر. ثم أتى بالجواب في ثلاثة ألفاظ، تطابق كل لفظة مقابلتها على التوالي بلا تقديم ولا تأخير،

فإنّ ملء المسامع مقابل لـ سل، والأفواه لـ انطق، والمقل مطابقة لـ انظر. ويكفي ابن شرف من الشرف أن استشهد به القاضي أبو الفضل، وتلك غاية الفضل. وقد رأيت أن أثبت لك هنا من هذه القصيدة ما أحفظه، فإنها من غرر القصائد وحسنها للألباب صائد، أوّلها

رسم الشجيّ البكا في الرسم والطلل ... والدمع حيلة أهل الفقد للحيل
أفنى دموعي وجسمي طول هجركم ... حتى جرت دمعتي طلاً على طلل
أبكي فلا جسدي أبقى ولا جلدي ... ما لو أصيب به جسم البلى لبلي
وحسن صبري فلا يغررك عن ضرر ... مثل الملاحة في أجفان ذي السبل

وهذا البيت أيضاً غرة في المعنى، وذلك أن السبل داء، ويكسب العين ملاحة وجمالاً. يقول: فلا تغتر بحسن صبري فإنه يؤدي آخراً إلى الهلاك، ثم قال من مديحها:

جاور علياً ولا تحفل بحادثة ... إذا ادّرعت فلا تسأل عن الأسل
اسم حكاه المسمى في الفعال فقد ... حاز العليين من قول ومن عمل
فالسيد الماجد الحرّ الكريم له ... كالنعت والعطف والتوكيد والبدل
زان العلى وسواه شانها وكذا ... للشمس حالان في الميزان والحمل
وربّما عابه ما يفخرون به ... يغني من الخصر ما يهوي من الكفل
سل عنه وانطق به وانظر إليه تجد ... ملء المسامع والأفواه والمقل

وتقدّم: بيرحاء، اسم حائط أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه، حين تصدّق به فأنزل الله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وكان أحب أمواله إليه. ولما نزلت أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾، وإن أحب أموالي إليّ بيرحاء، وإنها صدقة لله تعالى أرجو برها وذكرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث شئت. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بخ ذلك مال رابح ذلك مال رابح. وقد سمعت ما قلت فيه، وإني أرى أن تجعله في الأقربين، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله. فقسمها أبو طلحة رضي الله عنه في أقاربه وبني عمه. ومن فضائل أبي طلحة وامرأته الرميصاء؛ وهي المكناة أم سليم رضي الله عنهما؛ وكان سبب إسلامه على يديها، خطبها فقالت: يا أبا طلحة، مثلك لا يردّ، ولكنك امرؤ كافر وأنا امرأة مسلمة لا يصلح لي أن أتزوجك. وفي رواية: يا أبا طلحة ألست تعلم أن إلهك الذي تعبد خشبة تنبت من الأرض نجرها حبشي بني فلان؟ قال: بلى، قالت: أفلا تستحي أن تعبد خشبة من نبات الأرض نجرها حبشي بني فلان؟ إن أنت أسلمت لم أرد منك من

الصداق غيره. فقال: حتى أنظر في أمري. فذهب ثم جاء فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. قالت: يا أنس زوّج أبا طلحة. وكان أنس هذا ابنها. وفي رواية: قالت: وما مهري؟ قال: الصفراء والبيضاء، قالت: فإني لا أيد صفراء ولا بيضاء، أريد منك الإسلام، قال: فمن لي بذلك؟ قالت: لك بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانطلق أبو طلحة يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في أصحابه، فلما رآه قال: قد جاءكم أبو طلحة غرّة الإسلام بين عينيه، فجاء فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بما قالت أم سليم، فتزوّجها على ذلك. وكانت امرأة مليحة العينين فيهما صغر، ثم قضي أن ولد له منها ولد فعاش ما شاء الله، ثم اشتكى فاشتدّ شكواه ثم توفي، وأبو طلحة عند النبي صلى الله عليه وسلم، فانصرف من عنده حين صلى المغرب، وقد لقيته أم سليم في ناحية من بيتها، فأهوى إليه أبو طلحة، فقالت: عزمت عليك بحقي أن لا تقربه فإنه لم يكن ينام منذ اشتكى خيراً منه الليلة، فقرّبت إليه فطره فأفطر، ثم أخذت طيباً فأصابته، ثم دنت إلى أبي طلحة فأصابها، فلما كان في السحر قالت: يا أبا طلحة لو رأيت جيراناً أعاروا جيراناً لهم عارية حتى ظنوا أن قد تركوها لهم؛ فلما طلبوها منهم وجدوا في أنفسهم، قال: بئسما صنعوا، قالت: فإن الله تعالى أعارك فلاناً ثم قبضه منك وهو أحق به، فغدا إلى النبي صلى الله عليه وسلم حين أصبح فأخبره الخبر، فقال: اللهم بارك لهما في ليلتهما، فحملت بعبد الله بن أبي طلحة رضي الله عنه. قال الرواي: فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة كلهم قد قرؤوا القرآن.

فصل:

قد فعل مثل أبي طلحة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إنفاق ما يحب، اشترى له أبو موسى جارية بثمانمائة درهم، فبعث بها إليه، فوقعت منه موقعاً، فسماها زينب، فدخلت عليه يوماً تقرأ هذه الآية: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢]، فقال: اللهم إنك تعلم أني أحب زينب، وإنها حرة، ثم تبعتها نفسه فأراد أن يتزوّجها، فقال له ابنه عبد الله: أتتحدّث العرب أنك تزوّجت هذه العلجة؟ فوالله لئن تزوّجتها لأمشين بين وصليها، فخاف عمر بعض هنات عبد الله، وبلغ الناس ما قال فيها، فخطبها أشراف قريش والعرب، فجعل يردّهم عنها، حتى خطبها مؤذن لعمر، فقال: يا زينب هل لك في هذا؟ وهو خير لك منهم، إن أولئك كانوا يتخذونك أمة، وإنك تتخذين هذا عبداً، قالت: نعم، فزوّجها إياه. خرّجه ثابت رحمه الله، وفسر قوله: وصليها، فقال: أحد الوصلين: موصل ما بين عجز البعير وفخذه، وهما الوركان.

والوصل الآخر: موصل الظهر في العنق، قال ذو الرمة:

إذا ابن أبي موسى بلالاً بلغته ... فقام بفأس بين وصليك جازر

وقد أخذ على ذي الرمة في هذا. ويشبه معنى البيت الحديث الذي يروي أن امرأة أخذت أسيرة مع لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبلت على ناقة من اللقاح حتى قدمت المدينة، ثم قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إني نذرت إن نجاني الله عليها أن أنحرها، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: بئسما جزيتها أن نجاك الله عليها ثم تنحريها. الحديث. وأحسن من قول ذي الرمة ومن قول المرأة؛ قول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

إذا أدنيتني وحملت رحلي ... مسيرة أربع بعد الحساء

فشأنك أنعم وخلاك ذم ... فلا أرجع إلى أهلي ورائي

يقول هذا وهو يسير في الغزو إلى مؤتة، حيث قتل هو وزيد وجعفر رضي الله عنهم. وقوله: وخلاك ذم، أي: فارقك الذم فلست له بأهل. وقد أحسن رضي الله عنه في هذا المعنى وأحسن من اتبعه في ذلك، كقول أبي نواس:

وإذا المطي بنا بلغن محمداً ... فظهورهن على الرجال حرام

وقول الآخر:

عوفيت من حل ومن رحلة ... يا ناق إن قربتني من قثم

إنك إن أوصلتنيه غداً ... أحيي لي اليسر ومات العدم

وقد عيب قول الشماخ أيضاً:

إذا بلغتني وحملت رحلي ... عرابة فاشرقي بدم الوتين

ذكر عن الحسن بن هانئ أنه كان يشنؤه إذا ذكر هذا البيت، وكان أبو تمام يشينه من أجل ذلك.

اقسام الوحي :

وتقدّم الوحي، والوحي: الذي أوحى إلى نبينا صلى الله عليه وسلم كان على سبع صور: أولها: ما يراه عليه الصلاة والسلام من الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ورؤيا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وحي. وقد قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فقال له ابنه: ﴿ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فدل هذا على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كان الوحي يأتيهم في النوم كما يأتيهم في اليقظة. ويحتمل أن يكون

جبريل عليه الصلاة والسلام جاء نبينا صلى الله عليه وسلم في المنام قبل أن يأتيه في اليقظة، توطئة وتيسيراً عليه ورفقاً به، لأن أمر النبوة عظيم، وعبؤها ثقيل، والبشر ضعيف. وثبت بالطرق الصحاح عن عامر الشعبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل به إسرافيل عليه الصلاة والسلام، فكان يتراآى له ثلاث سنين، ويأتيه بالكلمة من الوحي والشيء، ثم وكل به جبريل عليه الصلاة والسلام فجاءه بالقرآن والوحي، فهاتان صورتان. والثالثة: أن ينفث في روعه الكلام نفثاً، كما قال عليه الصلاة والسلام: إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها ورزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب. وقال مجاهد: وأكثر المفسرين في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾ [الشورى: ٥١] قال: هو أن ينفث في روعه بالوحي. والرابعة: أن يأتيه الوحي في مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليه. وقيل: إن ذلك ليستجمع به قلبه عند تلك الصلصلة، فيكون أوعى لما يسمع وألقن لما يلقى. والخامسة: أن يتمثل له الملك رجلاً، فقد كان يأتيه في صورة دحية بن خليفة، وكان لفرط جماله إذا قدم المدينة لم تبق معصر(*) إلا خرجت تنظر إليه. وقال ابن سلام في قوله تعالى: ﴿ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ﴾ [الجمعة: ١١] قال: كان اللهو نظرهم إلى وجه دحية، بفتح الدال وكسرها. والسادسة: أن يتراآى له جبريل عليه الصلاة والسلام في صورته التي خلقه الله تعالى فيها، له ستمائة جناح ينتثر منها اللؤلؤ والياقوت. والسابعة: أن يكلمه الله تعالى من وراء حجاب إما في اليقظة، كما كلمه في ليلة الإسراء، وإما في النوم، كما قال في حديث معاذ الذي رواه الترمذي، قال: أتاني ربي في أحسن صورة، فقال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟ فقلت: لا أدري، فوضع كفه بين كتفيّ فوجدت بردها بين ثندوتيّ، وتجلى لي علم كل شيء، وقال: يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى؟ فقلت: في الكفارات، فقال: وما هنّ؟ قلت: الوضوء عند الكريهات، ونقل الأقدام إلى الحسنات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فمن فعل ذلك عاش حميداً ومات حميداً، وكان من ذنوبه كيوم ولدته أمه. وذكر هذا الحديث، نقلت هذا من كلام الأستاذ، رحمه الله، على معناه مخلصاً ملخصاً.

وتقدّم الوجاء، ومنه حديث ابن مظعون أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله إني رجل تشق عليّ هذه العزوبة في المغازي، أفتأذن لي في الخصاء؟ قال: لا، ولكن عليك يا ابن مظعون بالصيام، فإنه يخضر. وقد تقدّم أنه يقطع شهوة النكاح،

(*) المعصر: الجارية أوّل ما تحيض لانعصار رحمها، وإنما خص المعصر بالذكر للمبالغة في خروج غيرها من النساء. اهـ نهاية.

والله أعلم. وكرهت طائفة من العلماء هذا الفعل بالبهائم، واحتجوا بما رواه البزار عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن صبر ذي الروح وعن خصاء البهائم نهياً شديداً، وبأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يكرهه ويقول: فيه إتلاف الخلق. وقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩] قال: هو الخصاء، وهو من أمر الشيطان، وكذلك الوسم. وأما مالك رحمه الله فقال: لا بأس بخصاء الأنعام، فيه صلاح للحومها وأكره خصاء الخيل. وفي الحديث: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى بكبشين أملحين موجئين هذا كله في الحيوان. وأما في بني آدم فحرام، ومن فعله بعبده أعتق عليه وكان ولاؤه له وعند غيره لبيت مال المسلمين. وحجة من قال بهذا ما خرج أبو داود في المملوك الذي جبّ سيده مذاكيره، فشكى ذلك العبد سيده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذهب فأنت حر، فقال: يا رسول الله على من نصرتي؟ قال: على كل مؤمن، أو قال: مسلم.

وذكر البزار من طريق ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: من مثل بمملوكه فهو حر، وهو مولى لله ورسوله. وخرج الإمام أبو حفص عمر بن شاهين رحمه الله في الناسخ والمنسوخ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من قتل عبده قتلناه، ومن جدعه جدعناه. ثم قال: ألفيت الخلاف في ذلك وذكر حديثاً عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: جاءت جارية إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت: إن سيدي اتهمني وأقعدني النار حتى احترق فرجي، فقال لها عمر بن الخطاب رضي الله عنه: هل رأى ذلك عليك؟ فقالت: لا، قال: فاعترفت له؟ قالت: لا، قال عمر: عليّ به، فأتي به، فلما رأى عمر الرجل قال: أتعذب بعذاب الله عز وجل؟ قال: يا أمير المؤمنين اتهمتها في نفسها، قال: أرأيت ذلك عليها؟ فقال الرجل: لا، قال: فاعترفت لك به؟ قال: لا، قال: والذي نفسي بيده لو لم أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا يقاد مملوك من مالكه ولا مولود من والده؛ لأقدتك بها، فعزره فضربه مائة سوط، ثم قال لها: اذهبي فأنت حرة لوجه الله تعالى، وأنت مولاة لله تعالى ورسوله، أشهد أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من حرق بالنار ومثل به فهو حر، وهو مولى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

أوّل من اتّخذ من الخصيان:

وذكر ثابت في الدلائل أن أوّل من اتخذ الخصيان من بني أمية هشام بن

عبد الملك، فأقبل مسلمة ليدخل على هشام، فقام إليه فتى هشام فدفعه في صدره وقال له: لا تدخل على أمير المؤمنين بغير إذن، فلما توصل مسلمة إلى هشام قال: يا أمير المؤمنين علامَ يجول هذا في قصرك؟ فوالله لقبلة من هذا أحب إليهن من عصد منا، قال: فأخرجه هشام. فسر ثابت العصد بالجماع، قال: وهو العصد والعزد والعسد، بالسين والزاي والصاد. ويقال: خصيان وخصية. يروى أن معاوية رضي الله عنه: دخل على ميسون بنت بحدل الكلبية ومعها خديج الخصي فاستترت منه، فقال لها معاوية رضي الله عنه: إن هذا بمنزلة المرأة فعلامَ تستترين منه؟ فقالت: كأنك ترى المثلة التي به أحلت له مني ما حرم الله، رضي الله عنها.

رجع الكلام إلى الذين يعذبون الناس بالخصاء، ولقد حدّثني بعض من أثق به من إخواني الصالحين عمّن حدّثه ممن يثق به أنه رأى في النوم أحد الولاة الذين كانوا يعذبون الناس في الدنيا وكان هذا الوالي ربما بنى الإنسان في الحائط وتركه حتى يموت جوعاً وعطشاً، وربما نفخه بالكير في دبره حتى ينشق، فرآه في النوم، فقال له: ما فعل الله بك؟ فأنشده:

من سره العبث في الدنيا بخلقة من ... يصوّر الخلق في الأرحام كيف يشا
فليحزن اليوم حزني عند سخطته ... معذباً ممتط جمر الغضا فرشا

رجع: ومعنى: صبر ذي الروح: أن تنصب الدجاجة أو الشاة أو ما فيه الروح فترمى بالسهام حتى تَموت. ومعنى أملحين: قال (ع): الُملحة والُملح: بياض يشوبه شيء من سواد، وكبش أملح منه، وعنب ملاحي: في حبه طول، يقال: ملاحي، بالتخفيف، وشاهده:

ومن تعاجيب خلق الله غاطية ... يعصر منها ملاحيّ وغربيب

ويقال أيضاً: ملاحي، بالتشديد، كما قال الآخر:

كعنقود ملاحية حين نوّرا

قال أبو حنيفة رحمه الله: من قال الملاحية، بالتشديد، شبهه بالملاح، وهو ثمر الأراك وفيه ملوحية. قال: والغربيب: اسم لنوع من العنب، والغربيب إذا أطلق لفظه ولم يقيد بذكر شيء موصوف به؛ فإنما يفهم منه العنب الذي هذا اسمه خاصة. انتهى كلامه.

قال الأستاذ رحمه الله: ولعلك أن تفهم من هذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ [فاطر: ٢٧]، فـ(سود) على هذا بدل وليس بنعت. قال غيره: ومن شأن العرب أن تنعت الألوان إذا ذكرتها، تقول: أسود حالك، وأسود غربيب، وأحمر قان، وأصفر

فاقع، وأبيض يقق. وقوله في البيت الأوّل: غاطية، معناه: مرتفعة، يريد الحبلة، وهي شجرة العنب، يصفها بالارتفاع من الأرض كأنها عريش، والله أعلم. ومن: غطى، بمعنى: ارتفع، قول حسان رضي الله عنه:

رب حلـــم أضـــاعه عـــدم الـــ ـــمـال وجهـل غطـى علـيه النعـيم

وقال الأستاذ رحمه الله: غطى، بتخفيف الطاء، أنشده يونس بن حبيب، قال: ومعناه: ارتفع وعلا كما تقدّم.

رجع. ويقال: ملح الرجل ملاحة: صار مليحاً، وأملح: جاء بملحة، وهي الكلمة المليحة. وملحت الشيء وأملحته: جعلت فيه من الملح بقدر ما يصلحه، وملحته: أفسدته. وملحت، بمعنى: أرضعت. وقد تقدّم الملح، والملح: الرضاع، وفي الحديث قول الرجل من بني سعد بن بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذ غنم سبي هوازن يوم حنين: لو كنا ملحنا للحارث بن أبي شمر أو النعمان بن المنذر ثم نزل منزلك هذا، لحفظ ذلك لنا، وأنت خير المكفولين، فاحفظ ذلك. ثم قوله: ملحنا، بمعنى: أرضعنا، وإنما قال ذلك لأنه عليه الصلاة والسلام كان مسترضعاً في بني سعد. والملاح: صاحب السفينة. والملاح، بالضم: من نبات الحمض. والممالحة: المواكلة. تقدّم: كبش أملح، وفي الحديث منه: إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار أتي بالموت كأنه كبش أملح، فيذبح على الصراط ويقال: خلود فلا موت. وجاء في التفسير في قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ ﴾ [مريم: ٣٩]، يعني: به ذبح الموت، إذ يؤتى به في صورة كبش أملح، وينادى أهل الجنة وأهل النار بالخلود. وقيل: يوم الحسرة: يوم يرث أهل الجنة منازل أهل النار التي كانت لهم في الجنة لو أطاعوا، لأنه ليس من نفس إلا ولها منزل في الجنة ومنزل في النار، فمن أطاع حصل له منزله من الجنة ومنزل الكافر من الجنة أيضاً، وحصل للكافر منزله من النار ومنزل المؤمن من النار أيضاً. والملاح: المليح، وفي حديث جويرية: إن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت عليّ فما هو إلا أن رأيتها فكرهت مكانها لأنها كانت حلوة ملاحة، ذكره ثابت. وقال: يقال: مليح وملاح. وذكر أبو حاتم عن أبي زيد يقال: امرأة حسانة في نسوة حسانات، وأنشد رحمه الله:

دار الفـتـات التـي كـنـا نقـول لهــا يــا ظبـيـة عطــلاً حــسانة الجـيـد

ويقال: رجل جسام في رجال جسامين. وكذلك الناقة والنوق، وهو العظيم الطويل. ورجل كرام من قوم كرامين من نسوة كرامات، وهم الكرام. قال الخطابي رحمه الله وذكر المرأة الملاحة وسماها جويرية بنت الحارث، وفسرها: الموصوفة

بالملاحة. وقال أبو عبيدة: العرب تحوّل لفظ فعيل إلى فعال، ليكون أشدّ مبالغة في النعت، وقال غيره: فإذا أرادوا التأكيد شدّدوا، فقالوا: رجل أمّان، أي: أمين. قال الأعشى:

ولقد شهدت التاجر الأمّـ ـان مورورداً شراؤه

ورجل قرّاء: للقارئ. قال الشاعر:

بيضاء تصطاد الغويّ وتستبي بالحسن قلب المسلم القرّاء

وقالوا: وضّاءة، من: الوضاءة، وهو الحسن، قال:

والمرء يلحقه بفتيان الندا خلق الكريم وليس بالوضاء

قلت: وفي القرآن العزيز من هذا: ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ﴾ [نوح: ٢٢]، فسروه: كبيراً. قال الأستاذ رحمه الله: الملاح أبلغ من المليح في كلام العرب، وكذلك الوضاء، والكبار كذلك مع الكبير، غير أنه لا يوصف الباري سبحانه وتعالى بهذا اللفظ فيقال فيه: كبار، بمعنى كبير، لأنه بنية الجمع، نحو: ضراب وشهاد، فلفظ: كبير، أبعد من الاشتراك وأدل على الوحدانية، وأما الملاح فأصلح ما فيه أنه مستعار من قولهم: طعام مليح، إذا كان فيه من الملح بقدر ما يصلحه، وكذلك إذا بالغوا في المدح قالوا: مليح قريح، أي: مطيب بالأفاوية، وهي الأقراح، ويدلك على بعد معنى البياض من الملاح قولهم في الأسود: مليح، وفي العينين إذا اشتد سوادهما. وجاء في التفسير في قوله تعالى: ﴿ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي ﴾ [طه: ٣٩]، قيل: ملاحة في العينين. قال الأصمعي: الحسن في العينين، والجمال في الأنف، والملاحة في الفم. وقالت امرأة خالد بن صفوان لبعلها: إنك لجميل يا أبا صفوان، فقال: كيف وليس عندي رداء الجمال ولا برنسه ولا عموده؟ يريد الطول وساد الشعر والبيض، ولكن قولي: إنك لمليح ظريف.

خرجت من شيء إلى غيره ولم أطق يا صاح أن أسكتا
ومن يكن يعلم علماً فلا يصلح إذ يعلم أن يصمتا

مقلوب البيت: حرف بين الضين:

وأجا وأحا وأخا وآخا وواخا إخاء وجل وحل

أجا وأحا: مصدران منصوبان من الباب الذي قبله، من: أج وأح، وأخا كذلك مثقل أخ وآخا، من قولك: آخيت بين الرجلين، أي: جعلت كل واحد منهما لصاحبه أخاً. وفي الحديث: آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه. وواخى مثله، يقال: آخيته وواخيته مواخاة وإخاء.

فرغ البيت على أن فيه واواً زائدة على الشكل في واخا، وناقصة من إخاء، بحسب الضرورة. وبقي من هذا الشكل مما لم يتزن: أجاء زيد؟ والألف للاستفهام، وأجأ، مقصور مهموز: اسم جبل، وله يقول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

جلبنا الخيل من أجأ وسلمى تخب ترائعاً خبب الركاب

وبقي من هذا الباب: أجاء، بمعنى: ألجأ. قال الله تعالى: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ [مريم: ٢٣]، قال ابن عباس ومجاهد رضي الله عنهما: ألجأها، ويقال معناه: جاء بها، وأصل الكلمة من المجيء، يقال: جاءت بي الحاجة إليك، وأجاءتني الحاجة إليك. قال زهير:

وجاء جاء معتمداً عليكم أجاءته المخافة والرجاء

وفي مثل: شر ما يجيئك إلى مخة عرقوب، يعني: يحوجك. ومن هذا الباب: أجأى، يقال: بعير أجأى بين الجؤوة والجأى، وهو سواد في غبرة وحمرة. قال زهير

أصك مصلم الأذنين أجنى

ويروى: أجأى، من الجؤوة المذكورة، وسيأتي البيت بكماله وتفسيره في آخر بيت إن شاء الله تعالى. ويقال من هذا اللون: كتيبة جأوى، أي: سوداء. والجوّ: جوّ السماء، وهو الهواء. وجوّ البيت: وهو داخله، لغة شامية. ومنه قول بعضهم لامرأته: اكفيني جواً أكفك براً، يعني: اكفيني شغل داخل البيت أكفك خارجه. ولذلك يقولون: الجواني والبراني، وربما كنوا بذلك عن أعمال القلوب وأعمال الجوارح. وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: لكل امرئ جواني وبراني، فمن يصلح جوانيه أصلح الله برانيه، ومن يفسد جوانيه يفسد الله برانيه. وكانت العرب تسمي اليمامة: جوّاً، قال الشاعر:

فاستنزلوا أهل جوّ من منازلهم وهدموا شاخص البنيان فاتضعا

ومن معكوس جوّ: وج، وهي أرض الطائف، وقد تقدّم في أوّل الباب. ومن مضاعف هذا الحرف الجؤجؤ، يهمز ولا يهمز، وهو الصدر، وجمعه: جآجئ. قال الشاعر

باد جآجئ صدرها ولهاً عني

فصل:

من الفوائد:

تقدّم في الحديث: آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه حين قدموا المدينة، فجعل مع أنصاري مهاجرياً، فائتلفوا أحسن ائتلاف، ولم يكن بينهم اختلاف،

رضي الله عنهم ونفعهم وحشرنا معهم. وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: هذا أخي، وكان حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخوين، وكانوا يتوارثون في أوّل الإسلام بتلك الأخوة، حتى أنزل الله الفرائض والمواريث. ثم انظر كيف كان فعلهم رضي الله عنهم، ورضاهم بحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم، وسخاؤهم وكرم طباعهم.

خرج البخاري في جامعه: لما آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع قال لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالاً فاقسم مالي نصفين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمها إلي أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوّجها، قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، ثم ذكر باقي الحديث. فانظر هممهم مع فقرهم الذي مدحهم الله تعالى به، فقال الله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ [الحشر: ٨]، رضي الله عنهم. ثم قالت الأنصار للنبي صلى الله عليه وسلم: اقسم بيننا وبينهم النخل، قال: لا، قالوا: يكفوننا المؤونة ويشركوننا في التمر، قالوا: سمعنا وأطعنا. ولما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم بني النضير قال للأنصار: إن شئتم قسمت بني النضير بينكم وبين المهاجرين، وأنتم على مواساتكم في ثماركم، وإن شئتم أعطيتها المهاجرين دونكم، وقطعتم عنهم ما كنتم تعطونهم من ثماركم، فقالوا: بل تعطهم دوننا ونمسك ثمارنا، فأعطاها رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرين، فاستغنوا بما أخذوا، واستغنى الأنصار بما رجع إليهم من ثمارهم.

تقدّم في البيت: أجأ، وهو اسم جبل. وفي الحديث في غزوة تبوك أن رجلاً ألقته الريح بجبلي طيء، وهما: أجأ وسلمى، عرف أجأ بأجأ بن عبد الحي، كان صلب في ذلك الجبل لما فجر بسلمى بنت حام، أو همّ بذلك، وصلبت سلمى بالجبل الآخر، فسمي بها، وصلبت العوجاء معهما أيضاً، وهي امرأة كانت تحضن سلمى، وكانت السفير بينهما فيما ذكر، فصلبت بجبل ثالث قريب منهما، فسمي الجبل بالعوجاء، والله أعلم.

وتقدّم: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ ﴾ [مريم: ٢٣]، والمخاض: دنوّ الولادة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: حملت به وولدته في ساعة. وقال مجاهد: حملت به في ستة أشهر. وقيل: ثمانية، وذلك آية لأنه لا يولد مولود لثمانية أشهر فيعيش. وكذلك أيضاً

لستة أشهر لا يعيش، وقد تقدّم. وجذع النخلة، يروى أنه كان جذعاً يابساً بغير رأس، وكان شتاء، فأنبت الله له رأساً وجعل فيه رطباً جنياً، وهو ما أخذ من الثمرة طرياً. فسبحان اللطيف الخبير الذي هو على كل شيء قدير.

مقلوبه أيضاً: الف بين حرفين:

وجــاح وجــاح وحــاج وخــاج وحــاح وخــاخ وخــل وخــل

يقال: جاحتهم السنة تجوحهم جوحاً وجياحة. ومنه: الجائحة. جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: لو بعت من أخيك تمراً وأصابته جائحة فلا يحل لك أن تأخذ منه شيئاً، لمَ تأخذ مال أخيك بغير حق؟. واجتاحهم العدوّ: أتى عليهم. وفي الحديث من هذا: فصحبهم الجيش فاجتاحوهم، نعوذ بالله من سخطه.

وخرج أبو داود أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن لي مالاً وولداً، وإن والدي يحتاج مالي، قال: أنت ومالك لوالدك، إن أولادكم من أطيب كسبكم، فكلوا من كسب أولادكم. ويقال: وجح الطريق: اتضح، وأوجحت النار، وأوجحت غرة الفرس: اتضحت. والوجاح: الستر، ويقال فيه: الإجاح، والهمزة مبدلة، كما قالوا: إكاف ووكاف، وقد تقدّم.

وأما حاج؛ فجمع حاجة وحاجات، كما يقال: ساعة وساعات، ويقال: باع منه الشيء مباوعة، كما يقال: مساومة. والحوج: الحاجات، وكذلك: الحوائج، وحاجة حائجة، وقد أحوج الرجل: إذا احتاج وأحوجه الله، والتحوّج: طلب الحاجة، وأصل حوائج: حواجي، ثم قلب. قال المطرز: حائجة وحوائج، هذا أصله، والحاج: ضرب من الشوك، ومنه الحديث الذي يروي أن ابن آدم لما قتل أخاه غضب الله على الأرض، فأنبتت الحاج والشوك، خرجه ثابت في الدلائل، قال: والحاج ضرب من الشوك. وخرّج أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل جاءه يشكو الحاجة: انطلق فاحتطب ولا تحقرن شوكاً ولا حاجاً، ففعل، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: هذا خير من أن تأتي يوم القيامة وفي وجهك نكتة المسألة، وقال عليه الصلاة والسلام للرجل الذي باع له القدح والحلس فيمن يزيد: انطلق إلى هذا الوادي فلا تدع حاجاً ولا حطباً ولا تأتني خمسة عشر يوماً، ذكره الخطابي، وقال: الحاج: شرب من الشوك، قال الشاعر

مــن حــسك الــتلعة أو مــن حاجهــا

ويقال في الحاجة: حوجاء ولكن توصل بلوجاء، يقال: أصابته حوجاء ولوجاء، وتصغيرها: حويجاء ولويجاء، تقول: ما لي في أمرك حويجاء ولا لويجاء، وهي بمعنى

الضر والفاقة، لاتصالها بلوجاء، من الالتجاء والحاجة والفقر والمسكنة والضراعة إلى الناس، كما أنشدني الفقيه أبو محمد عبد الحق لنفسه من قطعة يقول فيها:

والمـــــرء لا يـــــصغر مقـــــداره إلا إذا احـــتاج إلـــى الـــناس

ويقال: حاج يحوج حوجاً، إذا احتاج والتجأ، والحاجة أيضاً: من حوائج البيت، وهو قريب من الأوّل، لأنها إنما سميت بذلك للافتقار إليها، والحاجة أيضاً: الأمر يعرض في النفس، كما قال تعالى: ﴿ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾ [يوسف: ٦٨]، قيل في التفسير: خاف عليهم العين إذا دخلوا من باب واحد، وقيل: خاف أن يستراب بهم إذا دخلوا مجتمعين. والحاجة أيضاً: الحسد، من قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾ [الحشر: ٩] يعني الأنصار مما أوتي المهاجرون. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أعطاهم غنائم بني النضير ولم يعط الأنصار منها شيئاً، حاشا رجلين منهم كانا فقيرين، وهما: سهل بن حنيف وأبو دجانة، وقد ذكر أن الحارث بن الصمة كان ثالثهما، فلم تحسدهم الأنصار على ذلك، فمدحهم الله تعالى على ذلك فقال: ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾ أي: حسداً والله أعلم، ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩] وهي الحاجة التي يختل بها الحال، وأصله من الاختصاص، وهو: الانفراد بالأمر، فالخصاصة: انفراد بالحاجة.

حجا: ومقلوب هذه اللفظة: حجا، والحجا: العقل. ويقال: حاجيته فحجوته، إذا ألقيت عليه كلمة محجية مخالفة لمعنى اللفظ. وجاء في الدلائل: إنه لحجي به أن يفعل كذا، أي: حري به، وما أحجاه كذلك. وقال غيره: إنه لحج بكذا، كما تقول: حر وحريّ، أي: حقيق، ومثله: قمن وقمين. وقد قالوا: حر وحريّ وحري كله بمعنى، وقالوا في مثله: عس، قال المعري:

فـــإن مثلـــي بهجـــران القـــريض عـــسي

وتقول: أحج بهذا الأمر، أي: أحر به وما أحراه، وكذلك يقولون في مثل هذا: إنه لحري أن يفعل وحر. وفي الحديث من هذا: إنه لحر إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع. ومثل هذه الألفاظ جدير وخليق وقمن. ويقال في هذا: قمن بالفتح، وقمين، بالياء، بمعنى: حقيق بكذا ومنه قولهم: بالحر أن يكون كذا، كما يقولون: هو يتحرى، بمعنى: يقصد. والحجوى: هي المحاجاة، وتصغيرها: الحجيا، وهي الأحجية والأحجوة. ويقال: حجياك ما كذا، والحجا أيضاً: ما يبنى على السطوح من حاجز يمنع

من التردّي، وهو الأجار أيضاً. وقال الشاعر:

لا تمنع المرء أحجاء البلاد ولا تبني له في السماوات السلاليم

وجاء في الحديث: من بات على ظهر بيت ليس عليه حجا فقد برئت منه الذمة، أو قال: فلا يلومنّ إلا نفسه، ومن ركب البحر إذا التج أو ارتج فقد برئت منه الذمة. قال بعض العلماء: يريد ذمة الشهادة، والله أعلم. ومثله الحديث الذي يروى عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه أراد أن يبيت على سطح أجلح، ثم قال: كدت أبيت ولا ذمة لي، خرّجه ثابت. وقال: الأجلح الذي ليس له بناء يردّ الرجل. ويقال له أيضاً: الحواط. وقد روي في هذا الحديث: فرشنا له على سطح ليس له حواط، فقال: كنت أبيت ولا ذمة لي، وهو مشتق من المنع، مثل العقل يعقل صاحبه وسمنعه من أن يقع في هوّة الجهل. والحجا، مفتوح مقصور: الحصن، وجمعه أحجاء. والحجاء، بالمدّ والكسر: زمزمة المجوس، والفحل يحجو الشوّل، إذا هدر بها فانصرفت إليه. والحجاة: فقاعة ترتفع فوق الماء، والجمع حجوات. والحجوة: الحدقة. وحجأت بالشيء حجأ: فرحت به وكنت مولعاً به ضنيناً، يهمز ولا يهمز، قال الشاعر:

فإنـي بالجموح وأم بكر ودولح فاعلموا حجئ ضنين

ومن شكل حجا: خجا، بتقديم الخاء المنقوطة على الجيم، ومعناه: نكح، قاله يعقوب. وأما حاج: فاسم الفاعل من حج يحج، وربما قالوا في اسم الفاعل منه: حجاج، للمبالغة، كما يقولون في المخاصم بالحجاج المبالغ في ذلك: حجاج، وبه سمي الرجل. ومن حجاج الكثير الحج قول الشعبي، وقد سئل عن الأسود بن يزيد النخعي، فقال: كان صوّاماً قوّاماً حجاجاً. ومعنى الحج: القصد، قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ ﴾ [آل عمران: ٩٧] أي: قصده للعبادة. وحج علينا فلان، أي: قدم. قال الشاعر:

يحجون سب الزبرقان المزعفرا

والسب: العمامة، وكانت السادات يصبغون عمائمهم بالزعفران. وقد يقال أيضاً لجماعة الحجاج: حجيج وحاج، يقال: قدم الحاج، والحاج العام كثير. ومن شكل حجة: حجة التي يحتج بها الإنسان، كأنه يوضح عن نفسه. ومنه المحجة، التي هي الطريق الواضح. والحجة: السنة، وجمعها حجج، قال الله تعالى: ﴿ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ﴾ [القصص: ٢٧]. والحجة: واحدة الحجات وقد تقدّم. والحجة أيضاً: شحمة الأذن التي يعلق فيها القرط، وأنشدوا:

يرضعن صعاب الدر في كل حجة

البيت، قاله ابن دريد. قال: والحجة أيضاً: خرزة أو لؤلؤة تعلق فيها الأذن، وبها سميت حاجّة، بالتشديد. والحجة: واحدة الحجج، وحجحج الرجل: إذا نكص، وحججت البيت الحرام، وحججت الشجة، أي: أدخلت الميل فيها لتقيسها، والميل: المرود، ومنه الحديث: إن الشمس تدنو من الخلائق حتى تكون منهم بمقدار ميل، قال الراوي: فما أدري ما أراد بالميل، أمسافة الأرض أو الميل الذي تكحل به العين. والحجيج: جماعة الحاج، كما تقدم. والحجيج أيضاً: المشجوج الذي عولج، والشجة: حاجة، ويقال: الحجيج الذي اختلط الدم بدماغه، فيصب عليه السمن المغلي حتى يظهر الدم. والحجاج والحجاج والحجاج: العظم المستدير حول العين، والجمع أحجة، ومنه حديث أبي عبيدة في الدابة التي وجدوها على ساحل البحر، قال: وجلس في حجاج عينها نفر. والحجيج أيضاً: المحاج عن القوم والمخاصم عنهم، وهو من: حاج، وهي اللفظة التي في البيت، مأخوذة من: حج يحج، إذا غلب خصمه بالحجة، ومنه الحديث: فحج آدم موسى عليهما السلام. وحاج زيد عمراً، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وقال تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ﴾ [الأنعام: ٨٠]، والحجاج: فعال من هذا.

ومقلوب حاج: أجح يقال: أجحت الكلبة والسبعة، إذا أثقلت، فهي مجح، والجمع مجاح. وفي الحديث من هذا: مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بامرأة مجح، فسأل عنها، فقالوا: هذه أمة فلان، قال: أيلم بها؟ قالوا: نعم، قال: لقد هممت أن ألعنه لعناً يدخل معه في قبره، كيف يستخدمه وهو لا يحل له؟ أم كيف يورثه وهو لا يحل له؟ قال أبو عبيد: المجح: الحامل المقرب، والجحجاح: السيد، وجمعه: جحاجح، قال الفرزدق:

ترى الغر الجحاجح من قريش ... إذا ما الأمر في الحدثان عالا
قياماً ينظرون إلى سعيد ... كأنهم يرون به هلالا

ويأتي من مقلوبه أيضاً: جحا، وهو المضروب به المثل عند العامة. ومعكوس حج جح، تقول: جح الشيء يجحه جحاً، إذا سحبه، لغة يمانية. وكل شجر انبسط على وجه الأرض نحو الحنظل والبطيخ فهو عندهم الجح، وكأنهم يريدون: انجح على الأرض، إذا انسحب.

ومن مضاعفه: جحجح: نكص، ومصدره كذلك إذا أراد أن يقول ما في نفسه فأمسك. ومن شكله أيضاً: جخ، تقول: جخ الرجل، إذا تحوّل من مكان إلى مكان.

والجخجاخ من الرجال: الذي ليس لكلامه جهة، قاله ابن السكيت. وجخجخ: إذا صاح ونادى، قاله (ع). وقال: وجخ برجله وجخى بها، إذا نسف بها التراب في مشيه، وربما قالوا: خج بها وخجا بها، ويقال: خج ببوله، إذا رمى به حتى يخدّ به الأرض.

وأما: حاح، فلقب، وهو عندنا مشهور في رجل يعرف بالحاحي، وكأنه مأخوذ من صوت زاجر الطير، فإنه يصيح عليها في إبان الزراعة وعندما يصير الحب في السنبل: حاح حاح، ويرميها بالحجارة. ووقع في التعاليق على كتاب سيبويه لأبي علي الحسن بن علي بن أحمد النسوي ما يدل على أن العرب تستعمل هذه اللفظة. قال أبو علي رحمه الله: الألف في حاحيت بدل من ياء، كان أصله حيحيت، وليست هذه اللف بألف فاعلت نحو راميت، والدليل على ذلك قولهم في مصدره: الحيحاء والحيحاة، على مثال الزلزال والزلزلة. ووقع في كتاب العين: حاحيت بالكبش وحأحأت، وأنكر ذلك الزبيدي وقال: إنما هو حاحيت لا غير، وكذلك قال (ع): حوحأت بالعنز، إذا زجرتها فقلت لها: حو، وأنكر ذلك (ز)، وقال: الصواب: حوحيت. ويقال: حاح بضأنك وحاي. وقال أبو زيد: خاي بكذا، كذا رأيته بالخاء المنقوطة، وقال: معناه أعجل، جعله صوتاً مبنياً على الكسر يستوي فيه الاثنان والجمع، والمذكر والمؤنث، وأنشد للكميت:

إذا ما شطحن الحاديين سمعتهم بخاءبك الحق يهتفون وحيهل

وقال ابن سلمة: معناه خبت، وهو دعاء منك عليه، تقول: بخائبك، أي: بأمرك الذي خاب وخسر، كذا رأيته في كتاب تاج اللغة: بخائبك، متصلاً.

وأما خاخ، فموضع معروف بين مكة والمدينة، يقال له: روضة خاخ، ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن فيها امرأة معها صحيفة، الحديث. قال البخاري بعد ذكر هذا الحديث: قال أبو عوانة: خاخ وحاج تصحيف، وخاخ اصح، وهو موضع، وهشيم يقول: خاخ، ويروى في هذا الحديث: خاخ منوّناً، وخاخ مسكناً.

بقي من هذا الشكل: جاخ، فانظر، فما لم يعجبك من ألفاظ البيت فاجعل هذا عوضاً منه، قد نطقت به العرب. رأيت في طرة كتاب الجمهرة: جاخ الوادي السيل يجوخه جوخاً، وباخت النار تبوخ بوخاً. وقد تقدّم: جخ الرجل، قبل هذا، وكذلك جخجخ بتقديم الجيم على الخاء.

وبقي ما هو بتقديم الخاء على الجيم، تقول: خجت الريح تخج في هبوبها، إذا التوت، وهي الخجوج. والخجخجة: سرعة الإناخة والحلول. والخجخجة أيضاً:

الانقباض في موضع خفي. واختج الجمل في سيره: إذا لم يستقم.

وقال صاحب العين: الخجخاجة: الرجل الأحمق. وقال الجوهري: والهلباجة: الأحمق. قال الأحمر: لقيت أعرابياً فسألته: ما الهلباجة؟. قال: الأحمق الضخم الفدم، الذي جمع كل شر. ومن خاخ أحد شعراء ابن عباد رحمه الله.

تفسير القوافي دامت لنا ولكم العوافي :

جل وجل، أوّل ما أبدأ به من الكلام على الجيم هي من الحروف المجهورة، ومن الحروف الشديدة، ومخرجها من اللهاة، وأختها الشين في المخرج، ولذلك تجد كلمات كثيرة ينطق بها تارة وبهذه أخرى، لا سيما في لسان المعجم، وأكثر ما يوجد ذلك في أنسابهم، مثل البرجاني، وابن أبرج: رجل من المحدّثين. لما قرأته على الحافظ رحمه الله قال لي: الفظ به بين الجيم والشين، فسألته عنه فقال: هو السحاب بلغتهم، وربما كتبوا الحرف جيماً، وكتبوا عليه شيناً، حرصاً على البيان، ليعلموا كيف النطق بهذا الحرف. وأما العامة فعندهم من ذلك كثير، مثل: قجيه، وأصلها من القش، وكذلك: بلج، للذي يغلق به الباب، وكذلك فورجة وفنجة، وغير ذلك مما لا يحتاج إلى ذكره، ولذلك لا تجتمع الطاء والجيم في لسان العرب، ولذلك قالوا: الطاجن والطيجن؛ معرب عربته العرب، وهو الطاجن يقلى عليه، ذكر هذا الجوهري في تاج اللغة.

ومن شكل جيم: ختم، بالخاء المنقوطة والتاء، وهو معلوم، من: ختم، أي: طبع. وحتم بالهاء المهملة، وهو الواجب، وسيأتي. ومن شكله أيضاً: خيم، بالخاء والياء، جمعه خيمة وخيم بكسر الخاء وفتح الياء بعدها، وهو موضع، قال طفيل:

لمن طلل بذي خيم قديم ... يلوح كأن باقيه رسوم

ولجرير الرجز المشهور:

أقبلن من نهيان أو وادي خيم ... قد طويت بطونها طي الأدم

إذا قطعن علماً بدا علم ... حتى أنخناها إلى باب الحكم

وأما الكلام على تصريف حروف الجيم؛ فإن حذفت ياءه جاء منه: جم، ومستقبله: يجم. تقول: جم الشيء واستجم: كثر. والجمة: البئر الكثيرة الماء. ويروى أنه وضع لعبد الملك ابن مروان غداؤه، فقال لآذنه: ادع لي خالد بن يزيد بن معاوية، قال: مات يا أمير المؤمنين، قال: ادع لي روح بن زنباع الجذامي، قال: مات يا أمير المؤمنين، قال: ادع لي عبد الله بن خالد ابن أسيد، قال: مات يا أمير المؤمنين، قال: ارفع ويحك نغصت علينا، ثم أنشأ يقول:

ذهبت لداتي وانقضت آجالهم ... وغبرت بعدهم ولست بغابر
وغبرت بعدهم فأسكن مرة ... بطن العقيق ومرة بالظاهر
العيش منقطع وإن أحببته ... والموت موردة الهيوب النافر
ماء بمنقطع الموارد كلها ... فالبرّ وارد حوضها كالفاجر
ولقد علمت لأشربن بجمة ... يوماً ولست إذا وردت بصادر

والجمة: البئر الواسعة الكثيرة الماء، كما تقدّم، وهذا من الدلائل. واللدات: جمع لدة، وهو الذي يولد معك في وقت واحد أو قريب منه. ويجمع أيضاً: لدون. وكان العباس بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه لدة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومما يستحسن في اللدة قول ابن قيس الرقيات في امرأة:

لم تلتفت للداتها ... ومضت على غلوائها

أي: سبقت نظراءها وأقرانها. وقوله: مضت على غلوائها، يقال: كان ذلك في غلوائه، أي: حين يغلو فيطول، وغلا النبات يغلو غلواً: إذا طال، وكذلك غلا الصبي: إذا شب. ويقال للجارية إذا شبت شباباً حسناً وجاوزت لداتها: قد غلا بها عظم، قال الشاعر:

خمصانة قلق موشحها ... رود الشباب غلا بها عظم

رود الشباب: ناعمة الشباب. ومثله:

حتى إذا غلا بني واحتجن ... وزانه الشحم والشحم زين

أراد: زين، ففتح الياء للاتباع، كما كسر الجيم والراء الآخر في قوله:

علمنا إخواننا بنو عجل ... شرب النبيذ واصطفاقاً بالرجل

والجمة: الشعر الكثير، وهي أكثر من اللمة، والجمع جم وجمام، وتصغيرها جميمة. وفي الحديث من هذا: وكان للنبي صلى الله عليه وسلم شعر فوق الجمة ودون الوفرة. وقول عائشة رضي الله عنها: فوفى شعري جميمة. والجمة: القوم يسألون في الدية. قال الشاعر:

وجمة تسألني أعطيت ... وسائل عن خبري لويت
فقلت لا أدري وقد دريت

ومن الجم الذي هو الكثير قولهم: الجم الغفير، أي: المجتمعون. ويقال: جاؤوا جماء غفيراً، بالهمز والمد، وجماً غفيراً، والجماء: هي بيضة الحديد، تعرف بالجماء والصلعاء، فإذا جعل معها المغفر فهي غفير، هذا أصله، ومعناه: الاجتماع والإحاطة. وشاة جماء: لا قرن لها، والذكر أجم. ومن أمثالهم: عند النطاح يغلب الكبش الأجم،

يضرب مثلاً للرجل الذي لا سلاح له، لأنه يقال له: أجم. ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

إن تغفـــر اللهـــم تغفـــر جمـــا وأي عـــبد لـــك لا ألمـــا

أي: لـم يلـم بمعصية. وكـذلك فسر في التنزيـل: ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر: ٢٠]، والله أعلم. وجمع الأجم: جم، وهو من هذا الباب، قال الأعشى:

وإن معاويــــــة الأكـــــــرمين حـــسان الوجـــوه طـــوال الأمـــم
متـــى تـــدعهم للقـــاء الحـــرو ب تأتـــك خـــيل لهـــم غيـــر جـــم
وأمـــا إذا ركـــبوا فالوجـــو ه فـي الـروع مـن صـدأ البيض حـم

معاوية: قبيلة. ويستشهد بقافية البيت الأول في باب أمة التي هي القامة، وجمعها أمم كما رأيت وبقافية البيت الثاني على هذا الباب. وأما الثالث من صدأ البيض حم، في الفصل بعد هذا الأحم الأدهم، وجمعه حم، خرج البيت الثاني أبو عبيد رحمه الله، وأنشده

متـــى تـــدعهم لقـــراع الكمـــاة

واستشهد به على قول ابن عباس رضي الله عنهما: أمرنا أن نبني المساجد جماً، والمدائن شرفاً، وفسره بنحو مما تقدّم من قولهم: شاة جماء، إذا لـم يكـن لها قرن، وكـذلك الرجل الـذي لا سلاح معه، وكـذلك البناء إذا لـم يكـن لـه شرف فهو أجم، وجمعه جم. ويقال: جم الفرس يجم جماً، ويجم أيضاً: إذا عفا من التعب. وقال أبو زيد: جم وأجم وأجمه أنا كـذلك جمامة: إذا ترك الضراب، ويقال: أعطني جمام فرسك. وجمت البئر تجم وتجم جموماً: إذا تراجع ماؤها، وضم الجيم في البئر أكثر من كسرها في المستقبل. وفي الحديث: من أحب أن يستجم له الرجال قياماً وجبت له النار، أي: يستجمعون له قائمين. وجمة الركي: معظم مائها، والجمع جمام، قال الشاعر

جمـــام الـــركايا أنكـــرتها المـــواتح

ويقال: أجمت الْحاجة، حانت. والْجميم: النبات الكثير. والْجمام: الكيل إلى رأس الْمكيال.

ومن مضاعفه: جمجم في صدره شيئاً، إذا أخفاه ولم يبده. والمصدر: الجمجمة، ويكون ذلك من غير عيّ. والجمجمة: القحف، وهو مستقر الدماغ، وجماجم العرب: القبائل التي تجمع البطون، فينسب إليها دونهم، إذا قلت: كلبي؛ استغنيت أن تنسب إلى

شيء من بطونه، وهم السادة أيضاً.

مج: ومعكوس جم: مج التراب من فيه والماء يمجه مجاً: رمى به، وهو المجاج. ومجاج العنب: شرابه. ومجاج المزن: مطره. ومجاج النحل: عسله. وللجراد مجاج. ومن الرواة: محمود بن الربيع، وكان صغيراً، ولكنه عقل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعقل مجة مجها في وجهه من دلو في بئرهم، فعد بذلك من رواة الصحابة رضي الله عنهم. وهذا من النبي صلى الله عليه وسلم من حسن خلقه وممازحته لأصحابه حتى للصبيان. وقد نضح في وجه زينب بنت أم سلمة نضحة من ماء، فما يعرف كان في وجه امرأة من الجمال ما فيها. وأتي بدلو من ماء زمزم فمج فيه، فصار أطيب من المسك صلى الله عليه وسلم. والمج: حب كالعدس. والمج، بضم الميم، والبج: فرخ الحمام. قال ابن دريد: ولا أعرف ما صحته. والمأج: الأحمق، وقد تقدّم.

ومن مضاعفه: المجمجة، تخليط الكتاب، إذا ضربت عليه بالقلم أو غيره فهو مجمج.

حم: ومن شكل جم: حم، تقول: حم الله له كذا وكذا، إذا قضاه، وأحمه أيضاً، وينشد

ولـيـس لـشـيء حـمـه الله دافـع

وينشد على أحم بالألف

أحـم الله ذلـك مـن لقـاء

أي: قضاه. وفرس أحم بيّن الحمة، وهي بين الدهمة والكمتة. والحم: الشحم المذاب، فما بقي منه فهو حمشة، قال الشاعر يصف المطر وانسكابه:

كأنـه لمـا وهـى سـقاؤه وانهـل مـن كـل غمـام ماؤه

حـم إذا أحمـشـه قـلاؤه

يروى أحمشه بالحاء المهملة وبالخاء المنقوطة، أي: أحرقه، من قولهم: سنة حموش، إذا أحرقت النبت. ومن الحم قول مسلمة بن عبد الملك رحمه الله: أقل الناس في الدنيا حماً أقلهم في الآخرة هماً، خرجه ثابت، وقال: الحم: المال، وأصله الشحم، ضرب مثلاً للمال، كما يقال: فلان ما به طرق، إذا كان ضعيفاً. وأصل الطرق: الشحم. ويقال: الحم ما أذبت من إهالته، والواحدة حمة وأنشد ابن الأعرابي

يهـم فـيه القـوم هـم الـحم

قال: هم الرجل الشحم يهمه هماً، إذا أذابه. ويقال: همك ما أحمك، أي: أذاب

جسمك هذا الحديث الذي يقلقك. وأما الحمة مخففة فهي حدّة السم، ومنه الحديث: لا رقية إلا من عين أو حمة. وحم الرجل من الحمى فهو محموم. ويقال: أحمه الله أيضاً. وحمم الفرخ: إذا نبت زغبه وكذلك الرأس إذا حلق ثم نبت شعره. والحمام: قضاء الموت. وحممت وجه الرجل: إذا سودته بالحمم، وهو الفحم، واحدته حممة، ومنه حديث اليهودي الذي رجمه النبي صلى الله عليه وسلم حين سأل اليهود عن فعلهم بالزاني قالوا: نحممهم ويفضحون. واليحموم: الدخان.

ومن شكل حم: حم، اسم السورة، وقد تقدّم الكلام فيه في أوّل الكتاب عند فواتح السور. وفي الحديث منه: كان شعار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق؛ حم لا ينصرون. وقال الشاعر:

يذكرني حم والرمح شاجر فهلا تلا حم قبل التقدم

ومن شكل حم أيضاً: حم، وهو قريب المرأة، كابن العم ونحوه، وفيه لغات: حم، كما تقدّم، وحما مثل قفا، وحمو، وحمء. وفي الحديث من هذا وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن دخول الرجال على النساء؛ فنهى عن ذلك، فقيل: يا رسول الله أرأيت الحمو، قال: الحمو الموت. وتقدّم أحم.

مَحا: ومعكوسه: محا، يقال: محوت أمحو، ومحيت أمحي. وفي حديث علي رضي الله عنه: ما أنا بالذي أمحاه، يعني اسم النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن مضاعفه: الحمحمة، صوت الخيل، حمحم الفرس حمحمة: إذا ردّد الصوت ولم يصهل كالمتنحنح. وأسود حمحم وحماحم: شديد السواد.

مح: ومعكوسه: مح. تقول: مح الثوب وأمح يمح ويمح محوحاً: إذا أخلق، فهو ممح. وخرج مسلم عن الربيع بن سبرة في حديث متعة النساء أن أباه غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في فتح مكة، قال: فأقمنا بها خمسة عشر ثلاثين بين ليلة ويوم، فأذن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في متعة النساء، فخرجت أنا ورجل من قومي ولي عليه فضل في الجمال، وهو قريب من الدمامة، مع كل واحد منا برد، فبردي خلق، وأما برد ابن عمي فبرد جديد غض، وذكر الحديث بطوله، وكيف تلقتهما المرأة وقالت لأحدهما: إن برد هذا خلق. وفي رواية: إن برد هذا خلق مح.

والمح: صفرة البيض، وخالص كل شيء: محه. ورجل محاح: للذي يرضى بالكلام بلا فعل. ومن مضاعفه: رجل محمح، قالوا: خفيف نزق، وقالوا: ضيق بخيل. وقد قيل في هذا: رجل محامح، يوصف به البخيل، وقد تقدّم المحاح.

خم: ومن شكل حم: خم، تقول: خم اللحم يخم ويخم، وأخم خماً وخموماً

وإخماماً: إذا تغيرت رائحته، وأكثر ما يستعمل في المطبوخ، فأما النيء فيقال: صلّ وأصلّ، وسيأتي في باب الصاد إن شاء الله تعالى. قال الشاعر:

وشمة من شارف مزكوم ... قد خم أو زاد على الخموم

ويروى:

وقبلة من شارف معكوم ... .

الشارف: الشيخ والناقة المسنة، ولا يقال للمذكر، إنما يقال له: عود. وتقول: خممت البيت أخمه خماً، إذا كسحته. والمخمة: المكسحة. والخمامة: الكساحة. وكذلك القمامة والكناسة، والمقمة والمخمة: المكنسة. ورجل مخموم القلب: إذا كان نقياً من الغل. وغدير خم: معروف، وقد تقدّم أنه على ثلاثة أميال من الجحفة يسرة على الطريق. وخم أيضاً: بئر بمكة شرفها الله تعالى، حفرته بنو كلاب، ومنه قول الشاعر

ولا تسقني إلا بخم أو الحفر

والحفر: بئر أيضاً، قال الشاعر:

وسقيت بالماء النمير ولم ... أبرد الأطم حماة الحفر

خرجه ثابت وفسره، قال: قال قطرب: الماء النمير: الذي يمسي عليه المال ملحاً كان أو عذباً. وقال الأصمعي: ماء نمير، إذا كان مريئاً. وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رجلاً صنع له طعاماً فدعاه، فلما فرغ قال: الحمد لله الذي أطعمنا الخمير وألبسنا الحبير وسقانا النمير. قال: والحبير: الحبرة، وأما النقاخ فهو الماء العذب. وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم لما شرب من دومة قال: هذا النقاخ. فسره الخطابي بأنه العذب كما تقدّم. قال: وسمي نقاخاً لأنه يكسر العطش، والنقخ: الكسر، وأنشد:

فإن شئت حرمت النساء عليكم ... وإن شئت لم أشرب نقاخاً ولا بردا

قال: والمسوس في العذوبة دون النقاخ، والفرات: أعذب العذب.

مخ: ومن معكوس خم: مخ، وهو ما أخرج من عظم. وسيأتي الكلام عليه في باب الراء إن شاء الله تعالى. ومن مضاعفه: المخمخة، تقول: مخمخت ما في العظم وتمخمخته، وسيأتي.

جي: فإن حذفت الميم من لفظة جيم بقي: جي، وجي: بلد معروف بأصبهان، قاله لي الحافظ رحمه الله، وأنشد لنفسه من قطعة مطوّلة:

سقيا لأيام بجيّ قد مضت ... لي بين أهل الفضل من خلان

أهــل الفــصاحة والبــراعة معــشر فاقــوا الــشيوخ وهــم مــن الــشبان

انظرها بكمالها في التكميل. وهو بلد سلمان الفارسي رضي الله عنه، جاء عنه أنه قال: كنت رجلاً من أهل جي. وقال ابن دريد: الجي، غير مهموز: جفان تمسك الماء، الواحدة: جية، وجيء، بالهمز: أمر من: جاء. وجيء: مبني لما لم يسم فاعله. قال الله عز وجل: ﴿ وَجِاىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ [الفجر: ٢٣]، أعاذنا الله منها.

حي: ومن شكله: حي، ضد ميت. والحي: من أحياء العرب. وبنو حي: بطن من العرب. ومن أسماء رجال الحديث: حي، وكنيته: أبو حية. والحي: الحياة، قال الشاعر:

وقــــد نــــرى أن الحــــياة حــــي

وحي على كذا وكذا، أي: عجل. وحيهل كذا وكذا، أي: عجله، قال الشاعر:

بحــــيهلا يــــزجون كــــل مطــــية

وقال أبو الخطاب: فإنَّ أوّل الأذان: حيهل الصلاة، نصبوا الصلاة والفلاح على الإغراء والتحضيض، ثم إن بعضهم ألغى: هل، وأتى مكانها: على، وذلك على إظهار المعنى، فجروا الصلاة والفلاح. وقال الأصمعي: قال بعضهم: حي على الثريد، أي: عجلوا على الثريد. وجاء في الحديث: إذا ذكر الصالحون فحيهل بعمر، أي: عجل بذكر عمر. ويقال: حيهلا وحيهل وحي هل بعمر، من كتاب ابن السكيت. وقد يقولون: حي، من غير أن يقولوا: هل، من ذلك قولهم في الأذان: حي على الصلاة حي على الفلاح، وإنما هو دعاء إلى الصلاة والفلاح. قال ابن أحمر:

أنــشأت أســأله مــا بــال رفقــته حــي الحمــول فإن الراكب قد ذهبا

قال: أنشأ يسأل غلامه كيف أخر الركب.

وحكى سيبويه عن أبي الخطاب أن بعض العرب يقول: حي هل الصلاة، يصل بها كما يوصل بـ على، فيقال: حي هل الصلاة، ومعناه: ائتوا إلى الصلاة واقربوا من الصلاة وهلموا إلى الصلاة. وقد حيعل المؤذن، كما يقال: حوقل وتعبشم، مركب من كلمتين. قال الشاعر:

ألا رب طــيف مــنك بــات معانقــي إلــى أن دعــا داعــي الــصلاة فحيعلا

وربما ألحقوا به الكاف فقالوا: حيهلك، كما يقال: رويدك، والكاف للخطاب فقط ولا موضع لها من الإعراب، لأنها ليست باسم. قال أبو عبيد: وسمع أبو مهدية الأعرابي رجلاً يدعو بالفارسية رجلاً يقول: زوذ زوذ، فسأل أبو مهدية عنها، فقيل له: يقول: عجل عجل، فقال: هلا يقول حيهلك؟ أي: هلم وتعال، وقول الشاعر:

هــــــيهاؤه وحــــــــيهله

فإنما جعله اسماً ولم يأمر به أحداً، وسيأتي طرف من هذا المعنى في باب الهاء إن شاء الله تعالى.

جل: فرغ الجيم. بقيت القوافي. قافية أوّل بيت: وجل وجل. أما جل الشيء فمعناه: عظم فهو جلال وجليل، ومنه قول الناس: جل الله، عظم ملكه وشأنه. والجلل: العظيم، والجلل: الصغير، وهو من الأضداد. ويستشهد على الجلل الصغير بقول المرأة من الأنصار التي قتل أبوها وزوجها وأخوها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد، فلما نعوا لها قالت: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالوا: خيراً هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل. وجل الرجل: إذا كبر من السن، وروى قوم بيت جميل:

وجـــنّ اللواتـــي قلـــن عـــزة جلـــت

أي: كبرت. والرواية المشهورة: جنت. ويقال: جلت الهاجن عن الولد أي: صغرت. والهاجن: الصبية الصغيرة تزوج قبل بلوغها، وكذلك الصغيرة من البهائم يقال لها أيضاً: هاجن. يقال: جلت العلبة عن الهاجن، أي: كبرت العلبة، والعلبة: إناء يحلب فيه، وهو إناء كبير، وقد تقدّم. وجل كل شيء: عظمه. والجل: نقيض الدق، ومنه الحديث: اللهم اغفر لي ذنبي كله دقه وجله. والجل: سوق الزرع المحصود، ومنه حديث عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: قال يحيى بن يحيى الغساني: كتبت إليه أسأله عن رجل أحرق جلاً في براح فطارت شرارة فأحرقت شيئاً لجاره، فكتب إليّ عمر بن عبد العزيز: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: العجماء جبار، وأرى أن النار جبار، خرجه ثابت وقال: الجل: سوق الزرع إذا حصد عنه السنبل. قال: وقد روي أيضاً حديث مرفوع في النار عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: العجماء جرحها جبار والمعدن جبار والنار جبار، وفي الركاز الخمس، قال: وكانت العرب تسمي السيل جباراً، أي: لا يودي ما قتل ولا يقوّم ما أفسد. والجلة: وعاء من خوص، وربما جعل فيها التمر، وجمعها جلل، قال الشاعر:

وعـــندهم البرنـــي فـــي جلـــل ثجـــل

والأثجل: العظيم البطن، ومنه قول الشاعر:

بتـــنا وجلتـــنا الـــصهباء بيـــنهم كـــأن أظفـــارهم فـــيها الـــسكاكين
فأصـــبحوا والـــنوى عالـــي معرســـهم ولـــيس كـــل الـــنوى يلقـــى المـــساكين

والجلة: البعر، والإبل الجلالة: التي تأكل العذرة. ومنه الحديث: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لبن الجلالة. وفي حديث آخر: عن أكل الجلالة وألبانها، وزاد

الدارقطني رحمه الله في هذا الحديث: وأن لا تركب حتى تعلف أربعين ليلة، وذكر ضعف الحديث. وأما الجل فمعروف: جل الدابة، وحكي جل، بالفتح: لغة تميمية. وجلال كل شيء: غطاؤه، ومنه جلال البدن. وجل: موضع بالعراق، وجل، بالفتح، وجلان: حيّ من العرب. والجل أيضاً، بالضم: الورد، فارسي معرب، قال الأعشى:

وشاهدنا الجل والياسمين والمسمعات بقصابها

يعني المزامير. ويروى: بأقصابها، جمع قصب، وهي: الأمعاء، ومنه: يجر قصبه في النار، وسيأتي. والمجلة: الصحيفة. وكذلك يروى بيت النابغة:

مجلتهم ذات الإله ودينهم

يريد: الصحيفة، كأنهم كانوا نصارى فأراد الإنجيل. وفي الحديث في الذي قال: عندي مجلة لقمان. والجليل يقع على الجلة، ويعني به السيد الكبير، ويعني بالسيد أيضاً: الجليل الكبير. خرج ثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الجذع من الضأن خير من السيد من المعز. قال داود بن قيس: السيد: الجليل. قال غيره: وكذلك هو عندنا، ألم تسمع قول الأعشى:

قد حملوه حديث السنّ ما حملت ساداتهم فأطاق الحمل فاضطلعا

أي: اضطلع وهو صغير السن بما لا يضطلع به إلا الجلة الأكابر. وفي الحديث: فقالت امرأة جليلة كأنها من نساء مضر. والجليل أيضاً: الثمام، واحدته ثمامة، يعرف ذلك بلال بن حمامة. وقد تقدّم قوله وهو عليل:

.... وحولي إذخر وجليل

مع قول أبي بكر في مرضه رضي الله عنهم. ومن أحسن ما رأيت في هذه اللفظة:

بطل تنازل فارسين بطعنة فرأيتموه أتى بذاك جليلا

هذا يقوله بكر بن النطاح. والجلجل معروف، ودارة جلجل: مكان يعرفه امرؤ القيس لا كان إذ ينشد القوم ولا سيما يوم قال الكلبي: دارة جلجل عين كندة، وسمي الجلجل جلجلاً لشدة صوته، يقال: جلجل الحجر والرعد. ورجل مجلجل: شديد الصوت.

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها: ودخل عليها بجارية وعليها جلاجل يصوّتن، فقالت: لا تدخلنها عليّ إلا أن تقلعن جلاجلها، وقالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا تدخل الملائكة بيتاً فيه جرس. وقال في حديث آخر: لا تصحب الملائكة رفقة فيها كلب ولا جرس. وقال في حديث آخر: الجرس من أمر الشيطان. خرج هذا والذي قبله مسلم رحمه الله. والجلجلان: ثمر الكزبرة.

جل: وبقي من هذا الشكل: جل، أمر من: جال يجول جولة وجولاناً. وجوّلت في الأرض. وفي الحديث: فكانت للمسلمين جولة، أي: زوال عن مواضع القتال، والجولان: التراب تجول به الريح، والجول: معقول القلب، والجول والجال: جانبا البئر.

لج: ومن معكوس جل: لج يلج ويلج لجاجاً، إذا أمحك. ويقال: لجاجة. ومنه الخبر: الخير عادة والشر لجاجة، وقد تقدّم بسنده. وفي الصحيح: لأن يلج أحدكم في يمينه أثم له عند الله من أن يعطي الكفارة التي أوجب الله عليها، أو كما جاء. ولجج القوم: دخلوا لجة البحر. وجمع لجة: لج ولجج. وفي حديث ابن الزبير رضي الله عنهما: لو وضعوا اللج على قفيّ، قالوا: يعني السيف، شبه بريقه بلجة البحر. ويقال: التج الظلام، والتجت الأصوات: اختلطت ولم تفهم. وسمعت لجة القوم، أي: أصواتهم.

وخرج البخاري في الجهر بالتأمين: أمن ابن الزبير ومن وراءه حتى إن للمسجد للجة، وفيه أيضاً: رجة، بالراء. وجاء في حديث التكبير بمنى: حتى ترتج منى تكبيراً. وخرج في حديث عذاب القبر: ضج المؤمنون ضجة. واللجلجة: كلام غير بين. وتلجلجت اللقمة في الفم: إذا لم يسغها آكلها، كما قال زهير:

يلجلج مضغة فيها أنيض

وسيأتي البيت في باب الضاد إن شاء الله تعالى.

واللج: من أسماء السيف، وقد تقدّم. وتلجلج بالشيء: تبادر به. وتقول العرب: الحق أبلج والباطل لجلج، وهو المختلط الذي ليس بمستقيم. والأبلج: المضيء المستقيم. وقيل لأعرابي: ما البرد؟ قال: إذا دمعت العينات وقطر المنخران ولجلج اللسان، خرجه ثابت. ومن اللجلجة حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: ليس يهودي يموت حتى يؤمن بعيسى فقيل لابن عباس: أرأيت إن ضربت عنق أحدهم؟ قال: يلجلج لسانه. وقال الشاعر:

فلجلج بالتوحيد من غير نية ... مخافة أن تلقى علاوته صبرا

وسيأتي تفسير العلاوة. واليلنجج واليلنجوج والألنجوج: عود طيب الريح. وبقي

من هذا الشكل: لج، أمر من ولج يلج. وسيأتي إن شاء الله تعالى.

حلّ: وأما قافية البيت الثاني: وحل وجل؛ فكلام في معنى الكلام قبله، لأنه وحاه وجاء وحل وجل، فيكون وجل فاعل بـ حل، أي: نزل فزع وخوف، فالكلام أوّلاً في: حل. يقال: حل بالمكان يحل حلولاً، إذا نزل به. وحل العقدة يحلها حلاً . وحل الدين محلاً ، أي: وجب. وفي التنزيل: ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ [الحج: ٣٣]، ﴿ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ﴾ [الفتح: ٢٥]. وأحل من إحرامه إحلالاً فهو حلال ومحل. والمحل: الذي لا عهد له. ويسمى القرآن: الحال المرتحل. سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أيّ الأعمال أفضل؟. قال: الحال المرتحل، قيل: وما الحال المرتحل؟ قال: الخاتم المفتتح حينئذ. والمحل: الذي لا يرى حرمة الشهر الحرام ولا البلد الحرام، وأنشد:

فقلت له مرحباً مرحباً ... بوجه المحلة أخت المحل

وتقول: حل من إحرامه أيضاً، فهو حلال. وفعل ذلك في حله وحرمه، أي: وقت إحلاله وإحرامه. وقرئ: (وحرم على قرية)، و﴿ وَحَرَٰمٌ ﴾ أي: واجب ﴿ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٥] أي: لا يتوبون. يقال: حرم وحرام، كما يقال: حل وحلال، وأحل أيضاً معناه: حلق. وفي الحديث الذي ذكر فيه اعتمار النبي صلى الله عليه وسلم من الجعرّانة مع محرش بن عبد الله، وفيه: وأحله محرش، يعني: حلقه. وجاء في الحديث أيضاً من قوله عليه الصلاة والسلام: أحلوا الله يغفر لكم. فسره ثابت قال: يعني أسلموا. قال: وفي موضع آخر: الإحلال: الحلق، وهو شبيه بقوله عليه الصلاة والسلام: يرحم الله المحلقين. والله أعلم.

والحل: خلاف الحرم. والحل: الحلال. ومنه قولهم: هذا لك حل وبل، وقد تقدّم القول في: بل؛ أنه اتباع وأنه مباح، وقال الله تعالى للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ [البلد: ٢]، وهذه الجملة في موضع الحال، والمعنى: أقسم به محلولاً أنت فيه، ولم يكن يوم فتح مكة حلاً غير رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده، قاله ابن يزيد. ومن الحل الذي هو ضد الحرم قول عبد الله بن عبد المطلب

والد رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين مرّ برقيقة بنت نوفل أخت ورقة بن نوفل، وهو مع أبيه عبد المطلب، يوم فدي بالإبل، فدعته إلى نفسها، ورأت في وجهه نور النبوّة، وأحبت أن تحمل منه فتلد هذا النبي المبارك صلى الله عليه وسلم، فقال لها عبد الله:

أمـــا الحـــرام فالممـــات دونـــه والحـــل لا حـــل فأســـتبينه
فكـــيف بالأمـــر الـــذي تبغيـــنه يحمـــي الكـــريم عرضـــه وديـــنه

ثم دخل على آمنة فحملت به صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم. ويشبه هذا قول بعضهم:

أمـــا الحـــرام فلـــست أركـــب محـــرما

والحل، بفتح الحاء: دهن السمسم. ومحلة القوم ومحلهم: موضع حلولهم، وقد تقدّم بيت النابغة: مجلتهم، ويروى: محلتهم ذات الإله. يريد الشام والأرض المقدسة. والمحلة: القوم النزول. ومكان محلال: يكثر فيه الحلول، ويجمع الحال على حلال وحلل وحلول. وتحلة اليمين: تحليلها. وفي القرآن العظيم: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [التحريم: ٢]. وفي الحديث: لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم، قالوا فيه قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] أي: إلا داخلها، فيجعلها الله على المؤمنين برداً وسلاماً، كما جعلها على إبراهيم عليه الصلاة والسلام. ويقال: ضربه ضرباً تحليلاً، أي: غير بالغ. ومنه قول زهير بن أبي سلمى:

نجائـــب وقعهـــن الأرض تحلـــيل

وكذلك قول امرئ القيس:

غـــذاها نميـــر المـــاء غيـــر المحلـــل

يقول: ليس بيسير، ويحتمل أن يريد: غير منزول عليه فيكدر ويفسد. والحليل والحليلة: الزوج والمرأة. والحلال: مركب من مراكب النساء. والمحلل في غير هذا: الذي يتزوّج المرأة فيحلها لزوجها الذي طلقها، ويسميه الناس: التيس المستعار، وهذه التسمية صحيحة، خرج الدارقطني عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم: ألا أخبركم بالتيس المستعار؟ قالوا: بلى، قال: هو المحلل. ثم قال: لعن الله المحلل والمحلل له. وجاء عن عمر رضي الله عنه أنه ما أتي بحال ولا محل له إلا رجمهما، ذكره أبو عبيد رحمه الله وقال: يقال: رجل حال، إذا كان محفوظاً، وهو من: أحللت المرأة لزوجها. وإنما الكلام أن يقال: محل. انتهى كلامه.

والحلال: متاع الرجل، والحلال: جماعات بيوت الناس، والبيوت أربعة: ما كان من مدر، فهو بيت. وما كان من وصف أو وبر، فهو خباء. وما كان من جلود، فهو طراف. وما كان من حجارة، فهو أقنة. والحلال أيضاً: متاع الرجل. قال الأعشى:

وكأنها لم تلق ستة أشهر ... ضراً إذا وضعت إليك حلالها

قال الأصمعي: هو كنذبان لو أراد في ستة أشهر الصين لأتاه. وقال يعقوب: يقال رجل كنذبان وكيذبان. وقال غيره وقد صرف لفظة كذب: ويقال كذب يكذب كذباً وكذباً فهو كاذب وكذاب وكذوب وكيذبان ومكذبان ومكذبانة وكذبة، مثل: همزة، وكذبذب مخففاً ويقال مشدداً، قال:

وإذا أتاك بأنني قد بعتها ... بوصال غانية فقل كذبذب

والكذّب: جمع كاذب، كراكع وركّع. والكذُب: جمع كاذب، مثل: صابر وصُبُر. وقد قرأ بعضهم: (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكُذُب) نعتاً للألسنة. وقالوا في قوله تعالى: ﴿ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ [يوسف: ١٨]: طري.

رجع. والحلان: الجدي. ويقال فيه أيضاً: حلام، بالميم، وسيأتي. والحلة: موضع حزن وصخور. والحلة: إزار ورداء، لا يقال حلة لثوب واحد. والحلة: بقلة شائكة، وجمعها: حلل، قاله ابن دريد.

والإحليل: مخرج البول من الذكر، ومخرج اللبن من طبي الفرس وخلف الناقة. وأحلت الشاة فهي محل: إذا نزل اللبن في ضرعها بلا نتاج.

حلحل: ومن مضاعفه: حلحل، يقال: حلحلت الشاة وحلحلت بالشاة: إذا قلت لها: حل حل. وفي الحديث من هذه اللفظة، وستأتي في باب العين إن شاء الله تعالى. والحلاحل: السيد الشجاع. وحلحل: موضع، ذكره ابن دريد. وحلحلة: اسم رجل، وهو حلحلة بن قيس سيد فزارة.

لح: ومعكوس حل: لح، تقول: لحت عينه ولححت لحاً ولححاً: إذا التصقت أجفانها لكثرة الدمع، وتراكم أشفارها وغلظت، ومنه قولهم: ابن عمه لحاً، إذا ألصق نسبه بنسبه. وألح فلان في الشيء إلحاحاً: إذا كثر سؤاله إياه كاللاصق به. وفي الحديث من هذا: إن الله يحب الملحّين في الدعاء. وفي آخر: ألححت على ربك، يقوله أبو بكر للنبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر. ويقال: رجل ملحاح، إذا كثر ذلك منه. ورجل ملحاح، وكذلك السرج والقتب، إذا لصق بالظهر وعضه. وتلحلح القوم: أقاموا بمكانهم. وجاء في الحديث: إن ناقة النبي صلى الله عليه وسلم لما انتهت به إلى المدينة بركت موضع مسجده، وفيه: وتحلحلت ورزمت وألقت بجرانها، أي: بعنقها، كذا قال بتقديم الحاء. وكذا وقع في السيرة، وفسره ابن قتيبة على: تلحلح، بتقديم اللام، أي: لزم مكانه ولم يبرح. قال الأستاذ: وهذا معناه، معنى رزمت: أقامت، من: الكلال، وأما أرزمت، بالألف، فمعناه: رغت ورجعت في رغائها.

وأما وجل فالواو فيه أصلية، وهو: الفزع والخوف، كما تقدّم. تقول: وجل يوجل فهو وجل، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝ قَالُوا لَا تَوْجَلْ ﴾ [الحجر: ٥٢-٥٣]. ويقال أيضاً: وجل يجل وييجل فهو واجل: إذا أقام، وقد تقدّم.

جلو: ومن مقلوبه: جلو. تقول: جلوت السيف جلاء: صقلته. وجليت عن الشيء: أظهرته. وجلوت العروس جلوة وجلوة: أبرزتها. وتجليته: نظرت إليه. وفي التنزيل: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ ﴾[الأعراف: ١٤٣] أي: ظهر، أو: أظهر من أمره ما شاء من تجلي القدرة على ما يليق أن يوصف به تعالى. وتقول: جلى الغيم: انكشف. وأجلوا عن القتيل: أفرجوا عنه. وأجليت عنه الهم: فرجته. ورجل أجلى وقد جلى: إذا ذهب الشعر من مقدّم رأسه. وجبهة جلواء: واسعة. وجلى القوم عن المكان جلاء: تركوه. وفي التنزيل: ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ ﴾ [الحشر: ٣]. والجلاء: الإثمد لأنه يجلو البصر، قال الشاعر:

وأكحلك بالصاب أو بالجلا ففتح لكحلك أو غمض

وما أقمت إلا جلاء يوم، أي: بياضه.

جول: ومن مقلوبه أيضاً: جوّل. تقول: جوّل في الأرض جولاناً، وجال الرجل يجول جولة. وفي الحديث: كانت للمسلمين جولة، أي: زوال عن موضع حربهم، وقد تقدّم. والمجول: درع تجول به الجارية. والجول: معقول القلب، يقال: ما له جول ولا مغفر. والجول والجال: جانبا البئر.

ولج: ومقلوبه: ولج في الشيء ولوجاً: دخل. قال الله تعالى: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ ﴾ [الحج: ٦١] أي: يدخل ما نقص من أحدهما في الآخر. والوليجة: بطانة الرجل من الناس، وفي كتاب الله تعالى: ﴿ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗ ﴾ [التوبة: ١٦]، أصله من الولوج، وهو أن يتخذ رجل من المسلمين دخيلاً من المشركين خليطاً. والتولج: كناس الظبي. وقد أولجه وأتلجه. وشر تالج ووالج، والتاء هنا مبدلة من واو.

وحل: ومن شكل وجل: وحل. يقال: وحل يوحل وحلاً: وقع في الوحل، والجمع: أوحال ووحول. وقد استوحل المكان. ولي مقطوعة لزومية فيها ذكر الأوحال، انظرها في التكميل.

لوح: ومقلوبه: لوح، وهو معروف. وفي القرآن العزيز: ﴿ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴾ [البروج: ٢٢] وسيأتي إن شاء الله تعالى. وألواح الجسد: عظامه العريضة، والملواح: العظيم الألواح. ولحته ببصري لوحاً، وكذلك لوّحت به: إذا رأيت لوحه. ولاح الشيء لوحاً ولؤوحاً: إذا استبان. وألاح البرق: أضاء. واللوح: الهواء. واللوح: العطش. والتاح الرجل: إذا عطش. والملواح: المعطاش. وفي التنزيل: ﴿ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴾ [المدثر: ٢٩] أي: مغيرة، من: لاحه، إذا غيّره. وقيل المعنى: تلوح لأهلها مسيرة خمسمائة عام، نعوذ بالله من غضبه.

حول: ومعكوسه: حول: عام. تقول: حال حولاً وحؤولاً، وأحال الشيء: أتى عليه حول. وأحول أيضاً: لغة. واستحال الشيء وحال حولاً وحؤولاً: إذا تغيّر وتحوّل عن حاله. وفي التنزيل: ﴿ لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴾ [الكهف: ١٠٨] أي: تحويلاً. ويقال:

أرض محوالة: تركت أحوالاً لم تزرع. والحول والمحالة والحيلة سواء. وفي التنزيل: ﴿ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ [الرعد: ١٣]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: الحول. وقال قتادة: الحيلة. وقال الحسن: المكر والهلاك. وسيأتي تفسير المكر الذي يليق بجلال الله تعالى. وقال أبو عبيدة: هو من المحل، وهو الشدّة، فمن جعله من الحول؛ فوزنه مفعل، ومن جعله من محل؛ فوزنه فعال. قال أبو علي: تكون الميم في المحال زائدة، لأنه لو كان كذلك لم تعل العين كما لم تعل في نحو المقول والمعول ونظائره، ولم نعلم شيئاً من هذا جاء معتلاً. وأيضاً فإن المصدر يكون على مفعل، وتقول: رجل حول ذو حيل وحوالي أيضاً، ورجل محوال: كثير المحال. والمحالة أيضاً: البكرة. وجاء منه في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في المدينة: قد حرمتها إلا لعصفور(*) قتب أو مسد محالة. والحولاء، كالعنباء: مشيمة الناقة. والحوال: ما بين الشيئين. وحالت الناقة حيالاً: إذا لم تحمل عامها فهي حائل، والجمع حيال وحوّل وحول، وكذلك الشجرة. وحال في متن الفرس حؤولاً: إذا وثب. وأحلت الغريم حوالة، وحولت عينه حولاً واحولت واحوالت، واحتوله القوم: إذا صاروا حوله وحواليه.

حال: والحال: حال الإنسان. والحال: الوقت الذي أنت فيه. والحال: التراب اللين. وفي الحديث: إن جبريل عليه الصلاة والسلام كان يدس في في فرعون من حال البحر، أي: من طين البحر، لئلا يؤمن، عقوبة له على عظيم ما صنع.

ومن مقلوبه: الوليجة الضخم الواسع من الجوالق، والجمع: الوليج.

ومن مقلوبه: حلو، ضد المرّ، حلا يحلو حلواً وحلواناً، واحلولى، وحليت السويق.

حلأ: وقال في موضع آخر: وحلأت السويق، يهمز على غير قياس، وأما حلأت الإبل، إذا حبستها عن الورد، فمهموز. وقال الشاعر:

لحائم حام حتى لا حوام به — محلأ عن سبيل الماء مطرود

وقال الآخر:

(*) العصفور: أحد عيدان القتب.

وأعجبني مشي الحزقة خالد كمشي أتان حلئت عن مناهل

وحلأت فلاناً، مخفف حلا، إذا كحلته بالحلاءة، وهي حكاكة حجرين يكتحل بها. ويقال له أيضاً: حلوء. قال الشاعر:

كأنما أغضي على مضاض من الحلوء صادق الإمضاض

في العين لا يذهب بالترحاض

الترحاض: الغسل. يقال: رحضت الشيء، غسلته. وحلاوة القفا: وسطه. وفي الحديث: بينما موسى عليه السلام في قومه يذكرهم بأيام الله، وأيام الله: نعماؤه وبلاؤه، وهذا في الحديث، فإذا هو بالخضر مسجى بثوب مستلقياً على القفا، أوقال: حلاوة القفا. والحلاوي نبت واحدته حلاوية. والحلوى: اسم لما يؤكل حلواً. ويقال أيضاً: حلواء، يمد ويقصر. وجاء في الحديث: يا دنيا مري على أوليائي لا تحلولي لهم فتفتنيهم. فالماضي من هذا الفعل: احلولى، ولم يجئ على هذا المثال غير اعرورى الفرس: إذا صار عرياً، والحلوى ضد المرى، يقال: خذ الحلوى وأعطه المرى. قالت امرأة في بناتها: صغراهنّ مراهنّ. ويقال: تحالت المرأة، إذا أظهرت حلاوة وعجباً، قال الشاعر:

إذا ما تحالى مثلها لا أطورها

وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحب الحلوى والعسل. وتقول: حلوت الرجل أحلوه حلواناً: إذا أعطيته شيئاً كالرشوة. وحلوان الكاهن منه. وفي الحديث من هذه اللفظة: قال عليه الصلاة والسلام: وحلوان الكاهن حرام. والحلوان: ما أخذ الرجل أيضاً لنفسه من مهر ابنته. قال الشاعر:

ونأخذ الحلوان من بناتنا

خول: ومن شكل ما تقدّم مقلوباً: خول، وهم العبيد وغيرهم من الحاشية. ويقال: الراعي يخول خولاً إذا حفظ. والخولي والخائل: الراعي. وخول اللجام: أصل فأسه. وتخوّلت الرجل: تعهدته. وفي الحديث من هذا قول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوّلنا بالموعظة مخافة السآمة علينا. وتقول: أخول الرجل، إذا كان ذا أخوال كرام. واسم الفاعل منه: مخول، قال الشاعر:

مخـــــول فــــي عـــــشيرته معـــمّ

وقد تقدّم وتخوّلت خالاً.

ولخ: ومن معكوسه: ولخ. الولخ: من العشب الطويل. يقال: ائتلخ العشب، إذا طال وامتدّ. وأرض مؤتلخة.

لخو: ومن مقلوبه: لخو، مصدر لخا، واللخا: المسعط. تقول: لخوت الصبي. واللخو: نعت للقيل المضطرب الكثير. تقول: لخا الرجل لخاء، إذا أكثر الكلام في الباطل. ورجل ألخى وامرأة لخواء.

خلو: ومن مقلوبه: خلو. رجل خلو: لا همّ له، والجمع: أخلاّء، وكذلك خلي، والجمع أخلياء. ومنه قولهم: يا ويح الشجيّ من الخليّ. ومنه قول الموثقين عند كتب صداق المرأة: خلو من الزوج والعدّة.

ومنه قولهم في الطلاق: هي خلية، إذا قاله الرجل لامرأته بانت منه. والخلية: ناقة خلت عن ولدها ورئمت غيره. والخلية: السفينة دون ملاح. قال الشاعر:

خلايـــــا ســـــفين بالنواصـــــف مـــــن دد

والخلية: واحدة الخلايا، وهي الأجباح، وسيأتي ذكرها. وخلا الشيء يخلو: إذا مضى. وخليته: أرسلته. والسيف يختلي الأيدي والأرجل: إذا أبانها. وخلى الطريق وغيره خلاء، وأرض خلاء: لا شيء فيها. والخلاء: موضع قضاء الحاجة، مشتق منه. والخلاء: البثور، وقد خليت شفتي، أي: بثرت، وهي قروح تخرج في الشفاه إثر الحمى. (ج هـ) وفلان يخلو فلاناً: إذا خادعه، وخلا: استثناء، جاءني القوم خلا أخاك وما خلا أخاك. والخلي: الحشيش، واحدته خلاة، والمخلاة منه، وخليت الحشيش واختليته. وفي الحديث في المدينة: لا يختلى خلاها. ويقال: خلأت الناقة تخلأ خلاء: إذا لم تبرح. وفي الحديث: حين بركت ناقة النبي صلى الله عليه وسلم به قالوا: خلأت القصوى، وقال عليه الصلاة والسلام: ما خلأت وما ذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل. وتقول: خلا الإنسان يخلو: إذا لم يتزوّج، فهو خالٍ. قال امرؤ القيس:

وأمـــــنع عرســـــي أن يـــــزن بهـــــا الخالـــــي

وفي المثل: خلاؤك أقنى لحيائك، أي: منزلك إذا خلوت فيه ألزم لحيائك.

ويقال: عبد وخلي في يديه(*).

وأما قافية البيت الثالث: وحل وجل، فلا كلام فيه لأنه مثل قافية البيت قبله، وقد تقدّم الكلام فيه.

وأما الرابع: وخل وخل، فأفردت فيه الخاء، أما الخل: فالصاحب، تقول: خاللت الرجل خلة وخلالاً فهو لي خل وخلة وخليل، والجمع خلان. والخل، بالفتح: من عصير العنب وغيره، معروف. وقد جاء في الحديث: نعم الأدم الخل. وفي الحديث أيضاً: ما أقفر بيت فيه خل، أي: لم يخل من أدم، من قولهم: خبز قفار، أي: غير مأدوم، فسمي الخل إداماً. والخل: الطريق بين الرمال، يقال: حية خل، كما يقال: أفعى صريمة. والخل: عرق يتصل بالرأس. قال ابن دريد: هو عرق في العنق، وأنشد:

ثـــم إلـــى صـــلب شـــديد الخـــل

والخل: واد من أودية مذحج. والخل: موضع قبل سلع، وسلع متصل بالمدينة، قال الشاعر:

ســكن الخــل والــصفاح ومــزّ زان وســلعاً وتــارة نجــديا

والخل: مصدر خللت الشيء أخله خلاً، إذا جمعت أطرافه بخلال. وخللت الخباء أخله خلاً: إذا جمعت سجوفه. والخل: الفصيل. والخل: الثوب البالي. والخل: المهزول من الرجال. وقال ابن دريد: الخل: الرجل الخفيف الجسم النحيف، وأنشد:

إن جـــسمي مـــن بعـــد خالـــي لخـــل

ويقال: ثوب خل: إذا أخذ منه البلاء. وبعث أحد الولاة رجلاً على الصدقة، فجاء بفصيل مخلول أو محلول، فسره بسيئ الحال، مهزول، أي: بادي الضر والهزال. وخللت الرجل بالرمح واختللته، أي: طعنته. واختللت لسان الفصيل: شددت عليه خلالاً لئلا يرضع، والفصيل مخلول. والخلل: فرجة بين الشيئين، والجمع خلال، قال الشاعر:

(*) قوله: عبد وخلي في يده، خلي: تصغير خلى، وهو النبات الرطب، كما فيتاج العروس. وانظر الصحاح وبه تعلم ما وقع من الخطأ في تصحيح أمثال الميداني.

ينظرن من خلل الستور بأعين

البيت. وفي التنزيل: ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾ [الكهف: ٣٣]، ﴿ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩١] أي: بين ما تقدّم ذكره. والخلل: الوهن في الأمر. والخليل: الفقير المحتاج، وعلى ذلك فسر بيت زهير:

وإن أتاه خليل يوم مسألة يقول لا غائب مالي ولا حرم

والخلة: الحاجة. وفي مثل: الخلة تدعو إلى المسألة. والرجل أخل ومختل. ويقال: اختل الرجل إلى الرجل: إذا احتاج إليه. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: عليكم بالعلم فإن أحدكم لا يدري متى يختل إليه، أي: متى يحتاج إلى ما عنده. وفي بعض كتب السلف: الصدقات للأخل الأقرب. والخلة: الخصلة، يقال: في فلان خلة حسنة، أي: خصلة، والجمع خلال. والخلة من النبت: ما ليس بحمض. وإذا رعت الإبل الخلة فأهلها مخلون، قال الراجز:

جاؤوا مخلين فلاقوا حمضا

وقال الآخر:

وخلة داويت بالأحماض

ومثل لهم إذا جاء الرجل متهدداً: أنت مختل فتحمض. وسيأتي هذا في باب النون إن شاء الله تعالى مستوفى. وأخللت بالشيء: قصرت به، وكذلك أخللت بالرجل: إذا خذلته وقت حاجته. والخلل والخال: ما يبقى بين الأسنان من الطعام. ومنه قول امرأة: إنه لأكلة تكله يأكل من جشعه خلله، أي: ما بين أسنانه، يستكثر بذلك. والخَلالة والخُلالة والخِلالة، بالفتح والضم والكسر: الصداقة والمودة، قال الجعدي:

وكيف تواصل من أصبحت خلالته كأبي مرحب

وأبو مرحب: كنية الظل، وقيل: كنية عرقوب. والخلال: البلح، واحدته: خلالة. والخِلة، بالكسر: جفن السيف. والخلة: كل جلد منقوش، وقال ابن دريد: الخلة: بطائن كانت تغشى بها أجفان السيوف وتنقش بالذهب، وجمعها: خلل، وأنشد:

لابنة الجنين بالجو طلل دارس الآيات عاف كالخلل

وقد تقدّم. الجوّ: اسم اليمامة، والخلخال معروف، والمخلخل: موضعه. وخلخل: لغة في الخلخال، أو يكون مقصوراً منه، قال الشاعر:

بـــزاقة الجـــيد صـــموت الخلخـــل

ويقال: خل كساءه وثوبه يخله خلاً، إذا شكه بالخلال، وعم فلان وخل وخلل أيضاً، والمخلل: الذي يخص، وأنشد:

قـــد عـــم فـــي دعائـــه وخـــلا وخـــط كاتـــباه واســـتهلا

وقال أبو عبيد: ما فلان بخل ولا خمر، أي: لا خير فيه ولا شر. ولبعض الكتاب: إن لم يكن خمر فخل، وإن لم يصبها وابل فطل. ويقال: اختل جسم فلان، إذا نقص وهزل، ومنه الحديث أن مصعب بن عمير رضي الله عنه كانت تترفه أمه، وكان لا يبيت إلا وضعت عند رأسه الحيس، فلما أسلم مصعب اختل جسمه، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رآه بكى. قال أبو عبيد: يقال فصيل خل، أي: مهزول، وفصيل خل، أي: سمين، وهو من الأضداد. ومن الخل الذي هو موضع قول الشاعر:

أقبلـــتها الخـــل مـــن ســـودان صـــادرة

وهذا البيت يقوله أبو شجرة بن عبد العزى السلمي، خرجه ثابت وقال: أقبلتها، تقول: أقبلت الإبل طريق كذا وكذا: إذا استقبلت بها الإبل بسوقك وأقبلت الأباعر الماء.

لخ: ومعكوس خل: لخ. تقول: لخت عينه تلخ لخيخاً: إذا كثر دمعها وغلظت أجفانها، وأنشد:

لا خيـــر فـــي الـــشيخ إذا مـــا اجلخـــا وســـال غـــريب عيـــنه ولخـــا
والـــتوت الـــرجل فـــصارت فخـــا وكـــان أكـــلاً دائمـــاً وشـــخا

تحـــت رواق البـــيت يغـــشى الـــدخا

معنى شخ: بال، والدخّ: لغة في الدخان. وفي حديث ابن صياد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خبأ له في نفسه: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [الدخان: ١٠] وقال له: قد خبأت لك خبئاً، فقال له ابن صياد: هو الدخّ، فقال له

رسول الله صلى الله عليه وسلم: اخسأ فلن تعدو قدرك. وهذا تفسير الراوي. وقال غيره: قبض من دخان مرّ به بيده. والدخن أيضاً: لغة فيه. وأما الدخن المذكور في الحديث: هدنة على دخن؛ فإنما هو فساد في القلب عن باقي عداوة، ذكر هذا البكري، وردّ على أبي عبيد رحمه الله قوله فيه: إنما هو من الدخان المعلوم، والله أعلم.

وقد تقدّم معنى اجلخ وأن معناه: ألقى بنفسه ولم يكن منه حراك، والغرب: مسيل الدمع. قال ابن دريد: وربما يقال: لخخت عينه، مثل لخت؛ سواء. واللخلخة: ضرب من الطيب، واللخلخانية: العجمة، ورجل لخلخاني: إذا كان غير فصيح، وقد تقدّم أن الخاء من حروف الحلق. واللخى، مقصور: كثرة الكلام في الباطل، يقال: رجل ألخى وامرأة لخواء، واللخاء، بكسر اللام والمد: الغذاء للصبي سوى الرضاع، والصبي يلتخي: إذا أكل الخبز المبلول، وألخيته ولخيته: أوجرته الدواء. والملاخاة: الوشي، تقول: لاخيت به، أي: وشيت. فرغ الكلام في الخاء.

خرجت من شيء إلى غيره ... كذلك العالم إذ ينسخ
يكتب هذا ثم هذا وذا ... لعله في قلبه يرسخ

فصل:

من الفوائد:

تقدّم الخلة: الحاجة. ومن أحسن ما رأيت في ذلك ما كان يدعو به الربيع بن خيثم رحمه الله، كان يقول في مناجاته: أشكو إليك حاجة لا يحسن بثها إلا إليك وأستغفرك منها وأتوب إليك. وسيأتي ذكر الإيثار وما في ذلك من الآثار في باب الهاء إن شاء الله تعالى.

وتقدّم ذكر الحسد وفي تركه بقاء الجسد، حدّثني الحافظ رحمه الله قراءة عليه من فوائد أبي القاسم الإدريسي قال بسنده إلى أبي العباس يعني ثعلباً، قال: قيل لأعرابي وقد أتى عليه مائة وعشرون سنة: ما أطول عمرك! فقال: تركت الحسد فبقيت. وقالوا: الحسود لا يسود. قال سفيان: بلغني أن الله تعالى يقول: الحاسد عدوّ نعمتي غير راض بقسمتي التي قسمت بين عبادي. وفي الحديث: إن الحسد ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب. وقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة من

الحاسد، فقال تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق: ٥]. ولمنصور رحمه الله:

ألا قل لمن كان لي حاسداً ... أتدري على من أسأت الأدب
أسأت على الله في فعله ... إذا أنت لم ترض لي ما وهب
جزاؤك منه الزيادة لي ... وأن لا يتم لك المطلب

وقد تقدّم ذكر الأسود بن يزيد، كان من المجتهدين في العبادة، وكان قد حج ثمانين حجة وعمرة، وكان يقوم الليل ويصوم النهار، إنما كان نومه بين المغرب والعشاء، وكان رضي الله عنه يصوم حتى يخضرّ جسمه ويصفرّ لونه، وكان علقمة بن قيس يقول له: لم تعذب هذا الجسد؟ فيقول: راحة هذا الجسد أريد. فلما احتضر بكى، فقيل له: ما هذا الجزع؟ فقال: ما لي لا أجزع ومن أحق بالجزع مني؟ والله لو أتيت بالمغفرة من الله عز وجل لهمني الحياء منه مما قد صنعت، إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه، فلا يزال مستحيياً منه. وعلقمة المذكور قيل: كان أيضاً من العباد العلماء القراء، وكان حسن الصوت، وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يرسل إليه فيقرأ عليه القرآن، قال: فكنت إذا فرغت من قراءتي قال: زدنا من هذا، وقرأ عليه مرة فقال له: رتل فداك أبي وأمي فإنه زين القرآن.

وقيل لعلقمة: لو جلست فأقرأت الناس القرآن وحدّثتهم، قال: أكره أن يوطأ عقبي، وأن يقال: هذا علقمة هذا علقمة، ولما احتضر قال: لا تنعوني كنعي أهل الجاهلية، ولا تؤذنوا بي أحداً، وأغلقوا عليّ الباب، ولا تتبعني امرأة، ولا تتبعوني بنار، وإن استطعتم أن يكون آخر كلامي لا إله إلا الله. وقال لامرأته: يا صبية تزيني واقعدي عند رأسي لعل الله يرزقك بعض عوّادي. وما ترك إذ مات إلا داره وبرذوناً ومصحفه، وأوصى به لمولى له كان يقوم عليه في مرضه. وكان يحسن علم الفرائض. روى الأعمش عن إبراهيم رحمه الله أنه قال له: علمني الفرائض، قال: أمت جيرانك.

وتقدّم الحاج، قال مجاهد: قلت لابن عمر وقد دخلت القوافل: ما أكثر الحاج! فقال: ما أقلهم، ولكن قل ما أكثر الركب. قال ذلك رحمه الله حين نظر إلى ما أحدث الناس في الحج من الزيّ والرفاهية والتنعم. وكذلك كان العلماء قديماً إذا نظروا إلى المترفهين قد خرجوا إلى مكة يقولون: لا تقولوا خرج فلان حاجاً، ولكن قولوا: خرج

فلان مسافراً. ويقولون: حج رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته، وكان تحته رحل رث وقطيفة قيمته أربعة دراهم، وطاف على الراحلة لينظر الناس إلى هديه وشمائله، وقال: خذوا عني مناسككم، وكان يقول: لبيك اللهم لبيك حجاً لا رياء فيه ولا سمعة.

قلت: هذه المحامل مما أحدث الحجاج في السفر للحاج تجعل على ظهور الجمال للفخر والجمال، فتنعم بها الركاب، ويستنضر بها الركاب. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إنما هو رحل وسرج، فرحل إلى بيت الله الحرام، وسرج في سبيل الله. فسره أبو عبيد رحمه الله: أراد أن البيت إنما يزار على الرحال، كأنه كره المحمل لأنه مما أحدث الناس كما تقدّم.

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما: إذا حططتم الرحال فشدوا السروج، والحج أحد الأركان الخمسة التي بني الإسلام عليها. وفي الخبر: من أمكنه الحج فمات ولم يحج فلا يبالي أمات يهودياً أو نصرانياً.

وعن عمر رضي الله عنه: لقد هممت أن أكتب في الأمصار بضرب الجزية على من لم يحج ممن يستطيع إليه سبيلاً. وفي رواية: والله ما هم بمسلمين، والله ما هم بمسلمين.

وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه: لو مات لي جار موسر ولم يحج لم أصل عليه. وكذلك قال الأسود بن يزيد لغلامه: لو مت ولم تحج لم أصل عليك. وقال الله عز وجل: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال لإبراهيم عليه السلام: ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج: ٢٧] أي: بعيد، وفي الخبر أن إبراهيم عليه السلام قال: وما يبلغ صوتي؟ فقال له الله تعالى: أذن وعليّ البلاغ، أو كما قال، هذا معناه. قال مجاهد: فقام على المقام فتطاول المقام بإبراهيم عليه السلام حتى كان كأطول جبل على ظهر الأرض، فنادى: عباد الله أجيبوا الله، عباد الله أطيعوا الله، قال: فأسمع من تحت الأرض السابعة، فقالوا: لبيك أجبنا، لبيك أطعنا، فمن حج إلى يوم القيامة فهو

ممن أجاب دعوة إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ [الحج: ٢٧]، ولم يقل: يأتوني.

وقد فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستطاعة: الزاد والراحلة، ذكره أبو طالب في القوت، وقال: إذا وجد العبد زاداً وراحلة لزمه فرض الحج، فإن أخّره بعد وجود ذلك كله كان مكروهاً له، فإن مات ولم يحج أو مات عن عدم الإمكان بعد وجوده كان عاصياً لله من حين أمكنه إلى يوم موته، ولم يكن كامل الإيمان، لأن الله تعالى أكمل الإسلام بالحج لما أنزل هذه الآية في الحج يوم عرفة: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ [المائدة: ٣]، ومن كان ذا قوّة على المشي أو ممن يصلح له أن يؤاجر نفسه وأمن التهلكة في خروجه فحج على ذلك كان فاضلاً في فعله. وللحاج الماشي بكل قدم يخطوها سبعمائة حسنة، وللراكب بكل خطوة تخطوها دابته سبعون حسنة. والقوّة من الاستطاعة، ولو لم يكن الحج فرضاً لكان القصد إلى بيت الله والطواف به أفضل القربات، لأنه ليس على وجه الأرض اليوم عمل أفضل من الطواف بالبيت، لأنه يستوعب بطواف أسبوع مائة وعشرين رحمة، تكون كل رحمة ما شاء الله، لأنه سبحانه وتعالى يختص برحمته من يشاء، وأقل ما له بكل رحمة عشر حسنات، لأنه في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ينزل على هذا البيت في كل يوم مائة وعشرون رحمة، ستون للطائفين وأربعون للمصلين وعشرون للناظرين. وأعظم لذة عندي في الدنيا تقبيل الحجر الأسود، لأن كل شيء قد تغير عن حاله إلا الحجر، قد قبّله جبريل وميكائيل وجميع الملائكة وآدم ومحمد وما بينهما من النبيين، وجميع عباد الله الأولياء والصالحين، صلى الله على جميعهم ورضي الله عنهم كلهم.

يقال: إنه ما يرسل ملك من السماء في حاجة إلى الأرض إلا بدأ بالبيت فطاف به وحينئذ يمضي لما أمر به، فانظر عظيم فضله، جعلنا الله من أهله بمنه وكرمه. وذو الحجة شهر الحج، وقال الله تعالى: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ﴾ [البقرة: ١٩٧] وهي ثلاثة: شوال وذو القعدة وذو الحجة كله وقيل عشر منه. وقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ

﴿فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ﴾ [الحج: ٢٨]، فالأيام المعدودات: أيام التشريق، يوم النحر ويومان بعده، وقيل لها: أيام التشريق، لأن اللحم يشرق فيها، أي: يقطع ويقدد، وقال الأصمعي: التشريق صلاة العيد، وإنما أخذه من شروق الشمس، لأن ذلك وقتها. ومنه حديث علي رضي الله عنه: لا جمعة ولا تشريق إلا في مصر جامع. وقال أبو عبيد: وقولهم أيام التشريق هي تبع ليوم النحر، وقيل: لتشريق اللحم فيها كما تقدّم. والأيام المعلومات: عشر ذي الحجة، قاله ابن عباس رضي الله عنه. وروى نافع عن ابن عمر أن الأيام المعدودات والأيام المعلومات يجمعهنّ أربعة أيام: يوم النحر وثلاثة أيام بعده، فاليوم الأوّل معلوم غير معدود، واليومان اللذان بعده معلومان معدودان، والرابع معدود غير معلوم، وهو مذهب مالك وغيره.

وحج رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث حجات: حجتين قبل الهجرة، ثم حجة الوداع، واعتمر من المدينة أربع عمر كلهن في ذي القعدة إلا التي مع حجته، فإنه ابتدأ بها في ذي القعدة وفرغ منها في ذي الحجة، أوّلها عمرة الحديبية إذ صدّه المشركون في ذي القعدة، وعمرة القضاء بعدها في العام المقبل في ذي القعدة، وعمرة من الجعرانة سنة الفتح في ذي القعدة بعد ما قسم عليهم غنائم حنين، وعمرة مع حجته.

وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع عشرة غزوة، خرّجه مسلم رضي الله عنه. وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح سنة تسع لعشر مضين من رمضان، وصام حتى بلغ الكديد ثم أفطر ودخل مكة لعشرين بقين من الشهر، ولم يحج في هذا العام لأن الحج كان منقولاً عن وقته، كان المشركون ينقلونه على حساب الشهور الشمسية ويؤخرونه كل سنة أحد عشر يوماً، وكان فيهم من يطوف عرياناً، فلما انمحى الشرك وعاد زمان الحج إلى وقته الذي فرضه عز وجل فيه، ولم يطف بالبيت عريان، حج رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة عشر حجة الوداع، وأعلم الناس برجوع الحج إلى وقته، فقال: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات

والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، هذه متصلة ورجب منفرد. وكان قبل حجته قد وجه أبا بكر رضي الله عنه سنة تسع، فأقام للناس الحج، وأمره أن ينادي بسورة براءة لينبذ إلى كل ذي عهد عهده من المشركين، ثم أردفه بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، فرجع أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله هل أنزل في قرآن؟ قال: لا ولكن أردت أن لا يؤدّي عني إلا من هو من أهل بيتي. قال أبو هريرة: فأمرني علي أن أطوف على المنازل بمنة بسورة براءة، فكنت أصيح حتى صحل حلقي، فقيل له: بم كنت تنادي؟ فقال: بأربع: أن لا يدخل الجنة إلا مؤمن، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد فله أجل أربعة أشهر ثم لا عهد له. وقيل في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ ﴾ [التوبة: ٥] أراد: ذا الحجة والمحرم من ذلك العام، وذلك أجل من لا عهد له من المشركين، ومن كان له عهد فإلى انقضاء أربعة أشهر، أوّلها يوم النحر. وبعد هذا حج رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة عشر، خرج من المدينة لخمس بقين من ذي القعدة، وقدم مكة صبح رابعة من ذي الحجة، فطاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة، بدأ بالصفا والإسلام قد صفا وأثر الجاهلية قد عفا، ولما اعتدل الحج على أثبت قاعدة أنزل الله تعالى هذه الآية من سورة المائدة: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف بعرفة في يوم جمعة، والحمد لله على نعمه التي لا تعدّ ومننه التي لا تحدّ.

وقد تقدّم في حديث أبي عبيدة في حجاج عينها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه أميراً في ثلاثمائة راكب يرصدون عيراً لقريش، قال: فأقمنا في الساحل لنصف شهر، فأصابنا جوع شديد حتى أكلنا الخبط، فسمي جيش الخبط، وألقى لنا البحر دابة يقال لها العنبر فأكلنا منها نصف شعر وادّهنّا من ودكها حتى ثابت أجسامنا، قال: فأخذ أبو عبيدة ضلعاً من أضلاعها فنصبها، ثم نظر إلى أطول رجل في الجيش وأطول جمل فحمل عليه فمرّ تحته قال: وجلس في حجاج عينها نفر. وفي رواية

أخرى: أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً، فأقعدهم في وقب عينها، قال: فأخرجنا من عينها كذا وكذا قلة ودك، قال: وكان معنا جراب من تمر، فكان أبو عبيدة يعطي كل رجل منا قبضة قبضة، ثم أعطانا تمرة تمرة، فلما فني وجدنا لفقده، خرجه مسلم. ووقع في تفسير ابن سلام أن النفر كانوا يتداولون التمرة بينهم، يمصها هذا ثم يشر بعليها من الماء، ثم يمصها الآخر، وذلك في غزوة تبوك.

وتقدّم في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] جاء في التفسير عن قتادة أنه نمروذ، وهو أوّل ملك تجبر في الأرض، وهو صاحب الصرح ببابل.

قال قتادة رضي الله عنه: ذكر لنا أنه دعا برجلين فقتل أحدهما واستحيى الآخر، فقال: أنا أحيي وأميت، أي: أستحيي من شئت وأقتل من شئت، ﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] أي: انقطعت حجته. وفي التنزيل أيضاً في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ﴾ [الأنعام: ٨٠].

وقد جمعت شكل حجة في أبيات، سببها أنه استشفع بي رجل اسمه عليّ لصاحب لي اسمه محمد في كتاب صداقة، فكتبت إليه ولم أمش إليه:

أخي محمد ما لي ... في ترك قصدك حجه
لكن فؤادي قد حج ... ذا الكلام فحجه
وقال حظك يغنيك ... عن ركوب المحجه
فابعث علياً سيرعى ... صلاته ثم حجه
واكتب له المهر يكتب ... لكم به ألف حجه
وهاك شكري جزاء ... لو عشت ألفين حجه

وكتبت له أيضاً في شأنه: سيدي وفقت لفعل صالح علي، هذا أبو الحسن علي، رجل فيه عفه وفي ماله خفه، وهو على هذه الخلقه ما عنده ما يسدّ به حلقه، ولا يملك أستغفر الله سوى إبرة وخلقه، وكانت عادته لإفراط إيمانه يحلف بإسقاط إيمانه، فهفا

ذات مرة بوساطة الشيخ أبي مرة، فجعل أيمانه لازمه، وله نفس حازمه، ولكن لا بدّ للطرف من عثره ولو بلغ الطرف والنثره، ومن الذي ليس عليه للشيطان سلطان، وها هو بعد أن طلق عرسه علق بالرجوع نفسه، وتاب وندم وعليكم قدم، فأذهبوا روعته واكتبوا رجعته، واعتاضوا منه أجراً ثوابه وأحرى، والمرأة قد نكحت وآمت ثم حلت وصلت وصامت، والله سبحانه يغنيك ويعينك ويبقيك غوثاً للهفان راغباً عن الفان ولو أنه ألفان:

يـــا قدحـــي المعلـــى	بحـــرمة الـــصداقه
إذا أتــــى علــــيّ	فاكـــتب لـــه صـــداقه
واجعـــل لـــه أخيـــي	مـــن عـــندك الـــبطاقه
وكـــل ذاك مـــنكم	بالفـــضل لا بطاقـــه
قـــد جـــاءه كـــساء	يمـــدّ فـــيه ســـاقه
وإنـــه شـــكور	لله حـــين ســـاقه

هذه الملح من الكتابه لي بها صبابه، فمتى وقعت في رياضها رتعت وتمتعت، ومتى دفعت عنها ومنعت تقنعت فتمنعت، لكن لتفسير اللغة أرجع وإن تكعكعت وجعجعت.

وتقدّم قول الفرزدق:

تـرى الغـرّ الجحـاجح مـن قـريش	إذا مـا الأمـر فـي الحـدثان غـالا
قـياماً ينظـرون إلـى سـعيد	كـأنهم يـرون بـه هـلالا

يعني: سعيد بن العاص بن أمية، ويقال: إن مروان بن الحكم حين سمع الفرزدق ينشد هذا البيت حسده عليه، فقال: قل: قعوداً ينظرون إلى سعيد، يا أبا فراس، فقال: لا والله يا أبا عبد الملك إلا قياماً على الأقدام. وسعيد بن العاص هذا قد تقدّم في الأجواد.

ومن أحسن ما قيل في نظر الهلال:

للـناس فـي الـشهر هـلال ولـي	مـن وجههـا فـي كـل يـوم هـلال

وقبل هذا البيت:

تمت وتم الحسن في وجهها فكان حسن ما عداها محال

بعض أخبار جحا :

وتقدّم جحا، وقد سألت عنه فقيل لي: إنما هو حجا، بتقديم الحاء، وهو العقل فصحفه الناس. ولقد رأيت في أخباره جزءاً كبيراً مما ألفه بعض الأدباء لبعض الخلفاء، وفيه حكاية تدل على عقله عند نفسه وحمقه عند الناس، قال: دخل ذات يوم جحا في دار الرحا فجعل يأخذ من قمح الناس ويجعله في قفته، فقيل له: لأي شيء تصنع هذا؟ فقال: لأني أحمق، فقيل له: فلم لا تجعل شيئاً من قمحك في قفاف الناس؟ فقال: كنت أكون إذاً أحمقين.

وأما الأصبهاني فقد ذكره في كتاب الأمثال له، فقال: أحمق من جحا، وقال: كان رجلاً من بني فزارة وكان يكنى أبا الغصن، فمن حمقه أن عيسى بن موسى الهاشمي مرّ به وهو يحفر بظهر الكوفة موضعاً، فقال له: ما لك يا أبا الغصن؟ فقال: إني دفنت في هذه الصحراء دراهم ولست أهتدي إلى مكانها، فقال عيسى: كان يجب أن تجعل عليها علامة، قال: قد فعلت، قال: ماذا؟ قال: سحابة كانت في السماء تظلها، ولست أرى العلامة أيضاً. وذكر له أشياء مثل هذه. وأنت يا ذا المعقول وقارئ هذا المنقول أراك تضحك من هذه الحكايات محدّثاً أنها إحدى السخافات.

كم من كلام مبك قد قرأت ذا السفر لم تبك منه للمخافات كما
بها فلا أقل من أن تبكي لموعظة ضحكت إذا تتلو الخرافات
عساك من شرّ ذا تنجو بصالح ذا رأساً برأس فتحظى بالمعافاة
وبعد ذلك قل يا رب عاقبة حسنى وعافية من كل الآفات

وتقدّم الحاحي، وكان من الصالحين، وجار عليه بعض العمال، فكلمته فيه، فتشاغل عنه ونسي اسمه وأنكره، فكتبت إليه:

إن الذي أنكرت يا صاح ذلكم المدعو بالحاحي
فاصنع به ما أنت أهل له ولا تضيع فيه إلحاحي

وقد أنشدني بعض الأصحاب في هذا المعنى ولم يسمّ قائله:

نصبت الفخ ثم قعدت عنه ... بعيداً كي أرى فيه فلاحا
إذا قرد مقيم عند فخي ... يقول لمقبلات الطير حاحا

وقلت:

لعلك أن تقول أرى ابن شيخ ... يجيء بلفظ حاح في الكتاب كأني
وبالحاحي وبعد يقول لي اقرأ ... جاهل قصد الصواب
فإن تك قلت ذا فاسمع جواباً ... يردّك للمتاب من العتاب
كتابي ذا كروض فيه لب اللبا ... ب يضاف للمعجب العجاب
ينشط قارئاً ويفيد علماً ... وأرجو فيه مذخور الثواب
خشيت تصيبه عين فعلقـ ... ـت فيه جماجماً قل من كلاب
أنا طبعي أقول الشعر سهلاً ... بغير تكلف ملأى عباب
ومهما قلت سوءاً قلت غفراً ... إلهي أعطني حسن المآب
تقول يردّني لا والذي لا ... إله سواه ما هذا جوابي
إله اغفر لقارئ ذا الكتاب ... وجد للكل منا بالمتاب

وإذ وقع ذكر الجماجم فاسمع فيها حديثاً أيها الواجم؛ وقع في بعض التراجم، خرج أبو داود في المراسيل له عن علي بن عمر بن علي عن أبيه عن جده رضي الله عنهم قال: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فقال: يا معشر قريش إنكم تحبون الماشية فأقلوا منها، فإنكم بأقل الأرض مطراً، واحترثوا فإن الحرث مبارك، وأكثروا فيه من الجماجم. وقال عمر بن علي ابن حسين: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما أمر بذلك من أجل العين.

وخرج البزار عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بالجماجم أن تنصب في الزرع. قال أحد رواته: من أجل العين. وسيأتي حديث في فضل الزرع والغرس في حرف الزاي إن شاء الله تعالى.

وتقدّم روضة خاخ، وإلى ذلك المكان نفى رسول الله صلى الله عليه وسلم هيتا المخنث حين سمعه يقول: إذا فتح الله عليكم الطائف، الحديث. فقيل: إنه يموت بها جوعاً، فأذن له أن يدخل المدينة كل جمعة.

وإليه أيضاً بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وأبا مرثد الغنوي. ويروى: المقداد، عوض أبي مرثد، فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن فيها امرأة معها صحيفة من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين فأتوني بها، قال علي رضي الله عنه: فانطلقنا على أفراسنا حتى أدركناها حيث قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، تسير على بعير لها، وقد كان كتب إلى أهل مكة بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلنا: أين الكتاب الذي معك؟ فقالت: ما معي كتاب، فأنخنا بها بعيرها فابتغينا في رحلها فما وجدنا شيئاً، فقال صاحباي: ما نرى معها كتاباً، قال فقلت: لقد علمنا ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم حلف علي، والذي يحلف به: لتخرجن الكتاب أو لأجردنك، فأهوت إلى حجزتها وهي محتجزة بكساء، فأخرجت الصحيفة، فأتوا بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عمر: يا رسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمنين، دعني أضرب عنقه، فقال رسول الله: يا حاطب ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رسول الله ما لي أن لا أكون مؤمناً بالله ورسوله، ولكني أردت أن يكون لي عند القوم يد أدفع بها عن أهلي ومالي، وليس من أصحابك أحد إلا له هناك من قومه من يدفع عن أهله وماله، قال: صدق، وما تقولوا له إلا خيراً، قال فقام عمر فقال: يا رسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمنين، دعني أضرب عنقه، قال: أوليس من أهل بدر؟ وما يدريك لعل الله اطلع عليهم فقال: اعملوا ما شئتم فقد أوجبت لكم الجنة، فاغرورقت عيناه وقال: الله ورسوله أعلم.

قال بعض العلماء وذكر هذا الحديث: إن في هذا الخبر معجزتين: إحداهما الكتاب مع الظعينة، والثانية: الظعينة في المكان المسمى.

قلت: وفيه معجزة ثالثة أنه من حاطب، وأخرى أنه إلى أناس من المشركين، وكان في الكتاب: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجّه إليكم بجيش كالليل يسير كالسيل، وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لنصره الله عليكم، فإنه منجز له ما وعده. وقول عمر رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنقه؛ دليل على قتل الجاسوس.

وفي مسند الحارث: إن حاطباً قال: يا رسول الله كنت عزيزاً في قريش وكانت أمي بين ظهرانيهم، فأردت أن يحفظوني فيها، أو نحو هذا. ثم فسر: العزيز، وقال: هو

الغريب. وفي حاطب نزل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ [الممتحنة: ١]، وفي هذه السورة: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾ [الممتحنة: ٧]، قيل: هي مصاهرة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي سفيان ابن حرب.

ومن حديث أبي سفيان هذا في أوّل إسلامه أنه كان يوماً في المسجد، فخرج عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال في نفسه: ليت شعري بأي شيء غلبتني؟ فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ضرب بيده بين كتفيه وقال: بالله غلبتك يا أبا سفيان.

ويروى أن أبا سفيان قال لزوجته هند ذات ليلة: لمَ أعطي محمد النبوّة وأنا أكثر منه مالاً؟. فلقيه النبي صلى الله عليه وسلم غداة تلك الليلة فقال: يا أبا سفيان ما الذي قلت لامرأتك هند في حديث النبوّة؟. أما علمت أن النبوّة سماوية لا أرضية، وهو يعطي من يشاء ويمنع من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء؟ فقال أبو سفيان في نفسه: إذا عدت إليها لأطلقنها لما أفشت سري، فعلم ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم منه، فقال: يا أبا سفيان لا تطلق هند، فلئن أخبرتني هند بحديث البارحة فمن أخبرني الساعة بتفكرك في أنك تطلقها إذا عدت؟ هذا إعلام سماوي لا أرضي، هذا إعلام إلهي.

وكان أبو سفيان كما تقدّم كثير المال كثير الجاه شيخ قريش وعزيزها في الجاهلية، فلما أسلم ذل للحق وانقاد له.

وكان عمر بن الخطاب شديداً عليه في الجاهلية في الحق والإسلام، بلغ من شدّته عليه ما خرج بعض أهل التواريخ أن رجلاً من بني مخزوم استعدى عمر بن الخطاب على أبي سفيان بن حرب رضي الله عنه، وذكر أنه ظلمه حداً في موضع كذا وكذا، فقال عمر: إني لأعلم الناس بذلك، وربما لعبت أنا وأنت فيه ونحن غلمان، فإذا قدمت مكة فأتني بأبي سفيان، فلما قدم مكة أتاه المخزومي بأبي سفيان، فقال له عمر: يا أبا سفيان انهض بنا إلى موضع كذا وكذا، فنهضوا، ونظر عمر رضي الله عنه فقال: يا

أبا سفيان خذ من هذا الحجر من هاهنا فضعه هاهنا فقال: والله لا أفعل، فقال عمر: والله لتفعلن، فقال: لا أفعل، فعلاه عمر بالدرّة وقال: خذه لا أم لك فضعه هاهنا فإنك ما علمت قديم الظلم، فأخذ أبو سفيان الحجر ووضعه حيث قال عمر. ثم إن عمر استقبل القبلة فقال: اللهم لك الحد إذ لم تمتني حتى غلبت أبا سفيان على رأيه، وأذللته بالإسلام، فاستقبل أبو سفيان القبلة وقال: اللهم لك الحمد إذ لم تمتني حتى جعلت في قلبي من الإسلام ما ذللت به لعمر.

وخرج الترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الحارث بن هشام وأبا سفيان ابن حرب وصفوان بن أمية، فأنزل الله عز وجل: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٢٨] الآية، قال: فتابوا بعد وحسن إسلامهم، وهاجر الحارث بن هشام إلى الشام، فلم يزل بها جاهداً مجاهداً حتى استشهد هنالك رضي الله عنه، والعذر لرسول الله صلى الله عليه وسلم في لعنة القوم المذكورين؛ أن الله علم منهم ما لم يعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما نهاه انتهى.

وأيضاً فإنه عليه الصلاة والسلام قال: إني اشترطت على ربي عز وجل فقلت: إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر وأغضب كما يغضب البشر، فأيما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل أن يجعلها له طهوراً وزكاة وقربة يقربه بها منه يوم القيامة. وفي حديث آخر: فأيما رجل من المسلمين سببته أو لعنته أو جلدته فاجعلها له زكاة ورحمة. والحارث بن هشام هذا هو الذي اعتذر من فراره يوم بدر، وقال:

القوم أعلم ما تركت قتالهم	حتى علوا فرسي بأشقر مزبد
وعرفت أني إن أقاتل واحداً	أقتل ولا ينكي عدوي مشهدي
فصددت عنهم والأحبة فيهم	طمعاً لهم بعقاب يوم مفسد

يقال: إنه لم يقل في الفرار أحسن من هذا، وأنشد ذلك بعض الأكاسرة، فلما فسر له قال: قاتل الله العرب حسنوا بشعرهم كل شيء حتى الفرار، أو كما قال.

وممن اعتذر من فراره أيضاً: هبيرة بن أبي وهب زوج أم هانئ أخت علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، هرب يوم فتح مكة إلى نجران وقال:

لعمري ما وليت ظهري محمداً ... وأصحابه جبناً ولا خيفة القتل
ولكنني قدّمت أمري فلم أجد ... لسيفي غناء إن ضربت ولا نبلي
وقفت فلما خفت ضيعة موقفي ... رجعت لعود كالهزبر أبي الشبل

قال خلف الأحمر: إن أبيات هبيرة خير في الاعتذار من قول الحارث بن هشام.

وقال الأصمعي: قول الحارث أحسن.

رجع: وأذكر لك حديثاً في سنده رجل اسمه خاخ: أخبرنا أبو الطاهر السلفي رضي الله عنه إجازة، قال: كتب إليّ أبو سعيد عبد الجليل بن محمد بن الحسن الساوي من بغداد قال: أنبأنا أبو عبد الله القضاعي قال: أنبأنا عمرو بن عثمان قال: حدّثنا الوليد بن مسلم عن مروان بن خاخ عن يونس بن ميسرة بن حابس: سمعت معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الخير عادة والشر لجاجة. وتقدّم جاخ وكان محسناً، وهو الذي يقول:

أهديت من شعري إليك قصيدة ... يبلى الزمان وذكرها متمادي
من شاعر لم يطلع أدباً ولا ... خطت بداه صحيفة بمداد

وكان يدّعي أنه أمي كما ترى، ولا أدري كيف هذا وهو الذي يقول:

وتحت البراقع مقلوبها ... تدب على صحن خدّ ندي

شبه انعطاف الصدغ على الخد بالعقارب تدب، وهو مقلوب البراقع، وهذا لا يعلمه إلا كاتب، ولعله أعلم بذلك فقاله، والله أعلم. وهذا البيت من قصيدة له منها:

ولما وقفنا غداة الفراق ... وقد أسقط البين ما بيدي
رأيت الظعائن فيها البدور ... عليها براقع من عسجد
وتحت البراقع مقلوبها ... تدب على صحن خدّ ندي
تسالم من وطئت خده ... وتلسع قلب الشجي الأبعد
تحامي عن الورد أن يجتني ... فقد أمن الورد من معتد

من قصيدة حسنة هذا ذوقها لم يمكن سوقها، فاقنعوا مني أيها الأقارب بما حضر وكونوا من تلكم العقارب على حذر.

وتقدّم قول سلمان الفارسي رضي الله عنه: كنت رجلاً من أهل جي، قال: وكان

أهل قريتي يعبدون الخيل البلق، فكنت أعرف أنهم ليسوا على شيء، فقيل لي: إن الدين الذي تطلب إنما هو قبل العرب. فلم يزل يطلب ذلك الدين من بلد إلى بلد حتى بيع، وتداولته بضعة عشر رجلاً كلهم يرسله من واحد إلى آخر، وكان آخر أمره أن انتهى إلى طيبة مدينة الإسلام، وصحب النبي عليه الصلاة والسلام، وكان له بها أعلام ومشاهد كرام. انظر حديثه في السيرة التي اختصر ابن هشام.

وكان سلمان مواخياً لأبي الدرداء رضي الله عنهما، وبلغه أن سلمان اشترى خادماً فكتب إليه: يا أخي إني حدّثت أنك اشتريت خادماً، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا يزال العبد من الله وهو منه ما لم يخدم، فإذا خدم وجب عليه الحساب، وإن أم الدرداء سألتني خادماً وأنا يومئذ موسر، فكرهت ذلك لما سمعت من الحساب، ويا أخي من لي ومن لك بأن نوافي يوم القيامة ولا نخاف حساباً.

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول: لا يزال العبد يزداد من الله بعداً كلما مشى خلفه. قلت: سلمان هذا رضي الله عنه وعظ فاتعظ، وحفظ فحفظ، عهد إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون بلاغ أحدهم من الدنيا كزاد الراكب.

حدّثني الحافظ رحمه الله بسنده إلى مورق العجلي أن سعد بن مالك وعبد الله بن مسعود دخلا على سلمان يعودانه وهو يبكي، فقالا: ما يبكيك يا أبا عبد الله؟ قال: عهد عهده إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحفظه أحد منا، قال: ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب. قال مورق: فنظروا في بيته فإذا إكاف وقرطاط قيمته عشرون درهماً. القرطاط للسرج بمنزلة الولية للرحل.

وقد كره اكتساب الخادم أيضاً أبو مسلم الخولاني، جاءت امرأة إلى زوجته فقالت لها: زوجك له منزلة من معاوية، فلو قلت له يسأل معاوية يخدمه ويعطيه عشتم، فلما جاء إلى امرأته قالت له: أنت لك منزلة من معاوية، وليس لنا خادم، فلو سألته لأخدمنا وأعطانا. فقال: اللهم من أفسد عليّ امرأتي فأعم بصره. فبينما المرأة التي وصلت امرأته جالسة في بيتها إذ أنكرت بصرها، فقالت: ما لسراجكم طفئ؟ فقالوا: لا، فعرفت ذنبها، فأقبلت إلى امرأة أبي مسلم تبكي وتسأله أن يدعو الله عز وجل أن يرد

بصرها إليها، قال فرحمها أبو مسلم ودعا الله عز وجل فردّ بصرها عليها.

والذي يقتدى به في هذا الشأن سيد الأولين والآخرين رسول رب العالمين، سكت سيدة النساء فاطمة ابنته رضي الله عنها ما تلقى من الشقاء، وكانت قد طحنت بالرحى حتى أثر في يدها، وكنست البيت حتى دنست ثيابها، وسألته من يكفيها ذلك، فلم يشكها.

خرج أبو نعيم الحافظ رحمه الله تعالى في كتاب الحلية عن علي رضي الله عنه أن فاطمة كانت حاملاً، وكانت إذا خبزت صادف حرف التنور بطنها، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم تسأله خادماً، فقال: لا أعطيها وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع، ألا أدلك على خير من ذلك؟ إذا أويت إلى فراشك تسبحين الله ثلاثاً وثلاثين وتحمدينه ثلاثاً وثلاثين وتكبرينه ثلاثاً وثلاثين. وذكر تمام الخبر. وتقدّم قول بكر بن النطاح:

بطل تناول فارسين بطعنة فرأيتموه أتى بذاك جليلا

يقوله في أبي دلف القاسم بن عيسى العجلي، وذلك أنه لقي أكراداً قطعوا الطريق في عمله، وقد ارتدف منهم فارس رفيقاً له، فطعنهما جميعاً فانتظمهما بطعنة، فقال بكر البيت المتقدّم، وبعده:

لا تعجبوا لو كان طول قناته ميلاً إذا نظم الفوارس ميلا

وتقدّم قوله تعالى: ﴿ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ [البلد: ٢] قال ابن عباس رضي الله عنهما: أحل الله له فيه القتل ولم يحله لأحد من الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقتل بها أحداً، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: إنما أحلت لي ساعة من نهار ثم عادت حرمتها كما كانت إلى يوم القيامة، أو كما قال عليه الصلاة والسلام. وأمر بقتل ابن خطل وإن وجد متعلقاً بأستار الكعبة، فقتل وقينتاه، وكان قد أمّن أهل مكة إلا نفراً سماهم، هذا أحدهم، والثاني: مقيس بن صبابة، قتل بالسوق. والثالث: عكرمة بن أبي جهل، هرب من مكة ثم جاء وأسلم وحسن إسلامه. والرابع: عبد الله بن أبي سرح، يكنى أبا يحيى، كان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فارتد ولحق بالمشركين، فلما كان يوم الفتح اختبأ حتى استؤمن له من رسول الله صلى الله

عليه وسلم فأمنه، وأسلم وحسن إسلامه، وعرف مكانه وجهاده مع عمرو ابن العاص حين افتتح مصر، وعبد الله هذا افتتح إفريقية سنة سبع وعشرين، وغزا الأساود وهادنهم الهدنة الباقية إلى اليوم.

ولما قام الناس على عثمان بن عفان رضي الله عنه اعتزل الفتنة ودعا الله عز وجل أن يقبضه ويجعل وفاته بإثر صلاة الصبح، فصلى بالناس يوماً الصبح وكان يسلم تسليمتين، فلما سلم الأولى عن يمينه وذهب ليسلم الأخرى قبضت نفسه رضي الله عنه، وذلك بعسقلان.

وممن توفي ساجداً أبو ثعلبة الخشني رضي الله عنه، كان يقول: إني لأرجو أن لا يخنقني ربي بالموت كما يخنقكم. قال الراوي لهذا الحديث: فسألت كيف مات، فقيل لي: بينما هو في صرحة داره سحراً وقال: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى مسجد بيته، فخرّ ساجداً حتى قبض رحمه الله. ذكر ذلك ثابت، وفيه: صرحة الدار، قال يقال: ساحة الدار وباحة الدار وصرحة الدار: كله واحد.

وروى بهز بن حكيم قال: صلى زرارة بن أوفى الغداة فقرأ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [المدثر: ٨-٩]، فخر مغشياً عليه، فحملناه ميتاً.

وتقدّم: حل، وجاء منه في الحديث أن رجلاً قال لبعيره: حل، فقال صاحب الحسنات: ما هي حسنة فأكتبها، وقال صاحب السيئات: ما هي سيئة فأكتبها، فأوحى الله إلى صاحب الشمال ما ترك صاحب اليمين فاكتبه، ذكره مكي في الهداية. وقال: عمرو بن الحارث: بلغني أن الرجل إذا عمل سيئة قال كاتب اليمين لصاحب الشمال: اكتب، فيقول: لا بل أنت اكتب، فيمتنعان، فينادي مناد لصاحب الشمال: اكتب ما ترك صاحب اليمين. ذكر هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧]. قال مجاهد: الذي عن اليمين يكتب الحسنات، والذي عن الشمال يكتب السيئات. قال سفيان: بلغني أن كاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات، فإذا أذنب قال له: لا تعجل لعله يستغفر. وفي رواية: إن الله جل ذكره جعل لصاحب اليمين على صاحب الشمال سلطاناً يطيعه، فإذا كان الليل قال صاحب اليمين

لصاحب الشمال: تعال ألاقك أطرح أنا حسنة واطرح أنت عشر سيئات، حتى يصعد صاحب السيئات لا سيئات معه.

وتقدّم ذكر حلحلة بن قيس سيد فزارة، وهو القائل حين قتل صبراً؛ في حديث طويل، لما قدم ليقتل، قال له قائل: صبراً يا حلحل، فقال: إي والله:

أصبر من ذي ضاغط عركرك ألقى بواني زوره للمبرك

ذكره ابن يزيد في الكامل، وذكر أن عبد الملك أحضر ليقاد منه، وكان قد قتل الأسود الكلبي، في خبر طويل، ثم قال حلحلة لابن الأسود: أجد الضربة، فإني والله ضربت أباك ضربة أسلحته، فعددت النجوم في سلحته.

وقال عبد الملك أيضاً لسعيد بن أبان بن عيينة بن حصن؛ وقد أحضره أيضاً كذلك: صبراً سعيد، وقال:

أصبر من عود بجنبيه جلب قد أثر البطان فيه والحقب

تقدّم قوله تعالى: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ﴾ [الحج: ٦١] أي: يدخل ما نقص من أحدهما في الآخر، والليل والنهار كل واحد منهما اثنا عشر ساعة، فإذا كمل الليل طالت ساعاته وقصرت ساعات النهار، وكذلك العمل في النهار، ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وذكر أبو طالب أن الليل والنهار أربعة وعشرون ساعة، وأن الساعة ثلاثون شعيرة، ويأخذ كل واحد منهما من صاحبه في كل يوم شعيرة، حتى تستكمل الساعة في شهر، وبين أوّل الشهر وآخره ثلاثون درجة، كل يوم في درجة. قال: وتفسير ذلك أنه إذا مضى من أيلول، وهو شينير بالعجمية، سبعة عشر يوماً؛ استوى الليل والنهار. ثم يأخذ الليل من النهار من ذلك الشهر في كل يوم شعيرة حتى يستكمل ثلاثين يوماً، فتزيد ساعة حتى يمضي سبعة عشر يوماً من كانون الأوّل، فينتهي طول الليل وقصر النهار، فكانت تلك الليلة أطول ليلة في السنة، وهي خمس عشرة ساعة، وكان ذلك اليوم أقصر يوم في السنة، وهو تسع ساعات. ثم يأخذ النهار من الليل كل يوم شعيرة، حتى إذا مضت سبع عشرة ليلة من أدار، وهو مارس، استوى الليل والنهار، وكان كل

واحد منهما اثنتي عشر ساعة. ثم يأخذ النهار من الليل كل يوم شعيرة، حتى إذا مضى سبعة عشر يوماً من حزيران، وهو يونية بالعجمية، كان نهاية طول النهار وقصر الليل، فيكون النهار يومئذ خمس عشرة ساعة والليل تسع ساعات. ثم ينقص من النهار كل يوم شعيرة، حتى إذا مضت تسع عشرة ليلة من أيلول استوى الليل والنهار. ثم يعود الحساب على ذلك.

والقول الأوّل أدخل في الشرع، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في يوم الجمعة: من راح في الساعة الأولى فكأنما قرّب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكذا، ومن راح في الساعة الثالثة فكذا، على تجزئة ست ساعات في النهار، فلو كان على هذا الحساب الأخير لامتد وقت الجمعة إلى قرب العصر.

ويمكن الجمع بين المذهب الأوّل والآخر، بأن يكون هذا على تقدير اليوم القصير من اليوم الطويل، واليوم الطويل من اليوم القصير، قاله بعض الناس، والله أعلم. وذلك لبعد الشمس عن بعض البلدان وقربها من بعض، وارتفاع بعض الأرض على غيرها، ألا تراها في البلاد التي هي في خط الاستواء كيف يستوي فيها الليل والنهار أبداً؟ لا يختلف في شتاء ولا صيف، كل يوم اثنتا عشرة ساعة والليل كذلك، وذلك في مثل أرين وسرنديب، وخط الاستواء آخذ من البحر المحيط على وسط بلاد السودان وبلاد النوبة إلى جزائر الهند إلى أقصى المشرق حيث تطلع الشمس، والله أعلم. فسبحان المقدّر العظيم.

وقد ذكر الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق الأصبهاني رحمه الله في كتاب الحلية عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور السماوات والأرض من نور وجهه، كان مقدار كل يوم من أيامكم هذه عنده ثنتا عشرة ساعة، فتعرض عليه أعمالكم بالأمس أوّل النهار فينظر فيها ثلاث ساعات، ويسبحه ويسجد حملة العرش وسرادقات العرش والملائكة المقربون وسائر الملائكة. ثم ينفخ جبريل عليه السلام بالقرن فلا يبقى شيء إلا سمع صوته، فيسبحون الرحمن ثلاث ساعات، حتى يمتلئ الرحمن رحمة، فتلك ست ساعات. ثم يؤتى بالأرحام فينظر فيها ثلاث ساعات، وهو قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى

ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٦] ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠] الآيتان، فتلك تسع ساعات. ثم يؤتى بالأرزاق فينظر فيها ثلاث ساعات، وهو قوله: ﴿ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الرعد: ٢٦]، ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩]، قال: هذا من شأنكم وشأن ربكم عز وجل.

وقد اختلف العلماء أيضاً في الساعات المذكورة يوم الجمعة: فمذهب مالك وغيره أن الساعات التي ذكرت في الحديث إنها أجزاء في الساعة الرابعة من ساعات النهار، وهو أدخل في كلام العرب لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثم راح، والرواح لا يكون في السحر ولا في أوّل النهار، على اختلاف في ذلك أيضاً. ويحتج له بقوله عليه الصلاة والسلام: مثل المهجر الذي يهدي بدنة، والتهجير لا يكون أول النهار لأنه مأخوذ من الهجير وهي القائلة، والله أعلم.

ومنهم من رآها ساعات النهار المعلومة، وهو مذهب جماعة من العلماء، وتمسك قائل هذا بذكر تسمية الساعات وتجوّز في لفظ التهجير والرواح، حتى كان بعضهم يبيت ليلة الجمعة في الجامع لأجل صلاة الجمعة، وربما بات أيضاً ليلة السبت، وذلك والله أعلم من أجل الحديث الآخر: لا تخصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي، ولا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام. وهذا أيضاً قد اختلف فيه، فأجازت ذلك طائفة وكرهته طائفة.

ومن الناس من كان يصلي الصبح يوم الجمعة في الجامع ويقعد فينتظر صلاة الجمعة، وعامة المؤمنين كانوا ينحرفون من صلاة الغداة من مساجدهم فيتوجهون إلى جوامعهم. ويقال: أوّل بدعة حدثت في الإسلام ترك البكور إلى الجوامع. قال: وكنت ترى يوم الجمعة سحراً وبعد صلاة الفجر الطرقات مملوءة من الناس يمشون في السرج ويزدحمون فيها إلى الجامع، كما ترون اليوم في الأعياد.

ويروى أن ابن مسعود رضي الله عنه بكر يوماً إلى الجمعة، فرأى ثلاثة نفر قد سبقوه للبكور، فوجم لذلك وجعل يقول: رابع أربعة، يعني نفسه، وما رابع أربعة ببعيد.

وكذلك كانوا يفعلون في الاغتسال للجمعة، حتى جعله بعضهم واجباً وجوب الفرائض، حتى رأى بعض الصحابة ابنه يغتسل يوم الجمعة فقال: أللجمعة غسلك هذا؟ قال: لا بل من جنابة، فقال: أعد غسلك ثانياً، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: واجب على كل مسلم أن يغتسل يوم الجمعة. قال: وكان أهل المدينة يتسابون فيما بينهم فيقولون: لأنت شرّ ممن لا يغتسل يوم الجمعة.

وهذا أيضاً قد اختلف فيه، فجعل بعضهم قوله عليه الصلاة والسلام: واجب كغسل الجنابة، يعني في الصفة، وحمل الوجوب على وجوب السنن، وحجتهم قول عمر بن الخطاب لعثمان بن عفان رضي الله عنهما: الوضوء أيضاً. وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر بالغسل، فالغسل عندهم على الندب، ولولا ذلك لما صح لعمر أن يترك عثمان حتى يرده فيغتسل، ولما ساغ لعثمان أيضاً أن يترك الغسل، والله أعلم.

وتقدّم أيضاً الخل الصاحب، والخليل فوق الحبيب، والخلة مأخوذة من تخلل الأسرار بين الحبيبين، ومعهما يكون حقيقة الحب والإيثار، فكل خليل حبيب وليس كل حبيب خليلاً. وقد رفع الله نبيه صلى الله عليه وسلم في مقام المحبة فأعطاه الخلة ليلحقه بمقام إبراهيم عليهما الصلاة والسلام أبيه، إذ يقول الله فيه: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥]، فكانت الخلة مزيد المحبة. وجاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم صعد المنبر مستبشراً فقال: ألا إن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، فأنا حبيب الله وأنا خليل الله. وقال: لو كنت متخذاً من الخلق خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله. وفي رواية أخرى: ولكن أخي وصاحبي. وفي رواية أخرى: ولكن أخوّة الإسلام. فلما اتخذه الله خليلاً لم يصلح أن يشرك في خلة الخالق خلة خلق، ثم قال: ولكن أخوّة الإسلام، فأوقفه مع الأخوّة كما فعل بعلي رضي الله عنه، إذ قال: علي مني بمنزلة هارون من موسى إلا النبوّة، فأقامه مقام الإخاء وعدل به عن النبوّة. وكذلك فعل بأبي بكر رضي الله عنه، منعه إيثار التوحيد وقيام شهادة الوحدانية ومقتضى صفة الربوبية والغيرة على خليله وهو ربه

تبارك وتعالى من أن يشرك معه أحداً في هذه التسمية.

وجاء مفسراً في حديث آخر: لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً. وفي حديث آخر: وإن صاحبكم خليل الله. وفي حديث آخر: وقد اتخذ الله صاحبكم خليلاً. وفي القرآن: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥].

واختلف العلماء في اشتقاق هذه اللفظة، فقال قوم: الخليل: المنقطع إلى الله تعالى الذي ليس في انقطاعه إليه ومحبته له اختلال. وقال آخرون: هو مأخوذ من الخلة، وهي: الحاجة، فسمي بها إبراهيم عليه السلام لأنه قصر حاجته على ربه وانقطع إليه، ولم يجعلها قبل غيره، إذ جاءه جبريل عليه السلام وهو في المنجنيق ليرمى به في النار، فقال: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا. وقال قوم: الخلة مشتقة من صفاء المودّة التي توجب الاختصاص لتخلل الأسرار. وقال بعضهم: أصل الخلة المحبة، ومعناها: الإسعاف والإلطاف والترفيع والتشفيع. وقد بيّن ذلك في كتابه تعالى بقوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ [المائدة: ١٨]، فأوجب للمحبوب أن لا يؤاخذ بذنوبه، قال هذا القائل: والخلة أقوى من البنوّة، لأن البنوّة قد تكون فيها العداوة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾ [التغابن: ١٤]، ولا تكون عداوة مع خلة، فإذاً تسمية محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام بالخلة؛ إما بانقطاعهما إلى الله تعالى ووقف حوائجهما عليه والانقطاع عمن دونه والإضراب عن الوسائط والأسباب، أو لزيادة الاختصاص منه تعالى لهما، وخفي ألطافه عندهما باستصفاء قلوبهما عمن سواه، حتى لم يخاللهما حب لغيره. وحب الله تعالى للعبد هو تمكينه من سعادته وعصمته وترفيعه وتوفيقه وتهيئة أسباب القرب وإفاضة رحمته عليه. وقد تقدّم نوع من هذا الكلام في باب تاب، وقد ذكرت فيه مقطوعة من شعري في صفة المحبة والحمد لله.

وكفى شرفاً لنبينا عليه أفضل الصلاة والسلام قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ

﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]. وكفى بنا عزاً أن هذه صفة نبينا عليه الصلاة والسلام، فالحمد لله الذي جعلنا من أمته، ثبتنا الله على محبته، وحشرنا في زمرته برحمته.

وقال بعض العلماء: هذه الآية أمدح آية لمحمد عليه الصلاة والسلام، لأنه قال: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، بل جرّده من ذلك، فقال: ﴿يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾، فهذه غاية الشرف ونهاية الترفيع، صلى الله عليه وسلم. وقال غيره: ومن رفيع مدحه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ١-٤] أي: إذا ذكرت ذكرت معي، وذلك أن الإيمان لا يتم إلا بقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وكذلك قرن مع اسمه في الأذان وفي التشهد وفي كثير من الأذكار، وليس ذلك لغيره. وقال ثابت رحمه الله في قوله تعالى: ﴿أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: ٣] أي: أثقله حتى سمع نقيضه، تقول: أنقضت بالرجل، إذا ألصقت طرف لسانك بالغار الأعلى ثم تصوّت بجانبه من غير أن ترفع طرفه عن موضعه.

وجاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ذهبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يهود بني قينقاع نتدارسهم، فرأى رجلاً متخلقاً، فأنقض، أو قال: فنقض به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله لعله عروس، قال: وإن كان فاذهب فاغسله ثم انهكه ثم اغسله ثم انهكه ثم اغسله ثم انهكه، والنهك: المبالغة.

ويقال: إنما سمي إبراهيم عليه الصلاة والسلام خليلاً لفظة قالها، وذلك أنه أصاب أهل ناحيته جدب، فارتحل إلى خليل له بالموصل، وقيل: هو من أهل مصر، يمتار طعاماً منه، فلم يصب عنده حاجته، فرجع، فلما قرب من أهله مر بمفازة فيها رمل، فقال: لو ملأت غرائري من هذا الرمل لئلا أغم أهلي بدخولي إليهم بغير ميرة، وليظنوا أني قد أتيتهم بما يحبون، فحوّل الله تعالى ما في غرائره من الرمل دقيقاً، فعجنوا منه وخبزوا، واستيقظ فسألهم عن الدقيق الذي خبزوا: من أين هو؟ فقالوا: من الدقيق الذي جئت به من عند خليلك، فعلم ما صنع الله له، فقال: نعم من عند خليلي،

فسماه الله بذلك خليلاً.

وتقدّم في الحديث: ما أقفر بيت فيه خل، فسمي الخل إداماً. قال أبو عبيد: من حلف أن لا يأكل إداماً، فأكل بعض ما يصنع مثل الخل والزيت والأري واللبن، فهو حانث.

وعن طلحة بن نافع أنه سمع جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في حديث فيه طول: إن الخل نعم الإدام. قال جابر: فما زلت أحب الخل منذ سمعتها من في نبينا صلى الله عليه وسلم. قال طلحة: فما زلت أحب الخل منذ سمعتها من جابر، خرجه مسلم.

وفي بعض طرقه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل به بعض حجر نسائه ثم قال: هل من غذاء؟ فقالوا: نعم، فأتي بثلاثة أقرصة فوضعت على بتي، ويروى: على بني، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قرصاً فوضعه بين يديه، وأخذ قرصاً آخر فوضعه بين يديّ، ثم أخذ الثالث فكسره باثنين، فجعل نصفه بين يديه ونصفه الآخر بين يديّ، ثم قال: هل من إدام؟ قالوا: لا إلا شيء من خل، قال: هاتوه فنعم الإدام هو. كذا وقع في هذا الحديث: بتي، وعليه مكتوب: نبي.

وفي الطرة في مسند ابن أبي شيبة: فوضعن على بتي، وفسره ابن وضاح: طبق من خوص. وقال أيضاً: مائدة من حلفاء. انتهت الطرة، وقد تقدم. والبت: كساء غليظ، وقد تقدّم أيضاً، وأنشد:

من يك ذا بت فهذا بتي مقيظ مصيف مشتي
تخذته من نعجات ست سود دعاج من نعاج الدست

وخرج مسلم أيضاً عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الخمر يتخذ خلاً، فقال: لا. وسئل مالك رحمه الله عن تخليل لخمر، فكرهه، فإن تخللت من غير فعل أحد فهي حلال.

وبقي هنا نكتة حسنة: إن كان في إناء قلة أو خابية فلا يستسقى من أعلاها، لأن جوانبها نجسة، فمتى تحرك الخل بالاستقاء مس في الجوانب فتنجس، ولكن يثقب في أسفل الخابية برفق ويستخرج منه. قال مالك: ولا بأس بما خلله النصراني من الخمر،

فإن فعله مسلم ففيها قولان والأحوط تركه. وللحريري رحمه الله في رجوع الخمر خلاً شعر لغز يستحلى ولا ينبغي أن يخلى، قال:

وما شيء إذا فسدا تحوّل غيه رشدا
وإن هو رق أوصافا أثار الشرّ حين بدا
زكيّ الأصل والده ولكن بئسما ولدا

وتقدّم: إن لم يكن خمر فخل. وأنشدني الحافظ رحمه الله بالإسكندرية لبعضهم:

أوسع داري لمن قد نزل وزادي مباح لمن قد أكل
أقدم حاضر ما عندنا وإن لم يكن غير زيت وخل
وليس قراي كما قلته ولكنما هو ضرب المثل

ولي في لفظة خل أبيات لزوميات كان أحد أصحابي قد أرسل معي بقلات ثمانية، فاحتجنها فغرستها، وكتبت إليه بعد كلام:

ثمانية الأبقال إني غرستها فبارك لنا في تلك يا أيها الخل
ولا تعقب الإحسان منك إساءة فيضحي لذيذ الشهد خالطه خل
فما لك لي حل لأنك لي خل صحيح وبعض الناس في وده خل
وأنت امرؤ قد رام شأوك معشر وشدوا فلم يترك سبيل ولا خل
ففتهم حتى يقول أشدّهم أيا قومنا خلوا الطريق له خلوا
فتى يمتطي من أكرم النجب بازلاً تريدون أن تلفوا ومركوبكم خل

الخل: ابن مخاض، وقد تقدّم.

وتقدّم ذكر مصعب بن عمير رضي الله عنه، وهو الذي قتل يوم أحد فلم يوجد له ثوب يكفن فيه إلا غرة، إذا غطي بها رأسه بدت رجلاه، وإذا غطيت رجلاه بدا رأسه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: غطوا بها رأسه واجعلوا على رجليه من الإذخر.

ولي فيه من الشعر الطويل:

ومصعب مات لم يوجد لديه من الأكفان بال أو جديد
سوى ثوب ولم يستره حتى كسوه بإذخر لهم خضيد

وتقدّم قول أبي شجرة:

أقبلـــتها الخـــل مـــن شـــوذان صـــادرة

وكان سبب قوله ذلك أنه جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يقسم على الناس، فقال: يا أمير المؤمنين أعطني، فإني ابن سبيل، قال: فمن أنت؟ قال: أبو شجرة، قال: يا عدوّ الله ألست القائل:

وروّيـت رمحـي مـن كتيبة خالـد وإنـي لأرجـو بعـدها أن أعمـرا

ثم علاه بالدرة حتى سبقه عدواً، فأتى راحلته فركبها راجعاً إلى بلاده وهو يقول:

قـد ضنّ علينا أبـو حفـص بنائله وكـل مختـبط يـوماً لـه ورق
مـا زال يـضربني حتـى حـديت لـه وحال من دون بعض الرغبة الشفق
ثـم ارعـويت لهـا وهـي جاثـية مـثل الـرتاج إذا مـا لـزه الغلـق
أقبلـتها الخـل مـن شـوذان صـادرة إنـي لأزري علـيها وهـي تـنطلق
وكـدت أتـرك أثوابـي وراحلتـي والـشيخ يـضرب أحـياناً فيـنمحق

خرجه ثابت رحمه الله.

أذكرتني هذه الحكاية من فعله رضي الله عنه بضبيع، كان ضبيع رجلاً اتهم برأي أهل الأهواء، وكان يسأل عن آي من كتاب الله عز وجل مثل: والذاريات، والمرسلات، والنازعات وما أشبههن من القرآن، وكان يأمر الناس بالتفقه في ذلك، وإنه قدم على عمرو بن العاص رضي الله عنه بمصر فسأله عن ذلك، فقال له عمرو: أنا أدلك على من يفتيك في مسائلك هذه، أنا أكتب لك إلى أمير المؤمنين، فكتب له إلى عمر وأرسل معه رسولاً بالكتاب. وسار ضبيع مع الرسول، فدخل الرسول على عمر رضي الله عنه، فلما قرأ الكتاب أوعده إن فاته، فخرج الرسول فأتاه به، فقال: ما الذي تسأل عنه؟ فسأله عن: والذاريات، والنازعات، والمرسلات، فضربه بجرائد النخل حتى أوبر جسده ثم حبسه، حتى إذا كاد أن يبرأ أخرجه أيضاً ثم ضربه ثم سجنه، ففعل به ذلك مراراً، فقال له ضبيع عند آخر ذلك: يا أمير المؤمنين إن كنت تريد قتلي فقتل جميل، وإن كنت تريد دوائي فقد بلغني الدواء، قال: فأطلقه عمر ونفاه إلى العراق، وكتب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن لا يجالسه أحد. قال: فكان ضبيع يدور في المسجد ويجلس فيه ولا يجلس إليه أحد. قال: ثم كتب أبو موسى إلى عمر: إنه قد حسنت توبته، فأمره

عمر فخلى بينه وبين الناس.

خرجت من شيء إلى غيره ... لكن عن العلم فلن أخرجا
ما أملح العلم إذا كنت في ... ضيق تراه عنك قد فرّجا
ومن يكن واسع علم متى ... يخطئ يجد من قوله مخرجا

إلى هنا تم الجزء الأوّل من ألف با، ويليه الجزء الثاني وأوّله: باب الألف مع الدال وأختها.

فهرس المحتويات

KITĀB ALIF BĀᵓ

by

Abu al-Ḥajjāj al-Balawi

Edited by

Ḫālid ᶜAbdul-Ǧani Maḥfūẓ

Volume I

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKi
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban